الإحاطة
في أخبار غرناطة

لذي الوزارتين لسان الدين بن الخطيب

حقق نصه ووضع مقدمته وحواشيه

محمد عبد الله عنان

المجلد الرابع

الناشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة

الطبعة الأولى

١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م

القاهرة

الشركة المصرية للطباعة والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا هو المجلد الرابع والأخير من كتاب « الإحاطة فى أخبار غرناطة »، نختتم به بحمد الله ، هذه الموسوعة الأندلسية الكبرى .

ويضم هذا المجلد بقية السفر العاشر من « الإحاطة » إبتداء من ترجمة (عبد المهيمن بن محمد بن عبد المهيمن بن محمد الحضرمى) ، الواردة فى اللوحة 276 إسكوريال . وينتهى هذا السفر فى اللوحة 337 إسكوريال بترجمة (على بن عبد الله بن محمد بن يوسف الأنصارى) . محتوياً على أربع وخمسين ترجمة. ويتلوه السفر الحادى عشر فى اللوحة 338 إسكوريال مبتدئاً بترجمة (عمر بن على ابن غفرون الكلبى) ، ومنتهياً فى اللوحة 415 إسكوريال بترجمة (يحيى بن محمد بن يوسف الأنصارى) المعروف بابن الصيرفى ، ومحتوياً على خمس وستين ترجمة . ثم يتلوه السفر الثانى عشر والأخير فى اللوحة 420 إسكوريال ، مبتدئاً بترجمة (يحيى بن محمد بن أحمد بن عبد السلام التطيلى الهذلى) ومنتهياً فى اللوحة 424 بترجمة (يحيى بن إبراهيم بن يحيى البرغواطى) ، ومحتويا على ثمان تراجم فقط ، وهو بذلك يعتبر أصغر أسفار « الإحاطة » . وبه يختتم كتابه الإحاطة بعبارة : « كمل كتاب الإحاطة » فى بداية اللوحة 425 إسكوريال ، محتوياً فى مجلداته الأربعة على أربعمائة وثلاث وتسعين ترجمة ، وعلى عشرات الوثائق التاريخية ، والرسائل والظهائر السلطانية ، الأندلسية والمغربية ، ومئات القطع من مختار المنظوم والمنثور .

ثم تبدأ بعد ذلك ترجمة ابن الخطيب لنفسه ، فى قسم مستقل ، مبتدئاً باللوحة 425 إسكوريال ، ويفتتحه ابن الخطيب بقوله « يقول مؤلف هذا الديوان ، تغمد الله خطله فى ساعات أضاعها . وشهوة من شهوات اللسان أطاعها ، وأوقات للاشتغال بما لا يعنيه ، استبدل بها اللهو لما باعها » ومنتهيا باللوحة 500 ، تتبعها لوحة أخرى 501 ، وبها قصيدة أوردناها تتمة لختام المخطوط .

وقد رجعنا فى تحقيق هذا المجلد الأخير من « الإحاطة » إلى المخطوطات الآتية :

أولا — مخطوط « المكتبة الزيدانية » المحفوظ بمكتبة دير سان لورنزو بالإسكوريال برقم ١٦٨٨ الغزيرى ، ورقم ١٦٧٣ ديرنبور .

ثانياً — مخطوط جامع الزيتونة بتونس ، المحفوظ الآن بدار الكتب الوطنية التونسية . الجزء الثالث ؛ ويحمل رقم 8136 .

ثالثاً — مخطوط السفر الثالث من كتاب « نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب » المحفوظة بخزانة الرباط العامة برقم 256 ك (المكتبة الكتانية) .

رابعاً — مخطوط كتاب « ريحانة الكتاب » المحفوظ بمكتبة الإسكوريال برقم 1825 الغزيرى ، وكذلك مخطوط « الريحانة » المحفوظ بالخزانة الملكية بالرباط برقم 2195 .

واعتمدنا فى المراجعة والتحقيق ، إلى جانب هذه الأصول المخطوطة ، على عدة من المراجع الجامعة ، مثل « نفح الطيب » و« أزهار الرياض » للمقرى ، و« الذيل والتكملة » للقاضى ابن عبد الملك المراكشى ، و« جذوة الاقتباس » لابن القاضى ، و« التعريف بابن خلدون » ، و« صبح الأعشى » لأبى العباس القلقشندى وغيرها .

ويمتاز هذا المجلد الرابع والأخير من « الإحاطة » بأمرين ، الأول بالاستيعاب والتبسط فى التراجم الواردة به ، حيث تشغل تراجمه المائة سبع وعشرون ، مائة وخمسين لوحة مزدوجة من المخطوط ، أعنى ثلاثمائة صفحة حاشدة منه ، وهو ما لم يتوفر فى المجلد الثالث حسبما سبق أن شرحناه فى مقدمته . والثانى باحتوائه على عدد كبير من التراجم الهامة سواء ، من رجال التفكير والأدب ، أو من رجال التاريخ .

ويمكننا أن نذكر من رجال الصنف الأول ، عبد المهيمن الحضرمى ، وعبد الحق بن سبعين العكى ، وابن الباذش الأنصارى ، والإمام ابن حزم القرطبى (على بن أحمد بن سعيد) ، وابن الجياب (على بن محمد بن سليمان الأنصارى) ، والقاضى عياض بن موسى اليحصبى ، وأبوالربيع بن سالم (سليمان بن موسى) ويحيى بن هذيل التجيبى .

ومن رجال الصنف الثانى ، عمر بن حفصون ، وعلى بن حمود الحسنى ، وعلى بن يوسف بن تاشفين ، وسوار بن حمدون بن عبده ، وسليمان بن الحكم ابن سليمان بن عبد الرحمن الناصر ، وسليمان بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، ويحيى بن على بن غانية الصحراوى ، ويوسف بن تاشفين ، ويوسف بن عبد المؤمن بن على ، ويوسف بن يعقوب بن عبد الحق ، وعدة من أمراء بنى نصر ملوك غرناطة ، منهم السلطان يوسف أبو الحجاج ، وولده محمد الغنى بالله . وقد خص ابن الخطيب هذه المجموعة من رجال التاريخ الأندلسى والمغربى بتراجم قوية ، تغلب عليها الصبغة التاريخية النقدية . وضمنها كثيراً من الوقائع والوثائق ، التى يجد فيها المؤرخ مادة غزيرة نفيسة .

وأما عن الترجمة التى خص بها ابن الخطيب نفسه ، والتى تلت السفر الثانى عشر من «الإحاطة» ، فهى فى الواقع ترجمة موجزة . ولكن بليغة قوية ، تتناول نسبه ، ونشأته ، وحياته العامة ، وتقلده الوزارة للسلطان يوسف أبى الحجاج ثم لولده الغنى بالله ، ونكبته حينما وقعت الثورة وفقد الغنى بالله عرشه ، وهجرته إلى المغرب ، وانضواءه تحت حماية سلاطينه . ثم عوده إلى تولى الوزارة بعودة الغنى بالله إلى ملكه فى سنة ٧٦٣ هـ ، وسيرته فى الوزارة بمنتهى الإيجاز ، ثم مشيخته ، ومؤلفاته ، وإيراده لمجموعة من عيون قصائده . ومنها عدة فى الأمداح النبوية ، وعدة كبيرة من المقطوعات الشعرية ، فى مختلف الإغراض . وعدد من الرسائل والمراسيم (الظهائر) التى صدرت إليه ، ورسائل عن بعض فتوح مليكه ، وبعض رسائل خاصة . ويختم ابن الخطيب ذلك كله بإيراد المقامة التى وضعها فى «السياسة» وبها يختتم مخطوط الإسكوريال .

بيد أنه قد فات ابن الخطيب ، أن يحدثنا فى ترجمته عن جهوده السياسية ، وقد تولى تدبير شئون مملكة غرناطة ، وتوجيه سياستها زهاء ثمانية أعوام متواصلة . وقد كان بوسعه أن يقدم إلينا أضواء كثيرة عن علائق مملكة غرناطة ، بجارتها الكبيرة مملكة قشتالة النصرانية ، وقد كان السلام يسود بين المملكتين طوال اضطلاعه بأعباء الوزارة . وما من شك فى أن ذلك كان راجعاً إلى جهوده السياسية فى مهادنة مملكة النصرانية ، وخطب ودها . أما عن سياسة مملكة غرناطة

إزاء المغرب وسلاطين بنى مرين ، فقد تناولها ابن الخطيب فى العديد من رسائله السلطانية ، وشرح لنا الكثير من جوانب اعتمادها على نصرة المغرب . ونزعة سلاطينه فى احتضان قضية الأندلس ، واعتبارها نوعاً من الجهاد . وقد ألقت الرسائل التى تضمنها كتابه «نفاضة الجراب» ، وكتابه «كناسة الدكان» الكثير من الضوء على هذه العلائق الأندلسية المغربية .

هذا وقد جرينا فى هذا المجلد الختامى لكتاب «الإحاطة» على نفس الأسلوب الذى اتبعناه فى المجلدات السابقة ، من التعريف بالأعلام الجغرافية والتاريخية الواردة به ، أو الإحالة على ما تم التعريف به منها فى المجلدات السابقة ، وذلك نظراً لسبق التعريف بالكثير منها ، وتحاشى التكرار فى ذلك .

وإنا لنرفع إلى المولى القدير أكف الضراعة والحمد ، إذ وفقنا إلى إخراج هذه الموسوعة الأندلسية الكبرى ، بعد أن بذلنا فى إعدادها وتحقيقها جهوداً شاقة ، استمرت أعواماً طويلة فى مدريد والإسكوريال والرباط وفاس وتونس والقاهرة ، راجين أن تكون ذخيرة جليلة بين أيدى طلاب البحوث الأندلسية والمغربية .

القاهرة فى ١٦ شوال سنة ١٣٩٦
الموافق ١٠ اكتوبر سنة ١٩٧٦

محمد عبد الله عنان

رموز المخطوطات

نشير إلى المخطوطات التى رجعنا إليها فى تحقيق هذا المجلد الرابع من «الإحاطة» فى حواشى الكتاب على النحو الآتى :

١ ــ مخطوط مكتبة دير الإسكوريال المحفوظ برقم ١٦٨٨ الغـزيرى ، ورقم ١٦٧٣ ديرنبور ، ونرمز له بكلمة « الإسكوريال » .

٢ ــ مخطوط جامع الزيتونة بتونس المحفوظ الآن بدار الكتب الوطنية ، برقم 8136 (الجزء الثالث) ونرمز له بكلمة « الزيتونة » .

٣ ــ مخطوط كتاب « ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب » ، المحفوظ بمكتبة دير الإسكوريال برقم 1825 الغزيرى . وكذلك مخطوط نفس الكتاب ، المحفوظ بالخزانة الملكية بالرباط برقم 2195 ، ونرمز له بكلمة « الريحانة » .

٤ ــ مخطوط السفر الثالث من كتاب « نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب » المحفوظ بخزانة الرباط العامة برقم 256 ك ، ونرمز له بكلمة « النفاضة » .

الإحاطة
في أخبار غرناطة

المجلد الرابع

ومن الغرباء

عبد المهيمن بن محمد بن عبد المهيمن بن محمد بن على بن محمد بن عبد الله بن محمد الحضرمى

يكنى أبا محمد ، شيخنا الرئيس صاحب القلم الأعلى بالمغرب .

حـــاله

من « عائد الصلة » : كان رحمه الله خاتمة الصدور، ذاتاً وسلفًا وتربية وجلالة . له القِدْح المغلَّى فى علم العربية، والمشاركة الحسنة فى الأصلين ، والإمامة فى الحديث ، والتّبريز فى الأدب والتاريخ واللغة ، والعَروض والمُماسة فى غير ذلك . نشأ فارس الحَلْبة ، وعروس الوليمة ، وصدر المجلس ، وبيت القصيد ، إلى طيب الأبُوّة . وقِدَم الأصالة ، وفضل الطُّعمة ، ووفور[1] الجاه ، والإغراق فى النّعمة . كثير الاجتهاد والملازمة ، والتفنُّن والمطالعة ، مقصور الأوقات على الإفادة والاستفادة ، إلى أن دعته الدولة المرينيّة بالمغرب ، إلى كتابة الإنشاء ، فاشتملت عليه اشتمالا ، لم يفضُل عنه من أوقاته ، ما يلتمس فيه ما لديه . واستمرت حاله ، موصوفا بالنّزاهة والصّدق ، رفيع الرُّتبة ، مَشِيد الحُظوة ، مشاركا للضيف فاضلا . مُختَصر الطُّعمة والحِلْية ؛ يغلب عليه ضَجر يكاد يُخلُّ به ، متصل الاجتهاد والتّقييد ، لا يَفْتَر له قلم ، إلى أن مضى بسبيله .

وجرى ذكره فى « الإكليل الزاهر » من تأليفنا مما نصه : تاج المَفْرِق وفخر المغرب على المشرق . أطْلع منه نور أضاءت الآفاق . وأثْرَى منه

(١) وردت و الإسكوريال (ووفوه) وهو تحريف اقتضى التصويب

بذخيرة حَمَلت أحاديثها الرِّفاق . ما شِيت من مجد سامى المصاعد والمرَاقِب ، عزيز عن لحاق المجد الثَّاقب ، وسَلَفٍ زُيِّنت سماؤه بنجوم المناقب . نشأ بسَبْتة بين علم يُفيده ، وفخر يُشيده ، وطهارة يَلْتحف مَطارفَها ، ورياسة يتفيَّأُ وارِفَها ، وأبوه رحمه الله قُطْب مدارها ، ومُقام حجِّها واعْتِمارها ، فسلك الوُعوث من المعارف والسُّهول ، وبذَّ على حداثة سنِّه الكهول ، فلما تحلَّى من الفوايد العلمية بما تحلَّى ، واشتهر اشتهار الصباح إذا تجلَّى ، تنافست فيه هِمَم الملوك الأَخاير ، واستَأْثرت به الدول على عادتها فى الاسْتِئثار بالذَّخاير ، فاستقلَّت بالسياسة ذراعه ، وأخدم الذوابل والسيوف يراعه ، وكان عَيْن المَلِك التى بها يُبصر ، ولسانه الذى به يُسهب أو يَختصر . وقد تقدَّمت له إلى هذه البلاد الوفادة ، وجلَّت به عليها الإفادة ، وكتب عن بعض ملوكها ، وانتظم فى عقودها الرَّفيعة وسلوكها ، وله فى الأَدب الرَّاية الخافقة ، والعقود المُتَناسقة .

مشيخته

قرأ ببلده [سبتة] على الأُستاذ الإمام أَبى إسحق الغافقى المَدْيونى ، وعلى الأُستاذ المُقرى أَبى القاسم محمد بن عبد الرحيم بن عبد الرحمن الطيِّب ، والأُستاذ النحوى أَبى بكر بن عُبيدة الإشبيلى ، وعلى الأُستاذ العارف أَبى عبد الله محمد بن عمر بن الدَّراج التِلمسانى ، وعلى ابن خال أَبيه الأَمير الصالح أَبى حاتم العَزَفى ، والعدل الرِّضا أَبى فارس عبدالرحمن ابن إبراهيم الجزيرى .

وقرأ بغرناطة على الشيخ العلامة أبى جعفر بن الزبير . وروى عن الوزير الراوية أَبى محمد عبد الله المرادى ابن المؤدن وعلى الأُستاذ أَبى بكر القللوسى . وأَخذ عن الشيخ الوزير أبى الوليد الحضرمى القرطبى . وبمالقة

عن الإمام الولى أبى عبد الله الطنَّجالى • وببلش عن الخطيب الصالح أبى جعفر بن الزيات ، وعن الخطيب أبى عبد الله بن شعيب المروى ، والعلامة أبى الحسين بن أبى الربيع ، وأبى الحكم بن منظور ، وابن الشّاط وابن رُشيد ، وابن خميس ، وابن بُرطال ، وابن ربيع ، وابن البنّا ، وسميه ابن البنّا المالقى ، وابن خميس النحوى ، وأبى أمية بن سعد السُّعود بن عُفير الأمدى . هؤلاء كلهم لقيهم وسمع منهم ، وأجازوا له ما عندهم . وممن أجاز له مشافهة أو مكاتبة من أهل المغرب ، الأُستاذ أبو عبد الله محمد بن عمر الأنصارى التلمسانى ابن الدراج ، والكاتب أبو على الحسين بن عتيق ، وتناول تواليفه ، والأديب الشهير أبو الحكم مالك بن المُرَحّل ، والشريف أبو عبد الله محمد بن يحيى بن أبى الشرف الحسينى ، وأبو بكر بن خليل السُّكونى ، وأبو العباس المطرى ، والجزّارى ، وشرف الدين بن معطى ، وابن الغمّاز ، وابن عبد الرفيع القاضى ، وأبو الشمل جماعة بن مهيب ، وأبو عبد الله محمد بن أحمد التُّجانى وأبناء عمه عمر وعلى ، وابن عَجْلان ، ومحمد بن إبراهيم القيسى السلولى ومحمد بن حماد اللبيدى ، وابن سيد الناس ، وابنه أبو الفتح ، وابن عبد النور ، والمومنانى ، والخطيب ابن صالح الكتّانى ، وابن عياش المالقى ، والمِشدالى ، وابن هرون ، والخلاسى ، والدبّاغ ، وابن سِماك ، وابن أبى السِّداد ، وابن رُزين ، وابن مَستقور ، وأبو الحسن بن فضيلة ، وأبو بكر بن مُحرز . وكتب له من أهل المشرق جماعة منهم : الأبرقيشى وابن أبى الفتح الشيبانى ، وابن حمادة ، وابن الطاهرى ، وابن الصابونى ، وابن تيْمية ، وابن عبد المنعم المفسر ، وابن شَيْبان ، وابن عساكر ، والرضى الطبرى ، وابن المخزومى ، وابن النحاس . قلت من أراد استيفاءهم

ينظر الأصل . فقد طال على استيفاء ما ذكره الشيخ رحمه الله وقد ذكر جماعة من النساء ، ثم قال بعد تمام ذلك ، ولو قصدنا الاستقصاء لضاق عن مجاله المتبع .

شـــعره

وشعره مُتخلٌ عن محلّه من العلم والشهرة ، وإن كان داخلا تحت طور الإجادة .

فمن ذلك قوله[1] :

تراءى سُحَيراً والنسيم عليــل … وللنجم طَرْفٌ بالصباح كليل

وللفجر بحر خاضه الليل فاعْتَلت … شَوَى أدهم الظلماء منه خجول

بُرَيق بأعْلَى الرقْمَتَين كأنــه … طلائع شهبٍ فى السواد تجول

فمزَّق ساجى الليل منه شرارة … وخرَّق سِتر الغَيم منه نُصول

تبسم ثغرُ الروض عنـد ابتسامه … وفاضت عيون للغمام هُمُول

ومالت غصون البان نَشْوى كأنها … يُدَار عليها من صباه[2] شَمول

وغنّت على تلك الغصون حمايمٌ … لهن حفيف فوقها[3] وهَديــل

إذا سَجعت فى لحنها ثم قرقرت … يطيح خفيفٌ دونهـا وثقيـل

سقى الله ربعـا لا تزال تشـوقنى … إليه رسوم دونــه وطلـــول

وجـاد رياه كلمـا ذر شــــارق … من الودق هتان أجشٌ هطـول

ومالى استسقى الغمـام ومدمعى … سفُـوحٌ على تلك الرِاص هَمُول

وعاذِلَة ظَلت[4] تلوم على السَّرى … وتكثر من تَعْذالهــا وتطيــل

---

(١) واضح من خلال القصيده أنه مديح من الشاعر للوزير لكاتب والشاعر الكبير ، ابن الحكيم الرندى .

(٢) وردت في الإسكو (ح) ، مصوب من سعح

(٣) هكذا وردت في الإسكوريال والنفح وفي نص آخر (دونها)

(٤) هكذا وردت في الإسكوريال وفي النفح (باتت)

تقول إلى كم ذا فـراقٌ وغُـربة ... ونـأْىٌ على ما خيَّلت ورحيـــل
ذرينى أسعى لنتى تُكسب العـلا ... سَناءً وتُبقى الذِّكر وهو جميل
فإما تَرينى من مُمَارسة الهـــوى ... نحيـــلا فَحدُّ المَشْرفى نحيـل
وفوق أنَابيب اليراعة صفرة[1] ... تَزين وفى قدٌ القناة ذبـــول
ولولا السُّرى لم يُجتَل البدرُ كاملا ... ولا بات منه للسُّعود نزيـل
ولولا اغتـراب المرء فى طلب العُلا ... لما كان نحو المجد منه وصول
ولولا نوال ابن الحكيم محمـد ... لأصبح رَبْعُ المجد وهو مُحيـل
وزير سما فـوق السِّماك جـلالةً ... وليس له إلاَّ النجـوم قَبيـل
من القوم أمَّا فى النَّدى فإنهم ... هِضاب وأما فى الندى فسيول
حَوَوْا شرف العلياء إرثًا ومَكْسِبًا ... وطابت فروع منهم وأصـول
وماجُونةٌ هطَّـالةٌ ذات هَيْـدَب ... مَرْتُها شمال مرجف وقبـــول
لهـــا زجَل من رعدهـــا ولوامــع ... من البرق عنهـــا للعيون كلول
كما هَدَرت وسط القِلاص وأرسلت ... شقاشِقَها عند الهيـــاج فحـول
بأَجْود من كفِّ الوزير محمـد ... إذا ما توالت للسِّنين محـول
ولولا روضة بالحسن[2] طيبة الشَّذا ... ينم عليها إذخِـرٌ وجليـــــل
وقد أُذكيت للزهــر فيها مَجامِر ... تعطَّر منهـــا للنسيم ذيـــول
وفى مُقل النُّوار للطَّل عَبْـــرة ... تردِّدهـــا أجفانهـــا وتُحيـــل
بأطْيَبَ من أخـلاقه الغرِّ كلمـــا ... تفاقم خطْبٌ للزمـان يهـول
حَويت أبا عبد الآه مناقبـــــا ... تفوتُ يدًا من رامَهـــا وتطـول
فغرناطة مصرٌ وأنت خَصيبُهـــا ... ونائلُ يُمناك الكريمة نِيـــل

(١) هكذا فى الإسكوريال وفى النفح (صعوة) .
(٢) وردت فى الإسكوريال (بالحزن) والتصويب من النفح وهو أنسب للسياق .

فذاك رجالٌ حاولوا دَرْكَ العـلا ... ببُخلٍ وهل نال العَـلاء بخيل

تخيَّرك المولى وزيرا وناصحـا ... فكان لـه مما أراد حصـول

وألقى مقاليد الأُمور مُفوضًا ... إليك فلم يَعْدم يمينك سُول

وقام بحفظ المُلْك منك مؤيدٌ ... نَهوضٌ بما أعيا سواك كفيـل

وساس الرعايا منك أروع[1] باسل ... مُبيد العِدا للمعْتَفِين مُنيـل

وأبلجُ وقَّاد الجبين كأنمـا ... على وجنتيه للنُّضار مَسيل

تَهيم به العَلياءُ حتى كأنهـا ... بُثَينته فى الحبِّ وهو جميل

له عَزَمات لو أُعير مضاءهـا ... حُسامٌ لما نالت ظُبـاه فُلول

سَرَى ذكرهُ فى الخافقين فأصبحت ... إليه قلوب العالمين[2] تميـل

وأعدى قَرِيضى جودُهُ وثنـاؤه ... فأصبح فى أقصى البلاد يجول

إليك أيا فخر الوزارة أرْقَلَت ... برَحْلى هوجاءُ النَّجـاء ذلـول

فَلَيتُ إلى لقيـاك ناصية الفلا ... بأيدى ركابٍ سيرهُنَّ ذَمِيـل

تسدِّدُنى سهماً لكل ثنيَّـة ... ضوامرُ أشباهُ القِسِىِّ نحـول

وقد لَفَظَتْنى الأرض حتى رَمَت إلى ... ذراك برَحْلى هوجَلٌ وهَجُـول

فقيَّدت أفراسى به وركائبى ... ولذَّ مقـامٌ لى بـه وحُلـول

وقد كنت ذا نفس عزوف وهمَّة ... عليها لأحداث الزمان ذحول[3]

ويَهوَى[4] العُلاَ حظِّى ويُغْرى[4] بضدْ ... لذاك اعتَرَته رقَّةٌ ونحـول

وتأْبى لى الأيـام إلاَّ إدالـة ... فصونك[5] لى إن الزمان مُديل

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (أشوس) .

(٢) وردت فى الإسكوريال (العلمين) . والتصويب من النفح .

(٣) وردت فى الإسكوريال (دخول) وفى النفح (دحول) . والتصويب أنسب للسياق . والذحول الحقد والعداوة .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . ووردت فى النفح (تهوى . وتغرى) .

(٥) وردت فى الإسكوريال (بصونك) والتصويب من النفح .

فكل خضوع في جنابك عزة[1]   وكل اعتزاز قد عداك خمول

وهي طويلة . ومن شعره [في الحنين إلى وطنه سبْتة][2] .

سقى ثرى سبْتة بين البلاد   وعهدَها المحبوب صوبُ العهاد

وجاد مَنهل الحَيا رَبْعها   بوَبْله تلك الربَى والوِهاد

وكم لنا في طُور سينائها   من رائحٍ للأُنْس في إثر غاد

وعينها البيضاء كم ليلةٍ   بيضاء فيها قد خلتْ لو تعاد

وبالمنارة التي نورها   لكلٍّ من ضلَّ دليلٌ وهاد

نرُوح منها مثلما نغْتَدى   للأُنسِ والأَفراحُ ذات ازدياد

في فِتيةٍ مثل نجوم الدُّجى   ما منهم إلاَّ كريم جواد

ارتشفوا كأْس الصفا بينهم   وارتضعوا أخلاف محض الوداد

وبالأَيام بِنْيُولِش[3] لقد   عَدَتْ عنها صروف العواد

أدركتُ من لُبْنى بها كلما   لبانة وساعدتني سُعاد

ونلت من لذَّات دهري الذي   قد شِيته وللأَماني انقياد

منازلُ ما إن على مُبْدِلِ   هاءٌ مكان اللام فيها انتقاد

سلوتَها مذ ضمني بعدها   نادِي الوزير ابن الحكيم الجواد

ومن المقطوعات قوله :

أبت همتي أن يراني امرؤ   على الدهر يوما له ذا خضوع

وما ذاك إلا لأني اتقيت   بعزٍّ القناعة ذلَّ القنوع[4]

ومن ذلك في المشط والمشفة من آلات الحمَّام :

---

(١) و[illegible] الإسكوريال [illegible] (عره) والتصويب من النفح

(٢) [illegible]

(٣) [illegible] من ضواحي سبتة

(٤) هكذا وردت في الإسكوريال وفي نص آخر (الخشوع)

إنى حسدت المشط والنَّشف الذى   لهما مزايا القرْب دونى مُخلصه
فأَناملٌ من ذا تباشر صدغه   ومراشفٌ من ذا تقَبِّل أَخمَصه

نثره

وقع هنا بياض مقدار وَجْهة فى أصل الشيخ .

مولده

ولد ببلَدِه سَبْتة فى عام ستة وسبعين وستماية .

وتوفى بتونس فى الثانى عشر لشوال من عام تسعة وأربعين وسبعماية فى وقيعة الطاعون العام ، بعد أن أصابته نبْوة من مخدومه السلطان أبى الحسن[1] . ثم استعْتبه وتلطف له . وكانت جنازته مشهورة ، ودفن بالزّلاج من جبانات خارج تونس رحمه الله .

عبد المهيمن بن محمد الأشجعى البلذوذى

نزيل مراكش.

حـــاله

من كتاب « المؤتمن »[2] ، قال ، كان شاعراً مُكثرا ، سهل الشعر ، سريعه ، كثيرا ما يَسْتجدِى به ، وكان يتقلَّد مذهب أبى محمد على بن حزْم الفقيه الظاهرى ، ويصول بلسانه على من نافَرَه . دخل الأندلس ، وجال

---

(١) الإشارة هنا إلى السلطان الكبير أبى الحسن المرينى ، على بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق . تولى عرش المغرب سنة ٧٣١ هـ وتوفى سنة ٧٥٢ هـ . وكان من أعظم ملوك بنى مرين همة وعزماً وصيتا وجهاداً فى الأندلس . وقد أشار المقرى فى نفح الطيب إلى ذلك الحادث الذى أساء فيه السلطان أبو الحسن مخاطبة كاتبه عبد المهيمن الحضرمى (ج ٣ ص ٢٤٣)

(٢) هو من تأليف أبى البركات بن الحاج . وقد سبق التعريف به (أنظر المجلد الأول من الإحاطة ص ٢٧٢ حاشية) .

فى بلادها . بعد دخوله مراكش . وكان أصله من بُلُنذوذ . وورد مالقة أيام قضاء أبى جعفر بن مَسْعدة ، وأطال بها لسانه ، فحمل عليه هنالك حَمْلا أذاه ، إلى أن كان مآل أمره ما أخبرنى به شيوخ مالقة ، وأنْسيْته الآن ، فتوصّل إلى مآل أمره من جهة من بقى بها الآن من الشيوخ ، نقلت اسمه ونسبه من خطّه .

شعره

أما على ذى شَرَك ... فى صَيْدنا من دَرَك
تصِيدنـــا لواحظ ... وما لها من حـــرَك
والبدر إن غاب فمَنْ ... يجلـــو ظلام الحَلك
قد تاب القلب فما ... يدرى إن لم تدرك
عدا السقام أو عـدا ... وَعْد الذى لم يأْفك
أو لن يكن حِلٌّ دَمى ... فلتُبْطى أو أتـــرك
حاربتُ من لا قدرة ... لديه فى الْمُعْتــرك
يفلُّ غرْبَ سـيفه ... سيفُ لِحاظٍ فتــك
يا لفتىً يا قُبلــتى ... يا حَجَّتى يا نَسك
إن عَظُم الحزن فما ... أرجل حسن فــلك
أو أهديت الحــىَّ ... فلابن عبد المـلك
خطيب ومُران للّذى ... سَلَك عـــلى سـلك
رُكن التُّقـــا محمد ... ذو النُّبل والطبع الزّكِ
منفردٌ فى جــــوده ... بمـــاله المشــترك
ي. سوقَ هـذا بـابُه ... فهو أجـــلُ مَبْــرك
وأنتِ يـ حـــادية ... ةَرُبتِ ما أســعدك

فبـــرِّكى وكـــبِّرى   وابـــركى وبـــرِّك

فقد أتَيْنَـــا بَشَرا   لـه صفات الملك

كفُّك يَهْمِى مَلَكَت   كأنَّهـــا لم تملك

قصيدتى لو لم تنل   منك حُلًى لم تُسْبك

أبكيت ديمة النَّدا   فزهرُهـــا ذو ضَحك

لـكننى يا سيدى   من فاقتى فى شَرَك

وشعره على هذه الوتيرة . حدثنى أبى ، قال رأيته رجلا طُوالا ، شديد الأدْمة ، حليق الرأس ، دمينه ، عاريه ، كثير الاسْتِجداء ، والتَّهاتر مع المُحابين من أُدباء وقته ، يناضل عن مذهب الظاهرية بجهده .

وفـــاته

من خط الشيخ أبى بكر بن شِبْرين ، وفى عام سبعة وتسعين وستمائة توفى بفاس الأديب عبد المهيمن المكناسى ، المكتنى بأبى الجيوش البلَّنوذى ، وكان ذا هَذَر وخَرْق ، طَوَّافا على البلاد ، ينظم شعرا ضعيفا ، يَسْتَمنح به الناس ، وآلت حاله إلى أن سُعى به لأبى فارس عزُّوز الملزوزى[١] الشاعر ، شاعر السلطان أبى يعقوب وخديمه ، وذكرله أنه هجاه ، فألقى إلى السلطان ما أوجب سجنه ، ثم ضربت عنقُهُ صبراً ، نفعه الله[٢]

عبد العزيز بن عبد الواحد بن محمد الملزوزى[٣]

من أهل العُدْوة الغربية ، يكنى أبا فارس . ويعرف بعزُّور .

---

(١) وردت فى الإسكوريال (الملزوى) وهو تحريف اقتضى التصويب حسبما يتبين بعد فى ترجمته التالية

(٢) وردت هذه الترجمة فى الإسكوريال ولم ترد فى الزيتونة

(٣) وردت هذه النسبة فى مخطوط الإسكوريال كالآتى (عبد العزيز بن عبد الرحمن بن محمد =

حـــاله

كان شاعراً مكثراً سيال القريحة ، مُنحطَّ الطبقة ، مُتَجنِّداً ، عظيم الكفاية والجرأة ، جسوراً على الأُمرا ، عَلِق بخدمة الملوك من آل عبد الحق وأبنايهم ، وَوقف أشعارَه عليهم ، وأكثر النظم فى وقايعهم وحروبهم ، وخلط المُعَرَّب باللِّسان الزناتى فى مخاطباتهم ، فعُرف بهم ، ونال عريضاً من دُنياهم ، وجمًّا من تقريبهم . واحتلَّ بظاهر غرناطة فى جُملة السلطان ، أمير المسلمين أبى يعقوب، وأمير المسلمين أبيه ، واستحق الذكر بذلك .

شعـــره

من ذلك أرجوزة نظمها بالخضراء فى شوال سنة أربع وثمانين وستماية، ورفعها إلى السلطان أمير المسلمين أبى يوسف بن عبد الحق ، سماها : « بنظم السلوك ، فى الأنبياء والخلفاء والملوك » لم يقصر فيها عن إجادة.

ومن شعره . قال مخبرا عن الأمير أبى مالك عبد الواحد ابن أمير المسلمين أبى يوسف :

دعانى يوماو السماقدارتدت بالسحايب   والغيث يبكى بالدموع السَّواكب
كأنه عاشقٌ صُدَّ عنه حبيبه   ففاضت دموعه عليه وكثر نحيبُه
ولم يُرَق لـــه مدمع   كأنه لم يبق له فيه مطمع
فكان الوعدُ حَسْرَتَــه   والبرق لَوْعَتَه وزَفْـرَتَه
فقال لى ما أحسن هذا اليوم   لو كان فى غير شهر ا لصوم
فاقتَرح غاية الاقتراح علىّ   وقال قلْ فيه شعرا بين يدىّ

= الملزومى) وهو تحريف والصواب ما أثبتناه نقلا عن أقدم مخطوط لأرجوزة الشاعر المسماة (نظم السلوك) وقد نشرت محققة بعناية العلامة الأستاذ عبد الوهاب بن منصور ، ووردت فى صدر صفحة المخطوط التى تحمل الاسم الصحيح للشاعر (الرباط سنة ١٩٦٢) والملزوزى نسبة إلى قبيلة ملزو [illegible]

فأنشدته هذه الأبيات :

اليوم يوم نزهة وعُقَــار　　وتقرُّب الآمال والأوطــار
أوما ترى شمسَ النهار قد اختفت　　وتستَّرت عن أعين النُظّــار
والغيث سَح غمامه فكأنه　　دَنِفٌ بكي من شدَّة التذكار
والبرق لاح من السماء كأنه　　سيف تألَّق فى سماء غبــار
لا شيء أحسن فيه من نيل المُنا　　بمُدامته تبدو كشعلة نــار
لولا صيام عاقنى عن شربها　　لخلعتُ فى هذا النهار عِذار
لو كان يمكن أن يُعَار أعرته　　وأصوم شهراً فى مكان نهار
لكن تركت سروره ومُدامه حتى　　أكــون لـديه ذا أفــكار
وندبرها فى الكأس بين نواهد　　تجلو الهمُوم بنغمة الأوتــار
فجفونها تغْنيك عن أكواسها　　وخدودها تغنيك عن أزهار

فشكره لما سمعه غاية الشكر ، وقال أسْكَرْتنا بشعرك من غير سُكر .

قال ، وأتيته بهذه الأبيات :

أعلمتَ بعدك زَفَرتى وأنِينى　　وصَبابتى يوم النَّوى وشجونِ
أودعتُ إذ ودَّعتُ وَجْداً فى الحشا　　ما إن تزال سهامه تُصمينِ
ورَقيبُ شوقك حاضرٌ مترقِّبٌ　　إن رمتُ صبراً بالأسى يُغرينِ
من بَعد بُعْدك ما رَكَنت لراحة　　يوما ولا غاضَتْ عَليك شؤون
قد كنت أبكى الدمع أبيضَ ناصعا　　فاليوم تبكى بالدِّماء جفونِ
قل للذين قد ادَّعوا فَرْط الهوى　　إن شِيتم عِلم الهوى فسَلونِ
إنى أخذتُ كثيرَه عن عُروة　　ورويتُ سايره عن المجنون
هذى روايتنا عن أشياخ الهوى　　فإن ادَّعيتم غيرها فأرونِ
يا ساكنى أكناف رَمْلة عالج　　ظفِرَتْ بقَلْبِكم الغَرِير يَمينِ

كم بات فى جَنح الظلام مُعانقى ومَجَنتُ فى صُفرُوى إلى مجنون
فى روضة نمّ النسيم بعَرفها وكذاك عَرْفُ الرّوض غير مَصون
والورْق من فوق الغصون ترنمت فتريك بالألحان أىّ فنون
تصغى الغصون لما تقول فتنثنى طرباً لها فاعْجَب لميل غصون
والأرض قد لبست غلايل سندس قد كللت باللؤلؤ المكنون
تاهت على زهر السماء بزهرها وعلى البُلور بوجهها الميمون

قال أبو فارس ، وكان أمير المسلمين أبو يوسف سار إلى مدينة سَلا ، فبويع بها ولده أبو يعقوب ، وذلك فى اليوم الثانى عشر من شهر ربيع الأول عام أحد وسبعين وستماية ، يوم مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، فأنشدته يوم بيعته هذه القصيدة ورفعتها إليه :

يا ظَبْية الوَعْساء قد بَرِح الخفا إنى صبرت على غرامك[1] ماكفى
كم قد عَصِيت على هواك عواذلى وأتاب بالتبعيد منك وبالجفا
حَملتِنى ما لا أطيق من الهوى وسَقيتِنى من غنج لحظك قرقفا
وكسَوتِنى ثوب النحول فمَنظرى للناظرين عن البيان قد اختفا
هذا قتيلكِ فارحميه فإنـــه قد صار من فرط النحول على شفا
لهفى على زمن تقضّى بالحِما وعلى محلٍ بالأُجَيْرع قد عـفا
أترى يعود الشّمل كيف عَهدته ويصير بعد فراقهُ مُتألّفا
لله دَركِ يا سَـلا من بلدة من لم يُعاين مثل حُسْنك ما اشتفا
قد حُزتِ براً ثم بحراً طاميا وبذاك زدت ملاحة وتزخرُفا
فإذا رأيت بها القطائع خلتها طيراً يحوم على الورود مرفرفا

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى نسخة الرباط من نظم السلوك (فراقك)

والجاذفين على الرّكيم كأنّهم ... قوم قد اتخذوا إماماً مُسْرفا

جعل الصّلاة لهم ركوعا كلها ... وأتى ليَشرع فى السجود مُخْففا

والموج[1] يأتى كالجبال عُبابه ... فتظنه فوق المنازل مُشرفا

حتى إذا ما الموج أبصر حدّه ... غضّ العِنان عن السُّرى وتوقّفا

فكأنّه جيش تعاظم كثرةً ... قد جاءَ مزدحما يُبايع يُوسُفا

مَلِك به ترضى الخلافة والعُلا ... وبه تُجَدَّد فى الرِّياسة ما عَفا

من لم يزل يَسْبِي الفوارس فى الوغى ... إن سلَّ فى يوم الكريهة مُرْهَفا

أَلِفتْ محبّته القلوبُ لأنه ... مَلِكٌ لنا بالجود أضحى مُتْحفا

أَلْقى إليه الأمر والدُه الذى ... عن كل خطْبٍ فى الوَرى مااسْتنكفا

يعقوبُ الملك الهُمَام المُجْتبا ... الماجد الأوفى الرحيم الأرْأفا

يَهْواهُ من دون البنين كأنما ... يعقوبُ يعقوبُ ويوسفُ يُوسُفا

طوبى لِمن فى الناس قبّل كفّه ... والويل منه لمن غدا مُتوقّفا

أعطاك ربُّك وارتضاك لخلْقه ... فاقتُل بسيفك من أبا وتخلّفا

وامدُد يمينك للوفود فكلهم ... لليوم عاد مُؤمِّلا متشوِّفا

فاليوم لا تخشى النِّعاجِ ذِيابها ... ويعود من يَسْطو بها متعطِّفا

صَلُح الزمان فلا عدوٌّ يتّقى ... لم يخش خلْقٌ فى عُلاك تخوُّفا

لم لا وعَدْلُك للبريّة شامل ... طبْعاً وغيرك لا يزال تكلُّفا

يا من سُررتُ بمُلْكه وعَلايه ... اليوم أعلمُ أن دهرى أنصفا

فإذا مَلكْتَ فكن وفيا حازما ... واعلم بأن المُلْك يُصْلح بالوفا

وأفِض بَذْلك للوجود وكنْ لهم ... كهْفًا وكُن ببَعِيدهم مُسْتعطفا

فالجود يُصلح ما تعلّم فى العُلا ... وسواه يُفسد فى الخلافة ما صفا

إن البريّة فى يديك رمامُها ... فاحذر فدَيْتُك إن تكون مُعنّفا

(٢) وردت فى الإسكوريال (والموت) والتصويب من « نظم السلوك »

يا من تسربل بالمكارم والعلا   مازال حاسدكم يزيد تأسفا
خذها إليك قصيدة من شاعر   فى نَظْم فخرك كيف شا تصرفا
خضع الكلام له فصار كعَبْدِهِ   ما شاء يصنع ناظماً ومؤلِّفا
لا زالت الأمجاد تخدم مَجْدكم   ما زارت الحجاج مَرْوَة والصَّفا

ومن شعره فى رثاء الأمير أبى مالك :

سَهْمُ المنيَّة أين منه فِرار   من فى البريَّة مَن رجاه يُجار
حَكَم الزمان على الخلايق بالفنا   فالدار لا يبقى بها ديَّار
عِش ما تشاءُ فإن غايتك الرَّدى   يَبْلى الزمان وتذهب الأعمار
فاحذر مُسالمة الزمان وأمْنَه   إن الزمان بأهله غدَّار
وانظر إلى الأمراء قد سكنوا الثرى   وعليهم كأْسُ المُنون تُدار
تركوا القصور لغيرهم وترحَّلوا   ومن اللُّحود عليهم أستار
قد وُسِّدوا بعد الحرير جَنادلاً   ومن اللحود عليهم أستار(١)
مُنعوا السُّرى للقباب وأُسْكِنوا   بَطْن الثَّرى حَكَمَتْ بذاك عليهم الأقدار
لم تنفع الجُرْد الجياد ولا القنا   يوم الرَّدى والعسكر الجرَّار
فى موت عبد الواحد الملك الرِّضا   لجميع أمْلاك الوَرى إنذار
أن ليس يبقى فى الملوك مُمَلَّك   إلا أتته منيَّة وبوار
ناديته والحزن خامَر مهجتى   والقلب فيه لوعة وأُوار
يا مَنْ ببَطْن الأرض أصبح آفلاً   أتَغيبُ فى بطن الثَّرى الأقمار
أين الذين عَهِدت صَفْو وِدادهم   هل فيهم بعد الرَّدى لك جار
تركوك فى بطن الثَّرى وتشاغلوا   بعُلا سِواك فهَجْرُهم إنكار

---

(١) هكذا وردت هذه الشطرة فى الإسكوريال وكسابقتها فى البيت السابق . والظاهر أن هناك سهواً من الناسخ فى النقل

لما وقفتُ بقبــره مُتـرحّما حان العزا وهاجنى استِعبار
فبكيتُ دمعا لو بَكَت بمثاله غرُّ السَّحاب لم تكن أمطار
يا زايريه استغفروا لمليككم ملكُ الملوك فإنه غفّــار

وفــاته

توفى خَنْقًا بسجن فاس بِسعايةٍ سُعِيت به ، جَناها تهوُّره فى وسط عام سبعة وتسعين وستماية ، وقد كان جُعل له النَّظر فى أمور الحِسْبة ببلاد المغرب[1] .

(ومن العُمَّـــال)

عبدالعزيزبن عبد الله بن عبد العزيز الأسدى العراق

من أهل وادى آش ، نزل سَلفُه طُرُّش من أحوازها ، وجدُّه استوطنها ، وذكروا أنه كان له بها سبعون غلاما . وجدُّه للأُم أبو الحسن بن عمر شارح الموطَّأ ومُسلم ، ومُصَنِّف غير ذلك . كذا نقلته عن أبى عبد الله العراق ، قريبه .

حـــاله

كان طبيبا ، شاعرا مجيدا ، حسن الخط ، طَرِيف العمل ، مُشاركا فى معارف . تولَّى أعمالا نبيهة .

شعـــره

نقلته من خطِّه ما نصه :

صرفت لخير صَدْرٍ فى الزمان عريق فى أصالته عِنان
كريم المُنْتَمى من خير بيت سليلُ مَجَادة ورفيع شـان
رحيبٌ بنا فضل غير وان عن الأفضال فى هذا الأوان

---

(١) وردت هذه الترجمة فى الإسكوريال ولم ترد فى الزيتونة

ومن هذا أذاك هو ابن عيسى   محمد المُعان على المعان
أبو عَبْدلى إنه المُنْتَمى من   مُساوى الفضل فى سُرى العِنان
ذرانى فى مَجادته محبّا   فهشّ لما به يحوى جَنان
فأُنْسٌ ثم بَشْرٌ بالأمانى   ورفعٌ بعد تأنيسٍ مكان
سرٌّ لله ما أولى لسيُرَ   وليس كمن رآنى فازدَران
ويوجب ذو الفضايل كل فضل   بما فيها ترشّحت الأوان
وكم زهر رآه وسَط روض   وكم هاذ يدى بين الدّنان
بمالقة وبالأقطار أضْحَت   معاليكم مُشَيَّدة المبان
فأَيّلو الآله لسوف يأتى   لكم منّى سوابقُ فى الرّهان
قواف من الحكم قواف   محامدُ للسّماع وللعِيان
يفوق نَظِيمها من كل معنى   سلوك الدُّر من حَلْى الحِسان
متى خفّ ازدحام من همومى   ورُجيت الأمان مَعْ أمان
شكرتُ الله ثم صَفا فؤادى   وأمْلى ما تحبّ على لسان
فهأنذا ببرّكم غِذايى ولى   منكم على بُعدى تَدان
محبُّك حيث كنت بلا سُلُوٍّ   وضيفُك فى البُعاد وفى التّوان
ثنائى ثابت يبقى بَقاى   ومِن بَعْدى على طول الزمان
وما تَهبُ الأكفُّ قِراك فان   وما تَهبُ الطُّروس فغير فان
هنيئا بالنّزاهة فى سرور   ومع من لا لَهُ فى الفضل ثان
فلا زالت مسرّته توالى   ولا زالت تُزفُّ لك التّهان

« وفاته » : ببلدة وادى آش عام خمسة عشر وسبعماية .

عبد القادر بن عبد الله بن عبد الملك بن سوار المحاربى

حـــاله

هذا الرجل دَمِث الأخلاق ، سكُون ، وقور . خدم أبوه بغرناطة كاتبا للغَزاة ، منوّهاً به ، مشهورا بكرم وظَرف. وانتقل الى العُدوة ، ونشأ ابنه المذكور بها ، وارتسم بخدمة ولى العهد الأمير أبى زيّان ، وورد على الأندلس فى وسط عام سبعة وخمسين وسبعماية فى بعض خدمه ، وأقام بغرناطة أياما يحاضر محاضرة يُتَأنّس به من أجلها الطالب ، وينتظم بها مع أولى الخصوصية من أهل طريقه ، وينقل حكايات مُستَطرفة . فمن ذلك أن الشيخ عبد الرحمن بن حسن القَرَوى الفاسى كان مع أبى القاسم الزيانى بجامع القرويين ليلة سبع وعشرين من رمضان ، فدخل[1] عليهم ابن عبدون المكناسى ، فتلقاه الزيانى وتأيده ، وتوجهوا إلى الثريّا بالقرويين وقد أُوقِدت ، وهى تحتوى على نحو ألف كاس من الزجاج ، فأنشد الزيانى :

أنظر إلى ناريّة نورها يَصْـــدعُ بالألاءِ حَجَب الغَسَــق

فقال ابن عبدون :

كأنّها فى شكلها زهرةٌ ... انتظم النور بها فاتّسق

وحُكِيت القصة للأديب الشهير أبى الحكم مالك بن المُرحّل ، فقال لو حضرت أنا لقُلْتُ :

أعيذُها من شرِّ ما يُتّقى ... من فجأة العين برب الفَلَق

واستُنْشِدَ من شعره فى الثامن والعشرين لربيع الآخر من العام بقصر

(١) وردت فى الإسكوريال (دخل) فاقتضى التصويب .

نَجْد ، فقال من حكايات ، إن السلطان أمير المسلمين وجَد يوما على رجل أمر بتنكيله ، ثم عَطَف عليه فى الحال وأحسن إليه ، وكان حاضراً مجلسه أبو الحسن المزدغى رحمه الله ، فأنشده بديهة :

لا تونِسَنَّك من عثمن سطوتُه ... وإن تَطَاير من أثوابه الشرر

فإن سطوته والله يكلأُه ... كالبَرْق والرَّعد يأْتى بعده المطَر

قال المترجم به ، فحدَّثنى بذلك والذى ، فتحقَّبتُها عليه عام تسعة وعشرين وسبعماية ، لموجِبٍ جرَّ ذلك بقولى :

لا تَيْأسَن من رجا كَهْف الملوك ... أبى سَعيد المرْتجى للنَّفع والضَّرر

وإن بدا منه سخطٌ أو رأيت له ... من سطوة أقْبَلَت تَرميك بالشَّرر

فإنما شيءٌ مثل الرَّعد يتبعُه ... برقٌ ومن بعده يَنْهَل المَطَر

وأنشدنى لبعض الأحداث من طلبة فاس ، يخاطب صاحبنا الفقيه الكاتب أبا عبد الله بن جُزَى ، وقد توعده على مَطْلٍ باستِنْسَاخ كتاب كان يتناول له وهو بديع :

إذا ما أتَتْ أبطالُ قيس وعامر ... وأقيال عبْس من بِغمام وقسور

تُصادمنى وسط الفَلا لا تهولنى ... فكيف أبالى بابن جزءٍ مُصَغَّر

« مولده » : بفاس فى العشر الأُول لذى حجة عام تسعة وسبعماية .

ومن الزهاد والصلحاء وأولا الأصليون

عبد الأعلى بن معلا

يكنى أبا المعْلى الإلبيرى ، من قرى القلعة[1] ، ونشأ بالحاضرة ،

(١) القلعه يقصد بها قلعه يحصب أو قلعة بنى سعيد وقد سبق التعريف بها (راجع المجلد الثالث من الإحاطه ص ٢١٢ وكذلك المجلد الأول ص ١١١ حاشيه)

وكان ينسب إلى خوْلان . ويذكر أنه أسلم على يدى رجل من خَوْلان ، فتولاه وانتسب إليه ، وخرج إلى إلبيرة ، ونشأ بها ، وشُغِف بكتب عبد الملك بن حبيب ، ولم يكن أحد فى عصره يشبهه فى فضله وزهده وورعه ، وتواضعه وانقباضه ، وتستّره . أرسل إليه حسين بن عبد العزيز أخو هاشم بن عبد العزيز ، وهو بإلبيرة يرغب إليه فى أن يشهد جنازة إبنةٍ توفيت له ، كان يُشْغف بها ، فتعذّر عليه إذ خشى الشُّهرة .

وقال لبعض جلسائه ، ما علمت أن حُسَيْنا يعرفنى ، وعمل على الخروج من إلبيرة ، وتهيأ للخروج للحج ، فحج ، فلما كان مُنْصَرفه ، ونزل فى بعض السّواحل ، وجد هنالك مركبين يُشحنان ، فرغب كل من أصحاب المركبين ، أن يركب عنده ، وتنافسا فى ذلك ، حتى خُشى أن تقع الفتنة بينهم ، فاهتم لذلك ، ثم اصْطَلح أرباب المركبين ، على أن يُخرِج كل واحد منهما قاربه إلى البرّ ، فمن سبق قاربُه إليه دخل عنده . ونزل فى مُنصرفه ببجاية وسكنها إلى أن توفى سنة ثلاث وتسعين ومائتين .

عبد المنعم بن على بن عبد المنعم بن إبراهيم بن سِدراى بن طفُيل

يكنى أبا العرب ، ويشهر بالحاج ، ويُدعى بكُنيته

حـــاله

كان عالما فاضلا صالحا ، منقطعا متبتّلا ، بارع الخطّ ، مجتهدا فى العبادة ، صاحب مُكاشفات ، وكرامات . نَبذ الدنيا وراءَ ظهره . ولم يتلبّس منها بشىء . ولا اكتسب مالا ولا زوجة . ووَرث عن أبيه مالا خرج عن جميعه . وقطع زمن فَتايه فى السِّياحة وخدمة الصالحين ، وزمان

شيخوخته . فى العُزلة والمراقبة . والتزام الخَلْوة . ورحل إلى الحج ، وقرأ بالمشرق ، وخدم مشايخ من الصالحين . منهم الفَخْر الفارسى ، وأبو عبد الله القرطبي وغيرهما ، وكان كثير الإقامة بالعُدْوة ، وفشا أمره عند ملوكها ، فكانوا يزورونه ، ويتبرّكون به ، فيَعرِض عنهم ، وهو أعظم الأسباب فى جواز أهل المغرب لنُصرة من بالأندلس فى أول الدولة النّصرية ، إذ كان الرُّوم قد طمعوا فى استخلاصها ، فكان يحرِّض على ذلك ، حتى عزم صاحب العُدوة على الجواز ، وأخذ فى الحركة ، بعد استدعاء سلطان الأندلس إياه . وعندما تعرّف يَغْمُور بن زيّان ملك تلمسان ذلك كله على بلاده بما منع من الحركة ، فخاطبه الحاج أبو العرب مخاطبته المشهورة ، التى كفّت عدوانه ، واقْتصَرته عما ذهب إليه .

وكان حيا فى صفر عام ثلاثة وستين وستماية ، وهو تاريخ مخاطبته أبا يحيى يغمور بن زيان .

ومن الطارئين وغيرهم

عبد الحق بن ابراهيم بن محمد بن نصر بن فتح بن سبعين العكّى[1]

مُرسى ، رَقُوطى[2] الأصل ، سكن بآخرة مكّة ، يكنى أبا محمد ، ويعرف بابن سبعين .

حاله

قال ابن عبد الملك ، درس العربية والأدب بالأندلس ، عند جماعة

---

(١) هكذا فى الإسكوريال وفى الزيتونة (الحكى)

(٢) رقوطى نسبه إلى رقوطة ، وهى بلدة أندلسيه صغيرة تقع شمال غربى مرسية على مقربة من نهر شقور . وبالإسبانية « Ricate » .

من شيوخها . ثم انتقل إلى سَبْتة . وانتحل التصوف - بإشارة بعض أصحابه ، وعكف برهة على مطالعة كتبه ، وتعرَّض بعد لإسماعها ، والتكلُّم على بعض معانيها ، فمالت إليه العامة ، وغَشِيت محلَّه . ثم فَصَل عن سبتة ، وتجول فى بلاد المغرب منقطعا إلى طريقة التصوف ، داعيا إليها ، محرضا عليها . ثم رحل إلى المشرق ، وحج حِججاً ، وشاع ذِكره ، وعظُم صيته هنالك ، وكثر أتباعه على مذهبه ، الذى يدعو إليه من التصوف نحلة . ارتسموا بها من غير تحصيل لها ، وصنَّف فى ذلك أوضاعا كثيرة ، تلقوها منه ، وتقلدوها عنه ، وبثُّوها فى البلاد شرقا وغربا ، ولا يخلو أحد منها بطايل ، وهى إلى وساوس المَخْبُولين ، وهذيان المَمْروضين أقرب منها إلى منازع أهل العِلْم ، ولَفَظه غير ما بلد وصَقع ، لما كان يُرمى به من بلايا الله أعلم بحقيقتها ، وهو المطلع على سريرته فيها . وكان حسن الأخلاق ، صَبُورا على الأذى ، آية فى الإيثار ، أبدع الناس خطًّا .

وقال أبو العباس الغُبْرينى فى كتاب « عُنوان الدِّراية »(١) عند ذكره ، وله علم وحكمة ومعرفة ، ونباهة وبلاغة وفصاحة . ورحل إلى العُدْوة ، وسكن بجاية مدة ، ولقيه من أصحابنا ناس كثير ، وأخذوا عنه ، وانتفعوا به فى فنون خاصة له ، مُشاركة فى معقول العلوم ومنقولها ، ووجاهة لسان ، وطلاقة قلم ، وفهم جنان ، وهو آخر الفضلاء ، وله أتباع كثيرة من الفقراء ، ومن عامّة الناس ، وله موضوعات كثيرة ، موجودة بأيدى الناس ، وله فيها ألغاز وإشارات بحروف أبى جاد . وله تسميات مخصوصات فى كُتبه هى نوع من الرُّموز . وله تسميات ظاهرة كالأسامى(٢) المعهودة ،

(١) واسمه الكامل (عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية)

(٢) وردت فى الإسكوريال (كالأسارى) والتصويب من الزيتونة

وله شعر فى التحقيق . وفى مراقى أهل الطريق ، وكتابته مُستحسنة فى طريقة[١] الأدباء . وله من الفضل والمزية ، ملازمته لبيت الله الحرام ، والتزامه الاعتِمار على الدوام . وحَجّته مع الحجاج فى كل عام ، وهذه مزية لا يُعرف قدرها ولا يُرام . ولقد مشى به للمغاربة بحظٌ فى الحرم الشريف ، لم يكن لهم فى غير مُدّته . وكان أصحاب مكة شرفها الله ، يهتدون بأفعاله ، ويعتمدون على مقاله .

قلت ، وأغراض الناس فى هذا الرجل متباينة ، بعيدة عن الاعتدال ، فمنهم المُوهن[٢] المُكَفِّر ، ومنهم المقلّد المُعَظِّم ، وحصل لطَرَفى هذين الاعتقادين من الشهرة والذِّياع ما لم يقع لغيره . والذى يقرب من الحق، أنه كان من أبناء الأصالة ببلده ، ووُلِّى أبوه خُطَّة المدينة ، وبيته نبيه ، ونشأ تَرِفًا مُبجّلا ، فى ظل جاه ، وعزٍّ نعمة ، لم تفارق معها نفسه البلد. ثم قرأ وشدا . ونظر فى العلوم العقلية . وأخذ التحقيق عن أبى اسحق ابن دهاق . وبرع فى طريقة الشُّوذية[٣] . وتجرد واشتهر ، وعظُم أتباعه، وكان وسيما جميلا ، ملوكى البزّة ، عزيز النفس ، قليل التصنع ، يتولى خدمته الكثير من الفقراء السَّفارة . أولى العبا والدقاقيس ، ويحفون[٤] به فى السِّكك ، فلا يَعْدم ناقدا ، ولا يفقد متحاملا . ولما توفرت دواعى[٥] النقد عليه من الفقهاء زِيًّا وانْتِباذاً ونِحْلةً وصُحبةً واصطلاحا . كثر عليه التأويل ، ووُجهت لألفاظه المعاريض ، وفُلّيت

(١) هكذا فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (طريق) . والأولى أنسب .

(٢) هكذا فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (المرهق) . والأولى أنسب .

(٣) الشوذية هم إحدى الطرق الصوفية .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (يحتفوا) .

(٥) وردت فى الإسكوريال (داعى) . والتصويب من الزيتونة .

موضوعاته ، وتَعاورته الوَحْشة ، ولقيه فحول من مُنْتابى تلك النِّحلة ، قَصُر أكثرهم عن مداه فى الإدراك والاضطِّلاع ، والخوض فى بحار تلك الأغراض. وساءت منه لهم فى الملاطفة السيرة ، فانصرفوا عنه مكظومين يُنَدِّرون[1] فى الآفاق عليه من سوء القِيلة ، مالاشيء فوقه .ورحل إلى المشرق ، وجرت بينه وبين الكثير من أعلامه خطوب . ثم نَزَل مكة شرفها الله تعالى واختارها قرارا ، وتلمَّذ له أميرها ، فبلغ من التعظيم الغاية . وعاقه الخوف من أمير المدينة المعظمة النبوية ، عن القدوم عليها ، إلى أن توفى ، فعظم عليه الحَمْل لأجل ذلك ، وقَبُحت الأُحْدوثة .

شهرته ومحله من الإدراك

أما اضطِّلاعه ، فمن وقف على « البُدُّ » من كُتُبه ، رأى سَعة ذَرْعه وانفِساح مدى نظره ، لما اضطلع به من الآراء والأوضاع والأسماء ، والوقوف على الأقوال ، والتعمق فى الفلسفة ، والقيام على مذاهب المتكلمين ، بما يقضى منه العجب . ولما وردت على سَبْتة المسائل الصِّقلية[2] ، وكانت جملة من المسايل الحِكَمية ، وجهها علماءُ الروم تبكيتاً[3] للمسلمين ،انتُدب إلى الجواب عنها ، على فتىً من سنِّه ، وبديهة من فكرته . وحدثنى شيخنا أبو البركات ، قال حدثنى أشياخنا من أهل المشرق ، أن الأمير أبا عبد الله بن هود ، سالم طاغية النصارى ، فنكث عهده ، ولم يَفِ بشرطه ، فاضطره ذلك إلى مخاطبته إلى القُومس الأعظم برومة ، فوكل أبا طالب بن سبعين ، أخا أبى محمد ، المُتكلم عنه ، والاستظهار بالعقود بين يديه . قال فلما بلغ باب ذلك الشخص المذكور برومة ، وهو بلد لا تصل إليه المسلمون ،

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (يتندرون) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (العقلية)

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى الزيتونة (تنكيتا) .

ونُظر إلى ما بيده ، وسُئل عن نفسه ، كلم ذلك القس من دنا منه محله من علمايهم بكلام ، تُرجم لأبى طالب بما معناه ، اعلموا أن أخا هذا ليس للمسلمين اليوم أعلم بالله منه .

دعواه وإزراؤه

وقد شُهر عنه فى هذا الباب كثير والله أعلم باستحقاقه رتبة ما ادعاه أو غير ذلك . فقد ذكروا أنه قال ، وقد مر ذكر الشيخ أبى مَدْين رحمه الله ، شُعيب عبد عمل ، ونحن عبيد حضرة . وقال لأبى الحسن الشُّشترى عندما لقيه ، وقد سأله عن وجهته ، وأخبره بقصده الشيخ أبا أحمد ، إن كنت تريد الجنة فشأنُك ومَنْ قَصَدت ، وإن كنت تريد رب الجنة فهلم إلينا ، وفى كتاب « البُدِّ » ما يُتَشوف إليه من هذا الغرض عند ذكره حكماء الملة . وأما ما يُنسب إليه من آثار السِّيمياء والتصريف فكثير .

تواليفه

وتواليفه كثيرة تشذ عن الإحصاء، منها كتابه المسمى بالبُدِّ «بُدُّ العارف» ، وكتاب الدُّرج ، وكتاب الصفر ، والأجوبة اليمنية ، والكلُّ والإحاطة . وأما رسايله فى الأذكار ، كالنورية فى ترتيب السلوك ، وفى الوصايا والعقايد فكثير ، يشتمل على ما يشهد بتعظيم النبوة ، وإيثار الورع ، كقوله من رسالة : « سلام الله عليك ورحمته . سلام الله عليك ثم سلام مناجاتك . سلام الله ورحمته الممتدة على عوالمك كلها ، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، وصلى الله عليك كصلاة إبراهيم من حيث شريعتِك ، وكصلاة أعز ملائكته من حيث حقيقتِك ، وكصلاته من حيث حقه ورحمانيته . السلام عليك يا حبيبه . السلام عليك ياقياس

الكمال ، ومقدِّمة السعد ، ونتيجة الحمد ، وبرهان المحمود ، ومن إذا نظر الذهن إليه قد أنعم العيد ، السلام عليك يا من هو الشرط فى كمال الأولياء ، وأسرار مشروطات الأزكياءِ الاتقياءِ . السلام عليك يا من جاوز فى السماء مقام الرُّسل والأنبياء ، وزاد رفعة ، واستولى على ذوات الملأِ الأعلى ، ولم يسعه فى وُجهته تلك إلا ملاحظة الرَّفيق الأعلى ، وذلك قوله ، سبِّح اسم ربك الأعلى إلى الأُخرى والأُولى ، لا إلى الآخرة والأُولى ، وبلغ الغاية والمطلوب ، التى عجزت عنه قوة ماهيَّة النُّهى ، وزاد بعد ذلك ، حتى نظر تحته من ينظر دونه سِدْرة المُنْتهى ، إلى استغراق كثير ، أفضى إلى حال من مقام » .

ومن وصاياه يخاطب تلاميذه وأتباعه : حفِظَكم الله ، حافظوا على الصلوات ، وجاهدوا النفس فى اجتناب الشهوات ، وكونوا أوَّابين ، توَّابين ، واستعينوا على الخيرات بمكارم الاخلاق ، واعملوا على نَيْل الدَّرجات السنية ، ولا تَغْفلوا عن الاعمال السُّنيَّة ، وحصِّلوا مَخصص الأعمال الإلهية ومُهملها ، وذوقوا مُفَصَّل الذات الرُّوحانية ومَحْملها ، ولازموا المودة فى الله بينكم ، وعليكم بالاستقامة على الطريقة ، وقدموا فرض الشريعة على الحقيقة ، ولا تفرقوا بينهما ، لأنهما من الأسماءِ المترادفة ، واكفُروا بالحقيقة التى فى زمانكم هذا ، وقولوا عليها وعلى أهلها لعنة الله ، لأنها حقيقة كما سمى اللَّديغ سليما ، وأهلها مُهمِلون حدَّ الحلال والحرام ، مستخفُّون بشهر الصوم والحج وعاشوراءِ والإحرام ، قاتلهم الله أنَّى يُؤفكون .

ومنها : واعلموا أن القريب إلىَّ منكم ، من لا يخالف سُنَّة أهل السُّنَّة ويوافق طاعة رب العزَّة والمِنَّة ، ويؤمن بالحَشر والنار والجنَّة ، ويفضل

الرُّؤية على كل نِعمة ، ويعلم أن الرِّضوان بعدها ، أجلُّ كل رحمة ، ثم يطلب الذّات بعد الأدب مع الصفات والأفعال ، ويَغْبِط نفسه بالمشاهدة فى النوم والبرزخ والأحوال ، وكل مخالف سخيف : مُتَّهم منه الفساد ، وإن كان من إخوانكم ، فاهجروه فى الله ، ولا تلتفتوا إليه ، ولا تُسْلموا له فى شيء ، ولا تُسَلِّموا عليه حتى يستغفر الله العظيم بمحضر الكل منهم ، ويرضى عن نفسه وحاله وعنكم ، ويخرج من صفاته المذمومة ، ويترك نظام دعوته المحرومة . وأنا مذ أشهدت الله العظيم ، أنى قد خرجت من كل مُخالف متخلِّف العقل واللسان ، ولا نسبة بينى وبينه فى الدنيا والآخرة ، فمن زلَّ قدمه يستغفر الله ، ولا يخدعه قدمه ، وأمثال هذا كثير .

دخوله غرناطة

أخبرنى غير واحد من أصحابنا المعتنين بهذا ، أنه دخل غرناطة فى رحلته ، وأظنه يجتاز إلى سبتة ، وأنه حل وسَطَه ، على اصطلاح الفقراء ، برابطة العُقاب[(١)] من خارجها ، فى جملة من أتباعه .

شعـــره

وشعره كثير ، مما حضرنى منه الآن قوله :

كم ذا تُموِّه بالشِّعبين والعلم والأمر أوضح من نار على علم
وكم تعبِّر عن سلع وكاظمة وعن زرود وجيرانٍ بذى سَلَم
ظللتَ تُسئل عن نَجْدٍ وأنت بها وعن تِهامة هـذا فعل مُتَّهم
فى الحيِّ حىّ ولا سوى ليلى وتسألها عنها سؤالك وهم جرَّ للعَدَم

(١) هى إحدى الربط التى كانت تخصص للعبادة . وكانت تقع على مقربة من شرق غرناطة . وقد سبقت الإشارة إليها (الإحاطة المجلد الثانى ص ١٥٥ حاشية) .

« وفاته » ، توفى بمكة شرّفها الله تعالى يوم الخميس التاسع لشوال من عام تسعة وستين وستماية .

وفيما يسمى بإحدى عيون الإسلام من الأسماء العينية وهم عتيق وعمر وعثمن وعلى ، وأولا الأمراء والملوك وهم مابين طارىء وأصلى وغريب

عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر الاسلامى بن كسمسم[(١)] بن دميان[(٢)] ابن فرغلوش بن أذفونش[(٣)]

كبير الثُّوار ، وعظيم المُنْتزين ، ومُنازع الخلفاء بالأندلس .

أَوَّليتّه وحاله

قال صاحب التاريخ ، أصله من رُندة ، من كورة تاكُرُنَّا ، وجدُّه جعفر إسلامى[(٤)] ، وانتقل إلى رندة ، لأمر دار عليه بها فى أيام الحكم بن هشام ، فسكن قرية طَرجيلة من كورة ريُّه المجاورة لحصن أوطة ،فاستوطن بها ، وأنْسَل بها عمر ، ثم أنسل بها عمر حَفْصًا ، وفُخِّم فقيل حَفْصُون . ثم أنسل عمر هذا الثاير مع أخوة له ، منهم أيوب وجعفر . ولما ترعرع عمر ، ظهر له من شَراسته وعتُوِّه ، ما لم يعدم معه أبواه هرباً عن مواضعهما فزالا عن وطنهما ، فذكر أنه لم يُمسك من حين كان عن أحد ممن ناظره ،

(١) هذا الاسم زائد فى مخطوط الإسكوريال . ولم يرد فى نسبة عمر بن حفصون المعروفة لنا .

(٢) وردت فى الإسكوريال (ذبيان) . وهو تحريف والصحيح ما أثبتناه .

(٣) وردت فى الإسكوريال (اريوس) وهو تحريف والصحيح ما أثبتناه .

(٤) المقصود هنا بأن جده جعفر هو أول من أسلم من أسلافه .

ولا سَكت عن أقبح ما يمكن من السّب لمن عاتبه ، وأنه قتل أحد جيرانه على سبب يسير دافعه عنه ، فتغرّب لذلك عن الموضع زمانا .

وذكر ابن القوطيّة ، أن عامل ريّه ، عاقبه فى جناية ، وفرّ إلى العُدوة ، وصار يتهرّب عند خياط كان من أهل ريّه ، فبينا هو جالس فى حانوته يوما ، إذ أتاه شخص بثوب يقطعه ، فقام إليه الخياط ، فسأل ذلك الشخص الخياط عن عمر ، فقال له هو رجل من جيرانى ، فقال الشيخ متى عهدُك بريّه ، فقال له ، منذ أربعين يوما ، فقال له ، أتعرف جبلا يقال له بُبشتر[1] ، فقال أنا ساكن عند أهله ، فقال أله حركة ، قال لا ، قال الشيخ قد أذن ذلك . ثم قال ، تعرف فيما يجاوره رجلا يقال له عمر بن حفصون ، ففزع من قوله ، فأحدّ الشيخ النظر فيه وقال ، يا منحوس ، تُحارب الفقر بالإبرة ، إرجع إلى بلدك ، فأنت صاحبُ بنى أمية ، وستملك ملكاً عظيماً ، فقام من فَوْره ، وأخذ خُبزة فى كُمّه ، ورجع إلى الأندلس. فداخل الرجال ، حتّى ضبط الجبل المذكور ، وانضوى إليه كل من يتوقّع التهمة على نفسه ، أو تشهره إلى الانتزاء بطبعه ، وضمّ إلى القلعة كل من كان حولها من العجم والمولّدين . ثم تملّك حصن أوطة وميجش ، ثم تملك قُمارش وأرجِذونه[2] . ثم اتسع نظره ، حتّى تملك كورة ريّه ، والخضراء ، وإلبيرة ، إلى بَسْطَة وأُبّدة وبيّاسة وقَبْرة ، إلى حصن بُلى ، المطل على قرطبة . وأشرق الخلافة بريقها ، وقطع الزمان من استكانة إلى عهد ، وكشف الوجه فى خَتْر ، وتَشْمير الساعد عن حرب ، وحَسَر اللّثام عن أيد وبَسْطة . وشد الحزام على جَهْد وصبر ، ونازله

(١) جبل ومدينة ببشتر ، يقعان شمال عربى مالقة فى قلب كورة رية . و بالإسبانية «Bobastro»

(٢) تقع قارش على مقربة من شمال مالقة ، وتقع أرشدونه أو أرجذونه فى شمالها ، وفى شمال=

الخلايف والقُواد ، فلم يحُل بطايل ، وأصابته جراحات مُثْخِنة فى الوقايع وأصبحت فتنتُه سَمَر الرُّكاب ، وحديث الرِّفاق ، شدَّة أسر ، وثِقل وطأة ، وسَعة ذَرْع ، واتِّصال حبل ، وطول إملاء ، استغرق بها الستين ، وطوى الأعمار ، وأوْرَث ذلك ولده بعده ، وعند الله جزاء وحساب ، وإن امتدَّ المآب ، لا إلّه إلّا هو .

دخوله عرناطة وإلبيرة

قال ابن الفيَّاض وغيره ، ودخل إلبيرة مرات ، عندما ثار بدعوته ، قاتل ، وانضوى إلى حصن منتشافر[١] ، من إقليم برجيلة قيس ، فى نحو ستة آلاف ، وتغلب على يحيي بن صِقالة ، ثم نازله سَوَّار بن حمدون أمير العرب بغرناطة ، حتى غلبه ، وأخذه أسيرا ، ثم أوقع بجَعْد ومن معه من أهل إلبيرة وقايع مُستأْصِلة ، وتملك بعدها بيَّاسة وأبَّدة ، فى أخبار تطول . قال أبو مروان ، قصد ابن حفصون حاضرة إلبيرة وحصونها ، وناصب الحرب سوَّاراً ، وقد استمد سوَّار رجالات العرب ، من كورتى جيَّان وريُه وإلبيرة ، فوقعت الهزيمة على ابن حفصون ، وجرح جراحات مُثخنة ، وأُصيب جماعة من فرسانه ، وانقلب منهزما ، فغضب عند ذلك على أهل إلبيرة فأَغْرَمَهم مَغْرما فَدَحهم ، واستعمل عليهم ، حفص بن المرَّة ، فلم يزل يعمل الحيل على سوَّار ، حتى أوقع به ، وأتى بجثته إلى إلبيرة ، وحمل رأسه إلى بُبَشتر ، واستَشْرى داؤه ، وأعيا أمره ، فاتصل مُلكه بالقواعد والأَقطار ، وغلب أكثر المدن ، ما بين الموسَّطة والغرب ، وأحدق

= شرق ببشتر بنفس الولاية ، وهى بالإسبانية على التوالى « Archidona, Comares » .

(١) هذه تسمية ابن حيان لهذا الحصن . وفى تسمية أخرى حصن منت شُفند .

ملكه بقرطبة ، وحجر عليها الخيل من حصن بُلى[١] ، من حصون قَبْرة ، فجلت الكَنْبانية[٢] ، وامتدَّ إلى بنيان المعاقل . ولما رأى الأمير محمد[٣] ما أحاط به منه ، تأهب إلى غزوه ، ونزل حصن بُلى ، وناهضه ، فأوقع به ، وهزمه وألجأه إلى أن سَلَّم فى حصنه . فلما خرج منه بمن معه ، تطيَّرهم ريح الفرار والسيوف تأخذهم . استولى الخليفة على الحصن . وفى ذلك يقول أحمد بن عبد ربه ، شاعر دولتهم :

ولـه يـوم بُلى وقعـة لـم ... تدع للكُفر رأسا فى ثَبَج
لم يجد إبليس فى حَوْمتها ... نفعا من رهبة حيث بَلَج
دفعتهم حملة السَّيل إلى ... كافِح الأمواج مخضِّ اللُّجج
فتح الله على الدِّين بـه ... وعلى الإسلام ياعامرتتج

وكان هذا الفتح سنة سبع وسبعين ومائتين[٤] . ثم استخلص مدينة إستِجَّة .

وفاته

قال ، ومن هذا العهد ، أَدْبر أمر ابن حفصون ، وتوقَّف ظهوره ،

---

(١) حصن بل أو بول أو بلاى وبالاسبانية « Poley » أو « Polei » ، يقع شمال غربى لوشة ، وشرق قبرة على مقربة من نهر شنيل . وتسمى البلدة التى قامت مكانه اليوم ببلدة أجيلار «Aguilar» (راجع المجلد الأول ص ١١١ حاشية) .

(٢) الكنبانية هم الفلاحون أو الزراع الذين يزرعون الأرض المنبسطة وأصلها من الإسبانية « Campesino » .

(٣) هذا خطأ تاريخى من ابن الخطيب ، لأن الأمير محمد بن عبد الرحمن أمير الأندلس المتوفى فى ربيع الأول سنة ٢٧٢ هـ لم يكن هو الذى اضطلع بمعركة بلى ضد ابن حفصون ، وإنما الذى اضطلع بها هو ولده الأمير عبد الله الذى جلس على العرش فى شهر صفر سنة ٢٧٥ هـ

(٤) وهذا خطأ تاريخى آخر لابن الخطيب ، لأن معركة بلى التى نشبت بين جيش الأمير عبد الله وقوات ابن حفصون عند حصن بلى وأحرز فيها الأمير نصره الباهر على ابن حفصون . وقعت فى ربيع الأول سنة ٢٧٨ هـ . وليس فى سنة ٢٧٧ هـ (راجع كتابى دولة الإسلام فى الأندلس الطبعة الرابعة ص ٣٢٤ - ٣٢٦) .

بعد تخبُّط شديد ، ولَجاج كبير ، وشرٍّ مُبير ، وكانت وفاته ببُشْتر ، موضع انتزائه على عهد الخليفة عبد الرحمن فى سنة ست وثلاثمائة ، بعد مرض شمل النَّفخُ به جسده ، حتى تشقَّق جلده ، وانتقل أمره إلى ولده جعفر ، ثم إلى ولده سليمان ، ثم إلى ولده حفص . وعلى حفص انقرض أمرهم .

عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن مسلمة التجيبى

بَطَليوسى ، مِكناسى الأَصل ، من مِكناسة الجوف ، الأَمير بالثغر الغربى ، الملقب من أَلقاب السلطنة بالمتوكل على الله ، المكنى بأَبى محمد ، المُنبز بابن الأَفطس .

أَوليته

قال ابن حيان ، كان جدُّهم عبد الله بن مسْلمة المعروف بابن الأَفْطَس ، أَصله من فحص البلُّوط[1] ، من قوم لا يدَّعون نباهة ، غير أنه كان من أَهل المعرفة التامة ، والعقل ، والدهاء ، والسياسة . ثم كان هذا الصُّقع الغربى ، بطليوس وأَعمالها ، وشَنْتَرين والأُشْبونة ، وجميع الثغر الجوفى فى أَمر الجماعة ، رجل من عبيد الحكم المستنصر[2] ، يسمى سابور . فلما وقعت الفتنة ، وانشقَّت العصا ، انتزى سابور على ما كان بيده . وكان عبد الله يدبر أَمره إلى أن هلك سابور ، وترك ولدين لم يبلغا الحُلُم ، فاشتمل عبد الله على الأَمر ، واستأْثر به على ولديه ، فحصل على

---

(١) فحص البلوط وبالاسبانية « Las Pedroches » هو موضع يقع على مقربة من قرطبة فى واد منبسط تكثر به أشجار البلوط . وكانت تسكنه بعض طوائف البربر .

(٢) وردت فى الإسكوريال (المتصر) . وهو تحريف ، وصوابه الحكم المستنصر .

مُلْك غرب الأندلس ، واستقام أمره ، إلى أن مضى بسبيله ، وأعقبه إبنه المظفّر محمد بن عبد الله ، وكان ملكا شهيرا عالما شجاعا أديبا ، وهو مؤلف الكتاب الكبير المسمى بالمظَفّرى ، فاستقامت أموره إلى أن توفى فقام بأمره ولده عمر هذا المترجم به .

حاله

قال ابن عبد الملك ، كان أديبا بارع الخطّ ، حافظا للغة ، جوادا ، راعيا حقوق بلده ، مُواخيا لهم ، مُحبّبا فيهم ، مرّت لهم معه أيام هُدنة وتفضُّل إلى حين القبض عليه .

وقال الفتح فى قلائده : ملك جنّد الكتائب والجنود ، وعقد الألوية والبنود ، وأمر الأيام فائتمرت ، وطافت بكَعْبته الآمال واعتَمرت ، إلى لَسْن وفصاحة ، ورَحْب جناب للوافدين وساحة ، ونظم يُزْرى بالدّر النظيم ، ونثر تسرى رقته سُرى النسيم ، وأيام كأنها من حسنها جُمع ، وليال كان فيها على الأُنْس حضور ومجتمع ، راقت إشراقا وتبلُّجا ، وسالت مكارمه فيها أنهارا وخُلُجا ، إلى أن عادت الأيام عليه بمعهود العُلوان ، ودبّت إليه دبيبها لصاحب الإيوان ، وانبرت إليه انبراءها لابن زهير وراء عمان .

شعره

بلغه أنه ذُكر فى مجلس المنصور يحيى أخيه بسوء ، فكتب إليه بمانصه

فما بالهم لا أنعم الله بالهم	يَنيطون بى ذمّا وقد علموا فضلى
يسيئون لى فى القول جهلا وضَلّة	وإنى لا أرجو أن يسيئهم فعلى
لئن كان حقا ما أذاعوه لا مَشَتْ	إلى غاية العلياء من بعدها رِجْلى
ولم ألق أضيافى بوجه طلاقة	ولم أمنح العافين فى زمن المَحْل

وكيف وراحى درس كل غريبة ... وورد التقى شمى وحرب العدى نقلى
ولى خلق فى السخط كالشرى طعمه ... وعند الرضى أحلى جنى من جنى النحل
فيا أيها الساقى أخاه على النوى ... كؤوس القلى مهلا رويدك بالعل
لنطفىء نارا أضرمت فى صدورنا[1] ... [فمثلى لا يقلى ومثلك لا يقلى][2]
وقد كنت تشكينى إذا جئت شاكيا ... فقل لى لمن أشكو صنيعك بى قل لى
فبادر إلى الأولى وإلا فإننى ... سأشكوك يوم الحشر للحكم العدل

وكتب جوابا لأبى محمد بن عبدون مع مركوب عن أبيات ثبتت فى القلايد :

بعثت إليك جناحا فطر ... على خفية من عيون البشر
على ذلل من نتاج البروق ... فى ظل من نسيج الشجر
فحسبى ممن نأى ومن دنا ... فمن غاب كان كمن قد حضر

قال الفتح ، أخبرنى الوزير أبو أيوب بن أمية ، أنه مر فى بعض أيامه بروض مفتر المباسم ، معطر الرياح[3] النواسم ، فارتاح إلى الكون به بقية نهاره ، والتنعم ببنفسجه وبهاره . فلما حصل من أنسه فى وسط المدى ، عمد إلى ورقة كرنب قد بللها الندى ، وكتب فيها بطرف غصن ، يستدعى الوزير أبا طالب [بن غانم] أحد ندمائه ، ونجوم سمائه :

أقبل أبا طالب إلينا ... [واسقط سقوط الندى علينا][4]

---

(١) هكذا وردت فى قلائد العقيان . ووردت فى الإسكوريال (بنفوسنا) .

(٢) هكذا وردت هذه الشطرة فى الإسكوريال . وقد وردت فى القلائد على النحو الآتى (فمثلك لا يقلى ومثلى لا يقلى) .

(٣) هذه الكلمة واردة فى القلائد وساقطة فى الإسكوريال .

(٤) هكذا وردت هذه الشطرة فى الاسكوريال . ووردت فى القلائد كالآتى (وقع وقوع الندى علينا) .

ونحن عِقْد بغير وسْطى ما لم تكن حاضراً لَدَيْنا

نثره

وهو أشَفُّ من شعره ، وإنّه لطَبَقَة تتقاصر عنها[1] أفذاذ الكتاب ، ونهاية من نهاية الآداب ، قال ، كان ليلة مع خواصّه للأنس مُعاطيا ، ولمجلس كالشمس واطيا ، قد تفرّغ للسرور ، وتفرغ عيشا كالأمل المَزْرور ، والمُنى قد أفصحت وِرْقُها ، وأومض بَرْقُها ، والسّعد تَطْلع مَخايله ، والملك يبدو زهوْه وتخايُله ، إذ ورد عليه كتاب بدخول أشْبُونة فى طاعته ، وانتظامها فى سِلْك جماعته ، فزاد فى مسرّته ، وبَسَط من أسِرّته وأقبل خُدّامه ، وأسْبَل نداه على جُلسائه ونُدّامه ، فقال له ابن خِيرة ، وكان يُدلّ بالشباب ، وينزل منه مَنْزلة الأحباب ، لمن تُولّيها ، ومن يكون واليها ، فقال له ، أنت ، فقال فاكتب الآن[2] بذلك ، فاستدعى الدواة والرّق ، وكتب وما جفّ له قلم ، ولا توقّف له كَلِم : لم يُسَوّغ أولياءُ النّعم ، مثل الذى سُوّغتموه من التزام الطاعة ، والدخول فى نَهْج الجماعة ، وذلك لا آلوكم [ونفسى فيكم][3] نُصحا فيمن أتخيّره ، للنيابة عنى فى تدبيركم ، والقيام بالدّقيق والجليل من أموركم ، وقد ولّيت عليكم ، من لم أوثر [والله][4] فيه دواعى التّقريب ، على بواعث التّجريب ، ولا فَوات التّخصص ، على لوازم التّمحيص ، وهو [الوزير][5] القائد أبو عبد الله بن خيرة ، ابْنِى دُرْبة ، وبعضى صُحبة ، ونشأتى سكّة

---

(١) وردت فى الإسكوريال (افراد) . ونعتقد أن التصويب أرجح بالنسبة للمعنى .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى القلائد (لى) .

(٣) هذه الزيادة من القلائد .

(٤) الزيادة من القلائد .

(٥) الزيادة من القلائد .

وقَرْية ، وقد رسمت له من وجوه الذّب والحماية ، ومعالم الرّفق والرّعاية ، ما التزم الاستيفاء بعَهْده[1] ، والوقوف بجدّه عند حده[2] ، والمسؤول فى عَوْنه من لا عون إلا من عنده ، ولن أعرّفكم من حميد خصاله ، وسديد فعاله ، إلا بما سيَبْلو للعيان ، ويزكو مع الامتحان . ويفشو[3] من قبلكم إن شاء الله على كل لسان ، وقد حدّدت له أن يكون لناشئكم أباً ولكهلكم أخاً . ولذى النفوس والكبرة إبناً ، ما أعَنْتُموه على هذا المُراد ، ولزوم الجواد ، ورُكوب الانقياد . وأما من شق العصا ، وبان عن الطاعة ، وظهر منه المراد والهوى ، فهو القَصىُّ منه ، وإن مَتَّ إليه بالرّحم الدُّنيا ، فكونوا خير رعيّة ، بالسمع والطاعة فى جميع الأحوال ، يَكُن لَكم بالبرِّ والموالاة خيرَ وال [إن شاء الله عز وجل][4] .

وصوله إلى غرناطة

وَصَلها صُحبة حليفه ابن عباد ، لما قبض يوسف بن تاشفين على صاحبها ونزل بالمشيجة من خارجها فى رجب من عام ثلاثة وثمانين وأربعمائة ورابهما الأمر ، كما تقدم فى ذكر المعتمد بن عباد ، فتعجّلا الرجوع إلى وطنهما بحيلة دبّراها.

نكبته ووفاته

ولما اشتدَّ خوفه من أمير لمتونة ، ورأى أنه أُسْوَة ابن عباد فى الخلع عن مُلْكه ، وضَيَّقت الخيل على أطرافه وانتزعتها ،داخل طاغية الرُّوم ، وملَّكه من مدينة الأُشْبُونة ، رغبة فى دفاعه عنه ، فاستَوْحشت لذلك رعيَّته ،

(١) هكذا فى القلائد . وفى الإسكوريال (بجده) .

(٢) هكذا فى القلائد . وفى الإسكوريال (جهده) .

(٣) هكذا فى القلائد . وفى الإسكوريال (ويفشى) .

(٤) هذه الزيادة من القلائد .

وراسلت اللّمتونيين، واقتحمت عليه مدينة بَطَلْيوس، واعتصم بالقَصَبة، وخانه المُحاربة، فدُخلت عليه عَنْوةً، وتُقُبِّض عليه وعلى بنيه وعبيده، وتحصّلوا فى ثقاف قائد الجيش اللّمتونى. وبادر إعلام الأمير سير بن أبى بكر، فلحق بها. واستخرج ما كان عند المتوكل من المال والذّخيرة، وأزْعَجه إلى إشبيلية مع إبْنين له، فلما تجاوز وبعد عن حضرته، أنزله وقيل له تأهب للموت، فسأل أن يقدم ابناه يَحْتَسبهما عند الله، فكان ذلك، وقُتلا صبراً بين يديه، ثم ضُرب عنقه، وذلك صدر سنة سبع وثمانين وأربعمائة، وانقرضت دولة بنى الأفطس.

وممن رثاهم، فبلغ الأمد وفاءً وشهرة وإجادة، أبو محمد عبد المجيد ابن عبدون[1] بقصيدته الفريدة:

الدّهر يفجع بعد العَيْن بالأثــر ... فما البُكاءُ على الأشـباح والصور

أنهاك أنهاك لا آلُوك موعظة[2] ... عن نومةٍ بين ناب اللّيث والظّفر

فالدهر حربٌ وإن أبدى مُسالمة ... والبيضُ والسُّمر مثل البيض والسمر

ولا هَوادة بين الرأس تأخـذه ... يد الضرّاب وبين الصّارم الذّكر

فلا تَغُرَّنك من دُنيـاك نومتهـا ... فما صناعةُ عينيها سوى السّهر

ما للّيالى أقـال الله عثرتنـــا ... من اللّيـالى وخانتها يد الغِير

فى كل حين لها فى كل جـارحة ... منّا جِراح وإن زاغَت عن البصر

تُسرّ بالشيءِ لـكن تغرّبَـــه ... كالأيم ثار إلى الجانى من الزّهر

---

(١) هو الفقيه والكاتب والشاعر الكبير أبو محمد عبد المجيد بن عبدون وزير بنى الأفطس وكاتب دولتهم. وأصله من يابرة من أعمال البرتغال. وقد ترك لنا رسالته الشهيرة عن «القضاء والحسبة» وفيها يقدم إلينا صوراً هامة عن شئون القضاء والحسبة فى عصره - عصر الطوائف - وعن مجتمع الطوائف، يبدو فيه روح النقد والتشاؤم وقد توفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م).

(٢) هكذا فى الإسكوريال والمعجب. وفى القلائد (معذرة)

كم دولةٍ وُلِّيت بالنصر خدمتُها ... لم تُبْق منها وسَلْ ذكراك من خبر

هَوَتْ بدارا وفلَّت غرب قاتله ... وكانت غَضْبا على الأملاك ذا أثر

واستَرْجعت من بنى ساسان ما وَهَبت ... ولم تَدَعْ لبنى يُونان من أثر

وأتْبَعت[(١)] أختها طسْما وعاد على ... عادٍ وجرهم منها ناقص المِرَر

وما أقالَتْ ذوى الهيئات من يمن ... ولا أجَارَتْ ذوى الغايات من مُضر

ومزَّقت سبأً فى كل قاصية ... فما التقى رائحٌ منهم بمبتكر

وأنفذت فى كُلَيب حكمها ورَمَت ... مُهلهلا بين سَمْع الأرض والبَصَر

ولم تردَّ على الضِّليل صحته ... ولا ثَنَتْ أسَدا عن ربِّها حُجر

ودوَّخت آل ذبيان وإخوتهم ... عَبْساً وعضَّت بنى بدر على النهر

وألحقت بعَدِْى بالعراق على ... يد ابْنه أحمر العينين والشَّعر

[وأهلكت أبْرِويزا بابنه وَرَمَت ... بيزْدَجِرد إلى مَرْوٍ فلم يحر][(٢)]

وأشرفت بحبيب فوق قارعة ... والحقت[(٣)] طلحة الفياض بالعَفَر

ومزَّقت جعفرا بالبيض واختلست ... من غيلة حمزة الظَّلام للجُزر

وبلَّغت يزدجرد الصِّين واختزلت ... عنه سوى الفُرْس جَمْع الترك والخَزر

ولم ترد مواضى رُسْتم وقنا ... ذى حاجب عنه سَعْدا[(٤)] فى ابنة الغير

وخضَّبت شَيْب عثمان دما وخَطَّت ... إلى الزبير ولم تستحى من عمر

وما رَعَتْ لأبى اليقظان صحبته ... ولم تزوده إلا الضَّيح فى الغمر

وأجْزَرَت سيف أشقاها أبا حسن ... وأمكنت من حسين راحتى شمْر

وليتها إذ فَدَتْ عَمْرًا بخارجة ... فدت عليًّا بمن شاءت من البشر

---

(١) كذا فى الإسكوريال والقلائد . وفى المعجب (والحقت) .

(٢) هذا البيت وارد فى المعجب وساقط فى القلائد والإسكوريال .

(٣) هكذا فى الإسكوريال وفى القلائد والمعجب (والصقت)

(٤) هكذا فى الإسكوريال والمعجب . وفى القلائد (سعدا) .

وفى ابن هند وفى ابن المصطفى حسن . أتت بمعضلة الألباب والفكر

فبعضنا قائل ما اغتاله أحد وبعضُنا ساكت لم يُؤْت من حَصَر

وعمّت بالرّدى (١) فَوْدَى أبى أَنَس ولم تردّ الرّدى عنه قَنا زُفَر

وأردت ابن زياد بالحسين فلم يَبُؤْ بشسع له قد طاح أو ظَفَر

وأنْزَلت مُصعبا من رأس شاهقة كانت بها مهْجة المختار فى وَزَر

ولم تراقب مكان ابن الزُّبير ولا [راعت عياذته بالبيت والحجَر] (٢)

[ولم تَدَعْ لأبى الزّيان قاضبة ليس اللّطيم لها عمرو بمنتصر

وأظفرَت بالوليد بن اليزيد ولم تُبق الخلافة بين الكاس والوَتَر

حُبابة حبّ رمّان ألمّ بها وأحمر قطرته نَفْحة القَطْر] (٣)

ولم تعد قُضُب السّفاح نابية عن رأس مروان أو أشياعه الفُجُر

وأسْبلَت دمعة الروح الأمين على دم يثج (٤) لآل المصطفى هدر

وأشْرَقت جعفراً والفضلُ ينظره والشيخ يحيى بريق الصّارم الذّكر

وأخفَرت فى الأمين العَهْد وانتدبت لجعفر بابنه بالأعبد الغدر

وروّعت كل مأمون ومؤتَمَن وأسلمت كل منصور ومنْتصر

وأعثرت آل عبّاس لعالهم بذيل زبّاء من بيض ومن سُمر

ولا وَفَت بعهود المستعين ولا بما تأكّد للمعْتز من مِرَر

وأوثقت فى عُراها كل مُعْتَمِد وأشرقت بقذاها كل مُقتَدر

بنى المظفر والأيام [ما برحت] (٥) مراحل والوَرى منها على سَفَر

---

(١) هكذا فى الإسكوريال والقلايد . وفى المعجب (بالظبى) .

(٢) هكذا وردت هذه الشطرة فى القلايد والمعجب . ووردت فى الإسكوريال (ولم تبق الخلافة بين الكاس والوتر) وهى شطرة بيت آخر يأتى بعد .

(٣) هذه الأبيات الثلاثة ساقطة فى الإسكوريال وواردة فى القلايد والمعجب .

(٤) هكذا وردت فى القلايد . وفى الإسكوريال والمعجب (بفخ) .

(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال والقلايد . وفى المعجب (لا نزلت) .

سحقًا ليومكم يوما وما حملت … بمثله ليلة [في سالف العُمْر] (1)

من للأسرَّة أو من للأعنَّة أو … من للأسِنَّة يهديها إلى الثَّغر

من للبَراعة أو من للبَراعة أو … من للسَّماحة أو للنَّفع والضَّرر

من للظُّبى (2) وعوالى الخطِّ قد عُقدت … أطرافُ ألسُنها بالعِيِّ والحَصَر

وطوَّقت بالمنايا السُّود بيضَهم … أعْجِب بذاك وما منها سوى ذِكر

أو رَفْعُ كارثة أو دَفْعُ حادثة … أو قمع آزفةٍ تُعيِي على القدَر (3)

ويْحُ السَّماح وويح الجود (4) لو سَلِما … وحَسْرة الدِّين والدُّنيا على عمر

سَقَتْ ثرى الفضْل والعباس هامِيةٌ … تُعزى إليهم سماحاً لا إلى المطَر

ثلاثة ما ارتقى النَّسران حيث رقوا … وكلُّ ما طار من نِسْرٍ ولم يَطِر

ثلاثة كذوات الدهر منذ نأَوا … عني مضَى الدهر لم يُربع ولم يحر (5)

ومرَّ من كُل شيءٍ فيه أطيبُه … حتى التمتع بالآصال والبُكُر

من للجلال (6) الذى عمَّت مهابته … قلوبنا (7) وعيون الأنجم الزهر

أين الإباءُ الذى أرْسَوا قواعده … على دعائم من عزٍّ ومن ظَفَر

أين الوفاءُ الذى أصْفَوا شرائعه … فلم يَرِد أحد منهم على كَدَر

كانوا رواسى أرض الله مذ نأَوا (8) … عنها استطارت بمن فيها ولم تقر

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال [illegible] فى القلايد ([illegible]) [illegible] المعجب (فى غابر العمر) .

(٢) هكذا وردت فى القلايد والمعجب . وفى الإسكوريال ([illegible]) .

(٣) هكذا ورد هذا البيت فى الإسكوريال . وورد فى المعجب والقلايد كالآتى (أو دفع كارثة أو ردع رادفة أو قمع حادثة تعين على القدر) .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . ووردت فى القلايد والمعجب (الباس) .

(٥) ورد هذا البيت فى المعجب ، ولم يرد فى الإسكوريال ولا القلائد .

(٦) هكذا وردت فى الإسكوريال والقلائد . وفى المعجب (أين الجلال) .

(٧) هكذا وردت فى القلايد والمعجب . وفى الإسكوريال (عيوننا) .

(٨) هكذا وردت فى الإسكوريال والقلايد . وفى المعجب (مضوا) .

كانوا مصابيحها دهرا فمذ خَبُوا[1] هذى الخليقة تبالله فى سَدَر[2]

كانوا شَجَى الدهر فاستهوتهم خدع منه بأحلام عادٍ فى خُطا الخَضِر

من لى ولا من بهم إن أظلمت نُوَب ولم يكن لَيْلُها يفضى إلى سَحَر

من لى ولا من بهم إن طبقت[3] محن ولم يكن ورودها يُفضى[4] إلى صَدَر

من لى ولا من بهم إن عُطِّلت سُنن وأُخْفِيت ألسُن الآثار[5] والسِّير

ويلْمِه من طَلُوب الثأر مُدْرِكه لو كان ديناً على الأيام ذى عَسَر

على الفضائل إلا الصَّبر بعدهم تسليم[6] مُرْتَقِبٍ للأجر منتظر

يرجو عسى وله فى أختها طمع[7] والدهر ذو عُقَب شتى وذو غِيَر

قرَّطْت آذان من فيها بفاضحة على الحِسان حَصَى الياقوت والدُّرر

[سيارة فى أقاصى الأرض قاطعة شَقاشِقا هَدَرت فى البَدْو والحَضَر

مُطاعة الأمر فى الباب قاضيةً من المسامع مالم يُقْضَ من وَطَر][8]

ومن الغـــرباء

عمثن بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن

الدَّايل بتِلمسان ، يكنى أبا سعيد .

حاله

---

(١) هكذا وردت هذه الشطره فى الإسكوريال ، ووردت فى القلايد والمعجب كالآتى (كانوا مصابيحها فذ خبوا غبرت – عثرت) .

(٢) هكذا وردت فى المعجب . وفى الإسكوريال والقلايد (سرر) والأولى أرجح .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال والمعجب . وفى القلايد (اطنبت) .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال والقلايد . وفى المعجب (يدعو)

(٥) هكذا وردت فى القلايد والمعجب ، وفى الإسكوريال (الأيام) .

(٦) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى القلايد والمعجب (سلام) .

(٧) هكذا وردت فى الإسكوريال والقلايد . وفى المعجب (أمل) .

(٨) هذان البيتان الختاميان وردا فقط فى المعجب . ولم يردا فى الإسكوريال ولا فى القلايد .

كان شيخاً مَخِيلا بسِمة الخير ، متظاهرا بالنَّسَف ، بقية آل زيّان ، متقدِّما فى باب الدهاءِ والذِّكر ، بالغا أقصى المبالغ فى ذلك . سكن غرناطة ووادى آش ، ووُلد بغرناطة . وكان أبوه ممن هلك فى وقيعة فُرْتونة ، فارتزق مع الجند الغربى بديوانها فى حِجر أبيه وبعده ، ثم ثَنى عِنانه إلى وطنه ، وتخطَّته المتالف عند تغلُّب السلطان صاحب المغرب على بلده تلمسان ، وغاص فى عِرْض من تَهنَّأ الإبقاء من قبيله . وكان ممن شمله حصار الجزيرة ، ووصل قبله ممدًّا مع الجيش الغربى بجيش غرناطة عند مُنازلة القلعة . ولما جرت على واتِرهم السلطان أبى الحسن الهزيمة بظاهر القَيْرُوان ، وبَعُد الطمع فى انتِشاله وجَبْره ، ولحق كل بوطنه ، حوم الفلُّ من بنى زيَّان على ضعفهم ، ومذ رحل عنه السلطان القايم بمُلْك المغرب أبو عنان ، إلى محل الأمر ودار الملك ، وسدَّ تلمسان بشيخ من قبيلهم يعرف بابن حرار ، له شهرة وانتفاخ لتنسيق رياح الاختلاف ، فذ فى إدارة الحيلة ، وإحالة قِداح السياسة ، رأس الرَّكب الحجازى غير ما مرة ، وحلَّ من الملوك ألطف محلَّة . ولما نَهَد القوم إلى تلمسان ، ناهضهم ابن الحرار بمن استَرْكب من جنده ، وانضم إليه من قومه ، فدارت عليهم الهزيمة ، وأُحِيط به ، فتُمُلِّك البلد ، وتُحصِّل فى الثِّقاف ، إلى أن هلك به مُغْتالا ، واستولى عثمن بن يحيى على المدينة ، وانقاد إليه ما يرجع إليها من البلاد والقبايل ، فثاب لهم مُلْكٌ لم تكد شُعْلته تَقِد حتى خَبَتْ ، وعلى ذلك فبلغوا فى الزمان القريب ، من وفور العُدَّة ، واستجادة الآلة ، وحُسن السِّيرة ، ما يقضى منه العجب . وانفرد عثمن بالأمر ، وعيَّن أخاه أبا ثابت الزعيم إلى إمارة الجيش ، فاستقام الصفُّ ، وانضم النَّشر ، وترتَّبت الألقاب ، واستأنفوا الدولة ، وتلقَّفوا الكُرَة ،

وقلَّ ما أدْبَر شيء فأقبل . وبادر السلطان بالأندلس مُفاتحته مهنِّيا ، وللحِلْف مجدِّدا ، بكتاب من إنشائي من فصوله :

« بعد الصَّدر والتحميد ، ولا زايد بفضل الله المرجو فى الشَّدايد ، لجميل العوايد ، إلا ما شرح الصدور ، وأكَّد السرور ، وبَسَط النفوس ، وأضحك الرَّسَن العَبوس ، من اتِّساق أمور ذلك المُلْك لديكم ، واجتماع كلمته عليكم ، وما تعرَّفنا أن الدولة الزَّيانيَّة ، وصل الله لبُدورها استيناف الكمال ، وأعلى أعلامها فى هضاب اليُمن والإقبال ، تذكَّرت الرسايل القديمة والأذمَّة ، وألقت إلى قومها بالأزمَّة ، وحَنَّت إلى عهدهم على طول النَّوى ، وأنشد لسان حالها ، « نقِّل فؤادك حيث شئت من الهوى » ، فأصبح شَتِيتُك بأهلها مجموعا ، وعَلَمُ عَلْيَائها بأيدى أوليائها مرفوعا ، وملابس اعْتِزازها بعد ابْتِزازها جديدة ، وظِلال سُعودها على أغْوارها ونُجُودها مديدة ، وَقبيلها قد أنجح الله فى ائتلافه أمَلَ الآمل ، ومُبْتداها مرفوعا مع وجود العوامل ، والكثير من أوطانها قد سَلكت مسلكها فى الطاعة ، وتبادرت إلى اسْتِباق فضيلة الوفاق بحَسَب الاستطاعة ، فعظُم الاسْتِبشار بأن كان لكم مالها ، وفى إيالتكم انتِيالها ، من غير أن يَعْلَق بأسبابها من ليس من أربابها ، ويطمع فى اكْتِسابها من لم يكن فى حِسابها . وقلنا مُوارث وَجَب ، وعاصِب حَجَب ، ورَكْبٌ عَلَج من بعد القُفول ، وشمس طَلَعَت من بعد الأُفول ، وجيد حُلِّى بعد ما اشتكى العَطَل ، وغريم قضى بعد ما مَطَل ، وطِرْفٌ تنبَّه بعد ما سَجَع ، ودُرِّىٌّ استقام سيره عقب ما رجع ، وقضية انصرف دليلُها عن حدود القواطع ، وطُرحت عليه أشعة السُّعود السَّواطع ، لا بل عَبْدٌ أبَق لقَدَرٍ سَبَق ، حتى إذا راجع نُهاه ، وعَذَله العقل ونهاه ، جَنح بعد هجره ، إلى كنف من نشأ فى حِجره . وعلمنا أن الدولة التى

عَرَفنا مكارمها ، قد دالَتْ ، والغمامة التى شكرنا مَواقعها قد انْثالت ، فجرينا فى المسرّة ملء الأَعِنّة ، وشاركنا فى شكر هذه المنّة ، وأَصْدَرنا إليكم هذا الخطاب مُهَنِّياً ، وعن الود الكريم والولاء الصّميم مُنْبِيا ، وفى تعزيز ما بين الأَسلاف ، جدّد الله عليهم ملابس الرِّضوان مُعيدا مُبديا ، وإن تأَخّر منه الغرض ، وقضى بهذا العهد واجبه المُفْترض ، والأَعْذار واضحة ، وأَدِلّتها راجحة ، وللضّرار أحكام تُمْضى ، والفروض للفَوات تُقْضى ، فكيف والاعتقاد الجميل مُسَيَّر مُسَكَّن ، والوقت والحمد لله مُتمكن ، وما برِحنا فى مناط اجتهاد ، وترجيح استشهاد ، والأَخبار يَضْطرد مفهومُها ، والأَلفاظ لا يتخصّص عمومها ، والأَحاديث يجول فى مُتَعَارَضها النّظر ، ولا يلزم العمل ما لم يصحّ الخبر . فلما تحققنا الأَمر من قَصّه ، وتعاضد قياسه بنصّه ، لم نُقَدِّم على المبادرة عملا ، وبيَّنا لكم من حسن اعتقادنا ما كان مُجْملا ، فَلْيَهْنُ تلك الإيالة ما استأْنفته من شبابها ، وتَسَرْبلته من جديد أثوابها ، وليَسْتَقبل العيش خَضِراً ، والدهر مُعْتذرا ، والسّعد مُسْفِرا » .

وتمادى مُلْكه من الثامن والعشرين لجمادى الآخرة من عام تسعة وأربعين وسبعماية إلى أن استَوسق مُلْك المغرب للسلطان أبى عنان ، واستأْثر إليه أبيُّه ، وتحرك إلى مُنازلة تلمسان فى جمادى الآخرة عام ثلاثة وخمسين وسبعماية ، وكَسَر جَمْعهم ، واستولى على ملكهم حسبما يأْتى ،وبَرَز إليه سلطانها المذكور ، مؤثرا الإِصْحار على الاجْتِحار ، واللقاء على الانْحِصار ، وكانت بين الفريقين حرب ضُروس ، ناشَب الزّيّانيون محلّات المغرب القتال ، بموضع يُعرف بإنكاد ، على حين غفلة ، وبين يَدَىْ شروع فى تنقُّل وسكون ، وتفرّق من الحامية فى ابتـ ـد الخَلا ، وابتغاء الماء ، فلم يَرُع الا إطلال الرّايات ، وطلوع نواصى الخيل ، فوقع الصراخ ، وعلا النّداء ، وارتفع القَتام ،

وبادر السلطان بمن معه من الخالِصة ، وروّم الركاب الصّدمة ، ومضى قُدُماً ، وقد طاش الخبر بهزيمته ، فعاثَتْ العُربان فى محلّته ، وكانوا على الأموال أعدى من عدوّه ، وفرّ الكثير إلى جهة المغرب بسوءِ الأُحدوثة.

ولما تقاربت الوجوه ، وصدق المُصاع ، قذف الله فى قلوب الزيّانيين الرّعب ، واستولى عليهم الإدْبار ، فانهزموا أقبح هزيمة ، وتفرقوا شَذَر مَذَر ، واختفى سلطانُهم عثمن المترجم به ، وذهب متنكرا وقد ترجّل ، فعُثر عليه من الغد ، وأُوتى به فشدّ وثاقه ، وأسرع السلطان اللّحاق بتلمسان ، وقد تلقاه أهلها مُعلنين بطاعته . ولا ئِذين بجناب عَفْوه ، وتنكّبها الجيش المَفْلول ، لنظر الأمير أبى ثابت ، فاستقرّ بأحواز جزاير بنى مَزْغَناى[1] . ودخل السلطان تلمسان فى يوم الأحد ، الحادى عشر من ربيع الأول عام ثلاثة وخمسين وسبعماية ، وتدامر بنومرين[2] ، واستَدْركوا دَحْض الوصمة فى اتّباع أضدادهم المحروبين ، فكان اللقاء بينهم ، وبين الجيش المفلول وحَكَم الله باستِيصالهم ، فمضى عليهم السيف ، وأوتى بزعيمهم الزعيم ، فاحتمل مع أخيه فى لُمّة من أوليائهم ، ونفذ الأمر لأقْتالهم من بنى حرار بأخذ حتهم ، فقُتل عثمن والزّعيم رحمهما الله بخارج تلمسان ذَبْحًا ، وأُلحق بهما عميد الدّولة يحيى بن داود ، بعد أن استُحضر عثمن بين يدى السلطان ، وأسمع تأنيبا ، حَسُن عنه جوابه ، بما دلّ على ثبات وصبر . وانقضى أمر كرّتهم الثانية ، وخَلَتْ منهم الأوطان ، وخَلُصت لبنى مرين الجِهة ، وصَفَتْ العِمالة . والله يعطى مُلْكه من شاء سبحانه لا إله إلاّ هو ،

---

(١) جزائر بنى مزغناى هو الاسم القديم الذى كان يطلق على مدينة الجزائر الحالية ، وذلك باسم القبيلة التى كانت تنزل بها (بنو مزغناى) .

(٢) وردت فى الإسكوريال (بنو مروان) . ومن الواضح أن هذا تحريف ، وأن المقصود هو (بنو مرين) حسبما يبدو ذلك جلياً من اضطراد النص .

وكان مقتل عثمن وأخيه فى أوايل شهر ربيع الآخر عام ثلاثة وخمسين وسبعماية .

على بن حمود بن ميمون بن حمود بن على بن عبيد الله بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن على بن أبى طالب

أوّل ملوك بنى هاشم بالأندلس ، يكنى أبا الحسن ، ويلقّب من الألقاب السلطانية ، بالناصر لدين الله.

حاله

كان شهما لبيباً ، جَرِىء اللقاء ، باطش السّيف ، شديد السّطوة ، أسمر ، أعْيَن ، نَحيف الجسم ، طويل القامة ، حادّ الذهن ، من أولى الحزم والعزم .

خلافته

ذكروا أن هشام بن الحكم ، لما ضُيِّق به الحَجْر ، كتب إليه فى السّر بعَهْد ولايته ، وأهّله للأخذ بثاره ، فكان كذلك ، وأجاز البحر من سَبْتة ، مظهرا القيام بنَصْر هشام عندما خُلع ، فانحاش إليه كثير من الناس ، وقصد قرطبة ، وبَرَز إليه الخليفة سليمن خالعُ هشام ومُغتاله ، فظهر عليه على بن حَمّود وهزمه ، ودخل قرطبة ، فقَتل سليمن ، وبحث عن هشام ، وقد فات فيه الأمر ، وتسمّى بأمير المؤمنين . وأنِس به أهل قرطبة ، لقَهْره من كان لنَظَرِه من البرابرة ، وإمضاء الأحكام عليهم . قال المؤرخ ، فبَرقَتْ للعدل يومئذ بارقة ، لم تَكِد تَقِد حتى خَبَتْ . وكان الأغلب عليه السّخاء والشجاعة .

ومدحه الكثير من الشعراء ، منهم أبو عمر[(١)] بن درّاج ، وفيه يقول :

لعلّك يا شمس عند الأصيل تَحِنّ بشَجْو الغريب الذّليل
فكوني شَفيعي إلى أين الشفيع وكوني رسولي إلى أين الرسول
فأما شهدّتِ فأزكي شهيد وأما دَلَلت فأهدى دليل
إلى الهاشمي إلى الطّالبي إلى الفاطمي العَطُوف الوَصُول

وصوله إلى إلبيرة

قال ، ولما استوسق الأمر ، واضطرب عليه خيْران صاحب ألمرية ، أغراه وأذن لحربه ، فخرج من قرطبة يوم الثلاثاء لثلاث عشرة خلت من جمادى الآخرة من سنة ثمان وأربع ماية ، وسار إلى أن بلغ وادى آش ، وترادَفت عليه الأمطار والسُّيول ، وانصرف إلى إلبيرة ثم إلى قرطبة .

وفاته

قال المؤرخ ، وفى سنة ثمان وأربعماية كان مَقتل على بن حمُّود ، وذلك أن صَقالِبَته قتلُوه بموضع أمْنِه . فى حمام قصره ، وكانوا ثلاثة من أغمار[(٢)] صبيان قصْره ، منهم نُجح وصاحباه ، وسدُّوا باب الحمام عليه ، وتسللوا ، ولم يَحس أحدٌ بهم ، واستطال نساؤه بقاءه ، فدخلوا عليه ، ودمُه يسيل فصح خبر مقتله ، وبعَثت زناتة إلى أخيه بإشبيلية ، فخاف أن يكون حيلة ، حتى كَشف عن الأمر ، ولحِق بقرطبة ، فأخرج جَسَده ، وصلى عليه ، وأنفذه إلى سَبْتة ، فدفن بها ، وبُنى عليه مسجد هو الآن بسوق الكتان ، وقبض من قاتليه على صَبِيين عُذِّبا بأنواع العذاب ، ثم قُتلا وصُلبا .

(١) وردت فى الإسكوريال (أبو عمرو) . والصواب ما أثبتناه .
(٢) وردت فى الإسكوريال (أعمار) . والتصويب أنسب للسياق .

على بن يوسف بن تاشفين بن توحرت[1]

وينظر اتصال نسبه فى اسم أبيه .

هو أمير المسلمين بالعُدْوة والأندلس بعد أبيه ، يكنى أبا الحسن ، تصير إليه الملك بالعهد من أبيه عام سبعة وتسعين وأربعمائة[2] ، ثم ولى أمره يوم وفاته وهو يوم الإثنين مستهل محرم عام خمسماية .

حاله

وكان ملكا عظيما عالى الهمة رفيع القدر ، فسيح المعرفة شهير الحلم ، عظيم السياسة ، أنفذ الحق ، واستظهر بالأزكياء ، ووالى الغزو ، وسدّ الثغور ، إلى أن دهمه من أمر الدولة الموحدية ما دهمه ، وكل شيء إلى مدى ، فأمهل السَّرح ، وحالف الإدبار ، وجاز إلى الأندلس ، وغزا فيها بنفسه ، ودخل غرناطة وباشرها .

قال ابن عذارى ، تقدم الأمير أبو الحسن لذلك فاستعان بالله واستنجده وسأله حسن الكفاية فيما قلّده ، فوجده ملكاً مؤسّساً ، وجُندا مُجنّداً ، وسلطانا قاهرا ، ومالا وافرا ، فاقتفى إثر أبيه ، وسلك سبيله ، فى عضد الحق ، وإنصاف المظلوم ، وأمن الخائف ، وقمع المظالم ، وسدّ الثغور ، ونكاية العدو ، فلم يعدم التوفيق فى أعماله ، والتسديد فى حسن أفعاله .

دخوله غرناطة

وفى سنة خمس وخمسماية ، جاز البحر إلى الجهاد . قال المؤرخ ، قدم

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى نسبة يوسف بن تاشفين المعروفة لنا ، أنه يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن ترقوت بن وارتقطين بن منصور بن مصالة بن أمية الحميرى الصنهاجى اللمتونى .

(٢) فى هذا التاريخ الذى يورده ابن الخطيب عن إصدار يوسف بن تاشفين ولاية عهده لابنه على شىء من التحريف . والصواب هو أن وثيقة تولية عهد يوسف لعلى ، صدرت بحضرة قرطبة فى شهر ذى الحجة سنة ٤٩٦ هـ .

على بن يوسف غرناطة مرات مع أبيه . وفى سنة خمس وخمسماية تلوّم بها
ريثما تلاحقت حشوده ، وتأهبت مُطوِّعته وجنوده، فافتتح مدينة طَلْبيرة عنوة
ثم عبر البحر عام أحد عشر وخمسماية ، فغزى قولمرية[1] .

ظهور الموحدين فى أيامه

قال ابن عذارى ، فى سنة أربع عشرة وخمسماية ، كان ابتداءُ أمر
الثاير على الدولة ، الجالب للفتن الجمة ، الجارّ لها منذ ثلاثين سنة ،
حتى أقفر المعمور ، وأصار الضياء كالديجور ، محمد بن تُومَرت السوسى
الملقّب بالمهدى . قلت ، وأخباره عجيبة ، ومازال أمره فى ظهور ، وأمر
هذه الدولة ، فى ثبار وإدبار ، إلى أن محا رسومها ، وقطع دابرها ،
والمُلك لله ، يُؤتى الملك من يشاءُ ، ويَنزع الملك ممن يشاءُ ، سبحانه .

وفاته

قال ، وفى سنة سبع وثلاثين وخمسماية ، توفى أمير المسلمين على
ابن يوسف ، لسبع خلون من رجب ، ولم يُشهر موته إلا لخمس خلون
من شوال ، فكانت مدته من حين قدمه أبوه ، تسعا وثلاثين سنة وأشهرا .
وعمره إحدى وستون سنة ، قال ابن حماد ، ولما يَئس من نفسه ، عهد
أن يُدفن بين قبور المسلمين ، ودُفن بها فى جملتهم ، رحمه الله .

---

(٢) رسم هذه المدينة بهذه الصورة تحريف . وصوابه قلمورية أو قلمرية . وهى مدينة كبيرة
تقع شمالى البرتغال . وقد غزاها على بن يوسف بنفسه وافتتحها عنوة فى صفر سنة ٥١١ هـ (يونيه ١١١٧م)
وقد تبادلها المسلمون والنصارى مراراً . وبالبرتغالية « Coimbra » .

الأعيان والوزرا والأماثل والكبرا

عتيق بن زكريا بن موْل التجيبي

قرطبى الأصل ، يمتّ إلى الإمارة النّصرية بقُربى صِهر ، يكنى أبا بكر .

حاله

كان شهما جريًّا مِقداما ، جَهْوريا ، ذا أنَفه وشارة ، مليح التجنُّد ، ظاهر الرُّجُولية ، معروف الحق ، نبيه الولاية ، فصيح اللسان ، مطبُوعا ، ذكيا ، مؤثرا للفكاهة . وُلىَّ القيادة بمدينة وادى آش ، عَقِب الريس المُنتزى بها ، ثم عُزل عنها بسعاية رُفعت فيه إلى ذى الوزارتين أبى عبدالله ابن الحكيم ، فساء ما بينهما لذلك ، وأعمل عليه التدبير ، بمداخلة الامير نصر ، وإغرايه بالأمر . فتم له التّوثُّب على ملك أخيه ، وخَلعِه يوم عيد الفطر من عام ثمانية وسبعماية ، وقُتل الوزير ابن الحكيم بين يديه ، وانتُهبت منازله ، واستقل بعد بالتدبير والوزارة ، وحَصَل من صنايع الحاين ، ومتوقّعى الضغط ، على مال عريض ، وقام بوظيف الوزارة محذور الشبا ، مرهوب المُدْية ، مسنُوّ الفتكة ، فلم يَنشَب أن عُين للرسالة إلى باب السلطان ملك المغرب ، وسُد باب الإياب لوجهته ، وأقام بالعُدْوة ، تحت الحُظوة ، مشارا إليه فى وجوه الدولة ، وزير المداخلة والرُّتبة . وقد كان فى ريان حداثته ، لحق بطاغية الرُّوم ، ورَكِب فى جُملته ، وعَلِقته جارية من بنات زعماء الروم ، لفضل جماله ، وزَيْن شبيبته ، ففرّبها تحت حماية سيفه ، ولحق ببلاد المسلمين ، وكانت من أهل الاصالة والجمال ، فاتصل بمحلة أمير المسلمين أبى يوسف بن عبد الحق ، وقد

جاز إلى الاندلس غازيا . فاستخلصت منه لمزية الحُسن ، واستقرت بقصر السلطان ، حظيَّة لطيفة المحل ، وجدَّ أثر رِفدها وانتفع ، هو وبنوه بعايد جاهها ، وقد هلك السلطان . وقامت لمن خلفه مقام الأُمومة ، فنالوا بها دنيا عريضة ، وباشر بالمغرب أهوالا ، وخاض فى فِتَن ، إلى أن أسن ، وقيدته الكَبْرة ، واستولت على بَصَره الزمانة ، ولما وُلِّى الوزارة ولدُه على عهد سادس الأُمراء من بنى نصر ، استَقا.مه فى ربيع الثانى من عام تسعة وعشرين وسبعماية ، فقدم شيخا ، قد استَشن أديمه واحقَوقب ، ومَسْحةُ الظَّرف واللوذعية ، تتعلق منه بطَلَلٍ بايد . ثم اقتضى تقلُّص ظل الولاية عن ولده ، انصراف جميعهم إلى العُدْوة ، فكان ذلك فى رجب أو أول شعبان من العام ، وبها هلك .

وفاته

توفى بمدينة فاس رابع محرم عام ثلاثين وسبعماية . وكان كثيرا يتمثل بقول الشاعر :

نصحتُ فلم أفلح وخانوا فأفلحوا ... فانزلنى نُصحى بدار هـــوان

فإن عشتُ لم أنصح وإن متُّ فالعنوا ... دون النصح من بعدى بكل لسان

أخبرنى بذلك شيخنا أبو الحسن بن الجياب وغيره .

عمر بن يحيى بن مُحلَّى البطَّوى

يكنى أبا على .

حاله

كان يمتّ إلى السلطان ملك المغرب رحمه الله ، بالخؤولة ، وله جرأة

وجِزْم واضطِّلاع بالمهمة ، إلى نكراء وخُفوف إلى الفتنة ، واستِسْهال العظيمة ،
ولما تصيرت مالقة إلى إيالة السلطان أمير المسلمين أبي يوسف بن عبد الحق
من قِبل رؤسائها من بني إشقَيْلولة ، استَظهر عليها من عمر هذا بحجاج
رجاله ، وقدّمه بقَصَبتها ، وجعل لنظره جيشا أخشَن ، يقوده رجل من
كبار ِ ضِفانه . وداخل السلطان ثاني الملوك من آل نصر ، عمر بن مُحلّى هذا
بوساطة أخيه طلحة السابق إلى إيالته ، فأحكم بينهما صرف مالقة إليه ،
وانتقال عمر إلى خدمته ، مُعَوَّضا عن ذلك بمال له بال ، مُسَلَّما إليه
حصن شُلوبانية[1] ، ولأخيه طلحة مدينة المنكب[1] ، على أرزاق مقررة ،
وأحوال مرتبة مقدرة . فتم ذلك ، وتحمل ثِقات السلطان بقصبة مالقة
ليلا مع عمر ، واستُدعى لِلغداة قايد الجيش ومثله من الوجوه ، مُورياً
بمعارضتهم ، فسقط الغشاء بهم على سرحان ، وأخذهم اعتقاله ، رهينة
استُخلص بها من كان من عياله بالعُدْوة ، وجاء بها جَلواة عارية ، أعْرَبت
عن لُؤمه وخُبْث أمانته ، وانتقل له مُوَفى له بعهده ، فحل بحصن
شلوبانية منتصف عام سبعة وستين وسبعماية ، حسبما كتب لي بعض
الشيُوخ من مُسِنّي بقية أهله ، واحتل أخوه طلحة بمدينة المنكب ، ولم
يلبث أن خرج عنها للسلطان مُعَوضاً بالمال ، وأعمل الانصراف إلى الحج.
وأقام عمر بشلوبانية وما يليها من العِمالة ، مظهراً للطاعة تمام العام
المذكور ، وفسد ما بينه وبين السلطان المذكور ، وظهر الخلاف وأُخيفت
الطرق ، وتحرك السلطان إلى مُنازلته لأشهر ثلاثة من خلافه ، وحاصره
أياما شد فيها مُخنقه ، فلما رأى عزمه ، خاطب سلطانه ، الذى نزع عنه

---

(١) سبق التعريف بشلوبانية «Salobreña» (المجلد الأول ص ١١٢ حاشية) وكذلك بالمنكب «Almuñecar» (المجلد الأول ص ١٠٥ حاشية).

أمير المسلمين أبا يوسف ، وعرض الحصن عليه، فبادر إليه بالأُسطول ، فلما احتل عرسي حصنه ، واتصلت به يده ، ونُشرت عنده بُنوده ، أفرج عنه السلطان ، وانبت طمعُه فيه ، وصرف وجْهَه إلى حَضرته ، وبدا لعُمَر فى أمره ، فصرف الأُسطول متعلّلا ببعض الأعذار ، وأقام على سبيله ، واتصل ذلك بالسلطان ، فرتب عليه الحصن ، وضيق السُّبل ، وتحرك فى صايفة العام إلى مُنازلته فى عُدّة عظيمة ، وحاصره ورماه بالمجانيق ، وتتبع بها مجانه ، فأعياه الصبر ، وأعمل الحيلة بإظهار الإنابة ، وعرض على السلطان التخلّى عن الحصن ، وطلب منه أن يُوجه لقبضه وزيره ، وأحْظَى الرؤساء لديه ، وصاحب بَنده ، فوجههم السلطان فى طايفة من حاشيتهم ، وقد أكمن لهم عمر بمعرجات الطريق، بين يدى باب القلعة . فلما توسطوا الكمنا ، وبرز عمر ليسلم عليهم ، ثار بهم رجاله الأَساوِدة وغيرهم ، وقبضوا عليهم بمرْأى من السلطان ، وأدخلوهم الحصن وعاد السلطان إلى قتاله ، فتوعد بقتلهم ، وجعلهم بأعلى السور ، ورمى عليه بحجر ، فطرح أحدهم الحين ، وعلا صراخُهم يسترحمون السلطان ، فكف عنه ، وانصرف مَكظُوما . ولأيام وقعت المهادنة على تخلّيه عن شلوبانية فى جملة شروط صَعْبة ، منها العَقدُ له على بنت السلطان المسماة بشمس ، وانتقاله إلى مدينة المنكب ، فتم ذلك فى وسط ثمانية وستين بعده ، وتمادت المهادنة شهورا أربعة ، ثم ثاب خلافه ، وضُيقت عليه الحصص المرتّبة ، وخرج للسلطان عن منكّب على مال وعَهْد ، وصرف بعد وجهه إلى سلطانه ، وتطارح عليه ، وهو بجزيرة طَريف ، بعد أن أخذ أمانه ، زعموا ، وقد

كان أخوه طلحة سبق إليه ، فاعتقل يسيرا . ثم حُلّ اعتقاله إيثاراً للعفّة ، ورعْياً للمتّات . ولما توفى السلطان أبو يوسف ، اضطره حاله ، وآل أمره إلى العود إلى الأندلس ، وبها الأشياخ من بنى عبد الله بن عبد الحق ، مطالبو أبيه بدم عمِّهم ، سبقوا مَقْدَمه على السلطان بإيعاز[1] منه ، وقد نزل بقرية أرملة[2] على وادى أفلم ، واعتصم منهم ببرج فقاتلوه واستنزلوه فقتلوه ، فانقضى أمره على هذه الوتيرة ، والبقاءُ لله سبحانه .

عامر بن عثمن بن إدريس بن عبد الحق

شيخ الغزاة بالأندلس ، وابن شيخها ، يكنى أبا ثابت ، أجْرِى مجرى الأصليين لولادته بالأندلس

« أوليته » . تأتى فى اسم أبيه .

حاله

كان رييساً جليلا ، فذًّا فى الكفاية والإدراك ، نسيج وَحْده فى الدّهاء والنّكْراء ، مشاراً إليه فى سَعة الصدر ، ووفور العقل ، وانْفِساح الذّرع . وبعد الغُور ، باسلا مِقْداما ، صعب الشّكيمة على الهمّة ، لين الكلمة ، رَيِّش جَناح العزّ ، وافر أسباب الرِّياسة ، مجرَّبا ، مُحْتَنكا ، عارفا بلسان قومه وأغراضهم . جاعلا جَفَوات أخلاقهم دُبُر أذنه ، مَهيبا على دماثة وإلحاح سِقام . تولى الأمر بعد أبيه فقام به أحمد قيام ، مُسَلِّما لبقية من مُسِنى القرابة وأكابر الإخوة ، اعترافا بالفضل ، وإيثاراً لمزيّة العَتاقة

---

(١) وردت فى الإسكوريال (بايغار) . والتصويب أنسب للسياق .

(٢) هى قرية صغيرة تقع على الضفة اليسرى من شنيل على مقربة من غرناطة وبالإسبانية «Armilla»

على الهجْنة . فحلَّ أرفع المحال . وتبَنَّك على حال الضَّنا نعيما ، وغزا غزوات شهيرة . إلى أن تناسى الأمر . وكبا بهم الجد ، وحملهم قرب مُخيفهم بالثَّار المُتيم ملك المغرب . لما اقتحم فُرْضة المجاز إلى الجهاد على المبايتة ومراسلة الطاغية . فساءت القالة ، وفَسَد ما بينهم وبين سلطانهم ، وأعمل عليهم التدبير .

نكبته

ثبتٌ فى الكتاب المسمى « بطُرْفة العصر » : ولما اتَّصلت ليَدَىْ المسلمين ، وفصَل أميرهم من مُلْك المغرب ،تنمَّر أضدادهم المناوؤن له المعاندون قدرة الله فيه ، المتهيِّئون إلى القاصِمة بمشاحنته ، فأظهروا النُّفور والجذر ، وكانوا قد داخلوا ملك قشتالة وواعدوه اللحاق به ، إن راعهم رايع ، ووصلتهم مخاطبته بقبولهم . فلما تخلَّف المسلمون عن اللحاق به ، نسب لهم الفشل والتكاسل ، فانطلقت الألسن ، وملَّت القلوب ، وتُشُوِّف إلى الفتك بهم ، وهم عصابة بأسها شديد ، أشهروا فروسية ونجدة وأتباعا ، فعظم الخطْب ، وأُعملت الشُّورى فى أمرهم ، وصُرفت الحيل إلى كف عاديتهم ، ومُعالجة أمرهم ، فتمَّ ذلك . ولما كان يوم السبت التاسع والعشرون من ربيع الأول ، قعد لهم السلطان على عادته ، ووجِّه عنهم فى غرض الاستشارة فى حال السَّفر إلى إمداد ملك المغرب ، وقد عبر ونازل جزيرة طريف ، وفاوضهم فيما عليه الناس من إنكار التَّلوُّم ، ثم قام السلطان من مجلسه ، وثارت بهم الرجال ، فأُحيط بهم ، ونُزعت سيوفهم عن عواتقهم ، وطارت الخيل فى ضمٍّ من شذَّ عنهم ، فتقُبِّض على طايفة من أعلامهم ، كانوا بين غرٍّ يباشر قنصا ، أو مُفلت لم يجد مهربا ، وطارت الكتب إلى مالقة فى شأن من بها منهم ، فشملهم الاعتقال ، ثم

نقلوا إلى مدينة المنكب . فجعلوا فى مُطْبِق الأسرى بها ، إبلاغا فى النكال ، وتناهيا فى المُثلة ، فلم تجر عليهم مصيبة أعظم منها ، لاضطرارهم إلى قضاء حاجة الإنسان برأى عين من أخيه ، خطة خَسْف سَيموها ، مع العلم بنفور نفوسهم عن مثلها ، وفيهم صدور البيت وأعلامه ، كأبى ثابت المترجم به ، وأخيه كبيره إبراهيم ، وابن عمهم زين المواكب ، وقريع السيوف ، وعروس الخيل ، حَمُّو بن عبد الله ، وسواهم ، وقانا الله شر الملكات ، وأشرأب مُخيفهم للسلطان صاحب المغرب ، وولى الثَّرة ، إلى صرفهم إليه ، وقد استوجب من مَلِك الأندلس الملاطفة لالتفاته لسيئ البُرْد ، واقتحامه باب القُطر . وأخفق السعى ، وضنَّ بهم موقع النِّقمة عن إسلامهم إليه ، سيرة أحسنها فى جنسهم من أولى الجهالف . فأجلاهم عما قريب فى البحر إلى إفريقية ، فاستقروا ببجاية ، ثم استُقْدموا إلى تونس تحت إرصاد ورِقْبة ، وأخفر فيهم ملكُها الذِّمة ، وهم لديه ، فوجَّههم على بعد الدار ، ونزوح المزار ، إلى السلطان صاحب المغرب ، مُصْحبين بشفاعة فيهم ، كانت قُصارى ما لديه ، فاستقرُّوا فى الجملة تحت فلاح وكفاية ، لا تلفت إليهم عين ، ولا يتشبَّث بذَمل حُظوتهم أمل . ثم نُكبوا بظاهر سبتة نكبة ثقيلة البَرْك ، [مغارة البرك الحمل] ، وأودعوا شرَّ السجون بمدينة مكناسة ، فأصبحوا رهن قيود عديدة ، ومَسْلحة مرتَّبة ، جرَّ ذلك عليهم ذرَّة من القول فى باب طمُوحهم إلى الثورة ، وعملهم على الانتزاء بسبتة ، الله أعلم بحقِّه من مَيْنه . ولما صيَّر الله مُلْك المغرب إلى السلطان . أمير المؤمنين أبى عنان ، واضطره الحال إلى الاستظهار بمثلهم ، انتَشَلهم من النكبة ، وجَبَرَهم بعد الصَّدْعة ، وأعْلَق يد كبيرهم المترجم به بعُرْوة العزّة ، واستعان بآرائه على افتراع الهضْبة . فألفى منه

نقّابا قد هذّبته التجربة ، وأرْهَفته المحنة ، وأخْلصته الصّنيعة ، فسلّ منه سيفا على أعدايه ، وزعموا أنه انقاد إلى هوى نفسه ، واستفزّته قوة الشرّة ، ولذّة التّشفى ، وذهب إلى أن يَكل للسلطان ناكبه . المجاراة صاعا بصاع ، فانتُدب إلى ضبط ما بالأندلس من عمالة راجعة إلى مَلِك المغرب ، فانقلب يجر وراءه الجيش ، ويجنِّب القوة ، فقطع به عن أمله القاطع بالامال ، وأحانه الله ببعض مراحل طريقه مطعونا لُطْفاً من الله به ، وبمن استَهْدف إلى النّصب بمجادّته . وهو سبحانه ملىء بالمغفرة عن المُسْرفين ، سبحانه .

« وفاته » ، فى الأُخريات من عام تسعة وأربعين وسبعماية .

على بن بدر الدين بن موسى بن رحّو بن عبد الله بن عبد الحق

يكنى أبا الحسن .

حـــاله

هذا الرجل نسيج وَحْده فى الفضل والتخلّق ، والوفاء ، ونُصح الجيب ، وسلامة الصدر ، وحسن الخُلُق ، راجح العقل ، سَرِىّ الهمّة ، جميل اللقاء ، رفيع البِزّة ، كريم الخصال ، يكتب ويُشْعر ، ويحفظ ويطالع غرايب الفنون ، صادق الموقف ، معروف البسالة ، ملوكىّ الصّلات ، غَزِلٌ ، كثير الفكاهة ، على تيْقُور و حشمة ، قدّمه السلطان شيخ الغَزاة بمدينة وادى آش ، فلما وقعت به المحنة ، ورَكِب الليل مُفلتاً إليها . اتّفق لقاؤه إياه صباحاً على أميال منها ، وجاء به ، وأدخله المدينة على حين غفلة من أهلها ، فاستقرّ بقصبتها وما كاد ، وأخذ له صَفْقة أهلها ، وشمّر فى الذب عنه تَشْميراً نَبا فيه سمعُه عن المُصانعة ،

ودَفْيه عن الجُملة ، وكفُّه عن قبول الأعواض ، فلم يَلْف فيه العدوُّ مَغْمزا ، ولا للكيدة مَعْجما ، ولا استأْثر عنه بشيء مما لديه . إلى أن كان انتقال السلطان

ولا للكيدة مَعْجما ، ولا استأْثر عنه بشيء مما لديه . إلى أن كان انتقال السلطان

عنها إلى المغرب ،فتبعه مُشَيِّعا إلى مَأْمنه . فتركها غريبة فى الوفاء ، شاع خبرها وتُعوطى حديثُها ، على حين نُكِر المعروف ، وجُحدت الحقوق ، وأَخْوَت بروق الأَمل. ثم قَلِق المتغلب على الدولة بمكانه ، فصرفه إلى العُدْوة الغربية ، فاستقرَّت به الدار هنالك ، فى أوايل عام ثلاثة وستين أو أواخر العام قبله .

وخاطبته من مدينة سلا لمكان الوُدِّ الذى بينى وبينه بما نصه :

يا جُملة الفضل والوفا ما بمعاليك من خفاء
عندى بالود فيك عقد صحَّحه الدهر باكتفاء
ما كنتُ أقضى علاك حقا لو جيتُ ملحا بكل فاء
فأَوْلِ وجه القبول عُذرى وجَنِّبُ الشَّك فى صفاء

سيدى ، الذى هو فَضْلُ جنسه ، ومزيَّة يومه على أمسه ، فإن افتخر الدين من الله بَبْدره ، افتُخر منه بشمسه ، رحلتُ عن المَنْشأْ والقرارة ، ومحلِّ الصَّبوة والغَرارة ، فلم تتعلَّق نفسى بذخيرة ، ولا عهدِ جِيرة خِيرة ، كتعلُّقها بتلك الذات ، التى لطُفت لطافة الرَّاح ، واشْتَملت بالمجد الصَّراح ، شفقةً أن تُصيبها معرَّة ، والله يَقيها ويَحفظها ويُبقيها ، إذ الفضايل فى الأزمان الرَّذلة غوامل ، والضِّد عن ضده منحرف بالطبع ومايل . فلما تعرَّفتُ خلاص سيدى من ذلك الوطن ، وإلقاه وراء الفُرْضة بالعَطِن ، لم تبق لى تَعلَّة ، ولا أَجْرَضَتنى علَّة ، ولا أوى جمعى من قلَّة . فكتبتُ أهنيءُ نفسى الثانية ، بعد هناء نفسى الأُولى ، وأعترف للزمن باليد الطولى . فالحمد لله الذى جمع الشَّمل بعد شَتاته ، وأحيا الأُنْس بعد مماته ،

سبحانه لا مُبدِّل لكلماته . وإياه أسئل أن يجعل العِصمة حظَّ سيدى ونصيبه ، فلا يستطيع حادث أن يصيبه . وأنا أَخْدُج عن بثٍّ كمين ، ونصح أنابه قَمين ، بعد أن أَسْبُر غَوْره ، وأَخْبِر طَوْره ، وأَرْصُد دوره ، فإن كان له فى التَّغريق أمل . وفى رَكْب الحجاز ناقة وجَمل . والرأى فيه ، قد نجحت منه نيَّة وعمل ، فقد غَنِى عن عَوْف والبقرات ، بأَزْكى الثمرات ، وأَطفأ هذه الجَمَرات برمى الجَمَرات ، وتأنَّس بوصل السُّرى ، ووصال السَّراه ، وأنا له إن رَضى أَرْضى مُرافق ، ولو أُغْرى به خافق . وإن كان على السُّكون بناؤه ، وانصرف إلى الإقامة اعتناؤه ، فأَمْرٌ له ما بعده ، والله يحفظ من الغير سعْدَه . والحق أن تُحذف الأُبهة وتُختصر ، وتخفَّظ اللسان وبغيض البَصر ، وينخرط فى الغِمار ، ويُخلى عن المِضْمار ، ويجعل من المحظور مُداخلة من لا خَلاق له ، ممن لا يَقْبَل الله قوله ولا عمله ، فلا يَكْتم سرًّا ، ولا يتطرَّق من الرُجولة زُمَرا ، ورفض الصُّحبة زِمام السلامة ، وترك النَّجاة علامة . وأما حالى فما علمتم مُلازم كِن ، ومبهوظُ تَجربة وسِن ، أزْجى الأَيام ، وأَرُوم بعد التفرُّق الالتئام ، خالى اليد ، مالئُ القَلْب والخَلَد ، بفضل الواحد الصَّمد . عامل على الرِّحلة الحجازية التى أختارُها لكم ولنفسى ، وآمل فى إلتماس الإعانة عليها يومى بأَمْسِى ، أوجبُ ما قررته لكم ما أنتم أعلم به من وُدٌّ قرَّرَته الأَيام والشهور ، والخلوصُ المشهور . وما أَطَلْتُ فى شيء عند قدومى على هذا الباب الكريم ، إطالتى فيما يختص بكم من موالاته . وبذل مجهود القول والعمل فى مُرضاته . وأما ذكركم فى هذه الأَوضاع ، فهو مما يقرُّ عين المَجادة ، والوظيفة التى تنافس فيها أُولو السيادة . والله يَصل بقاءكم . وييسِّر لقاءكم والسلام .

وهذا الفاضل ممن جال فيه لاخْتِيار الإمارة أيام مُقامه بالعُدْوة الغربية ، للِيَاع فضله ، وكرم خِلاله . وقَفَل إلى الأندلس ، عند رجوع الدولة ، فجنَى ثمرة ما أسلفه ، وقُدِّم شيخ الغَزاة بمالقة . ثم نُقل إلى التى لا فوقها ، من تقديمه شيخ الغَزاة بحضرته ، منَّة لا على ميادين حُظوته ، مُقْطعا جانب تَجِلَّته ، فبَلَى الناس على عهد ولايته الفتوح الهنِيَّة ، والنِّعم السَّنية . ولما قفل السلطان أيده الله ، من فتح قاعدة جيَّان ، أصابه مرض ، تُوفى منه فى ثالث صفر من عام تسعة وستين وسبعماية . فتأثر الناس لفَقْده ، لما بَلَوْه من يُمن طائره ، وحُسن موارده ، ومصادره . وكان قد صدر له المنشور الكريم ، من إملائى ، بما ينظر فى اسم المؤلف ، فى آخر هذا الديوان

على بن مسعود بن على بن أحمد بن إبراهيم بن عبد الله بن مسعود المحاربى

الوزير ، يكنى أبا الحسن .

حــــاله

كان من أعيان أهل الحضرة ، وذوى الهيآت والنباهة من بيوتاتها ، أيْدا ، حسن الشكل ، جهير الصوت ، فصيح اللسان ، ثرثاره ، جيد الخطِّ ، حُلو الدُّعابة ، طيب النفس ، لبِقًا ، ذكيا ، أديبا ، فاضلا ، لوْذعِيًّا ، مُدركا . وزرَ للسلطان أبى الوليد ، نَزع إليه لما دعا إلى نفسه بمالقة من إيالة مخلوعه بعد اصْطِناعه ، وصَرَف وُجهته إلى جِهته ، فتغلَّب على هواه ، وأشْركه فى الوزارة ، مع القايد الوزير أبى عبد الله بن أبى الفتح الفهرى ، وقد مرَّ ذكره ، فأبرَّ عليه بمزيد المعرفة بالأُمور الاشْتِغالية ، وجِماح عِنان اللسان والجرأة ، فى أبواب المُداخلات الوزارية . فلم يزل يضمُّ أذيال

الخُطَّة ، ويقلِّصُها عن قَسيمه ، إلى أن لم يبق له منها إلا الاسم إلى حين وفاته .

وفاته

واستمرت حاله على رَسْمه من القيام بالوزارة إلى أن فَتَك بسلطانه قرابته بباب داره كما تقدم فى اسم السلطان أبى الوليد فى حرف الألف فكرّ[1] أدراجه وهاج بالباطشين ، وسلّ سيفه ، يدافع عنه ، فمالت إليه الأيدى ، وانصرفت إليه الوجوه ، وأصيب بجراحات مُثْخنة ، أتى عليه منها جُرح دِماغى لأيام . وعلى ذلك فلم يبرح من سدّة السلطان ، حتى تعجّل ثَأْره ، وشمل السّيف قَتَلته . وأخذ البيعة لولده . وكانت وفاته فى السابع والعشرين لشعبان من عام خمسة وعشرين وسبعماية . ودفن بباب إلبيرة . وكان الحفل فى جنازته عظيما ، والثناءُ عليه كثيرا ، والرحمة له مُسْتَفيضة .

ورثاه شيخنا أبو الحسن بن الجيّاب رحمه الله بقوله :

أيا زَفْرتى زيدى ويا عَبْرتى جودى ... على فاضل الدُّنيا على ابن مسعود
على الشامخ الأبيات فى المجد والعلا ... على السّابق الغايات فى البأس والجود
على غُرّة العصر التى جَمَعت إلى ... مهابة مَرْغوب طلاقة مَوْدود
على مَنْ له فى الملك غيرُ مُنازَع ... وَزارة مَيْمُون النَّقِيبة محمود
على من إذا عُدّ الكرام فإنه ... بواجب حقّ الفضل أوّلَ معدود
ومن كعَلِىٍّ ذى الشجاعة والرِّضا ... لإِصْراخ مَذعور وإيواءِ مَطْرود
ومن كَعلىٍّ ذى السّماحة والنَّدا ... لإسباغ إنعام وإنجاز موعود
ومن كعلى للوزارة قايمًا عليها ... بتَصْويب عليهــا وتَصْعيد
ومن كعلى للإدارة سالكاً لها ... نَهَج تَلْيِين مَشوبٍ بتَشْديد

(١) وردت فى الإسكوريال (كر) . والتصويب أرجح .

ومن كعلى للسياسة منفِّذا ... أوامر تَنْفيذ وأحْكام تَوْطيد
ومن كعلى فى رضا الله حاكما ... بإنجاد مَعْدوم وإعدام مَوْجود
ومن كعلى واصِل الرَّحم التى ... تَمُتُّ بتقريب له أو بتبْعِيد
ومُسْدى الأَيادى البيض بَدْأً وعودة ... مُرَدَّدة تمحو دُجا الثَّوب السُّود
أيا كافىَ السلطان كلَّ عظِيمة ... بآراء تَسْديد وأعمال تمهيد
ويا حامى المُلك المَشِيد بناؤه ... بصولة مَحْذور وغرَّة مقصود
ويا كافِل الأيتام يَجْرى عليهم ... جِراية نُعْمى بابُها غير مَسْدود
ذكَرْتُك فى نادى الوزارة صادعا ... بأَمرٍ مُطاع حُكْمه غير مردود
ذكرتُك فى صدر الكَتِيبة(١) قائما ... بخِدْمة مَوْلى بعد طاعة مَعْبُود
ذكرتُك فى المحراب والليل دامِسٌ ... تردِّد آىَ الذِّكر أطيَب ترديد
ودمعك مُرْفضٌّ وقلبك واجب ... لخشْية يوم بين عينيك مشهود
عفًّا على الدنيا ولا درَّ درُّها ... فما جَمْعُها إلاَّ رهينٌ بتبديد
فمهما حلَّت منها لديك مسرَّة ... فمى إثْرها فارقُبْ مرارة تَنكيد
ألهفًا على الوجه الجميل مُعطَّرا ... بدار البِلى رَهين الأَساوِد والدُّود
وعهدى به مُسْتَبْشرًا ومُبَشِّرًا ... بتفريج مَكْرُوب وراحة مجهود
لأظْلَمَتْ الدنيا علىَّ لفَقْدِه ... فها أنا أرعاها بمُقلة مَرْصود
وقلَّص من ظل الرَّجا فراقه ... فظلَّ رجائى بعده غير مَمْدود
وكم سَبَحت فُلْكُ المُنا فى بِحارها ... مواخِر فاليوم استَوت بى على الجود
وهوَّن عندى كلَّ خطب مصابُه ... فَبَعْدَ علىٍّ لست أبكى لمفقود
ولا أدَّعى أنى وَفَيتُ بعهده ... فلم أرْعَ عهدًا حين أوْدى ولم أود
فلا يشمَتنَّ الأعداءُ إن حان حينهُ ... فما بالرَّدى عار فكل امرىء مود

---

(١) وردت فى الإسكوريال (اللتيبة). وهو تحريف اقتضى التصويب

ولا سيما إذا مات ميتة عزّة بعيدا شهيدا ماضيا غير رعديد
وفيًّا لمولاه مطيعًا لربّه وقد بطَلُت ذُعرًا رِقاب الصّناديد
فبشرى له أن فاز حيًّا وميتاً بميْتَة مفقود وعِيشة محسود
عليه سلام اللهِ ما ذرَّ شارقٌ وما صَدَعت ورْقاءُ فى فرع أمْلُود
وجادت ثَرَى اللّحد الزّكى سحايب مجدّدة الرّحْمى بأحسن تجديد

على بن لب بن محمد بن عبد الملك بن سعيد العنسى

غرناطى ، قلعى[1]

حاله

كان ظريفا ، مليح الخطّ ، حار التّندير ، عيناً من عيون القُطر ووزرائه

شعره

حدّث أبو الحسن بن سعيد ، قال ، تمشينا معا أيام استيلاء النهب والتهدم ، على معظم ديار مرّاكُش بالفتنة المتصلة . قال ، فانتهينا إلى قصر من قصور أحد كبرايهم . وقد سجدت حيطانه . وتداعت أركانه ، وبقايا النّهب والأضْرِحة والمُقَرْبسات ، تثير الكمد . ولا تبقى جَلَدًا لأحد ، فوجدنا على بعضها مكتوباً بفَحْم :

ولقد مررت على رسوم ديارهم فبكيتُها والرّبع قاعٌ صَفْصف
وذكرت مَجْرى الجَوْر فى عَرَصاتهم فعلمتُ أنّ الدهر منهم مُنْصف

فتناول أبو الحسن بياضا من بقيّة جيار ، وكتب تحتها ما نصه :

لهفى عليهم بعدهم فمثالُهم بالله قل لى فى الورى هل يُخْلَف
من ذا يجيب منادياً لوسيلة أم من يُجير من الزمان ويَعْطِف

(١) قلعى أعى ينسب إلى القلعة ، قلعة بنى سعيد أو قلعة يحصب وقد سبق التعريف بها (راجع المجلد الأول من الإحاطة ص ١١١ حاشية)

إن جار فيهم واحدٌ من جُملة كم كان فيهم من كريم يَنْصِف

توفى بمراكش سنة سبع وعشرين وستماية .

على بن يوسف بن محمد بن كماشة

القايد والوزير بين القَتادة والخَرْط ، يكنى أبا الحسن

أوّليته

كان جدُّه من المُنْتَزين ببعض حصون الأندلس، طَلْياطِيه[1] ، وخدم طاغية الروم ببعضها ، وانخرط فى جُملته ، يشهد بذلك مكتوبات تلقاها بشماله ، ووراء ظهره ، صانها حافِدُه المترجم به ، فى خِرقة من السَّرَق لا يزال ، يعرضها فى سبيل الفخر ، على من يصل إلى باب السلطان من رسل الرُّوم . ولقد عرضها أيام سفارته إلى ملك قشتالة على وزيره شمويل اللبى اليهودى ، وطلب تجديدها ، فقال له هذا يتضمن خدمة جدِّك للسلطان مولاى جدِّ مولاى السلطان بجملة من بلاد المسلمين ، وفيها الشكرله والرِّعاية على ذلك ، فاذهب أنت هذا المذهب ، الذى ذهبه جدك ، يتجدَّد لك ذلك إن شاء الله ، فلما هلك وُورِى بين مدافن الروم ، بعد أن عُلِّق زمانا من سور الحصن فى وعاء ، توفيةً لشرط لا أُحقِّقُه الآن . ولحق ولده بباب السلطان، فتفيَّئوا ظل كفالته ، ونشئوا فى عدادِ صِبْيته ، ولما صلحوا للاستعمال ، استخدم منهم عليًّا كبيرهم فى العمل ، فاستظهر به على حفزه بحمى ألمرية ، وما إليها ، فأثرى ورآه استغنى ، وطالت مدَّة ولايته ، واستعمل أخاه يوسف والد المترجم به ، فى القيادة ، وكان

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . ويرجح أنه يقصد هنا أن هذا الحصن كان يقع فى منطقة طلياطة « Tliata » وهى بلدة أندلسية تقع فى ولاية الغرب غربى إشبيلية .

رجلا مضعوفا ، فاستمرت حاله إلى أن فقد بصره ، وجنَى عليه شؤم ولده ، الجلا شيخا زَمِنًا . ثم عاد إلى الأندلس فتوفى بها ، حسبما يذكر فى إسميهما . وكانوا يتبجّحون بنسبة إلى مَعْن بن زائدة . طَوّق جدّهم بتلك النسبة ، بعضُ أولى التّنفق والكُدْية ، فتعلّلوا منها بنسيج العناكب ، وأكْذَبوها بالخُلُق الممقوت ، والبُخل بفُتات القوت ، والتعبّد لعَبَدة الطّاغوت ، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم .

حاله

هذا الرجل حسن الشكل ، كثير الهشّة ، جيِّد الرِّياش ، كثير التعلّق والتّوسل ، لَصِقَت بشجرات الدول صَمْغته ، وثَبَت بأسبابها قُراده ، شديد الملاطفة لحَجَبة الأبواب ، والمداخلة لأذيال الأُمراء ، مُتَصامم على أغراضهم ، مُكذّب لمحسُوس جَفْوتهم ، مُتَنفّق بالسّعاية ، مُتَبذّل فى أسواق الخدمة ، يسبق فى الطيالس ، ويلفظ الزّبير ، ويصرخ بالإطراء ، ويولول بالدعاء ، مدلٌّ فى الأخونة ، محكم فى نفسه للنّادرة التى تضحكهم ، بذى مهذار ، قليل التصَنّع ، بعيد عن التّسمت ، أطمع خلق الله وأبخلهم بما لديه ، وأبعدُهم فى مهاوى الخسّة ، أما فَلسُه فمخزون ، وأما خوانه فمحجوب ، وأما زاده فممنوع محجور ،وأما رِفده فمعدوم العين والأثر . وأما ثوبه فحبيس التّحت إلى يوم القيامة ، قد جعل لكل فصل من فصول معاشه ، ونفاضة مخاليه ، وسور دوابه مؤنة ما . فالنُّخالة بينة المصرف ، وللسرجين معين الجهة ، وفتات المنديل موقفة على فطور الغد ، ودهن الاستصباح جارٍ فى التّجلة والادخار مجرى دهن البَلَسان .

أخباره

فى هذا الباب مُغْربةٌ ، ولزمت كَعْبة المَنْحسَة ، وعَلِق فى عنقه طاير الشّؤم ، فلم تنجح له وُجهة ، ولا سَعِدت له حركة ، واستقرّ عند الكاينة

على الدولة ، بباب السلطان بالمغرب ، خاطباً فى حَبْل الغادر ، المُتوثِّب على المُلْك ، ومُعيناً للدهر على الأحَبِّ الحق وولىّ النِّعمة . ثم بدا له فى المقام بالمغرب أمنا واضطرابا . ولما رحل السلطان أبو عبد الله بن نصر المذكور ، إلى طلب حقِه ، وقد أعْتَبه ، سدَّد به رسم الوزارة فى طريقه ، كما اضطر صيادٌ إلى صُحبة كَلْبٍ مُخابت آماله ، ولحقت به المَشْأمة ، وتَبِر الجدُّ ، واشتهر ذلك ، فعَلِقت به الشَّفقة ، إلى أن خاطب السلطان بعض من يهمُّه أمره بهذه الأبيات :

كُماشكم من أجله انكَمَش السَّعد إذا ما اطَّرحتم شُومه نَجِز الوعد
ومن لم تكن للسَّعد فى بدء أمره مَخِيلة نَجْح كيف تُرجى له بعد
وتصريفُه المشئُوم فلتتذكَّروا وما قلت إلا بالتى عَلِمت سَعْدُ

واقتضى أمره تبرُّماً به ، أن صُرف من رُندة ، وقد استقرَّ أمره بها رسولا إلى باب ملك المغرب ، لأُمور منها استخلاص ولده وإيصاله إليه . فتعذَّر القَصْد ، وسُدَّت الأبواب ، وأزفَت بدار المغرب عهدٌ بذُّ الآزفة . وتراخى مُخَنَّق مُرسله لخلو دَسْته منه . فثاب الرَّجاءُ وقَرُب الفتح ، وساعد السَّعد بما طال منه التَّعجب . ولما بلغ خبرُ صُنع الله ، وإفاقة الأيام ، وجَبَر الله السلطان بدخول مالقة فى طاعته ، لحق به ، وقد قَلِقت به الجوانب ، وتنكَّرت الوجوه ، وساءت لطَيْرته الظُّنون . فتوفَّر العزم على صرْفه عن الأندلس فى أوليات رمضان عام ثلاثة وستين وسبعماية ، فقُبض عليه ، وصُرف إلى البلاد الشرقية ، وقد شرع فى إغراءِ سلطان قشتالة بالمسلمين ، وكان آخر العهد به ، وذكروا أنه حجّ وقَفَل والعودة تتبعه ، والنفوس لمتوقَّع شُومِه مُكْرِهة . ورُجى أن يكون ماءُ زمزم ، وضوءُ النقع ، أو أنَّ مشاهدته الآثارالكريمة ، تُصلح ما فَسد من حاله . فآب

شرَّ إياب ، وربما نَبَض له شِريان من جدِّه ، الذى تقدم فى خدمة النصارى ذكره . فأجاز البحر إلى ملك برجلونة . فجعل تقبيل كنه ، لاستلام الحجر الأسود ، وسيلة ثانية ، وقُرْبة مُزْلفة ، والقول بفضل وطنه حجَّة صادقة ، ثم قَلِق لخَيْبة قصده ، وخلُوِّ يده ، من الزَّقُّوم ، الذى كان قد احْتَجنة للمُهِم من أمره ، واستيلاء النَّحس على بيت سَعْده ، فصرف وجهه المشُوم إلى المغرب ، فاحتلَّ به ، وجعل يُطَوق كل من أسلف له بِدا الذَّام ، ويَشيع عنه سوء القِيلة ، ويَجْهر فى المجتمعات والدَّكاكين ، بكل شَنيع من القول ، بالغًا فى ألفاظ السُّغيلة ، أقصى مبالغ الفُحْش ، لطف الله بنا أجمعين .

عثمن بن إدريس بن عبد الله بن عبد الحق بن محيو

من قَبيل بنى مرين ، يكنى أبا سعيد ، شيخ الغَزاة بجزيرة الأندلس على عهده .

أوّليّتهم

جدُّ هؤلاء الأقْيال الكِرام ، الذى يشترك فيه الملوك الغرُّ من بنى مرين بالعُدْوة ، مع هؤُلاء القَرَابة ، المُنْتَبين عنهم أضرار التُّراث ، ودواعى المنافسات ، عبد الحق بن مَحْيُو ، وكان له من الولد إدريس وعثمن وعبد الله ومحمد وأبو يحيى ويعقوب ، فكان الملوك بالمغرب من ولد يعقوب ، وهؤلاء من ولد عبد الله ، وإدريس ويعقوب ورحُّو . ولما قتل جدُّهم يعقوب ، بيد ابن عمه عبد الحق بن يعقوب ، أجْفَل أخواه ومن معهم ، وانْتَبَذُوا ، واستقرُّوا بتلمسان ، بعد أمور يطول شرحها . ثم اجتاز الشيخ أبو سعيد فى جُملة من اجْتاز منهم إلى الأندلس ، فنال بها العِزَّة والشُّهرة .

حاله

كان رجل وقته جلالةً وأصالةً ، ودهاءً وشهرة وبَسالةً ، مَرْمى لاختيار عَتاقة وفَراهة ، واحِدُ الزّمن أبّهة ورُواء . وخُلُقا ورجاحةً ، أيِّدا ، عظيم الكَراديس ، طَوالا ، عريض المَنْكِب ، أقْنى الأنف ، تقع العين منه على أسَدٍ عيص ، وفحل هَجْمة ، بعيد الصيت ، ذائع الشهرة ، مُنْجب الولد ، يحمى السَّرح ، ويُزين الدَّست . لحق بتِلمسان مع زوج أمه وعمّه ، موسى بن رحّو ، عندما فروا من الجبل بأحواز ورْغَة ، شابا كما اجتمع ، وأجاز البحر منها ، وخدم مُرْتَزِقا بها . ثم عاد إلى العُدْوة برِضاً من عمه السلطان بها . ثم فرّ عنه ولحق بالأندلس ، واستقر بها ، ووُلّى خُطّة الشّياخة العامة ، وهى ما هى ، من سمُو الهَضْبة ، ورُود الرِّزق ، وانفساح الإقطاع ، فشارك ، وتبنّك النّعيم ، وأقبل ما استظهر به على ما وراء مدينة سَبْتة ، عند انتظامها فى الإيالة النّصرية . فشنّ الغارة ، ودعا إلى نفسه ، وخلا فطلب النِّزال ، فغَلَبَت غارته أحواز وادى سبُو . ثم رجع أدراجه إلى الأندلس ، وذَمَّر السلطان أبا الوليد ، مُنفق حُظوته على طلب الملك ، ففازت به قِداحه ، واستولى على الجمّ من ريق دنياه ، وسلّ الكثير من ماله وذخيرتة فى أبواب من العبادة ، والاسْتِرضاء والاستِهداء . ولما توفى ، تضاعف لُطْف محلّه من ولده ، إلى أن ساء ما بينه وبين مدبّر أمره ابن المحروق ، ونَفَر عنه ، مُؤاخذًا بألْقيات ، كانت سُلّما إلى تجنّيه ، يَحْسَب أن الافتِقار إليه ، يُعَبِّد له كل وَعْث . فاغتنم المذكور نُفْرته ، واستبصر فى الانتِباذ عنه ، مطيعاً دواعى الخَوَر والرّهبة ، من شؤوب حاله ، وأجلى الأمير عن رحيله وولده إلى ساحل ألمريّة ، مُوادعاً ، مُزمِعاً الرحيل عن الأندلس ، وارتاد الجهات ، وراسل الملوك بالعدوة ، فكلٌّ صمّ

عن ندايه ، وسدّ السبيل إليه ، فداخل قوما من مَشْيخة حصن أَنْدَرَش حاضرة وطن الجباية ، فاستولى عليه ، وانتقل إليه بجُملته ، وراسل الطّاغية ، فتحرك إلى منازلة حصن وَبْرة من الحصون التاكرونيّة .ففازت به قِداحه ، واستُدعى عم السلطان ، وهو الرئيس أبو عبد الله بن فرج ابن نصر من تلمسان ، فدعا إليه ، وشَمَلت الفِتنة ، وكانت بينه وبين جيش الحَضْرة وقايع ، تناصَف فيها القوم خِطّتى المُساجلة إلى أن نَفِد صبره وماله ، وسَمَت فتنته الدولة ، واقْتَضت مُسالمته المصلحة ، فعُوهد على التخلّى عن الحصن ، وصُرف أميره إلى مُتَبَوّئه الأقصى ، وانتقاله إلى مدينة وادى آش ، ليكون سكنه بها ، تحت جرايات مُقدّرة ، وذلك فى شهر رمضان ثمانية وعشرين وسبعماية ، وعلى تفية ذلك ، عدا على مناويه أميره ، ففَتَك به ، واستَقْدم الشيخ أبا سعيد فأعاده إلى محلّه ، واستمرت على ذلك حياته إلى مدة حياته ، إلى أن توفى فى أُخريات أيامه .

وفاته

ولما نزل العدوّ ثغر أطيبة ، ونهض جيش المسلمين إلى مضايقته أصابه المرض . ولما أشفى ونقل إلى مالقة ، فكانت بها وفاته يوم الأحد ثانى ذى حجة من عام ثلاثين وسبعماية عن سن عاليه تنيف على الثمانين سنة ، ونُقل إلى غرناطة ، فوورى بها ، وبُنيت عليه بُنْية ضخمة ، وصار أمره إلى ولده . ونقش على قبره فى الرخام :

« هذا قبر شيخ الحماة ، وصدر الأبطال الكماة ، واحِدُ الجلالة ليثُ الإقدام والبَسالة ، عَلَم الأعلام ، حامى ذِمار الإسلام ، صاحب الكتايب المَنْصورة ، والأفعال المشهورة ، والمغازى المَسْطُورة ، وإمام الصفوف ، القايم بباب الجنّة تحت ظِلال السيوف ، سيف الجهاد ،

وقاصم الأعاد ، وأسد الآساد ، العالى الهِمم ، الثابت القدَم ، الإمام المجاهد الأرْضَى ، البطل الباسل الأمْضَى ، المقدَّم ، المرحوم ، أبى سعيد عثمن ، ابن الشيخ الجليل ، الإمام الكبير ، الأصيل الشهير ، المُقدَّس ، المرحوم أبى العلاء إدريس ، ابن عبد الله بن عبد الحق . كان عمره ثمانيا وسبعين سنة ، أنفَقه ما بين رَوْحة فى سبيل الله ، وغَدْوة ، حتى استوفى فى المشهور . سبع مابة واثنتين وثلاثين غَزْوة ، وقطع عُمره جاهدا مُجاهدا ، فى طاعة الرَّب ، مُحْتَسباً فى إدارة الحرب ، ماضى العزايم فى جهاد الكفار ، مُصادما من تدفُّق التيار ، وصَنَع الله له فيهم ، من الصَّنايع الكبار ، ما صار ذكره فى الأقطار ، أشهر من المثل السَّيَّار ، حتى توفى رحمه الله ، وغُبار الجهاد طىُّ أثوابه ، وهو مراقبٌ لطاغية الكفار وأحزابه ، فمات على ما عاش عليه ، وفى مَلْحمة الجهاد قَبَضه الله إليه ، واستَأْثر به ، سعيداً مُرْتضاً ، وسيفه على رأس ملك الروم مُنْتَضا ، مقدِّمة قَبُول وإسعاد ، ونتيجة جهاد وجلاد ، ودليلاً عن نيَّته الصالحة ، وتجارته الرابحة ، فارتجَّت الأندلس لفقْدِه ، أتحَفه الله رحمةً من عنده ، توفى يوم الأحد الثانى لذى الحجة من عام ثلاثين وسبعماية » .

القضاة الأصليون

عتيق بن أحمد بن محمد بن يحيى الغسانى

غرناطى ، يكنى أبا بكر ، ويعرف بابن الفرَّا ، ويعرف عقبُه ببنى الوادى آشى ، وقد مرَّ ذكر ولده أبى الفرج ، ويُنْبَز بقرنيَّات .

حاله

حدثنى أبى رضى الله عنه ، وكان صديقا لأبيه ، أنَّه كان من أهل

الجلالة والفضل ، حسن السّمت ، عظيم الوقار ، جميل الرُّواء ، فاضلا ، حسن العشرة . وقال القاضي ابن عبد الملك : كان جامعا لفنون من المعارف ، معروف الفضل فى كل ما يُناول من الأمور العلمية ، وقيّد كثيرا ، وعُنى بالعلم العناية التامة ، واستُقْضى بالمتكّب ، وعُرف فى ذلك بالعدالة والنّزاهة .

تواليفه : صنف « نُزهة الأبصار فى نَسَب الأنصار » ، و« نَظْم الحُلِىّ فى أُرجُوزة أبى علىّ » ، يعنى ابن سينا .

شعره

قال ومما نظمته ووجّهته به صُحبة رسالتين :

يا راكبًا يَبْغى الجناب الأشْرفا	ومُناه أن يَلْقى الكريم المُسْعِفا
عرِّج بطيبة مرّةً لترى بها	علمى قبول رحمةً وتعطُّفا
وإذا حَلَلْت بها فقبّل تُرْبها	وارغب جلالهم عسى أن يُسْعفا
وأسِل دموعَك رغبة وتضرُّعا	وأطل بها عند التضرُّع موْقفا
واذكر ذنوبك واعترف بعظيمها	فعسى الذى ترجو له أن يَعْطِفا
واجعل شَفيعك إن قصدت عناية	قبراً تقدّس تُرْبةً وتشــرّفا
قبرٌ تضمن نور هدىً واضحا	لم يَحْتَجب عن مُبصريه ولا اختَفا
قبر حوى النُّور المبين ونُوره	يُهدى به سُبُل السّلام من اقْتَفا
قبر به الهاشمىُّ محمد أبهى	الأنــام سَنًا وأوفى من وفــا
خير الورى عَلَمُ التُّقى شمس الهدى	المُنتَقى والمجتبا والمُصطفا
سلِّم عليه وخُصّه بتحيــــة	واقرأ عليه من السلام مُضاعفا
واذكر هُديت أخا البطالة عمره	كم نَقَض العهود وأخْلــفا
ولكم تَيقّن بالدليـل فماله	رَكِب العناد لجاجة وتعسّفا
وعصى فأسْلم للقطيعة والجوى	حقٌّ على من خان أو لا يعرفا

هل للعفو تنفسّح نحوه يوماً فيَضْحى بالرِّضا مُتعرِّفا
وأعد حديث مَشوق قلبٍ عنده من لم يَذُبْ شوقا له ما أنْصَفا
إخْبره عن حبِّى وطول تَشوُّقى تفديك عطفة نفسى مُخبراومُعرِّفا
وتشكُ من جاء إليه فإنَّ لى نفسًا تُسوِّفنى المتاب تسوُّفا

مولده : بغرناطة فى ذى حجة خمس وثلاثين وستّماية .
وفاته : ذُكر أنه كان حيًّا سنة خمس وثمانين وستّماية .

على بن محمد بن توبة

يكنى أبا الحسن .

حاله

كان من العلماء الجلّة الفقهاء الفضلاء . وُلِّى قضاء غرناطة لباديس ابن حَبُّوس ، وعلى يديه كان عمل مِنْبر جامعها ، وكان عمله فى شهر ربيع الأوّل سنة سبع وأربعين وأربعمائة . وكان من قضاة العدل ، وإليه تنسب قنطرة القاضى بغرناطة ، والمسجد المتصل بها فى قِبلتها . وكان كاتِبُه الزاهد أبا إسحق الإلبيرى[1] ، وفيه يقول :

بعلى[2] بن توبة فاز قِـدْحى وسَمَتْ همّتى على الجوزاء[3]
فهنيًّا لنا وللدين قـاض مثله عالمٌ بفضل القضاء
يَحْسِم الأمر بالسياسة والعدل كحَسْم[4] الحُسام للأدْواء
لو أنا سيرناه قال اعترافا غَلِط الواصفون لى بالذكاء
أو رأى أحْنَف وأكبـر منه حِلْمه ما انتموا إلى الحُلَماء

---

(١) هذه الكلمة واردة فى الزيتونة وساقطة فى الإسكوريال .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (يا على) .
(٣) هذا هو البيت الوحيد الذى ورد من القصيدة فى الزيتونة .
(٤) وردت فى الإسكوريال (لحسم) فاقتضى التصويب .

أو رأى المُنْصفون بحْرَ نَداه | جعلوا حاتماً من البحر لاء
هو أوْفى من الشُّمول عهدا | ولما زال مُغْرماً بالوفاء
وحيّا المزن وحيّا أخاه | أهْمَلت كفه بوَبْل العطاء
يشهد العالمون فى كل فن | أنَّه كان كالشِّهاب فى العُلماء
وقُضاة الزمان أرْضٌ لديهم | وهو من فوقهم كمِثْل السَّماء
لتعرَّضت مدحه فكأنِّى | رُمْت بحراً مُساجلا بالدُّلاء
فأنا مُعْجم على أنَّ خَيْلى | لا تجارى فى حَلْبَة الشُّعراء
لكِسَائى مَخْبرا ثوب فَخْرٍ | طال حتى حرَّرته من وراء
ولو أنْصَفْتُه وذاك قليل | كان خدِّى لنَعْله كالحِذاء
فأنا عَبْدُه وذاك فَخارى | وجَمالى بين الورى وبَهاء
وثناءٌ وقفٌ عليه وشكرى | ودُعائى له بطول البقاء

على بن عمر بن محمد بن مشرِّف بن محمد بن أضحى بن عبد اللطيف بن الغريب بن يزيد بن الشمِّر بن عبد شمس بن الغريب الهمدانى

والغريب بن يزيد هو أول مولود ولد للعرب اليمانيين بالأندلس يكنى أبا الحسن .

وَلِى غرناطة[1] . وكان من أهل العلم والفهم ، والمشاركة فى الطِّب ، والكفاية الجيدة ، والشعر فى ذِرْوة هَمْدان ، وذوايبهما ، حسن الخطِّ ،

(١) اقتصر ابن الخطيب على هذه الإشارة بالنسبة لحركة القاضى ابن أضحى . ونضيف نحن إلى ذلك أن ابن أضحى كان من زعماء الثورة ضد المرابطين ، حينما تضعضع سلطانهم بالأندلس ، وظهر عليهم الموحدون بالمغرب . وقد كان ابن أضحى يومئذ قاضياً لغرناطة ، فاعلن الثورة ودعا لنفسه ، وآزره أهل المدينة وتعاونوا على إخراج المرابطين ، فاعتصموا بالقصبة . ولما أعياه أمرهم ، بعث فريق من أهل المدينة فى استدعاء سيف الدولة بن هود ليأتى لولايتها ، فجاء من جيان فى بعض قواته . ولكن المرابطين اشتد أمرهم وهزموا خصومهم . وفى تلك الأثناء توفى ابن أضحى بتناوله لقدح مسموم كان قد أعد لاغتيال ابن هود وذلك فى سنة ٥٤٠ هـ . وكان مولده بألمرية سنة ٤٩٥ هـ .

كريم النفس ، جوادٌ بما يمارى ، عطاياه جَزْلة ، ومواهبه سَنِيّة ، وخلقه سهلة ، كثير البشاشة ، مليح الدُّعابة ، مُوطَّأُ الأَكْناف ، على خُلُق الأَشراف والسَّادة .

مشيخته

روى بالمرية عن القاضى أَبى محمد بن سمحون وبه ، تفقَّه . وقرأ الأَدب على ابن بَقَنَّة ، وعلى الإِمام الأُستاذ أَبى الحسن على بن أَحمد بن الباذش ، وسمع الحديث على الحافظ أَبى بكر بن غالب بن عبد الرحمن ابن عطية وغيره .

شعره

من شعره يخاطب الوزير ابن أُبَىّ ويعتذر إليه ، وكان الفقيه أَبوجعفر المذكور ، قد خاطبه شافعًا فى بعض الأَعيان ، فتلقى شفاعته بالقَبُول ، ثم اعتقد أنه قد جاء مقصِّراً ، فكتب إليه :

ومُسْتَشفعٌ عندى بخيـر الوَرى عندى وأَولاهم بالشكر منى وبالحمد
وصلتُ فلما لم أَقم بجـزايه لففْتُ له رأْسى حياءً من المجد

وكتب يخاطب أَبا نصر بن عبد الله ، وقد كان أَبو نصر خاطبه قبل ذلك :

أَتتْنى أَبا نصر نتيجةُ خـاطر سريع كرجْع الطرف فى الخَطَرات
فأَعربتُ عن وجْدٍ كَمين طويته بأَهْيَفَ طَاوٍ فاترِ اللحظات
غزالٌ أَحمُّ المقلتين عرفته نُحَيْفُ مِنًى للحسن أَو عرفات
رماك فأَصْمَى والقلوب رَمِيةٌ لكل كحيل الطرف ذى فَتَكات
وظن بأَن القلب منك مُحَصَّبٌ فلبَّاك من جنـابه بالجَمَرات
تقرب بالنُّساك فى كل مَنْسَك وضَحى غَداة النحر بالمُهَجات
وكانت له جيَّان مثوى فأَصبحت ضُلُوعك مثواه بكلِّ فَـلات

يعزُّ عَلينا أن تَهيم فَتَنْطَوى كبيبا على الأشجان والزفرات
فلو قُبِلت للناس فى الحبِّ فِدْية فَدَيْنَـاك بالأموال والبُشُرات

وخاطب أحد أوليائه شافعًا فى رجل طلق امرأته ، ثم عَلِقت بها نفسه ، فلم تُسْعِفه ، وكتب إليه :

ألا أيهـا السيد المُجْتَبـا ويا أيهـا الألْمَعى العَـلَم
أتَتْنى أبياتك المُعْجزات بما قد حَوَتْ من بديع الحِكم
ولـم أر من قَبْلهـا بابلاً وقد نَفَثَتْ سحرها فى الكَلِم
ولـكنه الدِّين لا يُشترى بنثـر ولا بنظـام نُظِم
وكيف أبيحُ حِمًا مانعـا وكيف أُحَلِّل ما قد حَرُم
ألستُ أخاف عقاب الإلـه ونارًا مؤججة تضطـرم
أأصرفها طالقةً بتَّة على أنْوَكَ قد طَغَى واجترم
ولو أن ذاك الغبيَّ الخَمُول تثبَّت فى أمرى ما نَـدِم
ولـكنه طـاش مستعجلا فكان أحقَّ الوَرى بالندَم

ومن شعره أيضا قوله رحمه الله :

يا عليما بمُضْمرات القلوب أنا عـبْدٌ مُثقل بالذنـوب
فاعفُ عنى وتُبْ على وفرِّج ما أنا فيـه من أليم الكروب
حالما أشتكى سواك طبيب كيف أشْجَى به وأنت طبيب
أنا ممن دعا قريبٌ مجيبٌ فأرِح ما بمهْجَتى عن قريب

تواليفه

قال أبو القاسم بن خلف الغافقى ، حدثنى عنه الفقيه أبو خالد ابن يزيد بن محمد وغيره بتواليف ، منها كتاب « قُوت النفوس » ،

«وأنس الجَليس» وهو كتاب حسن ، ضمن فيه كثيراً من شمايل النبى عليه الصلاة والسلام .

توفى بغرناطة فى سنة أربعين وخمساية ، وهو يحاصر الملثمين[١] بقصبة غرناطة حسبا ثبت فى اسم ابن هود أحمد[٢] .

ومن الطاريين والغرباء

عثمن بن يحيى بن محمد بن منظور القيسى

من أهل مالقة ، يكنى أبا عمرو ، ويعرف بابن مَنْظُور ، الأُستاذ القاضى من بيت بنى منظور الإشبيليين أحد بيوت الأندلس المعمور[٣] بالنباهة .

حاله

كان رحمه الله صَدْراً فى علماء بلده ، أُستاذا ممتعا من أهل النظر والاجتهاد والتحقيق ، ثاقب الذهن ، أصيل البحث ، مضطلعا بالمشكلات ، مشاركا فى فنون ، من فقه وعربية ، برز فيهما ، إلى أُصول وقراءات وطب ومنطق . قرأ كثيراً ، ثم تلاحق بالشادين ، ثم غَبَّر[٤] فى وجوه السوابق. قرأ على الأُستاذ أبى عبد الله بن الفخار ، ولازم الأُستاذ أبا محمد بن أبى السداد الباهلى ، وتزوج إبنة الفقيه أبى على بن الحسن ، فاستقرت

(١) أعنى المرابطين

(٢) وردت فى أعلى هامش المخطوط (لوحة ٣٠٢) هذه الفقرة من كلام المختصر : «وما ينبغى أن يتنبه له ما قد يشتبه فى فتاوى هذا المترجم ، وفتاوى القاضى أبى عمرو بن منظور قاضى غرناطة ، وهو متأخر عن هذا من أهل المائة الثامنة من معاصرى الفقيه أبى عبد الله المواق . وفتاوى هذين الرجلين مسطورة فى «المعيار» . والمعيار هو كتاب «المعيار المعرب عن فتاوى افريقية والمغرب» للفقيه المغربى أحمد بن يحيى الونشريشى المتوفى سنة ٩١٤ هـ .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (المعروف) والأولى أرجح .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (عرى) .

عنده كتب والدها ، فاستعان بها على العلم والتبحُّر فى المسايل ، وقيد بخطه الكثير ، واجتهد وصنف ، وأقرأ ببلده ، متحرِّفًا بصناعة التوثيق ، فعظُم به الانتفاع ، وقعد للتدريس [خلفًا للراوية] [١] أبى عثمن بن عيسى فى شوال عام تسعة وسبعماية ووُلى القضاءَ ببلِّش وقُمارش ، وملتماس [٢] ، ثم ببلده مالقة ، وتوفى قاضياً بها . لقيته ، وانتفعت بلقايه ، وبلوتُ منه أحسن الناس خُلُقا ، وأعذَبُهم فكاهة .

شعره

وكان قليلا ما يَصْدُر عنه ، كتب على ظهر الكتاب الذى ألفه للوزير أبى بكر بن ذى الوزارتين أبى عبد الله بن الحكيم ، مُقتديا بغيره من الأعلام فى زمانه :

قدجمع الحُكم وفَصْلَ الخطاب	ما ضمَّه مجموعُ هذا الكتاب
من أدب غضّ ومن عِلْيــةٍ	تسابقوا للخَيْر فى كل باب
فجــاءَ فذًّا فى العُلى والنُّهى	ومُنْتقى صَفْو لُباب اللُّباب
ألفه الحــبر الجليل الــذى	حاز العُلا إرثا وكَسْبًا فطاب

تواليفه

ألف كتاب « اللُّمع الجَدَلية فى كيفية التحدث فى علم العربية » . وله تقييد فى الفرايض حسن ، سماه « بُغْية المباحث فى معرفة مقدمات الموارث » ، وآخر فى المسح على الأنماق [٣] الاندلسى .

وفاته : توفى يوم الثلاثاء الخامس والعشرين لذى حجة من عام خمسة وثلاثين وسبعماية ، ولم يَخْلِف بعده مثله .

---

(١) وردت فى الإسكوريال والزيتونة (خلفا من الرواية) . والتصويب أنسب للسياق .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (منتماش) .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال والزيتونة .

على بن أحمد بن الحسن المذحجى

من أهل حصن ملمّاس[1] ، وابن وزيره الفقيه الحافظ القاضى ، يكنى أبا الحسن ، ويعرف بجدّه .

حاله

من أولى الأصالة والصّيانة والتعفّف ، والعكوف على الخير ، والآوين إلى طُعْمة مُتَوارثة ، ونباهة قديمة ، صنّاع اليد ، مُتَقِن لكل ما يحاوله من تَسْعير ونِجارة ، مبذول المودة ، مُطْعم للطعام بدار له معدّة للضّيفان من فضلاء من تَطْوِه الطريق ، ويَغْشاه [من] أبناء السبيل . وُلى قضاء بلده فى نحو عشرين سنة ، فحمُدَت سيرته ، ثم وُلى قضاء مالقة ، فظهرت دُرْبته ومعرفته بالأحكام . فأُعفى وعاد إلى ما كان بسبيله من القضاء بموضعه والخطابة .

مشيخته : قرأ على الشيخين الصالحين ، أبى جعفر بن الزيات ، وأبى عبد الله بن الكماد ببلده ، بلِّش ، وأخذ عنهما .

تواليفه : له أجوبة حسنة فى الفقه . وصنف على كتاب البَراذعى تصنيفا حسنا ، بلغ فيه إلى آخر رِزمة البيوع ثلاثة عشر سفرا ، واستمرت على ذلك حاله .

توفى ببلده بلِّش فى ....[2] من عام ستة وأربعين وسبعماية .

على بن عبد الله بن الحسن الجُذامى النُّباهى المالقى

صاحبُنا أبو الحسن .

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وهى نفس البلدة التى وردت فى الترجمة السابقة .

(٢) بياض فى المخطوط .

أوّليّته

تنظر فيما تقدم من أهل بيته والمذكورين فيه من سَلَفه[١] .

حاله

هذا الرجل ، وُلّى قضاء الحضرة ، وخطابة جامع السلطان ، وعَرَض له تقزُّز فيما يقف عليه من مُنتخب وصفه ، وعدم رضاً بما يُجتهد فيه من تَحْليته ، فوكلنا التعريف بخصايصه ، إلى ما اشتهر من حميدها ، تحرّجاً مما يجرُّ عتْبه ، أو يثير عدم رضاه[٢] .

مشيخته

ذَكر أنه أخذ عن الشيخ الخطيب أبي بكر الطُّنجالى ، قريب أبيه ،

---

(١) سبق أن أورد ابن الخطيب ترجمة لأحد أجداده ، وهو الحسن بن محمد بن الحسن النباهى الجذامى (المجلد الأول ص ٤٦٥ – ٤٧٦) .

(٢) نود أن نضيف إلى هذه الفقرة الموجزة التى أوردها المختصر ، ما ذكره ابن الخطيب من أوصاف النباهى فى ترجمته الأصلية له ، وهى التى نقلها إلينا المقرى فى نفح الطيب . وذلك فيما يأتى :

« على بن عبد الله بن محمد بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن محمد بن الحسن الجذامى المالقى ، أبو الحسن ، ويعرف بالنباهى . هذا الفاضل قريع بيت مجادة وجلالة ، وبقية تعين وأصالة ، عف النشأة ، طاهر الثوب ، مؤثر للوقار والحشمة ، خاطب للشيخوخة ، مستعجل للشيبة ، ظاهر الحياء ، متحرك مع السكون ، بعيد الغور ، مرهف الجوانب مع الانكماش ، مقتصد فى الملبس والآلة ، متظاهر بالسذاجة ، برىء من النوك والغفلة ، يقظ للمعاريض ، مهتد إلى الملاحن ، طرف فى الجود ، حافظ ، مقيد ، طلعة ، إخبارى ، قائم على تاريخ بلده . شرع فى تكميل ما صنف فيه ، ولازم التقييد والتطريف ، متفرعن الإجادات والفوائد . استفدت منه فى هذا الغرض وغيره كثيراً . حسن الخط ، ناظم ، ناثر ، نثره يشف على نظمه ، ذاكر للكثير ، استظهر محفوظات منها النوادر القالى ، وناهيك به محفوظاً مهجوراً . ومسلكاً غفلا ، فما ظنك بسواه . نشأ ببلده حر الطعمة ، فاضل الأبوة ، وقرأ به ، ثم ولى القضاء بملتماس ثم ببلش وعملها ، فسيح الخطة ، مطلق الجراية ، بعيد المدى فى باب النزاهة ، ماضياً غير هيوب . حتى أربى فى الزمن القريب على المحتنكين وغبر فى وجوه أهل الدربة ، وجرت أحكامه مستندة إلى الفتيا ، جارية على المسائل المشهورة . ثم نقل منها إلى النظر فى أمور الحل والعقد بمالقة ، مضافا إليه الخطط النبيهة وصدر له منشور من إملائى » . (نفح الطيب ج ٣ ص ٤٦٩) .

والناظر عليه بعده بوصاته . وكان من أهل الدِّراية والرواية ، وعن الشيخ الفقيه أبي القاسم محمد بن أحمد الغسانى ، شُهر بابن حفيد الأمين ، وقرأ عليه الفقه والقرآن ، وسمع عليه ، وتلا على الشيخ الأستاذ المقرى أبي محمد بن أيوب ، وسمع عليه الكثير . وهو آخر من حدث عن أبي بن أبي الأحوص . وعلى الشيخ المقرى أبي القاسم بن يحيى بن محمد ابن درهم ، وأخذ عن قريبه القاضى ، نسيج وحده أبي بكر عبد الله بن بكر الأشعرى . ومن أشياخه صهره القاضى الأُستاذ أبو عمرو بن منظور ، والأُستاذ الحافظ المتكلم أبو عبد الله القطان ، والصُّوفى أبى الطاهر محمد ابن صَفوان ، والقاضى الكاتب أبو القاسم محمد البناء . وصحب الشيخ أبا بكر بن الحكيم ، ولازمه وروى عنه . ولقى الخطيب المقرى أبا القاسم ابن جُزىّ ، وأخذ نسبته عن الشيخ أبي القاسم بن عُمْران . وبرُنْدة عن القاضى المحدِّث المقيد أبي الحجاج يوسف المنتشافرى . ورحل فلقىبتلمسان عمران أبا موسى المِشدالى ، وحضر مجلسه ، والأخوين الإمامين أبا زيد وأبا موسى ابنى الامام . وبباجَة[1] ، أبا العباس أحمد بن الرَّباعى ، وأبا عبد الله بن هرون . وبتونس أعلاما ، كقاضى الجماعة أبي عبد الله ابن عبد السلام . قال ومن خطه نقلت ، وأجازنى من أهل المشرق والمغرب ، عالم كثير .

شعره

قال ، نظمت مقطوعتين ، مُوَطِّئًا بهما على البيتين المشهورين .

الأولى منهما قولى :

بنفسى من غِزْلان غزوى وغَـزالة جمالُ مُحياها عن النُّسك زاجر

(١) المقصود هنا باجة الواقعة بشمال إفريقية (تونس) ، وليس باجة الواقعة فى غربى الأندلس.

تصيد بلحظ الطرف من رام صَيدها ... ولو أنه النِّسر الذى هو طـاير

معطرة الأنفاس رائقة الحُلى ... هواها بقلبى فى المهامِه سـاير

إذا رُمْتُ عنها سَلْوة قال شافع ... من الحبِّ ميعاد السُّلو المقابر

والأُخرى قولى :

وقائلة لما رأت شَيْب لِمَّتى ... لئن مِلت عن سلمى فعُذْرك ظاهر

زمان التَّصابى قد مضى لسبيله ... وهل لك بعد الشَّيب فى الحب عاذر

فقلت لها كلا وإن تَلِف الفتى ... فما لهواهـا عنـد مثلى آخِـر

ستبقى لها فى مُضمر القلب والحشا ... سريرة وُدٍّ يوم تبلى السَّـراير

وكتب مع شكل يحذو على النَّعل الكريم ، من شأْنه أن يكتب ذلك لكل مُزمع سفر :

فديتُكِ لا يُهدى إليكِ أَجلُّ من ... حديث نبىِّ الله خـاتَمُ رسـله

ومن ذلك الباب المثال الذى أتى ... به الأَثر المأْثور فى شأْن نعْلـه

ومن فضله مهما يكن عند حامل ... له نال ما يهواه سـاعة حَمْلـه

ولا سيما إن كان ذا سَفرٍ بـه ... فقد ظَفِرت يُمْناه بالأَمن كلـه

فدونك منه أيها العَلَم الرِّضـا ... مثـالا كريما لا نظير لمِثْلـه

ومن ذلك قوله :

لا تَلْجأَنْ لمخلوق من الناس ... من يافث كان أصلا أو من الياس

وثِق بربِّك لا تيأْس ترى[1] عجباً ... فلا أَضرَّ على عبدٍ من اليـاس

ومن قوله يمدح السلطان ويصف الإعذار :

أَبْدَى لنا من ضُروب الحسن أَفْنانا ... هذا الزمـان لمولانا ابن مولانا

يقول فيها لطف الله بنا وبه :

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (تجد) .

ولا تحركْك لسانا ياأخا ثقة ... بريْم رامة إن وفّى وإن خانا
يظلُّ ينشر مَيْت الوَجْد عن جَدث ... من الجفون أو الأحشاء عِريانا

ثم قال فيها بعد كثير يُرْجى عفو الله فيه :

فما النّسيب أولى من حديث علا ... عن الإمام يُنيل المرء رضوانا
يمّمه تَحْظَ بما أمّلْت من أمل ... يُجنيك للسؤل أفنانا فأفنانا

ومنها فى المدح :

مَلِك يخفُّ لراجيه بنايله ... على وقار يُرى كالعين ثَهْلانا
ملك يُنصُّ له الآلاء عزته ... على السعادة فى الدارين فرقانا
العاطر الذِّكر ترتاح النفوس له ... تخال فيه لها رُوحاً وريحانا
السّاحر المنطق فى شتّى العلوم ... إذا سألتَ منه لوجه الرُّشد هانا
كسا الزمان ثياب الفضل حتى ... قضاعن مَنْكبى صرفه ظلماوعدوانا
وعظّم الشرعَ حتى أن داعيه ... لا يستطيع له المدعوُّ عِصيانا

ومنها فى ذكر الإعذار :

لله درُّك يا مولاى من ملك ... شيّدتَ بالحق للإسْلام بُنيانا
ولم تُبال ببَذْل المال فى غرض ... يعمُّ بالفضل وِلدانا وبلدانا
وقمتَ فى الولد الميمون طائرُه ... بسنّة الدين إكمالا وإتقانا
بدا لنا قمرًا تَرْنُو العيون له ... مُقَلَّدًا من نِطاق المجد شُهْبانا
وقام يسحب أذيال الجمال على ... على بساط مُلكك بالإعذار جَذْلانا
خجلان بالقصور عن بلوغ مدًا ... من العُلى بل الحسن منه قد بانا
فَدَتْهُ أنفُسُنا لو كان يَقبلُها ... منا وكانت على الإبلال قُرْبانا
فيادمًا سال عن تقوى فعاد له ... بين الدِّماء طَهُورًا طيِّباً زانا

ولا دليل على الغَفْلة المعَبَّر عنها بالسلامة والذهول كقوله : وقُمْتَ فى

الولد الميمون طائرُه . ومن ذلك قوله يخاطب صاحب العلامة بالمغرب أبا القاسم بن رِضوان ؛:

لك الله قلبي في هواك رَهين ورُوحي عني إن رحَلْت ظَعين

ملكت بحكم الفضل كُلِّي خالصاً ومُلْكك للحرّ الصَّريح يزين

فهَبْ لي من نُطقي بمقدار ما به يُتَرجم سرٌّ في الفؤاد دَفين

فقد شَمَلتْنا من رضاك ملابس وسَحَّ لنا[1] من نَداك مَعين

أعَنْتَ على الدهر الغَشُوم ولم تزل بدنياك في الأمر المُهِم تعين

وقَصَّر من لم تَعْلم النفس أنه خذول إذا خان الزمان يخون

وإني بحمد الله [عنه][2] لني غِنًى وحَسْبِي صبرٌ عن سواك يصون

أبَى لى مجدٌ عن كرام وَرِثته وقوفًا بباب للكرام[3] يَهين

ونفسى سَمَت فوق السَّماكين همَّة وما كل نفس بالهوان تَدين

ولما رأت عيني مُحيَّاك أقسَمَت بأنَّك للفعل الجميل ضَمين[4]

وعادَ لها الأُنس الذى كان قد مضى بريَّة إذ شَرْخُ الشَّباب خَدِين

بحيث نشأْنا لابسين حُلى التُّقى وكلٌّ بكل عند ذاك ضَنين

أما وسَنى تلك الليالى وطيبُها ووجدُ غرامى والحديث شُجون

وفِتيان صِدْق كالشُّموس وكالْحَيا حديثهم ماشِئت عنه يكون

لئن نَزَحَتْ تلك الدِّيار فوَجْدُنَا عليها له بين الضُّلوع أنين

إذا مرَّ حينٌ زاده الشوق جِدَّة وليس يُعاب للرُّبُوع حَنين

لقد عَبَثت أيدى الزمان بجَمْعنا وحان افتراقٌ لم نَخَلْه يَحين

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (لدينا) .

(٢) الزيادة من النفح .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (للكريم) .

(٤) وردت فى الإسكوريال (ضنين) والتصويب من النفح .

وبعد التَقَيْنا فى محلٍّ تغرُّبٍ — وكل الذى دون الفِراق يَهُون
فقابلتَ بالفضل الذى أنت أَهْلُه — ومالك فى حُسْن الصنيع قَرين
وغِبتَ وما غابت مكارِمُك التى — على شُكْرها الربُّ العظيم يُعين
يمينًا لقد أولَيْتَنا منك نعمةً — تلذُّ بها عند العِيان عيون
ويَقْصُر عنها الوصف إذ هى كلها — لها وجه حُرٌّ بالحياء مَصُون
ولمّا قَدِمت الآن زاد سرورنا — ومَقْدمك الأَسْنَى بذاك قَمين
لأنك أَنت الرُّوح منا وكلُّنا — جسومٌ فعند البعد كيف تكون
ولو كان قَدْرُ الحب فيك لقاؤنا — إليك لكنا باللُّزوم ندين
ولكن قَصَدْنا راحة المجد دوننا[1] — فراحتُه شَمْل الجميع تصون
هنيئًا هنيئًا أيها العَلَم الرِّضا — بما لَكَ فى طىِّ القلوب كَمين
لك الحسن والإحسان والعِلْم والتُّقى — فحبُّك دُنيا للمُحبِّ ودِين
وكم لك فى دار[2] الخلافة من يدٍ — أقرَّت لها بالصِّدق منك مَرِين
وقامت عليها للملوك أدلَّة — فأنت لديها ما حُيِّيت مَكين
فلا وجهٌ إلا وهو بالبشر مُقبل[3] — ولا نُطق إلاَّ عن عُلاك مُبين
بقيت لرَبْع الفضل تحمى ذِماره — صحيحا كما قد صحَّ منك يقين
ودونك يا قطبَ المعالى بُنَيَّة — من الفِكر عن حال المحبِّ تُبين
أتتْك ابن رضوان تَمُتُّ بوُدِّها — وما لسوى الإغضاء منك ركون
فخلِّ انتقاد البحث[4] عن هفواتها — ومهِّد لها بالسَّمح حيث تكون
وخذها على عِلاتها فحديثها — حديث غريب قد عراه سُكون

ومن شعره قوله فى ليلة الميلاد الكريم من قصيدة :

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (جهدنا) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (باب) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (مشرق) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (البحر) .

خليلى مُرّا على أرض مـأْرَبِ ولا تَعْذلانى إننى غير آيب

وهى طويلة أثبتت فى الرّحلة . فلينظرها هنالك من أراد استيفاء غرضها .

نثره

من أَمْثَل ما صدر عنه فى غرض غريب ، وهو وصف نخلة بإزاء باب الحمراء . ونثره كثير، ولكنا اخترنا له ما اختار لنفسه ، وأشاد بشُفُوفه على أبناء جنسه :

يا أيها الأخلّاء الذين لهم الصّنايع ، التى تحسدها الغَمايم ، والبدايع التى تودّها بدلا من أزهارها الكمايم ، بقيتم وشَمْلكُم جَميع ، وروض أملكم مَريع ، والكل منكم للغريب الحَسَن من حديث المُحبّ سميع ،

بـأرض النخل قلبى مُسْتهام فكيف يَطيب لى عنها المُقام

لذاك إذا رأيتُ لهـا شـبها أقول وما يُصاحبنى مـلام

ألا يا نخلة من ذات عِـرْق عليك ورحمة الله السّـلام

فسلّمتُ يوما تسليم المبرّة ، على مدنها الحرّة البرّة ، جارة حايط الدار ، الواقفة للخدمة كالمنار ، على سِدّة الجدار ، بياضَ النهار ، وسوادَ الليلِ ، المتلفّعة بشِعار الوقار ، المكفولة الذّيل ، أنِيسة مَشْيخة الجماعة ، القاطنة من الحمراء العليّة ، بباب ابن سَماعة ، فحين عَطَفتُ عليها ، وصَرَفتُ زمام راحِلتى إليها ، ووقفت بإزاء فناءها ، ولكنها وقوف المشفق من فناءى وفنائها ، وقلت لها كيف حالك أيتها الجارة ، السّاكنة بنَجْدة الحجارة ، الواعظة للقريب والبعيد ، بمقامها صامتة على الصّعيد .

سقاكِ من الغُرّ الغوادى مَطيرُهـا ولا زلتِ فى خَضْراء غضّ نظيرُها

فما أحقّكِ مِنْ باسِقَة بالتّرحيب ، وأقْرَبكِ من رحَمات السّميع المجيب ، خِلتُها اهتَزّت عند النّداء اهتزاز السّرور ، وتمايَلت أكْمامها تمايُل الثّمِل

المَسْرور ، ثم قالت لسايلها بلسان وسايلها ، عند مشاهدة مِثلى تقول العرب ، عينُها فرارها ، وابنو جَدُّها للناظرين اصفرارُها ، وجملة بُخيِّتى ، بعد إتمام تحيَّتى ، أنَّ الدهر عَجَم قَناتى ، ومسَّ الكِبَر كدَّر سِناتى ، وما عسى أن أبث من شُكْناتى ، وجلُّ عُلاتى من تركيب ذاتى . ولكنِّى أجد مع ذلك ، أنَّ وقارى ، حسَّن لدى الحىِّ احتقارى ، وكثرةُ قناعتى ، أثمرت إضاعتى ، وكمالُ قدِّى ، أوْجَب قدِّى ، فما أنْسَ م الأشياء ، لا أنْسَ عُدوان جُعسوس من لعُبُوش اليهود أو المجوس ، يفْحَص بمُدْيَته عن وريدى ، ويحرص على مدِّ جريدى ، ويجْدَع كل عام بخَنجره أنْفِى ، وكلما رُمْتُ كفَّ إذايته عنى ، كشم كف ، فلو رأيتم صَعْصَعة أفنانى ، وسَمِعتم عند جَذْم بَنانى ، قَعْقَعة جَنَانى ، والدمع لمَّا جَفانى ، يفيض من أجفانى ، والجُعسوس الخبيث المنحُوس ، قد شد ما حدَّ بأمْراسه ، ورفعه لبيعة كفْره على راسه . بعد الأمر بوضعه على أسْنِمة القبور ، حسبما ثبت فى الحديث المشهور ، لحَمَلَتكم يا بنى سام وحام على الغَيْرة وشايج الأرْحام ، فقد علمتم بنصِّ الأثر ، أنى عمَّتُكم القديمة ، وإن لم أكن لذلك بأهل ، فإنى لكم اليوم خَدِيمة ، أو من ذُرِّية الفريق الموجب، المضروب به المثل يوم السَّقِيفة ، لمن رام من أشراف الأندلس أن يكون إذ ذاك خليفة . وخالةُ أبى كانت النخلة البَرْشَا الكبيرة ، التى حادَثها الأمير عبد الرحمن بالرُّصافة[1] القريبة من كورة إلبيرة . فكيف يسهل اليوم عليكم إهمالى ، ويَجْمُل لديكم إخمالى ، وترك احْتِمالى ، والأيام والحمد لله مُساعدة ، والمُلْك مُلْك بنى ساعدة . فلما سمعتُ عِتابها ، وعلمت

(١) يشير هنا إلى الأمير عبد الرحمن بن معاوية الداخل ، أول أمراء بنى أمية بالأندلس ، وإلى قصيدته التى يخاطب بها نخلة وحيدة رآها بحى الرصافة ، ضاحية قرطبة ، ومطلعها :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل

أنها قد شَدَّت للمناضلة أقتابها . قلت لها أهلاً بك وسهلاً ، ومهلا عليك أو بَهْلاً ، لقد دسَع[1] بعيرُك ، وعادت بالخيبة عيرُك . فليست الحقيقة كالمجاز ، ولا جلّيقية فى النّيّات كالحجاز . هنا جنّات من أعناب مُرسلة الذُّيول ، مُكملة الأطْناب ، قد طاب استِيارها ، وحَمُد اختِبارها واختيارها ، وعَذُبَت عيون أنهارها ، وتفتّحت كمايم أزهارها ، عن وَرْدها ونَرْجسها وبَهارها ، وسَرَتْ بطَرْف محاسنها الرِّفاق ، حتى قَلِقَت منها الشّام واليمن والعراق . فحين كثر خيرُها ، سُحِر بالضّرورة غيرُها ، وأنت لا كنتِ يا خَشَبة ، قد صِرت من المنال عُشْبة ، وأصبحت نَذْلى خالفة ، ورَذْ لى بالهم تالفة ، لا يُجتنى بلَحك ولا طَلْعَك ، ولا يُرتجى نَفْعك ، فالأَولى قَطْعك أو قَلْعك ، وإلا فأين قنوك أو صنوك ، أو تمرك أو سَبْرك ، هلا أبقيت يا فَسِيلة على نفسك ، وراعيتِه صَلْحة جنسك . ولقد انتهت بك المحارجة إلى ارتكاب ما لا يجوز ، وفى علمك أنّ من أمثال الحكماء ، كُل هالك عجوز . حسبك السّمح لك بالمُقام ، ما دمتِ حيّة فى هذا المقام . فانقطع كلامُها ، وارتفع بحكم العجز ملامُها . وما كان إلا أن نُقل مقالى . فقال المتكلم بلسان القالى ، أنا أتطوّع بالجواب ، وعلى الله جزيلُ الثّواب ، ليعلم كلُّ سايل ، أنّ تفضيل النخل على العِنب ، من المسايل التى لايَسَع فيها جحد جاحد ، وإن كانا أخوين سُقِيا بماءٍ واحد . وقد جرى مِثلُ هذا الخطاب بين يدى عمر بن الخطاب ، فقيل يا بنى حتمة ، أيهما أطْيَب ، الرُّطب أم العنب ، فقال ليس كالصقر ، فى رؤوس الرّقل ، الراسخات فى العقل ، المُطْعمات فى المَحْل ، تحفة الصّايم ، ونُقلة الصّبى القادم ، ونزل مريم بنت عمران . والنخلة هى التى مُثِّل بها المؤمن من الإنسان ، ليس كالزّبيب ، الذى

(١) وردت فى الإسكوريال (دسج) ، ونعتقد أن التصويب أرجح ، وأكثر اتساقاً مع المعنى.

إن أكلته ضَرِست ، وإن تركته غربت ، وكفى بهذه الرواية حُجة ، لمن أراد سلوك المَحَجَّة . وعلى كل تقدير ، فقد لزم التفضيل للنخلة على الكَرْمة ، لزوم الصِّلة للموصول ، والنَّصب للمُنادى المطول ، والعجز لِكتابَى المُحصَّل والمحصول . وكم على تَرْجيح ذلك من قِياس صحيح ، ونقل ثابت صريح . قال ، واعتذاركم بالمَهْرمة عن فعل المَكْرمة لأمة فى تلك الطِّباع كامنة ، وسامة للتَّلف لا للخَلَف ضامنة . وذكرتم الثَّمرة والبُسرة ، والوقت ليس بوقت عُسرة ، فأذكرتم قول القايل ، فى بعض المسايل . دَعْنا من تمرتان وبُسرتان أو تمرتين وبُسرتين ، على الوجهين ، المتوجِّهين فى المَسْلتين ، وفى ضمن ذكركم لذلك أدلَّة صدق على تطلُّع النفس الفقيرة ، لِلأعراض التافهة الحقيرة ، والإمامة العظمى ، أجلُّ عندنا وأسمى . من أن تَلْحظ بعينها تلك الملاحظ ، ولواصل لديها مراتِبُها وأفكارُها ببَيانه وتِبْيانه ، عمرو بن بحر الجاحظ ، إذ هى كافأ اللهفضلها ، ولا قلّص ظلَّها كالسَّحاب ، نجود بغَيْثها على الآكام والضِّراب ، ومنابت الشجر من التُّراب ، فضلا عن الخدمة والأتراب ، فليس يَضيع مع جميل نَظَرها ، ذو نسب ، ولا يُجهل فى أيامها السَّعيدة مقدارُ مُنْتَسب إلى حَسَب . وإن وقعت هفوة صغيرة ، أعقَبتها حَسَنة كبيرة ، ومِنَن أثيرة ، ونِعم كثيرة . ولم لا ، ورُوح أمرها ، ومذهب نُصرة جَمْرها ، عِلْم السادة للقادة الأكابر ، المغرم بجَبْر كل كَسِير ، وناهيك من به جابر الرازى[1] ، ذكر مآثره ، بعرف أطيب الطِّيب . الوزير أبو عبد الله بن الخطيب . والمطلوب منه لهذه الشجرة الثَّرما ، الغريبة الشَّما ، التى أصلها ثابت ، وفرعها فى السماء ، إنما هو يسير بنا . وظهير اعِتنا ، وخنجر يُرما ،

---

(١) وردت فى الإسكوريال (الزارى) .

لعل عَباسة أديم دوها أن تذهب . وأكمام كناسة قنوها ، أن تُفَضَّض بنعيم النُضارة ثم تُذَهَّب ، ويعود إليها شَرْخُ شبابها ، وتستحكم صُفْرة ثيابها ، وخُضْرة جِلبابها ، وذلك كله بمَنِّ اللطيف الخبير ، من أسهل العمل على مجد الأمير ، وفضل الوزير ، إذ هما ، دام عزُّهما ، على بيِّنة من أن الإحسان ألقاح ، والشكر نتاجه . والثناء إكليل ، وهو فى الحقيقة تاجه . قال المسلم ، ومن يا إخونى لعلى ، بمعارضة الحافظ أبى على ، ولو أنى اشتملت شملة النَّضر بن شُميل ، وأصبحت أفصح من عامر بن الطُّفيل ، وأخطب من شُبَيب ، وأشعر من حبيب ، وجُزْت من طرق الجدال ، منازل نقدة صدور الابدال . وعلى أنه ما قال إلا حقًّا ، فبُعْدًا للمرء وسُحْقًا . ولكنى أقسم عليكم بمُقَدِّر الضِّيا والحَلَك ، ومُسَخِّر نجوم الفَلَك ، بإصابة الأغْراب ، وأصحاب الإغراب ، وأرباب فنون الإعْراب ، ألا ما تأمَّلتم فصول هذه المقالة ، وأفْتيتم عما يترجَّح فيها لديكم من نَسْخ أو فَسْخ ، أو إجادة أو إقالة ، فأنتم علماء الكلام ، وزعماء كَتايب الأقلام ، والمراجعات بين شقاشق الرجال ، شَنْشَنة معروفة ، وطريقة إليها الوجوه فى كثير من المخاطبات مَصْرُوفة ، لازلتم مذكورين فى أهل البيان ، مشكورين على بَذْل الفضل مدى الأحيان . والله سبحانه يجعل التَّوفيق حاديكم ، ونور العِلم هاديكم ، ومنه نَسَل جلَّ اسمه ، التطهير من كل مَعابة ، والسَّمح فيما تخلَّل هذه المَقامة من دُعابة ، والتحية الكريمة مع السلام الطيب المُعاد ، يُعتمد من يقف عليها من الآن إلى يوم المَعاد ، والرَّحمات والمسرات والبركات والخيرات . من كاتبها على بن عبد الله

ابن الحسن ، أرشده الله[1] .

المقريون والعلماء

على بن أحمد بن خلف بن محمد بن الباذش الأنصارى

من أهل غرناطة ، يكنى أبا الحسن ، الشيخ الأستاذ ، إمام الفريضة بجامع غرناطة .

حاله

من الملاحى ، أوحد زمانه إتقانا ، ومعرفة ، ومشاركة فى العلوم ، وانفرادا بعلم العربية . وكان حسن الخط ، كثير الكتب ، ترك منها بخطه كثيرا جدا ، مشاركا فى الحديث ، عالما بأسماء رجاله ونَقَلَته ، مع الدين ، والفضل ، والزهد ، والانقباض عن أهل الدنيا ، وترْك المُلابسة لهم .

مشيخته

قرأ على المُقرى بغرناطة أبى القاسم نِعْم الخلف بن محمد بن يحيى الأنصارى ، وأبى على الصدفى . وغيرهم ممن يطول ذكرهم . وحدث [عنه] القاضى

(١) يجدر بنا أن نشير هنا إلى أن هذه الترجمة التى أوردها ابن الخطيب فى الإحاطة لأبى الحسن النباهى ، وأشاد فيها بجميل صفاته . قد كتبت حوالى سنة ٧٦٩ - ٧٧٠ ه ، حينما كان ابن الخطيب فى أوج سلطانه فى الوزارة ، وكان النباهى وهو يشغل يومئذ منصب قاضى الجماعة ، من أصدقائه وأوليائه . فلما تغيرت الأحوال ، وشعر ابن الخطيب بتغير مليكه عليه ، ونشبت الخصومة بينه وبين النباهى ، واضطر فى النهاية إلى أن يغادر الأندلس لاجئاً إلى المغرب تحت كنف السلطان عبد العزيز المرينى ، وكتب بعد ذلك كتابه «الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة» كتب ترجمة جديدة لأبى الحسن النباهى ، تفيض بالطعن المر ، والهجاء المقذع ، والأوصاف المخدشة وذلك حسبما أشرنا إليه فى مقدمة المجلد الأول من الإحاطة . (راجع الكتيبة الكامنة - طبع بيروت سنة ١٩٦٣ - ص ١٤٦ وما بعدها) .

أبو الفضل عياض بن موسى ، والقاضى أبو محمد بن عطية ، والقاضى أبو عبد الله بن عبد الرحيم ، والقاضى أبو بكر جابر بن يحيى التّغلبى ، والقاضى أبوخالدعبد الله بن أبى زَمَنين، والقاضى أبو الحسن بن أضحى.

تواليفه

ألّف فى النحو كتبا كثيرة ، منها على كتاب سيبويه ، وعلى كتاب المُقْتضب ، وعلى الأُصول لابن السّراج . وشرح كتاب الإيضاح ، وكلامه على كتاب الجُمل لأبى القاسم ، وكلامه على الكافى لابن النحاس. مع التنبيه على وَهْمه فى نحو مائة موضع ، إلى غير ذلك .

شعره

قال أبو القاسم ، وله نظم ليس بالكثير . فمن ذلك :

أصبحت تقعد بالهوى وتَقوم   وبه تقرّظ معشرًا وتُـبديم

تُعنيك نفسك فاشتغل بصلاحها   إننى بغير السُّقام سَقيم

وفاته

توفى بغرناطة سنة ثمان وعشرين وخمسماية ، وصَلى عليه إثر صلاة العصر ، ابنه الأُستاذ أبو جعفر ، ودفن بمقبرة باب إلبيرة ، وازدحم الناس على نعشه ، وكانت جنازته حافلة ، وتفجع الناس على قبره . وقبره مشهور ، يتَبرك به الناس .

على بن محمد بن درى

المُقرى الفقيه ، الخطيب أبو الحسن ، الإمام بجامع غرناطة ، أصله من طليطلة .

حاله

كان من خِيار الناس وفُضلائهم، وأهل المعرفة منهم ، عارفا بإقراء كتاب الله عز وجل ، والرواية للحديث . أخذ الناس عنه ، وكانت عنده مُشاركة ، ومسارعة لقضاء الحوايج ، والمشى للإصلاح بين الناس ، والإشفاق على المساكين ، كثير الصدقة ، والسّعى فى فِداء الأَسرى ، والوسائط الجميلة فى مُهِمات الأُمور ومشكلاتها . دخل رجل تاجر غريب الميضأة للوضوء ، فنسى بها وعاءً فيه جملة مال ، فتذكَّرَ له ، فرجع ولم يجده ، فسقط مغشيا عليه ، فاجتمع عليه الناس ، وهو يقول مالى ، ووافق خروج الأُستاذ أبى الحسن المذكور من الجامع ، فسأل عنه ، فجالس أذنه ، فقال مالَك عندى وديعة تركته أنت عندى ، وإذا كان بعد صلاة العصر تأخذه . فقام الرجل ، فكأنما نشط من عِقال ، ومشى الخطيب فى حينه ، إلى مُشرف غرناطة ابن مالك ، فقال له ، إنى اشتريت لك قصرًا فى الجنة ، بخمس ماية دنير ، وأنا الضّامن لذلك ، فشكره ، وأخبره الخطيب بالقصة ، فدفع إليه المال ، فدفعه إلى الرجل . وكان الناس لا يتوقّفون له فى أمر .

مشيخته

روى بطُليطلة عن أبى عبد الله المقامى ، وعن أبى مُسلم الضرير المقرى ، والقاضى أبى الوليد الوقّشى ، وأخذ عن أبوى على الصّدفى والغسانى ، وعن أبى مروان بن سِراج ، وابنه سِراج .

توفى بغرناطة فى رمضان ستة عشرين وخمسماية ، وصَلى عليه القاضى أبو القاسم بن ورد ، ودفن فى مقبرة باب إلبيرة ، وكانت جنازته حافلة ، وتفجع الناس عليه ، واخلصوا الدعاء له .

ومن رثاه ، أبو عبد الله بن أبي الخِصال بقوله :

عِتاب وما يُغني العتاب على الزمن … وشكوى كما تشكو الرِّياح إلى السفن

وما رضِيت بعد الغضارة أيْكة … نَبَحت ولكن عالم الكون ممتحن

وماذا عليه والسَّلامة حظُّه … بأن تتخطاه النَّوايب والمِحن

فليتَ كريماً يُنعش للناس خيره … يَعْمُر فيها عُمرته الآن أو حضن

ولكنه يمضي كظلٍّ غمامة … ويبقى لسم سرِّه غير مؤتمن

يود الفتى طول البقاء وطوله … يورثه ثُكل الأحبَّة والبَدَن

وأى اغتباط فى حياة مرزًا … يروح على بثٍّ ويغدو على شجن

زيادته تَنُقُّص وجِدَّته بِلى … وراحته كَرْب وهُدنته دَخن

إذا فوَّق السهم المُصيب فقَلْبُه … ومن صار فيه من أحبَّته فنن

فيا عجباً للمرء يلتذُّ عيشه … لُزَّث مع الموت فى قَرَن

أرى كلَّ حيّ للمنيَّة حاملا … فياويحه مما تحمَّل واحتَضَن

إذا زادت الأيام فينا إساءة … نزيد على علم بما ساء حُسن ظَن

ولم أر مثل الموت حقًّا كباطل … وكل قباليَّه بالموت مُرتهن

أإخواننا لم تبق إلاَّ تحية … أرقد بها تلك المعاهد والدمن

أإخواننا هل تسمعون تحيتى … وذو كلم ما تحجَّب السِّر والعلن

أبا الحسن خلد فى الجنان مُنعما … جزاء بما أسلفت من سعيك الحسن

يطير فؤادى روعةً فإذا رأى … مُحياك فى دار الغَنا والرِّضا سكن

وقد كنت ترتاد المواطن إذ نَبَتْ … فبوَّأك الرحمن فِرْدَوسه وطَن

وبتَّ مُعنى بالجلاء فَنِلْته … وقد كان حاديه يُغَرِّد بالظَّعَن

ولم ترض إلا الأرض هجرتك التى … تخيَّرها الأولياءُ على القِنن

وفى مثلها أن الرسول لسعد … وقد واراه أكرم مدفن

على أنك المدعوُّ من كل بلــدة ... هلمَّ فإنّا دونك الحجب والجُنن
سيرضيك من أرْضَيته فى عبـاده ... وجاهدت فيه بالفُروض وبالسُّنن
ويبقى كما بَقيت بعدك أنه لهم ... فلما اشتَهوتهم روعة ســكن
ويحفظهم حِفظ اليتيمين أبَّـدا ... بوقع جدار قد تداعى وقد وَهَن
أبا الحسن إن المدى بعد ما بدا ... طويلٌ ولا يُعتد فى جنب ما بطن
وأسـير وجْد فى فـراقك أنــه ... سيبقى عليك الوَجْد ما بقى الزمن
سقى الله والسُّقيا بكفَّيه تــربة ... مباركة ضمَّتْك أســرع ما هتن
ولا برِحْتَها ديِّمة مُستهلة إذا ... ركضتها الرِّيح قام بها جـرن
فلا زلت فى رَوض ورُوح ورحمة ... ومقبرة تَتْرى على ذلك الجنن

على بن عمر بن إبراهيم بن عبد الله الكنانى القيجاطى

يكنى أبا الحسن ، أصله من بَسْطة ، واستوطن غرناطة ، حتى عُدَّ من أهلها قراءة وإقراءً ولزوما

حاله

من « العايد »[1] ، أوحدُ زمانه علما وتخلُّقا وتواضعا وتفنُّنا . ورد على غرناطة مُسْتدعى عام اثنى عشر وسبعماية ، وقعد بمسجدها الأعظم يُقرى فنونا من العلم ، من قراءات وفِقه وعربية وأدب . ووُلِّى الخطابة ، وناب عن بعض القضاة بالحضرة ، مشكور المأخذ ، حسن السِّيرة ، عظيم النفع . وقصده الناس ، وأخذ عنه البعيد والقريب . وكان أديبا لوْذَعيا ، فَكِها ، حُلوا . وهو أول أُستاد قرأتُ عليه القرآن والعربية والأدب ، إثر قراءة المكتب[2]

---

(١) العايد ، أى كتاب عايد « الصلة » لابن الخطيب ، وقد سبق التعريف به فى المقدمة .

(٢) وردت فى الإسكوريال (المنكب) والتصويب من الزيتونة

مشيخته

قرأ على أبيه ببلده بسطة القرآن ، بالروايات السبع . وجمعها فى خَتْمة ، وعلى الأُستاذ أبى عبد الله بن مساعد الغسَّانى . وقرأ بغرناطة القرآن على الأُستاذ أبى عبد الله بن مستقور[1] ، والأُستاذ أبى جعفر الطبَّاع ، والأُستاذ الشهير أبى الحسن بن الضايع[2] ، والأُستاذ النحوى أبى الحسن الأُبَّدى . وعلى القاضى أبى عمرو بن الرُّندى ، والفقيه القاضى أبى على بن الأَحوَص ، وعلى الفقيه النسَّابة أبى جعفر بن مسعدة ، والأُستاذ العلامة أبى جعفر بن الزبير . ولقى الشيخ الصالح ولى الله أبا إسحق بن عُبيدسْ[3] وحضر مجالسه العامة . وذكر أنه كان يفتتح مجلسه الذى يتكلم فيه بقوله : لا حول ولا قوة إلا بالله ، كنز من كنوز الجنة ، رَزَقنا الله الأَدب مع الله ، واستعمَلَنا فيما يُرضيه ، ويُرضى رسوله ، وجعل حظَّنا فى الدار الاخرة . ولقى الإمام بجامع بسطة الخطيب الراوية أبا الحسن بن نافع وغيرهم ، وله تواليف فى فنون ، وشعر ، ونثر فمن شعره قوله :

روضُ المشيب تفتحت أزهاره ... حتى استبان ثغامه وبَهاره
ودُجى الشباب قد استبان صباحه ... وظلامُه قد لاح فيه نهارُه
فأَتى جِمام لا يُعاف وقوعه ... ومضى غروبٌ لا نخاف مطاره
والعُمْر مثل البدر يُرمق[4] حسنه ... حينا ويَعقب بعد ذاك سِراره
للإخاء تقلَّصت أفياؤه ... ما للصَّفاء تكدَّرت آثاره
الحرُّ يصفح إن أخلَّ خليلُه ... والنَّزُّ يسمح أن تجرَّأ جارُه

(١) وردت فى الإسكوريال (مسمور) وفى الزيتونة (مسقور) وكلاهما تحريف
(٢) هكذا وردت فى المخطوطين ، وربما كانت (الصايغ)
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى الزيتونة (ابن عبديس)
(٤) هكذا فى الإسكوريال وفى الكتيبة الكامنة (يونق).

فتراه يدفع إن تمكن جـاهه ... وتراه يرفع[1] إن عـلا مقدارُهُ
ولأنت تعلم أننى زمـن الصبا ... ما زلت زندا والحيـاءُ سِواره
والهجر ما بين الأحبّة لم يـزل ... ترك الكلام أو السّلام مشـارُه
ولكم تجافى عن خَفاءِ خـليله ... فَطِنٌ وقد ظفِرت به أظفـارُه
ولكم أصرّ على التّدابر مُدبر ... أفضى إلى نَدم به إصـراره
فأقام كالكُسَعِى بان نهـاره ... أو كالفرزدق فارقته نـواره
أنكرتم من حقّ مُعترف لـكم ... بالحقّ ما لا ينبغى إنـكاره
والشّرع قد منع التقاطع نصّه ... قطعا وقد وردت به أخبـاره
والسّن سن تـورّع وتبـرّع ... وتسرّع لتشـرّح تختـــاره
مايومنا من أمْسِنا قطك[2] اتّبت ... ذهب الشّباب فكيف يبقّى عاره
هلّا حظرتم أو حذرتم منه مـا ... حقٌّ عليـكم حَـظْره وحِـذارُه
عجبا لمن يجرى هواه لغاية ... محدودة أضمـاره مضمـاره
يأتى ضُحًى ما كان يأتيه دُجًى ... فكأنّه ما شاب منه عِـذاره
فيعد مـا تنْعى بـه حسنـاتُه ... ويعيـد ما تَبْقى بـه أوزاره
فالنفس قد أجرته ملءَ عِنـانه ... يشتد فى مضمارها[3] إحضـاره
والمرءُ من إخـوانه فى جِنّة ... بل جَنّة تجـرى بهـا أنهـاره
فاليُمن قد مدّت إليه يمينـه ... واليُسْر قد شُدت عليه يسـاره
شِعر به أشعرت بالنصح الذى ... يَهْديه من أشـعاره إشعاره
ولو اختبرتم نقـده بمحـكّه ... لامتاز بهرجه ولاح[4] نضـاره

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الكتيبة الكامنة (ينفع) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الكتيبة الكامنة (قدك) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الكتيبة الكامنة (إحضارها) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى الكتيبة الكامنة (وبان) .

هذا هدى فيه اقتده تنل المنا[١] | أو أنت فى هدا وما تختـاره
وعليـكم منى سلامٌ مثل مـا | أرّجت بروض يانع أزهـارُه

ومن شعره فى الرِّثاء قوله من قصيدة .

حَمَام حِمام فوق أيك الأسى تَشْدو | تهيج من الأشجان ما أوْجَد الوَجْد
وذلك شجوٌ فى حناجرنا شجى | وذلك لهوٌ فى ضمايرنا جِـدٌّ
أرى أرجل الأرزاء تشتدُّ نحـونا | وأيديها تسعى إلينـا فتمتدُّ
ونحن أولو سهو عن الأمر ما لنا | سوى أملٍ إيجابنا عندهُ جَحْدُ
فإن خطرت للمرء ذكرى بخاطر | فتَسْبيحه السَّاهى إذا سُمع الرعد
مصاب به قُدَّت قلوب وأنفس | لدينا إذا فى غيره قُطعت بُرد
تلين له الصُّم الصلاب وتَنْهَمِىْ | عيون ويَبكى عندهُ الحجر الصَّلد
فلا مُقْلة ترنو ولا أذنٌ تَعِى | ولا راحةٌ تعطو ولا قدم تَعْدو
وقد كان يبدو الصبر منا تجلُّدا | وهذا مصاب صبرنا فيه لا يَبْدو

مولده : عام خمسين وستماية .

وفاته : توفى بغرناطة ضحى يوم السبت التاسع والعشرين من شهر ذى حجة من عام ثلاثين وسبعماية ، ودفن فى عصر اليوم بعد بجبانة باب إلبيرة . وكان الحفل فى جنازته عظيما ، حضرها السلطان . واحتمل الطلبة نعشه[٢] .

ومن الطارئين
عمر بن عبد المجيد بن عمر الأزدى

المعروف بالرُّندى ، من أهل رندة يكنى أبا على .

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الكتيبة الكامنة (الرضا) .

(٢) أورد ابن الخطيب للمترجم ترجمة أخرى فى كتابه (الكتيبة الكامنة فى من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة) ، الذى سبقت الإشارة إليه (ص ٣٧ — ٤٠) .

حاله

كان من جملة المُقْرِيين ، وجهابذة الأُستاذين ، مشاركاً فى فنون ، نقّادا ، فاضلا .

مشيخته

روى عن أبى زيد السُّهيلى ، وعنه أخذ العربية والأدب ، وبه تفقّه ، وإياه اعتمد . وعن أبى محمد القاسم بن دحمان ، وأبى عبد الله بن أبان ، وتلا على هؤلاء القراءات ، بقراءات السّبعة . وعن أبى اسحق بن قرقول ، وأبى عبد الله بن الفخار ، وأبى الحسن صالح بن عبد الملك الأوسى ، وأبى محمد عبد الحق بن بُونه . وأبى عبد الله الحميرى الإستجّى ، وأبى العباس بن اليتيم ، وأبى عبد الله بن مُدرك ، وأبى القاسم بن حُبيش وأبى عبد الله بن حُميد . أخذ عن هؤلاء بمالقة ، من أهلها ، ومن الواردين عليها . ورحل إلى غرناطة ، فأخذ بها عن يزيد بن رفاعة ، وابن كوثر ، وابن عروس ، وأبى محمد عبد المنعم بن عبد الرحيم بن الفَرَس ، وأبى جعفر ابن حكم . وإلى قرطبة ، فأخذ بها عن ابن بشكُوال ، وأبى القاسم الشّراط . وإلى إشبيلية ، فأخذ بها عن أبى بكر بن الجد ، وأبى عبد الله بن رزق ، وابن خير ، وابن صاف . وأخذ بسبتة عن ابن عُبيد الله . وبالجزيرة الخضراء عن القاضى أبى جعفر بن عَزْرة . هؤلاء جملة من أخذ عنهم باللقاء والمشافهة . وأجازه جماعة من أهل المشرق كبيرة ، ذكرهم فى برنامجه ، كالخُشوعى ، والأرحى ، والحرشانى ، وحدّث عن السِلفى الحافظ بإجازته العامة .

تواليفه

شرح جُمل أبى القاسم الزّجاجى ، وردٌّ على ابن خروف ، منتصراً

بشيخه أبى زيد السهيلى فى مسئلة نحوية ، رد فيها ابن خروف عى السُّهيلى وقيّد فيما جرى بينه وبين الأُستاذ أبى محمد القرطبى ، جزءاً سماه « بالحقبى[1] فى أغاليط القرطبى » ، لم يخل فيه عن حَمْل وتعسُّف. وألّف برنامجاً جامعاً. روى عنه أبو عبد الله بن عسكر القاضى ، والشيخ أبو عبد الله بن عبيد الأُومى ، وأبو عبد الله الطَّنجالى ، والخطيب ابن أبى ريحانة .

مولده : سنة سبع وأربعين وخمسماية .

وفاته : توفى سحر يوم الجمعة الموفى عشرين لشهر ربيع الثانى سنة عشر وستماية .

عثمن بن سعيد بن عثمن بن سعيد الأموى

المُقرى ، الحافظ المعروف بابن الصَّيرفى ، قرطبى الأَصل ، يكنى أبا عمرو ، ويشتهر بالدّانى ، لاستيطانه دانية . ودخل إلبيرة ، وقرأ على أبى عبد الله بن أبى زَمَنين ، فوجب ذكره لذلك .

حاله

كان أحد الأَيمة الأَعلام فى علم القرآن ، وآياته ، وتفسيره ، ومعانيه وإعرابه ، وجمع فى ذلك كله التواليف العجيبة التى يكثر تعدادها ، ويطول[2] إيرادها ، وله معرفة بالحديث وطرقه ، وأسماء رجاله ونَقَلته . وكان حسن الخطِّ ، جيد الضبط ، آية فى الحفظ والعلم ، والذكاء والفهم ديِّنا عارفا ، ورعا سنِّيًّا . قال المغلى[3] ، وكان أبو عمرو مُجاب الدعوة . وذكره الحميدى فقال محدِّث مكثر ، مقرىء متقدم .

---

(١) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (الحبى) والأولى أرجح .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (يكثر) .

(٣) هكذا فى المخطوطين .

مشيخته

روى عن أبى المطرف عبد الرحمن بن عثمن القُشيرى بقرطبة ، وعن أبى بكر حاتم بن عبد الله البزاز ، وأبى عبد الله محمد بن خليفة ، وأحمد ابن فتح بن الرّهان ، وأبى بكر بن خليل ، ويونس بن عبد الله القاضى . وخلف بن يحيى ، وغيرهم . وبإلبيرة عن محمد بن أبى زمنين كثيرا من رواياته وتواليفه . وسمع بإستِجّة ، وبجّانة وسَرَقُسطة من بلاد الثغر . ورحل إلى المشرق ، فلقى أبا الحسن بن أحمد بن مراس العنقى . وسمع بمصر من أبى محمد بن النحاس ، وأبى القاسم بن مُيَسّر ، وخلف بن إبراهيم ابن خاقان ، وفارس بن أحمد ، وطاهر بن عبد المنعم ، وبالقيرُوان من أبى الحسن القانسى . وقدم الأندلس فاستوطن دانية .

شعره

قال أبو القاسم بن بشكُوال . ومما يذكر من شعره قوله :

قد قلت إذ ذكروا حال الزمان وما ... يجرُّ على كل من يُعزى إلى الأدب
لا شيء أبْلَغ من ذل تجـرّعه ... أهل الخساسة أهل الدِّين والحسَب
القايمين بما جاء الرسول به ... والمُبْغضين لأهل الزّيغ والرِّيب

مولده : قال أبو عمرو ، سمعت والدى يقول إنى ولدت سنة إحدى وسبعين وثلاثماية ، وابتدأت طلب العلم بعد خمس وثمانين .

وفاته : من خط أبى الحسن المُقرى ، يوم الاثنين منتصف شوال سنة أربع وأربعين [وأربعمائة] (١) بدانية ، ودفن عصر اليوم المذكور ببقِيعها . ومشى السلطان (٢) راجلا أمام نعشه .

---

(١) أضفنا هذه الكلمة استكمالا للسياق .

(٢) السلطان المشار إليه هنا هو على إقبال الدولة ابن مجاهد العامرى . وقد حكم مملكة دانية والجزائر أيام الطوائف من سنة ٤٣٦ هـ إلى سنة ٤٦٨ هـ (١٠٤٤ - ١٠٧٦ م) .

على بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب [بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد][1]

الإمام أبو محمد بن حزم .

أوليته

أصله من الفُرس ، وجدُّه الأقصى فى الإسلام [اسمه][2] يزيد ، مولى ليزيد بن أبى سفيان . قال أبو مروان ابن حيان ، وقد كان من عجايبه ، انتماؤه فى فارس ، وأتباع أهل بيته له فى ذلك بعد حقبة من الدهر ، تولى فيها الوزير ، المفضَّل فى زمانه ، الراجح فى ميزانه ، أحمد بن سعيد ابن حزم ، لبنى أمية أولياء نعمته ، لا عن صحة ولاية لهم عليه ، فقد عَهِده الناس مُوَلَّد الأرومة من عجم لَبْلة ، جدُّه الأدنى ، حديث عهد بالإسلام ، لم يتقدَّم لسلفه نباهة فأبوه أحمد ، على الحقيقة ، هو الذى بنى بيت نفسه فى آخر الدهر ، برأس رايته ، وعَمَره بالخلال الفاضلة ، من الرَّجاجة والدَّهاء والمعرفة والرجولة والرأى ، فأسدى جرثومة شرف لمن نماهم ، أغنتهم[3] عن الرسوخ فى أولى السابقة ، فما من شرف إلاَّ مسبوق عن خارجته ، ولم يكن إلا كلاًّ ولا ، حتى تخطى على هذا أوليته[4] لَبْلة . فارتقى قلعة إصطخر من أرض فارس . فالله أعلم كيف ترقَّاها ، إذ لم يكن يُؤتى من خطل ولا جهالة ، بل وَصْلُه بها وُسع علم ،

---

(١) تكلة النسب بين الحاصرتين ، منقولة عن ترجمة ابن حزم الواردة بالوفيات لابن خلكان.

(٢) الزيادة عن الحميدى (جذوة المقتبس) . وهو الذى اقتبست منه هذه الجملة .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (غنت) .

(٤) هكذا وردت فى الزيتونة . ووردت محرفة فى الإسكوريال (رايته) .

ووَشْجة رَحِمٍ معقومة ، فلها يستأخر الصلة ، فتناهت حاله مع فقهاء عصره إلى ما وُصف ، وحسابه وحِسابهم على الله ، الذى لا يظلم الناس مِثقال ذرّة . عزّت قدرته .

حاله

قال الحُميدى ، كان حافظا ، عالما بعلوم الحديث وفقهه ، مستنبطا [للأحكام][1] من الكتاب والسنة ، متفنّنا فى علوم جمّة ، عاملا بعلمه ، زاهدا فى الدنيا ، بعد الرِّياسة التى كانت له ، ولأبيه من قبله ، فى الإدارة[2] وتدبير الممالك ، متواضعا ، ذا فضايل جمّة ، قال ، وما رأينا مثله ، فيما اجتمع له . مع الذكاء وسرعة الحفظ ، وكرم النفس والتّديُّن . قال أبو مروان ابن حيان ، كان أبو محمد حامل فنون ، من حديث وفقه ونسب ، مع المشاركة فى كثير من أنواع التعاليم القديمة . وله فى ذلك عدة تواليف .

وقد مال أولا به النّظر فى الفِقه إلى رأى أبى عبد الله الشافعى ، وناضل عن مذاهبه ، وانحرف عن مذهب غيره ، حتى وُسم به ، واستهدف بذلك إلى كثير من الفقهاء ، وعيب بالشُّذوذ . ثم عدل فى الآخر إلى قول أصحاب الظّاهر ، مذهب داود بن على ، ومن تَبِعه من فقهاء الأمصار ، فنقحه ونهجه ، وجادل عنه ، ووضع الكتب فى بَسْطه ، وثَبَت عليه إلى أن مضى بسبيله . وكان يحمل علمه ، ويجادل عنه لمن خالفه فيه ، على استرسال فى طباعه ، واستناد إلى العَهْد الذى أخذه الله على العلماء من عِباده ، ليبيّنه للناس ، ولا يكتمونه ، فآل أمره إلى ما عُرف .

---

(١) الزيادة عن الحميدى ، وهو الذى اقتبست منه هذه الفقرة .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى جذوة المقتبس (الوزارة) .

مشيخته

قال ، سمع سماعا جما ، وأول سماعه من أبى عمر أحمد بن محمد بن الجسور قبل الأربع مائة .

تواليفه

قال ، بلغت تواليفه أربع مائة مجلد . وقال ، حِمل بعير . فمنها فى علم الحديث كتاب كبير سماه « الإيصال إلى فهم الخصال ، الجامعة لجمل[1] شرائع الإسلام ، فى الواجب والحلال والحرام ، وساير الأحكام ، على ما أوْجَبه القرآن والسُّنة والإجماع » . أورد فيه أقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أيمة المسلمين ، وبيان ذلك كله ، وتحقيق القول فيه . وله كتاب « الإحكام لأصول الأحكام » فى غاية التقصِّى وإيراد الحجاج . وكتاب « الفِصَل فى الملل والأهواء والنِّحل » . وكتاب « الإجماع ومسائله » على أبواب الفقه . وكتاب « المُجَلَّى والمُحلَّى » وكتاب « فى مراتب العلوم وكيفية طلبها وتعلق بعضها ببعض » . وكتاب « إظهار تبديل اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل وبيان تناقُض ما بأيديهم من ذلك مما لا يحتمل التأويل » . وهذا مما سُبِق إليه ، وكتاب « التقريب[2] لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية . والأمثلة الفقهية . فإنه سلك فى بيانه ، وإزالة سوء الظن عنه ، وتكذيب المنحرفين به ، طريقة لم يسلكها أحد قبله فيما علمنا .

شعره

قال ، وكان له فى الأدب والشعر نَفَسٌ واسع ، وباع طويل . وما رأيت

---

(١) وردت فى الإسكوريال والزيتونة (إلى) . والتصويب من جذوة المقتبس والوفيات .

(٢) وردت فى الإسكوريال والزيتونة (التعريف) . والتصويب من جذوة المقتبس والوفيات .

من يقول الشعر على البديهة أسرع منه . وشعره كثير ، وقد جُمع على حروف المعجم . ومنه قوله :

هل الدهر إلا ما عَرَفنا وأدركنا   فجائِعه تبقَى ولذّاته تَفنى

إذا أمْكنَت فيه مسرَّة ساعة   تولَّت كمر الطَّرف واستخلفت حَزَنا

إلى تبعات فى الحساب[1] وموقف   نودُّ لديه أننا لم نكُن كنَّا

حَصَلنا على همٍّ وإثم وحَسْرة   وفات الذى كنا نلذُّ به عنَّا

حَنين لما ولَّى وشُغْل لما أتى   وغمٌّ لما يُرجى فعَيْشُك لا يَهنا

كأن الذى كنّا نُسَر بكونه   إذا حققَّته النفس لفظٌ بلا معنى

ومن ذلك قوله من قصيدة فى الفخر :

أنا الشمس فى جو العلوم منيرة   ولكن عَيْبى أنَّ مَطْلَعى الغرب

ولو أنَّنى من جانب الشَّرق طالعٌ   لجدَّ علىَّ ماضاع من ذكرى النَّهب

ولى نحو أكناف العراق صَبابة   ولا غرو أن يَسْتَوحش الكَلِف الصَّب

فإن يُنزل الرحمن رَحْلى بينهم   فحينئذ يبدو التأسُّف والكَرْب

فكم قائل أغفَلتُه وهو حاضر   وأطلب ما عنه تجىء به الكُتْب

هنالك يدرى أن للبُعد قصة   وأنه كساد العلم آفَتُه القُرب

ومنها فى الاعتذار عن المدح لنفسه :

ولكن لى فى يوسف خير أُسْوة   وليس على [من سار سيرته][2] ذنب

يقول وقال الحق والصدق أننى   حفيظ عليمٌ ما على صادق عَتْب

ومن شعره قوله فيما كان يعتقده من المذهب الظاهرى :

وذى عَذَل فيمن سَبانى حُسنه   يُطيل ملامى فى الهوى ويقول

---

(١) هكذا فى الإسكوريال والزيتونة . وفى الجذوة (المعاد) .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ووردت مكانها فى الجذوة ما يأتى (من بالنبى ائتسى) .

أفى حسن وَجْه لاح لم تَر غيره ولم تدر كيف الجسم أنت قَتيل

فقلت له أ °رَفت فى اللوم ظالما وعندى ردٌ لو أردتُ طويـل

ألم تر أنى ظاهرى وأنــــى على ما بَدا حتى يقوم دليـل

ومن ذلك قوله :

أين وَجْه قول الحق فى نفس سامع ودَعْه فنور الحق يسرى ويُشرق

سيؤنسه رفقا فينسى نفـاره كما نَسِى القيدَ المُوثَّق مُطْلَقُ

ومن ذلك قوله :

لئن أصبحتُ مرتحلا بشخصى فروُحى عندكم أبداً مقـــيم

ولكن للعِيان لطيف معْـــنى له طَلب[1] المعاينة الكَليم

وفى المعنى :

يقول أخى شَجاك رحيل جِسم ورُوحك مـاله عنّا رحيـــل

فقلت له المعاينُ مطمـــئن لذا طلب المُعاينـة الخليـل

دخوله غرناطة

وصل فى جملة الإمام المرتَضى . ولما جرَت عليه الهزيمة واستولى باديس الأمير بغرناطة على محلّته ، كان أبومحمد من عِداد أسراه مع مِثله ، إلى أن أطلقه بعد لأْى ، وخلَّصه الله منه .

محنته

قال ابن حيان، استَهَدف إلى فقهاءِ وقته ، فتـألَّبوا على بُغضه ، وردِّ قوله ، وأجمعوا على تَضْليله ، وشنَّعوا عليه ، وحذَّروا سلاطينهم من فِتْنته ، ونهوا أعوامهم عن الدنوِّ إليه ، والأخذ عنه ، فطَفِق الملوك يُقْصونه عن قربهم ، ويُسَيِّرونه عن بلادهم ، إلى أن انتهوا به ، مُنقطع أثره بتربة

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال وو ردت مكانها فى الجدوة والوفيات (سأل) .

بلده من بادية لَبْلة ، وبها توفى غير راجع إلى ما أرادوا ، به يَبُث علمه فيمن يَنْتابه ببادِيته من عامّة المُقْتبسين منه من أصاغر الطلبة ، الذين لا يحسُّون فيه الملامة بحداثتهم ، ويفقّههم ويدرسهم ، ولا يدع المثابرة على العلم ، والمواظبة على التأليف ، والإكثار من التصنيف ، حتى كَمُل من مصنفاته فى فنون العلم وَقْر بعير ، حتى لأحرق بعضها بإشبيلية ، وفى ذلك يقول :

فإن تحرقوا القِرطاس لا تحرقوا الذى تضمّنه القرطاس بل هو فى صدرى
يسير معى حيث استقلّت ركائبى وينْزل إن أنزل ويُدفن فى قَبْرى

مولده : سنة أربع وثمانين وثلاثمائة بقرطبة .

وفاته : توفى سنة ست وخمسين وأربعماية[1]

على بن إبراهيم بن على الأنصارى المالقى

يكنى أبا الحسن ، صاحبنا حفظه الله .

---

(١) ليس لابن الخطيب شيء تقريباً فى هذه الترجمة التى أوردها للعلامة ابن حزم ، فهى منقولة بجملتها من الترجمة التى أوردها له معاصره وصديقه أبو عبد الله الحميدى فى كتابه (جذوة المقتبس) (القاهرة ص ٢٩٠ – ٢٩٣) مع بعض فقرات منقولة عن ابن حيان ، وقد أورد له ابن خلكان كذلك ترجمة حسنة فى وفيات الأعيان (بولاق ج ١ ص ٤٢٨ – ٤٣١) .

والرواية الراجحة هى أن ابن حزم عاش أيامه الأخيرة وتوفى فى بلدة أسرته الأصلية « منت ليشم » وبالإسبانية « Casa Montijo » من أعمال مدينة لبلة بولاية الغرب الأندلسية ، وذلك فى أواخر شعبان سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤ م) .

هذا ، وقد نظم فى شهر ما يوسنة ١٩٦٣ (من ١٢ – ١٨ منه) بمدينة قرطبة مهرجان رسمى فخم للاحتفال بذكرى مرور تسعمائة عام على وفاة ابن حزم « القرطبى » . وأقامت له بلدية قرطبة تمثالا (متخيلا) بالحجم الطبيعى أمام باب إشبيلية على مقربة من الجامع . وأقيمت له كذلك لوحة تذكارية باللغة الإسبانية أمام مدخل كنيسة سان لورنتسو التى أقيمت مكان المسجد الذى كان يتوسط حى بلاط مغيث ، وهو الحى الذى عاش فيه ابن حزم فى صباه . ونظمت بهذه المناسبة عدة ندوات دراسية ، وطائفة من الحفلات الاجتماعية والفنية الفخمة . وقد كان محقق هذا الكتاب من شهود هذا المهرجان التاريخى العظيم .

حاله

آية الله فى الحفظ ، وثُقوب الذهن ، والنَّجابة فى الفنون ، وفصاحة الإلقاء ، خريج طبعه ، وتلميذ نفسه ، ومُبْرز اجتهاده . إمام فى العربية ، لا يُشق فيها غُباره ، حِفظا وبحثا ، وتوجيهاً واطلاعاً ، وعثوراً على سقَطات الأعلام ، ذاكر للغات والآداب ، قايم على التفسير ، مقصود للفُتيا ، عاقد للوثيقة ، مشارك فى الفنون ، ينظِم وينْثرُ ، فلا يَعْدو الإجادة والسَّداد ، سليم الصدر ، أبِىُّ النفس ، كثير المشاركة ، مُجدى الصُّحبة ، بعيد عن التَّسمُّت . رحل عن بلده مالقة ، بعد التبريز فى العَدالة والشهرة بالطلب ، واستقر بالمغرب ، فاقرأ بمدينة أنْفَا[1] ، مُنَوَّها به ، ثم بسَلا ، واستوطن بها ، رئيس المدرسة بها ، مُجَمْهرا بكرسيها ، فارعاً بمنْبَرها ، بالواردة السلطانية ، يفسر كتاب الله بين العشاءين ، شرحا كثير العيون ، محذوف الفضول ، بالغاً أقصى مبالغ الفصاحة ، مُسمعا على المحال النّابية ، ويدرس من الغَدَوات بالمدرسة ، دولا فى العربية والفقه ، أخذه بزمام النبل ، مترامية إلى أقصى حدود الاضطلاع . وحضر المناظرة ، بين يدى السلطان ، فاستَأْثر بشِقص من رَغْبه ، وأُعجب بقوة جأْشه ، وأصالة حِفظة ، فأنْمى جراياته ، ونوَّه به .

مشيخته

قرأ ببلده على الأستاذين ، عَلَمى القُطر ، القاضى العالم أبى عبد الله إبن تِبر ، والقاضى النظار أبى عمرو بن منظور . وتلا القرآن على المقرى أبى محمد بن أيوب . وذاكر بغرناطة إمام العربية أبا عبد الله بن الفخّار ، ورييس الكتاب ، شيخنا أبا الحسن بن الجيّاب . وبالمغرب كثيراً من

(١) هى البلدة المغربية الصغيرة ، التى قامت مكانها فيما بعد مدينة الدار البيضاء العظيمة .

أعلامه ، كالرئيس أبى محمد الحَضْرمى ، والقاضى أبى عبد الله المقرى وغيرهم . وهو الآن بحاله الموصوفة قاضياً بشرق مالقة ، واستاذا بها متكلما ، مُعْجِزٌ من مفاخر قُطْره .

شعره

مما يؤثر من شعره منقولا من خطِّ صاحبنا أبى الحسن بن الحسن :

رحماك رحماك فى قَلْب يُقَلِّبه ... شوقٌ يكاد بِلَفْح الوَجْد يُذهبه

هام الفؤاد بمعنىً للجمال بدا ... عليك لى السِّر للارواح أعْجبُه

ولاح منك لذى الإشراف جوهرة ... ألاحَتْ الحُسن عما كان يحجبه

فلو همَّ الصَّحب أن الرّوح تيَّمها ... ماضى الجفون برود الثَّغر أشنَبه

يظل مُعتقلا من خَوْط قامته ... بأسمر غالنى منه مؤرّبه

وذى فِرَند يدبُّ الموت فى شطب منه ويوحش فى جنح تلهُّبه

يخاله ذو الصَّدا ماء فيُبْصره ... يود فى الحال أن لو كان يَشْرُبه

بالهند واتى والذى ندٌّ توشجه ... وبالصَّبابة والأرواح ملعبُه

كساه سرُّ الجمال المحض حُلَّته ... إذ جاده من نكوب الجود صَيِّبُه

وقام يَرْفُل فيها وهى ضافية ... فأقبلت نحوه الأرواح تطلبه

هيهات من دونه باب بظاهره ... يجرُّ الفنا وجُنْدالروح يَرْهَبه

فمرنا والموت فيه عَيْن عيشته ... فأوْجُ مَرْقى حياة الروح مَرْقَبُه

تبدَّت لوايحه من بحر جوهره ... بَرْقًا يغير على الغَيْران خُلَّبُه

وتَستَعير له روحا مظاهره ... سرُّ الجمال بها يبدو تحجُّبه

بدرٌ وفى أُفق الأرواح مَطْلَعه ... مهما أفاقت وإلاَّ فهى مَغْربه

بخاطره منه سر لا يفارقه ... وإن غدا بغرام الشوق يُلْهبه

لى هواه والبعد ينهانى ويُصْدقنى ... فى نُصحه وصريح الوَجْد يُكْذبه

سرٌّ الغرام غريب ليس يعلمه ... إلاَّ الذى قد غدا يُرضيه مُغْضبه
وللصَّبابة أقوام ومَوْردهم بها ... من الأُنس أحلاه وأعذبه
وليس يَعْرف هذا حقَّ معرفة ... إلاَّ الذى قد تجلَّى عنه غَيْهَبُه
وأبصر الحُسْن قد لاحت لوايحه ... وغرٌّ مُسْتَبْشر الأَضواء كوكبُه
بذات أهيف من سرٍّ الحياة ... طِرْس يغالبه طورا فَيَغْلبه
وفى لُجَين الجمال المحض قد فعلت ... فعلا يردٌّ لها فى الحكم مذهبه
أرُوم إعْجامه هونًا وتُطْمِعُنى ... فيه النَّفاسة والأَنفاس تعرفه
فمن لمِثْلى بكتمانٍ ومن نفسى ... أخو بيان مع الساعات يُسهبه
لُبانة السِّر أن تحظى برقبة ... إلى سبيل من الزُّلفى تُقَرِّبه
تسمو على مِنْكَب الجوزاء ذروتها ... عن رقَّة بشهود الفرق تُسلبه
وفى مصافَّات سر القبض يَبْسُطه ... لدى الوجود الذى قد عزَّ مطلبه
فيرتقى فى مراقى الجمع مختطفا ... إلى المقام الذى عند بُغْيته
فذاك أعظم ما يرجوه أن سبقت ... عنا يَدٌ نحو باب العزٌ تجذبه

ومن منظومه فى النسيب قوله :

لمحمد البرقاء حسن باهر ... كلٌّ الورى حِلْف الصَّبابة فيه
السحر مفتون بغَنْج لحاظه ... والشَّهد ممزوج بريقه فيه
فسحره أضْنَى المتيَّم فى الهوى ... حتى يكاد سِقامه يُخفيه
ولو أنه بالشَّهد جاد ورَشْفه ... لصدٌّ لكان من الصَّدا يشفيه
بصدوده قلبى يُقَطَّع فى الهوى ... ياليته بوصاله رافيه

وصدَّر كتابا بقوله يخاطبنى :

أنِسْيانا فديتك يا حياتى ... لمن لم يُنبيك حبك للممات
ورجماً بالظنون أخا حَنين ... إليك رَهين شوق وانبتات

يميناً بالنهار إذا تجلَّى   وبالقمر المنير وبالآيات
لقد أحلَلْتُ حبك من فؤادى   محلَّ الروح من بثّ الجهات

وشعره بديع ، وإدراكه عجيب ، وعارضته قوية .

على بن محمد بن على بن يوسف الكتامى

يكنى أبا الحسن ، ويعرف بابن الضَّايع : من أهل إشبيلية .

حاله

قال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير ، بلغ الغاية فى الفنّ النحوى ، وفاق أصحاب الأستاذ أبى على [الشلوبين][1] بأسرهم ، وله فى مشكلات الكتاب العجايب[2] . وقرأ ببلده أيضا علم الكلام ، وأصول الفقه ، وكان متقدما فى هذه العلوم الثلاثة ، متصرّفا فيها . وأما فنّ العربية ، وعلم الكلام ، فلم يكن فى وقته من يقاربه فى هذين العِلْمين . وأما فهمه وتصرفه فى كتاب سيبويه ، فما أراه يسبقه فى ذلك أحد . وله إملاءٌ على طايفة كبيرة من إيضاح الفارسى . وكان له اعتناءٌ كبير بكلام الفارسى على الجُملة ، وبحسب ذلك استَقْصَى اعتراضات أبى الحسين بن الطراوة على أبى على بالرد ، واستوفى ما وقع له فى ذلك ، حتى لم يبق بيده شيٌّ على طريقة من الإنصاف ، ودليل الهدى . لم يُسبق إليها . وكذا فعل فى رد أبى محمد بن السيد ، على أبى القاسم الزجّاجى . وكذا فعل فى اعتراضات أبى الحسين بن الطراوة على كتاب سيبويه . وكان بالجملة إماما فى هذا كله لا يُجارى . وأما اختيارات أبى الحسن بن عصفور فى مغربه وغير ذلك من

(١) الزيادة من الزيتونة .

(٢) هكذا فى الإسكوريال وفى الزيتونة (عجايب) .

تعاليقه ، وما قيّد فى ذلك ، فردّ عليه معظمها أو أكثرها . ولم يُلْق بالأنداس والعُدْوة ، ولا سمعنا بأنبه منه ، ممن وقفنا على كلامه أو شاهدناه ، ولا رأيت مختَلِفاً عليه من أهل بلده من أترابه ، ومَنْ فوقهم . وكان إذا أخذ فى فن أتى بعجايب . قال الأستاذ ، لازمته ، وأخذت عليه كتاب سيبويه فى عدة سنين ، وأكثر كتاب الإيضاح ، وجمل الزجّاجى . إلى غير ذلك ، وجميع التلقيحات للسُّهْرَ وَردى . وطايفة كبيرة من إرشاد أبى المعالى ، ومن كتاب الأربعين لابن الخطيب ، وغير ذلك .

مشيخته

أجاز له من أهل بلده الراوية المُسِن ، أبو الحسن بن السّراج ، والقاضى أبو الخطاب بن خليل . ومن غيرهم ، القاضى أبو بكر بن محرز ، والمُقرى المُعمَّر أبو بكر الشّماتى المعروف بالشريشى ، وأبو عبد الله الأزدى ، وأبو عبد الله بن جوبر وآخرين . وقرأ ببلده . ولازم الأستاذ أبا على الشُّلوبين ، حتى كمل عليه إيضاح الفارسى ، وكتاب سيبويه . وسمع جمل الزجّاجى وغير ذلك من كتب العربية ، ممن كان يقرأ فى المجلس ، وقرأ عليه طائفة كبيرة من تَذْكرة الفارسى ، مما يتعلق بمسائل الكتاب ، بعد أن جرّدها من التذكرة . وبلغ الغاية فى الفن النحوى ، وفاق أصحاب أبى على بأسرهم .

وفاته

توفى رحمه الله ، فى شهر ربيع الآخر من سنة ثمانين وستّاية ، وقد قارب التسعين . [قلت العجب من الشيخ الخطيب رحمه الله ، كيف لا يذكر للمترجم به رحمه الله ، شَرحَه لجمل الزجّاجى ، بل شرحه الصغير والكبير . ولم يكن اليوم على الزجّاجى أجدى منها ، ولا أنفع ،

ولا أقلّ فضولا ، ولا أفصحَ عبارة ، ولا أوجز خطابة ، ولا أجمل إنصافا ، ولا أجْوَدَ نظرا] (١)

الكتاب والشعراء

وأولا الأصليون منهم

على بن محمد بن عبد الحق بن الصباغ العقيلى

يكنى أبا الحسن من أهل غرناطة .

حاله

صاحبُنا أبو الحسن ، من أهل الفضل والسَّراوة والرُّجولة والجزالة . فذٌ فى الكفاية ، ظاهر السذاجة والسلامة ، مُضْعب لأضداده ، شديد العصبية لأُولى وُدِّه ، فى أخلاقه حدَّة ، وفى لسانه نبلى أخلاّبه ، مشتملٌ على خلال من خطٍّ بارع ، وكتابة حسنة ، وشِعر جيد ، ومُشاركة فى فقه وأدب ووثيقة ، ومحاضرة ممتعة . ناب عن بعض القضاة ، وكتب الشروط ، وارتَسَم فى ديوان الجند ، وكتب عن شيخ الغَزاة أبى زكريا بن عمر على عهده . ثم انصرف إلى العُدْوة سابع عشر جمادى الأولى من عام ثلاث وخمسين وسبعماية ، فارتسم فى الكتابة السلطانية مُنوَّها به ، مستَعْملا فى خِدم مُجدية ، بان غناؤه فيها ، وظهرت كفايته .

وجرى ذكره فى كتاب التَّاج بما نصه : اللَّسِن العارف ، والنَّاقد لجواهر المعانى ، كما يفعل بالسِّكة الصَّيارف ، الأديب المُجيد ، الذى تملَّى به العصر والنَّحر والجيد ، إن أجال جياد براعته ، فضح فرسان المَهارِق ، وأخجل بين بياض طرسه ، وسواد نفسه الطور تحت المفَارق . وإن جلى أبكار أفكاره وأثار طَيْر البيّازين أوكاره ، سلب الرَّحيق المُفدَّم

(١) من الواضح أن الفقرة المحصورة بين الحاصرتين ، هى من كلام الناسخ أو المختصر .

فضل أبكاره ، إلى نفس لا يفارقها ظَرف ، وهمّة لا يرتد إليها طَرْف ، وإباية لا يفَلّ لها غَرْب ولا حرف . وله أدب غضّ ، زهره عن مجتنيه مُرْفض . كتبت إليه انتجز وعده فى الالتحاف برايقه ، والامتاع بزهر حواتِفه ، وهو قولى :

عندى لموعدك افتقارٌ مُحوِج وعهودك افْتَقَرت إلى إنجازها

والله يعلم فيك صدق مودّتى وحقيقةُ الأشياء غير مَجازها

فأجابنى بقوله :

يا مهدى الدُّر الثمين مُنظِّمًا كَلِما حلالُ السحر فى إيجازها

أدركت حَلْبات الأوايل وانياً ورددْت أولاها على أعجازها

أحْرَزت فى المضْمار خَصْل سِباقها ولأنتَ أسبقُهم إلى إحرازها

حَلّيت بالسِّمطين منى عاطلا وبعثتَ من فكرى مَتات مفازها

فلأنجزنّ مواعدى مستعطفا فاسمح وبالإغضاء منك مجازها

ومن مقطوعاته قوله :

ليت شعرى والهوى أمل وأمانى الصّب لا تَقِف

هل لذاك الوصل مُرْتَجع أو لهذا البحر مُنْصَرف

ومن ذلك :

وظبى سبا بالطَّرف والعطف والجيد وما حاز من غَنَج ولين ومن غِيد

أتيتُ إليــه بالدنــو مُداعبــا فقال أيدنو الظَّبى من غابة الأسد

وقال من مبدإ قصيدة مطولة فيما يظهر منها :

حديث المغانى بمدهن شُجون وأوجه أيام التبــاعد جون

لحا الله أيام الفراق فكم شَجت وغادرت الجَذْلان وهو حزين

وحيّا ديارا فى رُبى إغرناطة وإنّى بذاك القرب فيه ضنين

لياليَ أنفقْتُ الشبابَ مُطاوعا ... وعُمرى لدى البيض الحسان ثمين

فأرخَصْتُ فيها من شبابى ما غَلا ... وغُرى على مال العفاف أمين

خليلىّ لا أمرٌ بأرْبُعها قِفا ... فعندى إلى تلك الرُّبوع حَنين

ألم ترَيانى كلما ذرَّ شارق ... تضاعف عندى عَبرة وأنين

إذا لم يساعدنى أخٌ منكما فلا ... حدت نحو قرن بعد ذاك أمون

أليس عجيبا فى البرية من لنا ... إلى عهد إخوان للزمان رُكون

فلما تشغن من ذُرى وفاء بعهده ... فقد أجنَّ السُّلسال وهو معين

أذلنى علر فى فراق ضلوعه ... وللدمع فى ترك الشئون شئون

ومن ترك الحزم المعَين فإنه ... لعانٍ بايدى الحادثات رهين

رعى الله أيامى الوثيق ذِمامُها ... فإنَّ مكانى فى الوفاء مَكين

ولم أر مثل الدهر أمَّا عدوُّه ... فخِبٌ وأما خِلُّه فخئون

ولولا أبو عمرو وجود يمينه ... لما كان فى عهد الزمان مُعين

ومن شعره قوله :

زار الخيالُ ويالها من لذّة ... لكن لذّات الخيال منام

ما زلت ألثم مَبْسما منظومه ... درٌ ومورده الشّهى مُدام

وأضم غصن البان من أعطافه ... فأشِمُّ مِسكا فُضَّ عنه ختام

مولده : عام ستة وسبعماية .

وتوفى بمدينة فاس ، وقد تخلّفه السلطان كاتب ولده ، عند وجهته إلى إفريقية ، فى شوال عام ثمانية وخمسين وسبعماية ، فتوفى فى العشرين لرمضان منه .

على بن محمد [بن سليمان] (١) بن على بن سليمان بن حسن الأنصارى

من أهل غرناطة ، يكنى أبا الحسن ، ويعرف بابن الجيّاب ، شيخنا ورئيسنا العلامة البليغ .

حاله

من عايد الصّلة : كان رحمه الله ، على ما كان عليه من التفنُّن ، والإمامة فى البلاغة ، والأُخذ بأَطراف الطلب ، والاستيلاء على غاية الأَدب ، صاحب مجاهدة ،وملازمة عبادة ، على طريقة مُثلى من الانقباض والنزاهة ، وإيثار التقشف ، محبا فى أهل الخير والصلاح ، مُنحاشا إليهم ، مُنافرا عن أضدادهم ، شيخ طلبة الأَندلس ، رواية وتحقيقا ، ومشاركة فى كثير العلوم ، قايما على العربية واللغة ، إماما فى الفرايض والحساب ، عاوفا بالقراءات والحديث ، متبحرا فى الأَدب والتاريخ ، مشاركا فى علم التصوف ، فذا فى المسايل الأَدبية البيانية ، حامل راية المنظوم والمنثور ، والإكثار من ذلك ، والاقتدار عليه ، جلدا على الخدمة ، مغتبطا بالولاية ، محافظا على الرُّتبة ، مراقبا لوظايف الأَبواب السلطانية ، متوقد الذهن ، ذلِق الجوانب ، مشغوفا بالأُنس والمفاوضة فى الأَدب ، محسنا للنادرة الظريفة ، مليح الدُّعابة ، غزير الحفظ ، غيوراً على الخُطَّة ، كثير النشاط إلى المذاكرة ، مع استغراق الكلف ، وعلو السن . طال به المرض حتى أذهب جواهر بَدَنه ، وعلى ذلك فما اختل تميزه ، ولا تغير إدراكه . بعثت إليه باكور رمّان ، فقال لى من الغد ، نَعِم بالهُدْنة زمانُك ، يعنى نَعِمت الهدية رمّانك . فعجب الناس من اجتماع نفسه ، وحضور فكره . وهو شيخى الذى نشأت بين يديه وتأدبت به ، ووَرِثت خُطَّته عن رضى

(١) هذا الاسم وارد فى الزيتونة . وفى نفح الطيب . وساقط فى الإسكوريال .

منه . كتب عن الدول النصرية نحوا من خمسين سنة أو ما ينيف عليها ، متين الجاه ، رفيع المكانة ، بعيد الصيت ، وسَفَر إلى الملوك ، واشتهر بالخير ، والحمل على أهل الظلم ، وجرى ذكره فى التاج بما نصه :

صدر الصُّدور الجلَّة ، وعَلَم أعلام هذه الملة ، وشيخ الكتابةوبنيها[1] وهاصِر أفنان البدايع وجانيها ، اعتمدته الرياسة ، فنأى[2] بها على حبل ذراعه ، واستعانت به السياسة فدارت أفلاكها على قطب من شَباة يراعه . فتفيّأ للعناية ظلا ظليلا ، وتعاقبت الدول ، فلم تر به بديلا ، من ندب على علوه متواضع ، وحبر[3] لثدى المعارف راضع ، لا تمر مذاكرة فى فن إلاّ وله فيه التّبريز ، ولا تعرض جواهر الكلام على محاكاة الأفهام ، إلا وكلامه الإبريز ، حتى أصبح الدهر [راويالإحسانه][4] وناطقاً بلسانه ، وغرّب ذكره وشرّق ، فأشام وأعرق وتجاوز البحر الأخضر والخليج الأزرق ، إلى نفس هذّبت الآداب شمايلها ، وجادت الرياض خمايلها ، ومراقبة لربه ، واستباق لروح الله من مهبّه . ودين لا يُعجم عوده . ولا تخلف وعوده . [وكل ما ظهر علينا بنيه من شارة تجلى بها العين ، أو إشاره كما سُبك اللجين ، فهى إليه منسوبة ، وفى حسناته محسوبة ، فإنما هى أنفس راضها بآدابه . وأعلقها بأهدابه ، وهذّب طباعها ، كالشمس تلقى على النجوم شعاعها ، والصور الجميلة تترك فى الأجسام الصقيلة انطباعها][5] وما عسى أن أقول فى إمام الأئمة ، ونور الدياجى المدلَهِمَّة ، والمثل الساير فى بعد الصيت ، وعلو الهمة .

مشيخته

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (وبانيها) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (فناه) .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال والنفح . ووردت فى الزيتونة (وحدى) .

(٤) وردت فى الإسكوريال (راوى إحسانه) . والتصويب من النفح وهو أنسب للسياق .

(٥) هذه الفقرة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

نقلت من خطه ، فى بعض ما كتب به إلى من الأشياخ الذين لقيتهم وأجازونى عامة . الشيخ الفقيه الخطيب الصالح الصوفى المحقق صاحب الكرامات والمقامات ، نسيج وحده ، أبو الحسن فضل بن محمد بن على ابن فضيلة المعافرى . قرأت عليه كذا . ومنهم الشيخ الفقيه الأستاذ العالم العلم الكبير ، خاتمة المسندين بالمغرب ، أبو جعفر أحمد بن ابراهيم ابن الزبير الثقفى ، نشأت بين يديه ، وقرأت عليه كثيراً وسمعت ، وأجازنى . ومنهم الشيخ الفقيه الخطيب الأستاذ أبو الحسن على بن أحمد ابن محمد بن أحمد بن محمد الخُشنى البلُوطى . قرأت عليه القرآن العزيز بالقرءات السبع وغير ذلك. ومنهم الشيخ الفقيه الصالح أبو عبد الله محمد بن عياش الخزرجى القرطبى ،لقيته بمالقة . ومنهم الشيخ أبو محمد عبد الله بن على الغسانى السعدى الخطيب الصالح ، قرأت عليه وسمعت . ومنهم الشيخ العدل أبو الحسن على بن محمد بن على بن أحمد بن مَسْتقور الطائى. ومنهم قاضى الجماعة الشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد العَنْسى ، ومنهم الشيخ الفقيه الخطيب المحدث الإمام أبو عبد الله محمد ابن عمر بن رُشيد . ومنهم الشيخ الخطيب أبو جعفر أحمد بن على الأنصارى الكحيلى. ومنهم الشيخ الخطيب الأستاذ الصالح أبو محمد عبد الواحد ابن محمد بن أبى السَّداد الأموى الباهلى . ومنهم الشيخ الوزير الحسيب أبو عبد الله محمد بن يحيى بن ربيع الأشعرى ،والشيخ الخطيب الأستاذ النظار أبو القاسم بن الشّاط ، والشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد بن مالك بن المرحَّل والشيخ المبارك أبو محمد عبد المولى بن عبد المولى الخولانى . هؤلاء كلهم لقيتهم ، وأجازونى إجازة عامة . وأما من أجازنى ولم ألقه ، فعالم كثير من أهل المغرب والمشرق ، منهم أبو العباس بن الغمّاز قاضى الجماعة بتونس . وأبو عبد الله بن صالح الكنانى خطيب بجاية ، والشريف

أبو على الحسن بن طاهر بن أبى الشرف بن رفيع الحسنى ، وأبو فارس عبد العزيز الهوارى ، وأبو محمد بن هرون القرطبى ، وأبو على ناصر الدين المِشْدالى ، وغيرهم .

شعره

وشعره كثير ملون ، جمعته ودونته ، يشتمل على الأغراض المتعددة من المُعَشّرات النبويّات ، والقصائد السلطانيات ، والإخوانيات ، والمقطوعات الأدبيات ، والألغاز والأُحْجِيات .

فمن ذلك من المعشّرات فى حرف الجيم على وجه التبرك :

جريئاً على الزلات غير مفكر　　جباناً على الطاعات غير مُعَرِّجٍ
جمعتُ لما يفنى اغترارا بجمعه　　وضيّعتُ ما يبقى سجيّة أهْوَج
جنوناً بدار لا يدوم سرورها　　فدعها سدًى ليست بعُشّك فادرج
جيادُك فى شأْو الضلال سوابقٌ　　تفوت مدًى بين الوجيه وأعوج
جهلتَ سبيل الرشد فاقصد دليله　　تجد دار سعد بابُها غير مُرْتج
جنابُ رسول ساد أولاد آدم　　وقرُب فى السَّبْع الطِّباق بمعرج
جمالٌ أنار الأرض شرقا ومغربا　　فكلٌّ سنًى من نوره المتبلِّج
جلا صدأ المرتاب أن سبح الحصا　　لديه بِنطقٍ ليس بالمتلجلج
جعلتُ امتداحى والصلاة عليه لى　　وسايل تُحْظينى بما أنا أرتج

ومن الأغراض الصوفية السلطانية قوله :

هات اسقنى صِرْفًا بغير مزاج　　واحْيِ التى هى راحتى وعلاجى
إن صُبَّ منها فى الزجاجة قطرة　　شفَّ الزجاج عن السَّنى الوهاج
فإذا[١] الخليع أصاب منها شربةً　　حاجاه بالسر المصون مُحاج

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى نفح الطيب (وإذا) .

وإذا المريد أصاب منها جُرعة ... ناجاه بالحق المبين مُناج

تاهت به فى مَهْمَهٍ لا يُهتدى ... فيه لتأديب ولا إدلاج

يرتاح من طرب بها فكأنها[1] ... غنته بالأرمال والأهزاج

هبّت عليه نفحةٌ قدسية ... فى فتح[2] باب دائم الأرتاج

فإذا انتشى يوما وفيه بقية ... سارت به قصدا على المنهاج

وإذا تمكن منه سُكْر معربدٍ ... فليبصرن[3] لمصرع الحلّاج

قصرت عبارة فيه عن وجدانه ... فغدا يفيض بمنطقٍ لِجْلَاج

أعشاه نور للحقيقة باهر ... فتراه يهبط[4] فى الظلام الدّاج

رام الصعود بها لمركز أصله ... فرَمَتْ به فى بحرها[5] الموّاج

فلئن أُمد برحمة وسعادة ... فليخلصن من بعد طول هياج

وليرجعن بغنيمة موفورة ... ما شِيب عَذْبُ شرابها بأُجاج

ولئن تحظاه القبول لما جنى ... فليرجعن نكساً على الأدراج

ما أنت إلا دُرّة مكنونة ... قد أُودِعت فى نُطفة أَمْشاج

فاجهد على تخليصها من طبعها ... تعرُج بها فى أرفع المِعْراج

واشدُد يديك معا على حبل التُّقى ... فإن اعتصمت به فأنت النّاج

ولدى العزيز ابْسُط بِساط تذلُّل ... وإلى الغَنِى امْدُدْ يد المحتاج

هذا الطريق له مقدِّمتان صا ... دقتان انتجا أصحَّ نتاج

فاجمع إلى تَرْك الهوى حمل الأذى ... واقنع من الإسْهاب بالإدماج

حَرْفان قد جمعا الذى قد سطروا ... من بَسْط أقوال وطول حِجاج

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (فكأنما) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (قى) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (فليصبرن) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (يخبط) .

(٥) وردت فى الإسكوريال (نحرها) . والتصويب من النفح .

والمشربُ الأَصْفَى الذى من ذاقه ... فقد اهتدى منه بنور سِراج

ألاّ ترى إلاّ الحقيقة وحدها ... والكل مضطر إليهـا لاج

هذى بدائع حكمة أنشأتُهـا ... بإشارة المولى أبى الحجـاج

وَسِع الأنام بفضله وبعدلـه ... وبحلمه وبجوده الثّجـاج

من آل نصرٍ نُخْبة الملك الرِّضا ... أَمْن المروِّع هُمْ وغيثُ اللّاج(١)

من آل قيلة ناصرى خير الورى ... والخلق بين تَخاذُل ولجاج

ماذا أقول وكل قول قـاصر ... فى وصف بحر زاخر الأمواج

منه لباغى العُرْف درٌّ فـاخر ... ولمن يعادى الدين هول فـاج

دامت سعودك فى مزيد والمُنَى ... يأتيك أفواجا على أفـواج

ومن الأمداح المطولة :

لمن المطايا فى السَّراب سوابِحا ... تفلى الفلاة غوادياً وروايحـاً

عوج كأمثـال اللقيى ضوامر ... يرمين فى الآفاق مرمى نازحـا

أو كالسحاب تسير مثقلة ... بما حملته من سُقيا البطاح دوالحا

ركبٌ يُيمم غاية بل آيـة ... أبدت محيًّا الحق أبْلَح واضحا

لما دعا داعى الرشاد مـردِّدا ... لبَّوه شوقا والحمام هوادحا

فلهم عجيج بالبسيطة صاعد ... يُذْكى بنار الشوق منك جوانحا

وإذا حَدا الحادى بذكر المصطفى ... أذروا على الأكوار دمعا سابحا

عيسٌ تهادى بالمحبِّين الألى ... ركبوا من العزم المصمم جامحا

طارت بهم أشواقهم سبَّاقـةً ... فتركن أعلام المطى روازحا

رفقًا بهن فهنَّ خَلْق مثلـكم ... أنضاءُ أسفار قطعن منـادحا

قد جِين للهادى وهاداً جمّة ... وسلكن نحو الأبطحى أباطحا

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (الراجى) .

ناشدتك الرحمن وافِد مكة | ألاّ صرفتَ إلىّ صرفا طامحا
وأخاً أتيتَ القبر قبر محمد | وحمدتَ سعيا من سِفارك ناجحا
وذَهِلت عن هذا الوجود مغيبا | لما لمحتَ من الجَمال ملامحا
فاقرأ سلامى عند قبر المصطفى | وامسح بيُمناك الجِدار مصافحا
قسمًا بوفد يزخرون رواحــلا | قَطَعَت سباسبًا بلقعا وضحاضحا
حتى أناخوا بالمحصَّب من مِنى | وتأملوا النور المبين اللايحا
وتعرضوا لعوارض عرفية هبَّت | بها تلك الريــاح لوافــحا
وآووا إلى الحرم الشريف فطافعا | بالبيت أُوبا لركن منه ماسحا
وسَقُوا به من ماء زمزم شربةً | نالوابها فى الخلد حظا رابحا
ثم انثنوا قصدا إلى دار الهدى | يتسابقون عزايما وجوارحا
فتبوَّؤا المغنى الذى بركاته | فاضت على الآفاق بحرا طافحا
ختموا مناسِكهم بزورة أحمد | بختام مسك طاب عَرْفا نافحا
إن السماحة والشجاعة والنَّدى | والبأس والعقل الأَصيل الراجحا
وقْفٌ على شمس المعالى يوسف | أعلى الملوك خواتما وفواتحا
فهو الذى ملأَ البلاد فضايلا | صارت لمن بارى علاه فضايحا
إن أُجملت سير الكرام فخلقه | ما زال للإجمال منها شارحا
حامى الذِّمار مدافعا وموادعا | كافى العدو محاربا ومصافحا
للملك بالعزم المؤيد مانعا | للعُرْف بالجود المردد مانحا
إن تلقه فى يوم جود هامر | تلق السحاب على البلاد سوابحا
أو تلقه فى يوم بأْس قاهر | تلق الأُسود لدى العَرين كوافحا
أو تلقه فى يوم فخر ظاهر | تلق الكواكب فى السماء لوايحا
من أُسرة النصر الأُلى هم ناصحوا | بعزايم الصدق الأَمين الناصحا

هم أسّسوا الملك المشيد بناؤه … فكفُوا به الإسلام خَطْبًا فادحا

فاستَفهِم الأيام عن آثارهم … تُطلع عليك صحايفا وصفايحا

كان إذا ضن الغمام سحايبا … يهمى وإن جنّ الظلام مصابحا

شادوا له مجدا صميما راسخا … يبقى على الأعقاب ذكرا صالحا

وسما فخر فوق أمْن جهادهم … سمكوا لـه سماكا رامحا

الأعظمون مَغـانيا ومَنـاقبا … والأكرمون مَحـامدا ومَمادحا

يا دولةً نَصريّةً قد جددت … نصراً لأبواب المعاقل فاتحا

وأمـامة سـعدية قـد أطلَعت … سعدا ولكن للأعـادى ذابحـا

فاضت جَدًا فكأنما أيـامهـا … جُعلت لأرزاق العباد مفاتحا

كفَتْ عِدًا فـكأنما أوقاتهـا … جاءت لآيات الأمان شـوارحا

عدلا لأقطار الإيالة كالبـــا … ولجامحات البَغْى منها كافحا

بشرى بيوسف ناصر الملك الذى … ما زال عنـه مجالدا ومكافحا

جمع المواهب للمواهب مانحا … فوق المنى وعن الجرايم صافحا

ابن الإمام أبى الوليد وحَسْبُنا … ملحا تضمن فى الفخار مدايحا

يُهْنيك عيد النَّحر أسعد قادم … وافاك من جدوى يمينك ماتحا

وفّيته قربانه وصِلاته وأقمت … فيـه شـعايرا وذبايحـــا

ورجعت فى الجيش الذى أخباره … تُروى غرايبها الحسان صحائحا

أُسْدٌ ضراغم فوق خيل ترتمى … نحو العدو سوانحا وبوارحـا

طيّارةٌ بالدّارعين تخـــالها … تنقضُّ فى يوم القتال جوارحا

من كل من تَخِذ القنا خيما له … بلقى العدو مُماسيا ومُصابحا

والشمس أضرمت السبيكة عندما … لقى الحديد شعاعها المطارحا

فاهنأْ به وانعم بدولتك التى … ترضى الولى بها وتشجى الكاشحا

دامت ودام الحق فيها ثابتـا   يعلو يدا والإفك فيها طالحا

وقال يمدح ويصف مصنعا سلطانيا :

زارت [تجرر نحوه][1] أذيالها   هيفاء تخلط بالنفـار دلالها
والشمس من حسَد لها مصفرةٌ   إذ قَصَرت عن أن تكون مثالها
وافَتْك تمزج لينَها بقساوة   قد أدرجت طيَّ العِتاب نوالها
كم رُمْتُ كتم مزارهـا لكنه   صحَّت دلايل لم تطق إعلالها
تركَتْ على الأرجاء عند مسيرها   أرجًا كأنَّ المسك فتَّ خلالها
ما واصلتك محبَّةً وتفضـلا   لو كان ذاك لواصَلت أفضالها
لكن توقعت السُّلو فجددت   لك لوعةً لا تتَّقى ترحالهـا
فوحُبِّها قسمًا بحق بـروره   لتجشُّمنْك فى الهوى أهوالهـا
حَسُنت نظم الشعر فى أوصافها   إذ قَبُحت لك فى الهوى أفعالها
يا حسن ليلة وَصْلُها ما ضرها   لو أَتْبَعت من بعدها أمثـالها
لما سَكِرت بريقها وجفـونها   أهملت كأْسك لم ترد إعمالها
هذا الربيع أتاك ينشر حسنه   فافسح لنفسك فى مداه مجالها
واخلع عِذارك فى البطالة جامحا   واقرِن بـأسحار المنى[2] آصالهـا
فى جَنَّة تجلو محـاسنها كما   تجلو العروس لدى الزفاف جمالها
شكرت أيادى للحيا شكر الورى   شرف الملوك همامها مفضالها
وصمها أصلا وفرعا خيرها   ذاتاً وخُلُقاً سمحهـا بـذالهـا
الطاهر الأعلى الإمام[3] المرتضَى   بحر المكارم غَيْثُها سِلْسالهـا
حاز المعالى كابراً عن كابـر   وجرى لغايات الكرام فنالهـا

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (تجر لنحوه) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (المنا) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (الأمين) .

إن تلقه فى يوم بَذْلِ هِباته ... تلق الغمايم أرسلت هطّالها
أو تلقه فى يوم حرب عُداتِه ... تلق الضراغم فارقت أشبالها
ملك إذا ما صال يوما صَوْلة ... خِلْتَ البسيطة زلزلت زلزالها
فبِسَيْفه وبسيفه نال[1] المنا ... واستعجلت أعداؤه آجالها
الواهب الآلاف قبل سؤالها ... فكفى العُفاة سؤالها ومطالها
القاتل الآلاف قبل قراعها ... فكفى العُداة قِراعها ونِزالها
إن قلت بَحْر كفه قَصَرت إذ ... شبهت بالملح الأجاج نوالها
ملأ البسيطة عدله ونواله[2] ... فالوحش لا تعدو على من غالها
وسَقى البرية فيضُ كفَّيه فقد ... عمَّ البلاد سهولها وجبالها
جمع العلوم عناية بفنونها[3] ... آدابها وحسابها وجدالها
منقولها معقولها وأُصولها ... وفروعها تَفْصيلها إجمالها
فإذا عُفاتك عاينوك تهللوا ... لما رأوا من كفِّك استهلالها
وإذا عُداتك أبصروك تيقَّنوا ... أن المنيَّة سلطت ريبالها
بددت شملهم ببيضٍ صوارم ... رويت من عِلْق الكماة نِصالها
وأبحت أرضهم فأصبح أهلها ... جُزُرا[4] تغادر نهبة أموالها
فَتَحت إمارتك السعيدة للورى ... أبواب بُشرى واصلت إقبالها
وبَنَتْ مصانع رايقات ذكرت ... دار النعيم جنانُها وظلالُها
وأجلُّها قدرا وأرفعُها مدًى ... هذا الذى سامى النجوم فطالها
هو جنة فيها الأمير مخلد ... بلغت إمارته بها آمالها

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (نلت) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (أمانه) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (بعيونها) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (خورا) .

ولأرض أندلس مفاخر أنتم	أربابها أضفيتم سربالها
فحميتمُ أرجاءها وكفيتم	أعداءها وهديتمُ ضلالها
فبآل نصر فاخرت لا غيرهم	لم نعتمد من قبلهم أقيالها
بمحمد ومحمد ومحمد	قَصرت على الخصم الألد نضالها
فهم الألى ركبوا لكل عظيمة	جُرُدا كَسَيْنَ من النجيع جلالها
وهم الألى فتحوا لكل مُلمّة	بابا أراح بفتحه إشكالها
متقلدون من السيوف عضابها	متأبطون من الرماح طوالها
الراكبون من الجيادِ عِرابها	والضاربون من العدا أبطالها
أولىّ عهد المسلمين ونخبة الأملاك صفوة محضها وزلالها
إن العباد مع البلاد مُقرّة	بفضايل لك مهدت أحوالها
فتفكّ عانيها وتحمى سِرْبها	وتفيد حلما دائما جهالها

ومن الرثاء قوله يرثى ولده أبا القاسم :

هو البَيْن حتما لا لعل ولا عسى	فما بال نفسى لم تُفِض عنده أسى
وما لفؤادى لم يذب منه حسرة	فتبا لهذا القلب سرعان ما قسا
ويا لجفونى لا تفيض موردا	من الدمع يَهْمى تارة ومورّسا
وما للسانى مُفْصِحا بخطابه	وما كان لو أوفى بعهد ليَنْبسا
أمِن بعدما أودعت روحى فى الثّرى	ووسّدت منى فلذة القلب مُرْمسا
وبعد فراق ابنى أبى القاسم الذى	كسانى ثوب الثّكل لا كان مُلبسا
أؤمل فى الدنيا حياة وارتضى	مَقيلا لدى أبنائها ومُعرّسا
فآها وللمفجوع فيها استراحة	ولابد للمصدور أن يتَنفّسا
على عُمْر أفْنَيت فيه بضاعتى	فأسلمنى للقبر حَيْران[1] مُفلسا

---

(١) وردت فى الإسكوريال (ضريان) والتصويب من النفح .

ظللت به فى غفلة وجهالـة إلى أن رمى سهم الفراق فقَرْطسا
إلى الله أشكو بَرْح حزنى فإنه تلبس منه القلب ما قد تلبسا
وصَدْمة (١) خَطْب نازلَتْنى عشية فما أغنَت الشكوى ولا نفع الأَسا
فقد صَدَعت شملى وأصْمَت مَقاتلى وقد هدَّمت ركنى الوثيق المؤسَّسا
ثبتُّ لها صبراً لشدة وقعهـا فما زلزلت صبرى الجميل وقد رسا
وأطمع فى أن يلقّى برحمته الرضا وأجزع أن يشقَى بذنب فَينكُسا
أبا القاسم اسمع شَجْو (٢) والدك الذى حَسا من كؤوس البين أفظع ماحسا
وقفتُ فؤادى مذ رحلت على الأسى وأشهد لا ينفك وقْفًا مُحبَّسـا
وقطعت آمالى من الناس كلِّهم فلست أبالى أحْسَن المرءُ أم أسا
تواريتَ يا شمسى وبَدْرى وناظرى فصار وجودى مذ توراريت حِنْدِسـا
وخلَّفت لى عبئًا من الثُّكَل (٣) فادحا فما أتعب الثُّكلان نفسا وأتْعسا
أحقا ثوى ذاك الشباب فلا أرى له بعد هذا اليوم حولى (٤) مجلسا
فيا غصنا نَضِرًا ثوى عندما استوى فأوحشنى أضعاف ما كان آنَسا
ويا نعمةً لما تبلَّغتها انقضت فأنعم أحوالى بها صار أبؤسـا
فودعته والدمع يَهمى سحـابه كما أسلم السلك الفريد المجنسا (٥)
وقبلت فى ذاك الجبين مـودعا لأكرم من نفسى علىَّ وأنْفَسـا
وخفَّف من وجدى به قربُ رحلتى وماذا عسى أن ينظر الدهر ما عسا
فيارحمة للشيب يبكى شبيبـةً قيا.س لعمرى عكسه كان أقيسا
فلو أن هذا الموت يقبل فِـديةً حَبَوناهُ أموالا كِراما وأنفسـا
ولكنه حكم من الله واجـب يسلم فيه من بخير الورى ائتَسَى

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (وهدة) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (شكو) .
(٣) وردت فى الإسكوريال (الثقل) . والتصويب من النفح .
(٤) وردت فى الإسكوريال (بعدى) والتصويب من النفح .
(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (المخمسا) .

تغمدك الرحمن بالعفو والرضا ... وكرم مثواك الجديد وقدّسا

وألّف منا الشمل فى جنة العلا ... فنشرب تسنيما ونلبس سندسا

وكتب إليه قصيدة أولها :

أمستخرجا كنز العقيق بآماقى ... أناشدك الرحمن فى الرّمق الباقى

فقدضَعُفت عن حَمْل صبرى طاقتى ... عليك وضاقت عن زفيرى أطواق

فأجابنى رحمة الله عليه عن ذلك :

سَقانى فأهلا [بالسّقاية والعناق][1] ... سُلافاً بها قام السرور على ساق

ولا نُقْل إلا من بدايع حِكْمَة ... ولا كأْس إلا من سطورٍ وأوراق

فقد أنشأْت لى نَشْوَة بعد نشوة ... تمدُّ بروحانيـة ذات أذواق

فمن حظها الفانى متاعٌ لناظرى ... وسمعى وحظُّ الروح من حظِّها الباقى

أعادت شبابى بعد سبعين حِجَّة ... فأثوابه قد جُدِّدت بعد إخلاق

وما كنت يوما للمدامة صاحبا ... ولا قَبِلتها قط نشأةُ أخلاق

ولا خالَطَت لحمى ولا مازَجَت دمى ... كفى شَرَّها مولاى فالفضل للواق

وهذا على عهد الشباب فكيف لى ... بها بعد ما للشبيبة مِهْـراق

تَبَصَّر فحكما[2] القهوتين تخالفا ... فكم بين إثْبات لعقل وإزْهاق

وشتان ما بين المُدامين فاعتبر ... فكم بين إنجاح لسعى وإخفاق

فتلك تُهادى بين ظلم وظلمة ... وهذى تهادى بين عَدْل وإشراق

أيا عَلَم الإحسان غير منـازع ... شهادة إجمـاع عليها وإصْفاق

فضائلك الحُسْنى علىّ تَواترت ... بمُنهَمِر من سُحُب فكرك غَيْداق

خزاين آداب بعثت بَدْرَّها ... إلىّ ولم تمنن بخِشية إنفـاق

---

(١) هكذا فى الإسكوريال وفى النفح (بالمدامة والساق) .

(٢) وردت فى الإسكوريال (فحكم) والتصويب من النفح .

ولا مثل بكر حُرَّة عــربية زكيَّة أخلاق كريمة أعـراق
فأُقسم ما البيض الحِسان تبرَّمت تناجيك سرا بين وحى وإطراق
بلورٌ بدت من أُفق أطواقها على رياض شدت فى قُضْبها[1] ذات أطواق
فناظَر منها الأُقحوان ثغورها وقابل منها نَرْجس سحر أحداق
وناسب منها الورد خداً موردا سقاه الشباب النَّضر بورِك من ساق
وأُلبسْن من صنعاء وشْيا مُنَمْنما وحُلِّين من درٍّ نفايس أعلاق
جنًا حلىً لأفــواه وأبهىً لأعين وأحلىً لألباب وأشهىً لعُشَّاق
رأيت بها شهب السماء تنزَّلت إلىّ تحيينى تحيــة مشــتاق
ألا إنَّ هذا السحر لا سحر بابل فقد سحرت قلبى المعنَّى فمن راق
لقد أعْجَزت شكرى فضايل ماجد أبرّ بأحباب وأوْفَى بميثــاق
تقاضى ديُون الشعر منى منبها رويدك لا تعجل علىَّ بإرهــاق
فلو نشر الصادَّان من ملحديهما لإنْصاف هذا الدِّين لاذا بإملاق
فخذ زمام الرِّفق شيخا تقاصرت خُطاه وعاهِدْه بمعهود وإشــفاق
فلا زلت تحيى للمكارم رسمها وقدرُك فى أهل العلا والنُّهى راق

وكتبت إليه فى غرض العتاب والاستعتاب :

أدَرْنا وضوء الأُفق قد صدع الفضَا مُدامة عتب بيننا نقْلها الرضا
فللَّه عينا من رأنا وللحيا حَيىٌ[2] بآفــاق البشــاشة أوْمَضــا
نفِرُّ إلى عدل الزمان الذى أتى ونبرأ من جَوْر الزمان الذى مضى
ونأْسو كلوم اللفظ باللفظ عاجلا كذا قَدَح الصهباء داوى وأمرضا

فراجعنى بقوله :

ألا حبذا ذاك العتاب الذى مضى وإن جره واش بزور تمضمضــا

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (قطبها) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال ، وفى النفح (جنى) .

أغارت له خيلٌ فما ذَعِرت حِمًى ... ولكنها كانت طلائع للرضا
تألّق منها بارق صاب مُزْنة ... على معهد الحب الصّميم فروّضا
تلألأ نور(١) للصداقة حافظا ... وإن ظن سيفا للقطيعة منتضا
فإن سوّد الشيطان منه صحيفة ... أتى ملك الرحمى عليها فبيّضا
وما كان حبٌّ أحكم الصدق عهده ... ليُرمى بوسواس الوشاة فيُرفضا
أعيذ ودادًا زاكى القصد وافيا ... تخلّص من أدرانه فتمحّضا
ونيّة صدق فى رضى الله أخلصت ... سناها بآفاق البسيطة قد أضا
من الآفِك الساعى ليخفى نورها ... أيخفى شعاعُ الشمس قد ملأ الفضا
وكيف يُحلّ المبطلون بإفكهم ... معاقِدَ حب أحكمتها يد القضا
تعرّض يبغى هدمها فكأنه ... لتَشْييد مبناها الوثيق تعرّضا
وحرّض فى تنفيره فكأنما ... على البرّ والتسكين والحب حرّضا
وأوقد نارا فهو يُصْلى جحيمها ... يُقلّب منها القَلْبَ فى موقد الغَضا
أيا واحدى المعلود بالألف وحده ... ويا ولدى البَرّ الزكى إن ارتضا
بعثتَ من الدر النفيس قلايدا ... على ما ارتضى حكم المحبة واقتضا
نَتيجة آداب وطبعٍ مهذب ... أطال مداه فى البيان وأعرضا
ولا مِثلُ بِكر باكرتنى آنفا ... كزورة خلٍّ بعد ما كان أعرضا
هى الروضة الغنّاءُ أينع زهرها ... تناظر حسناً مُذهّبا ومُفضّضا
أو الغادة الحسناءُ راقت فينقضى ... مدى العمر فى وصْلها وهو ما انقضا
تَطابقَ منها شَعْرُها وجبينُها ... فذا اللّيْلُ مُسْودًا وذا الصّبحُ أبيضا
أو الشهب منها زينة وهداية ... ورجْمٌ لشيطان إذا هو قيّضا
أتت ببديع الشِّعر طورا مُصَرِّحاً ... بأبياتك الحسنى وطورا مُعَرِّضا

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (نورا) .

ومهّدت الأعذار دون جناية ولو أنك الجانى لكنتَ المغْمِضا
لك الله من برٍّ وفىٍّ وصاحبٍ محضت له صدق الضمير فأمحضا
لسانك فى شكرى مُفيض تفضلا فياحُسْن ما أهدى وأسدى وأقرضا
وقلبك فاضت فيه أنوار خِلّتى فأبقى يدى تسليمه لى مفوضا
وقصدُك مشكور وعهدُك ثابت وفضلك منشور وفعلك مُرْتضا
فهل مع هذا ريبةٌ فى مودة بحال وإن رأيت فما أنا معرضا
فَثِق بولائى إننى لك مخلص هوًى ثابتاً يبقى فليس له انقِضا
عليك سلام الله ما هبّت الصّبا وما بارقٌ جنح الدّجنة أومضا

وكتب إلى القاضى الشريف وهو بوادى آش :

أهزلا وقد جدّت بك اللّمة الشمطاء وأمْناً وقد [ساورتها حية رَقْطا](١)
أغرك طول العمر فى غير طايل وسرّك أن الموت فى سيره أبطا
رويدا فإن الموت أسرع وافد على عمرك الفانى ركايبه حطّا
فإذ ذاك لا تستطيع إدراك ما مضى بحال ولا قَبْضًا تطيق ولا بَسْطا
تاهب فقد وافى مَشِيبك منذرا وها هو فى فَوْديك أحرفَه خطّا
فرافقت منه كاتب السر واشيا له القلم الأعلى يخط به وخطا
مُعَمى كتاب فكه الحْذر فهذه سفينة هذا العمر قاربت الشّطا
وإن طال ما خاضت بك اللجج التى خبطت بها فى كل مهلكة خبطا
وما زلت فى أمواجها متقلبا فآونة رفْعًا وآونة حطًّا
فقد أوشكت تلقيك فى قعر حفرة تشد عليك الجانبين بها ضغطا
ولست على علم بما أنت بعدها مُلاقٍ أرِضواناً من الله أم سخطا
وأَعْجَبُ شىء منك دعواك فى النُّها وهذا الهوى المُرْدِى على العقل قدغطّا

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (ساورت ياحية رقطا) .

قسطتَ عن الحق المبين جهالةً ... وقدغالطتك[1] النفس فادّعت القَسطا
وطاوعت شيطانا تجيب إذا دعا ... وتقبل أن أغوى وتأخذ إن أعطا
تناءى عن الأُخرى وقد قرُبت مدًى ... تدانى عن الدنيا وقد أزمعت شَحَطا
وتمنحها حبًّا وفرط صَبابة ... وما منحت إلا القتادة والخَرْطا
فها أنت تهوى وصلها وهى فارِكٌ ... وتأمل قُربا من حِماها وقد شطّا
صراط هدًى نكبت عنه عِمايةً ... ودار ردًى أوعيت[2] فى سجنها سَرْطا
فمالك إلا السيد الشافع الذى ... له فضل جاه كل مايُرتجى[3] يُعطى
دليل إلى الرحمن فانهج سبيله ... فمن حاد عن نهج الدليل فقد أخطا
محبته شرط القبول فمن خلت ... صحيفته منها فقد فَقَد الشرطا
وما قبلت منه لدى الله قربة ... ولا زكت الأعمال بل حَبَطَت حبطا
به الحق وضاح به الإفك زاهق ... به الفوز مرجوٌّ به الذنب قد حطّا
هو الملجأُ الأحمى هو الموئل الذى ... به فى غد يَستشفع المذنب الخطَا
إليك ابن خير الخلق بِنْت بديهة ... تُقبل تبجيلا أناملك السِّبْطا
وحيدة هذا العصر وافت وحيدة ... لتبسط من شتّى بدايعها بَسْطا
وتتلو آيات التشيع إنها ... لموثقة عهداً ومحكمة ربطا
لك الشرف المأثور يا ابن محمد ... وحسبك أن تنمى إلى سَبْطه سبطا
إلىْ شَرفى دينٍ وعِلْمٍ تظاهرا ... تبارك من أعطى وبُورك فى المعطا
ورهطك أهل البيت بيت محمد ... فأعظم به بيتا وأكرم بهم رهطا
بعثت به عقدا من الدر فاخرا ... وذكر رسول الله درّته الوُسْطا

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (خالفتك) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (أودعت) .
(٣) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (يرتضى) والأولى أرجح

وأهديت منها للسيادة غـادة ... نَظَمْتُ من الدر الثمين بها سِمطا

وحاشيتها من كل ما شأنها فإن ... تجعّد حوشى تجد لفظها سَبْطا

وفى الطيبين الظاهرين نظمتُها ... فساعدها من أجل ذلك حرف الطا

عليك سلام الله ما درّ شـارق ... ومارددّت ورقاء فى غصنها[1] لغَطَا

ومن غريب ما خاطبنى به قوله :

أقسم بالقيسـين والنابغتـين ... وشـاعرى طيىء المولـــدين

وبابنِ حجر وزهيـر وابنـه ... والأعشيين بعد ثم الأعميين

ثم بعُشّاق الثـريا والرقيّات ... وعـزة ومى وبثيـــــــن

وبأبى الشيص ودعبـل ومن ... كشاعرى خزاعة[2] المخضرمين

وولد المعتز والرضى والسرى ... ثم حسـن وابن الحســـين

وأختم بقسّ وسَحْبـــان فإن ... أوجَب حق أن يكونا أولين

وحِلْيتى نشــرُهم ونظمُهم ... فى مَشْرِق أقطارهم والمغربين

أن الخطيب ابن الخطيب سابق ... بنشـره ونظمه للحلبتـــين

وافتنى[3] الصحيفة الحسنى التى ... شاهدت فيها المكرمات رأى عين

تجمع من براعة المعنى إلى ... براعة الألفاظ كلتا الحسنيين

أشهد أنك الذى سبقت فى ... طريقَىْ الآداب أقصى الأمدين

شـعر حوى جزالة ورقّـة ... تصاغ منه حِلية للشعريين

رســايل أزهارهــا منثـورة ... سرور قلب ومتـاعُ ناظرين

يا أحوذيًّا يانسيج وحـــده ... شهادة تنزهت عن قول مَيْن

بقيت فى مواهب الله الــتى ... تقر عينيك وتملأُ اليديـــن

---

(١) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (غصن) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (خزامة) .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (راقتنى) .

ومن المقطوعات الموطّنات على المثال :

لله عصر الشباب عصرا　　فتح للخير كل باب
حفظتُ ما شئتُ فيه حفظا　　كنت أراه بلا ذهاب
حتى إذا ما المشيب وافى　　ندَّ ولكن بلا إياب
لا تعتنوا بعدها بحفظ　　وقيدوا العلم بالكتاب

ومن ذلك قوله :

يا أيها الممسك البخيل　　إلهك المنفق الكفيل
إنفق وثق بالإله تربح　　فإن إحسانه جزيل
وقدم الأقربين واذكر　　ما رُوى ابدأ بمن تَعُول

ومن ذلك قوله :

وقائلة لم عراك المشيب　　وما أن يعهد الصبا من قدم
فقلت لها لم أشب كَبْرة　　ولكنه الهمُّ نصف الهَرَم

ومن ذلك قوله :

هى النفس إن أنت سامحتَها　　رمت بك أقصى مهاوى الخديعة
وإن أنت جشَّمتها خُطَّة　　تنافى رضاها تجدها مطيعة
فإن شئت فوزا فناقض هواها　　وإن واصلتك اجزها بالقطيعة[1]
ولا تعبأن بميعادها　　فميعادها كسراب بقيعة

ومن المقطوعات أيضا :

من أنت يا مولى الورى مقصودْ　　طوبى له قد ساعدته سعوده
فليشهدنك له فؤاد صادق　　وشهوده قامت عليه شهوده
وليفنينَّ[2] عن نفسه ورسومه　　طُرًّا وفى ذاك الفناء وجوده

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (القطيعة) .

(٢) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (وليفنين) والأولى أرجح .

وليخطفنه[١] بارق يَرق به في أشرف المعراج ثم يعيده
حتى يظل وليس يدرى دهشة تقريبه المقصود أو تبعيده
لكنه ألقى السلاح مسلما فمراده ما أنت منه تريده
فلقد تساوى عنده إكرامه وهوانه ومفيده ومبيده

ومن ذلك قوله فى المعنى :

يقيني أن الله جل جلاله يقيني فراجى الله ليس يخيب

ومن مقطوعاته فى الألغاز والأحاجى قوله فى حَجَلة :

حاجيت كل فطن لبيب ما اسم الأُنثى من بنى يعقوب
ذات كرامات فزرها قربة فزورها أحق بالتقريب
تشركها فى الإسم أنثى لم تزل حافظة لسرها المحجوب
وقد جرى فى خاتم الوحي الرضا لها حديث ليس بالمكذوب
وهو إذا ما الفاء منه صحفت صبغ الحيا لا الحيا المسكوب
فهاكها واضحةً أسرارُها فأَمْرُها أقرب من قريب

وفى آب الشهر :

حاجيتكم ما اسم عَلَم ذو نسبة إلى العجم
يخبر بالرجعة وهو راجع كما زعم
وصف الحميم[٢] هو بالتصحيف أو بدءُ قسم
دونكه أوضح من نار على رأس علم

ومن ذلك قوله فى كانون :

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (وليحفظنه) والأولى أرجح .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (الحبيب) .

وما اسم لسميَّيــــن ولم يجمعهما جنس
فهذا كلمــا يأتــى فبـالآخـر لى أُنس
[وهذا ما له شخص وهذا مالـه حِسٌّ](١)
وهذا ما له ســوم وذا قيمتــه فِلْــس
وهـذا أصلـه الأرض وهـذا أصـله الشمس
وهذا واحد من سبعة تحيــا بهــا النفس
فمن محمولـه الجـنٌّ ومن موضوعـه الإنس
فقد بان الذى ألغزتُ ما فى أمـره لَبْــس

ومن ذلك قوله فى نمر :

ما حيوان ما له من حرمة إن اسمه صُحف فابن العمة
وقلبه من بعد تصحيف لــه يريك فى الذكر الحكيم أُمّة(٢)

ومن ذلك قوله فى سُلم :

ما اسم مركب مفيد الوضع مستعمل فى الوَصْل لا فى القَطْع
ينصب لكن أكثر استعمال من يُعنى به فى الخفض أو فى الرفع
وهو إذا خففتــه مغيــرا تراه شملا لم يزل ذا صـدع
فالاسم إن طلبته تجده فى خامسة من الطوال السَّبع
وهو إذا صحّفتَه يعرب عن مكسـر فى غير بـاب الجمـع
له أخ أفضل منه لم تـزل آثاره محمودة فى الشّـرع
هما جميعا من بنى النجار والأفضل أصل فى حنين الجذع
فهاكه قـد سطعت أنـواره لا سيما لكل زاكى الطبـع

(١) هذا البيت وارد فى النفح وساقط فى الإسكوريال .

(٢) هكذا ورد هذا البيت فى الإسكوريال . وورد فى الزيتونة كالآتى :

وقلبه من بعد تصحيفـه له يريك فى الذكر الحكم أمة

ومن ذلك قوله فى فنار :

ماأسم إذاحذفت منه [فاءه][1] الممنوعة   فإنه بنت الزنا مضافة لأربعة

ومن ذلك قوله فى حوت :

ما حيوان فى اسمه   إن اعتبرته فنون
حروفه ثلاثة   والكل منها نون
تصحيفه قطع الفلا   أو ما جناه المذنبون
أو أبيض أو أسود   أو صفة النفس الخؤون
وقلبه مصحفاً عليه   دارت السنون
كانت به فى مضى   عبرة قوم يعقلون
أودع فيها عنده[2]   سر من السر المصون
فهاكه كالنار فى   الزند لها فيه كمون

ومن ذلك قوله فى مائدة :

حاجيتُ كل فَطِن نظَّار   ما اسم لأُنثى من بنى النجار
وفى كتاب الله جاء ذكرها   فقل ما يغفل عنها القارِ
فى خبر المهدى فاطلبها تجد   إن كنت من مطالعى الأخبار
ما هى إلا العيد عيد رحمة   ونعمة ساطعة الأنوار
بشركها فى الاسم وصف حسن   من وصف قُضُب الروضة المعطار
فهاكه كالشمس فى وقت الضحى   قد شف[3] عنها حجب الأستار

ومن ذلك قوله فى زبيب :

ما نقى العِرض طاهر الجسد   عندما خالطه الما فَسَد

(١) هذه الكلمة واردة فى الزيتونة . وفى هامش الإسكوريال .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (زمنا) .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (شق) .

خالط الماء القَراح فغوى بعد ما كان من أهل الرُّشد
عجمى الأَصل تم حسنه عندما صاد الغزالة الأَسد
واسمه اسم امرأة مصحفاً ولقد يكون وصفا لولد
هاكه قد بهرت أنواره فارم بالفكر تُصِب قصدالرشد

جميع هذه الأَغراض المنسوبة إليه، بحر لا ينفد مدده ، وقطر لا يبلغ عدده .

وأما نثره فسلطانيَّات مطولات ، عرضت بما تخللها من الأَحوال متونها ، وقلَّت لمكان الاستعجال والبديهة عيونها . وقد اقتضبت منها أجزاً سميته « تافها من جَمّ ونقطة من يَمّ »

مولده : ولد بغرناطة فى جمادى الآخرة عام ثلاثة وسبعين وستماية.

وفاته : ليلة يوم الأَربعاء الثالث والعشرين من شوال عام تسعة وأربعين وسبعماية . ودفن بباب إلبيرة . وكانت جنازته آخذة نهاية الاحتفال ، حضرها السلطان فمن دونه .

ومما رثى به : رثيته بقصيدة أنشدتها على قبره خامس يوم دفنه ثبتت فى غير ما موضع وهى :

ما لليراع خواضع الأَعناق طَرقَ النَّعى فهنَّ فى إطراق
وكأنما صبغ الشحوب وجوهها والسُّقم من جزع ومن إشفاق
ما للصحائف صوِّحت روضاتها أسفا وكن نضيرة الأَوراق
ما للبيان كؤوسه مهجورة غفل المدير لها ونام السَّاق (١)
مالى عدمت تجلدى وتصبرى والصبر فى الأَزمات من أخلاقِ
خطب أصاب بنى البلاغة والحجا شبَّ الزفير به عن الأَطواق
أما وقد أودى أبو الحسن الرضا فالفصل قد أودى على الإطلاق
كنز المعارف لاتبيد نقوده يوما ولا تفنى على الإنفاق

(١) هكذا فى الإسكوريال وفى النفح (الساق . أخلاق) .

من للبدائع أصبحت سمر السُّرى ... ما بين شامٍ للورى وعراق
من لليراع يجيل من خطبها ... سم العدا ومفاتح الأرزاق
قُضُب ذوابل مثمرات بالمنى ... وأراقم ينفثن بالتِّرياق
من للرقاع الحمر يجمع حسنها ... خجل الخدود وصَبْغة الأحداق
تغتال أحشاء العدو كأنها ... صفحات دامية الغرار رِقاق
وتهز أعطاف الولى كأنها ... راحٌ مشعشعة براحة ساق
من للفنون يجيل فى ميدانها ... خَيْل البيان كريمة الإعراق
من للحقائق أبهمت أبوابها ... للناس يفتحها على استغْلاق
من للمساعى [الغر][1] تقصدجاهه ... حُرُما فينصرها على الإخفاق
كم شد من عَقْدِ وثيق حكمه ... فى الله أو أفتى بحل وثاق
رحب الذراع بكل خطب فادح ... أعيت رياضته على الحذَّاق
صعب المقادة فى الهوادة والهوى ... سهل على العافين والطُّراق
ركب الطريق إلى الجنان وحورها ... يلقينه بتصافح وعناق
فاعجب لأنس فى مظنة وَحشَة ... ومقام وصل فى مقام فراق
أمُطَيَّبا بمحامد العمل الرضى ... ومُكَفَّنا بمكارم الأخلاق
ما كنت أحسب قبل نعشك أن ... أرى رضوى تسير على الأعناق
ما كنت أحسب قبل دفنك فى الثَّرى ... أن اللحود خزائن الأعلاق
يا كوكب الهدى الذى من بعده ... ركد الظلام بهذه الآفاق
ياواحدا مهما جرى فى حَلْبَة ... جلى بغـرة سابق السباق
ياثاويا بطن الضريح وذكره ... أبدا رفيقَ ركائب ورفاق
ياغوثَ من وصل الضريح فلم يجد ... فى الأرض من وزر ولا من واق

---

(١) واردة فى النفح . وساقطة فى الإسكوريال .

ما كنتَ إلّا ديمةً منشورة | من غير إرعاد ولا إبـراق
ما كنت الا روضة ممطورة | ما شئت بن ثمر ومن أوراق
يا مزمعا عنـا العشى ركابه | هلا لبثت[1] ولـو بقدرفـواق
رفقا أبـانا جـلٌ ماحملتنا | لا تنس فينا عـادة الإشفاق
واسمح ولو بمزار لقيا[2] فى الكرى | تبقى بها منا على الأرمـاق
وإذا اللقاءُ تصرّمت أسبابه | كان الخيال تعلّة المشتاق
عجبا لنفس ودعتك وأيقنت | أن ليس بعد ثـواك يوم تلاق
ما عذرها إن لم تقاسمك الردى | فى فضل كأس قد شربت دهاق
إن قصرت أجفاننا عن أن ترى | تبكى النجيع عليك باستحقاق
واستوقفت دهشا فإن قلوبنا | نهضت بكل وظيفة الآماق
ثق بالوفاء على المدى من فِتْيةٍ | بك تقتدى فى العهد والميثاق
سجعت بما طوقتها من منّـةٍ | حتى زَرَت بحمايم الأطـواق
تبكى فراقك خلوة عمرتها | بالذكر فى طَفَلٍ وفى إشراق
أما الثناءُ على علاك فذائع | قد صح بالإجماع والإصفاق
والله قد قرن الثنـاء بأرضه | بثنائه من فوق سبع طبـاق
جادت ضريحك ديمةٌ هطّالة | تبكى عليـه بواكفٍ رقراق
وتغمدتك من الآله سعادة | تسمو بروحك للمحل الراق
صبـرا بنى الجيـاب فقيدكم | سيُسرُّ مقدمه بما هو لاق
وإذا الأسى لفح القلوب أواره | فالصبر والتسليم أى رواق

وأنشد فى هذا الغرض الفقيه أبو عبد الله بن جُزى رحمه الله :

ألم تر أن المجد أقوت معالمه | فأطنابه قد قوضت دعائمه

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (ثويت) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (لى) .

هوى من سماء المعلوات شهابها ... وخانت جواد المكرمات قوائمه

وثلّت من الفخر المشيد عروشه ... وفلّت من العز المنيع صوارمه

وعُطّل من حلى البلاغة قسّها ... وعُرّى من جود الأنامل حاتمه

أجل إنه الخطب الذى جل وقعه ... وثلم غرب الدين والعلم هاجمه

وإلاّ فما للنوم طار مطاره ... وما للزيم الحزن قصت قوادمه

وما لمصباح الأُنس أظلم نوره ... وما لمحيّا الدهر قُطِّب باسمه

وما للدموع العين فُضّت كأنّها ... فواقع زهر والجفون كمائمه

قضى الله فى قطب الرياسة أن قضى ... فشتت ذاك الشمل من هو ناظمه

ومن قارع الأيّام سبعين حجة ... ستنبو عراره وينْدَقّ قائمه

وفى مثلها أعيي النطاسى طبُّه ... وضل طريق الحزم فى الرأى حازمه

تساوى جواد فى رداه وباخل ... فلاالجود واقيه ولا البخل عاصمه

وما نفعت ربَّ الجياد كِرامُه ... ولا منعت منه الغنى كرايمه

وكل تلاق فالفراق أمامه ... وكل طلوع فالغروب ملازمه

وكيف مجال العقل فى غير منفذ ... إذا كان بانى مَصْنع هو هادمه

لَبّيْك عليّا مستجير بعدله ... يُصاخ لشكواه ويمنع ظالمه

لبيك عليا ماتح[1] بحر علمه ... يروى بأنواع المعارف هائمه

لبّيْك عليا مظهر فضل نصحه ... يحلا عن ورد المآثم حايمه

لبيك عليا معتف جود كفه ... يواسيه فى أمواله ويقاسمه

لبيك عليا ليله وهو قائم ... يكابده أو يومه وهو صائمه

لبيك عليا فضل كل بلاغة ... يخلده فى صفحة الطِّرس راقمه

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (مائح) .

وشخص ضئيل الجَسم يرهب نفثه ... ليوث الشّرى فى خيسها وضراغمه

تكفَّل بالرزق المقدر للورى ... إذا الله أعطى فهو للناس [١] قاسمه

يسدده سهما ويَنْضوه صارما ... ويُشْرعه رمحا فكل يلائمه

إذا سال من شِقّيه سايل حبْرة ... بما شاء منه سايل فهو عالمه

ليبك عليه الآن [٢] من كان باكيا ... فتلك مغانيه خَلَت ومعالمه

تقلد منه الملك عَضْب بلاغة ... يقد السلوقى المضاعف صارمه

وقلده مثنى الوزارة فاكتفى ... بها ألمعى حازم الرأى عازمه

ففى يده وهو الزعيم بحقها ... يراعته والمشرفى وخاتمه

سخىٌّ على العافين سهلٌ قياده ... أبىٌّ على العادين صعبٌ شكائمه

إذا ضلت الآراء فى ليل حادث ... رآها برأى يصدع الحق [٣] ناجمه

وقام بأمر الملك للدين حاميا ... فذل مُعاديه وضل مراغمه

وقد كان نيط العلم والحلم والتقى ... به وهو مانيطت عليه تمايمه

ودوخ أعناق الليالى بهمة ... يبيت ونجم الأُفق فيها يزاحمه

وزاد على بعد المنال تواضعا ... أبى الله إلاَّ أن تتم مكارمه

سَقَيْتَ الغوادى أى علم وحكمة ... ودين متين ذلك القبر كاتمه

ومازلت [٤] يُسْتَسقى بدعوتك الحيا ... وها هو يستسقى لقبرك ساجمه

بكت فقدك الكُتّاب إذ كان شملهم ... يؤلفه من روح فضلك ناعمه

وطوقتهم بالبِرّ ثم سقيتهم ... نداك فكنت الروض ناحت حمايمه

ويبكيك منى ذاهب الصبر موجع ... فوقّد فى جنبيه للحزن جاحمه

فتى نال منه الدهر إلاَّ وفاءه ... فما وَهَنت فى حفظ عهدِ عزايمه

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (فى الناس) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (اليوم)

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (الخطب) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال وفى النفح (ومازال) .

عليل الذى زُرّت عليه جيوبه قريح الذى شُدّت عليه حزائمه
فقد كنت ألقى الخطب منه بجنة تعارض دونى بأسه وتصادمه
سأصبر مضطراً وإن عظم الأسى أحارب حزنى مرة وأسالمه
وأهديك إذ عز اللقاءُ تحية وطيب ثناء كالعَبِير نواسمه

وأنشد القاضى أبو بكر القرشى قوله من قصيدة فى ذلك :

هى الآجال غايتها نفاد وفى الغايات تمتاز الجياد

وأنشد الفقيه الكاتب أبو بكر القاسم بن الحكيم قوله من قصيدة :

لينْع الحِجا والحلم من كان ناعيا ويرع العلا والعلم من كان راعيا

وأنشد الفقيه القاضى أبو بكر بن جزى قصيدة أولها :

أبثكما والصبر للعهد ناكث حديثا أملته على الحوادث

قصائد مطولات يخرج استقصاؤها عن الغرض ، فكان هذا التأبين غريبا لم يتقدم به عهد بالحضرة لكونها دار ملك ، والتجلّة فى مثل هذا مقصورة على أولى الأمر . فمضى بسبيله رحمه الله .

على بن موسى بن عبد الملك بن سعيد بن خلف بن سعيد بن محمد بن عبد الله بن سعيد بن الحسن بن عثمان بن عبد الله بن سعد بن عمار بن ياسر بن كنانة بن قيس بن الحصين بن لوذم ابن ثعلب بن عوف بن حارثة بن عامر الأكبر بن نام بن عبس[1] واسمه[2] زيد بن مالك بن أدد بن زيد العنسى المذحجى

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . ووردت فى الذيل والتكلة (عنس) .

(٢) هكذا وردت فى الذيل والتكلة . وفى الإسكوريال (والد) والأولى أرجح .

من أهل قلعة يحصب[1] ، غرناطى قلعى[2] ، سكن تونس ، يكنى أبا الحسن ، ويعرف بابن سعيد .

أوليته

قد تقرر من كرم أوليته ، وذكر بيته ما ينظر فى محله .

حاله

هذا الرجل وُسْطَى عقد بيته ، وعَلَم أهله ، ودرّة قومه ، المصنف الأديب ، الرحال ، الطُّرفة ، الإخبارى، العجيب الشأن فى التجول فى الأوطان ، ومداخلة الأعيان ، والتمتع بالخزاين العلمية ، وتقييد الفوايد المشرقية والمغربية .

مشيخته

أخذ عن أعلام إشبيليه كأبى على الشُّلوبين ، وأبى الحسن الدباج ، وأبى الحسن بن عصفور وغيرهم .

تواليفه

وتواليفه كثيرة[3] ، منها المُرْقصات والمُطْربات ، عزيز الوجود ، والمقتطف أغرب وأعجب ، والطالع السعيد فى تاريخ بيته وبلده . والموضوعان الغريبان المتعددا الأسفار ، وهما « المغرب فى حلى المغرب » ، « والمشرق فى حلى المشرق » ، وغير ذلك مما لم يتصل إلينا ، فلقد حدثنى الوزير أبو بكر بن الحكيم ، أنه تخلف كتابا يسمى « المرزمة »[4] ، يشتمل على وقر بعير ، لا يعلم ما فيه من الفوايد الأدبية والإخبارية إلا الله

---

(١) سبق التعريف بها (أنظر المجلد الثالث من الإحاطة ص ٢١٥ و ٤٣٣) .

(٢) أى من سكان القلعة المذكورة .

(٣) هذه الكلمة واردة فى الزيتونة وساقطة فى الإسكوريال .

(٤) هكذا فى الإسكوريال وفى الزيتونة (المزيدات) .

شعره

قال ، تعاطى نظم الشعر فى حدٍّ زمن الشبيبة ، يعجب فيه من مثله ، فيذكر أنه خرج مع والده ، وقد مر فى صحبته إلى إشبيلية ، وفى صحبته سهل بن مالك ، فجعل سهل يباحثه عن نظمه ، إلى أن أنشده فى صفة النهر والنسيم يردده ، والغصون تميل عليه :

كأنما النهر صفحة كتبت   أسطرها والنسيم ينشيها
لما أبانت عن حسن منظرها   مالت عليها الغصون تقرؤها

فطرب أبو الحسن وأثنى عليه ، ثم شدا ، وناب عن أبيه فى أعمال الجزيرة ، ومازج الأدباء ، ودون كثيراً من نظمه ، وحفظ له فى المدح :

يا أيها الملك الذى هباته   وهباته شدّت عُرى الإسلام
لما أسال نداه سلّ حسامه   فأراك برقا فى متون غمام
لله شيعتك التى ترك العدا   أقداحهم بمواطىء الأقدام
طاروا بأجنحة السيوف إليهم   مثل الحمام جلبن كل حِمام
فهم سهام والجياد قِسِيُّهم   وعُداهم هدف وسَعْدك رام

وقال ، ومما نظمته بالحضرة فى فرس كان لهم لوبانى أغرّ أكحل بحلية :

وأجرد تبرى أثرت به الثرى   والفجر فى خصر الظلام وشاح
عجبت له وهو الأصيل بعرفه   ظلام وبين الناظرين صباح

رحلته المشرقية ، وفيها الكثير من نظمه ، قال فى «الطالع» لما قدم الديار المصرية واشتهر ، كان مما نظمه سلما لمعرفة الأُدباء والظرفاء قوله ، وقد رأى بساحلها وجوها لا يعرفها ، والسُنّا غير ما عهد :

أصبحت أعترض الوجوه ولا أرى   من بينها وجها لمن أدريه
ويْحُ الغريب توحشت ألحاظه   فى عالم ليس له بشبيه

عودى على بدنى ضلالا بينهم حتى كأنى من بقايا التيه

ودخل القاهرة ، فصنع له أدباؤها صنيعا فى ظاهرها ، وانتهت بهم الفرجة الى روض نرجس ، وكان فيهم أبو الحسن الجزار ، فجعل يدوس النرجس برجله ، فقال أبو الحسن :

يا واطىء النرجس بالأرجل ما تستحى أن تطأ الأعين بالأرجل

فتهافتوا بهذا البيت وراموا إجازته .

فقال ابن أبى الأصبغ :

فقال دعنى لم أزل [محرجا](1) على لحاظ الرشاد الأكحل

وكان أمثل ما حضرهم ، ثم أبوا أن يجيزه غيره ، فقال :

قابل جفونا بجفون ولا تَبْتَذل الأَرْفع بالأَسْفَل

ثم استدعاه سيف الدين بن سابق صاحب الأشغال السلطانية إلى مجلس بضفة النيل ، مبسوط بالورد ، وقد قامت حوله شمامات نرجس ، فقال فى ذلك :

من فضل النرجس فهو الذى يرضى بحكم الورد إذ يرأس

أما ترى الورد غدا قاعدا وقام فى خدمته النرجس

ووافق ذلك مماليك الترك ، وقوفا فى الخدمة على عادة المشارقة ، فطرب الحاضرون ، من حَسُود ومنصف. ولقى بمصر محيي الدين بن ندا واقد التركى ، الإمام زهير الحجارى بهاء الدين ، وبالقاهرة جمال الدين ابن مطروح ، وجمال الدين بن يغمور(2) ، وتعرف بكمال الدين بن العديم رسول سلطان حلب ، فاستصحبه يُتحف به الملك الناصر صاحب حلب ،

---

(١) هذه الكلمة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) وردت فى الإسكوريال (ابن يعمور) وهو تحريف لاسم الشاعر المصرى أحمد بن موسى ابن يغمور ، المتوفى سنة ٦٧٣ هـ .

فلقى بحُمْص وبيت المقدس وحماه أعلا ما جِلّة ، وله معهم أخبار يطول ذكرها ، ودخل على السلطان بحلب ، وأنشده قصيدة أولها :

جُذْلى بما ألقى الخيال من الكَرى　　لابد للطيف الملم من الـكَرا[1]

فقال كمال الدين هذا رجل عارف مذروى لقصده من أول كلمة .. ثم قال بعد أبيات :

الناصر الملك الذى عزماتـه　　أبدا تكون مع العساكر عسكرا

ما كان أنبا الفتح يلزم لامه　　والجمع من أعدائه متـكسرا

فعظم استظراف السلطان لهذه المقاصد ، وأثنى عليه . ثم وصل فقال :

الدين أصلحه وعم صلاحهالدنيـا　　وأصبح ناصرا ومظفّـرا

فكأن كُنْيته غدت موضوعه　　من ربّه والوصف منه مقرّرا

وكأنما الأسماء قد عرضت على　　عَلْياه قبل وجوده متخيّرا

فقال السلطان كيف ترون واستعاده . فقال عون الدين العجمى عميـد المجلس ، وكاتب الإنشاء ، استنباطه ما سمع الملوك بمثله يا خُوند . ثم أنشد :

من آل أيوب الذين هم هم　　ورثوا الندى والبأس أكبر أكبرا

أهل الرياسة والسياسة والعُـلا　　بسيوفهم حلوا الذُّرى منحوا الذُّرا

سم العـداة عـلى هيـافيهم　　لا تعجبوا فكذاك آساد الشرى

كادوا يقيلون العداة من الردى　　لو لم يمدوا كالحجاب العثيرا

جعلوا خواتم سمرهم من قلب　　كل معاند عد المثقف خنصرا

وببيضهم قد توجوا أعـداءهم　　حتى لقد حلُّوا لكيما تشكرا

لو لم يخافوا تيسار نحـوهم　　وهبوا الكواكب والصّباح المسْفرا

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (القرى) .

وهى طويلة . ثم استجلسه السلطان ، وسأله عن بلاده ، ومَقْصِده بالرحلة ، فأخبره أنه جمع كتابا فى الحُلَى البلادية والحُلَى العِبادية المختصة بالمشرق ، وأخبره أنه سماه « المُشرِق فى حُلَى المَشْرق » . وجمع مثله فسماه « المُغْرِب فى حُلَى المَغْرِب » . فقال نُعينك بما عندنا من الخزاين ، ونوصلك إلى ما لا عندنا . مثل خزاين الموصل وبغداد ، وتضيف لنا المغْرب . فخدم على عادتهم ، وقال أمر مولاى بذلك ، إنعام وتأْنيس ، ثم قال له السلطان مُداعبا ، إن شعرءانا مُلَقَّبون بأسماء الطيور. وقد اخترت لك لقباً يليق بحسن صوتك وإيرادك للشعر ، فإن كنت ترضى به ، وإلاَّ لم يعلمه غيرنا ، وهو البُلبل ، فقال قد رضى المملوك بذلك يا خُوند . فتبسم السلطان ، وقال اختر واحدة من ثلاث ، أما الضيافة التى ذكرتها أول شعرك ، وأما جائزة القصيدة ، وإما حق الاسم . فقال يا خوند المملوك ممن لا يختنق بعَشْر لُقَم ، فكيف بثلاث . فطرب السلطان ، وقال هذا مَغرِبى ظريف ، ثم أتبعه[1] من الدنانير والخلع الملوكية والتواقيع بالأرزاق ما لا يوصف . ولقى بحضرته عَوْن الدين العجمى ، وهو بَحْر لا تنزفه الدِّلاءُ ، والشهاب التلَعْفَرى الشهير الذكر ، والتاج بن شُقير ، وابن نجيم الموصلى ، والشرف بن سليمان الإرْبِلِّى . وطائفة من بنى الصاحب . ثم تحول إلى دمشق ، ودخل الموصل وبغداد ، ودخل مجلس السلطان المعظم ابن الملك الصالح بدمشق ، وحضر بمجلس خَلْوته . وكان ارتحاله إلى بغداد فى عقب سنة ثمان وأربعين وستمائة فى رحلته الأُولى إليها . ثم رحل إلى البصرة ، ودخل أرجان ، وحجَّ . ثم عاد إلى المغرب . وقد صنف فى رحلته الأُولى إليها مجموعا سماه « بالنفحة

(١) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (تبعته) . والأولى أنسب للسياق .

المِنْكِيّة فى الرحلة المكية». وكان نزوله بساحل مدينة إقلنية من إفريقية فى إحدى جمادين من عام اثنين وخمسين وستمائة ، واتصل بخدمة الأمير أبى عبد الله المستنصر[1] فنال الدرجة الرفيعة من حُظوته ، وقال عند اتصاله به لحين قدومه :

ومازلت أضرب فى الخافقين	أروم البلاد وأرعى الدول
إلى أن رجعت إلى تونس	محل الإمام وأقصى الأمل
فقلت البلاد لهذى قِـرّى	وقلت الأنام لهذا خَـوَل

نكبته

وحدثنى شيخنا الوزير أبو بكر بن الحكيم ، أن المستنصر جفاه فى آخر عمره ، وقد أسَنَّ لجراء خدمة مالية أسندها إليه ، وقد كان بلاءه منه قبل جفوة ، أعقبها انتشال وعناية . فكتب إليه :

يا غزالا فى الحشا منْزِلـه	وبعينى دائما مَنْهـلـه
لا تُرْعبنى بالجفا ثانيـة	ما بقى فى الجسم ما يحمله

فرق له ، وعاد إلى حسن النظر فيه ، إلى أن توفى تحت برٍّ وعناية . رحمه الله

مولده : ولد بغرناطة ليلة الفطر فى سنة عشر وستماية .

وفاته : توفى بتونس حرسها الله فى أحواز عام خمسة وثمانين وستماية .

على بن عبد الرحمن بن موسى بن جودى القيسى

الأديب الكاتب يكنى أبا الحسن

---

(١) هو الخليفة (وليس الأمير) أبو عبد الله المستنصر بالله بن أبى زكريا بن أبى محمد عبدالواحد الحفصى ، عاهل مملكة إفريقية (تونس) ، وقد حكم من سنة ٦٤٧ هـ حتى وفاته فى سنة ٦٧٥ هـ .

حاله

من أهل المعرفة بالعلوم القديمة ، وأصله من عمل سَرَقُسْطة . وكان صديقا للوزير أبى الحسن بن هانى .

مشيخته

قرأ على الحكيم أبى بكر بن الصايغ، المعروف بابن باجّة[1]. وكان خليع الرّسن فيما ذكر عنه .

شعره

من شعره :

خليلى من نعمان بالله عرّجا ... على الأَيْك من وادى العقيق فسلّما

وقولا له ما حال لُبْنَى لعلـه ... إذا سمع النجوى بلُبْنَى تكلّما

فعهدى به والظل ينفض دوحه ... وقد خضلت عيدانه فتنعّما

تُباكره لُبْنَى لإتيان موعـد ... عزيز عليها أن يُخان ويُصرما

نبث حديثها فنبكى بعَبْرة ... فترسلها ماءً ونُرسلها دما

ومن شعره قوله :

أدر كأْس المدام فقد تغنى ... بفرع الأَيك أَوْرُقها الصدوح

وهبَّ على الرياض نسيم صبح ... يمر كما ونى سادٍ طليح

وسال النهر يشكو من حصاه ... جراحات كما أنَّ الجريح

وقال :

سقى الله دهرا ضم شمل مودة ... وجمع إخوان الصفاء بلا وعد

بميناء تعلوها الرياح بليـلَةً ... وتنظر منها الشمس بالأَعين الرّمد

---

(١) سبق التعريف به (أنظر المجلد الأول من الإحاطة ص ١٨٩ حاشية) .

وفاته : توفى بغرناطة فى حدود الثلاثين وخمسماية .

ومن الطاريين

عمر بن خلاف بن سليمان بن سلمة

من أهل شابش يكنى أبا على .

حاله

كان فقيها أديبا مكثرا ، شهير المكان بجهته ، مولعا بمكاتبة الأدباء ، وتقييد ما يصدر عنهم ، مؤرخا من أهل النباهة والعناية . ألف كتابا سماه « نُخبة الأعْلاق ، ونزهة الأحداق فى الأُدباء » ، وحلىْ من ذُكر فما قَصر ن السّداد . وله نظم ونثر وخُطب ، وبيعات ومراجعات ، تضمنها الكثير من كُتُبه .

فمن شعره ما قاله يخاطب بعض إخوانه :

خذها إليك أبا اسحق تَذْكِرة … من ذاكر لك فى قُرْب وفى شَحَط
يَرْعى ذمامك لا تنسى لوازمه … ولا يمازجه بالسّهو والغلط
ولا يزال بحفظ العهد مُعْتنيا … ولا يعامل فى البحران بالشطط
فأنت عندى أولى من أذمّة ربحى … ومن صفوتى فى أرفع النّمط
قد طال شوقى للإعلام منك بما … لديك إذ فيه لى تأنيس مُغْتَبِط
وقد تبيت بنكرى فى التغافل عن … معهود ما كنت تُوليه لذى الشّحط
وقد عفا رسم عِرفان الإخاء بما … أوليت من كثرة الإهمال والغلط
جُبُر أخى وهْيه وارجع لصالح ما … عودت فى الكُتب من مُسْتحسن الخُطط
وجُد ببسط انبساط أنت تبذله … فإنّ أقبح شىء قَبْض مُنبسط
خذ سلاما كعَرْف المسك نفحته … من ذى ولاء بذاك المجد مغتبط

وفى مفاتحة بعض الأُدباء :

أبا جعفر وافَتْك فى صفحة الطِّرس ... عقيلة وُد لم تُشِنْها يد اللمس
لها حُلل الإخلاص زِيًّا وحَـلْيُها ... عطر ثنا عَرْف روض الربى يَنْبس
وموجبها ما قد فشى من مَحـامد ... حباك بها الرحمن ذو العرش والكرسى
وغُرّ علوم حزتها ومعارف غلوت بها ... فحيٍّ عـلى البـدر والشـمس
فإن رُزِقَتْ منك القبول تشرّفت ... وفازت بتحصيل المسرة والأُنس
خطابك يا قاضى العدالة بُغْيـتى ... ورُوحى ورِيحانى وقُصْوى مُنى نفسى

إقتضبتها أعلى الله قدرك ، كما أَسْنَى فى سماء المعارف والأَدب التالد والطارف بَدْرك، عن ودّ ملك زمامى ، وفصل فى سبيل المنافسة فى خطبة ودادك غاية اهتمامى ، وقد تقرّر لدىّ من محاسنك وإحسانك بالسماع ما أَوجب علىّ مخاطبتك عند تعذر المشافهة بأَلسنة اليراع ، فانمدتُ بزمام ذلك الواجب ،وقصدتُ أداءه على أصح المذاهب، راجياً من تجاوزك وإغضايك مايليق بباهر علايك ، وفى جوابك هو الشفاء ، ولدى خطابك يُلقى الاعتناء والاحتفاء، والله يطلع منك السّار ، ويصل لك المبار. وقال يخاطب السلطان :

إلى الحضرة العليا يستبق العبد ... وفى القرب منها والدنوّ هو القصد
إلى حضرة الولى الإمارية التى ... تبلّج فيها العدل وابتسم السعد
وفيها وجود للـدين والدُّنـا ... وقد خصّها بالرحمة الصّمد الفرد

وفاته : كان حياً فى سنة خمس وسبعماية

على بن أحمد بن محمد بن يوسف بن عمر الغسانى (١)

(١) ورد فى هامش المخطوط (لوحة ٣٢٧) تعليقاً على هذه الترجمة ما يأتى : « قلت وستأتى قريباً بعد سبعة تراجم ، ترجمة على بن أحمد الغسانى شارح مسلم ، واسمه كاسم هذا المترجم به هنا وكذا اسم أبيه وجده وأبى جد جده . ويوافقه أيضاً فى النسب والبلد والكنية والشيوخ والتواليف . ولا أظنهما إلا شخصاً واحداً ، بل ربما يكاد أن يقطع بذلك . فتأمل ذلك والعلم عند الله . وقد ذكرهما ابن فرحون فى « الديباج » شخصين ، وعرفهما كما فعل ابن الخطيب فتأمل ذلك والعلم عند الله . وكتب أحمد ابن أحمد بن حمد بن عمر المسنوى الأنصارى . وختم الله تعالى له ولوالده بالخير والحسنى »

من أهل قرية أرينتيرة من قرى سند مدينة وادى آش ، يكنى أبا الحسن

حـــاله

كان من جلّة الطلبة ونبهائهم وأذكيائهم وصلحائهم . عنده معرفة بالفقة ، ومشاركة فى الحديث، ومعرفة بالنحو والأدب . وحسن نظم ونثر ، من أحسن الناس نظما للوثائق، وأتقنهم لها . وأعرفهم بنقدها وأقصدهم لمعانيها يستعين على ذلك بأدب وكتابة ، فيأتى بأشياء عجيبة .

مشيخته

روى عن الراوية أبى العباس الخروبى . والمقرى أبى الحسن طاهر بن يوسف بن فتح الأنصارى . والقاضى أبى محمد بن عبد الرحيم الخزرجى

تواليفه

ألف كتاباً فى شرح المُسْنَد الصحيح لمُسْلِم بن الحجاج فى أسفار كثيرة ، أجاد فيها كل الإجادة . وله كتاب سماه بالوسيلة فى الأسماء الحسنى . ونظم فى شمايل النبى عليه أفضل الصلاة والسلام .

شعره

له شعر فى الزهد وغيره فمنه قوله :

أيا كريما لم يُضَع　　لـــديك عبد أمّلك
بالباب من أنت له　　وودّ أن لو كان لـك
عبدٌ لـه أسولـــة　　وليستحى أن يسلك
أفواههم تســـــله　　ولم تحسن عملك
فإن أنت خنتــــه　　أمانة قـــد حمّلك
ولم تكن تشكرمـــا　　من فضله قد خوّلك

وكلما أهملته من حقّه ما أهمـــلك
إنّا كما قالوا سوى أنك أعلى من ملك
تلك التى تؤنسنى وترتجى بفضــلك
بشراى إن نـــال الرضا بها توسُّلك

على بن محمد على بن هيضم الرعينى

من أهل إشبيلية، يكنى أبا الحسن .

حاله

الكاتب البليغ المحدث الراوية . قال الأستاذ ، كان من أهل العلم والمشاركة ، وغلبت عليه الكتابة السلطانية . واعتمدها صناعة . وكتب لجلّة من ملوك الأندلس والعُدْوة . وكان انفصاله من الأندلس قبل سنة أربعين وستماية .

قلت ، وكتب للسلطان المتوكل على الله أبى عبد الله بن هود ، ثم للسلطان المتوكل الغالب بالله أبى عبد الله بن نصر . وسكن بغرناطة مدة (١) مديدة . ثم رحل إلى مراكش . فكتب عن أمير سَبْتَة ، وعن ملوك الموحدين بمراكش . ونَمَت حاله ونبُهت رتْبتَه ، واستقل بالإنشاء ، بعد شيخة أبى زيد الفازازى، وكان محدثا عارفا بالراوية، متعدد المشيخة . فاضلا ، دينًا . مشاركا فى كثير من المعارف . حسن الخط . جيد الكتابة . متوسط الشعر . قلت هذا الرجل له مشيخة فى أصل ابن الخطيب طويلة اختصرتها (٢) .

---

(١) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم السياق .

(٢) هذا مثل من إشارات المختصر إلى طريقة اختصاراته ، فهو فى معظم الأحيان يختصر « المشيخة » أو ينفلها بتاتاً .

شعره ونثره

من ذلك ما جمع فيه بين النظم والنثر :

وافى الكتاب وقد تقلد جيدُه ... ما أنت تحسن نظمه وتُجيده
من كل معنى ضمن لفظه فى حُلى ... خطٌّ يزيل طِلَى الطرُّوس فريده
أبا المُطَرِّف دعوة من خالص ... لعُلاك غابت وده وشهيده
أنت الوحيد بلاغة وبراعة ... ولك البيان طريفُه وتليدُه
فانثر أنت بديعَه وعماده ... وانظم أنت حبيبه ووليده

إيه أيها السيد الذى جلّت سيادته ، وحلّت صميم الفؤاد سعادته ، ودامت بها ينفع الناس عادته . ألقى إلى كتاب كريم ، خطّته تلك اليمنى التى اليمن فيها تخطُّه. ونسّقت جواهر بيانه، التى راق بها سِمطُه ، فلا تسلوا عن ابتهاجى بأعاجيبه ، وانتهاجى لأساليبه ، وشدّة كِلْفى بالتماح وسِيمه ، وجدّة شغفى باسترواح نسيمه . فإنه قدم ، وأُنس النَّفْس راحل ، واستعاده روض الفكر ماحل، فجاده ، لاجَرم أنه بما حوى من حَدَق النَّوى ، وروى من طرق الهوى ، وبكى الرّبيع المحيل ، وشكى من صابح الرّحيل ، هيج لواعج الأشواق وأثارها ، وحرّك للنفس حوارها ، فحنّت ، واستوهبت العين مدارها فما ضنت. فجاشت لوعة أسكنت ، وتلاشت سَلْوة عَنَت ، وكفّ دمع كف ، وثُقل عَذَلٌ خفّ ، واشتدّ الحنين ، وامتد الأنين ، وعلا النحيب ، وعرا الوجيب ، والتقى الصبُّ والحين ، وهدى المحب قَدْر ما جناه البَين ، وطالما أعمل فى احتمال المشاق عزيمه ، وشدّ لاجتياب الآفاق حَيازمه .

وادع مثوى المُقام معتزما ... لا يرى الغرام ملتـــرمـ

وأزمع البابن عن أحبته ... والبين عن داره التى ريما
وما درى أنه بعزمته ... أشعَل البين فى الحَشَى ضَرما
وهل جرى ذاك فى تصوره ... فربما أحدث الهوى لمما
إلهى ألا نَوى مشيئته ... شَملا من العَيْش كان منتظما
وعاذلٌ قال لى يعنتنى ... لا تبد فيما فعلته ندما
ما حيلة فى يدى فأعملها ... عدلٌ من الله كلُّ ما حكما

أما أنّ القلب لو فهم حقيقة البَيْن قبل وقوعه وعلم قدر ما يشب من الرّوع فى روعه ، لبالغ فى اجتنابه ، واعتقد المَعْفى عنه من قبيل المُعْتنى به . ولحا الله الأطماع ، فإنها تستدرج المرء وتغره ، وتُغْريه بما يسره . ما زالت تقتل فى الغارب والذّروة ، وتخيل بالترغيب والثّروة ، حتى أنأت عن الأحباب والحبايب ، ورَمَت بالغريب أقصى المغارب . فيالوَحْشة أأوَت بإيناسة ، وبالغُربة أحلَّت فى غير وطنه وناسه ، ويا عجبا للأيام وإساءتها ، وقرب مسرّتها من مساتها ، كأنها لم تُتْحف بوصال ، ولم تُسْعف باتصال ، ولم تمتّع بشباب ، ولم تفتح لقضاءِ أوطار النفس كل باب .

عجبا للزمان عقّ وعاقا ... وعدِمنا مسرّة ووفاقا
أين أيامه وأين ليال ... كلآل تلألُؤاً واتِّساقا
كم نعمنا بظلها فكأنا ... مرقها للصَّبا علينا رماقا
كم بغرناطة وحِمْص وصلنا ... باصطباح من السرور اغتِباقا
وفى رُبى نَجد تلك أو نهر هدى ... والأمانى تجرى إلينا اسْتِباقا
فى رياض راقَتْ وراق ولكن ... حين ذدّ الحيا لها فأراقا
رقّ فيها النسيم فهو نسيب ... قد سَبا رقّة نفوسا رفاقا

وثنا للغصون منها قدودا تتلاقى تصافُحا واعتناقا
كلما هبَّ من صَباه عليل وتداوى بها العليل أفاقا
حكم السَّعْد للأَحبة فيه بكؤوس الوصال أن تَنْساقا
ثم كرّت للدهر عادة سوء شق فيها خَطْبُ النوى حين شاقا
شَتّت الشمل بعد طول اجتماع وسقى الفراق كأْسا دهاقا
وأعاد الأَوطان قفرًا ولكن قد أعاد القِطان فيها الرفاقا
ليت شعرى والعيش تطوى بالفيافى أشامًا تبوؤا أم عِراقا
يا حُداة القلوب رفقا بصبٍّ بلغت نفسه السياق اشتياقا
فآه من شَجْوة وآه لبين ألزم النفس لوعة واحتراقا

هذه يا سيدى استراحة من فؤاد ، وقَدَته الفُرقة والقَطيعة ، واستباحته لُجْمى الوقار بما لم تحظره الشريعة ، فقدما تُشُوكِيت الأحزان ، وتُبوكِيت الأَوطان ، وحنّ المشتاق ، وكنّ له من الوجد ما لا يطاق ، فاستوقف الركب يشكو البلابل ، واستوكف السحب لسُقيا المنازل ، وفَدى الربّع وإن زاده كربا ، ومن له إن يَلُم لائماً له تُرْبا . حسبه دموع تفيض مجاريها ، ونجوم يسامرها ويسايرها .

أَلِف السهاد فشأْنُه إدمانُه واستغرقت أَحْيانَه أشجانُه
وشكا جفا الطّيف إذ لم يأْته هل ممكن من لم ينم إتيانه
واستعبدته صبابة وكذا الهوى فى حكم أَحْراره عِبْدانه
كم رام كتمان المحبة جَهْده ودموعه يبدو بها كتمانُه
وإذا المحب طوى حديث غرامه كبى الضلوع وشَتّ به أجفانه

وهى طويلة .

وفاته : بمراكش سحر ليلة الأَربعاء الرابعة والعشرين من رمضان

سنة ستة وستين وسمّاية . ودفن عقب ظهره ، بجبانة الشيوخ مقاريا باب السادة أحد أبواب قصر- مراكش . وكان الحفل فى جنازته عظيما . لم يتخلف كبير أحد .

على بن محمد بن على بن البنا

من أهل وادى آش يكنى أبا الحسن .

حاله

من « الإكليل الزاهر » ، قال فيه ، فاضل يروقك وقاره ، وصَقْرٌ بعُد مطاره . قدم من بلده وادى آش يروم اللحاق بكُتّاب الإنشاء ، وتوسل بنظم أنيق ، وأدب فى نسب الإجادة عريق ، تُعرب براعته عن لسان ذليق ، وطبع طليق ، وذكاء بالأثرة خليق ، وبينا هو يُلحم فى ذلك الغرض ويُسدى ، ويعيد ويبدى ، وقد كادت وسايله أن تنجح ، وليلة رجايه أن تصبح ، اغتاله الحِمام ، وخانته الأيام ، والبقاءُ لله والدّوام .

شعره

من شعره يخاطبنى لما تقلدت الكتابة العليا :

هو العُلا جرى باليُمن طايرُه	فكان منك على الآمال ناصره
ولو جرى بك ممتدا إلى أمـل	لأعجز الشمس ما أمّت عساكره
لقد حباه منيع العِزّ خـالقهُ	بفاضل منك لا تُحصى مآثره
فليَزْهُ فخرا فما خَلْقٌ يُعارضه	ولا عُلاً مدى الدنيا يُفـاخره
لله أوصافك الحُسْنى لقد عجزت	من كل ذى لَسِن عنها خواطره
هيهات ليس عجيبا عجز ذى لسِن	عن وصف بحر رمى بالدّر زاخره

هل أنت إلا الخطيب ابن الخطيب ... ومن زانت حُلَى الدين والدنيا مفاخره
فإن يقصُر عن الأوصاف ذو أدب ... فما بدا منك فى التقصير عاذره
يابن الكرام الأُلى ما شَبَّ طفلهم ... إلا وللمجد قد شدّت مآزره
مهلا عليك فما العلياء قافية ... ولا العلا بسَجْعٍ أنت ناثره
ولا المكارم طِرْساً أنت راقمه ... ولا المناقب طِبًّا أنت ماهره
ماذا على سابق يُسْرى على سنن ... إن كان من نفعه خلٌّ يسايره
سِرْ حيث شيتَ من العليا سيِّدا ... فما أمامك سابقٌ تحاذره
أنت الإمام لأهل الفخر إن فخروا ... أنت الجواد الذى عزَّت مفاخره
ما بعد ما حُزْته من عزّة وعُلاً ... شأْو يطارد فيه المجد كابره
نادت بك الدولة الشُّعرىّ محتدها ... نداء مُسْتَجد أزرا يوازره
حِلية لما برد البر مرتديا ... وصحَّ يمنك فجر السَّعد ساجره
فالملك يَرْفُل فى أبْراده مرحا ... قد عمَّت الأرض إشراقا بشايره
فأضاء بها نعمة ما أن يقوم فيها ... من اللسان ببعض الحق شاكره
وليُهنِنا أنه ألقت مقالدها ... إلى سرىّ زكت منه عناصره
فإنه بدر تِم فى مطالعها ... قد طبَّق الأرض بالأنوار نايره

ومن أطبع ما هزَّ به إلى إقامة سوقه ، ورعى حقوقه ، قوله :

يا معدن الفضل موروثا ومكتسبا ... فكل مجد إلى عليائها انتسبا
بباب مجدكم الأسمى أخو أدب ... مستصرخ بكم يستنجد الأدبا
ذلَّ الزمان له طورا فبلَّغه ... من بعض آماله بعض الذى طلبا
والآن أركبه من كل نابية ... صعب الأعنَّة لا يألو به نصبا
فحمَّلته دواعى حبكم وكفى ... بذاك شافع صِدْقٍ يُبلِّغ الأَرَبا
فهل سرى نسمة من جاهكم ... فيها خليفة الله فينا عطر الذَّهبا

وأهدى إلىَّ قباقِب خشب برسمى ومعها من جنسها صغار للأولاد من مدينة وادى آش من خشب الجوز وكتب لى معها :

هاكها ضُمَّرًا مطـايا حسـانا ... نشأت فى الرياض قُضُبا لُدانا
وثَوَت بين روضة وغـدير ... مُرْضعات من النَّمير لُبانا
ثم لما أراد إكرامهـا الله ... وسَنَى لها المنى والأمـانا
قَصدَتْ بابك العلىَّ ابتدارا ... ورجت فى قبولك الإحسـانا
قد قبلنا جيادك الدُّهم لما ... لما أن بلونا منها العِتاق الحسانا
أقبلت خلف كل حجر ببيع ... خلعت وصفها عليه عيـانا
فقبلنا برعيها وفسَّحنا فى ... ديار العلى لهـا ميـدانا
وأردنـا امْتِطـاها فأفخذنا ... من شراك الأديم فيها عِنـانا
قَدِمت قبلها كتيبةُ سـحر ... من كتابٍ سَبَت به الأذهـانا
مثلما تجنَّب الجيوش المذاكى ... عُـدَّة للقـاء مهمـا كـانا
لم ترق مُقلتى ولا رقَّ قلبى ... كحلاها براعة وبيـانا
من يكن مُهديا فمثلك يُهدى ... لم أجد للثَّنا عليك لسـانا

وفاته : توفى فى الرابع لشعبان من عام خمسين وسبعماية مُعْتَبطًا فى الطاعون لم يبلغ الثلاثين .

على بن محمد بن على العبدرى

سكن غرناطة ، يكنى أبا الحسن ويعرف بالورَّاد ، ويشهر أبوه باليربونى .

حاله

بقية مُسِنِّى أُدباءِ الأندلس فى فن الهزل والمُعرَّب ، والهزل متولى

شهرته ، وله القِدْح المعلّى فيه ، والطريقة المثلى ، ظريف المأخذ ، نبيل الأغراض ، حافظ للعيون ، مال بآخرة إلى النُسْك ، وصحبة الصالحين . ولم يزل بحاله الموصوفة إلى أن استولت عليه الكَبْرة ، وظرفه يتألق خلال النسك . وجرى ذكره فى « الإكليل الزاهر » بما نصه : أديب نار ذكايه كأنه يتوقّد ، وأريبٌ لا يُعترض كلامه ولا يُنقد . أما الهزل فطريقته المثلى، التى ركض فى ميدانها وجَلَى ، وطلع فى أفقها وتجلّى ، فأصبح عَلَمُ أعلامها ، وعابر أحلامها . إن أخذ بها فى وصف الكاس ، وذكر الورد والآس ، وألمّ بالربيع وفصله ، والحبيب ووَصْله ، والروض وطِيبه ، والغمام وتقطيبه . شقّ الجيوب طربا ، وعلّ النفوس إربا وضربا . وأن اشفق لاعتلال العشية ، فى فرش الربيع الموْشِية ، ثم تعداها إلى وصف الصَّبوح ، وأجهز على الرق المجروح ، وأشار إلى نغمات الوِرْق يرفلن فى الحلل الزُّرق ، وقد اشتعلت الليل نار البرق ، وطلعت بنور الصباح فى شرفات الشرق ، سلب الحليم وقاره ، وذكر الخليع كأسه وعقاره ، بلسان يتزاحم على مورده الخيال ، ويتدفق من حافاته الأدب السيال ، وبيان يقيم أود المعانى ، ويشيده صانع اللفظ محكمة المبانى ، ويكسو حُلل الإحسان جسوم المثالث والمثانى ، إلى نادرة لمثلها يشار ، ومحاضرة يجنى بها الشهد ويُسار .

وقد أثبتُّ من شعره المعْرب . وإن كان لايتعاطاه الا قليلا ، ولايجاوره الا تعليلا ، أبياتا لاتخلومن مسْحة جمال على صفحاتها ، وهبّة طِيبٍ ينمّ فى نفحاتها .

فمن ذلك قوله :

يذكرنى حُسن الكواعب روضة لها خطر قيد النّواظر مُـــونق

خدود من الورد النضير وأعين　　من النّرجس السامى اليها تحدِّق
وخامات زرع يانـــع كذؤاب　　وما شقها من جدول الماء مفرِّق

ومن شعره قوله :

أسافِرةَ النقاب سُحرتُ لمـا　　أمْطَت الخز عن بدر التمام
وتيمّت الفؤاد بغَنَج طَرْف　　كحيل ما يفيق من المنـــام
لعمر أبيك ما بالنـــوم بعدٌ　　عن الجفن المكحل بالظلام

ومن معانيه المخترعة وأغراضة المبتدعة . وكلها كذلك :

مالى إذا غبتم تهمى لفرقتكم　　عينى بمُنْهَمر كالغيث هتّان
أشبهتُ نيلوفراً والشمس بهجتكم　　إن غبتم غبت فى أمواه أجفان
السُّقَم يشهد لى والدمع برّح بى　　متى استوى عندكم سرٌّ واعلان

وقال من المستحسن الذى رمى فأصاب ، واستمطر طبعه فصاب :

يقولون لاح الشيب فالَه عن الصِّبا　　وعن قهوة تصبو لها وتنيب
فقلت دعونى نَصْطحبها سُلافة　　على صُبح شَيْبى فالصبح عجيب

وقال كذلك :

لا تعجبن من البَليد مخولا　　ومن اللبيب يُعد فى الفقراء
الماء أصل الخَصْب غير مُدافع　　وأخو البلادة طبعه كالماء
والنار مؤثرة الجُدوب وإنها　　لشبيهة بطبائع الفُطَنـــاء

ومن قصائده الغريبة :

ومُعذّر لحظ المَشيب بعارضى　　فتصرّمت دونى حبالُ وصاله
هلاّ ثَنَته نسبة لمحبـــــه　　إن العِذار لشِيبَة لجمـــاله

وقال أيضا :

تحرَّ الصدق إن حدَّثت يوما　　وإن حدثت لا تنقل حـديثاً

وكن للسرّ صوّانا كتـــوما ٭ وربما كان سرّك أو حــديثاً

وقال مما يكتب فى غِمْد سيف :

لئن راق منى مَنظر بان حُسْنه ٭ لقد سامنى بالمهنّـــد باطن

كان أديمى رُقعة من حديقة ٭ تلقفها صِلٌ لدى الروض كامن

وقال مما يكتب على قوس :

إن كان من وتر الألحان مُنْبَعثا ٭ سرور قوم مدى الآصال والبُكَرُ

فإنّ حُزْن العدا ما نال منبعثا ٭ منّى وحينهم فى النّقر فى وتر

وقال فى غير هذا الغرض :

الخير كل الخير فى ستّة لم ٭ تُلْفَ إلا فى كرام الرجـال

الحزم والحلم وحمل الأذى ٭ والصبر والصّمت وصدق المقال

ومما نختتم به محاسنه قوله :

ألا إنّ باب الله ليس بمُغْلق ٭ ولا دونه من مانع لمـــوفّق

ولكن بُلينا فى سلوك طريقه ٭ بكَلْبٍ من الشيطان ليس بمُطْرق

فمن يَرُمْ بالدنيا إليه كلُقمة ٭ فذاك الذى من شرّه ليس يُتّق

فخلّ عن الدنيا ودَعْ عنك حبها ٭ يَدَعْك إلى أوج السعادة ترتق

وقوله :

أيقنت أن جميع الخلق ليس له ٭ شيىءمن الأمر فى شيىء فيصنعه

فلا أخاف ولا أرجو مدى عمرى ٭ الأ الذى فى يديه الخلق أجْمَعه

مولده : بمدينة مالقة فى اليوم الثالث والعشرين لذى حجة من عام أحد وثمانين وستماية

وفاته : فى أحواز أحد وستين وسبعماية

علي بن عبد العزيز بن الإمام الأنصارى

يكنى أبا الحسن ، سَرَقُسطى الأَصل ، غَرناطى الاستيطان والاستعمال .

حاله

كان وزيرا جليلا ، معظَّم القدر . مبجلا أثيرا ، ذا معارف جمة ، أَحد كتاب الزمن ، وأهل البلاغة والفصاحة والكرم . وزَر للأَمير أبى الطاهر تميم بن يوسف بن تاشُفين ، صاحب غرناطة فحمدت وزارته ، وكتب للأَمير على بن يوسف . وروى عن شيوخ غرناطة .

أخباره فى الجود والجلالة

قال أبو القاسم ، شكى إليه بعض إخوانه من حادث طَرقه ، وأن النِّفاق أخرجه من بلده ، وحال بينه وبين بلده ، فأَنزله أكرم منزل وخرج إلى المسجد الجامع ، وأشهد على نفسه أنه وهبه الربع من أملاكه ، وكتب بذلك عقداً ودفعه إليه ، وقال يا أخى إن ذلك سيصلح من حالك ، وحالى لايتسع لأَكثر من هذا ، فاعذر أخاك . وكان الذى وهبه يساوى فوق الأَلف دنير مرابطية ، فرحم الله الوزير أبا الحسن : فلقد كان نادرة الزمن .

شعره

من ذلك قوله :

يا ليت شعرى والأَمانى كلُّها   زور يغُرك أو سراب يلمع

فى كل يـوم منزل لأَحِبَّـة   كالظل يُلبس للقيل ويُخلع

ومن ذلك قوله

تسمَّوا بالمعارف والمعــالى   فليس المجد بالرحم البوال

وإن فاتنا فبالبيض المواضى   وبالسُّمر المثقَّفة العُـــوال
وإذا المرء تنهضه هـــذِى   فليس بِنا هضس أخرى الليال
ومن أسْمَتْه أسباب سواهـــا   فرفْعَتُها تؤل إلى سِفـــال

ومن المحدثين والفقهاء والطلبة النجباء

على بن ابراهيم بن على بن ابراهيم الجذامى

القاضى المتفنن الحافظ ، من أهل غرناطة يكنى أبا الحسن .

حاله

من الصِّلة ، كان عَدْلا فاضلا جليلا ، ضابطا لما رواه ، فقيها حافظا ، حسن التقييد.

تواليفه : قال اختصر كتاب « الاستذكار » لأبى عمر بن عبد البر . وغير ذلك .

مشيخته

روى عن أبى محمد عبد الحق بن بُونه ، والقاضى أبى عبد الله بن زَرْقون ، وأبى القاسم بن حُبَيْش ، وأبى خالد ين رفاعة ، وأبى محمد بن عبيد الله ، وأبى زيد السُّهيلى ، وأبى عبد الله بن الفخار ، وأبى الوليد بن رشد .

مولده : ضحوة يوم الأضحى من عام خمسة وخمسين وخمسماية .

وتوفى قريب الظهر من يوم الأربعاء التاسع عشر لذى حجة من عام اثنين وثلاثين وستماية .

من روى عنه . روى عنه القاضى أبو على بن أبى الأحوص .

علي[1] بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن الضحاك الفزارى

من أهل غرناطة ، يكنى أبا الحسن ، ويعرف بابن النُّفْزى .

حاله

قال أبو القاسم الغافقى ، فقيه مُشاور بغرناطة ، محدث متكلم .

مشيخته

أخذ عن أبى الحسن شرُيح ، وعن الإمام أبى الحسن على بن أحمد بن الباذش ، وعن أبى القاسم بن ورد ، وعن القاضى أبى الفضل عياض بن موسى ، وعن الإمام أبى عبد الله المازَرِى ، وعن أبى الطاهر السِّلفى ، وعن أبى مروان بن مَسرَّة ، وأبى محمد بن سِماك القاضى ، وعلى بن عبد الرحمن ابن سمحون القاضى ، والقاضى أبى محمد بن عطية ، والمشاور أبى القاسم عبد الرحيم بن محمد ، والقاضى أبى القاسم بن أبى جمرة ، وجماعة يطول ذكرهم .

تواليفه

وله تواليف فى أنواع من العلم ، منها كتاب «نزهة الأصفياء وسلْوة الأولياء فى فضل الصلاة على خاتم الرسل وصفوة الأنبياء» إثنا عشر جزءاً ، وكتاب « زواهر الأنوار وبواهر ذوى البصاير والاستبصار فى شمايل النبى المختار» ، سِفران كبيران ، وكتاب «منهج السداد فى شرح الإرشاد » ثلاثون جزءاً ، وكتاب «مدارك الحقائق فى أصول الفقه» خمسة عشر جزءاً ، وكتاب «تحقيق القصد السَّنى فى معرفة الصمد العلى» سفر ، وكتاب «نتايج الأفكار فى إيضاح ما يتعلق بمسئلة الأقوال من

---

(١) وردت فى الإسكوريال (محمد) ، وهو فيما يبدو تحريف من الناسخ لأن القايمة سائرة باسم (على) من قبل ، ومن بعد ، ويؤيد ذلك كنيته وهي (أبو الحسن) .

الغوامض والأسرار » سفر ، وكتاب « تنبيه المتعلمين على المقدمات والفصول وشرح المهمات منها والأصول » سفر ، وكتاب السّباعيات ، وكتاب « تبيين مسالك العلماء فى مدارك الأسماء » ، وكتاب « رسائل الأبرار . وذخائر أهل الحظوة والإيثار فى انتخاب الأدعية المستخرجة من الأخبار والآثار » سفران اثنان ، وكتاب « الإعلام فى استيعاب الرواية عن الأئمة الأعلام » سفران .

وفاته

توفى فى الكاينة بغرناطة سنة سبع وخمسين وخمسماية . خرج منها يريد وادي آش ، فلم يصل إليها ، وفقد فلم يوقع له على خبر .

على بن عبد الله بن يحيى بن زكريا الأنصارى

يكنى أبا القاسم ، ويعرف بابن زكريا .

أوّليّته : قد مر فى ذكر أبيه وعمه .

حـاله

هذا الرجل فاضل ، سحون ، من أهل السذاجة والسلامة ، والعفاف والصيانة ، مُعم مُخوّل فى الخير . طاهر النشأة . جانح للعدالة . قعد للعلاج ، وبرز فى صناعة الطب ، على فتاً من سنه ، واستيم إليه بمهم من نبيه العمل وخُطته ، متصف بالإجادة والبيان .

مشيخته

قرأ العربية والفقه وغيرهما من المبادئ على مشيخة وقته ، والطب على الوزير أبى يزيد خالد بن خالد من أهل غرناطة . وقعد معه .

شعره

ينتحل من الشعر ما عينه فى الشّرود أو غير ذلك فراره كقوله :

صعدت نـــار فؤادى أدمعى ... فلذا ما جفّ قلبى فانفطر

لـــو أبـــاح الله لى وصلك ... الأنبل صدع القلب منى وانجبر

أصل دائى منك لحظٌ فـــاتر ... وأشد اللّحظ ما ما فَتَـــــر

كيف أرجو منه بـــراً وغَدت ... قهوة الحُسْن تسقيـــه دُرر

فانظر قوله ، الأنبل من شعره :

ولى هّمة من دونها كل همـــة ... أموت بها عطشان أو يَخْلص الشّرب

يعز على الكريـم ورود مـــاء ... يُكدّره شَوْب ويطرقـه نَهْب

وإنى وأن أضحى لوُدّك موضع ... من القلب أضحى دون موضعه الخُلْب

فتمنعنى نفسى لايمان أرواحهم ... على شِرْبٍ يونقـــه قَشَبُ

غفر الله له على قَشَب ، وتجاوز عنه ، فلقد دفع منه فضْحها .

وهو بحاله الموصوفة

ومن الطارئين والغرباء

على بن أحمد بن محمد بن أحمد بن على بن أحمد الخشنى

من أهل مالقة ، من قرية يَعشيش من عمل مُلتماس ، من شرقيها يكنى أبا الحسن . ودخل غرناطة ومدح أمراءها وتردّد إليها .

حاله

من « عايد الصلة » : من صدور أهل الدين والفضل ، والخير والصلاح والنزاهة ، والاقتصاد والانقباض ، تحرّف بصناعة التّوثيق بمالقة ، جاريا على شاكلة مثله من الاقتصاد ، والتبلُّغ باليسير ، ومصابرة الحاجة ، مكِبًّا على المطالعة والنظر ، مجانبا للناس ، بعيدا عن الرّيب ، مؤثرا

للزهد فى الدنيا . وُلِّىَ الخطابة بالمسجد الأعظم من قصبة مالقة فى عام وفاته .

مشيخته

قرأ على الأُستاذ الصالح الخطيب أبى جعفر بن الزيات ، والأُستاذ المقرى رُحلة الوقت أبى عبد الله بن الكمَّاد .

شعره

وشعره آخذٌ بطَرْف من الإجادة فى بعض المقاصد ، فمن ذلك قوله :

أرى لك فى الهوى نظرا مُريباً | كأن عليك عاذلاً أو رقيباً
ولست بخائف فى الحب شيئا | على نفسى مخافتىَ المَشِيبا
يرينى كل ما تهواه نفسى | قبيحاً مالياً عينى عنيبا
أنا منه ابن قيس لا يراح | فَذُق مُرَّ التأسف مستطيبا
إذا ما كنتَ تبكى فَقْد حِبٍّ | فما مثل الشباب به حبيبا

وقال فى مذهب المدح من المطولات :

الآن تطلب وُدَّها ووصالها | من بعد ما شَغَلَت بهجرك بالها
وقد استحالت فيك سيما الصِّبا | حالا يروع مثلُها أمثالها
وأتيتها متلبسا بروايع نكرٍ | بفَوْدك أصبحت عُذَّالها
بيضُ تخيَّلَ للنفوس نصولها | سُمرًا تخوِّل للنحور نصالها
مثل الأفاعى الرُّقْط تَنْفُث | فى الحشا وأرى بفَوْدك جنا أطالها
نار تُضرم فى الفؤاد حريقها | لكن تُنير بمفرِقَيك ذُبالها
جَزِعت لهذا الشَّيب نفسى | وهى ما زالت تهوِّن كل صعب نالها
ولكم صدعتُ بنافذ من عزمتى | همًّا لا يهدى العليمُ ضَلالَها
صادمت من كَرْب الدُّنا أشتاتها | ما خفت غُرْبتها ولا إقلالها

ولئن تقلّص عسرتى فيء الغنا عنى فلى نَفْسٌ تمدُّ ظلالهـا
ما مزقت ديباجتى غير امرىء عرضت عليه النفس قط سؤالها
ألقى الليالى غير هبٍّ صَرْفها والأُسْد غير مُجَنَّب أغْيالهـا
أمشى الهوينا والعُداة تمر بى مرًّا يطير عن الجياد نِسالها
علّمت لى الخُلُقَ الجميل محققا وتسىءُ فىّ على عملى أقوالها
تبغى انثناءً وهل سمعت بنَسْمة مرّت على نجْدٍ تهزُّ جبالهـا
ولربما عرضت لعينى نظرة يَرْضى الحكيم غرامها وخَبالها
من غادةٍ سرق الصباح بهاءها والبدر فى ليل التمام كمالها
تهوى المجرَّة أن تكون نجومها من حَلْيها وهلالُها خلخالها
عرضت كما مرّت بعينك مُطْفل ترعى بناظرك الكحيل غرامها
ما نهنهت نفسى وإن ضَمنت لها عَبَراتها يوم الوداع وصـالها
من كان يأْمل أن يقوم بمجلس حطّت به شهب السما أثقالها
محا أحاديث السُّراة أولى النُّها نصًّا ويضرى فى العُلى أمثالها
ألقى هواه جانبا وسَرَى بـه وجنا تدوى فى الدجى إعمالها

ومنها فى المدح :

ألبَسْتُ دين الله حـلّة أمن أضْفَت على أسرايه ذلذالهـا
أنتم بنى نصر نصرتم ملّة الإسـلام حين شكت لكم عُذّالهـا
كنتم لها أهلا ورحّبتم بهـا فى الغُرْبتين ومنتم إنزالهـا
نزلت على سعد ليسعد جدُّها وأوت إلى نصر لينصر أليها
أحرزتم يوم السّقيفة عُودَها دون الأنام وقودها وسكالها
لكن حبَوْتم من أجرتم مـنّة بخلافة الله التى يُعنى لهـا
إذ تؤثرون سواكم قالت بذا آىُ الكتاب فمن يردُّ مقالها

حتى إذا عثرت ولم ينهض بها ‏ إلا كم بادرتم إنشـــالها
أوَيْتُم خيـــر البــــرية كلها ‏ ومغيثَهـا ونجـاتها وثِمالهـا
من ألبَس الشَّرف الرفيع وضِيعَها ‏ وكسا مُعصفرة الحِجا جُهَّالَها
من أمَّ فى السَّبع العُلى أملاكها ‏ جِبْريلُها فى الغَرْب أو مِيكالُها
من أنقذ الغرقى وقد شمل الرَّدى ‏ هذا الأنام خيارها وحثـالها
من فاضَتْ الخيرات من تِلقايه ‏ كالصُّبح فاض على الدُّجى فأزالها
من فجَّر العَين الفُرات بـكفِّه ‏ يَرو الورى ورد القطا سِلسالها
من لا يقاس بالرياح إذا سَرت ‏ نشرا تقل من السحاب ثِقالها
معنى وجود الكون علَّة كـونه ‏ نفس الحياة مُنَفِّسا أهوالها
دامت صلاة الله دِيمة عارِض ‏ يَهْمى عليه نَدى الدُّنا هطَّالها
لما تحقَّقت النبوة أنها قد ‏ زلزلت منها الورى زلزالهـا
وتقاعَسَت عن منعها أعمامها ‏ أمَّت أيمَّة نصـرها أخوالهـا
فوثبتم مثل الليوث لنصرها ‏ والحرب تُجنِّب خلفها أشبالها
وأدرتم منها زَبُونا أصبحت ‏ ترى رؤوس الملحدين ثِقالهـا
بدرٌ وما بدرٌ وردم قلِيبهـــا ‏ بجنادل الطاغوت تملأُ جالهـا
ولكم بأوْطاس وقد حَمِى الوطيس ‏ على العِدا يوم أطـاح بحالها
فنزعتم أزواجهـا وسَبَيْتم أولادها وسـلَبتم أموالهـــا
وذهبتم بالمصطفى لدياركم ‏ وحيًا سواكم ساقها وجمالها
فُزتم به فوز المُعَلَّى منحة ‏ أحرزتم دون الأنـــام منالها
يا أيها الملك الذى من مُلْكه ‏ جَنَت الملوك جمالها وجلالها
ما زال حِزْبك منهم يعلو على ‏ مرِّ الدهور ويَعْتَلى أجْبالهـا
حتى حللت من المَجادة ذِروة ‏ ما حلَّ غيرك فى المجادة حالها

تحمى الهدى تهمى النّدى تولى الجَدا وتقى الردى وتُرى العدا أَوْجالها
قَعَدت شريعتُه بيُمْنك ليس من كدر يُشين على العباد زُلالها
يا سيِّد السادات يا ملك الملوك وشمسها وصباحها وهلالها
يا بدرها يا بحرها أو غيثها أو ليثها أو حُسْنها وجمالها
خذها كما دارت بكأْس سُلافها حَوْراء تمزج باللَّما جَرْيالها
تثنى على السِّحر المبين وشاحها وتدير من خمر الفُتور جلالها
لَمْياءُ تبرز للعيون كشاطر والعقل يوجب حُكْمه إجلالها
وقفت وذو إحسانها من هاشم من سِبْط خير العالمين حيالها
يرجو رضاك وطالما أرضيتم آل النبى وكنتم أرسالها
كم من يد بيضا لدينا منكم شكرنا له وأولياه فعالها
آويتُم واسيتُم والَيْتُم احْلَلْتمونا داركم وجَلالها
وهجرتم لوصالنا أعداءنا ووصلتم لِصلاتنا أوصالها
فَصِلوا أحياءنا ما استطعتم وصْلَه تعطوا من أجْزا الجزاء جزالها

وله تأْليف غريب عكف عليه عمره فى فضل مكّة ، وكأنه يَرُوم برهانا على وجوب كونها بالموضع الذى هى به ، وفضله على سواه ، وتكلم على حروف اسمها ، من جهة تناسب أعداد الحروف ، مما الناظر فيه مُخَيَّر فى نسبه إلى العِرفان أو الهَذَيان .

توفى بمالقة فى أُخريات صفر من عام خمسين وسبعماية .

على بن أحمد بن محمد بن يوسف بن مروان بن عمر الغسانى

من أهل وادى آش ، وروى وتردد إلى غرناطة ، يكنى أبا الحسن .

حاله

كان فقيها حافظا ، يقظا ، حسن النظر ، أديبا ، شاعرا مجيدا ، كاتبا بليغا ، فاضلا .

مشيخته

روى عن أبي اسحق بن عبد الرحيم القيسى ، وأبي الحسن طاهر ابن يوسف ، وأبي العباس الخرّوبى . وأبي القاسم بن حُبَيش ، وأبي محمد عبد المنعم بن الفرَس الغرناطى ، ومحمد بن علي بن مَسَرّة .

وروى عنه ، أبو بكر بن عبد النور ، وأبو جعفر بن الدلال ، وأبو عبد الله بن أحمد المذحجى ، وأبو سعيد الطّراز ، وابن يوسف وابن طارق ، وأبو على الحسن بن سمعان ، وأبو القاسم بن الطّيْلسان .

تواليفه

صنّف فى شرح « الموطأ » مُصَنّفا سماه « نهج المسالك للتفقه فى مذهب مالك » فى عشرة مجلدات . وشرح صحيح مُسْلم وسماه « اقتباس السراج فى شرح مسلم بن الحجاج » . وشرح تفريع ابن الجلاب ، وسماه « الترصيع فى شرح مسائل التفريع » . وصنّف فى الآداب ، منظوماته ورسايله ، وهى شهيرة ، شاهدة بتَبْريزه وتقدّمه . وله نظم شمايل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رسالة بديعة ، تشتمل على نظم ونثر ، بعث بها إلى القبر الشريف . وله كتاب « الوسيلة إلى إصابة المعنى فى أسماء الله الحسنى » .

شعره

من شعره فى « الوسيلة » ، وقد ضمّن كل قطعة أو قصيدة إسماً من أسماء الله تعالى ، فمنها قوله فى اسم الله سبحانه :

قلْ الله نستفتح من أسمائه الحسنى ... بأعظمها لفظا وأعظمها معـنى
هو الله فادْعُ الله بالله تقـترب ... لأقرب قُربى من وريدك أو أدنى
وآمله مضطرا وقِف عند بابـه ... وقوف عزيز لا يُصَدُّ ولا يُثنى
بباب إلّه أوسع الخلق رحمة ... فلله ما أولى أبرَّ وما أحـنى
وقدِّم من الإخلاص ثم وسيلة ... تَنَلْ رتبة العليـا والمقصد الأسنى
أمولاى هل للخلق غيرك مفضل ... يصرح عن ذكراه فى اللفظ أو يُكنى
ببابك مضطر شكا منك فَقْـره ... لأكرم من أغنى فقيرا ومن أقْنَى
وللفضل والمعروف منك عوايد ... لها الحمد ما أدنى قطوفاً وما أهْنى
فمنها لك الإنعام دأبا خوالـدا ... تفانى بها الأيـام طُرًّا ولا يفنى

وفاته : توفى شهيدا فى ربيع الآخر سنة تسع وستماية [١] .

على بن صالح بن أبى الليث الأسعد بن الفرج بن يوسف

طُرْطُوشى ، سكن دانِية ، يكنى أبا الحسن ، ويعرف بابن عزِّ الناس .

حاله

كان عالما بالفقه ، حافظا لمسايله ، متقدِّما فى علم الأُصول ، ثاقب الذهن ، ذكى الفؤاد ، بارع الاستِنْبَاط ، مُسَدَّد النظر ، متوقِّد الخاطر ، فصيح العبارة ، ذا خطٍّ مروض .

---

(١) يبدو بمراجعة هذه الترجمة أن هناك ، حسبما لاحظ الناسخ فى ترجمة (على بن أحمد بن محمد بن يوسف بن عمر الغسانى) الواردة فى لوحة 327 ، أن هناك شبهاً كبيراً بينها وبين الترجمة المشار إليها ، سواء فى اسم المترجم له ، أو البلد أو المشيخة أو التأليف . بيد أن هناك فى نفس الوقت بعض فروق ، أولا فى الإسم ثم فى التأليف . ومن جهة أخرى فإنه لم يرد فى الترجمة الأولى ذكر لتاريخ المولد أو الوفاة ، حتى يمكن القطع بالتطابق بين الترجمتين .

من روى عنه : روى عنه أبو بكر أسامه بن سليمن ، وسليمن بن محمد ابن خلف ، ويحي بن عمر بن الفصيح .

دخوله غرناطة

قالوا ، واستخلصه الأمير أبو زكريا يحي بن غانية[1] أيام إمارته ببلنسية لمشهور معرفته ونباهته ، ثم سار معه إلى قرطبة ، ولازمه ، إلى أن توفى أبو زكريا بن غانية ، بغرناطة سنة ثلاث وأربعين . فانتقل إلى شرق الأندلس ، واستقر بدانية .

تواليفه : وله مصنفات منها كتاب العُزلة ، ومنها شرح معانى التحية.

ولد بطرطوشة سنة ثمان وخمسماية ، وتوفى بدانية . قتل مظلوما بإذن ابن سعد الأمير فى رمضان سنة ست وستين وخمسماية .

على بن أبى جَلاَّ المكناسى

يكنى أبا الحسن .

حاله

كان شيخا ذكيا ، طيب النفس ، مليح الحديث ، حافظا للمسايل الفقهية ، عارفا لها ، قايما على كتاب المُدَوَّنة ، تفقّه بالشيخ أبى يوسف الجَزُولى ، وعليه اجتهد فى مسايل الكتاب . وكان مضطلعا بمشكلاته . حسن المذاكرة ، مليح المجلس أنيسه ، كثير الحكايات ، إلا أنه كان يحكى غرايب شاهدها تملُّحا وأُنسا ، فينمِّقها عليه الطلبة ، وربما تعدوا ذلك إلى الافتعال على وجه المزاح والمداعبة ، حتى لجَمَعوا من ذلك كثيرا

---

(١) سبق التعريف به (راجع المجلد الأول من الإحاطة ص ٩٧ حاشية . والمجلد الثانى ص ٧١ه حاشية) .

فى جزء سموه «بالسُّلك المحلّا فى أخبار ابن أبى جلّا». فمن ذلك ما زعموا أنه حدَّث بأنه كانت له هرَّة ، فدخل البيت يوما ، فوجدها قد بلت أحد كفيها ، وجعلته فى الدقيق حتى علق به ، ونصبته بإزاء كوة فأر فى الجدار ورفعت اليد الأخرى لصيده ، فناداها باسمها ، فردت رأسها ، وجعلت أصبعها فى فمها على هيئة المشير بالصمت . وأشباه ذلك كثير .

وفاته : فى حدود ستة وأربعين وسبعماية .

على بن أبى بكر بن عبد الرحمن بن على بن سمحون الهلالى

يكنى أبا الحسن .

حاله

كان شيخا جليلا ، فقيها ، عارفا ، نبيلا ، نبيها ، ذا مروءة كاملة ، وخُلُق حسن ، من بيت حَسب وعلم ودين . قال أبو القاسم الملاّحى ، حدثنى صاحبنا الفقيه الخطيب أبو جعفر بن حسان ، قال كنت أجاوره فى بعض أملاكى ، وكان له مِلْك يلا صقنى ، أتمنى أن أكتسبه ، فينتظم لى به ما هو مفترق ، فوافقته ذات يوم فى القرية ، فسألته المعاوضة به ، وخيَّرته فى مواضع فى أرضى ، فضحك منى ، وقال لى أنظر فى ذلك إن شاء الله . ثم إنه وجَّه لى بعد ذلك بأيام يسيرة ، بعقد يتضمن البيع وقبض الثمن منى ، فخجلت منه ، وراودته فى أخذِ الثمن فأبى وقال لى هذا قليل فى حقِّك ، وكان قد لقى شيوخا أخذ عنهم ، وكانت له كتب كثيرة .

وفاته : توفى بالمُنكَّب صبح اليوم السادس من رمضان عام ستة

وتسعين وخمسماية . ولست أحقق أهو القريب أو سلفه ، وعلى كلا التقديرين ، فالفضل حاصل .

على بن محمد بن عبد الحق الزويلى[1]

يكنى أبا الحسن ، ويعرف بالصُّغَيِّر ، بضم الصاد وفتح الغين والياء المشددة

حاله

من « المؤتمن »[2]. كان هذا الرجل قيما على التهذيب للبرادعى ، حفظا وتفقها ، يشارك فى شىء من أصول الفقه ، يطرِّز بذلك مجالسه ، مُغْرِبًا به بين أقرانه من المدرسين فى ذلك الوقت ، لخلُوِّهم من تلك الطريقة بالجملة . حضرت[3] مجلس إقرايه ، وكان ربْعةً آدم اللون ، خفيف العارضين ، يلبس أحسن زى صنعة ، وأحسن ما فيه ليس بحسن . وكان يدرس بجامع الأصدع من داخل مدينة فاس ، ويحضر عليه نحو مائة نفس ، ويقعد على كرسى عال ليسمع البعيد والقريب ، على انخفاض كائن فى صوته ، حسن الإقراء ، وقورا فيه ، سَكُونا ، مثبتا ، صابرا على هجوم طلبة البربر ، وسوء طريقتهم فى المناظرة والبحث ، وكان أحد الاقطاب الذين تدور عليهم الفتوى أيام حياته ، تَرِد عليه السؤالات

---

(١) هكذا وردت فى الزيتونة . ووردت فى الإسكوريال (المزروالى) . والأولى أرجح . وهى نسبة إلى قبيلة بنى زروال البربرية .

(٢) سبق التعريف بهذا الكتاب (راجع المجلد الثالث من الإحاطة ص ١٩٥ حاشية) .

(٣) هذا القول مما يلفت النظر لأن المترجم له توفى حسبما ورد فى آخر ترجمته سنة ٧١٩ هـ ، وقد ولد ابن الخطيب سنة ٧١٣ هـ ، ومن جهة أخرى فإنه لم يزر فاس لأول مرة إلا فى سنة ٧٥٥ هـ ، فى عهد السلطان أبى عنان ، ويحق لنا أن نتساءل كيف اتفق مع ذلك أن يحضر مجلس قراءة هذا الفقيه ، فى فاس ، فى هذا التاريخ المبكر

من جميع بلاد المغرب ، فيحسن التوقيع على ذلك . على طريقة من الاختصار وترك فضول القول . وُلّى القضاء بفاس . قدّمه أبو الربيع سلطان المغرب وأقام أوده ، وعضده ، فانطلقت يده على أهل الجاه ، وأقام الحق على الكبير والصغير ، وجرى من العدل على صراط مستقيم . ونُقم عليه اتخاذ شمّام يستنشق على الناس الخمر ، ويحق أن يُنتقد ذلك .

مشيخته

أخذ عن الفقية راشد بن أبي راشد الوليدى وانتفع به ، وعليه كان اعتماده . وأخذ عن صهره أبي الحسن بن سليم ، وأبي عمران الجَوْرمانى ، وعن غيرهم . وقَيَّدت عنه بفاس على التهذيب وعلى رسالة أبي زيد ، قيّدها عنه تلاميذه وأبرزوها تآليفا كأبي سالم بن أبي يحيى .

وفاته

وفاته يوم الثلاثاء السادس لرمضان عام تسعة عشر وسبعماية ، ودخل غرناطة لما وصل رسولا على عهد مستقضية رحمهما الله .

على بن محمد بن على بن محمد بن يحيى بن عبد الله بن يحيى بن عبد الله بن يحيى الغافقى

سَبْتى سارى الأصل ، انتقل منها أبوه سنة اثنتين وستين وخمسماية ، يكنى أبا الحسن ، ويُشْهَر أهل بيته فى سارة بنى يحيى .

حاله

من « التكملة » . كان محدثا راوية مُكْثرا ، عدلاً ثقة ، ناقدا ، ذاكرا للتواريخ وأيام الناس ، وأحوالهم وطبقاتهم ، قديما وحديثاً ، شديد العناية بالعلم ، والرغبة فيه ، جاعلا الخوض فيه ، مفيداً ومستفيداً ، وظيفة

عمره ، جمّاعة للكتب ، منافساً فيها ، مغاليا فى أ ثمانها،وربما أعمل الرحلة فى التماسها ، حتى اقتنى منها بالإبتياع والإنتساخ كل عِلْق نفيس . ثم انتقى منها جملة وافرة فحبّسها فى مدرسته،التى أحدثها بقرب باب القشتيو، أحد أبواب بحر سبتة ، وعين لها من خِيار أملاكه ، وجيِّد رباعه ، وقفاً صالحا . سالكا فى ذلك طريقة أهل المشرق ، وقعد بها بعد إكمالها لتروية الحديث وإسماعه ، فى رجب خمس وثلاثين وستماية ، وكثّر الأخذ بها عنه ، واستمر على ذلك مدة . وكان سَرِيَّ الهمة ، نزيه النفس، كريم الطبع ، سَمْحا ، مؤثرا ، مُعانا على ما يصدر عنه من المآثر الجليلة ، ونبل الأغراض السنية ، بالجدة المتمكنة ، واليسار الواسع . وكان سُنياً ، مُنافرا لأهل البدع ، مُحبا فى العلم وطلابه ، سمحا لهم بأعلاق كتبه ، قوى الرجاء فى ذلك . ومما يؤثر عنه من النزاهة ، أنه لم يباشر قط دُنيرا ولادرهما ، إنما كان يباشر ذلك وكلاؤه اللايذون به .

مشيخته

روى عن أبوى الحسن أبيه والتجيبى ، وأبى الحسن بن عطية بن غازى ، وأبى عبد الله محمد بن عيسى ، وابن عبد الكريم ، وابن على الكتّانى ، وأبى إسحق الشُقورى ، وأبوى بكر بن الفصيح ، ويحيى بن محمد بن عطف البوريني ، وأبى الحسن بن خروف النحوى ، وابن عُبَيْدس ، وابن جابر ، وابن جبُير ، وابن زَرْقون، وابن الصايغ ، وأبى بكر بن أبى رُكب ، وأبى سليمان بن حوط الله ، وأبى العباس القوراني ، وأبى القاسم عبد الرحيم ابن الملجوم ، وأبى محمد الحِجرْى وأكثر عنه ، وابن حوط الله ، وابن محمد بن عيسى التّادلى ، وعبد العزيز بن زيدان ، ويَشْكر بن موسى ابن الغزلى هؤلاء ، وأخذ عنهم بين سماع وقراءة ، وأكثرهم أجازه أو

كتب إليه مُجيزا . ولم يلقه أبو جعفر بن مضاء ، وأبو الحسن بن القطان ونجبه ، وأبو عبد الله بن حماد ، وابن عبد الحق التِّلمسانى ، وابن الفخار ، وأبو القاسم السهيلى ، وابن حبيش ، وأبو محمد عبد المنعم ابن الفرس . واستجاز بآخرة مكثرا من الاستفادة ، أبا العباس بن الرومية ، فأجاز له من إشبيلية .

من روى عنه : روى أبو بكر أحمد بن حميد القرطبي ، وأبو عبد الله الطَّنجالى ، وابن عياش ، وأبو العباس بن على الماردى ، وأبو القاسم عبد الكريم بن عمران ، وأبو محمد عبد الحق بن حكيم . وحدث بالإجازة عنه ، أبو عبد الله بن ابراهيم البكرى العباسى .

محنته ودخوله غرناطة

غرَّبه أمير سبتة اليانشتى الملقب بالواثق بالله[1] . غاصًّا به لجلالته وأهليته ، وكونه قد عُرضت عليه فأباها ، فدخل الأندلس فى شعبان عام أحد وأربعين وستماية ، فنزل ألمرية وأقام بها إلى المحرم من سنة ثمان وأربعين ، وأخذ عنه بها عالم كثير . ثم انتقل إلى مالقة فى صفر من هذه السنة ودخل غرناطة ، فأخذ عنه جميع طلبتها إلا النادر .

قال الأستاذ أبو جعفر الزبير ، وقرأت إذ ذاك عليه ، وكان يروم من مالقة ، الرجوع إلى بلده ، ويحوم عليه ، فلم يُقض له ذلك ، وأقام بها يؤخذ عنه العلم ، إلى أن أتته منيَّته.

مولده : بسبتة يوم الخميس لخمس خلون من رمضان إحدى وسبعين وخمسماية .

---

(١) وردت فى الاسكوريال (الياشتى) وهو تحريف . وهو أبو العباس أحمد بن محمد اليانشتى أمير سبتة وقد ولاه أهلها عليها سنة ٦٣٠ هـ ، وتسمى بالموفق بالله (وليس الواثق بالله) ، واستمر فى حكمها حتى سنة ٦٣٥ هـ ، ثم خلعه أهلها ، وبايعوا الخليفة الموحدى الرشيد .

وفاته : توفى بمالقة ضحوة يوم الخميس لليلة بقيت من رمضان تسع وأربعين وستماية. نفعه الله بشهادة الموت غريقا .

على بن عبد الله بن محمد بن يوسف بن أحمد الأنصارى

فاسى المولد ، أصله منها قديما ، ومن مَراكُش حديثا ، يكنى أبا الحسن ويعرف بابن قطْرال.

حاله

كان ريان من الأدب ، كاتبا بليغا دمث الأخلاق ، لين الجانب ، فقيها حافظا ، عاقدا للشروط ، مقدما فى النظر فيها ، كتب طويلا عن قاضى الجماعة بمراكش ، أبى جعفر بن مضاء ، ثم عن أبى القاسم بن بقى ، وأسنّ ممتعا بحواسه .

مشيخته

روى عن أبوى بكر بن الجد ، وابن أبى زمنين ، وأبى جعفر بن يحيى ولازمه كثيرا . وأبى الحجاج بن الشيخ ، وأبوى الحسن بن كوثر وتجبه ، وأبى الحسن يحيى بن الصائغ ، وأبى خالد بن رفاعة ، وأبى عبد الله بن حفص ، وابن حميد ، وابن زرقون ، وابن سادة الشاطبى ، وابن عروس ، وابن الفخار ، وأبى العباس ، وابن مضاء ، ويحيى المجريطى ، وأبى القاسم بن بقى ، وابن رشد الوراق ، وابن سمحون ، وابن غالب ، وابن جمهور ، وابن حوط الله ، وعبد الحق بن بونة ، وعبد الصمد . وروى عنه إبناه أبو عبد الله وأبو محمد ، وأبو عبد الله بن الأبار ، وأبو محمد بن بَرْطَلة ، وأبو محمد بن هارون الطائى ، وأبو يعقوب بن عقاب .

قال ابن عبد الملك ، وحدثنا عنه من شيوخنا أبو الحجاج بن حكم ، وأبو الحسن الرعينى ، وأبو الطيب صالح بن شريف ، وأبو القاسم الغَزَفى .

محنته

وامتُحن بالأَسر ، وهو قاض بـأُبَّدة ، حين تغلب العدو الرومى عليها أثر وقيعة «العقاب» [1] وذهب لأَجل ذلك أصول سماعه ، وافتُكَّ بمشاركة الوزير أبي سعيد بن جامع ، ويسَّر الله عليه ، فثاب جاهه ، واستقام أمره ، وقدِّم للقضاء بمواضع نبيهة .

دخوله غرناطة

قال ، دخل غرناطة ، وأقام بها ، وقرأ على أبي محمد عبد المنعم بن الفرس ، وأبي بكر بن أبي زمنين ، وأبي عبد الله بن عروس .

ولد بفاس سنة ثنتين وستين وخمسماية . وتوفى عفا الله عنه يوم الإثنين لإحدى عشرة خلت من جمادى الأُولى عام أحد وخمسين وستماية بمراكش .

«إنتهى اختصار السفر العاشر بحمد الله تعالى يتلوه ،
ومن السفر الحادى عشر ترجمة الطاريين فى ترجمة
العمال والأثرا . والحمد لله رب العالمين»

---

(١) موقعة العقاب هى الموقعة العظيمة الحاسمة التى وقعت بين جيوش اسبانيا النصرانية التى يقودها ملوك قشتالة ونافار وأراجون، وبين الجيوش الموحديه والأندلسية بقيادة الخليفة محمد الناصر ولد الخليفة يعقوب المنصور ، فى هضاب جبال الشارات (سيرا مورينا) فى ١٥ صفر سنة ٦٠٩ هـ (٦يوليه سنة ١٢١٢م) على مقربة من شمال غربى مدينة أبدة . وقد سميت بموقعة العقاب (جمع عقبة) لوقوعها بين التلال والربى المائلة . وسميت لذلك بالاسبانية موقعة Las Navas de Tolasa وقد انتهت بوقوع الهزيمة الفادحة بالجيوش الموحدية والأندلسية ، وفناء معظمها ، وكانت بداية لانحلال سلطان دولة الموحدين . راجع فى تفاصيل هذه الموقعه العظيمة كتابى : عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس القسم الثانى ص ٢٨٢ – ٣١٧ .

ومن السِّفر الحادى عشر من ترجمة الطاريين
فى ترجمة العمال والأثرا

عمر بن على بن غفرون الكلبى

من أهل مُنْتِفريد .

حاله

كان شيخاً مُخْشَوْشِن الظاهر بَدَوِيه ، سريع الجواب ، جَلِداً على العمل ، صليباً وقَاحاً . له ببلده نباهة ، وخصل من طلب وخطٍّ وحساب . أَمَّ ببلده ، وانتقل إلى الحضرة عند انتزاء ثغره ، وداخل السلطان فى سبيل استرجاعه ، فنشأت له غمامة رزق ببابه ، وأقلّته هضبة حظوة ، ناطت به ديوان الجيش مدة أيام السلطان ، ووُلِّىَ بعده خُططا نبيهة . ثم التأثت حاله وأسنّ ، ومات تحت خمول .

وجرى ذكره فى «الإكليل» بما نصه : شيخ خَدَم ، قام له الدهر فيها على قَدَم ، وصاحب تعريض، ودهاءٍ عريض ، وفايزٌ من الدولة بأَيادٍ بيض ، خدم الدولة النصرية ببلده عند انتزاءِ أهله، وكان ممن استنزلهم من حَزْنِه إلى سهله ، وحكَّم الأمر الغالبى فى يافعه وكهله ، فاكتسب حظوة أَرْضَته ، ووسيلة أَرْهَقته وأَمضّته ، حتى عظم ماله ، واتسقت آماله . ثم دالت الدول ، ونكرت أيامه الأُول ، وتقلب من يجانسه ، وشقى بكل من كان ينافسه ، فجفّ عوده ، والتأَثَتْ سعوده ، وهلك والخمول يطلبه ، والدهر يقُوتُه من صُبابة حرث كان يستغله.

شعره

وله شعر لم يثقفه النظر ، ولا وَضَحت منه الغُرر. كتب للسطان أمير المسلمين مُنْفق سوق خدمته ومتغمده بنعمته ، يطلب منه تجديد بعض عنايته :

يامِلكا ساد ملـوك الورى في الحال أو فى الأعصر الخالية
العبد لا يطلب شيئا سوى تجديد خطٍّ يـدك العالية

ومن شعره يخبر عن وداده ، ويعلن فى جناب الملوك الغالبيين بحسن اعتقاده :

حُبُّ الملوك من آل نصر دِينى ألْقى بـه ربِّى بحسن يقينى
هو عُدَّتى فى شدَّتى وذخيرتى وبـه يتحسَّبنى غدا ويَقين
حتى أبى الحشر لم أخـدم سوى أبوابهم بوسيلة تكفين
أرجو نفاد العُمْر فى أيـامهم من تحت ستر رعاية ترضِين
إن كان دهرى فى نفادى بعدهم فالله عـز وجـل لا يُبقْين

وسَلِم فى أيام خموله ، وانْغَلق على المتغلب على الدولة أبى عبد الله بن المحروق . وقد احتقره ببابه ، وأعرض عن جوابه . فكتب إليه ، ولم يرهب مالديه :

يـامن سُول وغـدا فى كل يـوم مـرارا
أرْدُدْ على سـلامى ولا تـدعه احتقـارا

وفـاته

قال شيخنا الكاتب ، أبو بكر بن شبرين رحمه الله ، وفى ذى حجة من عام أربعة وأربعين وسبعمائة توفى الفقيه أبو على بن عفرون من أهل مُنْتفريد من حصون براجلة غرناطة . قدم قديما بالباب السلطانية فى تنفيذ واجب

العسكر الأندلسى وإشراف الحضرة وحفازتها . وكان ميمون النقيبة ، وجها فى الناس فاضلا، رحمه الله .

على بن يحيى الفزارى

من أهل مالقة ، بربرى النسب فَزارِيه . يكنى أبا الحسن ، ويعرف بابن البربرى .

حاله

كان من أماثل طريقته عدلا ، وعفافا ، وفضلا ، لين العريكة ، دَمث الأخلاق ، حسن الخط ، جيد الشعر ، تَغْلب عليه السلامة والغفلة ، تصرف فى إشراف مالقة وسواها عمره ، محمود الطريقة ، حسن السيرة . ومدح الملوك والكبراء .

شعره

مما خاطبنى به قوله :

لِبابِـك أَمَّ الآملـون ويمموا ... وفى ساحَتَى رحماك حطُّوا وخيَّم

ومن راحَتَى كفيَّك جدواً تهمى ... فتروى عطاش من نداك وتنعم

وأنت لما رامُوه كعبة حَجِّهم ... إذا شاهدوا مرآك لبُّوا وأَحْرَم

يطوفون سَبْعاً حول بابك عندما ... يلوح لهم ذاك المقـامُ المعظَّم

فيُمْناك يُمن الرعايا ومنَّـةٌ ... ويُسْراك يُسراً للعُفاة وَمغْنم

ولُقياك بِشر للنفوس وجنَّـة ... تزقُّ بها ورْق الْمنا وترنَّم

فيا واحدَ الأَزمان علْماً ومَنْصبا ... ومن به الدنيا تروق وتبسم

ومَنْ وجهه كالبدر يُشْرق نوره من جوده كالغَيث بل هو أكرم
ومَنْ ذكرُه كالمسك فُضَّ ختامه وكالشمس نورا بشره المتوسَّم
لقد حُزْت خَصل السَّبق غيرمُعاند فأنت على أهل السباق مُقَدَّم
حويت من العلياء كل كريمة بها الروض يُندى والرُّبى تتَبسَّم
وباهيت أقلام المقام براعة فلا قلمٌ الاّ يرَاعك يخـدم
وإذا فاخر الأمجاد يوما فإنما لمجدك فى حال الفخار يُسلم
وإن سكتوا كنتَ البليغَ لديهم يعبِّر عن سر العُلى ويُتـرجم

ومنها :

فياصاحِبَيْ نجْواى عُوجا برامَةِ على رَبْعه حيث النَّدى والتَّكرم
وقـولا لـه ببابك يـرتجى قضاءُ لُبانات لـديك تتمم
وليس له إلا عُلاك وسيـلة ولا شيئ أَسْمى من علاك وأعظم
فجد بالذى يرجوه لمنِّك فماله كعقدٍ ثمين من ثنايك يُنظم
بقيتَ ونجم السَّعد عندك طالع يضئ له بدرٌ وتشرق أنْجـمُ

وقال مراجعا القاضى أبا عبد الله بن غالب رحمه الله :

وما كنتُ عن ذكر الأحبَّة ساليا ولا عن هوى بيض الدِّما برغيب
فلما أتتنى رُقعـة بُلْبُليَّـة شَغَلت بها عن منزلٍ وحبيب
وقبَّلتها ألفـاً وقلـت لها أنْعِمى صباحاً ومَمسْى بالقبول وطيب
فيا حسن خطٍّ جاء من عند بارع ويا سحر لفظٍ من كلام أديب
وإنَّ قريضاً لم يُحكه ابن غالب لخلْو من الآداب غيرُ عجيب

وفاته : بمالقة فى الطاعون عام خمسين وسبعمائة .

الزهاد والصلحاء والصوفية والفقراء

عتيق بن معاذ بن عتيق بن معاذ بن سعيد بن مقدم بن سعيد بن يوسف بن مقدم اللخمى

من أهل غرناطة يكنى أبا بكر ، الشيخ الصوفى ،

حاله

هذا الرجل فذ الطريقة فى الخصوصيّة والتخلّى ، وإيثار الانقطاع والعُزلة ، طُرفة فى الوقار والحشمة . نشأ بغرناطة وطلب بها ، وكتب بألمرية عن بعض ولاة قصبتها ، وعُنى بمطالعة أقوال الصوفية ، فآثر طريقهم ، وعوّل عليه ، وتجرد وترك التسبّب ، والتزم منزله ، بحيث لايريمه إلا لصلاة الجمعة فى أقرب محالّها وإليه ، نظيف البزّة ، حسن السّمت ، مليح الترتيب والظّرف ، طيب المجالسة ، طُلَعة مُتْعة ، إخبارى ، يصل ماضى الزمان بمستقبله ، جليس مصلّى ، ومُجيل سبحة كثير الزوار ، ممن يلتمس الخير ، وينقر عن أهله ، محظوظ المجلس حفىٌّ بالوارد ، ذاكر ، مأثرة من مآثر بلده .

مشيخته

أخذ عن الخطيب الصالح ولى الله أبى عبد الله الطّنجالى ، والخطيب المحدث أبى عبد الله بن رشيد ، والأستاذ النظار أبى القاسم بن الشّاط ، والخطيب الصالح أبى جعفر بن الزيات ، والشيخ الأستاذ أبى عبد الله بن الفخار الأرْكشى نزيل مالقة ، والوزير الراوية أبى عبد الله ابن ربيع الأشعرى . والعدل الراوية أبى الحسن بن مستقور [1] ، والأستاذ المقرى أبى جعفر الجزيرى الضرير ، والخطيب أبى عبد الله بن الخشاب ،

---

(١) وردت فى الإسكوريال (مسمور) وهو تحريف والصواب ما أثبتناه .

والخطيب المقرى أبى إسحاق بن أبى العاصى ، والشيخ والمحدث أبى تمام غالب بن حسن بن غالب الجهارى ، والقاضى المُسِن أبى جعفر الشاطبى ، والقاضى المحدث أبى المجد يوسف بن الحسن بن أبى الأحوص ، والأستاذ المحدث أبى القاسم بن جابر ، وأخيه المحدث أبى جعفر ، والقاضى أبى جعفر بن أبى جبل ، والأستاذالصوفى أبى محمد بن سلْمون ، والشيخ الشريف أبى الحسن على بن جمرة بن القاسم الجهنى ، والأستاذ المقرى أبى عبد الله بن بيبش العبدرى ، والشيخ المكَتِّب أبى عمرو عبد الرحمن بن يُشت ، والشيخ الراوية المحدث الرحال أبى عبد الله بن جابر الواداشى الملقب من الألقاب المشرقية بشمس الدين ، والخطيبين أبوى الحسن بن فرحون ، وابن شعيب ، والقاضى أبى الحسن البلوى ، والأستاذ المقرى [1].

محنته

ناله امتحان من بعض القضاة ببلده حَمْلاً عليه ، وإنكارا لما امتاز به من مثلى الطريقة ، أداه إلى سجنه ، ومنع الناس عن لقايه . وهو الآن بحاله الموصوفة ، قد ناهز السبعين تمر [الناس] [2] تلتمس بركته ، وتغشى لطلب الدعاء خلْوته .

على [3] بن على بن عتيق بن أحمد بن محمد بن عبد العزيز الهاشمى

من أهل غرناطة ، ويعرف بالقُرَشى .

---

(١) هكذا وقفت « المشيخة » عند هذه الكلمة ولم يرد بعدها شيء .

(٢) اضفنا هذه الكلمة ليستقيم السياق .

(٣) وردت فى الإسكوربال (عمر) . ونرجح أن ذلك سهو من الناسخ لانها وردت ضمن قائمة (العليين) ومن جهة أخرى فقد وردت فى الزيتونة على وهو ما يؤيد هذا الفرض .

حاله

كان رحمه الله على طريقة مُثلى حياء، ووقارا وصمتا، وانقباضا وتخلُّقا وفضلا ، عاكفا على الخير ، كثير الملازمة لكسْر البيت ، مكباً على المطالعة ، مؤثرا للخلوة ، كلفا بطريق الصوفية . كتب الشروط لأول أمره ، فكان صَدْراً فى الإثبات ، وعلما فى العدول ، إلى لين الجانب ، ودماثة الخلق ، وطهارة الثوب ، وحسن اللقاء ، ورجوح المذهب ، وسلامة الصدر. قيد الكثير ، ولقِى فى تَشرِيقه أعلاما أخذ عنهم . وتقدَّم خطيبا وإماما بالمسجد الأعظم فى غرناطة ، عام أحد عشر وسبعماية ، واستمرت حاله ، إلى حين وفاته ، على سنن أولياء الله الصالحين .

مشيخته

قرأ على الاستاذ أبى جعفر بن الزُّبير ، ولازمه وتأدّب به ، وتلا عليه بالقراءات السبع ، وسمع كثيرا من الحديث ، وعلى الخطيب الولى أبى الحسن بن فضيلة ، والشيخ الخطيب أبى عبد الله بن صالح الكنانى . سمع عليه الكثير . قال أنشدنى الخطيب أبو محمد بن بَرْطلة :

أسْلَمنى للبلاء وحيــداً | من هو فى مُلْكه وحيــد
قضا علىَّ الفناء حتمــا | فلم يكن عنه لى مَحيــد
وكيف يبقى غريق نــزى | فذاتــه أولا صعيــد
يعيد أحــواله إليــه | من نعتَه المبْدِى المعيــد

وأخذ عن الشيخ الراوية المحدث أبى محمد بن هرون الطابى ، والشيخ الراوية المعمر أبى محمد الخلاسى ، والشيخ الشريف تاج الدين أبى الحسن العرامى ، والشيخ المحدث الأمام شرف الدين أبى محمد عبد المؤمن الدمياطى ، والشيخ رضىّ الدين الطبرى ، والمحدث الحافظ

فخر الدين التودرى الميكالى . قال ، وأنشدنى من لفظه بالحرم الشريف لشيخه الإمام أبى الحسن الخزرجى :

عن أهَيل المنحنى لا أصبر فاعذِلونى فيهم أو فاعذروا
هم أحباب وإن هم عذَّبوا ومُناى وصَلوا أم هجروا

والشيخ المحدِّث المُفْتى بالحرم الشريف رضى الدين محمد بن أبى بكر بن خليل . قال ، وأنشدنى لبعض شيوخه :

أفى كل وادٍ شاعر ومطيب وفى كل نادٍ مِنْبر وخطيب
نعم كثر الأقوام قلَّة ناقد لهم فتَساوى مُخطىء ومُصيب

والشيخ المحدث الإمام أنس الدين بن الإمام قطب الدين القَسْطلانى ، والأديب الواعظ نفيس الدين بن ابراهيم اللمطى . قال وأنشدنى إجازة عن الشيخ الإمام شرف الدين أبى الفضل السلمى المرسى من قصيدة :

إذا جيتُ ألقى عندبابك حاجبا مُحيَّاه من فرط الجهامة حالك
ومن عجيب مَغْناك جنَّة قاصد وحاجبها من دون رِضوان مالك

والشيخ الإمام تقى الدين بن دقيق العيد ، وأبى العباس بن الظاهرى ، ومحيى الدين بن عبد المنعم ، ومحمد بن غالب بن سعيد الجيَّانى ، والخطيب الجليل أبى عبد الله بن رُشيد من أهل المغرب . وكتب له الشريف أبو على الحسن بن أبى الشرف ، والعدل أبو فارس الهوارى ، وأبو القاسم بن الطيب ، وأبو بكر بن عبيدة ، وأبو إسحق الغافقى ، وأبو عبد الله الدّراج ، وأبو الحكم مالك بن المرحّل ، وأبو إسحق التِّلمسانى ، وغيرهم .

تواليفه

صنّف فى التصوف كتابا سماه «مطالع أنوار التحقيق والهداية» وكتابا

فى غرض «الشفا» العِياضى . ومن شعره ، ثبتٌ بظهر الكتاب المسمى «بالموارد المستعذبة» من تاليف شيخنا أبى بكر بن الحكيم ما نصه :

كتابك ذا من هَوته المفاخـر   سَنا وسنًا راق منه زواهـر
لقد جاء كالعِقد المنْظم ناثرا   فرايد قسٌ عنك فى ذا قـاصر
بلاغته فى القوم تشهد عندما   تشككِ فيه أنه عنك صادر
فللّه من روض أنيق غصُونه   بما تتمنا فَـزاهِ وزاهـر
فما شيته تجده فيه فـإنه   لناظره بحر بها هو زاخـر
فنُهنيكم يابنالأُلى شاع مجدهم   قيادكم مجد بذاتك آخـر
أتيت بما فيه انبتٌ حيـاة   من حَوَته على مرٍّ الدهور المقابر
وأبديت فيه سحر لفظك رائقا   تلذٌّ به الأجفان وهى سواهر
ومتّعتُ طرفى فيه لازلت باقيا   ونحا بك ربّىٍ يوم تُبلى السراير
وخصّك منى بالسلام مردّداً   عليك مدى الدنيا وماطار طاير

مولده : فى حدود سنة سبع وستينوستمايه :

وفاته : فى صفر من عام أربعة وأربعين وسبعماية . وكانت جنازته بالغة أقصى مبالغ الاحتفال، وتزاحم الناس على قبره بما بَعُد العهد به .

وممن رثاه شيخنا أبو الحسن بن الجياب فقال :

قضى الأمر يانفس اصبرى   صبر تسليم لحكم القدر
وعزاءً يا فؤادى إنه حُكْم   ملك قاهـر مُقتـدر
حكمة أُحكمت تدبيرهـا   نحن منها فى سبيل السّفـر
أجـل مقدر ليس بمستقـدم   ولا مستأخـر
أحسن الله عـزاء كل ذى   خشية لـربّه فى عمـر
فى إمامنـا التقى الخاشع   الطاهر الذات الزّكى السِّير
قُـرشى سليمن مستقى من   صميم الشَّرف المطَهَّر

يشهد الليل أنـــه دايم الذكـر طويـل السّهر
فى صلاة بعثت وفودهـا زمر المصطفى مـن مُضر
نايماً وراكعاً وساجـداً لطلوع فجـره المُنْفجر
جمع الرحمن شملنا غـداً بحبيب الله خيـر البشر
وتلقته وفـود رحمة الله تـأتى بالرّضا والبِشـر

على بن أحمد بن محمد بن عثمن الأشعرى

من أهل غرناطة يكنى أبا الحسن. ويعرف بابن المحروق

أوّليته : قد مرّذلك عند ذكر عمه وجده .

حاله

هذا الرجل شيخ الفقراء السّفّارة والمتسببة بالرّباط المنسوب إلى جدّه ، وهو مقيم الرسم ، حاجٌّ رحّال ، عارف بالبلاد ، طواف على كثير من مشاهير ما عُرف الإصطلاح . وزارتُرب الصالحين . وصحب السّفارة، حسن الشكل ، أصيل البيت ، حافظ للترتيب ، غيور على الطريقة ، محظوظ العقد ، مجانبٌ للاغمار ، منافر لأهل البدع ، مكبوحٌ عن غلو الصافنة ، أنوف ، مترفّع ، كلف بالتجلّة ، يرى لنفسه الحق ولا يفارق الحظَ ، خطيب متعاط لمواقف الإطالة ، وسرد الكثير من كلام الخطباء عن غير اختيار ، يطبق المِفصل ، ويكافى الغرض المقصود ، على شرود عن قانون الإعراب ، حسن الحديث ، طبقة للرّسم الدّنيوى ، من هذا الفن كثرة ، وحسن بزّة ، ونفاذ أمره ، ونباهة بيته ، وتعاطيا لنتايج الخَلْوة.

محنته

قبض عليه المتغلب على الدولة وأزعجه بعد الثّقاف فى المُطْبق ، إلى مَرْسى المريّة ، إتهاما بمالأة السلطان ، فامتعض له من أهل مدينة وادى آش ، وتبعهم المشيخة على المجاهرة ، فاستنقذوه ، وكاشفوا المتغلب إذ كانوا على أرقاع الخلاف عليه ، وعاجل الأمر تصير الملك لصاحبه ، فعاد الشيخ إلى حاله ، فهى معدودة عنه من أثر التصريف .

مشيخته

ومن خطه نقلت . قال ، ولدت فى اليوم الحادى والعشرين لرجب عام تسعة وسبعماية ، ولبستُ الخِرقة من يد الشيخ الفقيه الخطيب البليغ الولى الشهير ، أبى على عمربن محمد بن على الهاشمى القرشى فى أوايل ذى قعدة من عام خمسة وثلاثين وسبعماية . وحدثنى بها رحمه الله عن الشيخ الزاهد أبى محمد الخلاسى عن شرف الأيمة أبى عبد الله بن مَسْدى عن الشيخ الكبير أبى العباس بن العَريف عن أبى بكر عبد الباقى بن برال ، عن أبى عمرو الّطلمنكى ، عن أبى عمرو بن عون الله وأبى على الحسن بن محمود الجرجانى عن أبى سعيد بن الأعرابى ، عن أبى محمد سالم محمد بن عبد الله الخراسانى ، عن الفضل بن عِياض ، عن هشام بن حسّان ويونس بن عبيد ، عن أبى الحسن بن الحسن البصرى ، عن الحسن البصرى ، عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه . ثم رحلتُ إلى المغرب ، طالبا فى لقاء أهل الطريقة راغبا ، فلقيت به من أعلام الرجال جملة يطول ذكرهم ، ولا يجُهل قدرهم . ولما توجهت إلى المشرق ، لقيت به أعلاما وأشياخا كراما ، لهم طرق سُنّية ، وأحوال سَنية ، أودعت ذكرهم هذا طلبا للاختصار ، وخوفا من سآمة الإكثار ، وكان اعتمادى فيمن لقيت منهم فى أيام تجريدى

واجتهادى ، بعد إيابى من قضاء أربى ، من حج بيت الله الحرام ، وزيارة قبر النبى ، عليه الصلاة والسلام ، على من بهَدْيه أستنير ، واعتمد عليه فيمن لقيت وصحبت ، وإليه أشير سيدى الشيخ الكبير الجليل الشهير وحيد عصره وفريد دهره ، جمال الدين أبو الحجاج الكورانى جِنسا ، والتميمى قبيلة ، والكلورى مولدا ، والسهروردى خرقةً وطريقة ونسبة ، وهو الذى لقّننى ، وسلكت على يده ، وقطعت مفاوز العُزلة عنده ، مع جملة ولده . وحدثنى رضى الله عنه أنه لقّنه الشيخ الفقيه العارف أبو على الشمشرى هو والشيخ الإمام نجم الدين الإصبهانى ، والشيخ نجم الدين ، والشيخ بدر الدين الطوسى ، لقنا الفقيه محسنا المذكور ، والشيخ بدر الدين ، لقنه الشيخ نور الدين عبد الصمد النصيرى ، والشيخ عبد الصمد ، لقنه الشيخ نجيب الدين بن مرغوش الشّيرازى ، والشيخ نجيب الدين لقنه الشيخ شهاب الدين السُّهْرَوردى ، والشيخ شهاب الدين ، لقنه عمه ضياءُ الدين أبو الحسن السهروردى ، والشيخ ضياء الدين فرج الزّنجانى . والشيخ فرج الزنجانى ، لقنه أبو العباس النهاوندى ، والشيخ أبو العباس ، لقنه أبو عبد الله بن خفيف الشيرازى ، والشيخ أبو عبد الله لقنه أبو محمد رديم ، والشيخ أبو محمد لقنه أبو القاسم الجنيد ، والشيخ أبو القاسم لقنه سَرِى السَّقطى ، والشيخ سرى لقنه معروف الكَرْخى ، والشيخ معروف لقنه داود الطائى ، والشيخ دواد لقنه حبيب العجمى ، والشيخ حبيب لقنه الإمام الحسن البصرى ، والشيخ الحسن لقنه الإمام على بن أبى طالب . ولبست الخرقة من يد الشيخ أبى الحجاج المذكور بسند التلقين المذكور إلى أبى القاسم الجنيد رضى الله عنه إلى جعفر الحذا ، إلى أبى عمر الإصطخرى ، إلى شفيق البلخى ، إلى ابراهيم

ابن أدهم . إلى موسى بن زيد الراعى ، إلى أبى يس القرنى ، إلى أميرى المؤمنين عمر وعلى رضى الله عنهما ، ومنها إلى سيد الأولين والآخرين ، صلى الله عليه وسلم ، وذلك فى أوايل عام ثلاثة وأربعين وسبعماية . وقد ألّفت كتابا جمعت فيه بعض ما صدر من أورادى ، أيام تجريدى واجتهادى ، محتويا على نظم ونثر ، مُفْرغا عن كلام الغير ، إلا مقطوعة واحدة لبعض المتصوفة ، فإلى سقتها على جهة لكونها غاية فى الاحتفال وهى :

قل لمن طاف بكاسات الرضا وسَقَى العشّاق مما قـد نهل

وسميت الكتاب «بنكت الناجى ، وإشارات الراجى» . ولعل ذلك يكون اسما وافق مسماه ، ولفظا طابق معناه . وإلى ماذكرت من النكت ، أشرت بما نظمت فقلت :

فى كل واحدة منهن أسرار لا تنقضى ولها فى اللفظ أسرار

إن رمت حصر معانيها بما سَمِعَت أذناك ليس لها بالسمع إخصار

فاصحب خبيرا إنما يرضى الحجاب ستارها وكـذلك الحرُّ ستّار

ولعله يكون إن شاء الله كما ذكرته ، وأعرِّف بما أنشدته .

ولى جملة قصائد وأزجال منظومة على البديهة والارتجال ، نطق بها لسان المقال ، معربا عما وجدته فى الحال ، قصدت بها الدخول مع ذلك الفريق ، وأوْدعتُها غوامض أسرار التحقيق . فمن بعض نكت الكتاب ، ما يعجب منه ذوو الألباب ، نكتة سر الفقير ، يشير إليه بجميع الكائنات ، فلا حديث مُعجم ، ولا موجود مُبهم ، فهو إذا يتكلم دون حده وبلسان وجده ، والفقيه يتكلم فوق قدره وبلسان غيره ، وهذا ما حضرنى فى الوقت ، مع مزاحمة الشواغل ، فتصفحوا ، واصفحوا ، وتلمحوا واسْمَحوا . ولكم الفضل فى قبول هذه العجالة واليسير من هذه المقالة .

انتهى .

ومن الطاريين

على بن عبد الله النميرى الششترى

عروس الفقراء ، وأمير (١) المتجردين [وبركة الأندلس، لابس العباءة الخرفة] (٢) أبو الحسن . من أهل ششتر، قرية من عمل وادى أش معروفة (٣) . وزقاق الششترى معروف بها . وكان مجودا للقرآن ، قايما عليه ، عارفا بمعانيه ، من أهل العلم والعمل .

حاله

قال شيخنا أبو عثمن بن ليون فى صدور تهذيبه لرسالته العلمية ، الإمام الصوفى المتجرد . جال [البلاد] (٤) والآفاق . ولقى المشايخ ، وسكن الربط ، وحج حجات ، وآثر التجرد والعبادة . وذكره القاضى أبو العباس الغبرينى ، قاضى بجاية ، [فى كتابه المسمى عنوان الدراية فيمن عرف فى المائة السابعة بمدينة بجاية] (٥) وقال ، الفقيه الصوفى الصالح العابد ، أبو الحسن الششترى من الطلبة المحصلين (٦) ، والفقراء المنقطعين ، له علم [وعمل] (٧) بالحكمة ، ومعرفة بطريق الصوفية ، وله تقدم فى النظم والنثر، على طريقة التحقيق . وأشعاره

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (وإمام) .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (وبركة لابس الخرقة) .

(٣) نرجح أنها اليوم قرية Charches الإسبانية التى تقع على بعد خمسة عشر كيلو مترا من مدينة وادى آش .

(٤) هذه الكلمة زائدة فى الزيتونة .

(٥) هذه العبارة واردة فى الزيتونة . وساقطة فى الإسكوريال .

(٦) هكذا وردت فى الاسكوريال . وفى الزيتونة (المخلصين) .

(٧) الزيادة من الزيتونة

فى ذلك ، وتواشيحه ومُقَفَّياته وأزجاله ، غاية فى الانطباع . وكان كثيراً ما يُجوِّد عليه القرآن . ونظمه فى التحقيق كثير .

مشيخته

أخذ عن القاضى محيي الدين أبى القاسم محمد بن إبراهيم بن الحسين ابن سراقة الأنصارى الشاطبي ، وعن غيره من أصحاب السُّهْرَوَردى صاحب العوارف والمعارف. واجتمع بالنَّجم بن إسرايل[1] الدِّمشقى الفقير سنة خمس وستماية . قال ألفيْتُه على قدم التجرد ، وله أشعار وأذواق فى طريق القوم ، وكان من الأُمراء وأولاد الأُمراء، فصار من الفقراء وأولاد الفقراء، وخدم أبا محمد بن سَبْعين ، وتلمَّذ له . وكان الشيخ أبو محمد دونه فى السِّن ، لكن استمر[2] باتِّباعه ، وعول على ما لديه ، حتى صار يُعبر عن نفسه فى منظوماته وغيرها ، بعبد الحق بن سبعين ، وبه استدل أصحاب أبى محمد على فضله . ويقال إنه لما لقيه يُريد المشايخ ، إن كنت تريد الجنة ، فصِر إلى الشيخ أبى مدين ، وإن كنت تريد ربَّ الجنة فهلم. ولما مات الشيخ أبو محمد، انفرد بعده بالرياسة والإمامة على الفقراء والمتجرِّدين والسَّفَّارة ، وكان يتبعه فى أسفاره ما ينيف على أربع ماية فقير ، فيقسِّمهم الترتيب فى وظايف خدمته .

كراماته

قالوا ، نادى يوما ، وهو مع أصحابه فى بريَّة ، يا أحمد ، فقال أحدهم ، ومن هذا ، فقال تُسرُّون به غدا . فلما وردوا من الغد قابِس ، وجدوا أحمد قد جاء من الأَسْر ، فقال صافحوا أخاكم المُنَادى بالأَمس .

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (إسراومل)

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (استقرا)

قالوا ، ودخل عليه ببجاية . أبو الحسن بن علاّل من أمنائها ، وهو يُذكر في العلم ، فأعجبته طريقته ، فنوى[1] أن يؤثر الفقراء من ماله بعشرين دنيرا . ثم ساق شطرها ، وحبس الباقى ليزوّدهم به ، فرأى النبى صلى الله عليه وسلم فى النّوم ، ومعه أبو بكر وعمر ، فقال ادعُ لى يا رسول الله ، فقال لأبى بكر اعطِه ، فأعطاه نصف رغيف كان بيده ، فقال له الشيخ فى الغد لو أتيت بالكل ، لأخذت الرغيف كله .

تواليفه

له كتاب « العروة الوثقى فى بيان السنن وإحصاء العلوم » . وما يجب على المسلم أن يعمله ويعتقده إلى وفاته . وله « المقاليد الوُجُوديه[2] فى أسرار إشارات الصوفية » . وله الرسالة القُدْسية فى توحيد العامة والخاصة . والمراتب الإيمانية والإسلامية والإحسانية . والرسالة العلمية ، وغير ذلك .

دخوله غرناطة

دخلها ونزل برابطة العقاب ، وتكرّر إليها ، إذ بلده من عِمالتها

شعره

من ذلك قوله :

لقد تُهْت عجباً بالتجرّد والفقر ... فلم أنْدَرِج تحت الزمان ولا الدهر

وجاءت لقلبى نفحةٌ قُدْسـيـة ... فغِبْت بها عن عالم الخَلْق والأمر

طويتُ بِساط الكون والطّى نشره ... وما القصد إلاّ الترك للطىِّ والنَّشْر

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (فنودى) .

(٢) وردت فى الإسكوريال (الموجودية) .

وغمضتُ عين القلب عن غير مُطْلَق فأُلْفَيْتنى ذاك الملقب بالغَيْر

وصلتُ لمن لم تنفصل عنه لحظة ونزّهت من أعنى من الوصل والهجر

وما الوصف إلا دُونه غير أننى أُريد به التشبيه[1] عن بعض ما أدْرِ

وذلك مثل الصوت أيْقظ نايما فأبصر أمرا جلّ عن ضابط الحصر

نقلت له الأسماء تبغى بيسانه فكانت له الألفاظ سِترا على سِتر

ومن شعره أيضاً قوله فى الغرض المذكور :

من لامنى لو انه قد أبصرا ما ذقتُه أضحى به متحيّرا

وغدا يقول لصحبه إن أنتم أنكرتم ما بى أتيتم مُنكرا

شذّت[2] أمور القوم عن عاداتهم فلأجل ذاك يُقال سحر مُفترا

ومن شعره القصيدة الشهيرة ولها حكاية :

أرى طالبا منّا الزيادة لا الحسنى بفكر رمى سهما فعدّى به عُدْنا

وطالبنا مطلوبنا من وجودنا يغيب به لدى الصّعق إن عنا

تركنا حظوظاً من حضيض لحوطتنا إلى المقصِد الأقصى إلى المقصد الأسْنا

ولم نلْف كون الكون إلا توهّماً وليس بشىء ثابت هكذا ألْفينا

فرفض السِّوا فرض علينا لأننا أناس بمحو الشِّرك والشرك قد دنّا

ولكن كيف السبيل لرفضه ورافضه المرفوض نحن وما كنّا

فيا قابلا بالوصل والوقفة التى حُجبت بها اسْمع وارعوى مثل ما أبنا

تبدت لك الأوهام لما تداخلت عليك ونور العقل أورَثك الشّجَنا

وسَمَت بأنوار فهمنا أُصولها ومَنْبَعُها من أين كان فما سُمنا

وقد تحجب الأنوار للعقل مثل ما تبعد من إظلام نفس حوَت ظعنا

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى النفح (التشبيب) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال ، والنفح . وفى الزيتونة (شردت) .

وأنى دجال فى القَضِيَّة يدَّعى ... وأكمل من فى الناس لمن صدع الأمنا

فلو كان سرُّ الله يلحق هكذا ... لقال لنا الجمهور هانحن ما خِبْنا

وكم دونه من فتنةٍ وبليَّةٍ ... وكم بُهْمَةٍ من قبل ذلك قد جُبْنا

وكل مُقام لا تُقِم فيه إنه حجاب ... فجدَّ السَّير واستَنْجد العَوْنا

ولا تلتفت فى السَّير وكل ما ... سوى الله غيرٌ فاتخذ ذكره حصنا

ومهما ترى كل المراتب تُجْتلى ... عليك فحُل عنها فعن مثلها حُلنا

وقل ليس لى فى غير ذلك مطلب ... فلا صورة تجلى ولا طُرْفة تجنا

وسِرْ نحو أعلام اليمين فإنها ... سبيلٌ بها يُمْنٌ فلا تترك اليُمْنا

أمامك هَوْل فاستَمع لوصيَّتى ... عِقال من العقل الذى منه قد تُبْنا

أيام الورى بالمشكلات وقبلهم ... بأوهامه قد أهلك الخرُّ والبنَّا

محجَّتنا قطع الحِجا وهو حجْنا ... وحُجَّتُنا شلوه ها بها همْنا

يُثبتنا عند الصعود لأنه ... يَوَدُّ لأنا للصَّعيد قد أخْلدنا

تلوح لنا الأطواق منه ثلاثة ... كرآ هربن ورؤية ما قلنا

ويظهر باسمه للسِّر والنفس مُدبرا ... وعقلا وخيرا مُقْبلا عندما يُدنا

ولوح إذا لاحت سطور كتابنا ... له فيه وهو النُّون فالقلم الأدنا

وعرش وكرسى وبرج وكوكب ... وحشّى لجسم الكل فى وصفه حِرْنا

تمر خطوط الذهن عند التفاتنا ... حاطَتْه القصوى التى فيه أحضرنا

مُقْطَعٌ بالأزمان للدهر مَثَل ... يكيِّف للأجسام من نِحلته أينا

أقام دوين الدهر مَدْرة ذاته ... ونحن ونفس الكل فى بحره عُمنا

وفتَّق للأملاك جوهره الذى ... يشكِّله سرُّ الحروف فحرَّفنا

يفرق مجموع القَضيَّة ظاهرا ... ويجمع فِرَقاً من تداخله فزنا

وعدَّد شيئا لم يكن غير وَاحد ... بألفاظٍ أسمايها شتَّت المعنا

ويعرّج والمعراج منه ذواته | لتطويره العُلوى بالوهم أسرينا
فليُفِلّ سُفليا ويوهم أنه | لسُفْليّه المجهول بالذات أسبطنا
يُقدِر خصلا بعد وصل لذاته | وفَرْضُ مسافات يجدّ لها الذّهنا
يحل لها طور المغبة شكله | وإن لمعت فيه فيلحقه المَفْنا
ويلحقه بالشّرط من مُثْنَويّة | يلوح بها وهو الملوح والمبْنَا
فنحن كدُود القزّ يحصُرنا الذى | صَنعَنا بدفع الحصْر سجنا لنا منّا
فكم واقفٍ أردى وكم ساير هدًا | وكم حكمة أبْدَى وكم مُمْلق أغْنا
وتيم أرباب الهَرامِس كلهم | وحَسْبك من سُقراط أسْكنه الدّنا
وجرّد أمثال العوالم كلها | وأبْدَى لأفلاطون فى المثل الحَسَنا
وهام أرِسْطو حتى مشى من هيامه | وبثّ الذى ألقى إليه وما ضَنّا
فكان لذى القَرْنين عونا على الذى | تبدًا به وهو الذى طَلَيْنه العَيْنا
ويفحص عن أسباب ماقد سَبِعْتُم | وبالبحث غطّى العين إذ رده عَينا
وذوّق للحلاّج طُعم اتّحاده | فقال لنا من لا يُحبط به معنا
فقال له ارجع عن مقالك قال لا | شَربت مُداما كلّ من ذاقها غَنّا
وانطق للشّبلى بالوحدة التى | أشار بها لما مَحا عنده الكَوْنا
أقام لذات الصّغرى لنا حولها | يخاطب بالتوّحيد إذ رده خِدنا
وكان خطا بابين ذاتَيْن من يكن | فقيراً يرى البحر فيه قد عُمنا
فاضمت للحُسْنى تجرّيد خلقه | مع الأمر إذ صحّت فصاحته لُكْنا
تثنّى قضيبُ البان من سُكْر خمره | وكان كمثل العُمْر لكنه ثنا
وقد شذّ بالشّوذى عن ثوبه | فلم يُمل نحو أحواز ولا سكن الدّنا
وأصبح فيه السّهْرَ وَرْدى حايراً | يُصيخ لما يلقى الوجود له أُذنا
بُعمر بن الفارض الناظم الذى | تجرّد للأسفار إذ سهل الحَزنا

ولابن قَسِيٍّ خَلْعُ نَعلي (1) وجوبه ... وليس أخاً طلب من المجد قد تبنا

أقام على ساق المسرَّة نحلــه ... لمن زمن الأسرار فاستمطر المُزْنا

ولاح سَنَى برق من القُرب للسَّنى ... لنجل ابن سينا الذى ظنّ ما ظنا

وقد قلَّد الطُّوسى بما قد ذكرته ... ولكنه نحو التصوف قد حَنَّا

ولابن طُفَيْل وابن رشد تيقُّظٌ ... رسالة يقظان (2) اقتضت فتحه الجفنا

كسا لُشعيب توب جمع لذاته ... فجرَّ على حسَّاده الذَّيل والوَدْنا

وعنه طوَّق الطابي بسبط كتانه ... بلسكرة الخلاع إذا ذبَّ الوهنا

تسمَّى برفع الروح صبراً ولم ... يبل ما يهزندًّا فى المقام ولا قرنا

وباح به نجل الحر إلى عندما ... رأى كتمه ضعفا وتلويحُه غَبْنا

والأَموى النظم والنثر فى الذى ... ذكرنا وإعرابٌ كما عنه أعْرَبنا

وأظهر منه الغافقى لما خفا ... وكشف عن أطواره الغيْم والدَّجْنا

وبين أسرار العبودية التى ... عن إعرابها لم ترفع اللَّبْس واللحْنا

كشفنا غطاءً من تداخل سرِّها ... فاصبح ظهراً ما رأيتم له بَطنا

هوانا الدِّين الحق من قد تولَّهت ... لقربه أَلبابُنا ولـــه هُدنــا

فمن كان يبغي السَّير للجانب الذى ... تقدَّس لازباً خُذْه عنَّـــا

وهذه القصيدة غريبة المنزع ، وإن لم تَخْل عن شذوذ من جهة اللِّسان ، وضعف فى الصناعة ، أشار فيها إلى مراتب الأعلام من أهل هذه الطريقة . وكأنها مبنية على كلام شيخه الذى خاطبه به عند لقايه حسبما

---

(١) يشير هنا إلى كتاب « خلع النعلين » الذى وضعه الداعية المتصوف الاندلسى أحمد بن الحسين بن قسى الثائر فى أحواز شلب (بالغرب الأندلسى) ضد المرابطين سنة ٥٢٩ هـ ، ومؤسس طائفة المريدين الشهيرة .

(٢) يشير هنا إلى رسالة « حى بن يقظان » الشهيرة التى وضعها الفليسوف والطبيب الأندلسى ابن طفيل القيسى . وقد ترجم له ابن الخطيب فى المجلد الثانى من « الإحاطة » (ص ٤٧٨ — ٤٨٢) .

قدمنا ، إذ الحسنى الجّنة ، والزيادة مقام النظر ، فقوله أرى طالبا منا الزِّيادة لا الحسنى ، إشارة إلى ذلك والله أعلم . والغافقى الذى ختم به هو شيخنا أبو محمد ، وهو مرسى الأّصل غافِقية ، رحم الله جميعهم ، ونفعنا بأُولى الحَظْوة لديه .

نثره

وكلامه حسن ، ومقاصده غريبة ، رضى الله عنه ، ونفع به . كتب إليه الشيخ الصوفى أبو على بن تاذْرزْت لماسافر ولم يودِّعه ، وكان قد قال له ، أغيب عنكم أياما قلائل ، وأعود إن شاء الله فابطّأعنه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الله وحده فقط ليس إلا وصلواته على ملإه المقرب الأّعلى ، وعلى سيدهم الخاتم محمد وآله الهُداة ، وسلامُه الحقّ يخص العليم بسرِّه ، فى عالم الفرق ، ورحمته وبركاته ، من أخيه حقيقة فى العوالم الأول ،لا فى عالم العلم الحق ، من حيث هو موضوعه بحسب الإضاية ، بمنزله من مدينة بنى مدار عمرها الله وأرشدهم ، وليس إلا أنى نعتبكم عرفاً وعادةً ، لسفركم دون مُوادعة ، بخلاف سِيرتكم الأّولى من المشرق الأّقصى ، إلى المغرب الأّقصى ، وأما بكون حقيقة الأّمر الموحد فلا عتب ، بل نقرأ على الماهية سورة الإخلاص ، التى توحيدُها المحض أحاط وأحصى . ثم وعدتم أنكم ولا بّد لاتطول إقامتكم ببِجاية كلأّها الله ، إلاَّ ليال قليـ'ة العَدد ، تأّخذون فيها كتبكم وتنفصلون قافلين فى أسرع أمد . ثم ظهر غير ذلك من الإقامة إلى هذه المهلة ،التى نبا كما عندنا الزمان . وقد ورد من أناس بالتَّواتر ، أنكم ولا بد تصومون هنالك رمضان المعظم على الأّمان ، فقلنا لحظ البشريَّة الحيوانية . وعلمنا أن الأّمر ليس سراً لأّجل القضايا الحَكْمية الطَّلَبية ، والمقادير العلمية السرِّية . ولا

تتحرك ذرّة الا بإذنه ، ولا يُسل عما يفعل ، وهم يُسئلون فى دهره وزمنه ، يمحو الله ما يشاء ويثبت ، وعنده أمُّ الكتاب . ولكنا أيضاً نقرأ ، والله لايخلف الميعاد . وقد يكون غير الوفاء بالعهد فى الخلف لمصالح فيها وعد الله ، لا يخلف الله وعده ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون. يعلمون ظاهرا من الحياة الدّنيا ، والله يفعل ما يشاء . ولا تكن معترضا . فلا تلوم إلا بحسَب فَرْقنا الأول . وأما من حيث الكمالات الثّوانى والأول ، فلا لوم ولا عتب ، لرفع المثنوية ، وإحالة الكثرة والإضافة ، حتى ليس إلا الوحدة العلمية المعنوية العَليّة . وبالجملة الله معكم . ولن يَتِركم أعمالكم فإن ما يرفع العمد والعماد . قال الله ، ثم ذَرْهم فى خَوْضهم يلعبون ، وهو معكم أينما كنتم ، والله عليم بما تصْنعون. والرّغبة إلى ذاتكم الكاملة الوُجُودية ، ذات الكمالات العلمية القُدسية ، أن تعجلوا لى، إذ وأنتم مقيمون هنا لك .

وأين يجد فى عليّين غرفة وإن شُغلتم عن نسـخها

والحق لا يُشغله شأن عن شأن ، فوجّهوا إلىّ بها بعض الفقراء والإخوان ، وأنا أقسم عليك فى ذلك ياأخى وسيدى بالسّر فقط الذى يشغله أبدا سرْمدا الله فقط ، وأن تعجل لى بذلك ، وتُحيى مَوَاتى ، وتجمع أشْتاتى ، مع كلام تعتنوا لى به من كلامكم تخصُّونى به فى كرّاس مبارك ، علّمنى الله العليم الحكيم منكم سرّ علمه العظيم ، وحكمته المحيطة ، وكفانا سرّ هذه العوالم الأرضية المركبة الحَطيطة ، ونقلنا من البَسِيطة لغة إلى العوالم الرّيسة النفيسة البسيطة ، ويُرقينا به عنها إلى أن نتصل الحظّ المنفصل للتدبير بنقطته الأولى .وإن كان فى الحقيقة . ما انفصل، ويدخلها حضرة عِلمنا المحيط الوُجودى ، الذى ليس وراءها محيط

إليه يُرق ويتصل . والسلام الحقُّ محض مظهره ومجْلاه ومرآته ،ورحمة الله وبركاته .

فراجعه الشيخ أبو الحسن الشُّشترى المترجم به رضى الله عنه بما نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على النبى محمد ، المرسل بالحق لإدحاض الشَّك ، وإيضاح الغلط ، الموصل على أقرب السَّبيل للحضرة الآلهية ، ومن شَطَط المختص بجوامع الكَلم ، المبْكت لكل من موَّه وسَفْسَط ، المبعوث بكلمة الإخلاص ، التى حاصلها الله فقط ، ورضى الله عن مَظْهر الوراثة المحمدية فى كل زمان ، المتَرجم عن كَنز الوجود الذى طِلَّسمه الإنسان ، وسلام الله ورحمته على المستمع بأُذن أنيته لذلك التَّرجمان ، المُتَجوهر بمقام الإسلام والإيمان والإحسان، القارى على أخباره المنبعثة فى أرض فُرقة ، كلُّ من عليها فان ، بالمعنى الفقير الباطن ، للسَّيار الظاهر، المشير الحايم على سلب الإسمين ، الدَّاير على دايرة قاب قَوسَين . المشهور فى العالم الأول ، بأَبى على الحسين من خبر ماسية ، الوارث الطالب لذاته بها للوصل له . وهو به عنه باحث ، المنظور فى ذات كمالاته ، المنْعوُث بالوافى لا بالناكث ، المعتصم بحَبْل التحقيق ، القايل بالحق ، عبده على الشُّشترى ، ابن إفادتكم عبد الحق بن سَبعين ، أما قبل من حيث الأَصل ، ومع من حيث الوَصْل ، وبعد من حيث الفصل ، فإنى أُقسم بالبَدر إذا أَدْبَر ، والصُّبح إذا أسفَر ، أن النصاب واقع من حيث الصور ، لامن حبَّة حقيقة المظهر . فاين هذا أنت أو أنا ، أو قبل أو بعد أو هند أو دَعْد ، أو خِلْف أو وَعْد ، ولا بد من المراح فى ميدان الخطاب وبيان المُتَشابه عليكم ، المُودَع عليكم ، فى هذا الكتاب . فأَول عايق عنكم مرض أحد الأَصحاب ، ولا انفكاك عند وجود هذه القضية ، عند كل طايفة سنِيَّة ، فماظنك بالسَّبْعينية ، هذا مع وجود وعد مُبين ،

وزمان مُعينٌ . ونحن لم نُعينٌ للموضوع وقتا ، ولو عيّنا لكبر عند الله مقتاً . وإنما قلنا أيام قلايل ، ويدخل فى ذلك الجمعة والشهر والعام القابل . بل برزخ العالم وإنايه عند النحرير العاقل . ثم لوعيّنا يوما أو يومين أو جمعتين ، ولم يكن، فَقلْبُ المؤمن بين إصبعين . أما علمت أنَّ الوعد المزعوم المراد منه الذى تتضمنه، صَعقَه العمود بالبُعْد أو بالتّوانى أو بالحواس أو بالمعانى . والُمسْكر هو الجريال لا الأوانى . وأما قَضية الوداع ' فقد ارتفع بين الفقراء فيها النزاع ، ووقع من الصّوفية فى ذلك الإجماع ، أن الاجتماع من غير ميعاد ، والافتراق عن غير مَشورة ، وقول أنه من حيث المذهب لازم بالضرورة ، فإن المودع لا يخلق أن يكون من تربة الفَرس والسبع ، أو فى مقام الفَردانية والجمْع ، أو فى البَرْزخ الذىبين المقامين، المُعبّر عنه عند الصّوفية بالفناء. فإن كان فى الوَتريّة ، فلا أنت ولا أنا ، ولا مُودِع ، ولا مودَّع ، وقلّة العَتَب لهذا أَلْيقَ وأَطْبع . وإن كان فى برزخ الفنا ، فمن الُمودع هنا ، وإن كان فى الفرق هنا . وإن كان فى الفَرْق، فترك المُودع أقرب إلى الحق لألم التفرقة ، الموجود المحسوس ، المُعترض عند ذلك للنّفوس. واعلم أن الانفصال كان بالطريق عند من يرى بالانْفِصال والاتّصال ، ولا نُقْلة عند ذوى الاتّصال . وأما نَكرة عَرِفة فهى عند الشيخ أبى عبد الله التّوزرى لاعندى ، ولو كانت ما ضَنَنْت بها بحمد الله لابِحمَدى . والسلام على موضوعك ومَحْمُولك وسُلوكك ووصُولك ، وجمعك وفَرْقك ، وعبُوديّتك وحقّك ، بل على جَمْلته الصالحة ، ورحمة الله وبركاته .

وفاته

قالوا إنه لما وصل بالشام إلى ساحل دمياط ، وهو مريض مرضه الذى

توفى منه، نزل قرية هناك على ساحل البحر الرومى يُصاد فيها السمك ، وقال ما اسم هذه القرية ، فقيل الطِّينة ، فقال حَنَّت الطِّينة إلى الطينة ، ووصّى أن يدفن بمقبرة دمياط، إذ الطينة بالمَفَازة بالساحل ، ودمياط أقرب المدن إليها ، فحمله الفقراء على أعناقهم ، فتوفى بها يوم الثلاثاء سابع عشر صفر عام ثمانية وستماية ، ودفن بمقبرة دمياط .

وفى ساير الأسماء من حرف العين

الأعيان والوزراء والأماثل والكبراء

عامر بن محمد بن على الهنتاتى

رييس مُتَبَوإ قبيله من جبل درَنْ ، ومِزْوار المصامدة ، والمُطْلقة يُده على جِباية الوطن المراكُشى ، يكنى أبا ثابت .

حاله

هذا الرجل حسن الشكل ، حصيف العقل ، ثابت الجأش ، معروف الأمانة والصدق ، عفيف الفَرْج ، مؤثر للجدّ ، ماضى الحَذَر بأهل الحكم ، نزيه اليد ، مشهور بالرَّجاحة ، عين من عيون الحدود الغربية ، وبقيَّةٌ من بقايا الجلّة العِلْمية ، مُسَدَّد اللسان للإبانة عن الأغراض ، مختصر البزّة والحِلية ، متوسط الجود ، مؤثر للخصُوصية ، بعيد النظر ، سديد الرأى .

قدِمْتُ عليه بمحله من الجبل ، زايرا مُتَوَفّى السلطان أبى الحسن ، مستجيراً حِماهم ، فَبلَوْت من برّه وبر الرييس النَّدِى عبد العزيز أخيه ، ما تَقْصُر عنه همم الملوك ، وتقف دونه آمال الأشراف، تلقِّياً واحتفالا وفرشا ، وآنية ، وطعاما ، وصلة ، وانتخابا ، واحتشاما .

وألطافا ، حسبما يتضمن بُسط ذلك كتاب «الرحلة»[1] من تأليفى .

وأنشدتهم عند رحيلى ، وقد رأيت إلى ما يُبْقى الذكر ويخلِّد الآثار شِيم السادة ، ودَيْدن الرؤساء :

يا حسنَها من أربُعٍ وديـــار … أضحت لباغى الأمن دار قرار
وجبال عزٍّ لا تَذِل[2] أنوفهُـا … إلا لعزِّ الواحـــد القهّـــار
ومقر توحيد وأُسٌّ خـلافـة … آثارها تُنبى عن الأَخْبـــار
ماكنت أحسب أن أنهار النَّدى … تجرى بها فى جُملة الأنهار[3]
ماكنت أحسب أن أنوار الحجا … تَلْتاح فى قُنن وفى أحجــار
مَجّت جوانبها البرود وإن تكن … شبَّت بها الأعداءُ جَذْوة نـــار
هدَّت بناها فى سبيل وفائها … فكأنها صَرْعى بغير عُقـــار
لما توعَّدها على المجد العِـدا … رَضِيت بعَيث النار لا بالعار
عَمرَت بحِلّة عـــامر وأعزَّها … عبد العزيز بُمرْهف بتَّـــار
فرسَا رهان أحرزا قَصَب النَّدى … والبأْس فى طَلَق وفى مِضمار
ورثا عن الندب الكريم[4] أبيهما … محض الوفاء ورفِعة المقدار
وكذا الفروع تطول وهى شبيهة … بالأصل فى وَرَق وفى أثمـــار
أزْرت وجوه الصيد من هِنْتاتة … فى جوها بمطالع الأقمـــار

(١) لايوجد بين كتب ابن الخطيب كتاب خاص عنوانه «الرحلة» ولكنه يقصد بالرحلة هنا ما ورد فى أوائل كتابه «نفاضة الجراب فى علالة الإغتراب» (السفر الثانى مخطوط الإسكوريال) .من وصف لرحلته فى عمالات المغرب الغربية . وقد فقدت من هذا المخطوط الصحف الأولى التى تضم بداية الرحلة . وهى تبدأ فى النفاضة بزيارته لجبل هنتاتة وزعمائه (وفى النص المطبوع بعناية الدكتور أحمد مختار العبادى القاهرة – ص ٤٣ وما بعدها) .

(٢) وردت فى الإسكوريال (تمز) . والتصويب من نفاضة الجراب وأزهار الرياض .

(٣) هذا البيت وارد فى نفاضة الجراب وازهار الرياض ، ساقط فى الإسكوريال .

(٤) هكذا فى الإسكوريال والنفاضة . وفى أزهار الرياض (الكبير) . والأولى ارجح .

لله أي قبيلة تركت لها ... النُّظراء دعوى الفخر يوم فخار

نَصرت أمير المسلمين وملكه ... قد أسلَمته عزايم الأنصار

وآوت[1] عليًّا عند ما ذهب الرّدى ... والروعُ بالأسماع والأبصار

وتخاذل الجيْش اللهّام وأصبح ... الأبطال بين تقاعُد وفرار

كُفِرت صنائعُه فيمم دارها ... مُستظهرا منها بعزٍّ جوار

وأقام بين ظهورها لايتّقى ... وقع الردى وقد ارتمى بشرار

فكأنها الأنصار لما آنست ... فيما تقدّم غرْبة المختار

لما غدا لحظًا وهُم أجفانه ... نابَتْ شِفارهم عن الأشفار

حتى دعاه الله بين بيوتهم ... فأجاب مُمتثلا لأمر البار

لو كان يُمنع من قضاء الله ما ... خَلَصت إليه نوافذ الأقدار

قد كان يأمل أن يُكافئ بعض ما ... أولوه لولا قاطع الأعمار

ما كان يُقنعه لو امتدّ المدا ... إلاّ القيامُ بحقّها من دار

فيعيد ذاك الماء ذايب فِضّة ... ويعيد ذاك التُّرب ذَوْب نُضار

حتى تفوز على النّوى أوطانها ... من مُلكه بجلايل الأوطار

حتى يلوح على وجوه وجوههم ... أثرُ الرعاية[2] ساطعُ الأنوار

ويسوغ الأمل القصى كرامها ... من غير ما ثُنيا ولا استعصار

ما كان يُرضى الشّمسَ أو بَدر الدّجا ... عن دِرْهم فيه[3] ولا دينار

أو أن يتوّج أو يقلّد هامها ... ونحورَها بأهلّة ودَرارى

حق على المولى ابنه إيثار ما ... بذلوه من نصرٍ ومن إيثار

فلمثلها ذُخِر الجزاءُ ومثلُه ... من لا يضيع صنائع الأحرار

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفاضة (آوت) . وفى الأزهار (وارت) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال والنفاضة . وفى الأزهار (العناية) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال والنفاضة . وفى الأزهار (فيهم) .

وهو الذى يقضى الديون وبرُّه[1] ... يُرضيه فى عَلَن وفى إسـرار
حتى تحج محلّة رفعوا بها ... علمَ الوفاء لأعين النظـار
فيصير منها البيتُ بيتا ثانيا ... للطائفين إليه أىُّ بِمَـدار
تُغنى قلوب القوم عن هدى به ... ودموعُهم تكفى لرَمْى جمار
حُيِيت من دارٍ تكفّل سعيها المحمــود بالزُّلفى وعُقبَى الـدار
وضَفَت عليك من الإلــه عناية ... باكر ليلٍ فيك إثر نهـار[2]

دخوله غرناطة

دخل الأندلس ، وحلّ بغرناطة فى حدود خمسين وسبعماية ، وأقام بها أياما ، وقد أسند إليه السلطان أبو الحسن المراحل عن إفريقية حِفْظ حُرَمه وأسبابه ، فى مراكب كان استقرارها بسواحل الأندلس ، وحضر مجلس السلطان ، فراق الحاضرين مذقاه ، وضمّ لسانه لأطراف الحديث ، وحسنُ تبويبه للأغراض . ولهذا الرجل فى وطن المغرب ذكر بعيد ، وقد أمسك الأمر مرات ، على من استقر لديه من ولد السلطان ، ورتّب له الألقاب والترشيح يُغازله بذلك الوطن . وتنوعت الحال بهذا الرجل ، من بعد وفاة السلطان أبى سالم ملك المغرب ، وانحاز إليه ولده فقام بدعوته ، ورتّب له الألقاب بوطن مراكُش ، ونظر لنفسه أثناء ذلك ، فحصّن الجبل ، واتخذ به القلعة ، وأكثر الطعمة والعُدّة ، فلما حاقت بأميره الدَّبْرة ، لجأ إلى ما أعدّه ، وهو الآن يُزْجى الوقت مهادنةً تشفق عن انتزاو ، والله يهيىءُ له الخلاص من الوَرْطة ، ويتيحُ له إلى حزب السلامة الفَيْئة .

---

(١) هكذا فى الإسكوريال والأزهار . وفى النفاضة (مثله) .

(٢) وردت هذه القصيدة فى كتاب (نفاضة الجراب) مخطوط الاسكوريال رقم ١٧٥٥ الغزيرى لوحة ١ - ب و ٢ ا . وفى نفح الطيب (ج ٤ ص ٢٥) . وفى أزهار الرياض ج ١ ص ٢٩٥ - ٢٩٧ .

ومن الطارئين فى القضاة والعرباء

عاشر بن محمد بن عاشر بن خلف بن رجا[1] بن حكم الأنصارى بيّاسى[2] الأصل

حاله

كان رحمه الله سيها حافظا للمسايل ، مُفتيا بالرأى ، معروفا بالفهم والإتقان ، بصيراً بالفتوى، شُوور ببلده وببلنسية ،واستقضاه أبو محمد ابن سَمْحون على باغَة[3] أيام قضاية بغرناطة. إذ كان يكتب عنه ويلازمه ، ثم استُقْضى بمُرسية أعادها الله . وكان حافظ وقته ، لم يعاصره مثله .

مشيخته

روى عن أبيه ، وتلا بالسبع على ابن ذِروة المُرادى ، ولقى أبا القاسم ابن النحاس ، وأخذ الحديث عن أبى بحر الأسدى ، وأبى بكر بن العربى ، وأبى جعفر بن جحدر ، وأبى الحسن بن واجب وغيرهم .

مولده : بببيّاسة سنة أربع وقيل ست وثمانين وأربعماية .

وفاته : توفى بشاطِبة ، تسع وستين وخمسماية .

تواليفه

شرح المُدوَّنة مسئلة مسئلة ، بكتاب كبير سماه « الجامع البسيط ، وبغية الطالب النشيط » حشد فيه أقوال الفقهاء ، ورجح بعضها ، واحتُج له . قالوا ، وتوفى قبل إكماله .

---

(١) وردت فى الإسكوريال (مرجا) . ونعتقد أن التصويب أرجح .

(٢) بياسى أى من أهل مدينة بياسة وبالإسبانية Baeza . وقد سبق التعريف بها (راجع المجلد الثالث من الاحاطة ص ٢٣١ و ٤٠٤ حاشية) .

(٣) باغة و بالإسبانية Priego سبق التعريف بها (راجع المجلد الأول من الإحاطة ص ٥٠٩ حاشية والمجلد الثالث ص ٥٢٧ حاشية) .

عِياض بن محمد بن محمد بن عياض بن موسى اليحصبي

من أهل سَبْتَة ، حفيد القاضي العالم أبي الفضل ، يكنى أبا الفضل .

حاله

من « الصِّلة » : كان من جلة الطلبة ، وذوى المشاركة فى فنون من العلوم العقلية وغيرها ، فصيحا ، شاعرا ، لسِنا ، مُفوّها ، مِقداما ، موصوفا بجزالة وحدّة ، امتُحن بسببها . وكان مع ذلك كثير التّواضع ، فاضل الأخلاق، سريًّا ، مُشاركا ، معظّما عند الملوك ، مُشارا إليه ، جليل القدر . حضر الأندلس أيام قضاء أبيه بغرناطة ، وغير ذلك الوقت ، وجال فيها ، وأخذ بقرطبة وإشبيلية وغيرهما ، واستقر أخيرا بمالَقة ، وتأثّل بها وبجهاتها أُصول أملاك إلى ما كان له .

مشيخته

روى عن أبيه أبى عبد الله ، وعن أبى محمد بن عبد الله ، وأبى بكر ابن الحدّاد القاضي بسبتة ، وأبى القاسم بن بَشْكُوال ، وابن حُبَيْش ، وابن حُمَيد ، وأبى بكر بن بِيبش الشَّلطِيشى وغيرهم.

من روى عنه : قال الأُستاذ ، روى عنه جماعة ممن أخذت عنهم ، منهم ابنه أبو عبد الله قاضي الجماعة ، وأبو العباس بن فُرتون ، أخذ عنه كثيرا بمدينة فاس .

مولده

قال صاحب « الذيل » . سألته عن مولده : فقال ولدت فى اليوم التاسع عشر من محرم عام واحد وستين وخمسماية بمدينة سبتة .

وفاته : توفى فى العشر الوسط من جمادى الآخرة عام ثلاثين وستماية عالقة . وروضته بها فى جنّة كانت له بربَضِها الشرقى . رحمه الله.

عياض بن موسى بن عياض بن عمرون بن موسى بن عياض ابن محمد بن عبد الله بن موسى بن عياض اليحصبي

القاضي الإمام المجتهد ، يكنى أبا الفضل،سَبْتى الدَّارِ والميلاد ، أندلسى الأصل ، بَسْطيه [1] .

أوليته

من كتاب ولده فى مآثره ، وهو كنَّاش نبيه ، قال ، استقرَّ أجدادنا فى القدم بالأندلس بجهة بسطة ، ثم انتقلوا إلى مدينة فاس . وكان لهم استقرار فى القَيْروان ، لا أدرى قبل حلولهم بالأندلس أو بعد ذلك . وكان عمرون رجلا خَيارا من أهل القرآن ، وحجَّ إحدى عشرة حجة ، وغزا مع ابن أبى عامر غزوات كثيرة . وانتقل إلى سَبْتة بعد سكنى فاس . وكان موسِرا ، فاشترى بها من جملة ما اشتراه الأرض المعروفة بالمنارة ، فبنى فى بعضها مسجدا ، وفى بعضها دِيارا حبسها عليه ، وهو الآن منسوب إليه ، ووُلد له ابنه عياض ، ثم ولد لعياض ابنه موسى ثم ولد لموسى القاضى أبو الفضل المترجم به .

حاله

قال ولده فى تأليفه النبيل : نشأ على عفَّة وصيانة ، مرضى الخلال ، محمود الأقوال والأفعال ، موصوفا بالنُّبل والفهم والحذق ، طالبا للعلم ، حريصا عليه ، إلى أن برع فى زمانه ، وساد جملة أقرانه ، فكان من حُفاظ كتاب الله ، مع القراءة الحسنة ، والنَّغمة العَذْبة ، والصوت الجهير . والحظ الوافر من تفسيره وجميع علومه . وكان من أيمة الحديث فى وقته ، أصوليا متكلما ، فقيها حافظا للمسايل ، عاقدا للشروط ، بصيرا بالأحكام ، نحويا ، ريّان من الأدب ، شاعرا مجيدا ، كاتبا غالبا

---

(١) بسطيه نسبة إلى مدينة بسطة،وبالإسبانية Baza . وقد سبق التعريف بها (راجع المجلد الأول من الإحاطة ص ١٠٩ حاشية) .

بليغا ، خطيبا ، حافظا للغة والأخبار والتواريخ ، حسن المجلس ، نبيل النادرة ، حلو الدُّعابة ، صبورا ، حليما ، جميل العشرة جوادا ، سَمْحا ، كثير الصَّدقة دروبا[1] على العمل ، صَلبا فى الحق .

رحلته وولايته

ومنشأُ أمره . رحل إلى الأندلس سنة سبع وخمساية ، فأخذ بقرطبة ومرسية وغيرهما ، ثم عاد إلى سبتة ، فأجلسه أهلها للمناظرة عليه فى « المُدوَّنة » ، وهو ابن ثلاثين سنة أو ينيف عليها . ثم جلس للشُّورى . ثم ولِّى القضاء ، فسار فى ذلك حسن السِّيرة مشكور الطريقة . وبنى الزيادة الغربية فى الجامع الأعظم . وبنى بجبل الميناء الرابية الشهيرة ، وعظُم صيته . ثم نُقل إلى غرناطة فى أول صفر سنة إحدى وثلاثين وخمسماية ، فتقلَّد خُطَّة القضاء بها . ثم وُلى قضاء سبتة ثانية . ولما ظهر أمر الموحِّدين بادر بالمسابقة إلى الدخول فى طاعتهم ، ورحل إلى لقاء أميرهم بمدينة سَلا ، فأجزل صلته ، وأوجب بِرَّه ، إلى أن اضطربت أُمور الموحدين عام ثلاثة وأربعين وخمسماية ، وحدث على من كان بقصبتها منهم ما هو معلوم من التغلب عليهم واستئصالهم ، ثم من رجوع أُمورهم ، فالتاثت حاله ، ولحق بمراكش مُشَرَّدا به عن وطنه ، فكانت بها وفاته .

مشيخته

ورتبهم ولده حسبما نقل من فهرسته على الحروف . فمنهم أحمد بن محمد بن بقى ، وأحمد بن سعيد بن مستقر ، وأحمد بن محمد بن مكحول ، وأحمد بن محمد السِّلفى ، الشيخ أبو الطاهر ، وأحمد بن محمد بن غَلْبون

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (كروبا) .

ابن الحصّار ، وأحمد بن محمد بن عبد العزيز المرحى ، إلى غيرهم من جملة سبعة عشر رجلا ، والحسن بن محمد الصّدفى بن سُكَّرة ، والحسين بن محمد الغسانى ، والحسين بن عبد الأعلى السفاقسى ، والحسن ابن على بن طريف ، وخلف بن إبراهيم بن النحاس ، وخلف بن خلف الأنصارى ابن الأنقر ، وخلف بن يوسف بن فُرْتون ، ومحمد بن عيسى التجيبى القاضى ، ومحمد بن على بن حمدين القاضى ، ومحمد بن أحمد التجيبى القرطبى القاضى ابن الحاج . ومحمد بن أحمد بن رشد ، ومحمد بن سليمن النَّفْزِى ابن أخت غانم . وأجازه محمد بن الوليد الطُّرطوشى ، ومحمد بن على بن عمر المازَرِى ، ومحمد بن عبد الله المعافرى القاضى ابن العربى ، ومحمد بن عبد الرحمن بن شِبرين القاضى ، ومحمد ابن على الأزدى الخطيب الطُّليطلى ، ومحمد بن على الشاطبى ابن الصقيل ، إلى غيرهم من جملة أحد وثلاثين شيخا . وعبد الله بن محمد الخشنى ، وعبد الله بن محمد بن السِّيد البطليوسى ، وعبد الله بن محمد بن أيوب الفهرى ، وعبد الرحمن بن محمد السبتى ابن العجوز ، وعبد الرحمن ابن محمد بن بقى ، وعلى بن أحمد الأنصارى ابن الباذش ، وعلى بن عبد الرحمن التجيبى ابن الأخضر من جملة من سبعة وعشرين . وغالب ابن عطيه المحاربى ، وسِراج بن عبد الملك بن سراج أبو الحسن ، وسفيان ابن العاصى الأسَدى ، من جملة خمسة من الأشياخ فى هذا الحرف . وشُريح بن محمد الرعينى الإشبيلى ، وهشام بن أحمد القرطبى أبو الوليد ابن العواد ، وهشام بن أحمد الهلالى الغرناطى ، ويونس بن محمد بن مغيث ابن الصفار ، ويوسف بن موسى الكلبى ، سمع منه أرجوزته ، ويوسف ابن عبد العزيز بن عتريس الطليطلى .

شعره

قال ، مما كتبته من خطّه :

أعوذ بربّى من شرّ ما يخاف من الإنس والجنّة
وأسئله[1] رحمة تقتضى عوارف توصّل بالجَنّة
فما للخلان من ناره سوى فضل رحماه من جنّة

ومن شعره ، قال أنشدنيه غير واحد من أصحابنا ، فوارحمة الله عليه :

أذاتِ الخلال كم ذا تنتضيها على سيوف عينيك انتضاه
بمطلك لى مواعدَ أقتضيها من التّوريد واللّمس اقتضاه
فقضّى وعد مَطْلك وانجزيه خيارُ الناس أحسنهم قضاة

قال ، ومما كتبته من خطه :

يا من تحمّل عنى غير مكترث لكنه للضّنى والسّقم أوصاب
تركتَنى مستهامَ القلب ذا خــوف أخا جوًى وتباريح وأوصاب
أراقب النّجم فى جَنح[2] الدُّجا وَلِهاً كأنّنى راصدٌ للنجم أوصاب
وما وجدت لذيذ النوم بعدكم إلاّ جِنَى حنظل فى الطعم أو صاب

ومن ذلك قوله رحمه الله :

الله يعلم أنى منذ لم أركم كطاير خانه ريشُ الجَناحين
فلو قَدرْتُ ركبت المريخ نحوكم فإنّ بُعدكم عنى جَنا حين

قال ، وكتبت من خطّه :

يا راحلين وبالفؤاد تحمّلوا أترى لكم قبل الممات قُفُول
أمّا الفؤاد فعندكم أنباؤه ولواعج تَنْتابه وغَليل

---

(١) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (واسلك) والأولى أرجح .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (ليل) .

فترى لكم عِلْمٌ بمنتزَح الكرى عن جَفْن صبٍّ ليله موصول
أودى بعزّته صبرُه وإبـــايُه طرفٌ أصمٌّ ومِبْسم مصقول
ما ضرّكم وأضَنُّكم بتحية يحيي بها عند الوداع قَتيـل
إن الخليل[1] بلحظه أو لفظه أو عطفه أو وقفه لبخيـــل

ومما نسبه إليه الفتح وغيره ، ومن العجب إغفال ولده إياه ، قوله يصف الزّرع والشقائق فيه :

أنظـر إلى الزّرع وخاماتـــه تحكى وقد ماسَتْ أمام الرياح
[كتيبةً خضراء][2] مهزومة شقائقُ النّعمان فيها جِراح

نثره

وهو كثير . فمن خُطَبِه ، وكان لا يخطب إلا بإنشايه :

الحمد لله الذى سبق كل شيء قِدَما ، ووسع كل شيء رحمة وعلما ونِعَمًا ، وهدى أولياءه ، طريقا نَهْجاً أمما ، وأنزل على عبده الكتاب ، ولم يجعل له عِوَجًا قيِّما ، لينذر بأساً شديدا من لدنه ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أنّ لهم أجرا حسنا ، ماكثين فيه أبدا . أحمده على مواهبه ، وهو أحقّ من حُمد ، وأسأله أن يجعلنا أجْمَع ، ممن حَظِى برضاه وسَعُد ، وأستعينه على طاعته ، فهو أعزّ من استُعين واستُنجد ، واستَهديه توفيقا ، فإنّ من يهد الله فهو المهتَدِ ، ومن يُضْلل فلن تجد له ولياً مرشدا ، وأشهد أن لاإله إلا الله وحده ، لا شريك له ، شهادة فاتِحةً لأقفال قلوبنا ، راجحة بأثقال ذنوبنا . منزّهة له عن التّشبّيه والتمثيل

(١) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (التجيل) والأولى أرجح .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال والزيتونة . ووردت فى قلائد العقيان كالآتى (كتائبا تجفل) .

بنا ، وأنه تعالى جدُّ ربنًا ما اتخذ صاحبةً ولا ولدا . وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، أنزل عليه الفُرقان ، وبعثه بالهُدى والإيمان ، وأغزى بدعوته دعوة أولياء الشيطان ، وأبعدهم مقاعد عن السمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا .

أيها السامع ، قد أيقظك صرفُ القدر من سِنَة الهوى وتيّاراته ، ووعظك كتاب الله بزواجره وعِظاته ، فتأمَّل حدوده . وتدبّر مُحْكم آياته ، واتلُ ما أُوحي إليك من كتاب ربِّك لامبدِّل لكلماته، ولن تجد من دونه مُلْتَحدا . أين الذين عَتَوْا على الله ، وتعظَّموا واستطالوا على عباده وتحكَّموا ، وظنُّوا أنه لن يقدر عليهم حتى اصطلموا . وتلك القُرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا . غرَّهم الأمل وكواذب الظُّنون ، وذَهِلوا عن طوارق القَبْر [1] وريْب المَنون . وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون . حتى إذا رأوا ما يوعدون ، فسيعلمون من أضعَفُ ناصراً وأقل عدداً . فهذِّبوا رحمكم الله سِراركم بتقوى الله واخلصوا ، واشكروا نعمته ، وإن تعدّوا نعمة الله لا تُحصوها ، واحذروا نقمته واتقوه . ولا تعصوا ، واعتبروا بوعيده . قل كلٌ متربص فتربَّصوا فستعلمون مَنْ أصحاب الصراط السَّوى ومَنْ اهتدى وانهضوا لطاعته الهمم العاجزة ، واركُضُوا فى ميدان التَّقوى ، وحُوزوا دصب خَصله العابرة [2] ، وادخروا ما يخلصكم يوم المحاسبة والمناجزه ، وانتظروا قوله ، يوم نسير الجبال وتَرى الأرض بارزة ، وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا ، ذلك يوم تَذهل فيه الألباب ، وتَرجُف القلوب رجفا ، وتُبدَّل الأرض وتُنسَف الجبال نَسْفاً ، ولا يقبل الله فيه

(١) وردت فى الإسكوريال (النير) ، وفى الزيتونة (العين) . ونعتقد ان التصويب انسب للسياق .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الفايدة) .

من الظالمين عدْلا ولاصَرْفا . ونحشر المجرمين يومئذ زرْقاً،وعُرِضوا على ربِّك صفًّا ، لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ، بل زعمتم أنْ لن نجعل لكم موعدا ، اللهم انفعنابالكتاب والحكمة ، وارحمنا بالهداية والعصمة ، وأوْزِعنا شكر ما أوليت من النِّعمة . ربنا آتنا من لدُنْك رحمة ، وهيِّئ لنا من أمرنا رَشَدا .

تواليفه

مماأكمله وقُرئ عليه كتاب «الشفابتعريف حقوق المصطفى» ستة أجزاء، وكتاب «إكمال المعلم فى شرح مُسلم» تسعة وعشرون جزءاً . وكتاب «المُسْتَنبطة على الكتب المدوَّنة والمختلطة» عشرة أجزاء. وكتاب «ترتيب المدارك وتَقْريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك» خمسة أسفار ، ولم يسمعه . وكتاب «الإعلام بحدود قواعد الإسلام» . وكتاب «الإلماع فى فى ضَبط الرواية وتَقْييد السماع» سفر . وكتاب «الرَّايد لما تَضمنه حديث أمْ زَرْع من الفوايد» . وكتاب خُطَبه سفر . وكتاب المعجم فى شيوخ أبى سُكَّرة . وكتاب الغُنْية فى شيوخه ، جزء . ومما تركه فى المُبيضة كتاب «مشارق الأنوار على صحيح الآثار» ستة أجزاء ضخمة ، وهو كتاب جليل . وفيه يقول الشاعر :

مشارق أنوار تبدَّت بسَبْتَـــة ومن عجب كَوْن المشارق بالغرب

وكتاب «نظم البرهان على صِحَّة جَزْم الأذان» جزء . وكتاب «مسئلة الأهل المشترط بينهم التزاور» جزء . ومما لم يكمله «المقاصد الحِسان فيما يلزم الإنسان» . وكتاب «الفُنُون الستَّة فى أخبار سَبْتة» . وكتاب «غُنْية الكاتب وبُغية الطالب» فى الصدور والتَّرسيل. وكتاب «الأجوبة المُحبَّرة على الأسئلة المتخيَّرة» وجدت منها يسيراً فضَممته إلى ما وجدته فى بطايقه

وعند أصحابه . يقول هذا ولده من معان شاذة فى أنواع شتى سئل عنها رحمة الله عليه . فأجاب جمعت ذلك فى جزء . وكتاب أجوبة القرطبيين وجدتها بطابق ، فجمعتها مع أجوبة غيرهم . وأجوبته مما نزل فى أيام قضايه ؛ من نَوازل الأحكام فى سفر ، وكتاب « سر السُّراة فى أدب القضاة » .

نبذ من أخباره

وأولا فى ثناء الأعلام عليه . قال ولده ، أخبرنى ابن عمى الزاهد ، أن القاضى أبا عبد الله بن حَمْدين كان يقول له وقت رحلته إليه ، وحتى ياأبا الفضل إن كنت تركت [1] بالمغرب مثلك . وقال ، وأخبرنى أن أبا الحسين بن سراج قال له ، وقد أراد الرحلة إلى بعض الأشياخ ، فهو أحوج إليك منك إليه ، وقال إن الفقية أبا محمد بن أبى جعفر قال له ، ما وصل إلينا من المغرب مثل عياض . وأمثال ذلك كثير ، ومن دُعابته ، قال بعض أصحابنا صنعت أبياتا تغزلت فيها ، والتفت إلى أبيك رضى الله عنه ثم اجتمع بى ، فاستنشدنى إياها ، فوجمْت ، فعزم على فأنشدت :

أيامكثرا صدّى ولم آت جَفوة ... وما أنا عن فعل الجفاء براض

سأشكو الذى تُوليه من سوء عشرة ... إلى حَكَم الدنيا وأعدل قاض

ولا حَكَم بينك أرتضى قضاياه ... فى الدينا سوى ابن عيــاض

قال فلما فرغت حسّن ، وقال متى عرفتنى قواداً يافلان ، على طريق المداعبة . وأخباره حسنة وفضايله جمة .

مولده : بِسبتة حسبما نقل من خطّه فى النصف من شعبان عام سنة وسبعين وأربعماية .

---

(١) هذه الكلمة واردة بالزيتونة وساقطة فى الإسكوريال .

وفاته : توفى بمراكش ليلة الجمعة نصف الليلة التاسعة من جمادى الآخرة من عام أربعة وأربعين وخمسماية. ودفن بها فى باب إيلان من داخل السُّور .

عقيل بن عطية بن أبى أحمد جعفر بن محمد بن عطية القضاعى

من أهل طُرْطُوشة ، يكنى أبا المجد

حاله

كان فقيها متطرِّفا فى فنون من العلم ، متقنا لما يتناوله من ذلك ، حسن التهدِّى ، من بيت طَلَب . وقد تقدم ذكر جده الأُستاذ . وُلِّى عقيل قضاء غرناطة وسجلماسة .

مشيخته

روى عن أبى القاسم بن بَشْكُوال . قرأ عليه وسمع ، وتناول من يده ، وأجازله . وقفت على ذلك بخطه .

شعره

أنشد له فى «الذيل»[1] قوله ، مما نظمه لجماعة من السَّادة :

ملوك دون بابكم وقُــــوف ... سَطَتْ بهم الحوادث والصُّروف
أذلَّهم الزمان وكان قِـــدْماً ... لهم راع وحولهم يطوف
غدوا عِبَراً لمعتَبر فَسُحْقاً ... لدنيا أمرها أمر سخيف
وطال وحقِّ مجدك ما تبدوا ... وحولهم الغواضب والسيوف
أسود يُقْدِمون أسود حــرب ... وخلفهم العساكر والصُّفوف

(١) المقصود به كتاب «الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة» للقاضى ابن عبد الملك المراكشى

أتى بهم الزمان إليك قصدا حَيارى فيه يُعجزهم رغيف
فَعَطْفاً أيها المــــولى عليهم وقاك السوء باريك اللطيف
فرحمةُ سيِّد قد ذُل فــرضٌ يقول به النَّبى الهادى الشريف
وما يرعى الكرام سوى كريم وأنت الماجد النَّدى العَطُوف

توالیفه

قال الأُستاذ ، وقفت على تأليف سماه «فصل المقال فى الموازنة بين الأَعمال» تكلم فيه مع أَبى عبد الله الحُمَيدى ، وشيخه أَبى محمد بن حزم ، فأَجاد فيه وأحسن ، وأتى بكل بديع . وشرح المقامات الحريرية .

وفاته : فى صفر سنة ثمان وستماية .

ومن الكتاب والشعراء

عاصم بن زيد بن يحيى بن حنظلة بن علقمة بن عدى ابن محمد التميمى ثم العبادى الجاهلي

يكنى أبا المخشبى من أهل إلبيرة .

حاله

كان شاعرا مُجيدا ، شهير المكان ، بعيد الصِّيت ، على عهده . قال أبو القاسم ، كان من أعلام الجند ومقدميهم . وقال الرَّازى ، دخل والده زيد بن يحيى من المشرق إلى الأَندلس ، واختط بكورة جُنْد دمشق ، وشُهر ابنه عاصم هذا بالشِّعر ، إذ كان غزير القول ، حسن المعانى ، كثير النادر ، سَبْط اللفظ ، فاغتدى شاعر الأَندلس ، ومادح بنى أَمية ، المخلِّف فيهم قوافى الشعر المديح الشاردة ، وقد كان فى لسانه بَذاءة زايدة ، يتسرع به إلى من لم يوافقه من الناس ، فيقْذع هجوهم ، ويقْذف نساءهم ويَهْتِك حُرَمهم . وكان أفاكا نهابا ، لا يعدم متظلِّما منه ، وداعيا عليه ،

وذاكراً له بالسوء ، وهو مستهزئ بذلك جارٍ على غلوَائه .

محنته

قال ، وكان مع ذلك منقطعا إلى سليمن بن الأمير عبد الرحمن بن معاوية ، كثير المدح له . على أنه ما أخْلى الأمير هشاما من ملحه ، وهو مع ذلك لا يَسُلُّ سخيمته وحقده عليه ، لانحطاطه فى شُعَب سليمن أخيه ، وبينهما من التنافس والمشاحة ، مالاشيىء فوقه . ورُوى أن الذى هاج غضب هشام عليه ، أن قال له الساعى عليه ، قد عرَّض بك بقوله فى مديح أخيك سليمن فى شعر له فيه منه :

وليسوا مثل من بان سيل عرفا يقلب مقلة فيها أعونه

وكان هشام أحول ، فاغتاظ لذلك . وركب فيه من المثْلة وركبه ، وحقد عليه ، إلى أن استدعاه إلى مدينة ماردة ، وهشام يومئذ واليها فى حياة الأمير أبيه ، فخرج إليه أبو المخشبى من قرطبة ، طامعا فى نايله ، غير مرتاب بباطنه ، فلما دخل عليه قال له ياأبا المخشبى ، إن المرأة الصالحة التى هَجَوْت ابنها فقذفتها ، فافحشتَ سبَّها ، قد أخلصت دعاها لله فى أن ينتقم لها منك ، فاستجاب لها ، وسلَّطنى وتأذَّن بالاقتصاص لها على يدى منك ، ثم أمر به فقُطع لسانه ، وسُمِلت عيناه ، وعولج من جراحه ، فاستقل منها ، وعاش زمنا مُمَثَّلا به . فأَما لسانه فانجبر بعيد وقت إلا قليلا ، واقتدر على الكلام إلا تَلَعثما كان يعترضه ، واستمر العَمَى ، فعظُم عليه مصابه ، فكثرت فى شكواه أشعاره ، قال ، ويذكر أن قصة أبى المخشبى فى نبات لسانه ، لما بلغت مالك بن أنس ، أشار

إليها فى فتواه فى التأنّى بديّة اللسان طمعا فى نبتها ، وقال يُتأنّى بالحكم عاما ، فإن نَبَتَ أو شيىء منه ، عُمل فى ديته بحسب ذلك ، فقد بلغنى أن رجلا بالأندلس نبت لسانه أو أكثره بعد ما قطع ، فأمكنه الكلام .

شعره

قالوا وبلغ الأمير [عبد الرحمن](١) بن معاوية صنيع ابنه هشام بمادحهم أبى المخشبى ، فساءه وكتب إليه يعنفه ، وأوصل أبا المخشبى إليه عند استيلايه بعد حين ، فاعتذر إليه ورقّ له ، وأنشده بعض ما أحدثه بعد ، فكان لا يبين الإنشاد ، فينشد له صبى كان قد علّمه ودرّبه ، فأنشده قصيدته التى وصف فيها عَمَاه وأولها :

خَضَعتْ أم بناتى للعــدا ... إذ قضى الله بأمــر فمضا

ورأت أعمى ضريـرا إنمــا ... مَشْيُه فى الأرض لَمسٌ بالعصا

فبكت وجْداً وقالت قــولةً ... وهى حــدا حلّقت منى المدا

ففؤادى فرِحٌ من قـــولها ... ما من الأدواء أس العمـــا

وإذا نـــال العَمى ذا بصرٍ ... كان حيّــا مثل مَيْت قـد نعا

وكان للناعم المسرور لم يك ... مسرورا إذا لاقى الــردّا

عــانى بالقــرب وهنا طرب ... بيّن لــجّ فى الحِمـــا

. . . .(٢) ... كيف يعتاد الصّبا من لا يرا

أبصرت مستبدلا من طرفــه ... فأنذا يسعى به حيث سعا

بالَعصا إن لم يَقُـــدْه فــإنه ... وسؤال الناس يمشى إن مشا

(١) هذا الأسم ساقط فى الإسكوريال ، وبإضافته يستقيم السياق .

(٢) بياض فى الإسكوريال .

وإذا ركب دَنــوا كأنَّ لهم ... هو حملاً فى المهمة الخِراف الصُوا

لم يزل فى كل مُخشِيى الرَّدى ... يصطلى الحرب ويَجْتاب الدُّجا

امتَطَيْناها سمانا بدنــــاً ... فتركناها نضـاءً بالفَنَـــا

وفُرَيّق قد تجاورت بهــــا ... مُهمَّها فَقِراً إلى أهل النَّـدا

قاصداً خير مَناف كلهــــا ... ومناف خيرٌ من فوق الثَّـرا

وهى طويلة ، ومن شعره فى الوقيعة بأبى الأسود الفهرى (١) ، وكانت عظيمة من أعظم فتوحات الأمير عبد الرحمن :

ماذا تُسايل عن مواقع مَعْشـر ... أودى بهم طلب الذى لم يقدر

رَشِد الخليفة إذ غَوُوا فرماهم ... بالمويذى بالحزم والمتأزِّر

فغلبنا سليمن السَّماح عليهم ... كالليث لا يلوى على مُتَعذِّر

عـاداهم متقنعـا فى مأْزق ... فى الموت من نجس العوارض الممطر

أما سليمن السماح فإنه جَـلى ... الدُّجا وأقبام سيل الأَصْعَـر

وهو الذى وَرَّث النَّدى أهل النَّدى ... ومحا دُجْنَة يوم وادى الأحمر

بعد القتلى بالمخايض أصبحت ... جِيفًا تلوح عظامها لم تُقْبَـر

فالليل فيها للذباب عرايــسٌ ... ونهارُها وقفٌ لنهش الأَنْسُـر

أفنـاهم سيفٌ مُبيرٌ صــارم ... فى قَسْطلونة وبل بوادى الأحمر

هات عنك ما هربت مخافةً منه ... فقَعْ يا ابن اللَّقيطة أو طِـرِ

---

(١) هو محمد بن يوسف بن عبد الرحمن الفهرى آخر ولاة الأندلس . وكان عبد الرحمن الأموى (الداخل) قد حارب يوسف وانتهى الأمر بهزيمته ومقتله (١٤٢ هـ) ففر ولداه أبو القاسم ، ومحمد الملقب بأبى الأسود ، ولبث عبد الرحمن يطاردهما وهما يحشدان الجند والثوار لقتاله . وفر أبو الأسود إلى طليطلة وتحصن بها فطارده عبد الرحمن . ففر مع انصاره الى قورية فلحق به عبد الرحمن ونشبت بينهما معركة انتهت بتمزيق قوات أبى الأسود وفراره (سنة ١٦٩ هـ) وهى الواقعة التى يشير إليها الشاعر فى قصيدته . وتوفى أبو الأسود بعد ذلك بقليل فى إحدى قرى طليطلة .

وفاته

قال ابن حيان ، قرأت بخطِّ عُبادة الشاعر ، قال عمَّر أبو المخشبى بعد مخنته الشنعاء حتى لحق دولة الأمير عبد الرحمن ، فوالى بين مديح أربعة أمراء ، ما بينه وبين جدِّه عبد الرحمن بن معاوية الأمير الداخل . وتوفى بعد ذلك قريبا من تاريخ الثمانين والماية[1] . وبعُد عليه لحاق دولة الأمير عبد الرحمن لهذا التاريخ .

ومن الأصليين من ترجمة المحدثين والفقهاء والطلبة النجباء

عيسى بن محمد بن أبى عبد الله بن أبى زمنين المرِّى

يكنى أبا الأصبغ من أهل البيرة .

حاله

نبيه القدر . وروى عن شيوخ بلده .

وفاته : توفى بعد الأربعمائة . قلت فد اعتذرت ، وتقدم الاعتذار فى إثبات من أثبته من هذا البيت فى هذا الاختصار من هذا النمط . فلينظر هنا لك إن شاء الله.

عيسى بن محمد بن عيسى بن عمر بن سعادة الأموى

لَوْشى الأصل ، غرناطى الاستيطان والقراءة ، يكنى أبا موسى ، الشيخ الطبيب بالدار السلطانية .

---

(١) فى هذه العبارة الأخيرة بعض الغموض فيما يتعلق بالتواريخ . ذلك أنه إذا كان عاصم بن زيد المترجم له قد توفى فى حدود سنة ١٨٠ هـ وذلك حسبما يقول لنا ابن حيان ، فانه بذلك لم يلحق سوى دولتى عبد الرحمن بن معاوية الداخل المتوفى سنة ١٧٢ هـ . ودولة ولده هشام الذى حكم من سنة ١٧٢ الى سنة ١٨١ هـ ، أما دولة الحكم بن هشام . فقد كانت من سنة ١٨٠ الى سنة ٢٠٦ هـ ، ودولة ولده عبد الرحمن كانت من سنة ٢٠٦ الى ٢٣٨ هـ .

حاله

من « عايد الصلة » ، بقية أهل العلم ، ونسيج وحده في لين الجانب ، وخفض الجناح ، وحسن الخلق . وبذل التواضع ، ممتع من معارف قديمة ، بين طلب وتعليم ، على حال تدين والتزام سُنّة ، أقرأ الطّب ، وخدم به الدار السلطانية ، وولّى القضاء بلَوْشَة بلده .

مشيخته

قرأ على الأستاذ أبي عبد الله الرّقوطي المُرْسى ولازمه ، وأخذ عن أبي الحجاج بن خلصون ، وأدرك أئمّةً من صدور العلماء .

تواليفه

له تأليف كبير متعدد الأسفار سماه كتاب « القفل والمفتاح في علاج الجسوم والأرواح » ، تضمن كثيراً من العلم الطبى ، وما يتعلق به ، رأيت أجزاءً من مسودته بيد ولده .

وفاته : توفى بغرناطة ليلة السبت الخامس عشر لجمادى الآخرة عام ثمانية وعشرين وسبعماية .

حرف الغين من الأعيان

غالب بن أبى بكر الحضرى

من أهل غرناطة يكنى أبا تمام ، ويعرف بابن الأشقر .

حاله

كان قايدا جَزْلا مهيبا ، مليح التجنّد ، معروف الدِّربة والثقافة ، مشهور الفروسية ، ظريف الشكل ، رايق الرّكبة ، حسن الشّيبة ، صَليب العود ، مرهوب السطوة ، وُلى قيادة العسكر زمانا طويلا ، فوقع الإجماع على

اهليته لذلك ، تمييزا للطبقات ، وانتهاضا بالخدمة ، وإنفاذا للعزمة ، ومعرفة بالعوايد ، واقتداراً على السهر فى تفقّد المسالح ، واختبار المراصد ، واختيار الحرس ، وتنظيم المصاف ، وإمساك السِّيقة ممن يرجع إلى حصيف رأيه ، ويُركن إلى يُمن حَنَكته ، ويعترف بحقه . لقى الجند منه ضغطا لاضطّلاعه باستخدامهم ، وجعل العقاب من وراء تقصيرهم . فقد كان بعض نُقَبائه يحمل معه مِقصًّا لإيقاع المُثلة بذقون مضيِّعى المسلحة أو مُتَهيِّبى المَلْحمة . ولما أُوقع بالسلطان أمير المسلمين أبى الوليد قرابته بباب داره بما هو مشهور ، نُمى عنه أنه اخترط سيفه . وكان ممن أثخن الوزير يومئذ جراحة [لا يعلم][1] ، أحيرةً وغلطاً أم تواطأً وقصداً ، فقد كان من مَرَج الناس يومئذ؛ وإعمال بعضهم السلاح فى بعض ما هو معلوم ، فعزل عن الخُطّة ، وسُم خطة الخمول ، ففقد مكانه من العنا ، واضطر إليه .

وفاته

توفى بغرناطة عشية يوم الخميس الثانى والعشرين لشوال عام سبعة وعشرين وسبعماية ، ودفن قرب باب إلبيرة .

ومن المقربين

غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن عبد الرؤوف بن تمام بن عبد الله بن تمام بن عطية بن خالد بن خفاف بن أسلم بن مكتوم المحاربى أبو بكر

حاله

(١) الزيادة من الزيتونة . وبها يستقيم السياق .

كان من أهل العلم والعمل ، مُقريا فاضلا ، راوية ، حجّ وروى ، وكفّ بصره فى آخر عمره .

مشيخته

قرأ القرآن بالسّبع على أبى الحسن بن عبد الله الحضرمى ، ودرس الفقه وناظر فيه ، على سعيد بن خلف بن جعفر الكنانى . وروى عن أبى على الغسانى ، وعن أبيه عبد الرحمن بن غالب ، وأبى عمر بن عبد البر الإمام الحافظ .

من روى عنه : حدّث عنه ذو الوزارتين أبو عبد الله بن أبى الخصال ، وأبو عبد الله بن عبد الرحيم القاضى ، وعبد الله بن طلحة بن أحمد ابن عطية .

شعره

قال يحذر من أبناء الزمن :

كن بذى صايد مستأنسا ... وإذا أبصرت إنسانا ففر

إنما الإنسىّ بحرٌ ماله ... ساحل فاحذره إياك الغُرَر

واجعل الناس كشخص واحد ... ثم كن من ذاك الشخص حَذِر

وله رحمه الله :

كيف السُّلو ولى حبيب هاجر ... قاسِى الفؤاد يسُومنى تعذيبا

لما درى أن الخيال مواصلى ... جعل السُّهاد على الجفون رقيبا

مولده : ولد سنة إحدى وأربعين وأربعمائة .

توفى ليلة الجمعة لستٍّ بقين من جمادى الآخرة سنة ثمانى عشر وخمسماية .

غالب بن حسن بن غالب بن حسن بن أحمد بن يحيى
ابن سيدبونه الخزاعى

يكنى أبا تمام .

أوّليّته وحاله

أصل سلفه من بونه[١] من بلد إفريقية ، واستوطن جده بالأندلس قرية زنيتة من وادى لستة شرق الأندلس من عمل قسنطانية[٢] ، وملك فيها أموالا عريضة . ولما ظهر سِبْطه ولى الله أبو أحمد شيخ المريدين بذلك الصقع ، وظهرت عليه البركات ، وشهدت بولايته الكرامات ، غمرتهم بركته ، ونوّهت[٣] بهم شهرته ، إلى أن استولى العدو على تلك الجهات ، بعد وفاة الشيخ رضى الله عنه ، فهاجرت ذريته إلى غرناطة ، بعد استيطانهم مدينة ألش[٤] ، وبنوا بالرّبَض المعروف بربض البيّازين[٥] واقتطعوا وامتطوا ، واتخذوا دار إقامة ، وانتشرت به نحلتهم الإرادية ، وانضم إليهم مَنْ تَبِعهم من جالِية أهل الشرق ، وتقدم هذا الشيخ بعد ، شيخا ويُعْسوباً وقاضيا وخطيبا به ، بعد خاله رحمه الله ، فقام بالأعباء ، سالكا سُنَن الصالحين من أهل الجَلَد والجدّة والقوة والرجولة ، من الإيثار والمثابرة على الرباط ، والحفُوف إلى الجهاد ، وكان مليح الشّيبة ؛

---

(١) بونه هى ثغر إفريقى يقع على شاطئ البحر المتوسط فى منتصف المسافة بين تونس وبجاية وكان أيام الدولة الحفصية من ثغور مملكة تونس . وهو الآن من ثغور جمهورية الجزائر الديمقراطية ويسمى الآن عنابة اشتقاقا من اسمه القديم (بلد العناب) .

(٢) قسنطانية وبالإسبانية Cocentaina بلدة صغيرة من أعمال شرق الأندلس تقع غربى ثغر دانية وجنوبى مدينة شاطبة .

(٣) وردت فى الإسكوريال (وتوهمت) والتصويب من الزيتونة .

(٤) ألش وبالاسبانيه Elche سبق التعريف بها(راجع المجلد الأول من الإحاطة ص ٥٤٩ حاشية) .

(٥) ربض البيازين وبالاسبانية Albaicin سبق التعريف به (راجع المجلد الأول ص٣٨٧ حاشية) .

كثير التّخلق ، جم التواضع ، مألفا للغرباء ، مبذول البشر ، حسن المشاركة ، رافضا للتصَنُّع ، مختصر المطعم والملبس ، بقية من بقايا الجلّة ، معتمدا فى مجالس الملوك بالتّجلة .

مشيخته

يحمل عن والده أبى على ، وعن خاله ، وعن الخطيب أبى الحسن ابن فضيلة وغيرهم .

تواليفه : له تأليف فى تحريم سماع اليراعة المسماة بالشّبابة ، وعلى ذلك درج جمهورهم .

مولده : فى ذى القعدة من عام ثلاثة وخمسين وستماية .

وفاته : توفى فى عاشر شوال من عام ثلاثة وثلاثين وسبعماية . وكان الحفل فى جنازته يشِذُّ عن الوصف . ودفن بمقبرتهم[1] .

غالب بن على بن محمد اللخمى الشقورى

من أهل غرناطة ، يكنى أبا تمام

حاله

كان من أهل الفضل والدّماثة ، حسن الخلق ، وسيم الخَلْق ، مليح الانطباع ، مستطرف الأغراض ، من بيت كَسْب وخيريّة . رحل فى شبيبته إلى المشرق ، فحجّ ، وقرأ الطب بالمارستان من القاهرة المُعِزِّية ، وحذق العلاج على طريقة المشارقة ، وأطرف بكثير من أخبارهم ، وانتصب للمداواة ببجاية بعد مناظرة لها حكاية . وقدم على بلده ، فنَبُه به قدره ،

---

(١) أورد ابن الخطيب فى المجلد الأول من الإحاطة ترجمة لأحد أعلام هذه الأسرة وهو (جعفر ابن عبد الله بن محمد بن سيد بونه الخزاعى ، ص ٤٦١ – ٤٦٣) .

واستدعى إلى باب السلطان فخدم به ، ثم تحول إلى العُدْوة ، فاتصل بخدمة ملكها السلطان أمير المسلمين أبى سعيد ، مسوّغا ما شاء من قبول، ولَطُف محلُّه عنده ، لانطباعه ولين عريكته ، وتأنيه لما يوافق غرضه من سبيل الفكاهة ، ووُلّى الحِسْبة بمدينة فاس ، وأثرى وحَسُنت حاله . وكان مثالا لأهل بلده ، موصوفا بالجود ، وبذل المشاركة لمتغرّبيهم .

وله تواليف طيِّبة ، كان لا يفتر عن الاشتغال بها؛ بحسب ما فتح له من الإدراك ، فمنها نبيل ووبيل . ولما انتقل الأمر إلى أمير المسلمين أبى الحسن ، وصل حَبْل رَعْيه ، طاويا بِساط الهزل فى شأنه ، واتصلت خدمته إياه إلى حين وفاته .

وفاته

توفى فى أوايل عام أحد وأربعين وسبعماية بسَبْتة ، عند حركة أميره المذكور إلى الجواز للأندلس برسم الجهاد، الذى مَحَصه الله فيه بالهزيمة الكبرى .

مولده ... (1)

حرف الفاء : الأعيان والكبراء

فرج بن اسمعيل بن يوسف بن نصر

الرئيس الجليل ، أبو سعيد ، وكان حقُّه أن يفرد له باب فى الأمراء، لكنه الأبواب المتعددة الأسماء ، نؤثر فيها الجمع والاختصار كما شرطنا .

أوّليته

(١) وردت بعد هذه الكلمة هذه العبارة فى الإسكوريال . (بياض فى الأصل المنتسخ منه) . وأغفلها الزيتونة .

معزوفة . وكان والده [رحمه الله] [١] صِنو أمير المسلمين الغالب بالله أبي عبد الله ، وآثره بمدينة مالَقة وما يرجع إليها ، عند تصير الملك إليه أو بعده . وكان دوله في السّن ، فاستمرت أيامه بها إلى أن توفي رحمه الله ؛ وتصيَّر أمره إلى الرييس أبي محمد بن إشْقَيْلولة ، وتخللت ذلك الفتن ، حسبما وقع الإلماع به [وتصيَّر أمرُها] [٢] إلى ملوك المغرب . ثم لما اثجلت [٣] الحال عن عودتها إلى الملك النَّصرى ، ولِّي عليها الرييس أبا سعيد ، ومكَّنه من ميراث سلفه بها ، وهو كما استجمع شبابه ، وعَقَد له على ابنته الحرة لُباب الملك ، فقام بأَمرها خير قيام ، وثَبَت لزلزال الفتنة حسبما هو مذكور في موضعه .

حــــاله

كان هذا الرييس نسيج وحده في الحزم والجزالة وفخامة الأَحوال ، مما يرجع إلى الفتية . ناغى السلطان ابن عمه في اقتناء العقار ، وتخليد الآثار ، فيما يرجع إلى الفلاحة والاعتِمار والازدياد والاستكثار ، وأربى عليه بإنشاء المراكب الكبار ، فعظمت غلاَّته ، وضاقت المسارح عن سائمته ، وغُصت الأَهراء بحبوبه ، وسالم الخرج دخل ماله ، فبَذَّ الملوك جِدَةً ويساراً ، تقتحم العين منه ظاهرا ساذجا ، غُفْلاً من الزينة والتصنُّع ، في طيِّه ظَرْف وذكاء وحَنَكة وحلاوة ، جهوريا ، مرسل عِنان النَّادرة ، باذلا النَّصفة ، مَهيب السَّطا ، خصيب المايدة ، شهير الجلالة ، بعيد الصيت . وُلِّي مالقة عام سبعة وسبعين وستمائة ، فعاني بها الشِّدة واللِّيان .

---

(١) الزيادة من الزيتونة .

(٢) هذه الزيادة واردة في الزيتونة وساقطة في الإسكوريال . ووجودها ضروري لاستقامة السياق .

(٣) هكذا وردت في الزيتونة . وفي الاسكوريال (اجتلت) . والأولى أرجح .

حتى رسخت بها قدمه ، وطالت لأهلها صحبته ، وعظم بها قراره وعساكره ، وأينعت غرسانه ، ونمت متاجره ، وتبنكت النعيم حاشيته ، وأضيفت إليه الجزيرة الخضراء ، فاتسعت العمالة ، وانفسحت الخُطّة ، إلى أن كان من تغلبه على مدينة سَبْتة ، واستيلايه عليها ، مما وقع الإلماع به فى موضعه من هذا الكتاب، فى شهر شوال عام خمسة وسبعماية ، فساس رعيتها ، وتملك جبالها ، وشنّ الغارة على ما وراءها ، وتملّك القصر المضاف لها ، ولم يزل نظره عليها ، إلى أواخر ذى قعدة من عام ثمانية وسبعمائة ، فصُرف عنها ، وجُهل قدره ، وأوغر صدره ، وأوعز للولاة بالتضييق على حاشيته ، فدعا بمالقة إلى نفسه فى شهر شعبان من عام أحد عشر وسبعماية ، وقدّم لطلب الملك ولدَه إسماعيل ، وسمّاه السلطان . ورتّب له الألقاب ، ودوّن الدواوين ، فنزع إليه الجند ، وانضافت إلى عمالته الحصون . ثم وقعت المُهادنة ، وأعقبتها المُفاتنة ، وكان من أمره ما وقع التّنبيه على عيون منه فى ذكر ولده .

نكبته

ولما استأصلت القطيعة مُختجنه الراكد فى مغابن[1] الخزاين من لدن عام سبعة وسبعين وستماية ، واستَنْفدت عتاده المطاولة ، نظر لنفسه فوجّه كاتبه الوزير أبا عبد الله بن عيسى ، وعاقده على الخروج له عن مالَقة ، مُتَعَوِّضًا عنها بمدينة سَلا من عمل ملك المغرب ، وتم ذلك فى شهر رمضان من عام ثلاثة عشر وسبعماية ، وذاع خبره ، وضاقت بأولياء انتِزايه السبل ، إذ تحققوا بإخفاق المسعى ، وسقوط العَشِيّ بهم على سرحان من سلطانهم الراغبين عنه ، فداخلوا ولده ، المقدّم الأمر ، أبا الوليد،

---

(١) هذه الكلمة واردة فى الاسكوريال وساقطة فى الزيتونة .

واتفق آراؤهم على خَلْعه ، ومعاجلة[1] الامر قبل تمامه، فى .... من شهر رمضان ، ركب الرئيس رحمه الله فى نفر من مماليكه المروقة إلى بعض بساتينه ، فلما قضى وطَرَه ، وهمّ بالخروج عنه ، اعترضه القوم عند بابه ، فالتفوا[2] به ، وأشعروه غرضهم[3] فيه ، وجاءوا به إلى بعض القصور بظاهر البلد ، فجعلوه به تحت رَقْبة ، وقد بادر ولده القصبة ، فاستولى عليها من غير ممانعة ، لعدم استرابة ثقاته به ، إلاَّ ما كان من خاين يتولى القيام ببعض أبوابها همّ بسدّه ، فطاح لحينه ، وتمّ لولده الاستبداد بالأمر ، واستولى على النَّصب والذخيرة وباقى المال[4] ، ونُقل الرئيس إلى مِعْقل قرطبة ، فلما خلص الأمر لولده ، انتقل إلى مِعقل شُلوبانْية ، فلم يزل به لا يبرح عن باب قصره ، مرفَّها عليه إلى أن قضى نحبه .

وفاته

فى الرابع عشر لشهر ربيع الأول من عام عشرين وسبعماية ، توفى رحمه الله بشلوبانية ، وجىء بجنازته محمولاً على رؤوس صدور الدولة ووجوه رجالها ، متناغين فى لباس شعار الحزن بما لم يتقدم به عهد ، ودفن بمقبرة السَّبيكة ، وولده أمير المسلمين واقف بإزاء لَحْده ، مظهر الاكتراث لفقده ، وعلى قبره الآن مكتوب نَقْشًا فى الرخام البديع ما نصه :

« هذا قبر عَلَم الأعلام ، وعماد دين الإسلام ، جواد الأجواد ، أسد الآساد ، حامى الثغور وممهد البلاد ، المجاهد فى ذات الله حقَّ الجهاد ،

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (معالجة) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (فاحتفوا) والأول أرجح .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (بعزمهم) .

(٤) هذه الكلمة واردة فى الزيتونة ، ومكانها بياض بالإسكوريال .

شمس الملك وبدره ، وعين الزمان وصدره ، الكريم الأخلاق ، الطاهر الذات والأعراق ، الذى سار ذكره فى الآفاق ، وخلد من فضايله ما تتحلى به ظهور المنابر وبطون الأوراق ، كبير الإمامة النصرية ، وعظيم الدولة الغالبية ، فرع الملك وأصله ، ومن وَسِع الأنام عدله وفضله ، مخلد الفخر الباقى على الأعصار ، والعمل الصالح الذى يُنال به الحُسْنىٰ وعُقبى الدار ، بسلالته الطاهرة الكريمة المآثر والآثار ، الإمام الرضى ناصر دين المختار ، المنتخب من آل نصر ونعم النسب الكريم فى الأنصار . الهمام ، الأكبر ، الأشهر ، المقدم ، المرحوم ، الأطهر ، أبو سعيد ابن الإمام الأعلى ، ناصر دين الإيمان ، وقاهر عَبَدة الصلبان ، صِنْو الإمام الغالب بالله ، ومجهز الجيوش فى سبيل الله ، سهام العِدا ، وغمام النَّدى ، وضرغام الحروب ، ذى البأس المرهوب ، والجود المسكوب؛ بطل الأبطال ، ومناخ الآمال ، المجاهد ، الظاهر ، المقدس ، المرحوم أبى الوليد بن نصر ، قدَّس الله مضجعه ، ورقاه إلى الرفيق الأعلى ورفعه . كان رضى الله عنه ، وحيد عصره ، وفريد دهره ، علت فى سماء المعالى رتبه ، وكرُم من أمير المسلمين صهره ونسبه ، فلا يُزاحم مكانه ، ولا يُدانى منصبه . نفذت أحكامه فى الشرق والغرب ، ومضت أوامره فى العجم والعرب ، إلى أن استأثر الله به ، فكانت وفاته ليلة الخميس الرابع عشر لشهر ربيع الأول من عام عشرين وسبعماية ، وكان مولده يوم الجمعة الثامن لشهر رمضان المعظم من عام ست وأربعين وستماية ، فسبحان الله الملك الحق ، الباقى بعد فناء الخلق .

سلام على قبر المكارم والمجد ... مُقام الرضى والفوز والبِشر والسعد

مثابة إحسانٍ ومعهد رحمةٍ ... ومُستَودع العَلْيا والسِّر والعهد

فيا أيها القبر الذى هو روضة ... تفوح شذى أذكى من المسك والنّد
لك الفضل إذ حملت أرضى أمانة ... تودى بإكرام إلى جنة الخلد
ففيك من الأنصار من آل نصرهم ... همام كريم الذات والأب والجد
قسيمُ أمير المسلمين ابن عمه ... ونخبة بيت الملك واسطة العِقْد
وحامى ذمار الدين ناصره أبو سعيد عماد الملك فى الحل والعقد
لَبَيّنك أمير العُدْوتين بواجب ... من الحق أبناء الوغى وبنو الرِّفْد
وتبكى بلاد كان مالك أمرها ... أفاض بها النعماء سابغة الوِرد
أقام بها العدل والفضل سنّة ... بإنصاف مُسْتَعْد وإسعاف مُسْتَجد
وتبكى أسى ملء العيون لفقده ... وبالحق لو فاضت نفوس من الوجْد
فيا أيها المولى الذى لمصابه ... بدا الحزن حتّى فى المُطَهَّمة الجُرْد
لك الله ما أعلى مكارمك التى ... تسير بها الركبان فى الغُور والنَّجد
وحَسْبُك أن أورثت خير خليفة ... وأبديت منه للورى علم الرشد
إمام هُدًى أعماله لله رحمة ... تُنال بها الزُّلفى من الصَّمد الفرد
عليك من الرحمن أزكى تحية ... توفيك من إحسانه غاية القصد

فرج بن محمد بن محمد بن يوسف بن نصر

الأمير أبو سعيد ولد أمير المسلمين ثانى الملوك النصريين ابن الغالب بالله .

حاله

كان أميراً جليلا جميلا ، بلغ الغاية فى حسن الصورة ، وفضل الفروسية على صغر سنه ، وكان زناتى الشكل والركض والآلة ، عروس الميدان ، وحِلْس الخيل ، يؤثر من شجاعته ، وثبات موقفه ، على

الغَرارة ، وعدم الحَنَكة ، أنه أنشب فى اتباع خنزير ضخم الكراديس ، عظيم الناب ، عريض الغبيطة ، طرح نفسه عليه فى ضحضاح ، لفضل شجاعته ، فكبا به الطرف ، واستقبله ذلك الخنزير الفحل صامدا ، فاستقلّ ، زعموا ، من السَّقطة ، وقد اخترط سيفا عضْبا كان يتقلده ، وسبقه بضربة تحت عينيه ، أبانت فكيه ، وأطارت محل سلاحه ، وخالطه مع ذلك أعزل ، فلم يُغْن ، وتلاحق به فرسانه ، وقد يئسوا من خلاصه ، فرأوا ما بهتوا له ، وبُشِّر بذلك أبوه ، فملأ عينه قُرَّة ، وكان يولع منه بفرع مُلْك ، وصَقْر بيت ، وسيف دولة . أسف بذلك ولىُّ العهد كبيرُه ، فاعتُبط لأيام من تصيُّر الأمر إليه .

وفاته : توفى مغتالا فى الأول من عام اثنين وسبعماية .

مولده : عام ستة وثمانين وستماية .

فرج بن محمد بن يوسف بن محمد بن نصر

الأمير أبو سعيد ولى عهد السلطان الغالب بالله

حاله

كان هذا الأمير فاضلا ذكيا ، من أهل الأدب والنُّبل ، قام الأدب فى ملته على ساق ، ولاّه أبوه الغالب بالله عنده ، وأمَّله لمكانه لو أنَّ الليالى أمهلته

شعره

وأدبه مما يُنسب إليه بالأندلس ، وهو عندى ما يبعد قوله :

أيا ربة الحسن التى سلبت منك ... على أى حال كنت لا بد لى منك

فإما بذل وهو أليق بالهوى وإما بَغَر وهو أليق بالملك

وكان ذو الوزارتين أبو عبد الله بن الحكيم رحمه الله يقول؛ أخبرنى كاتب هذا الأمير، وهو الوزير أبو عبد الله بن القصيرة الإشبيلى بتونس قال ، نظم الأمير بيتا وطلبنى بإجازته ، وأن يكون المنظوم مشوب النسيب بالفخر . والبيت :

أرقتَ لبرق بالسُّبيكة لا الخيف وإن كان فيه ما أحاذر من حَتْف

فقلت مجيزا

تجورُ على قلبي لواحظ غـادة بـأنْفَذ من عزمى وأقطع من سيف

ولى هزَّة نحو الوصـال أو اللُّقـا كهزة آبائى الكرام إلى الضيف

أفيضُ وفيضٌ في الجفون وبالحشا فأشكو بحالى فى الشتاء وفى الصيف

لعمرى لقد وفَّى العُلاحقَّ مفخرى لو انى فى الدنيا مُرادىَ استُوف

قال واستحسن ذلك ووقع عليه « كاتبه » يعنى بذلك نفسه

وفاته

عصر يوم الأربعاء لأربع بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وخمسين وسمائة ، ابن خمس وعشرين سنة

ومن الكتاب والشعراء

الفتح بن على بن أحمد بن عبيد الله الكاتب [المشهور] (١)

من قرية تعرف بصخرة الواد من قرى قلعة يحصب ، يكنى أبا نصر ، ويعرف بابن خاقان .

---

(١) هذه الكلمة واردة فى الزيتونة وساقطة فى الاسكوريال .

حـــالـه

كان آية من آيات البلاغة ، لا يُشَقّ غُباره ، ولا يدرك شأوه ، عذب الألفاظ ناصِعُها ، أصيل المعانى وثِيقُها ، لعوباً بأطراف الكلام ، مُعْجِزاً فى باب الحَلْى والصفات ، إلا أنه كان مجازفا ، مقدوراً عليه ، لا يملّ من المعاقرة والقَصْف ، حتى هان قَدْرُه ، وابتُذِلت نفسه ، وساء ذكره ، ولم يدع بلدا من بلاد الأندلس الاّ دخله ، مُسْتَرْفِداً أميره ، وواغلا على عِلْيته . قال الأستاذ فى « الصلة » ، وكان معاصراً للكاتب أبى عبد الله بن أبى الخصال ، إلا أن بطالته أخْلَدت به عن مرتبته . وقال ابن عبد الملك ، دخل يوما إلى مجلس قضاء [1] أبى الفضل عياض [2] مخمرا ، فتنسّم بعض حاضرى المجلس رائحة الخمر ، فأعلم القاضى بذلك ، فاستثبت ، وحدّه حدّاً تاما ، وبعث إليه بعد أن أقام عليه الحد ، بثمانية دنانير وعمامة . فقال الفتح حينئذ لبعض أصحابه : عزمت على إسقاط اسم القاضى أبى الفضل من كتابى الموسوم « بقلايد العقيان » قال ، فقلت لا تفعل وهى نصيحة ، فقال : وكيف ذلك ، فقلت له ، قِصّتك معه من الجايز أن تنسى ، وأنت تريد أن تتركها مؤرخة ، إذ كل من ينظر فى كتابك يجدك قد ذكرت فيه من هو مثله ودونه فى العلم والصيت ، فيسل عن ذلك ، فيقال له [اتفق معك كيت وكيت] [3] فيُتَوارث العلم عن الأكابر الأصاغر . قال ، فتبين له ذلك ، وعلم صحته وأقر اسمه

وحدثنى بعض الشيوخ ، أن سبب حقده على ابن باجّة أبى بكر ،

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (القاضى) والأولى أرجح .

(٢) هذه الكلمة واردة فى الزيتونة وساقطة فى الإسكوريال .

(٣) هذه العبارة واردة فى الزيتونة وساقطة فى الإسكوريال والنفح ، وهى لازمة لاستقامة السياق .

آخر فلاسفة الإسلام بجزيرة الأندلس ، ما كان من إزرايه به ، وتكذيبه إياه فى مجلس إقراية ، إذ جعل يكثر ذكر ما وصله به أمراء الأندلس ؛ [ويذكر الفخر بذلك] [١] ، ووصف حليًا ، وكانت تبدو من أنفه فضلة خضراء اللون . زعموا ، فقال له ، فمن تلك الجواهر إذاً الزمردة التى على شاربك ، فثلَبه فى كتابه ، مما هو معروف فى الكتاب . وعلى ذلك فأبو نصر نسيج وحده ، غفر الله له .

مشيخته

روى عن أبوى بكر بن سليمن بن القصيرة ، وابن عيسى بن اللبّانة ، وأبى جعفر بن سعدون الكاتب، وأبى الحسن بن سِراج ، وأبى خالد بن مَسْتَقور ، وأبى الطيِّب بن زرقون ، وأبى عبد الله بن خلصة الكاتب ، وأبى عبد الرحمن بن طاهر ، وأبى عامر بن سرور ، وأبى محمد بن عبدون ، وأبى الوليد بن حجاج ، وابن دريد الكاتب .

تواليفه

ومصنفاته شهيرة منها « قلايد العقيان » ، « ومطمح الأنفس » . «والمطمح» أيضاً . وترسيله مدوّن ، وشعره وَسَط ، وكتابته فايقة .

شعره

من شعره قوله ، وثَبَت فى قلايده ، يخاطب أبا يحيى بن الحجاج :

أكعبة عليـاء وهضبة سؤدد ... وروضة مجد بالمفاخر تمطـر
هنيئاً لمن زار [نورك أفقه] [٢] ... وفى صفحتيه من مضايك أسطر

---

(١) هذه الزيادة من الزيتونة .

(٢) وردت فى الاسكوريال (أفقك نوره) . والتصويب من قلايد العقيان . ووردت هذه الشطرة فى النفح كالآتى . (هنيا لمك زار أفقك نوره) .

وإنى لخفّاق الجناحين كلما ... سَرَى بك ذكر أو نسيم مُعَطّر
وقد كان واشٍ هاجنا لتهاجر ... فبتُّ وأحشائى جوى تتفطّر
فهل لك فى وُدٍّ زوى لك ظاهرا ... وباطنه يُنْدى صفاء ويَقْطُر
ولستُ بعِلْق بيع بخساً وإننى ... لأرفع أعْلاق الزمان وأخطر

فروجع عنه بما ثبت أيضا فى قلايده مما أوله :

ثنيت أبا نصر عِنانى وربما ... ثنت عَزْمة السّهم المُصَمّم أسطر

نثره

ونثره شهير ، وثبتَ له من غير المتعارف من السُّلطانيات ظهيرا [كتبه] [١] عن بعض الأمراء لصاحب الشرطة ، ولاخفاء بإدلاله وبراعته :

كتاب تأكيد اعتناء، وتقليد ذى منّة وغناء ، أمر بإنفاذه فلان ، أيده الله ، لفلان بن فلان صانه الله ، ليتقدّم لولاية المدينة ، بفلانة وجهاتها ، ويصرخ[٢] ماتكاثف من العدوان فى جنباتها ، تنويها أحظاه بعلائه ، وكساه رايق مَلائه ، لما علمه من سَنايه ، وتوسّمه من غِنايه ، ورجاه من حسن مَنابه ، وتحققّه من طهارة ساحته وجَنابه ، وتيقن أيده الله ،أنه مُستحق لما[٣] ولاه ، مُستَقِلٌ بما تولاّه ، لا يعتريه الكسل ، ولا يثنيه عن إمضاء الصوارم والأَسَل ، ولم يَكلِ الأَمر منه إلى وَكِل ، ولا ناطه مناط عجز ولا فَشَل ، وأمره أن يُراقب الله تعالى فى أوامره ونواهيه ، وليعلم أنه زاجره عن الجَوْر وناهيه؛ وسايله عما حكم به وقضاه، وأنفذه وأمضاه ، يوم لا تملك نفسٌ لنفس شيئا ، والأَمر يومئذ لله . فليتقدم لذلك بحزم لا يَخمدُ توقدُه ، وعزم لا ينفد تفقّده ، ونفس مع الخير

---

(١) هذه الكلمة واردة فى الزيتون وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (يصوح) .

(٣) وردت فى الإسكوريال (بما) . والتصويب من النفح .

ذاهبة ، وعلى سنن [1] البرّ والتقوى راكبة ، ويقدم للاحتراس من عُرف اجتهاده ، وعُلم أرَقُه فى البحث وسُهاده . وحُمدت أعماله ، وأمن تفريطه وإهماله ، ويضم إليهم من يحذو حذوهم ، ويقفو شأوهم ، ممن لا يُسْتراب بمناحيه ، ولا يصاب خلل فى ناحية من نواحيه ، وأن يُذْكى العيون على [2] الجُناة ، وينفى عنها لذيذ السنات ، ويفحص عن مكامنهم ، حتى يُغَصّ بالروع [3] نَفَس آمنهم ، فلا يستقرّ بهم موضع ، ولا يقرّ منهم مَخبٌ ولا موضع ، فإذا ظفر منهم بمن ظفر ، بحث عن باطنه ، وبثّ السؤال فى مواضع تصرفه ومواطنه ، فإن لاحتْ شُبهة أبداها الكشف والاسْتِبراء وتعدّاها للبغى والافتراء ، نكّله بالعقوبة أشدّ نكال ، وأوضح له منها ما كان ذا إشكال ، بعد أن يبلغ أناه ، ويقف على [طَرْف][4] مداه ، وحدّ له ألاّ يكشف بشرة إلاّ فى حدّ يتعين ، وإن جاءه فاسق أن يتبيّن ، وأن لا يطمع فى صاحب مال موفور ، وأن لا يسمع من مكشوف فى مستور ، وأن يسلك السُّنن المحمود ، وينزّه عقوبته من الإفراط ، وعفوه من تعطيل الحُدُود . وإذا انتهت إليه قصّة مُشكلة أخّرها إلى غَدِه ، فهو على العقاب أقدر منه على ردّه ، فقد يتبين فى وقت مالا يُتَبين فى وقت ، والمعاجلة بالعقوبة من المَقْت ، وأن يتغمد هفوات ذوى الهيآت ، وأن يستَشْعر الإشفاق ، ويخلع التّكبُّر ، فإنه من ملابس أهل النفاق ، وليحسن لعباد الله اعتقاده ، ولا يرفض زمام العدل ولا مَقَاده ، وأن يعاقب المجرم قَدْرَ زلته ، ولا يعتز عند ذلّته ، وليعلم أن الشيطان أغواه ، وزيّن له مثواه ،

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (متن) .

(٢) وردت فى الإسكوريال (عن) والتصويب من النفح .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (بالريق) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (فى طرفه) .

فيشفق من عثاره ، وسوء آثاره ، وليشكر الله على ما وهبه من العافية ، وأكسبه من ملابسها الضافية ، ويذكره جلّ وتعالى فى جميع أحواله ، ويفكر فى الحَشْر وأهواله ، ويتذكر وعداً يُنجز فيه ، ووعيداً يوم تجد كل نفس ما عملت من خير مُحْضَرا ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيداً . والأمير أيده الله ، ولىّ له ما عَدَل وأقسط ، وبرىء منه إن جار وقَسَط . فمن قرأه فليقف عند حدّه ورَسْمه ، وليعرف له حقّ قطع الشرّ وحَسْمه ، ومن وافقه من شريف أو مَشْروف ، وخالفه فى شىء مُنكر أو أمرٍ بمعروف ، فقد تعرّض من العقاب لما يذيقه وبال خَبَله ، ولا يحيق المكر السيىء إلاّ بأهله . وكتب فى كذا .

وفاته

بمرّاكُش ليلة الأحد لثمان بقين من محرم من عام تسع وعشرين وخمسماية ، ألفى قتيلا ببيت من بيوت فُنْدق لبيب أحد فنادقها ، وقد ذُبح وعُبث به ، وما شُعر به إلا بعد ثلاثة ليال من مَقْتله .

ومن المقريين والعلماء

فرج بن قاسم بن أحمد بن لب التغلبى

من أهل غرناطة ، يكنى أبا سعيد .

حاله

هذا الرجل من أهل الخير والطهارة ، والزّكا والديانة ، وحسن الخُلق . رأس بنفسه ، وحَلّى بفضل ذاته ، وبرّز بمزية إدراكه وحفظه ، فأصبح حامل لواء التحصيل عليه بدار الشورى ، وإليه مرجع الفتوى ببلده ، لغزارة حفظه ، وقيامه على الفقه ، واضطّلاعه بالمسائل ، إلى المعرفة

بالعربية واللغة ، والمران فى التوثيق ، والقيام على القِراءات ، والتّبريز فى التفسير ، والمشاركة فى الأصلين والفرايض والأدب . جيد الحظ ، ينظم وينثر . قعد ببلده للتدريس على وفور المسجد . ثم استقلّ بعد ، وولّى الخطابة بالمسجد الأعظم ، وأقرأ بالمدرسة النّصرية ، فى ثامن وعشرين من وجب عام أربعة وخمسين وسبعماية؛ معظما ، عند الخاصة والعامة ، مقرونا اسمه بالتسويد . وهو الآن بالحالة الموصوفة .

مشيخته

قرأ على الخطيب للقرى ، شيخنا أبى الحسن القيجاطى ، والخطيب الصالح الفاضل أبى إسحق بن أبى العاصى ، والقاضى العدل المحدث العالم أبى عبد الله بن بكر ، ولازم الشيخ الفقيه أبا عبد الله البيّانى ، وأخذ العربية عن شيخ العصر أبى عبد الله بن الفخار ، وروى عن الشيخ الرحال الراوية أبى عبد الله محمد بن جابر بن محمد القيسى الوادى آشى وغيرهم.

شعره

من شعره فى غرض النسيب قوله :

خذوا لِلْهَوى من قلبى اليوم ما أبقا ... فمازال قلبى للهوى كلّه رقّا
دعوا القلب يُصْلى فى لَظَى الوجد ناره ... فنار الهوى الكبرى وقلبى هو الأشْقا
سَلُوا اليوم أهل الوَجْد ماذا به لَقُوا ... فكلُّ الذى يلقون بعض الذى ألْقا
فإن كان عَبْدٌ يسَل العِتقْ مالكا فلا ... ابتغى من مالكى فى الهوى عِتْقا
بدعوى الهوى يدعو أناس وكلهم ... إذا سئلوا طُرق الهوى جهلوا الطرُقا
فطُرُق الهوى شتى ولكنّ أهله ... يجوزون فى يوم الرّهان بها سَبْقا
فكم جَمعت طرق الهوى بين أهله ... وكم أظهرت عند السُّرى بينهم فَرْقا

بِسِيما الهوى تسدو معارف أهله ... فحيث ترى سِيما الهوى فاعْرِف الصدقا

فمن زَفْرةٍ تُزْجى سحايب زفرة ... إذا زفرة ترقى فلا عَبْرة ترقا

إذا سكتوا عن وجدهم أغرت بهم ... بواطن أحوالٍ وما عرفت نطقا

ومن منظومه في وَداع شهر رمضان المعظم قوله :

أأزمعت يا شهر الصيام رحيلا ... وقاربت يابدر التمام أفُولا

أجِدك قد جدَّت بك الآن رحلة ... رُوَيْدك امسك للوداعِ قليلا

نزلت فأزْمَعْت الرحيل كلما ... نويت رحيلا إذ نويت نزولا

وما ذاك إلاَّ أن أهلك قد مضوا ... نَفانوا فأَبْصَرت الديار طلولا

وقفتَ بها من بعدهم فعل نادى ... لربع خلا يبكى عليه خليلا

لقد كنت فى الأَوقات ناشئة التّعنى ... أشدَّ به وطْءاً وأقوم قيلا

ولما انجلى وجهُ الهدى فيك مُسْفراً ... سدلت على وجه الضَّلال سُدولا

متى ارتاد مرتادٌ مَقيلا لعـثْرة ... أتاك فألفى للعثار مَقيلا

وناديتَ فينا صُحْبة الخير أقبلوا ... بإقبالكم حُزْتم لدىَّ قبولاً

لقد كنت ا ا واصلوك ببرِّهم ... حَفيًّا بهم برّاً لهم ووَصُولا

أقاموا لدين الله فيك شعايرا ... هدتهم إلى دار السلام سبيلا

فكم أطلقوا فيها أعنَّة جَدِّهم ... وكم أرسلوا فيها الدموع همولا

دموعا أثارت سَحَّها ريح زفرة ... فسالت وخدَّت فى الخدود مسيلا

لديك أيا شهر الهُدى قصَّروا المدى ... فكم لك فى شأو الفضايل طولا

دلايل تشريف لديك كثيرة ... كفى بكتاب الله فيك دليلا (1)

---

(١) لم يذكر لنا ابن الخطيب تاريخ وفاة ابن لب ، لأنه توفى قبله ، ولكن الناسخ أورد فى هامش المخطوط ، نقلا عن ابن فرحون صاحب « الديباج المذهب » وعن الحافظ ابن حجر ان ابن لب قد توفى فى سنة ٧٨٣ هـ .

ومن الصوفية والصلحاء

فضل بن محمد بن على بن فضيلة المعافرى

يكنى أبا الحسن من أهل الشرق الأندلسى، أبو الحسن الولى الصالح الصوفى .

حـــاله

كان ولياً فاضلا زاهدا ، على سنن الفضلاء ، وأخلاق الأولياء ، غزير العلم ، كثير العمل ، دايم الاعتبار ، مشهور الكرامة ، مُسْتجاب الدعوة ، صوفيا محققا ، انتهت إليه الرياسة فى ذلك على عهده . يدل على ذلك كلامه على أغراض القوم ، وكَشْفُه عن رموزهم وإشاراتهم ، أديبا بليغا ، كاتبا مرسلا ، لا يُشَقُّ غباره فى ذلك . قايما على تجويد كتاب الله ، عالى الرواية ، أَسَنَّ وتناهى وازْدَلف إلى التِّسْعين ، مُمَتَّعا بجوارحه ، ووُلِّى الخطابة والإمامة بالمسجد الأعظم ، أقرأ به مدة كبيرة .

قال ابن الزبير فى « صلته » : كان جليلا فى ذاته وخُلُقه ودينه ، معدوم النظير فى ذلك ، مشاركا فى فنون من العلم ، أديبا بارعا ، كاتبا بليغا ، فصيح القلم ، متقدما فى ذلك ، متصوفا ، سَنِياً ، ورعا ، معدوم القرين فى ذلك ، متواضعا ، مقتصدا فى شئونه كلها ، جاريا فى خُلُقه وأفعاله وأحواله ، على سُنَن السلف ، أحفظ الناس للسانه وجوارحه وأصدقايه ، وأسلمهم عنيا ومشهدا ، وأشدهم تمسكا بهْدى السلف الصالح ، مؤثرا للخمول ، سريع العَبْرة ، شديد الخوف لله سبحانه، تاليا لكتاب الله ، كثير الصوم ، خفيف القَدَم فى حوايج أصحابه ، مشاركا لهم بأقصى ما يمكنه . له تقاييد جوابية عما كان يُسئل عنه فى الفن الذى كان يؤثره ،

محررا ما يلزم التقييد به من كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، غير منافر لمذهب الأَشْعَرية ، مالِكى المذهب ، له اختيارات يسيرة لا يُفتى بها ، ولا تتعدّى علمه .

مشيخته

روى عن أبى تمام غالب بن حسن بن أحمد بن سيدبونه ، وعن أبى العباس أحمد بن محمد بن شُهيد ، وأخذ أيضا عن أبى بكر بن محرم ، وأجاز له أبو بكر بن المرابط ، وقرأ على القاضى أبى القاسم بن يحيي بن ربيع ، والقاضى أبى عيسى بن أبى السّداد المُرْسى ، وغيرهم :

من أخباره

وكراماته شهيرة ، فمنها أن رجلا استفتاه ، فأفتاه بجواب لم يحصل له به الإقناع ، فرأى فى عالم النوم ، وإثر سؤاله إياه ، رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول له ، الحق ما قال لك فلان فى المسألة . قال الحاكى ، فبكَّر إليه الرجل من الغد ، فلما أقبل عليه بموضع إقرايه ، قال له ، ألم ترد أن تَسْتَفتى يا أبا فلان إلاّ من رأس العين ، فَبُهت الرجل . وأحواله شهيرة :

مولده : ولد عام سبعة وستماية .

وفاته : فى الثامن عشر من محرم عام تسعة وتسعين وستماية . ودفن بمقبرة [ربض][1] البيّازين مع قومه من صلحاء الشّرق ، وكانت جنازته مشهودة .

---

(١) هذه الكلمة واردة فى الزيتونة . وساقطة فى الإسكوريال .

ومن العمال الأثرا

فلوج العلج

مولى يحيى بن غانية .

حاله

كان فلُّوج شهما شجاعا ، مَهيبا حازما ، نال من مولاه حظوة ، واستعان به على أموره المهمة . وجرى على يده إغْرام أهل قرطبة ، وانطلقت على أموالهم يده ، وأثرى وجمع مالا دَبْرا من الصامت والذخيرة عظيما .

نكبته

وكان يحيى بن غانيه قد ولاه حصن بنى بشير ، فثقَّفه وحصَّنه ، ونقل إليه أمواله ومتاعه ، وذخيرته . ولما توفى مولاه ، لحق به وملك أمره ، واستعان بجماعة من النصارى ، ثم بدا له لضعف رأيه ، وسوء تدبيره ، أن ألقى بيده إلى ابن أخي مولاه إسحق بن محمد بن غانيه ، فأناب ولحق به ، معتذرا عن توقفه ، فقبض عليه وصفَّده . وعرض عليه العذاب ، وأسكنه فى تابوت ، باطنه مسامير ، لا يمكنه معها التصرف ، وأجاعه بمرأى من الطعام بمطبخه ، إلى أن مات جوعا وألما . وهو مع ذلك لا يطمعه فى شىءٍ من المال . وتخلَّف بالحصن رجلا من جهة سَرَقُسْطة ، يعرف بابن مالك ، ويكنى أبا مروان . فلما ذاع خبر القبض عليه . بادر الموحدون الذين بلَوْشة ، فتغلبوا عليه . واستولوا على ما كان به من مال وذخيرة ، ووجدوا فيه من أنواع الثياب والحُلى والذَّخيرة . كل خطير عظيم ، وشدُّوا على ابن مالك فى طلب المال . فلم يجدوا عنده شيئا . إلى أن فدى نفسه منهم ، بمال كبير . فمضى فلُّوج على هذا السبيل .

ومن المقريين والعلماء

قاسم بن عبد الله بن محمد الشَّاط الأنصارى

نزيل سبتة ، وأصله من بلنسية ، يكنى أبا القاسم . قال ، والشَّاط إسم لجدى ، وكان طُوالا فجرى عليه الاسم .

حاله

نسيج وحده فى إدراك النظر ، ونفوذ الفكر ، وجودة القريحة ، وتسديد الفهم ، إلى حسن الشمايل ، وعلو الهمة ، وفضل الخلق ، والعكوف على العلم ، والاقتصار على الآداب السُّنية ، والتحلى بالوقار والسكينة . أقرأ عُمْرَه بمدرسة سبتة ، الأُصول والفرايض ، متقدما ، موصوفا بالأَمانة . وكان موفور الحظ من الفقه ، حسن المشاركة فى العربية ، كاتبا ، مُرسَّلا ، ريّان من الأَدب ، ذا مماسَّة فى الفنون ، ونظر فى العَقْليات ، ضرورة لم يتزوج ، ممن يتحلى بطهارة وعفاف .

وقال فى « المؤتمن » كان مع معارفه ، عالى الهمة ، نزيه النفس ، ذا وقار وتُؤدة فى مشيه ومجلسه ، يُشاب وقاره بفكاهة نظيفة ، لا تنهض إلى التأْثير فى وقاره ، ظريف الملبس ، يخضب رأسه بالحنا على كبره .

مشيخته

قرأ بسبتة على الأستاذ الكبير أَبى الحسن بن أَبى الربيع وبه تأَدب ، وعلى أَبى بكر بن مشليون . وعلى الحافظ أَبى يعقوب المحاسبى ، وعلى الطبيب أَبى عبد الله محمد بن على بن أَبى خالد العبدرى الأُبَّدى ، وعلى أَبى الحسن البصرى ، وعلى خاليه أَبى عبد الله محمد وأَبى الحسن إبنى الطرطانى ، وأَجازه أَبو القاسم بن البرَّا . وأَبو محمد بن أَبى الدنيا ،

وأبو العباس بن على الغماز ، وأبو جعفر الطباع ، وأبو بكر بن فارس ، وأبو محمد الأنبارى ، وغيرهم . وأخذ عنه الجملة من أهل الأندلس من شيوخنا كالحكيم الأستاذ أبى زكريا بن هُذَيل ، وشيخنا أبى الحسن بن الجياب ، وشيخنا أبى البركات ، والقاضى أبى بكر بن شِبرْين ، وقاضى الجماعة أبى القاسم الحسنى الشريف ، والوزير أبى بكر بن ذى الوزارتين أبى عبد الله بن الحكيم ، والقاضى أبى القاسم بن سَلْمون ، وغيرهم .

شعره

وكان يقرض أبياتا حسنة من الشعر ، فمن ذلك قوله يُذيِّل أبياتا لأبى المطرِّف بن عميرة وهى :

فَضَل الجمال على الكمال بخدِّه	والحق لا يخفى على من وسَّطه
عجبا لـه برهانـه بشروطـه	معه فمـا مطلـوبُه بالسَّفْسطـه
عَلِم التَّبـاين فى النفـوس وإنها	منها [مفرطة وغير مفرطة] (١)
فيه رأت وجه الدَّليـل وفرْقه	أصْغَت إلى الشُّبهات فهى مورطة
فأراد جمعها معـا فى حكمـة	هذى بمُنْتجـة وذى بمغلَّطـة

ومن شعره قوله :

وإنى سلكتُ من انقباضى مسلكا	وجريتُ من صَمْتى على مِنهـاج
وتركت أقوال الـبرية جانبـا	كى لا أميِّز مَادحـا من هـاج

دخوله غرناطة

ورد على غرناطة عند تصَيرُّ سبتة إلى الإيالة النَّصرية مع الوفد من أهلها ببيعة بلدهم ، فأخذ عنه بها الجُملة ،ثم انصرف إلى بلده . قال شيخنا

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (مفروقة وغير مفروقة) .

أبو البركات ، وأنشدنا لنفسه :

قلت يوما لمن تخذت هواه ملّةً قد تبعتها وشريعة
لم تأبَ الوصال وهو مُباح وتسُوم المحبَّ سوءَ القَطيعة
قال إني خشيت منك ملالاً فتركت الوصال سدّ ذريعة

وأنشدنا :

وغزال أنْس سَلّ من ألحاظه سيفا أراق دم الفؤاد بسَلّه
وبِخَدّه من ذلك أعدل شاهد يقضى بأن الفتك به من فِعْله
مالى أطالبه فيدحض حجّتى ودمى يُطَلّ وشاهدى من أهله

وأنشدنا الفقيه أبو القاسم الزقّاق ، قال أنشدنا الأستاذ أبو القاسم الشاط ، وقد خرجنا معه مشيعين إياه فى انصرافه عن غرناطة آيبا إلى بلده :

يا أهل غرناطة إنى أودعكم ودمع عينى من جَراكم جار
تركتُ قلبي غريباً فى دياركم عساه يلْقَى لديكم حُرْمة الجار

توالیفه

منها « أنوار البروق فى تعقب مسايل القواعد والفروق». « وغنية الرابض فى علم الفرايض ».وتحرير الجواب فى توفير الثواب . وفهرسة حافلة . وكان مجلسه مألفا للصّدور من الطلبة ، والنبلاء من العامة ، حدثنى شيخنا القاضى الشريف أبو القاسم ، قال ، كان يجلس عند رجل خياط من أهل سبتة ، يعرف بالأجعد من العامة ، فأخذ يوما يتكلم عن مسألة ، فقال متمثلا كما تقول الأجعد الخياط فعل كذا ، ثم التفت معتذرا يتبسم وقال ، أتمثل بك ، فقال الأجعد بديهة ، إذاً يا سيدى أعتق عليكم ، إشارة إلى قول الفقهاء ، [العبد يُعتق على سيّده ، إذا مُثل به] (1) فاستظرف قوله .

---

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى الزيتونة . ووردت فى الإسكوريال كالاتى (أن العبد إذا مثل به عتق) والعبارة الأولى أوضح وأنسب للسياق .

مولده : فى ذى قعدة من عام ثلاثة وأربعين وستماية بمدينة سبتة

وفاته : توفى بها فى آخر عام ثلاثة وعشرين وسبعماية ، وقد استكمل الثمانين .

قاسم بن عبد الكريم بن جابر الأنصارى

من أهل غرناطة ، يكنى أبامحمد ، ويعرف بابن جابر .

حاله

كان رحمه الله من جلة أهل العلم والفضل ، حسن الأخلاق ، مليح الحديث ، عذب الفكاهة ، لطيف الحاشية ، على دين والتزام سُنّة . رحل إلى المشرق ، فلقى العلماء ، وأخذ عنهم ، وكَلِف بعلم الجَدَل ، فقرأه كثيرا ، وبهر فيه . وورد على غرناطة من رحلته ، فأقرأ بها الأصول وغيرها من جدل ومنطق وفقه .

مشيخته

قرأ بغرناطة على الخطيب ولى الله أبى الحسن بن فضيلة ، والأستاذ خاتمة المُقْرِيين أبى جعفر بن الزُّبير ، وولِّى القضاء ببَسْطة . ثم كَلِف بالإقراء وعكف عليه ، فلم ينتقل عنه .

من أخذ عنه : أخذ عنه كراسة الفخر المسماة « بالآيات البينات » . وكان قايما عليها ، جملة من شيوخنا ، كالأستاذ التعاليمى أبى زكريا بن هذيل ، والأستاذ المقرى أبى عبد الله بن البيّانى

شعره

وله شعر أنشدنا الشيخ أبو القاسم بن سلمون ، قال أنشدنا فى شيخنا ابن جميل قوله :

إن أَطْلَعَ الشَّرقُ شمسُ دنيا قد أَطْلع الغربُ شَمْسَ دِين

وبين شمس وبين شمس ما بين دُنيا وبين دِين

مولده : ولد بغرناطة عام تسعة وستين وستّماية .

وفاته : توفى بها فى جمادى الآخرة أو رجب من عام أربعة عشر وسبعماية.

قاسم بن يحيى بن محمد الزّروالى

يكنى أبا القاسم ، ويعرف بابن دِرْهم ، مالَقى أصله من جبال تاغسى ، ودخل غرناطة وقرأ بها .

حاله

من تذييل صاحبنا القاضى أبى الحسن ، قال فيه : كان رحمه الله واحد زمانه ، ينبوع الحكمة ، يتفجر من لسانه ، وعنوان الولاية على طَيْلسانه . ومن « عايد الصلة » : كان رحمه الله علما من أعلام الزهد والورع والديانة ، والتقلّل من الدنيا ، والعكوف على تجويد كتاب الله وإقرايه ، منقطع القرين فيه ، كثير المناقشة والتحقيق ، يرى أن ليس فى الأرض من يحكم ذلك حق إحكامه ، مالم يأخذه .

مشيخته

قرأ على جملة من حملة كتاب الله بالمشرق والمغرب والأندلس ، وعُنى بذلك . ثم لم يعتمد منهم إلاّ على الأستاذ أبى إسحق الغافقى بسَبْتة ، والخطيب

أبى جعفر بن الزيات ببلّش من الأندلس ، واستمرت حاله على سبيلها من الزهد والانقباض والتنطّع ، والإغراق فى الصلاح ، والشّذوذ فى بعض السجايا إلى أن توفى .

بعضٌ من نوادره مع اخشيشانه : حدثنى القاضى أبو الحسن بن الحسن ، أن بعض الطلبة المتنَسّكين قال له ، أتيتُك أقرأ عليك ، فأستخير الله ، ثم أتاه فقال قد استخرت ، وهمّ بالقراءة ، فقال له الشيخ . إمسك حتى أستخير أنا الله ، فى قراءتك علىّ ، فقال الطالب ، وهذا عمل برٌّ ، فقال له الحجة عليك . فانفصل عنه . ثم عاد إليه يَسَلُ منه القراءة ، فقال ، يابنى ظهر لى أن لا تقرأ على ، فانصرف .

ومن أخباره فى الكرامة ، قال لى المذكور ، وقد أزمعت السفر إلى ظاهر طَرِيف مع جَمْع المسلمين ، أنك إن سافرت[1] ياولدى ، تُقاسى مشقّة عظمى إن سبق القدر بحياتك ، والله يُرشدك ، وقد كنت شرعت فى ذلك مع رفقائى . وفى سحر ليلة اليوم ، الذى انهزم فيه المسلمون ، رأيته فى النوم يقول لى منكرا علىّ ، قلت لك لا تسافر يكررها ، فاستيقظت وأوقع الله بقلبى الرجوع إلى الجزيرة ، لآراب أقضيها ، فما بلغ زوال الشمس من اليوم ، إلاّ ومُقَدِّمة الفَلّ على أطواق البلد فى أسوإ حال .

وفاته

توفى ببلدة مالقة خامس صفر ، من عام خمسين وسبعماية فى وقيعة الطّاعون[2] ، توفى وآخر كلامه ، رزقنا الله عملا صالحا يقربنا إليه زُلفى ، وجعلنا ممن يمر على عُقْبَتَى الدنيا والآخرة مرور أهل التقوى .

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى الزيتونة (تسافر) .

(٢) سبق التعريف بوقيعة الطاعون أو الوباء الكبير (راجع المجلد الأول من الإحاطة ج ١ ص١٧٣ حاشية) .

ومن الكتاب والشعراء

قرشى بن حارث بن أسد بن بشر بن هندى بن المهلب بن القاسم ابن معاوية بن عبد الرحمن الهمدانى

حـــاله

هو أعرق الناس فى الشعر ، لأن جده المُهَلَّب كان شاعرا ، وولده هندى كذلك ، وأسد وحارث وقرشى فهم شعراء سنة على نسق ، ويدل شعرهم ، على شَرَف نفوسهم ، وبُعد هممهم .

شعـــره

قال أبو القاسم الغافقى ، من شعره قوله فى هاشم بن كعب التميمى من أنْجَد الفرسان ، قتل فى يوم ، خمسة من أنجاد المُوَلَّدين :

هجرتُ القوافى والظِّبا الأوانسا ... وودعتُ لذَّاتى نعم واللواعسا

ورعت فؤادى بالمَشِيب عن الصِّبا ... وأصبحت عن عهد الغواية يائسا

أبا خالد مازلتُ مذ كنت يافعا ... لكل سِنات المكارم لابســا

فما حملت أنثى كمثلك سيِّدًا ... ولا حملت خيلٌ كمثلك فارسا

قاسم بن محمد بن الجد العمرى

يكنى أبا القاسم ، ويعرف بالورسيدى ، من أهل ألمريَّة ، وتكرر وروده على غرناطة .

حـــاله

قال شيخنا أبو البركات ، كان حسن الأخلاق ، سليم الصدر ، بعيدا

عن إذاية الناس بيده أو لسانه بالجملة ، له خطٌّ لا بأس به ، ومعرفة بالعَدد ، وسلك الطريقة الزِّمامية ، وله حظ من قَرْض الشعر . وجرى ذكره فى الإكليل بما نصه : من أئمة أهل الزمام ، خليق برعى الذِّمام ، ذو حظ كما تفتّح زهر الكمام ، وأخلاق أعذب من ماء الغمام . كان ببلده محاسبا ، فى لجة الأعمال راسبا ، صحيح العمل ، يُلبس الطرُوس من براعته أسْنَى الحُلل .

شعره

قال يمدح المقام السلطانى :

أرى أوجه الأيام قد أشْرَقت بشرا ... فقل لى رعاك الله ما هذه البُشْرا
وما بال أنفاس الخُزامى تعطَّرت ... فأرَّجَت الأرجاء من نَفْحها عطرا
ونقَّبت الشمس المنيـرة وجهها ... قُصُورا عن الوجه الذى أخْجَل البَدْرا
ومازالت بأغصان الرجـال أريحية ... كما عطفت أعطافها تَنْثَنى شكرا
فماذاك إلاَّ أن بدا وجه يوسف ... فأرْبَتْ على الآيات آياتُه الكبرا
خليفة ربٍّ العالمـين الذى بـه ... تمهدت الأرجـاءُ وامتلأت بِشْرا
وجرت على أعلى المجـرَّة ساحيا ... ذيول العُلى فاستكمل النهى والأمرا
وقام بأمر الله يقضى ويقتـضى ... الفتوح التى تُبقى له فى العلى ذكرا
وأربى على كل المـلوك وفاتهم ... بسيرته الحُسْنى التى قد عَلَتْ قَدْرا

وهى طويلة ، ومن شعره أيضا قوله :

من أين أقْبَلْتَ يـا نسيم ... جـادت بساحاتـك الغُيوم
ولا عَدِمناه منك سُرَى ... حـلَّ به عنـدنا النعـيم
بلِّغ سلامى أهَيل وُدّى ... بلغك الله ما تـــروم
قـل لهـم صَبُّـكُمُ مشوقٌ ... أنْحَلـــه وجـــدُه القـديم

لطالما يسهر الليالى ... وطىُّ أضلاعه جحيم
هبوا رضاكم لذى غرام ... مازال قُدُماً بكم يهيم
إن غبتم عن سواد عينى ... فحبُّكم فى الحَشَى مُقيم
لو تَرَّ ساعد السَّعد أن أراكم ... لما اشتكى قلبى السَّقيم
يا حادى العِيس نحو أرض ... بنيقة قدرها عظيم
إذا أتيت اللِّوى وسلفا ... وبان للناظر الحَطِيم
ولاح بالأبْرَقين بدرٌ ... بسيْره تهتدى النجوم
فقل غريبٌ ثوى بقرب ... فى بحر أوزاره يَعُوم
قد أثقلت ظهره الخطايا ... وشجَبت ذكره الرسوم
إن أعمل الحزم لارتحال ... أقعده ذنْبُه العظيم
لهنى هذا الشباب ولَّى ... والقلب فى غَيِّه مُقيم
يارب عفوا لذى اجترام ... لا تَهْتِك السِّتر يا حليم
مالى شفيع سوى رجائى ... وحسن ظنى أيا كريم
فلا تكلنى إلى ذنوبى ... وارحمنى يا ألله يا رحيم

وفاته : توفى فى وقيعة الطاعون عام خمسين وسبعماية .

ومن المحدثين والفقهاء والطلبة النجباء

قاسم بن أحمد بن محمد بن عمران الحضرمى

من أهل سبتة :

حاله

من خط صاحبنا القاضى أبى الحسن بن الحسن . قال ، كان شيخا

يتقد ذكاء . رحل عن سبتة إلى الحجاز ، فقضى الفريضة ، وتطور في البلاد المشرقية نحوا من أربعة عشر عاما ، وأخذ بها عن جلة من العلماء . وورد على غرناطة في حدود عام ثمانية عشر وسبعماية ، فأخذ عن بعض أشياخها ، وعاد إلى بلده ، وكان على خزانة الكتب به ، وكان يقرئ القرآن به ، قال ، وأنشدني لما لقيته بيتا واحدا ، يحتوى على حروف المعجم ، وهو :

قد ضم نصر وشكا بثه   مذ سخطت عض على الإبط

مشيخته

أخذ بالمشرق عن جماعة ، منهم شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أبي طالب الدمشقي الحجار ، والشيخ المحدث أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد الشيرازي ابن جميل ، قرأ عليه كتاب ابن الحاجب ، وحدثه به عن مؤلفه ، وقرأ على الشيخين المقريين الجليلين ؛ أبي عبد الله محمد بن عبد الخالق المعروف بابن الضايع وأبي عبد الله بن يعقوب الجراش المقدسي ، جملة من الكتب الحديثية وغيرها ، وسمع عليهما كتاب « الشاطبية » وحدثاه بها معا عن المقرى أبي الحسن على كمال الدين بن شجاع العباسي الضرير ، عن صهره مؤلفها .

تواليفه : قال : له في القراءات تقييد حسن سماه « الشافي في اختصار التيسير الكافي »

وفاته : توفى أيام الطاعون العام (1) ببلده .

قاسم بن خضر بن محمد العامرى

---

(١) الطاعون العام حسبما سبق التعريف به اجتاح الأندلس في سنتي ٧٤٩ و ٧٥٠ هـ .

يكنى أبا القاسم ، ويعرف بابن خضّر هكذا ' دون تعريف. يعرف سلفه ببنى عمرون من أهل ألمرية .

حـــاله

من خط شيخنا أبى البركات ، كان هذا الشيخ من وجوه ألمرية ، وممن تصرف سلفه فى خُطَّة القضاء بها . وهو أقدم خطيب أدركتهُ بسِنِّى بجامعها الأعظم . وكان شيخا عفيفا من رجال الجد ، ضيق العَطَن ، سريع الغضب ، غيورا على تلك الخطة ، لا يُحلى بعينه أحد . لما مات رفيقه فى الصلاة والخُطْبة ، الشيخ الشهير عند العامة ، ثالث اثنين ، الخراءى والنطية ، أبو عبد الله بن الضايع ، فكلٌ من عرض عليه أن يكون معه أباه ، فقال أهل البلد ، فما العمل ، فقال يُكتب إلى أبى القاسم ابن الحاج إلى سبتة ، ليأتى إلى أرض سلفه ، ويكون رفيقى فى الصلاة والخطبة، يعنى عمِّى ، فكتب إليه بذلك، فكانت المسألة عند الآخر ، أهون من أن يجيب على الكتاب ، ولو بالإباية ، فبقى الأمر إلى أن قُدِّم معه الشيخ الصالح الخطيب المِصْقَع أبو الحسن بن فرحون البِلْفِيقى ، فلم يجد فيه قادحاً إلا كونه ليس من أهل البلد ، فبقى مرافقا له إلى حين وفاته

غريبة : قال الشيخ أخبرتنى جدتى عائشه بنت يحيى بن خليل ، قالت ، كان الرجل الصالح ، أبو جعفر بن مكنون خال قاسم بن خضر هذا ، فرآه يلعب مع الصبيان فى أزقة ألمرية ، فقال له من يكون خطيب ألمرية يلعب ، فبقيت فى حفظه إلى أن وُلِّى الخطابة .

وفاته : توفى فى صفر من عام ثلاثة وسبعماية ،وكانت جنازته مشهودة

حرف السين

سوار بن حمدون بن عبده بن زهير بن ديسم بن قديدة بن هنيدة

وكان علماً من أعلام العرب ، وصاحب لواء قيس بالأندلس ، ونزل جدُّه [١] بقرية قربسانة [٢] من إقليم البلاط من قرى غرناطة ، وبها أنْسَل ولدُه ، ولم يزالوا أعلاما ، إلى أن ظهر سوّار هذا منهم فى الفتنه .

حاله وبعض آثاره وحروبه

قال أبو القاسم ، كان سوّار هذا بعيد الصيت ، رفيع الذكر ، شجاعا ، محيا فى الظهور ، حامى العرب وناصرهم . وكان له أربعة من الإخوة ، مثله فى الشجاعة ، حضروا معه فى الحروب فى الفتنه ، وهو الذى بنى المدينة الحمراء بالليل،والشَّمعُ تُزْهِرَ لعرب الفحص ، وبنى مدينة وادى آش لبنى سامى ، وبنى مدينة مُنْتِيشة لبنى عطاف ، وبنى مدينة بَسْطة لبنى قحطبة ، وبنى مَسِيرة ، وبنى كورة جيَّان للعرب . ولولا أن الله منَّ على العرب بسوّار ونصره ، لما أبقى العجم والمولدون منهم أحدا . وأنسل سوّار ، عبد العزيز المقتول بمُنتِشافر ، وعبد الرؤوف وعبد الملك .

مبدأ أمره وحروبه وشعره

قال أحمد بن عيسى بعد اختصار ، فى صدر هذه السنة ، يعنى سنة خمس وسبعين ومائتين ، ثار سوّار بن حمدون بناحية البراجِلة من كورة إلبيرة ، وانضوت إليه العرب ، قام على تفئة مهلك يحيى بن صَقالة أميرهم ، قتيل المُسالِمة والمولَّدين ، فطلب بثأره ، وكثرت أتباعه ،

---

(١) هذه الكلمة واردة فى الزيتونة وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) قربسانة وبالإسبانية Caparacena من قرى غرناطة وتقع غربيها على فرع نهر شنيل .

واعترت العرب به . وقصد بجمعه إلى سَمْت شافر ، وبه من عدوه المذكورين نحو من ستة آلاف رجل نازلهم حتى قهرهم . وطاف على حصونهم فافتتحها ، وقتل وغنم ، وتنادوا لقتاله فى جموع عظيمة ،عليها جَعْدُ بن عبد الغافر عامل الأمير عبد الله ، وبرز إليهم فيمن برز ، وناشبهم الحرب ، فانهزموا فقتل منهم خلق حُزِروا بسبعة آلاف ، وأسر جعد ، ومنّ عليه وأطلقه ، وكانت وقيعته الأولى هذه تعرف بوقيعة جَعْد . وغَلظ ، واستند إلى حصن غرناطة ، بالعرب من مدينة إلبيرة . وكانت العرب يتألبون على المولّدين، إلى أن عزل الأمير جعداً عن الكورة إرضاء لسوّار ، فأظهر عند ذلك الطاعة، وغزا الحصون الراجعة إلى ابن حَفصون فأوقع بهم ، فهاجمهم ، واجتمعت عليه كلمتُهم ، فقصدوه وحصروه بغرناطة فى نحو عشرين ألفا ، وبرز إليهم فى عدده القليل من عبيده، ورجال بيوتات العرب من أهل إلبيرة ، ورجعوا من جبل الفخّار على تعبئة ، يريدون الباب الشرقى من غرناطة ، وكادهم لما التحمت الحرب وشبّ ضِرامُها ، بما دبره من انسِلاله فى لَخْمة[1] من فرسانه ، حتى استَدبرهم، فحمل بشعاره ، فانذعروا وانفضّوا ، فتوهّم حُماتهم أن مددًا جاءهم من ورائهم ، فولوا منهزمين ، وأعمل سوّار وأصحابه السيوف فيهم إلى باب إلبيرة ، فيقال إن قتلاهم فى هذه الوقيعة الثانية كانوا إثنى عشر ألفا ، وهى الوقيعة المعروفة بوقعة المدينة ، ولاذ المولّدون بعد هذا بعمر بن حَفْصون واستدعوه ، فوافاهم فى جيش عظيم ، ودخل إلبيرة ، وناهض سوّارا . وعنده رجالات عرب الكُوَر الثلاث ، إلبيرة وجيّان وريُه ، واشتد القتال ، وجال جيش ابن حفصون جولة ، جُرح فيها جراحات صعبة ، وكاد سوّار يأتى عليه . لولا رجال صدقوه الكرّ

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (خمسة) والأولى أرجح .

واستنقذوه ، وتمّت عليه الهزيمة ، فانقلب على عَقِبه ، ونالت الحضرة معرّته ، فأغْرَم أهلها الذين استجلبوه ما تشَعَّث من عسكره ، واستعمل عليهم قائده حفص بن المُرَّة ، وانصرف. ونجح سوّار بما تهيأ له على أعدائه ، فاعتلَت همته ، وأجلّته العرب ، وعلا فى الناس ذكره ،وقال الأشعار الجزْلة ، فيما تهيأ له على المولدين ، وأكثر الافتخار بنفسه ، فشُهر من قوله فى ذلك :

صَرَم الغـوانى ياهُنيد مودتى ... إذ شاب مِفْرَق لِمّتى وقَـذالى

وصَدَدْن عنى يا هُنيـد وطالمـا ... علقت حِبال [وصالها بحبالى] [١]

وهى طويلة ، أكثر فيها الفخر ، وألمَّ بالمعنى .

وفاته

ولما انصرف عمر بن حفصون وترك قائده بإلبيرة ، جهز معه طائفة من خيله ، وأقره لمُغاوَرَةِ سوّار ، ودَرْك النيل لديه ، وأعمل حفص جهده ، وطلب غرّته ، فأمكنه الله منه ، وأنه دنا إليه يوما ، وقد أكْمَنَ أكثر خيله ، وظهر له مُسْتَغيراً بجانب من حِصْنه ، فخرج سوّار مبادرا من غرناطة لأول الصّبحة فى نفر قليل ، لم يحترس من الحيلة ، التى يحذرها أهل الحزم ، فأصحر لعدوه ، وخرجت الكماين من حوله ، فقُتل وجئ بجُثّته إلى إلبيرة ، فذكر أن الثّكالى من نسايهم قَطّعن لحمه مرقاً ، وأكلنه حَنَقا [٢] لما نالهن من الثّكل . وكان قتل سوّار فى سنة سبع وسبعين ومايتين ، وقُتلت العرب بقتل سوّار ، وكلّ حدُّها بما نزل بها .

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى نص آخر (وصالهن حبالى) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (حقدا) .

سليمن بن الحكم بن سليمن بن عبد الرحمن الناصر لدين الله
الخليفة بقرطبة

المكْنى بأَبى أيوب الملقب من الأَلقاب الملوكية بالمُستعين بالله .

أوَّليته : معروفة .

حاله

كان أديبا شاعرا ، مجموع خِلال فاضلة ، أَصيل الرأى ، راجح العقل ، ثَبتا . ولى الخلافة غِلابا ، وقَعْصا ، ومنازعة ، وأَوْقَع بأَهل قرطبة وقائع أبادتهم . وخُلع ثم عادت دولته ، وجرت له وعليه الهزايم ؛ على قِصَر أمد خلافته ، لقيام البربر بدعوته ، وتَدْويخ البلاد باسمه ، فى أخبار فيها عِبْرة ، دخل فى بعض حركاتها وهولاتها المُبيرة[1] ، إلى أن طحنته رَحى الفِتنة ، وشيكا عن دنيا غير هنيَّة ، وصُبابة ليست بسَنِيَّة

شعره

من شعره يعارض المقطوعة الشهيرة المنسوبة للرشيد[2] .

عجبا يهاب الليثُ حدَّ سِنانى	وأهاب لَحْظَ فواتر الأجفــان
فأُقارع الأَهــوال لا مُتَهيبا	منها سوى الإِعراض والهُجْران
وتملَّكت نفسى ثلاث كالدُّمى	زُهْر الوجوه نواعم الأَبــدان
ككواكب الظَّلماءِ لُحْن لناظرى	من فوق أغصان على كُثْبــان
هذى الهلال وتلك أُخت[3] المشترى	حُسْنًا وهذى أخت غُصْن البان
حاكمت فيهن السُّلو إلى الهوى	فقضى بسلطان على سلطان

(١) وردت فى الإسكوريال إلبيرة ، والتصويب أنسب للسياق .

(٢) مقطوعة الرشيد المشار إليها مطلعها : « ملك الثلاث الآنسات عنانى » .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى نص آخر (بنت)

فأبخن من قلبي الحِمى وتركتنى في عزِّ مُلكى كالأسير العان
لا تعذلوا ملكا تذلّل للهوى ذلُّ الهوى عزٌّ وملكٌ ثـــان

مقتله

قتله على بن حَمّود المتقدم الذكر ، متولى الأمر بعده ، صبراً بيده ، بدم هشام المؤيد ، وقال لما زحف إليه ، لا يقتُل الزُّلطان إلا الزُّلطان ، يعني السُّلطان ، إذ كان بربرى اللسان ، وذلك في أخريات المحرم من سنة سبع وأربعماية .

سليمن بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان

يكنى أبا أيوب .

حـــاله

كان شهما جريئا ، أنُوفاً شجاعا ، ديِّنا فاضلا . ولما توفى أبوه بقصر قرطبة ، وهشام وأبو أيوب هذا غائبان ، وكّل ابنه عبد الله ، المعروف بالبَلَنْسى ، وقال من سبَق إليك من أخويك ، فارْمِ إليه بالخاتم ، فإن سبَق إليك هشام ، فله فضل دينِه وعفافه واجتماع الكلمة عليه . فإن سبق إليك سليمن ، فله فضل دينهِ ونجْدته ، وحبُّ الشاميين له . فقدم هشام من ماردة ، وتولى الخلافة قبل سليمن . واتصل ذلك بسليمن ، فأخذ لنفسه البيعة بطُليطلة ، وما اتصل بها ، ودعا إلى نفسه ....[1] وواضَع أخاه الحرب غير ما مرة ، تجرى عليه في كلها الهزايم ، إلى أن تبرّم بنفسه ، وأجاز البحر عن عهد إلى ستين ألفاً بُذلت له ، واستقرّ بأهله وولده ببلاد البربر . ولما صار الأمر للحَكم بن هشام ، عاد إلى

(١) بياض في المخطوط .

الأندلس سنة اثنتين وثمانين ومائة ، وكان اللقاء فى شوال منها ، فانهزم سليمان ، ثم عاد للقاء فانهزم . وفى سنة أربع وثمانين حشد ، واحتلّ بجيّان ثم بإلبيرة ، والتقى بها معه الحكم ، ودام القتال أياما ، حتى هم الحكم بالهزيمة ، ثم انهزم سليمن ، وقتل فى المعركة بَشرٌ كثير ، وأفلت سليمن إلى جهة ماردة . وبالتقاء الحكم وعمّه سليمن بإلبيرة وأحوزاها ، إستحقا الذكر هنا على الشرط المعروف .

وفاته : وبعث الحكم أصْبغ بن عبد الله فى طلب سليمن ، فأسره وأتاه به ، فأمر بقتله ، وبعث برأسه إلى قرطبة . قتل فى سنة خمس وثمانين بعدها .

سعيد بن سليمان بن جودى[1] السعدى

حاله

كان سعيد بن سليمن صديق سوّار ، فغصبت العرب الإمارة به بعده ، وعلِقت به ، فقام بأمرها وضمّ نَشْرها ، وكان شجاعا بطلا ، فارسا مجرّبا ، قد تصرف مع فروسيته فى فنون من العلم ، وتحقق بضروب من الآداب ، فاغتدى أديبا نحريرا ، وشاعرا مُحْسنا ، واتصل قيامه بأمر العرب إلى أن قُتل .

شعره

ومن شعره فى وقيعة سوّار بالمولدين قوله من قصيدة طويلة :

قد طلبنا بثأرنا فقَتَلْنَا ... منكم كل مارق وعنيد

(١) وردت فى الإسكوريال (جود) والصواب ما أثبتناه .

قد قتلناكم بيحيى ومـا ... أن كان حُكْم الله بالمردود

هِجْتم يا بنى العَبِيد ليوثا ... لم يكونوا لجارهم بقعود

فاصطلوا حرَّها وحدَّ سيوف ... تلظّى عليكم بالوقـود

حاكمٌ ماجدٌ يقود إليكم ... فِئةً سادةً كمثل الأُسـود

مهذَّبٌ من نزار وعميدٌ ... ما مثله من عميـد

يطلب الثأر بابن قوم كرام ... أخذوا بالعهود قبل المُهود

فاستباح الحما لم يُبْق منها ... غير عانٍ فَقْدُه مَصْفـود

قد قتلنا منكم أُلوفاً فما ... يعدل قَتْل الكريم قتل العبِيد

مثّلوه لمّا أضاف إليهم ... لم يكن قتله برأىٍ سديد

قتَلته عبيدُ سوءٍ لئامٌ ... وفِعال العبيد غير حميد

لم يصيبوا الرشاد فيما أتوه ... لا ولا كان جَدُّهم لسعود

قد غَدَرْتم به بنى اللؤم من ... بعد يمينٍ قد أُكِّدت وعهود

فلئن كان قتله غَدْرةً ... ما كان بالنُّكس لا ولا الرِّعديد

كان ليثاً يحمى الحروب وحِصْناً ... وملاذا وعصمة المقصود

كان فيه التُّقى مع الحلم ... والبأس وجُودٌ ما مثله جود

عالٍ مجّد الأَمجاد بعدك ... قديماً وفتٌّ كل مجيد

فجزاك الإلـه جنة عدن ... حيث يَجْزى الثوابُ كلَّ شهيد

مقتله

قال الملاّحى ، كان من الأعلام ، وعُدَّ فى الشعراء والفرسان والخطَباء والبلغاء ، خطب بين يدى الخليفة[1] المنذر ، وهو حَدَثٌ ، أول ما أَفْضَت الخلافة إليه ، وعليه قباءُ خزٍّ ، وقد تنكب قَوْساً عربية ، والكنانة بين يديه . خطب خطبة بليغة ، وصلها بشِعر حسن ، ولم يزل اللِّوا يتردد

عليه فى العزّ والمُقام ، ويخطب فى أعلى المنبر فى المسجد الجامع بإلبيرة . وسجل له الخليفة[1] عبد الله على الكورة ، إلى أن همّ بالقيام على بنى أمية عندما اشتدت شكيمته ، وظهر على عمر بن حفصون إلى أن قتل بسبب امرأ ، تمت عليه الحيلة لأجلها بدار يهودية ، إذ كان منحطا فى هوى نفسه ، فطاح فى ذى قعدة سنة أربع وثمانين ومايتين ، وصار أمر العرب بعده إلى محمد بن أضحى حسبما يتقرّر فى مكانه .

ومن ترجمة الأعيان والوزراء والأماثل والكبراء

سهل بن محمد بن سهل بن مالك بن أحمد بن ابراهيم بن مالك الأزدى

صدر هذا البيت ، وياقوتة هذا العِقد ، يكنى أبا الحسن . قال أبو جعفر بن مسعدة ، كان رأس الفقهاء وخطيب الخطباء البلغاء ، وخاتمة رجال الأندلس . تفَنّن فى ضروب من العلم ، وبالجملة فحاله ووصفه فى أقطار الدنيا ، لا يُجْمله أحد ، فحدِّث عن البحر ولا حرج ، ضنٌ الزمان أن يسمح برجل حاز الكمال مثله

حاله

قال ابن عبد الملك ، كان من أعيان مِصْرِه ، وأفضل أهل عصره ، تفنُّنا فى العلوم ، وبراعة فى المنثور والمنظوم ، محدِّثا ضابطا ، عَدْلا ثقة ثبتا ، حافظا للقرآن العظيم ، مجوِّدا له ، متقنا فى العربية ، وافر النصيب من الفقه وأصوله ، كاتباً مجيدا للنظم فى مُعْرب الكلام وهزله ، ظريف

[1] (١) إن تعبير ابن الخطيب هنا بالخليفة إشارة إلى أمير الأندلس المنذر بن محمد بن عبدالرحمن الذى حكم من (٢٧٣ ٢٧٥ ﻫ) وأخيه الأمير عبد الله الذى حكم من (٢٧٥ – ٣٠٠ ﻫ) إنما هو تجاوز فى التعبير ، ولا يطابق الوضع التاريخى الصحيح . لأن الخلافة الأندلسية لم تقم إلا على يد عبد الرحمن الناصر فى سنة ٣١٦ ﻫ (٩٢٩ م) . وهو أول خلفاء بنى أمية بالأندلس .

الدعابة ، مليح التّندير . له فى ذلك أخبار مُستظرفة مُتناقلة ، ذا جِدَة ويسار ، متين الدين ، تام الفضل ، واسع المعروف ، عميم الإحسان ، تصدق عند القرب من وفاته بجملة كبيرة من ماله ورباعه ، وله وفادةٌ على مراكُش .

مشيخته

روى ببلده عن خاله أبى عبد الله بن عروس ، وخال أمه أبى بكر يحيى بن محمد بن عروس ، وأبى جعفر بن حَكَم ، وأبى الحسن بن كوثر ، وأبى خالد بن رفاعة ، وأبى محمد عبد المنعم بن الفرَس . وبمالقة عن أبى زيد السُّهيلى ، وأبى عبد الله بن الفخار . وبمرسية عن أبى عبد الله ابن حُميد ، وأبى القاسم بن حُبيش . وبإشبيلية عن أبى بكر بن الجَدّ ، وأبى عبد الله بن زرقون ، وأبوى عبد الله العباس بن مضاء ، والجراوى الشاعر ، وأبى الوليد بن رشد . قرأ عليهم وسمع ، وأجازوا له . وأجاز له من أهل الأندلس أبو محمد عبد الله نزيل سبتة ، وعبد الحق بن الخراط نزيل بجاية . ومن أهل المشرق جماعة ، منهم إسمعيل بن على بن إبراهيم الجراوى ، وبركات بن إبراهيم الخُشُوعى أبو الطاهر ، وعبد الرحمن ابن سلامة بن على القضاعى ، وغيرهم ممن يطول ذكرهم .

من روى عنه : روى عنه أبو جعفر بن خَلَف ، والطُّوسى ، وابن سعيد القزاز ، وأبو الحسن العَنْسى ، وأبو عبد الله بن أبى بكر البرى ، وابن الجنّان ، وأبو محمد عبد الرحمن بن طلحية ، وأبو محمد بن هرون ، وأبو القاسم ابن نبيل ، وأبو يعقوب بن إبراهيم بن عِقاب ، وأبو جعفر الطّباع ، وأبو الحجاج بن حَكَم ، وأبو الحسن الرُّعَينى ، وأبو على بن النّاظر ، وغيرهم .

ثناء الأعلام عليه : والمجال فى هذا فسيح . ويكفى منه قول أبى زيد الفزارى :

عجبا للناس تاهُوا بثَنيَّات المسالك
وَصَفوا بالفضل قوما وهم ليسوا هُنالك
كثر النَّقل ولكن صحَّ عن سهل بن مالك

شعره

وشعره كثير مما ينخرط فى سِلْك الجيد [فمن ذلك] قوله :

نَهارُك فى بحر السَّفاهة يسبح وليلُك عن نوم الرَّفاهة يُصبح
وفى لفظك الدَّعوى وليس إزاءها من العمل الزَّاكى دليل مُصَحِّح
إذا لم توافق قوْلةً منك فِعلــةً فَفى كل جزء من حديثك تَفضَح
تَنَحَّ عن الغايات لسْتَ من أهلها طريقُ الهُوَينا فى سلوكك أوْضَح
إذا كنت فى سن البنى غير صالح ففى أىِّ سِنٍّ بعد ذلك تَصْلُح
إلى كم أماشِيها على الرَّغم غاية يُصيب المزَكِّى عندها والمُجَرِّح
وعليها ألاَّ تَنْوِ ولا تَنِى فتُحْسَــن فى عــين الشَّــيبان وتُقَــبَح
عسى وطرٌ مونقٌ فالتمس الرِّضا واقرع أبواب الرَّشاد فتَفْتح
فقد ساء ظنِّى بالذى أنا أهْلُه وفضلك يا مولاى يعفو ويصفح

وقال فى تشييع بعض الفقهاء من غرض الأمداح :

يلقاك من كل من يلقاك ترحيب ومن خَلِيفتها عــزٌّ وتقْريب
وتصطفيك إلى أحوازها رتب لها على مَفْــرِق الجَوْزاء ترتيب
تأْتى إليك بلا سعى بلا سبب كأَنَّ تَرْكَك للأَسباب تَسْبِيب
من كلِّ مشغوفةٍ بالحسن دام لها إلى غِنائك تَصْعيد وتَصْويب
يلقاك بالبشر والإقبال خاطِبُها وحظُّها منك إعراض وتَقْطيب

ما زلت ترغب عنها وهى راغبة ... كأنَّ زهدك فيها عنك تَرْغيب

فانهض إليها فلو تستطيع كان لها ... إلى لقايك إرجاءٌ وتقـــريب

يحيى وتحيى فللْباغى مواهبُهــا ... عذب الزُّلال وللباغين تَعْذِيب

سارت على العدل والإحسان سيرتها ... حتى تلاقى عليها الشّاة والذِّيب

لم تُصِبْها لذةُ الدنيا وزخـرفُها ... ولا سَبَتْها المطايا والجلابِيب

إذا أهمَّ بنى الدنيـا نعيمهم ... فهَمُّها البيضُ والجُرْد السَّلاهِيب

فوق الكواكب مضروبٌ سُرادقها ... على أُفق الأفـــلاك تَطْنِيب

كَرَعْتَ فى ظلها الصافى بِسَلْسِلِها ... كأنها لك فى المشروب شرِّيب

فى فِتْيَة من بنى الآمال قد قرعت ... سُهَمٌ إلى طلب العليا طبابيب

إذا حضرنا طعاما فهى مأدُبَـة ... وإن سمعنا كلاماً فهـو تأديب

ومن يَلُذْ بأبى إسحاق كان لـه ... أعلاقُ مالٍ وأغلاقُ وتهـذيب

يا جلدُ السرِّ من قلبى ويا ملـكاً ... إن ناب خطب فمن جدواه تأنيب

هنيّ القرار لآمـــال مُسـافرة ... وقد أضرَّ بها بُعْدٌ وتَغْـــريبٌ

ففى يمينك وهـابا ومنتظما ... بَسْطٌ وقَبْضٌ وترغيبٌ وترهيبُ

وما يُبصِر كِتابا راق مَنْظَره إن ناله ... من تُـــراب الأرض تَتْـــريب

لك السِّيادة لا يُلقى لسؤددهـا ... مثلٌ وإن طال تَنْقِيرٌ وتَنْقـيب

عزمٌ كحدِّ سِنان الرُّمح يصحبـه ... عدل كما اعتدلت فيه الأنابيب

كمال نفسك للأرواح تَكمِلـة ... وذكر فضلك للأرواح تَشْبيب

وعَرْفُ ذاتك كافٍ فى تعرُّفنا ... بنفحة الطِّيب يُدرى أنَّه طِيب

إذا ذكِرت فالأشعار مضطَّرب ... رحب المجال وللألحان تَطْريب

سِرْ حيث شِيت موفَّى من مكارمها ... يَهابك الدهر والشُّبان والشِّيب

فى غُرَّة تخـق الأيـام جدَّتهـا ... لها على أفق الأملاك تَطْنـيب

ومن نمط النَّسيب والأَوصاف قوله وهو بسبتة بعدوصوله من مراكش ، وهو مما طار من شعره :

لما حططتُ بسبتة قَتَب النوى[1] والقلبُ يرجو أَن تحول حـاله

والجو مصقول[2] الأَديم كأَنما يُبْدى الخفىَّ من الأُمور صِقـاله

عانيت من بلد الجزيرة مسكنا[3] والبحر يمنع أَن يُصاد غـزاله

كالشَّكل فى المرآة تُبْصِـــره وقد قَرُبت مسافته وعزَّ مَنـاله

ومن شعره قوله رحمه الله :

تبسَّم واستأْثرتُ منه بقُبـلة فشِمتَ أُقاحا وارتشفتُ عُقـارا

ومرَّ فأَيدى الريح ترسل شَعْره كما ستر الليل البَهيم نهـارا

فيالك ليلاً بالكثِيب قطعتــه كما رُعت بالزَّجز الغُراب فطارا

تُغَضّ بنا زُهرُ الكواكب غَيْرةً فتقدح فى فَحْم الظلام شرارا

ومن ذلك قوله :

ولما رأَيت الصبح هبَّ نسيمه دعانى داعِيه إلى البَيْن والشَّت

وقلت أَخاف الشمس تفضح سرَّنا فقالت معاذ الله تفضحنى أُختى

ومن الحكم وأَبيات الأَمثال قوله رحمة الله عليه :

مُنَغَّص العيش[4] لا يأْوى إلى دَعة من كان ذا بلد أَو كان ذا ولد

والساكن النفس من لم تَرْض هِمَّته سُكنى مكانٍ ولم تَسْكُن إلى أَحد

ومن شعره :

ولا مِثلُ يوم قد نَعِمْنا بحُسْنه مُذهَّب أَثناء المروج صقيل

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الهوى) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (مقصود) .

(٣) وردت فى الإسكوريال (مكنسا) . والتصويب من الزيتونة .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (القلب) .

إلى أن بدت شمس النهار تَرُوعنا ... بسير صحيح واصفرارٍ عليل

ولما توارت شمسه بحجابها ... وأذَّن باقى نورها برحيل

وغابت فكان الأفق عند مغيبها ... كقلبى مُسْوَدٌّ لفَقْد خَليل

أتانا بها صِفْراً يسطع نورها ... فمزّق سِرْبال الدُّجا بِفَتيل

فردَّت علينا شمسُنا وأصيلُنا ... بمُشَبَّه شمسٍ فى شَبيه أصيل

ومن نثره قوله يخاطب بنى أبى الوليد بن رشد، تعزيةً فى أبيهم، واستفتحه بهذه الأبيات :

ألا ليت شِعرى هل لطالب غاية ... وصولٌ وأحداثُ الزمان تعوقُه

مضى عَلَم العِلم الذى بِبَيانه ... تَبَيَّن خافيه وبان طريقُه

أخِلاَّئى إنى من دموعى بزاخِرٍ ... بعيدٌ عن الشَّطَّين منه غَرِيقه

وما كان ظنِّى قبل فقد أبيكم ... بأنَّ مصابا مثل هذا أطيقُه

ولم أدر مَن أشقَى الثلاثة بعده ... أبناؤه أم دهرُه أم صديقُه

ومن شاهد الأحوال بعد مماته ... تيقَّن أنَّ الموت نحن نَذُوقه

رجوعا إلى الصَّبر الجميل فحقُّه ... علينا قضى أن لا توفِّى حُقوقه

أُعزيكم فى البعد عنه فإننى ... أهنّيه قرباً من جوارٍ يروقه

فما كان فينا منه إلاَّ مكانه ... وفى العالم العُلْوى كان رفِيقُه

إيه عن المدامع هلاّ تَلا انحدار الدّمعة انحدارُها، والمطامع هل ثَبَتَ على قُطْب مدارها، والفجائع أغيَرُ دارٍ بَنى رُشد دارها، فإنه حديث أتعاطاه مُسْكِرًا، وأستريح الله مفكِّراً، وأبثه باعثا على الأشجان مذكِّراً، ولا أقول كفًا وقد ذهب الواخِذ الذى كنت تَتَلافى، ولا أستشعر صبرا، وقد حلَّ نور العِلْم قَبْرا، بل أغْرِق الأجْفان بمائها، وأستدعى الأحزان بالشَّهير من أسمائها، واستوْهب الأشجان غَمرة غماتها. ثم أتهالك تَهالُك

المجنون ، وأستجير من الحياة بريْب المَنون ، وأُنافِر السّلوة منافرة وسْواس الظُّنون ، ولا عَتَب ، فإذا خامر الوالِهُ جَزَعه ، فإلى نُصْرة المدامع مَفْزَعُه ، وإذا ضَعُف احتماله ، فإلى غَمْرة الإغماء مآلهُ ، ومن قال إنّ الصبر أولى ، وليتُه من ذلك ما تَولّى . أما أنا فأَسْتَعيذ من هذا المُقام وأَسْتَعْفيه ، وأُنَزّه نفس الوَفا عن الحُلول فيه ، فإنه متى بقى للصّبر مكان ، ففى محل الحُزْن لقَبُول ما يقاومه إمْكان ، وقد خان الإخاء وجُهل الوفاء ، من رام قلبه السُّلُو ، وألفت عينه الإغْفاءَ . هو الخَطْبُ الذى يَقى الهُجود وألزم أعْيُن الثّقلين ، وبه أَعْظَم الدهر المصاب ، وفيه أخطأ سهم المَنيّة حين أصاب . فحقّنا أن نتجاوز الجُيوب إلى القلوب ، ونتغلّب إذا غالبنا الحزن بصفة المغلوب ، وإذا كان الدهر السّالب ، فلا غضاضة على المَسْلوب ، أستغفر الله ، قِفا نَتَذكّر من مَفْقُودنا رضى الله عنه حِكَمه ، ونشاهد بعين البصيرة سِيمَه ، فأجدهما يكُفّان من واكف الدمع دِيَمه ، ويقولون عندى آسّة المصاب ، ومزاحمة الأوصاب ، أمران وقَع ، فقد ضَرٌ فوق ما نفع ، فإنه لا ألَمُ الحزن شَفاه ، ولا حقٌ المصيبة وفّاه ، ولا الذّاهب الفايت استَرْجعه وتلافاه ، فربما جَنَحت إلى الصّبر لا رغبة فيه ، بل إيثارا لِمَقصِده وتشيّعا لتصافيه ، فأَسْتَرْوح رايحة السُّلو ، وأنْحَطُّ قاب قوسين أو أدنى عن سِدْرة ذلك العُلو ، وأقف بمقام الدّهش بين معنى الحزن المستحكم ، ولفظ القرا المتلُوّ . فأبكى بُكا النساء ، وأصبر صبر الرؤساء ، وأحْرُز رَزايا الفضلاء ، بفضل رزايا الأخسّاء ، موازنة بين هذا الوجود ، ونِحَل تتعاقب على نحل الجُود . فالدهر يسترجع ما وهَب ، كان الصّفراءُ أوالذّهب . وإذا تحقّق عدم ثباته ، وعدم استرجاعه لجميع هِباته ، كان المتعرِّض لكثيره ؛ محلا لتأثيره . فلا غرو أن دَهَمكم

الرُّزءُ مورد الفلك الدّابر منه الجزأ ، فطالما بتم ترضِعكم الحكمة أخلاقها ، وتهيكم الخلافة آلافها ، وتزملكم الأيّام خلافها . وإذا صَحِيت العقول ، وضنَّ بما لديه المعقول ، وصارت الأذهان إلى حيث لا تتصوّر الألسنة ، بحيث لا تقول ،وردتم مَعينا ، ووجدتم مُعينا ،وافتَضضْتُموها كمثل اللؤلؤ المكنون صُوَرا عينا . أظننتم أن عين الله تنام ، أم رُمْتم أن يكون صرحا إلى إلٓه موسى ذلك السَّنام ، لشد ما شيَّدتم البناء ، وألزمتم اتّباع الأب الأبناء ، حتى غَرِق الأول فى الآخر ، وصار السَّلف على ضخامته أقلَّ المفاخر . ومن عَلَت فى علاها قدم ترقِّيه ، ولم يُصب بكما له عينًا يحفظ من عين الطلن ويقيه ، فكثيراً ما يأتيه محذوره من جهة توقِّيه . هذا أبوكم رضى الله عنه حين استكمل ، فعرف الضّار والشّافى ، وتعذّرت صفات كماله على الحرف النّافى ، فيالله لفظة أُواليها ، وأُتبِعها زفرة تَليها ، لقد بَحَثَت الأيّام عن حَتْفها بظِلفها ، وسَعت على قدمها إلى رغم أنْفِها ، فمن لبث الوصل ، ولرعى الوسايل ، وإلى من يُلجأُ فى مُشكلات المسايل ، ومَن المجيب إذا لم يكن المسئول بأعلم من السّائل . اللّهم صبِّرنا على فقد الأُنْس بالعِلم ، وأدلنا من خُفوف الوَلَه بوقار الحلم ، وأَخْلِفه فى بنيه وعامة أهليه ، بشبيه ما أُوليته فى جوارك القدس وتولّيه . وإليكم أيها الإخوة الأولياء ، والعِلْية الذين عليهم قُصِرت العلياء . أعتذر من اتخاذ الشىء من الكلام بنقصه الأشياء . فقد خان فى هذا الزمان ، حتى اللسان ، وفقد منه حتى الحسان ، وليس لتأبين محمد صلى الله عليه وسلم إلاّ حسّان ، فالعذر مُنْفسح المجال . وإلى التقصير فى حقِّ رُزْئكم الكبير نصير فى الرَّوية والارتجال . ولذلك عدلت إلى الإيجاز ، واعتقدت فى إرسال القول فى هذا الموضع ضربا من المجاز . ومبلغ النفس عُذْرها مع

لعجز كالصّابر للإعجاز. وأما حسن العزاء على تعاقُب هذه الأَرزاء ، فأَمرٌ لا أهبه ، بل أَستَجديه ، ولا أذكركم به ، ونَفْسُ صبركم متوغلة فيه ، فسواكم يُلهم للإرشاد . ويَذكَّر بطرق الرشاد ، جعل الله منكم لآبايكم خَلَفا ، وأبقى منكم لأبنائكم سَلَفا ، ولا لد لكم الوجود بعده تَلَفا . والسلام .

محنته

امتُحن رحمه الله بالتّغريب عن وطنه ، لبغْى بعض حَسَدته عليه ، فأُسكن بمرسية مدّة طويلة ،إلى أن هلك بألمرية الأَمير أبو عبد الله محمد ابن يوسف بن هود ، آخر جمادى الأُولى سنة خمس وثلاثين وستماية . فسُرِّح أبو الحسن بن سهل إلى بلده فى رمضان من هذه السنة .

ومن شعره فى ذلك الحال مما يدل على بعد شأْوه ورفعة همته ، قوله :

الدمع هَمَى عن جوانب هِمّتى ... وتأْبى هموم العارفين عن الدّفع

وألتمس العُتْبى وحيداً وغايتى ... وصَرْفُ الليالى والحوادث فى جَمْع

وإنى من حزمى وعزمى وهمتى وما ... رُزِقته النفس من كرم الطّبع

لفِى مَنْصِب تعلو السماء سِماتُه ... فيَثْبُتُ نورا فى كواكبها السّبع

علا صرف دهرى إذ علا فإذا به ... ترابٌ لنَعْلى أو غبار على سَبْع

تدرّعت بالصبر الجميل وأجْلَبت ... صروف الليالى كى تمزّق لى درع

فما ملَلْتُ قلبى ولا قبضتُ يدى ... ولا الحمتُ أَصلى ولا حضرت فرع

فإن عَرَضت لى لا يفوه بها فمى ... وإن زَحَفت لى لا يَضيق بها ذَرْع

وفى هذه الأَبيات تأْنيث السّبعة الكواكب ، وحكمها التّذكير ، وذلك إما لتأْويل بعد أو غفلة ، فلينظره . قال أبو الحسن الرعينى ، ودخلت عليه بمرسية ، وبين يديه شمّامة زهر ، فأنشدنى لنفسه :

وحامل طيبٍ لم يُطَيَّب بطيبه   ولكنه عند الحقيقة طَيِّب
تألف من أغصـــان زهـــره   فمن صِفَتيه زاهــرٌ ورَطيب
تعانقت الأغصان فيه كما التقى   حبيبٌ على طول النوىٰ وحبيبُ
وإن الذى أدناه دون فـراقه   إلى كبيرٍ فى الوجود عجيب
مناسبةٌ للبَيْن كان انتسابها   وكل غريب للغريب نَسيب
فبالأمس فى إسحاره وبداره   وباليوم فى دار الغريب غريب

تواليفه

صنَّف فى العربية كتابا مفيدا ، رتب الكلام فيه على أبواب كتاب سيبويه . وله تعاليق جليلة على كتاب المُسْتَصفى فى أصول الفقه ، وديوان شعر كبير . وكلامه الهزلى ظريف شهير.

مولده : عام تسعة وخمسين وخمسماية .

وفاته : توفى بغرناطة منتصف ذى قعدة سنة تسع وثلاثين وستماية . وزعم ابن الأبَّار أن وفاته كانت سنة أربعين وستماية ، وليس بصحيح . ودفن بمقبرة شقستر. قال ابن عبد الملك، وكان كريم النفس، فاضل، الطبع ، نزيه الهمَّة ، حصيف الرأى ، شريف الطباع ، وجيها ، مبرورا ، معظما عند الخاصة والعامة .

من رثـاه

ممن كتب إلى بَنيه يُعزِّيهم فى مصابهم بفقده ، ويحضهم على الصبر من بعده ، تلميذه الكاتب الرييس أبو عبد الله بن الجنَّان :

دعونى وتِسْكاب الدموع السَّوابك   فدعونى جميلُ الصبر دعوة آفك
أصبرٌ جميل فى قبيح حـوادث   خَلَعْن على الأنوار ثوب الحَوالك
تنكَّرت الدنيا على الدِّين ضِلَّـة   ومن شِيمة الدنيا تنكُّر فـارك

فصبحنا حُكم الردى بردائـه ... فتِلْك وهَذِى هالك فى المهالك
عفا طللٌ منها ومنه فأصبحنـا ... شَريكَىْ غِماز فى تِلاً مُتـدارك
فلا بهجةٌ تُبدى مسرّة ناظـر ... ولا حجّة تُهدى بحجة سـالك
وما انتظم الأمران إلا ليؤذنا ... بأمرٍ دها سَير النجوم السّوابك
وإنّ لمنشور الوجود انتظـاره ... يـكفى فنًّا للفنـا بواشـك
أما قد علمنا والعقول شـواهد ... بأنّ انقراض العلم أصل المهالك
إذا أهلك الله العلوم وأهْلهـا ... فما الله للدهـر الجهول ببـارك
هل العلم إلاّ الرُّوح والخلق جثة ... وما الجسم بعد الروح بالمتماسك
وما راعنى فى عالم الكون حادثٌ ... سوى حادث فى عالم ذى مدارك
لذلك ما أبـكى كأنى مُتيّم ... أتمم ما أبْقى لإسمى بَعْد مالك
وسهلٌ عندى أن أرى الحزن مالكى ... مصابى بالفيّاض سهلُ بن مالك
إمامُ هدًى كُنّا نقـلّد رأيـــه ... كتقليد رأى الشّافعى ومـالك
غمام سُدًى كنا عهدنا سماحه ... بساحل دارات العمـاد الحوائك
أحقًّا قضى الجلال وقُوِّضت ... مبانى معـالٍ فى السماء سَوامِك
وأقفر فى نَجْدٍ من المجد رَبْعُه ... وعَمُر قبرٌ مفرد بالدّكــادك
وغبّ طودٌ فى صعيــد بمَلْحَـد ... وغِيضِ فجرٌ فى يدى مُتَلاحِك
ووارى شمسَ المعارف غيهبٌ ... من الخَطْب يردى بالشُّموس الدّوالك
إلا أيها النّاعى لك الثّكل لا ... تَفُه بهلْك الدّواهى الدّواهك(١)
لعلك فى نَعْى العُلا متكذّب ... فكم ماحِلٌ من قَبْل فيه وماحك
يُكَذِّبهم يا ليت أنك مثلهم ... تواتُر أخبـارٍ وصِدْق مـالك
فيا حُسْن ذاك القول إذْ بان كَذِبه ... ويا قُبحه والصِّدق بادى المسالك

---

(١) الدواهك أى الطاحنة الساحقة .

فللدار جفوا فيه وقلبي راجفٌ مخافة تصْديق الظُّنون الأَوافِك

كأَنَّ كمال الفضل كان يسُوءُهم فأَبْدوا على نغص هو مُتمالك

كأنهم يَسْتَبطون أُيُــــومةً كما اسْتَبْطأَ الـ .... [1] فاتك

كأنهم مُستمطرون لعــــارض كعارض عاد للتجلُّد عـارك

بلى إنهم قد أَرْهَصوا لرزيَّة تُضَعْضِع رُكن الصَّابر المتمالك

فقد كان ما قد أنذروا بوقوعه فهل بعده للصبر صوْلةُ فاتك

مصابه مصيب للقلوب بسيِّد رمى عن قِسيٍّ لليالى عـــواتك

بكت حسنها الغَبْراء فيه فأَسْعَدت بـأَدمعها الخضراء ذات الحَمايك

على عَلَم الإسلام قامت نـوادب بَهِتْن مباك أو بَهِتَّم مضـاحك

فمن سِنة سَنَت على الرأس تُربها ومَكْرُمَة ناحت لأَكـرم هـالك

ومن آية تبكي بنـور صبحهــا إذا قـام فى جُنْح من الليل حالك

ومن حكمة تبكي لفقد مُفَجِّر لينبُوعها السِّلسال فى الأَرْض ســــالك

فيا أسفى مَن للهوى ورســومه ومن لمُنيخٍ عند تلك المَبارك

ومن للواء الشَّرع يرفع خفْضه ويمنع من تمزيقه كفَّ هـاتك

ومن لِكتاب الله يدرس وَحْيــه ويَقْبس منه النور غير مُتـارك

ومن لحديث المصطفى وماجـد يبين بها فى فهمه ومُتــــارك

ومن ذا يُزيل اللَّبس فى مُتَشـابه ومن ذا يُزيح الشَّك عن مُتَشـابك

ومن لليراع المُصْفَرِّ طابت بكفِّه فصارت طَوال الشمس مثل النيازك

ومن للرِّقاع البيض طابت بطيبه فجابت إلى الأَملاك سُبْل المسالك

ومن لمقام الحفل يصدع بالـتى تُغَصُّ لقسٍّ من جنـاح المدارك

ومن لمقال كالنُّضــار يخلص لإبْريزه التَّبريز لا للسَّبـايك

---

(١) بياض بالمخطوط .

ومن لفِعال إن ذكرت بنـساه ... فعال وإن تُنْشَر فمِسْكَة فـارك

ومن لخِلالٍ كرُمَت وضَـرائر ... ضربن بقدحٍ في عتاب الضَّرائك

ومن لِشعار الزهد أُخفي بالفنا ... ففي طيِّه فضل الفضيل ومالك

ومن لِشعاب المجد أو لشعوبه ... إذا اختلطت ساداته بالصَّعالك

ألا ليس من فاكْفُف عُويلك أوفرِد ... فما بعد سهلٍ في العُلى من مُشارك

أُصِبْنا فيالله فيه وإنما أُصبنا ... لعَمْرى فى الذُّرى والحَوارك

فنادِ بأفْلاك المحامد اقْصُرى ... فلا دَوَران بل قُطْب المدارك

وصِح يالبناء اليوم أقْوَيت منزلا ... بوَطْىء المنايا لا بوطىء السَّنابك

على هذه حام الحِمام محلِّقًا ... ثمانين حَوْلاً كالعدوِّ المُضاحك

فسالَمهُ فى مَعْرك الموت خادعا ... وحاربَه إذ جاز ضَنْك المعارك

طواك الرَّدى مهما يُساكن فإنَّه ... مُحرِّك جيش ناهبِ العيش ناهك

نبا سَبا قُدُما وهى السَّكاسك ... ولم يألُ عن خَونٍ لحائزٍ ومالك

وأفْنَى من أبناء البرايا جموعها ... وألقى البرَايا بالرغم فوق البَرامك

سواءٌ لديه أن يصول بقلبك من ... للناس ناس للتقى أو بناسك

ولو أنه أرْعَى على ذى كرامة ... لأرعى على المختار نجل العواتك

ولو راعه عُمرٌ تكامل ألفُه لما ... راع نوحًا فى السِّنين الدَّكادك

وما من سبيل للدوام وإنما ... خُلقنا لأرْحاء المَنُون الرَّامك

فيا آل سهل أو بنيه مخصصا ... ندا عموم فى غموم موالك

أعندكم أنى لما قد عراكم ... أمانع صَبْرى لن يلين عزائك

فكيف أُعزِّى والتعزى مُحرَّم ... علىَّ ولكن عادة الرَّمالك

فإن فرحٌ يبدو فذلك تَكرُّه ... لتجريعِ صابٍ من مصاب مُواعك

وإن كان صبراً إنها لحلومكم ... توابة فى مرِّ الرياح السواهك

ورثتم سنا ذاك المقدّس فارتقوا ... بأعلى سَنام من ذُرى العزِّ نامك
فلم يمض من أبقى من المجد إرثه ... ولم يلق ملكا تارك مثل مالك
أتدرون لم جَدَّت ركاب أبيكم ... كما جَدَّ سير بالقِلاص الرواتِك
تذكَّر فى أفق السماء قديمه ... فَحنَّ إلى غَيْضٍ هنالك شابك
وكلٌّ سما فى حضرة القدس حظه ... فلم يلب عنه بالحظوظ الركايك
فيا عجبا منا نبكى مُهنَّا ... تبوأ دارا فى جوار الملايك
يلاقيه فى تلك المعانى رفيقُه ... بوجه منير بالتَّباشير ضاحك
فلا تحسبوا أن النَّوى غال روحَه ... لجسم ثَوى تحت الدَّكادك سادك
فلو أنكم توشفتم بمكانه ... رأيتم مقيما فى أعالى الأرايك
ينعَّم فى روض الرِّضا ونجوده ... سحايب فى كُثبان مِسْكٍ عواتك
كذلك وعد الله فى ذى مناسب ... من البرِّ صحَّت بالتغنِّى ومناسك
فيا رحمة الرحمن وافِى جنابه ... ويا روحه سلِّم عليه وبارك
ويا لَوْعتى سيرى إليه برُقعتى ... وقصِّى شجوناً من حديثى هنالك

حديث الأشجان شجون ، ووجوه القراطيس به كوجوه الأيام جُون ، فارْعِنى سمعك ،أبثُّك بثِّى واكتئابى ، وأعِرْنى نظرة فى كتابى ، لتعلم ما بى ، فعندى ضربُ الأسى جِناية ، وعلى ورِدى أطال باغى الأسى حمايه ، وعَبْرتى أبكت من القَطْر سِجامه ، وزَفْرتى أذكت من الجَمْر ضِرامه ، ومنى تعلَّمت ذات الهَديل كيف تنوح ، وعنِّى أخذت ذات الحسن كيف تغدو والهة وتروح ، فما مذعورة راعها القِناص ، وعِلق بواحدها حَبْل الجهالة فأعْوَزه الخلاص ، فهى تتلفَّت إليه والمخافة خلفها وأمامها ، وتتلهف عليه فتكاد تواقع فيه حِمامها ، بأخْفَق ضلوعا ، وأشْفَق رُوعا ، وأضيق محالا ، وأوسع وَجالا ، وأشْغَل بالا ، وأشعل بلبالا ، بل ما طلاها ، وقد

رآها ، ترى طِلاها ، فوقف حتى كاد يشركها فى الحين ، ويحصل من الشَّرك تحت جناحين . ثم أفلت وهو يشكُّ فى الإفلات ، ويشكو وِحْدته فى الفَلوات ، بأرهب نفسًا ، وأجْنب أُنسا ، وألهب حشًا ، وأغلب توحُّشا ، وأضيع بالمومات ، وأضْرَع لغير الأُمّآت ، منِّى وقد وافى النبأُ العظيم ، ونثر الهُدى بكفّ الرَّدى شمله النظيم ، وأصبح يعقوب الأحزان وهو كَظيم . وقيل أُصيبت الدنيا بحبشتها وحسنها ، والدِّيانة بمُحَسِّنها وأبى حُسْنها ، فحقٌّ على القلوب انْفِطارها ، وعلى العيون أن تَهْمى قطارها ، وعلى الصَّبر أن يمزِّق جِلبابه ، وعلى الصَّدر أن يغلق فى وجه السُّلُو بابه . أنعى الجليل السَّعى ، ورزيَّة الجميل السَّجية ، ووفاة الكريم الصفات ، وفقد الصَّميم المجد ، وذهاب السَّمْح الوهَّاب ، وقبض روحانى الأرض ، وانعدام معنى الناس ، وانهدام مَغْشى الإيناس ، وانكشاف شمس العِلم ، وانتِساف قُدْس الحِلم . يا له حادثاً جمع قديما من الكروب وحادثاً ، ومصابا جرَّع أوصابا وأضحى كلٌّ به مُصابا . لا جَرَم أنى شربت من كأسه مُسْتَمْفِضها ، وشرقت بها وبماء دمعى الذى ارفضَّ معها ، فغالت خَلَدى ، وغَالَبَتْ جَلَدى ، حتى غبتُ عنِّى ، ولم إدر بآلامى التى تعنِّى . ثم أفقت من سُكرى ، ونفقت مبدِّد فكرى ، فراجعنى التَّذكار والتمام ، وطاوعنى شجوناً يتعاطاه الحِمام ، فبكيت حتى خشيت أن يعشينى ، وغشيت إذ غشِيَنى من ذلك أليم ما غشِيَنى ، وظِلْت ألقى انبجاسا للتَّرح يلقينى ، فتارة يُعنينى ، وتارة يبقينى ، فلو أن اختدامى والتَّدامى وجفنى الدَّامى ، اطَّلعت على بعضه الخنساءُ ، لقالت هذه عَزْمة حزن ، لا يستطيعها النِّساءُ . ذلك بأن قِسْمة المراثى كقسمة الميراث ، وللذُّكران المزيَّة ، كان للسُّرور أو للرِّزيَّة ، على الأُناث ، هذا لو وازن مُبكى مُبكيا ، ووارى ترابى فلكيا ،

إنا لنبكي نور عِلْم ، وهي تبكي ظُلْمة جهل ، ونَنْبَى بجبل يُدعى مَنْهل ، كان يتفجّر منه الأنهار ، وينهال جانبه من خشية الله أو ينهار ، في مثله ولا أُريد بالمثل سواه ، فما كان في أبناء الجنس مَنْ ساواه . يحسن الجزع من كل مؤمن تقي ، ويقال للمتجلد ، لا تُنْزع الرّحمة إلاّ من شقي ، فكل جَفْن بعده جاف ، فصاحبه جِلف أوصاف ، وكل فؤاد لم تصدع له صفاته ، ولم تتغير لفقده صفاته ، فمتحقّق عند العلماء معلوم ، أنه معدود في الحجارة أو معدوم . فيا ليت شِعْري يوم وُدّع للترحال ، ودعا حاديه بشدّ الرّحال ، كيف كان حاضرُوه في تلك الحال ، هل استطاعوا معه صبرا ، وأطاعوا لعَلْبيته أمرا ، أو ضعف احتمالهم ، وقوي في مفارقة النفوس اغتمامهم . ويا ليت شِعري ، إذ أفادوا الماء طهارة زائدة بغسل جلاله ، هل حنّطوه في غير ثنايه ، أو كفّنوه في غير خِلاله . ويا ليت شعري إذا استقل به نعشه لأشْرَف ، ترفرف عليه المَليكة ويظلّله الرّفرف ، هل رأوا قبله حَمْلة الأطوار على الأعواد ، وسير الكواكب في مثل تلك المواكب ، فيأنسُوا بالإلف ، ويرفعوا منكر الطرّف ، ويدعو لفيض من أثر ذلك الظَّرف . ويا ليت شعري ، إذ ودّعوا درّة الوجود ، صدفة اللّحد المَجُود ، لم أثروا الثّرى على نفوسهم ، ورضوا الأرض مَغْربًا لأنوار شُموسهم . فهلا حَفروا له بين أَحْناء الضلوع ، وجعلوا الصفيح صريح الحبّ والولوع . فيكونوا قد فازوا بقربه ، وجازوا فخْرا خُيِّر لتُرْبه . ويا ليت شعري إذا لم يفعلوا ذلك ولم يهتدوا هذه المسالك ، هل قضوا حقّ الحزن ، وسَقَوا جوانب الضّريح من عَبراتهم بأمثال المُزْن ، وهل اتصفوا بصفة الأَسف أو قنعوا منها بأن وصفوها ، وهل تلافوا بقايا الأنفس ، بعد المفقود الأَنْفَس ، وأتلفوه . فكل أَسى لا تذهب النّفس

عنده ، فما هو إلا من قبيل التَّصنُّع . يا قدس الله مثوى ذلك المتوفى ، وما أظن الجَزَع تمَّم حقه ووفَّى . ولو درى الزمن وبنوه ، قدْر من فقدوه ، لوجدوا المفاجى الفاجع ، أضعاف ما وجدوه . فقد فقدوا واحدا جامعا للعوالم ، وماجداً رافعا لأعلام المعالى والمعالم ، ومفَدًّى ثَقُل له فى الفدا ، ونفوس الأوِدَّاء والأعداء ، ومُبكىً ما قامت على مثله النَّوايح ، ولا حَسُنت إلاَّ فيه المراثى ، كما حسنت من قبل فيه المدايح . رحمة الله عليه ورضوانه ، وريحان الجِنان يحييه به رضوانه . من لى بلسان يقضى حق ندْبته ، وجَنان يقضى بما فيه إلى جُثَّته وتُربته ، وقد نبهنى حزنى عليه وبلَّدنى ، وتملَّكنى حصر الحسرة عليه وتعبَّدنى ، وأين يقع مُهَلْهِل البديه ، مما يخفيه مُهَلهِل الثُّكل ويُبديه . يمينا لو لبثت فى كهف الرويَّة ثلاثمائة سنين ، واستمددت سواد ألسنة الفصحاء اللسنين ، ما كنت فى تأبين ذلك الفصل المُبين من المُحْسنين ، إلا أنى أتيتُ بالطريف من بيانه والتَّليد ، ورثيت رُشْد كماله برثايه كمال ابن رشد أبى الوليد ، فأنشدت بنيه قوله فيه :

أخلاَّى إنى من دموعى بزاخر ... بعيدٌ عن الشَّطين منه غريقه
وما كان ظنِّى قبل فقد أبيكم ... بأن مصابا مثل هـذا أُطِيقه
ولم أدر من أشْقى الثلاثة بعده ... أأبنـاؤه أم دهـرُه أم صديقه

ثم استوفيت تلك الأبيات والرسالة ، وأجريت بتَرْجِيعها من دم الكَبِد ونجيعها عَبراتى المُسالة ، فحينئذ كنت أوفِّى المصاب واجبه ، وأشْفِى صدورا صديَّة شجيَّة ، وقلوباً واجِفَة واجبة . ولو أن ما رثى به نفسه الكريمة من نثر إساءته ، حين رأى الحين مغتصبا حشاشَة مكرماته . أثار كامن وجدى بألفاظه المُبكية ، ومعانيه التى تحلُّ من مزاد العيون الأوكية ، لاهبٌ لى رندا ، وأعقبنى صفاة تَنْدى ، وأطمعنى فى أن يعود

بكاي زبَدا . فقد بلغنى أنه لما وقف على ثنيَّة المنيَّة ، وعرف قرب انتقال السَّاكن من البَنِيَّة ، جمع بنات فكره ، كما جمع شيبة الحَمْد بنات خِلده ، وقال يا بنياتى ، قد آن ليومى أن يأتى فهل لكنّ أن ترييننى ، فوضعن أكبادهن على الوشج ، ورفعن أصواتهن بالنَّشِيج ، وأقبلن يُرجِّعن الأناشيد ، ويفجعن القريب والبعيد ، حتى أومأ اليهنَّ ، بأن قضين ما عليهن ، فيا إخوتاه ، ومثلى بهذا النداء نخى وتاه ، إسهموا أخاكم فى ميراث تلكم الكَلِم ، واحموا فؤادا بالمُلِمِّ المؤلم قد كَلِم ، ولا تقولوا يكفيه ميراث الأحزان ، فتبخسوا وحاشاكم فى الميزان ، فإنى وإن تناولتها باليدين ، وغلبت عليها، فإنى صاحب الفريضة والدَّين ، فإنى لحظِّى من ميراث الحكمة سائل ، ومع أنَّ لى حقًّا فلى ذمم ووسايل ، فابعثوا إلىَّ ما يُطارحنى فى أشجانى ، وأقف على رسمه فأقول شَجانى ، ولا أطلب من كلام ذلكم الإمام ، العزيز فَقْدُه على الإسلام ، قوله فى التصبير ، على الرزء الكبير . ووصاته ، لئلا يُلزمنى ، ولست بالمستطيع إصغاءً للمطيع لأمره وإنصاته ، فإن امتثلت أصبت قتلى بما نثلت ، وإن عصيت أبعدت نفسى من رضاه وأقصيت ، ولى فى استصحاب حالى أمل ، وما لم يرد خطاب لم يلزم عمل . على أنى وإن صاب وابل دمعى وصب ، وأصبحت يذكر المصاب الكلف الصَّب ، فلا أقول إلاَّ ما يرضى الرب ، فإنى أبكى عالماً كبيرا ، وعَلَما شهيرا ، تسعدنى فى بكايه المِلَّة ، وتنجدنى بوَجْده ، فأنا الكاتب وهى المُمِلَّة . وأما أنتم أيها الإخوة الفضلاءُ ، والصفوة الكرماءُ ، فقد تلقيتم وصُلته المباركة شفاها ، وراوى صدوركم بكلامه النافع وشفاها ، فلا يسعكم إلاَّ الامتثال ، والصبر الذى تُضْرب به الأمثال ، فعزاءً عزاءً ، وانتماءً إلى التأسِّى واعتزاءً ، وإن فضل رزة أرزاء ،

وكان جزءٌ منه يعدل أجزاءً ، فعلى قَدْرها تصاب العلياءُ، وأشد الناس بلاءً الأنبياءُ ثم الأولياءُ . ذلك لتبيِّن فضيلة الرِّضاء والتسليم ، وتتعيّن صفات من يأتى الله بالقلب السَّليم ، ويعلم كيف الكريم للكريم ، وكيف يحل الأجر العظيم ، وهب الله لكم فى مصابكم صبرا على قدره ، وسَكَبَ دِيم مغفرته على مثوى فقيدكم وقَبْره ، وطيَّب بعَرْف روضات الجنَّات جَنَبات قصره ، ونفعه بما كان أوْدَعه من أسرار العلوم فى صدره ، وخلَّفه منكم بكل سرى بحلَّة المجد من كل بصدره .

قلت : ذكر الشيخ ابن الخطيب فى الأصل فى هذه الترجمة « الأعيان والوزراء » ، ستة من أهل هذا البيت ، كلهم يسمون بهذا الإسم ، عدا واحدا ، فإنه سمى بسديد ، وذاك مما يدل على كثرة النباهة والأصالة والوجاهة ، رحمهم الله .

سليمن بن موسى بن سالم بن حسان بن
أحمد بن عبد السلام الحميرى الكلاعى

بلنسى الأصل ، يكنى أبا الربيع ، ويُعرف بابن سالم .

حاله

كان بقيّة الأكابر من أهل العلم بصُقْع الأندلس الشّرقى ، حافظا للحديث ، مبرِّزا فى نقده ، تام المعرفة بطرقه ، ضابطا لأحكام أسانيده ، ذاكرا لرجاله ، ريَّان من الأدب ، كاتبا بليغا . خطب بجامع بلنسية واستُقْضِى ، وعُرف بالعدل والجلالة ، وكان مع ذلك من أولى الحزم والبسالة ، والإقدام والجزالة والشهامة ، يحضر الغزوات ، ويباشر بنفسه القتال ، ويُبلى البلاء الحسن ، آخرها الغزاة التى استشهد فيها .

مشيخته

روى عن أبي القاسم بن حُبيش وأكثر عنه ، وأبي محمد بن عبيد الله ، وأبي عبد الله بن زَرْقون ، وأبي عبد الله بن حُميد ، وأبي بكر بن الجدّ ، وأبي محمد بن سيدبُونه ، وأبي بكر بن مُغاور ، وأبي محمد عبد المنعم ابن عبد الرحيم بن الفَرَس ، وأبي بكر بن أبي جمرة ، وأبي الحسن بن كوثر وأبي خالد بن رَفاعة ، وأبي جعفر بن حكَم ، وأبي عبد الله بن الفخار ، وأبي الحجاج بن الشيخ ، وأبي عبد الله بن نوح ، وأبي الحجاج بن أبي محمد ابن أيوب ، وأبي بكر عتيق بن على العبدرى ، وأبي محمد عبد الوهاب ابن عبد الصمد بن عتّاب الصّدفى ، وأبي العباس بن مضاء ، وأبي القاسم ابن سَمْحون ، وأبي الحسن عبد الرحمن بن أحمد بن ربيع الأشعرى ، وأبي زكريا الإصْبِهانى ، وأبي بكر أسامه بن سليم ، وأبي محمد عبد الحق الأزدى ، وأبي محمد الشاذلى ، وأبي الطاهر بن عوف ، وأبي عبد الله الحضرمى ، وجماعة غير هؤلاء من أهل المشرق والمغرب .

من روى عنه : روى عنه أبو بكر بن أبي جعفر بن عمر ، وعبد الله ابن حزب الله ، وأبو جعفر بن على ، وابن غالب ، وأبو زكريا بن العباس ، وأبو الحسن طاهر بن على ، وأبو الحسين عبد الملك بن مُفوز ، وابن الأبّار ، وابن السجنّان ، وابن المواّق ، وأبو العباس بن هرقد ، وابن الغمّاز ، وأبو عمرو بن سالم ، وأبو محمد بن بَرْطَلة ، وأبو الحسن الرعينى ، وأبو جعفر الطَّنجالى ، وأبو الحجاج بن حَكم ، وأبو على بن الناظر .

تصانيفه

منها مصباح الظلم ، فى الحديث ، والأربعون عن أربعين شيخا لأربعين من الصحابة ، والأربعون السّباعية ، والسّباعيات من حديث الصّدفى ،

وحِلْية الأمالى فى المراقبات العوالى ، وتحفة الوداد ونجعة الرُّواد ، والمُسلسلات والإنشادات ، وكتاب الاكْتِفاءِ فى مغازى رسول الله، ومغازى الثلاثة الخلفاء ، وميدان السابقين وحِلْية الصّادقين المصدَّقين فى غرض كتاب الاسْتِيعاب، ولم يكمله ، والمُعْجم ممن وافَقَت كُنيته زوجه من الصحابة ،والإعلام بأخبار البخارى الإمام ، والمعجم فى مشيخة أبى القاسم بن حُبَيْش ، وبرنامج رواياته ، وجَنَى الرطب فى سَنِى الخطب، ونكتة الأمثال ونَفْثة السِّحر الحلال ، وجهد النصيح فى معارضة المعرِّى فى خطبة الفصيح ، والامتثال لمثال المنبهج فى ابتداع الحكم واختراع الأمثال ، ومفاوضة القلب العليل ومنابذة الأمل الطويل بطريقة أبى العلا(1) المعرى فى ملقى السبيل ، ومجاز فُتْيا اللَّحن اللاحن الممتحن يشتمل على مائة مسألة ملغَّزة ، ونتيجة الحب الصميم وزكاة المنثور والمنظوم ، والصحف المنشرة فى القطع المعشَّرة ، وديوان رسايله ، سفر متوسط ، وديوان شعره ، سفر .

شعره

من شعره ما كتب به إلى أبى بحر صفوان ابن إدريس ، عقب انفصاله من بَلَنْسية عام سبعة وثمانين وخمسماية :

أحنُّ إلى نجْدٍ ومن حلَّ فى نجد	وماذا الذى يُغنى حنينى أو يجدى
وقد أوطنوها وادعين وخلَّفوا	مُحبَّهم رهن الصَّبابة والوَجْد
تَبين بالبَيْن اشتياقى إليهم	ووجدى فساوى ماأجنَّ الذى يبدى
وضاقت علىَّ الأرض حتى كأنها	وشاحٌ بخصر أو سوارٌ على زَنْد
إلى الله أشكو ما ألاقى من الجوى	وبعض الذى لاقيته من جوًى يُرْدِ

(١) وردت فى الإسكوريال والزيتونة (أبى على) . والتصويب من « الذيل والتكملة » .

فـراق أخـلاَّءٍ وصدُّ أحبَّـة — كأن صروف الدهر كانت على وَعْد

فيا سَرحتى نجد نداءُ مُتَيَّم — له أبدا شوق إلى سَرْحتَى نجد

ظميت فهل طلٌّ يبرِّد لوعتى — ضحَّيتُ فهل ظلٌّ يُسَكِّن من وَجْدِ

ويا زمنا قد مرَّ[1] غير مُذمَم — لعل الأُنس قد تصرَّم من رد

ليالى نَجنى الأُنس من شجر المنا — ونَقْطُف زهر الوصل من شجر الصَّد

وسُقياً لإخوان بأكناف حايل[2] — كرامُ السَّجايا لا يحولون عن عهد

وكم لى بنجد من سَرِىٍّ ممجَّد — ولا كابن إدريس أخى البِشر والجدَّ[3]

أخو همة كالزُّهر فى بُعْد نَيْلها — وذو خلق كالزَّهر غبَّ الحيا العد

تجمعت الأضـداد فيه حميدة — فمن خُلق سَبط ومن حسبٍ جَعْد

أيا راحلا أودى بصَبْرى رحيلـه — وفلَّل من عزمى[4] وثلم من حدَّ

أتعلم ما يلقى الفؤاد لبعدكم — ألا مُذْ نأيتم لا يُعيد ولا يُبـد

فيا ليت شعرى هل تعود لنا المُنا — وعيشٌ كما نَمْنَمَت حاشيتى برد

عسى الله أن يُدنى السرور بقربكم — فيبدو بنا الشَّمل منتظم العِقد

ومن شعره فى النسيب وفقد الشباب :

توالت ليـالٍ للغواية جـونُ — ووافى صباح للرَّشـاد مُبين

ركاب شباب أزْمَعت عنك رحلةً — وجيش شَيْبٍ جهَّزته مَنـون

ولا أكذب الرحمن فيما أُجِنُّه — وكيف وما يخفى عليه جَنين

ومن لم يخل أن الرِّياء[5] يشينه — فمن مذهبى أن الرِّياء يشين

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (بان) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (حاجر) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (المجد) .

(٤) وردت فى الإسكوريال . (غزلى) والتصويب من النفح .

(٥) وردت فى الإسكوريال (الوفاء) والتصويب من النفح .

لقد ريع قلبى للشباب وفقْده كما ريع بالعِقْد[١] الفقيد ضنين
وآلمنى وخْطَ المشيب بلمّتى فخُطَّت بقلبي للشجون فنون
دليل شبابي كان أنْضَر منظرا وآنقَ مهما لا حظته عُيـون
نآها على عيشٍ تكدَّر صفوه وأُنْس خلا منه صَفًا وحَجون
ويا ويح فوْدى أو فؤادى كلما تزيَّد شيبى كيف بعد يكون
حرام على قلبى سكونٌ بغرَّة وكيف مع الشَّيب المِضِّ سكون
وقالوا شباب المرءِ شعبة جنَّة فمالى عرانى للمشيب جُنـون
وقالوا شجاك حِدثان ما أتى ولم يعلموا أن الحديث شجون

وقال فى الاستعانة والتوكل عليه :

أمولى الموالى ليس غيرك لى مولى وما أحدٌ يا رب منك بـذا أوْلى
تبارك وجْهٌ وجَّهت نحوه المنى فأوْزعها شكرا وأوسعها طَـوْلا
وما هو إلا وجهـك الدايم الـذى أقلُّ حُلى عليائه يُخرِس القَوْلا
تبرّأت من حَوْلى إليـك وقـوَّتى فكن قوتى فى مطلبى وكن الحَوْلا
وهب لى الرضا مالى [سوى ذاك مُبْتغى][٢] ولا لقيت نفسى على نَيْلها الهولا

وقـال :

مضت لى سبعٌ بعد عشرين حجة ولى حركات بعدها وسـكون
فياليت شعرى كيف أو أين أو متى يكون الذى لابُدَّ أن سـيكون

واستجاز المترجم به من يذكر بما نصه : المسئول من السادة العلماءِ أيمة الدين ، وهُداة المسلمين ، أن يجيزوا لمن ثبت اسمه فى هذا الاستدعاء ، وهم المولى الوزير العالم الفاضل الأشرف بهاءُ الدين أبو العباس أحمد

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (العلق) .
(٢) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (سواك لمبتغى) والأولى أرجح .

ابن القاضي الأجل أبي عبد الرحمن بن على البَيْسانى ولولديه أبي عبد الله، محمد ، وأبي عبد الله الحسين وولده عبد الرحيم ، ولأولاد ولده أبي الفتح حسن ، وأبوى محمد عبد الرحمن ويوسف ، ولمماليكه سنقر وأخيه الصغير وسنجر التركيون ، وأقيد وأقسر الروميان ، ولكمال بن يوسف بن نصر ابن سابق الطباخ ، وللوجيه أبي الفخر بن بركات بن ظافر بن عساكر . ولأبي الحسن بن عبد الوهاب بن وردان ، ولأبي البقاء خالد بن يوسف الشاذلى ولولده محمد ، ولمحمد بن يوسف بن محمد البزالى الإشبيلى ولولده ، ولعبد العظيم بن عبد الله المنذرى ولولده أبي بكر ، ولأبي الحسن ابن عبد الله العطّار ، جميع ما يجوز لهم روايته من العلوم على اختلافها ، وما لهم من نظم ونثر ، وإن رأوا تعيين موالدهم ومشايخهم ، وإثبات أبيات يخف موقعها ثراه من الزلل ، ومما يخالف الحق ، فعلوا مأجورين. وكتب فى العشر الأُخر من شهر ربيع الآخر سنة ثلاثين وستماية .

فكتب مجيزا بما نصه : قال سليمن بن موسى بن سالم الكَلاعى ، وكتب بيده ، تجاوز الله عنه ، وأقام بالعفو من أوده : إنى لما وقفت على هذا الاستدعاء ، أجاب الله فى مستدعيه المسمين فيه صالح الدعاء ، اقتضى حق المسئول له ، الوزير الأجل ، العالم الأشرف الأفضل بهاء الدين أبو العباس ابن القاضى الأجل، الفاضل العلم الأوحد ، ندرة الزمان ، ولسان الدهر ، وقسّ البيان ، أبي على عبد الرحيم بن على ، أعلى الله قدره ورفعه ، ووسم سلفه الكريم ونفعه ، تأكيد الإسعاف ، بحكم الإنصاف له ، ولكل من سمى معه . فأطلقت الإذن لجميعهم ، على تباعد أفكارهم وتدانيها ، وتباين أقدارهم وتساويها ، من أب سَنى ، وذرِّية عريقة فى النَّسب العلى ، ومماليك له تميزوا بالنسب المولوى ، وسُمين بعدهم ،

اعتلقوا من الرغبة فى نقل العلم ، بالحَبْل المتين ، والسبب القوى .
والله بالغ بجميعهم ، من تدارك الآمال أبعد الشأو القصى ، ويجريهم
من مساعدة الإمكان ، ومسالمة الزمان ، على المنهج المرضى ، والسنن
السَّوى ، أن يحدّثوا بكل ما اشتملت عليه روايتى ، ونظمته عنايتى ،
من مشهور الدواوين ، ومنثور الأجزاء المنقولة عن ثقات الرّاوين ، وغير
ذلك من المجموعات فى أى علم كان من علوم الدين ، وكل ما يتعلق بها من
قرب أو بعد ، مما يقع عليه التّعيين ، وبما يصح عندهم نسبته إلىّ من
مجموع جمعته ، ومنظوم نظمته ، أو نثر صنعته . الإباحة العامة على
ذلك آتية ، ومقاصد الإسعاف لرغباتهم فيه مطاوعة وموافية ، فليرووا
عنى من ذلك مُوفَّقين ، ما شاءوا أن يرووه ، وليَلْتَزموا فى تحصيله
أولا ، وأدايه ثانيا ، أوفى ما التزمه العلماء واشترطوه . ومن جلّة شيوخى
وصدورهم ، الذين سمعت منهم ، وأخذت بكل وجوه الأخذ عنهم ،
القاضى الإمام الخطيب العلامة ، أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن
عبد الله بن يوسف بن حُبَيْش ، آخر أيمة المحدثين بالمغرب رضى الله عنهم .
والإمام الحافظ الصدر الكبير أبو بكر محمد بن عبد الله بن يحيى بن
فرج بن الجدّ الفهرى . والفقيه المشاور القاضى المسند أبو عبد الله محمد
ابن أبى الطيب . والفقيه الحافظ أبو محمد عبد المنعم بن محمد بن
عبد الرحيم الخزرجى . والقاضى الخطيب النحوى أبو عبد الله محمد بن
جعفر بن حُميد . والأُستاذ الحافظ أبو محمد عبد الله بن أحمد بن جُمهور
القيسى . والشيخ الراوية الثقة أبو محمد عبدالحق بن عبد الملك بن
بونه بن سعيد بن عصام العبدرى . والشيخ الصالح أبو جعفر أحمد
ابن حكم القيسى الحصّار الخطيب بجامع غرناطة . والفقيه القاضى

الأجزل أبو العباس يحيى بن عبد الرحمن بن الحاج . والقاضى الفقيه الحسيب أبو بكر بن أبى جمرة . والقاضى أبو بكر بن مغمور . والقاضى المسند أبو الحسين عبد الرحمن بن ربيع الأشعرى . وسوى هولاء ممن سمعنا منه كثيراً ، وكلهم أجازنى روايته وما سمعه . وقرأت على الخطيب أبى القاسم بن حبيش غير هذا وسمعت كثيراً ، وتوفى رحمه الله بمرسية فى الرابع عشر لصفر لسنة أربع وثمانين وخمسماية . ومولده سنة أربع وخمسماية على ما أخبرنى به رحمه الله ورضى عنه .ومما أحمله عن الحافظ أبى بكر بن الجدّ بإشبيلية بلده ، مُوَطَّأُ مالك ، رواية يحيى بن يحيى القرطبى ، أخبرنى به عن أبى بحر سُفيان بن العاصى الأسدى الحافظ ، سماعا بأسانيده المعلومة . وتوفى الحافظ أبو بكر سنة ست وثمانين . وقرأت على الفقيه أبى عبد الله بن زرقون أيضا موطّأ مالك ، وحدثنى به عن أبى عبد الله الخولانى إجازة ، قال سمعته على أبى عمرو عثمان بن أحمد بن يوسف اللخمى؛عن أبى عيسى يحيى بن عبد الله بن أبى عيسى ، عن عمر أبيه عبيدالله بن يحيى الليثى عن أبيه عن مالك بن أنس ، رضى الله عن جميعهم . ولا يوجد اليوم بأندلسنا ومَغْربنا بأعلى من هذه الأسانيد . وممن كتب لى بالإجازة من ثغر الإسكندرية الإمام الحافظ مُفْتى الديار المصرية ورئيسها أبو الطاهر بن عوف ، والفقيه الحاكم أبو عبد الله بن الحضرمى ، والفقيه المدرس أبو القاسم بن فِيرُّه ، وغيرهم. نفعنا الله بهم ، ووفقنا للإقتداء بصالح مذهبهم . وأما المولد الذى وقع السؤال عنه ، فإنى ولدت على ما أخبرنى أبواى رحمهما الله ، بقاعدة مرسية ، مستهل رمضان المعظم سنة خمس وستين وخمسماية . ومما يليق أن يكتب فى هذا الموضع ما أنشدنى شيخنا الفقيه أبو بكر عبد الرحمن بن

محمد بن مغاور رحمه الله فى منزله بشاطبة سنة ست وثمانين وخمسماية ، وهو بقيّة مشيخة الكتّاب بالأندلس لنفسه ، مما أعده ليكتب على قبره:

أيها الواقف اعتباراً بقبرى   استمع فيه قول عظمى الرميم
أوْدَعونى بطن الضريح وخافوا   من ذنوب كلُومها بـأديم
قلت لا تجزعوا علىَّ فـإنى   حسن الظّن بالرؤوف الرحيم
ودعونى بما اكتسبت رهينـاً   غَلِق الرّهن عند مولى كريم

انتهى . وكتب هذا بخطه فى مدينة بلنسية حماها الله ، سليمن بن موسى بن سالم الكلاعى ، فى الموفى عشرين لجمادى الآخرة سنة إحدى وثلاثين وستماية . والحمد لله رب العالمين .

وفـــاته

كان أبدا يقول إن منتهى عمره سبعون سنة لرؤيا رآها فى صغره ، فكان كذلك ، واستشهد فى الكاينة على المسلمين بظاهر أنيشة[1] على نحو سبعة أميال منها ؛ لم يزل متقدما أمام الصفوف زحفا الى الكفار ، مقبلا على العدو ، ينادى بالمنهزمين من الجند يفرون ، حتى قُتل صابرا مُحْتسبا ، غداة يوم الخميس لعشر بقين من ذى الحجة سنة أربع وثلاثين وستماية.

ورثاه أبو عبد الله بن الأبّار رحمه الله بقوله :

---

(١) موقعة أنيشة أو إنيجة سميت باسم الحصن والتل الذى وقعت فى ظاهره ، وهو يقع على نحو سبعة أميال من شمالى بلنسيه . وكان من أمنع حصون بلنسية الأمامية . وقد هدمه الأمير أبو جميل زيان ، أمير بلنسية حتى لا يستعمله الأرجونيون قاعدة لمهاجمة المدينة . ولكن الأرجونيين احتلوا مع ذلك الربوة التى كان يقع عليها الحصن . وصمم الأمير زيان على إسترداد هذا الموقع ، وحشد جيشاً جراراً ، وسار فى قواته شمالا ، ونشبت بين المسلمين والأرجونيين بقيادة ملكهم خايمى الأول فى ظاهر تل أنيشة معركة عنيفة هزم فيها المسلمون هزيمة فادحة ، وقتل منهم جماعة كبيرة ، وكان من بين القتلى عدد كبير من علماء بلنسية ووجوهها يربى على السبعين . وكان ذلك فى عشرين من ذى الحجة سنة ٦٣٤ هـ الموافق ١٤ أغسطس سنة ١٢٣٧ م .

أَلِمَّا بِأَشلاءِ العُلى والمكــارم ... تُقَدّ بأطراف القنا والصّوارم

وعُوجا عليها مأربا وحفــاوةً ... مصارعُ غُصّت بالطُّلا والجماجم

تحيي وجوها في الجَنان وجيهة ... بما لقيت حُمرا وجوهُ الملاحم

وأجساد إيمــان كساها نجيعُها ... بحاسِد من نسيج[1] الظُّبا واللّهاذم

مُكرّمة حتى عن الدّفن في الثرى ... وما يُكرِّم الرحمن غير الأكارم

هم القوم راحوا للشهادة فاغتَدوا ... وما لهم في فوزهم من مُقــاوم

تساقوا كؤوس الموت في حَوْمة الوغى ... فما لت بهم ميل الغصون النّواعم

مضوا في سبيل الله قُدُما كأنما ... يطيرون من أقدامهم بقـــوادم

يرون جوار الله أكبــر مَغْنم ... كذاك جوار الله أسْنى المغانم

عظائمُ نالوها فخاضوا لنيلهـا ... ولا رَوْع يثنيهم صدور العظائم

وهان عليهم أن تكون لحُودهم ... مُتُون الرّوابي أو بطون التّهـايم

ألا بأبي تلك الوجوه سواهمًا ... وإن كنّ عند الله غيرُ سَوَاهِم

عفا حُسْنها إلاّ بقـايا مبـاسم ... يعزّ علينا وطْؤهـا بالمناسِم

وسُوْر أســارير تُنِير طـلاقة ... فتكْسِف أنـوار النجوم العَواتم

لئن وَكفَت فيها الدموع[2] سحايبا ... فمن بارقات لُحْنَ فيها لشـائم

ويا بأبي تلك الجسوم نواحِلا ... بإجرائها نحو الأجور الجسـائم

تغلغل فيهـا كلّ أسمر ذابل ... فجدّل منها كلّ أبيض نـاعم

فلا يُبعد الله الذين تقــرّبوا ... إليه بإهـداء النفـوس الكرائم

مواقف أبْرار قضوا من جهـادهم ... حقوقا عليهم[3] كالفُرُوض اللّوازم

أُصِيبوا وكانوا في العِبــادة أسوة ... شبابا وشِيبا بالغواشي الغواشم

---

(١) هكذا في الإسكوريال . وفي الذيل والتكلة (حوك) .

(٢) هكذا وردت في الإسكوريال . وفي الذيل والتكلة (العيون) .

(٣) وردت في الإسكوريال (عليها) . والتصويب من الذيل والتكلة .

فعامل رمح دُقَّ فى صدر عـامل ... وقائِمُ سيف قُدَّ فى رأس قـائم

ويا رُبَّ صوَّام الهواجر واصـل ... هنالك مَصْرُوم الحيـاة بصارم

ومنقذ عانٍ فى الأَداهم راسفٌ ... ينوءُ برِجْلى راسف فى الأَداهم

أضاعهم يوم الخميس حِفاظهم ... [وكرُّهم][1] فى المأْزق المُتلاحم

سقى الله أشلاءً بسَفْح أُنيشـة ... سوافحُ تُزجيها ثِقـال الغمايم

وصلَّى عليها أنْفُسًا طاب ذكرُها ... فطيِّب أنفاس الرِّياح النَّواسم

لقد صبروا فيها كراما وصابروا ... فلا غرو أن فازوا بصَفْو المكارم

وما بذلوا إلاَّ نفوسا كريمـة[2] ... تحنُّ إلى الأُخرى حنين الرَّوائم

ولا فارقوا والموت يُتْلع جيدَه ... فحيث التقى الجمعان صِدْقُ العزائم

بعيشك طارحْنى الحديث عن التى ... أُراجع فيها بالدموع السَّواجم

وما هى إلاَّ غاديات فجـائع ... تُعَبر عنها رايحات مـآتم

جلائل دقَّ الصبر فيها فلم نُطِق ... سوى غضِّ أجفانٍ وعضِّ أباهِم

أَبِيتُ لها تحت الظلام كأنَّنى ... رمِىُّ نصال أو لَدِيغ أراقم

أُغازل من بَرْح الأَسى غير بارح ... وأَزْجُر من سأْم البكا غير سائم

وأَعقد بالنجم المُشَرِّق ناظرى ... فيغْرُب عنى ساهراً غير نـائم

وأَشكو إلى الأَيام سوءَ صنيعها ... ولكنها شكوى إلى غير راحم

وهيهات هيهات العزاءُ ودونه ... قَواصِم شتَّى أُرْدِفت بقَواصم

ولو بَرَّد السُّلوان حَرَّ جوانحى ... لآثرت عن طوعٍ سُلُوَّ البهائم

ومن لى بسُلْوان يحل منفَّـراً ... بجاشٍ من الأَرْزاءِ حولى جاثِم

وبين الثَّنـايا والمَخارم رِمَّةٌ ... سَرَى فى الثَّنـايا طِيبُها والمخارم

(١) هذه الكلمة ساقطة فى الإسكوريال وواردة فى الذيل والتكملة .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الذيل والتكملة (نفيسة) .

بَكَتْها المعالى والمعـالم جهدها   فمن لِلْمعـالى بعـدها والمعـالم
سعيدٌ صعيدٌ لم تَرُمْه قـرارة   وأَعْظِم بهـا وسط العِظام الرّمايم
كأَنَّ دمًا أذكى أديم تُرابهـا   وقد مازجته الرِّيح مِسْك اللَّطايم
يشقّ على الإسلام إسلام مثلهـا   إلى خامعاتٍ بالفَلا وقَشَـاعم
كأن لم تَبِتْ تغشى للسُّراة قبابها   ويرعى حماها الصَّيد رَعْى السَّوايم
سفَحْتُ عليها الدمع أحمر وارساً   كما تَنْثُر الياقوت أيدى النَّواظم
وسامرتُ فيها الباكيات نوادياً   يُورِقْن تحت الليل وُرْق الحمايم
وقاسمت فى حَمْل الرزية أهلها   وليس قسيم البرِّ غير المُقاسم
فوا أسفا للِّدين أعْضَل داؤه   وآيَسَ من أُسٍّ لمسراه حاسم
ويا أسفا للعِلْم أقْـوت ربُـوعه   وأصبح مهدود الذّرى والدَّعائم
قضى حامل الآثار[1] من آل يعرب   وحامى هُدى المختار من آل هاشم
خبا الكوكب الوقَّاد إذ متّع الضحى   ليخبطه فى ليلٍ من الجهل فاحم
وخابَتْ مساعى السَّامعين حديثَه   كما شاء يوم الحادث المتفاقم
فـأَىُّ بهاءٍ غـارَ ليس بطالع   وأى سَناءٍ غـاب ليس بقادِمِ
سلامٌ على الدُّنيا إذا لم يَلُح بها   مُحيًّا سليمن بن موسى بن سالم
وهل فى حياتى مِتْعَةٌ بعد موتـه   وقد أسلمتنى للدَّواهى الدَّواهم
فهأَناذا فى حَرْب[2] دهر مُحارب   وكنت به فى أَمْن دهر مُسـالم
أخو العزَّة القعساء كهلا ويافعا   وأكفاؤه ما بين راضٍ وراغـم
تفرَّد بالعلياء عِلماً وسـؤدداً   وحَسْبُك من عال على الشُّهب عالم
مُعرَّسه فوق السُّهى[3] ومقيـله   ومورِده قبل النُّسور الجَوائِم

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الذيل (الآداب) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الذيل (خوف) .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الذيل (السما) .

بعيدُ مــداه لا يُشقُّ غبـــاره ... إذا فاه فاض السِّحر ضَرْبة لازم

يُفوض منه كلُّ نــاد ومنبــر ... إلى ناجح مَسْعاه فى كل نــاجم

متى صادم الخطب الملمَّ بخطبة ... كفى صادماً منه بـأكبر صادم

له منطق سهل النَّواحى قريبها ... فإن رُمْته ألفيتَ صعْب الشَّكايم

وسحر بيان فــات كـلَّ مُفوَّه ... فبات عليه قارعًا سنَّ نــادم

وما الرَّوض حَلَّاه بجوهره النَّدى ... ولا البُرد وشَّقه أكُفُّ الرَّواقــم

بأبدع حُسْناً فى[1] صحائفه التى ... تُسَيِّرها أقـلامه فى الأقـــالم

يمانٍ كَلاعى نَمَّاه إلى العــــلا ... تمامُ حَـــواه قبل عَقْد التَّمايم

يروق رُواق الملك فى كل مَشْهد ... ويُحسن وسْماً فى وجـوه المواسم

ويكثر أعلام البَسيطة وحـــده ... كمال مِثال[2] أو جمال مقـاوم

لعا لزمان عاثرٍ من خـــلالــه ... براقٍ من الجلّى أصيب يـواقم

مُناد إلى دار السلام مُنــــــادم ... بها الحور واهاً للمنادى المنادم

أتاه رَداه مقبلاً غير مُدْبــــــر ... ليحظى بإقْبالٍ من الله دايـــم

إماما لدين أو قِواماً لـــدولــة ... تولَّى ولم تلحقه لَوْمَــة لايم

فإن عابه حُسَّاده شرَقـــاً بـــه ... فلن تَعْدم الحسناءُ ذامـا بذايم

فيا أيها المخدوم سَامى[3] محلُّه ... فِدىً لك من ساداتنا كلُّ خـادم

ويا أيها المختوم بالفوز سعيُه ... ألا إنما الأعمال حُسن الخواتم

هنيئًا لك الحُسْنى من الله إنها ... لكل تِقىٍّ خِيمُه غير خـــايم

تَبوَّأت جَنَّاتِ النعيم ولم تزل ... نَزيل الثريَّا قبلها والنعــائم

ولم تــألُ عيشا راضيًا أو شهادة ... تَرى ما عداها فى عِداد المآثم

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الذيل (من) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الذيل (معال) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الذيل (عالى) .

لعمرى ما يُبْلِى بلاؤك فى العِــدا وقد جَرَّب الأَبطال ذَبْل الهزايم

وتالله لا يَنسى مقامك فى الوغى سوى جاحدٍ نور الغزالة كـاتم

لقيتَ الرَّدى فى الرَّوع جَذْلان باسمًا فبوركْتَ من جذلان فى الرَّوع باسم

وحُمْتَ على الفردوس حتى وَرَدْتَه ففُزْتَ بأَشْتات المنا فَوْز غـانم

أَجِنُّك لا تُثنى عِنـاناً لأَوْبة أداوى بها بَرْح الغليل المُداوم

ولا أنتِ بعد اليوم واعد[1] هبَّةٍ من النوم تحلُونى إلى حال حـالم

لسُرْعان ما قَوَّضت رحْلك ظاعناً وسِرت على غير النواحى[2] الرَّوايم

وخلَّفت من يرجو دفاعك يائساً من النَّصر أثناء الخطوب الصَّرايم[3]

كأنِّى للأَشجان فـوق هواجـر بما عادنى من عاديات هَـواجم

عَلِمْتُك مفقوداً[4] يعزُّ نظيره فياعزَّ مَعْدوم وياهَوْن عـادم

ورُمتك مطلوباً فأَعْيىَ منالـه وكيف بما أَعْيىَ منالا لرايم

وإنى لمحزون الفُؤاد صديعُه خلافا لسالٍ قلبه منك سـالم

وعندى إلى لقياك شوق مبرِّح طوانى من حامى الجوى فوق جاحم

وفى خَلَدى والله ثُكْلُك خالـدٌ أَليَّة بَـرٍّ لا أَليَّة آثـم

ولو أنَّ فى قلبى مكانا لسَلْوة سلوتُ ولكن لا سُلُوَّ لهائـم

ظلمتُك أن لم أقض نعماك حَقَّها ومثلى فى أَمثالها غيرُ ظـالم

يطالبنى فيك الوفاء بغـاية سموت لها حِفظاً لتلك المراسم

فأَبكى لشلْوٍ بالعراء كما بكى زياد لقبرٍ[5] بين بُصرى وجاسم

وأَعبد أن يمتاز دونى عَبْدةٌ بعلْياء فى تأبين قيس بن عاصم

---

(١) هكذا فى الذيل ، وفى الإسكوريال (راعد) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الذيل (النواجى) . والأولى أرجح .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الذيل (الضوائم) .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الذيل (موجودا) .

(٥) هكذا وردت فى الذيل . وفى الإسكوريال (لقفر) . والأولى أرجح .

وهذى المراثى قد وفّيت برَسْمها مُسهّمة جَهْد الوفىّ المُساهم
فمدّ اليها رافعا يد قابلٍ أكبّ عليها خافضاً فَمَ لاثِم

ومن القضاة فى هذا الحرف

سلمون بن على بن عبد الله بن سلمون الكنانى

من أهل غرناطة يُكنى أبا القاسم ، ويُدعى باسم جده سلمون ، وقد مرّ ذكر أبيه وأخيه .

حاله

من أهل العلم والهُدى الحسن ، والوقار ، قديم العدالة ، متعدِّد الوَلاية ، مضطلع بالأحكام ، عارف بالشروط ، صَدْرٌ وقته فى ذلك ، وسابق حَلْبته إلى الرواية ، والمشاركة ، والتّبجُّح ، فى بيت الخير والحشمة ، وفضل الأُبوة والأُخوة . قلّ فى الأندلس مكانٌ شذّ عن ولايته ، وناب عن القضاة بالحضرة ، فحُمد نفاذه ، وحسنت سيرته . ثم وُلّى مستبدًّا فى الدولة الباغية ، وخاض فى بعض أهوائها ، بما جرّ عليه عَتَبًا ، فعقبه الإعتاب عن كَثَب .

تواليفه

ألّف فى الوثائق المرتبطة بالأحكام كتابا مفيدا ، نسبه بعض معاصريه إلى أنّه قيده عن شيخه أبى جعفر بن فَرْكون ، ودوّن مشيخته .

مشيخته

أجازه الراوية المعمر أبو محمد بن هرون الطائى ، والشيخ المسن أبو جعفر أحمد بن عيسى بن عياش المالقى ، والشيخ الأديب أبو الحَكم بن المرحّل ،

والعدل أبو بكر بن إسحاق التجيبي ، والقاضي أبو العباس بن الغمّاز ، والفرضي أبو إسحق التلمساني ، وأبو الحسن بن عبد الباقي بن الصواف ، والمحدث أبو محمد الخلامي ، والراوية أبو سلطان جابر بن محمد بن قاسم ابن حيّان القيسي ، والوزير أبو محمد بن سِماك ، والشيخ المدرس بالديار المصرية أبو محمد الدّمياطي ، والمقرى الرّاوية أبو عبد الله بن عيّاش ، وأبو الحسن بن مضاء ، والمحدث أبو عبد الله بن النجار ، وأبو زكريا بن عبد الله بن محرز ، والمقرى أبو بكر بن عبد الكريم ابن صدقة السّفاقُسي ، والشيخ زين الدين أبو عبد الله محمد بن الحسن القرشي العوني ، وأبو القاسم الأيسر الجذامي ، وشهاب الدين الأبرقوسي ، والعدل أبو فارس الهواري ، وأبو الكرم الحميري ، وأبو الفدا بن المعلم ، والشريف أبو الحسن القرافي ، وأبو عبد الله بن رحيمة ، والشيخ أبو عبد الله بن اللبيدي ، وأبو الحسن بن عطية البودري ، وأبو محمد ابن سعيد المسرّاتي ، وأبو عبد الله بن عبد الحميد ، والخطيب أبو الحسن ابن السفّاج الرُّندي ، وأبو محمد بن عطية ، والوزير أبو عبد الله بن أبي عامر ابن ربيع ، والعدل أبو الحسن بن مَسْتقور ، والخطيب أبو عبد الله ابن شعيب ، والشريف أبو علي بن طاهر بن أبي الشرف ، والأُستاذ أبو بكر ابن عبيدة . وقرأ على الأُستاذ أبي جعفر بن الزبير ، وبرنامج رواياته نبيه .

مولده : عام خمسة وثمانين وستّماية .

ومن المحدثين والفقهاء وسائر الطلبة النجباء بين أصلي وغيره

سعيد بن محمد بن ابراهيم بن عاصم بن سعيد الغساني

من أهل غرناطة ، يكنى أبا عثمن .

حاله

هذا الرجل من أهل الذكاء والمعرفة والإدراك ، يقوم على الكتاب العزيز حِفْظاً وتدريسا ، ويشارك فى فنون ، من أُصول وفقه وحساب وتعديل ، ومعرفة بالإلمامات الشُّعاعية . يكتب خطًّا حسنا ، وينظم الشعر ، ويحفظ الكثير من النِّتف والأخبار ، مقتصد ، منقبض عن الناس ، مشتغل بشأنه ، قيد الكثير ، يسير إلى لزمانة ، أصابت أُختها ، بما يدل على نشاطه وهمته .

مشيخته

قرأ على الأُستاذ الخطيب أبى القاسم بن جُزى ، ورحل إلى العُدْوة ، فلقى بفاس وتلمسان جُمْلة ، كالأُستاذ أبى إسحق السَّلاوى التلمسانى ، وأبى العباس أحمد بن عبد الرحمن المكناسى من أهل فاس ، والحاج ابن سبيع وغيرهم . واستدعيته لتأديب ولدى أسعدهم الله ، فبلوت منه على السنين ، نَصْحاً وسلامة ودينا وعفَّة .

شعره

جرى ذكر فى « الإكليل الزاهر » بما نصه : ممن يتشوّق إلى المعارف والمقالات ، ويتشوّف إلى الحقائق والمجالات ، ويشتمل على نفْس رقيقة ، ويسير من تعليم القرآن على خير طريقة ، ويعانى من الشِّعر ما يشهد بنُبْله ، ويُستطرف من مثله . فمن شعره قوله :

لمَّا نأَوا فى الظَّاعنين وساروا ... أَضحت قلوب العاشقين تَحار
تركوهم فى ظُلمة وتوحُّش ... ما انجابت الأَضواءُ والأَنوار
ذهبوا فأَبقوا كل عقل ذاهلا ... ولكل قلب بالنُّزوح مطار
ظَعَنوا وقد فَتَنوا الورى بجمالهم ... عَبَثوا بأَفئدة الأَنام وحارُ

ما ضرَّهم قبيلَ النَّوى لو ودَّعوا ... ما ضرَّهم لو أعلموا إذ ساروا

فقلوبنا من بعدهم فى فجْعة ... ودموعنا من بعدهم أمطار

يا دار أين أحبَّتى ووصالنا ... أين الذى كُنَّا به يا دارُ

كنا نذيع به عَبِير حديثنا ... وكلامُنا الأَلطاف والأَشعار

والطَّير تتْلُو فوقنا نَغَماتها ... والدهر يسمح والمُدام تدار

ولطالما بِتْنَا وبات رقيبُنا ... فى غفلة قُضِّيت بها الأَوطار

هل زمن تقادم عهده ... نلنا بها النُّعْمى ونحن صغار

فلا تَنْثر على الوصال وابكينّ ... ما دامت الآصال والأَسحار

ومن المقطوعات :

وكم عذَلونى فى هواه وما رأوا ... محيَّاه حتى عاينوه وسلَّموا(1)

وقالوا نعم هذا الكمال حقيقةً ... فحطُّوا وجاءُوا صاغرين وسلَّموا

وكتب إلىَّ صحبة كتاب أعرته إياه ، عقب الفراغ من مطالعته :

هذا كتاب كلِّ مُعْجَم ... أفحَمنى معناه إفحاما

أعْجَمَه مُنشئُه أوّلا ... وزاده النَّاسخ إعجاما

أسقط من إجماله جملة ... وزاد فى التفصيل أقساما

وغيَّر الأَلفاظ عن وَضْعها ... وصيَّر الإيجاد إعداما

فليس فى إصلاحه حيلةٌ ... تُرجى ولو قوبل أعواما

نثره

كتب إلىّ شافعا فى الولد ، وأنا واجد عليه : من حلّ محلّ السيد نادرة الزمان ، وسابق حلْبة البيان ، فى رسوخ العلم ، والسُّمو فى درجة الحلم ، وأرْضعته الحِكَم دَرَّتها ، وقلَّدته المعارف دُرَرها ، وجلَت عليه

---

(1) وردت فى الإسكوريال على النحو الآتى : (وسلموا)

بَدرها ، وجلبت إليه بدْرها ، كان بالحنوِّ والرأْفة خليقا ، وأن يهبَّ نسيمه لدنًا رفيقا ، وأن يتعاهد بالعطف غرسا فى زاكى تربتة ظلى ، وإلى مَحْتِده المنجب وفضله المنجب انتمى ، فيلحفه من الرحمة جناحا ، ويطلع عليه فى ليل الوحْشة المؤلمة من نور صفحه عن هفوته مصباحا ، والذنب إذا لم يكن عقوقا ولا سوءَ أدب ، وكان فى المماليك والقيم المالية مُغْتفر ، عند الأكابر مثله من ذوى الرتب ، وقد بلغ فى الاعتراف غاية المدى ، وانْدَمل الجُرح الذى أصابته المُدى ، والبون واضح فى المقاييس ، بين المرؤوس والرئيس ، وشتّان بين الزيف والجوهر النفيس . ومع أن الولد كمد ، فهو للنفس ريحانة ، وفى فصٍّ خاتم الإنسان جُمانة ، وقد نال منه هذا الإمضاءُ ، والصارم يتخذ فيزيد منه المضاءُ ، وهو يرتجى كل ساعة ، أن يفد عليه البَشير برضاك ، فيستأْنف جهورا ، وينقلب إلى أهله مسرورا ، والله يبقيك ، والوزارة ترفل منك فى مظهر حُلَل ، ويريك فى نفسك وبَنيك غاية الأمل .

مولده : التاسع لذى الحجة عام تسعة وتسعين وستماية ، وهو الان على حاله الموصوفة .

ومن الكتاب والشعراء

سهل بن طلحة

من أهل غرناطة ، يكنى أبا الحسن .

حاله

كان ظريفا ، عنده مشاركة فى الطَّلب . مدح ولى العهد أبا عبد الله

ابن الغالب بالله بشعرٍ وسط ، فمن ذلك قوله من قصيدة أولها :

أنا للغرام وللهوى مدفوع　　فمتى السّلوّ ووصْلُها ممنوع

يقول أيضا منها بعد كثير :

يا حبذا دارٌ لزينب باللّوى　　حيث الفؤاد على الهوى مطبوع
ياحادىَ العيس التفت نحو اللّوى　　إنى بسكان اللّوى مَفْجوع
وعِج المطىَّ بلَعْلع وبرامة　　فهناك قلب للشّجى مروع
أطلال آرام وبيضٌ خُردٌ　　هنَّ الأهلّة بالجيوب طُلوع
فى ظَبْيةٍ من بينهن تصدُّنى　　حُسْنا ولى أبداً إليه نُزوع
حوراءُ جايرة علىَّ بحكمها　　ظُلمًا وإنى مُذْعن وسميع
تَفْنَى الليالى والزمان وأنقَضِى　　كمدا ولا نبأٌ لها مسموع
فياليت هل دهر يعود بوصلها　　فيكون للعيش الخصيب رجوع
وتعود أيام السُّرور كمثل ما　　قد عاد روح حياتها والروع
فقدوم مولانا الأمير محمد　　خير الملوك ومن له التّرفيع

وفاته : كان حيًّا سنة اثنتين وخمسين وستماية .

سالم بن صالح بن على بن صالح بن محمد الهمدانى

من أهل مالقة ، يكنى أبا عمرو ويعرف بابن سالم .

حاله

قال الأُستاذ أبو جعفر بن الزُّبير : كان أديبا مُقَيِّدا . كتب بخطّه كثيرا ، وانتسخ أجزاء عدّة ، واجتهد وأكثر ، وكان مُتَبذِّلا فى لباسه ، متواضعا ، مقتصدا ، مليح المُجالسة ، حسن العشرة ، جليل الأَخلاق ، فاضل الطبع .

مشيخته

روى عن الحافظ أبي عبد الله بن الفخّار ، وأبي زيد السهيلي ، وأبي الحجاج بن الشيخ ، وأبي جعفر بن حكَم ، وأبي بكر بن الجَد ، وأبي عبد الله بن زَرْقون ، وأبي محمد بن عبيد الله . وشارك في كثير من شيوخه أبا محمد القرطبي ، وكان يناهضه .

دخوله غرناطة

دخلها ، وأقام بها ، وأخذ عن شيوخها ، وتردد إليها .

شعره : قال في رُمْح :

أنا الرُّمح المُعَدُّ إلى النوايب ... فصاحِبني تجدني خير صاحب

لئن فَخَر اليراع بكتْب خطٍّ ... فلخطِّي فخــرٌ بالكتــايب

ومما كتب له ابن خميس قوله :

إلهي قد عصينــا منك ربّــاً ... تعلَّى أن يُقـابل بالمعـــاصي

فكيف خلوصُنا من هَوْل يوم ... تَشِيب لهوله سُود النَّواصي

وجلب شعرا كثيرا دون شُهْرته ، وما ذكر به . وتوفي بمالقة ليلة الإثنين لثمان عشرة ليلة خلت من رمضان المعظم سنة عشرين وستماية .

حرف الهاء من الملوك والأمراء

هشام بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر لدين الله بن محمد بن عبد الله

أخو المُرتَضى المتقدم الذِّكر [1] ، يكنى أبا بكر ، ويلقب بالمُعْتَد بالله الخليفة بقرطبة .

---

(١) وردت ترجمة الخليفة المرتضى في المجلد الثالث من الإحاطة (صفحة ٤٦٦ — ٤٦٧) .

صفته : أبيض أصهب ، إلى الأدمة ، سَبْط الشعر ، أخْنَس ، خفيف العارض واللّحية ، حسن الجسم ، إلى قصر ، أمُّه أم ولد تسمى عاتبا .

حـــاله

بويع له بالثّغر ، فقرطبة أيام استقراره بحصن ألبُنْت[1] ، عند صاحبه عبد الله بن قاسم الفهرى . قال ابن حيان ، ثالبًا إياه على عادته ، قُلد الأمر فى سن الشيخوخة ، وكان معروفا بالشّطارة فى شبابه ، وأقلع فُرجى فلاحه . وقال ، دخل قرطبة فى زىٍّ تقتحمه العين ، وهنًا وقلّة ، عديم رُواءٍ وبهجة ، وعَددٍ وعُدّة ، فوق فرسٍ دون مراكب الملوك ، بحِلية مختصرة ، سادلا سَمْل غفارة على ما تحتها من كسوة رثّة ، قُدّامه سبع خبايب من خيل العامريين دون عَلَم ولا مضطرد ، يسير هَوْنًا والناس ينظرون إليه ، ويصيحون بالدّعاء فى وجهه . فدخل القصر ، وقلّد حَكَما المعروف بالقزاز الأعمال والأمر ، وأطلق يده فى المال ، وهو الذى يقول فيه الشاعر :

هبْك كما تدّعى وزيـرا وزيرٌ من أنت يا وزيـــر
والله ما للأميـــر مَعْـــنى فكيف من وزير الأميـــر

وضعُف أمره ، وآثر الناس الوثوب على وزيره ، فأوقع به طايفة من الجند ، وثارت العامة بهشام فخُلع فى خبر طويل ، ودخل غرناطة مع أخيه المرتضى ، ولحق يوم هزيمته بظاهرها ، بحصن ألبُنْت إلى أن بويع له بقرطبة يوم الأحد لخمس بقين من ربيع الآخر سنة ثمان عشرة وأربعماية .

محنته

(١) البنت أو ألبونت وبالإسبانية « Alpuente » مدينة حصينة فى شرق الأندلس ، تقع شمال غربى بلنسية على مقربة من نهر طوريه . وقد كانت أيام عصر الطوائف عاصمة لإمارة صغيرة مستقلة تحت حكم بنى قاسم الفهرى .

ثارت العامة به بقرطبة كما تقدم ، ملتفةً على أُمية بن عبد الرحمن ابن هشام بن سليمن بن عبد الرحمن الناصر، يوم الثلاثاء الثانى عشر لذى حجة من سنة اثنتين وأربعمائة ، بسوء تدبير وزيره ، وبادر الاعتصام بعِلْية القصر ، وأُنزل منها إلى ساباط الجامع بالأمان ، فيمن تألّف إليه من ولده وحريمه ، فحدَّث بعض سَدَنة الجامع ، أنَّ أوّل ما سأل الشيوخ ، إحضار كسيرة من خبز يسدُّ جوع طُفَيلة له ، كان قد احتضنها ، ساترًا لها بكمه من قَرٍّ ليلته تلك ، كانت تشكو الجوع ذاهلة عما أحاط به ، فأبكى من كلّمه اعتبارا بعادية الدهر . وأُخرج إلى حصن ابن الشرف إلى أن هلك .

وفاته : فى صفر ثمان وعشرين وأربعمائة . وسنه نحو أربعة وستين سنة . وكان آخر ملوك بنى أمية بالأندلس .

ومن ترجمة الأعيان والكبرا والأماثل والوزرا

هاشم بن أبى رجاء الإلبيرى

الوزير ، يكنى أبا خالد .

حاله

كان من عظماء أهل إلبيرة وحِلْيتهم ، وهو الذى عاد الفقيه الزاهد أبا إسحق بن مسعود الإلبيرى فى مرضه ، وعَذَله على رداءة مسْكنه ، وقال له لو سكنْتَ دارا خيرا من هذه لكانت أولى لك ، فأجابه رحمه الله بقوله :

قالوا ألا تستجيدَ بيتاً　　تعجب من حُسْنه البيوت

فقلت ما ذاكم صوابٌ　　حقيرٌ كثيرٌ لمن يموت

لولا شِتاءٌ ولفحُ قيْظ　　وخوف لصٍّ وحفظ قوت

ونسوةٌ يبتغين كِنًّا　　بُنِيت بُنيان عنكبوت

وأى معنىً لحسن مَغْنىً ليس لسكّانه ثُبوت
ما لوعظ القبر لوعقَلنا موعظة للناطق الصموت
يُومِى إلى مُمتطى الحنايا مالَّكَ عن مضجعى عَميت
نسيت يومى وطول نومى وسوف تَنْسى كما نسيت
وشُدْتَ ياهادى قصوراً تَعِمْت فيهنَّ كيف شِيت
معتنقاً للحسان فيها مُستَنشقاً مِسْكها الفَتِيت
تسحب ذيل الصِّبا وتلهو بآنسات يَقُلْن هِيت
فاذكر سُهادى قبل التّنادى واسْهَد له قبل أن يفوت
فعن قريب يكون ظعنى سَخِطْت يا صاح أم رضيت

حرف الياء : الملوك والأمراء

يوسف بن إسمعيل بن فرج بن إسمعيل بن يوسف بن نصر الأنصارى الخزرجى

أمير المسلمين بالأندلس ، أبو الحجّاج .

حاله وصفته

كان أبيض أزهر ، أيْداً ، برّاق الثنايا ، أنْجل ، رَجل الشّعر أسوده ، كثّ اللحية ، تقع العين منه على بدر تمام ، يفضل الناس بحُسْن المرأى، وجمال الهيئة ، كما يفضلهم مقاماً ورتبة ، عذب اللسان ، وافر العقل ، عظيم الهيبة ، إلى ثقوب الذهن ، وبُعد الغُور ، والتفطُّن للمعاريض ، والتّبريز فى كثير من الصنائع العملية ، مائلا إلى الهدنة ، مُزْجيا للأُمور ، كَلِفًا بالمبانى والأثواب ، جمّاعة للحُلِى والذّخيرة ، مستميلا لمعاصريه من الملوك . تولى الملك بعد أخيه بوادى السّقايين من ظاهر الخضراء ، ضحوة يوم الأربعاء الثالث عشر من ذى الحجة عام ثلاثة وثلاثين وسبعماية ،

وسنّه إذ ذاك خمسة عشر عاما وثمانية أشهر، واستقلّ بالملك ، واضطّلع بالأعباء ، وتملّأ المدنة ما شاء . وعظُم مرانه لمباشرة الألقاب ، ومطالعة الرسم ، فجاء نسيج وحده ، ثم عالى شدايد العدو ، فكرُم يوم [الوقيعة العظمى بظاهر](١) طريف موقعه ، وحُمد بعد فى منازلة الطّاغية عند الجثوم على الجزيرة صبرُه ، وأجاز البحر فى شأنها ، فأفلت من مكيدة العدو التى تخطّاها أجله ، وأوهن حبْلها سعده . ولما نفذ فيها القدر ، وأشْفَت الأندلس ، سدّد الله أمور المسلمين بها على يده ، وراخى مُخَنّق الشّدة بسعيه ، فعرفت الملوك رجاحته ، وأثنت على قصده ، إلى حين وفاته .

أمه : أم ولد تسمى بهارا ، طِرْفٌ فى الخير والصون والرجاحة .

ولده : كان له ثلاثة من الولد ، كبيرهم محمد أمير المسلمين من بعده ، وتِلوه أخوه إسمعيل المستقر فى كنَفِه ، محجورا عليه التصرف إلى أعمال التدبير ، وثالثهم إسمه قيس ، شقيق إسمعيل .

وزراء دولته

تولّى وزارته لأول أمره ، كبير الأكره ونبيه الدهّاقين (٢) ، من مُنْتَجعى المَدَر بحضرته ، أبو إسحق بن عبد البر ، لمخيّلة طمع نشأت لمقيمى الدولة فيما بيده ، سدًّا لحال بها على عوز طريقه إلى حضرته ، إلى ثالث شهر المحرم من العام . وأزِف الخاصة والنبهاء ، رياسته ، فطلبوا من السلطان إعاضته ، فعدل عنه إلى خاصة دولتهم الحاجب أبى النعيم [رضوان](٣) ، مظنّة التّسديد ، ومحطّ الإنفات ، فاتصل نظره مستبدا عليه ، فى تنفيذ الأمور وتقديم الولاة والعمال ، وجواب المخاطبات،

(١) وردت فى الإسكوريال فقط (وقيعة طريف) . والزيادة من اللمحة البدرية .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى اللمحة البدرية (المشيخه) .

(٣) وضعنا اسم الحاجب زيادة فى التعريف .

وتدبير الرعايا ، وقَوْد الجيوش . ثم نَكَبه ، وأحاط به مكروها ، مجهول السبب ، ليلة الأحد الثاني والعشرين لرجب عام أربعين وسبعماية .

وتولى الوزارة بعده ، ابن عمة أبيه القايد أبو الحسن على بن موْل ابن يحيى بن موْل الأمى ، ابن عم وزير أخيه ، رجل جَهْورى حازم ، مُؤْثِر للمغلظة على الشَّفقة ، ولم يَنْشب أن كفَّ كفَّ استبداده ، فانكدر نجم سعادتهم ، والتاَثَتْ حاله . ولزمته شكاية سدكت فاستنقذته . وأقام لرسم الوزارة كاتبه شيخنا نسيجَ وحده أبا الحسن بن الجياب إلى أخريات شوال عام تسعة وأربعين وسبعماية ، وهلك رحمه الله فأُجرى لِي الرَّسم ، وعَصَّب لى تلك المثابة ، مُضاعف الجراية ، معزَّزة بولاية القيادة

كتابه

تولى كتابته كاتب أخيه وأبيه ، شيخنا المذكور إلى حين وفاته . وقلَّدنى كتابة سرِّه مثنَّاة بمزيد قربه ، مظفَّرة برسم وزارته .

قضاته

تولى أحكام القضاء ، قاضى أخيه الصَّدر البقيَّة ، شيخنا أبوعبد الله محمد بن محيى بن بكر إلى يوم الوقيعة الكبرى بطريف ، وفُقد فى مصافِّه ، وتحت لوائه . وتولى القضاءَ الفقيه المُفْتى البقيَّة أبو عبد الله محمد بن عيَّاش ، من أهل مالقه أياما ، ثم طلب الإعفاء . فأُسعف عن أيام تقارب أسبوعا ، وولىَّ مكانه الفقيه أبو جعفر أحمد بن محمد بن بُرطال من أهل مالقة . فسدّد الخُطَّة ، وأجرى الأحكام ، إلى الرابع من شهر ربيع الآخر عام ثلاثة وأربعين وسبعماية ، وقُدِّم عوضا عنه ، الفقيه الشريف الصَّدر الفاضل أبو القاسم محمد بن أحمد الحسينى السَّبتى المولد والمنشأ ، الطالع على أفق حضرته فى أيام أخيه ، النازع إلى إيالتهم النصرية

معدودا فى مفاخر ايامها ، مشارا إليه بالبنان عند اعتبار أعلامها : ثم عزله لغير جُرمة تذكر ، إلاّ مالا ينكر وقوعه ، مما تجره تَبِعاتالأَحكام . وولِّى الخطة شيخنا نسيج وحده الرُّحلة البقية أبا البركات بن الحاج ، شيخ الصُّقع ، وصدرُ الجِلّة . واستمر قاضيا إلى.... [1] وأربعين وسبعماية . ثم أعاد إليها القاضى المفوض هونه ، الشريف الفاضل ، أبا القاسم ، إلى يوم وفاته .

رئيس الغزاة ويعسوب الجند الغربى

تولى ذلك [الأول] [2] الأمر الشيخ أبو ثابت عامر بن عثمن بن إدريس ابن عبد الحق ، قريع دهره فى النكراءِ والدهاءِ ، المسلم له فى الرتبة ، عِتاقة ورأيا وثباتا ، إلى أن نكبه ، وقبض عليه وعلى إخوته ، يوم السبت التاسع والعشرين من ربيع الأَول ، عام أحد وأربعين وسبعماية . وأقام شيخنا ورئيسا ، دايلهم وابن عمهم ، المتلقِّف لكرة عزِّهم . يحيى بن عمر بن رحُّو ، ولى ذلك بنفسه ونديه [3] ومبرز خصاله إلى تمام مدته .

من كان على عهده من الملوك

وأولا بفاس دار الملك بالمغرب ، السلطان المتناهى الجلالة ، أبو الحسن على بن عثمن بن يعقوب بن عبد الحق . وجاز على عهده إلى الأَندلس ، إثر صلاة يوم الجمعة تاسع عشر صفر ، من عام أَحد وأربعين وسبعماية . بعد أن أوقع بأُسطول الروم . المُسْتَدعى من أقطارهم . وقيعة كبيرة شهيره . إستولى فيها من المتاع والسلاح والأَجفان ، على ما قدم [4]

(١) بياض بالمخطوط

(٢) هذه الكلمة واردة فى اللمحة وساقطة فى الإسكوريال .

(٣) وردت فى الإسكوريال (وقدمه) . والصواب من اللمحة البدرية .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى اللمحة (بعد) .

به العهد ، واستقر بالخضراء فى جيوش وافرة ، وكان جوازه ، فى مائة وأربعين جفنا غَزَويا . وبادر إلى لقائه ، واجتمع به فى وجوه الأندلسيين وأعيان طبقاتهم بظاهر الجزيرة الخضراء ، فى اليوم الموفى عشرين من الشهر المذكور . ونازل إثر انقضاء المولد النبوى ، مدينة طريف ، ونصب عليها المجانيق ، وأخذ بمخنقها ، واستحثّ من بها من المحصورين ، طاغية الروم ، فبادر يقتاد[1] جيشا ، يجر[2] الشجر والمَدَرَ . وكانت المناجزة ؛ يوم الإثنين السابع لجمادى الأولى من العام . ومُحّص المسلمون بوقيعة هايلة ، أتت على النفوس والأموال والكِراع ، وهلك فيها بمَضْرب المُلْك جملة من العَقايل الكرام ، فعظمت الأُحْدوثة ، وجلّت المصيبة ، وأسرع اللّحاق بالمغرب مفلولا فى سبيل الله ، مُحْتسباً يروم[3] الكرّة : وكان ما هو معلوم ، من إمعانه فى حدود الشرق ، عند إحكام المهادنة بالأندلس ، وتوغّله فى بلاد إفريقية ، وجَرَيان حكم الله عليه بالهزيمة ، [ظاهر القيروان][4] التى لم ينتشله الدهر بعدها ، وعَلِقت آمال الخلق بولده ، مستحق الملك ، من بين ساير إخوته[5] ، وهلك على تَفِية ، لحاقه بأحواز مراكش ، ليلة الاربعاء السادس والعشرين لربيع الأول عام اثنين وخمسين وسبعماية ، فاختار الله له ما عنده ، بعد أن بلغ من بُعْد الصيت ، وتعظيم الملوك له ، وشهرة الذكر ، ما لم يبلغه سواه .

ونحن نجلب دليلا على فضله ، والإشادة بفخره ، نسخة العقد الذى

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى اللمحة (يقود) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال وفى اللمحة (يسوق) .

(٣) وردت فى الإسكوريال (يوم) . والتصويب من اللمحة .

(٤) هذه الزيادة من اللمحة .

(٥) وردت فى الإسكوريال (ولده) . والتصويب من اللمحة .

تضمن هديته إلى صاحب الديار المصرية ، صحبة الرّبعة الكريمة بخطه ، وذلك قبّة من مائة بنيقة ، وفيها أربعة أبواب؛ وقبّة أخرى من ستة وثلاثين بنيقة؛ داخلها حلة محلوقة ووجهها حرير أبيض ، وركيزها أبنوس وعاج مرصع ، والاهار فضة مذهبة ، ، والشرايط حرير . وضربت القبّتان بالصفصيف ، وحل فيها جميع الهدية . وصُفّفت جميع الدواب بجهازاتها أمام القبة . من الخيل ثلاثمائة ، وخمسة وثلاثون من البغل بين ذكور وأناث ، ومن الجمال سبع ماية ، الا إنها لم تصفف ، بل أعدت لحمل الهدية ، ومن البُزاة الأحرار أربعة وثلاثون ، ومن أحجار الياقوت مائتان وخمسة وعشرون ، ومن قطب الزمرد ماية وثمانية وعشرون ، ومن حبوب الجوهر الفاخر أكثره، ثلاثة آلاف وأربعة وستون . ومن أحجار الزبرجد ثمانية وعشرون ، ومن المهنّدات بحلية الذهب عشرة ، ومن أزواج مهاميز الذهب عشرة ، ومن أزواج الأركب عشرة ؛ واحد كله ذهب ، وثلاثة كلها فضة ، وستة من حبحبة مذهبة على الحديد . واثنان من اللضمات من ذهب . وشاشية مذهبة . وحلل ثلاث عشرة . وعشر كلل ومخاد حلة . وتوق ذهب مائتان ، واشتراق ذهب عشرون . وقدود ستة وأربعون . وفرشة جلّة . وعشر علامات مُعَشَّشة . وعشر وقايات مذهّبة . وثلاثون من وجوه اللّحف حرير وذهب . ومائتان من المحررات الملونة الرفيعة المختمة . وحيطيان أحدهما حلة والآخر طرق . وثلاثة وعشرون شُقة من الرهاز . واثنان من هنابل الحلة . وعشرة براقع للخيل منها ثمانية من الحلة . ومن أسلة الخيل ثلاثون ، وثلاثة طنافس من الحرير . وهنابل حرير اثنان . وعشرة هنابل من الحرير والصوف . وهنابل واشريشية وزمورية ماية وسبعة . وأربعة آلاف من الجلد التركي والأغماتي . ومن دَرَق اللّمط المثمنة

مائتان . ومن الأكسية المحررة أربعة وعشرون . ومن البرانس المحررة ثمانية . ومن الأحارم ما بين محررة وصوف عشرون . ومن أزواج المحفف خمسون . وعشر لزمات من الفضة . وستة عشر شقة من الملف . وأما أزودة الحجاج فأعطى للحرة المكرمة أخته ، أعزها الله ، ثلاثة آلاف دنير من الذهب ، ومائتي كسوة برسم العرب . ولمن سافر معها سمّاية وسبعين . ولأبي إسحق بن أبي يحي ثلاثمائة من الذهب وكسوة رفيعة . ولعريفه يحي السويدى ألف دنير من الذهب . إلى العدد الكثير من الذهب العين برسم الوصفان والخدام ، ولرسوم التحبيس على قراء الرابعة الكريمة ، ستة عشر ألفا وخمسماية دنير . انتهى .

وكان هذا السلطان رحمه الله ، ممّن دوّخ الأقطار ، وجاهد الكفار ، ووطىء بالأساطيل خدود البحار ، والتمس ما عند الله من الثواب ، وأعلق بده من نسخ كتابه بأوثق الأسباب . إلى أن استوسق الأمر لولده ، أمير المؤمنين بالمغرب وما إليه ، فارس المكنى بأبي عنان ، الملقب بالمتوكل على الله. فقام بالأمر أحمد قيام . وجرت بين هذا السلطان وبينه المخاطبات والمراسلات ، وسفّرني إليه لأول الأمر ، معزّيا بأبيه ، ومهنّيا بما صار إليه من ملكه ، واستصحبت إليه كتابا من إنشائي ، نجابه بحول الله ، تجميا لمن يقف على هذه الأخبار ، وإن اقتحمتها ثبج الإكثار وهو :

المقام الذى رسخت منه فى مقامَيْ الصبر والشكر قدم ، فلا يغيره وجود ولا يروعه عدم ، وصدقت منه فى كتاب المجد عزمة لم يختلجها وَهَن ولا ندم ، حتى تصرفت بحكم معاليه أيام دهره ولياليه ، هو ولدان وهذه

خدم . مقام محل أخينا . الذى إن جاشت النوايب وسعها صدره . أوعظمت المواهب ، ترفع عنها قدره ، أو أظلمت الكروب جلاها بَدْرُه . أو تألبت الخطوب ، هزمها صبره . أو أظلّت سحايب النعم ، أسْدَرها حمد الله وشكره ، أو عرضت عقود الحمد فى أسواق المجد أغلاها فجره . أو راقت حلل الصنايع طرزّها ذكره . أو طبّقت سيوف الناس أغمدها صفحه ، وسلّها قهره . السلطان الكذا أبقاه الله ضاحك السعد ، كلما بكت عين ، مجموع الشّمل كلما أزِف بَيْن . وارِىَ الزّند إذا اقتضى دين ، محمى الذّمار بانفساح الأعمار ، كلما أغار على الأحياء حين . ولازال يقيد منه شكر الله نعما ما فى وعدها لىّ ، ولا فى قولها مين . ويلبس منها حللا تقواه فى عواتقها زين . مساهمة فى كل خَطْب غَمّ ، أو فضل من الله عم . ومقاسمةً فى كل ما ألمّ . وتهنئة بالملك الذى خَلص وتَمّ ، فلان .

أما بعد حمد الله الذى جعل الصّبر فى الحوادث حصنا منيعا ، والشكر يستدعى المزيد من النعم سريعا ، فمتى أُعملت للصبر دعوة ، كان بها الأجر سميعا . ومتى رُفعت من الشكر رُقعة ، كان المزيد عليها توقيعا . والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله ، الذى بوّأنا من السعادة جنابا مَريعا . وبين له حدود أوامره ونواهيه فطُوبى لمن كان مُطيعا . وكان لنا فى الدنيا هاديا ، ونجده فى الآخرة شَفِيعا . والرضا عن آله وصحبه ، الذين كانوا على العُداة قَيْظا ، وللعُفاة ربيعا . فحلّوا من الاقتداء به فيما ساء وسرّ ، وأحْلَى وأمرّ مقاما رفيعا . وخفض عليهم مضاضة فقده ، مثابرتهم على ضمّ شمل المسلمين من بعده . اقتداءً بقوله سبحانه : واعتصموا بحبل الله جميعا . والدّعاء لمقامكم الأسمى بالنصر ، الذى يشكر منه الجياد والبيض الحداد صنيعاً . وتشرح منه ألسنُ الأقلام تهذيبا وتَقْريعاً . والصبر الذى زُرافات

الأجر قَطيعاً . فقطيعاً . فإنا كتبناه إليكم ، كتب الله لكم من حظوظ الخير اوفرها عددا . وأقطعكم من خُطَط السّعد أبعدها مداً . وأتبَعكم من كتايِب العز أطولها يدا ، وخوّلكم من بَسْطة المُلْك مالا يبيد أبدا ؛ وألهمكم من الصبر لما تقدّمونه فتجدونه غدا . من حمراءِ غرناطة ، حرسها الله ، وعندنا من من الاعتداد فى الله أسبابٌ وثيقة ، وأنسابُ صدق فى بحبوحة الخُلوص عريقة . ومن الثناء عليكم حدايقُ روضٍ لا تحاكيها حديقة . ومن المساهمة لكم فى شتّى الأحوال ، مقاصدُ لا تلتبس منها طريقة . ومن السّرور بما سناه الله لكم ، نعمٌ بِشُكر الله عزّ وجلّ خليقة .

وإلى هذا ، أيّدكم الله بنصره ، وحَكم لقامكم بشدّ أزرِه ، وإعلاء أمره ، فإنّنا وَرَد علينا الخبر الذى قَبَض وبسط ، وجار وأقسَط ، وبخَس ووفّى وأمْرض وشفى ، وأضحى وظلّل ، وتجهّم وتَهلّل ، وأمَرّ وأحْلَى ، وأساء ثم أحْسَن ، وبشّر بعد ما أحْزَن ، خبرُ وفاة والدكم ، محلّ أبينا ، السلطان العظيم القدر ، الكبير الخَطَر . قدّس الله طاهِرَ تُربته ، وكرّم لَحْده ، كما أحيا بكم معالم مجده . فياله من سَهْم رمى أغراض القلوب فأثْبتها . وطرق مجتمعات الآمال فشتّتها . ونعى إلى المجد إنسان عيْنه وعَيْن إنسانه . وإلى المُلْك هَيولى أركانه . وإلى الدين تَرْجَمة ديوانه . وإلى الفضل عميد إيوانه . حادثٌ نبّه العيون من سِنَة غرُورها . وذكرّ النفوس بَهْم أمورها . وأشْرَق المحاجر بماء دموعها ، وأضرم الجوانح بنار ولُوعها . وبيّن أن سَراب الامال سراب ، وأنّ الذى فوق التُّراب تراب . فمن تأمل الدنيا وطباعها ، والأيام وإسراعها ، والحوادث وقِراعها ، بدا له الحقّ من المَيْن . واستغنى عن الأثر بالعين . فشأنها أن لا تفترّ عن سهم تُسَدِّده إلى غرض . وصحّةٍ تعْقُبها بمرض ، وجوهر ترميه

بعرَض . وداء للموت قديم، وقُرْبُه لا يُبْقى عليه أديم . وكأْسُه يشربها مُوسرٌ وعَديم . دبّت إلى كسرى الفُرْسُ عقاريه ، فلم تمنعه أساورُته ولا مرازِبُه . وقصر قيصَر على حكمه فكدّرت مشاربه . وأتبر سيف بن ذى يَزن عمدانه ، فلم ترعه مضاربه . وأردى تُبَّعاً ، فلم يكن فى أتباعه من يحاربه. لم تدافع عنهم الجنود المجنّدة. ولا الصِّفاح المهنّدة . ولا الدّروع المحكمة ، ولا النِّياب المعْلمة . ولاالجياد الجُرد المسَوّمة . ولا الرّماح المثقّفة المُقَومة. كلٌّ قدّم على ما قدّم. وجَّد إلى ما أعدّ. جعلنا الله ممن يَسّر لسفره زاداً . وقدّم بين يديه رِباطا شافعا لديه وجهادا . ووفَّر لنفسه بمناصحة الله والمؤمنين فى أعلى عليين ، مهادا . وطوَّق المسلمين عدلا وفضلا وإمدا دا . غير أن هذا الفاجىء الذى فجع ، ومنع القلوب أن تقرّ والعين أن تهْجع . غمرته البُشْرى ، وغلَبته المسرّةُ الكبرى ، وعارضته من بقايكم الآية المحْكمة الأخرى . فاضمحل من بعد الرّسوخ . وصار ليله فى حُكْم المَنْسُوخ . ما كان من استْخلاصكم الملك الذى أنتم أهله ، واحْتيازكم المجد الذى أشْرقَ بكم محلهُ . وكيف بِسَهْم أخطأَ ذاتكم الشريفة ، أن يقال فيه أصْمى وأَجْهَز . والأمل بعد بقايكم أن يقال فيه تعذّر أو أعْوز . إنما الامال ببقايكم للملإ مَنُوطة . وسعادة الإسلام بحياتكم المتّصلة مشروطة.

ومنها : فأى تَرَح يبقى بعد هذا الفَرح ، وأى كسل يَنْشأُ بعد هذا المَرح . إنْ أفَل البدرُ ، فقد تبلّج الفجرُ، أو غاض النِّيل فقد فاض البحر . وإن مال فَلَكُ الملك ، فقد عاد إلى مَداره . وإنْ أذنَب الدّهر ، فقد أحسن ماشاء فى اعتذاره . إنّما هذا الخطب وعنّ أعْقَبه ضوءُ النهار ، وسطعت بغده أشعةُ الأنوار . وصِمْصامةٌ أغمدت ؛ وسُلّ من بعدها ذو الفقار .

ومنها : وإنّنا لما .... [1] عن حقّه ورصدنا طالعه فى أُفقه . قابلنا الواقع بالتّسيلم ، والمنْحة الرّادفة بالشكر العظيم . وأَنِسْنا فى غمام الهُدنة ربَّ هذا الإقليم . وقلنا استقر الحق ووضحت الطرق ، وهوى الرّايد وصدق البرق، وتقرّرت القاعدة وارتفع الفرق، واستبشر بإبْلال المغرب أَخوه الشّرق . وثابت آمال أُولى الجهاد إلى اقحتام فُرضة المجاز ، وأُولى الحج إلى مرافقه ركب الحجاز ، وآن للدنيا أَن تلبس الحُلَى العجيبة بعد الابتزاز . والحمد لله الذى زيّن بكم أُفق الملك ، وكيَّف بسَعْدكم نظم ذلك السِّلك . وهنَّأَ الله إيالتكم ، العباد والبلاد ، والحجّ والجهاد . وصدّق الظنون الذى فى مقامكم ، الذى جاز فى المكارم الآماد . بادرنا أَيّدكم الله من برّكم إلى غرضين . وقمنا من حقّ عزايكم وهنايكم بواجبين مُفتَرضين . وشرعنا ومن لدَينا ، أَن نباشر بالنفوس ، هذين القَصْدين . إلاّ أَننا عاقنا عن ذلك ، ما اتصل بنا ، من العدُوّ الذى بلينا بجواره ، ورُمِينا بعصابرة تيّاره . وإلاّ فهذا الغرض قد كنّا لا نرى فيه بإجراء الاستنابة ، ولا نُحظى غيرنا بزيارة تلك المثابة . فليَصِل الفضل جلالُكم . ويقبل العُذْر كما لُكم . وإذا كان الاستخلاف مما تحتمله العبادة ، ولا ينكره عند الضرورة العُرْف والعادة ، فأَحْرى الأُخوة والودادة ، والفضل والمجادة . فتخيرنا جهدنا ، واصطفينا لباب اللُّباب فيمن عندنا . فعينّا فلانا .

واتصلت أَيامه إلى آخر مدته .

وبمدينة تِلمْسان : عبد الرحمن بن موسى بن عثمن بن يَغْمَراسِن بن زيّان ، يكنى أَبا تاشفين . وقد تقدم ذكره ، وهو الذى انقضى ملك بنى زيّان على يده . تولى الملك عام ثمانية عشر كما تقدم . وهنّأَه إلى أَن تأَكّدت

---

[1] بياض بالمخطوط .

الوُحْشة بينه وبين السلطان ملك المغرب. فتحرّك لمنازلته ، وأخذ بكَظْمه ، [1] وحصره سِنين ثلاثا ، واقتحم عليه مَلْعب البلدة ، ليلة سبع وعشرين من رمضان عام سبعة وثلاثين وسبعماية . وفى غرّة شوال منها ، دخل البلد مِن أقطاره عَنْوة ، ووقف هو وكبير ولده [2] برحبة قصره ، قد نَزَعا لام الحرب المانِعة من عمل السلاح ، استعجالا للمنِيّة ورغبة فى الإجهاز وقاما مقام الثّبات والصبر والاستجماع ، إلى أن كُوثِرا وأُثخنا ، وعاجلتهما مِنيّةُ العزّ قبل شدِّ الوِثاق ، وإمكان الشّمات ، واستولى على الملك مَلك المغرب. وفى ذلك قلت من الرّجز المسمى بقطع السلوك فى الدول الإسلامية [3] ، مما يخص ملوك تلمسان ، ثم أميرها عبد الرحمن هذا :

وحل فيها عابدُ الرحمن	فاغترّ بالدنيا وبالزمان
وسار فيها مطلق العِنان	من مظهر سام إلى جِنان
كم زخرف علياه من بُنيان	آثاره تُنْبِى عن العِيان
وصرف العزم إلى بجاية	فعظمت فى قومها النّكاية
حتى ما إذا مدة الملك انقضت	وأوْجُه الأيام عنهم أعرضت
وحقّ حقّ الدهر فيها ووَجب	وكتب الله عليها ما كتب
حثّ إليها السير مَلكُ المغرب	يالك من ممارس مجرِّب
فغلب القوم بغير عهد	بعد حصار دائم وجَهْد
فأقفرت من ملكهم أوطانه	سبحان من لا ينقضى سلطانه

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الصحة (بخنقه) .

(٢) وردت فى الإسكوريال (بلده) . والتصويب من الصحة .

(٣) يقصد ابن الخطيب هنا كتابه المسمى (رقم الحلل فى نظم الدول) . وهو الذى سبق أن وصفناه فى مقدمة المجلد الأول .

ثم نشأت لهم بارقة ، لم تكد تَقِد حتى خَبَتْ ، عندما جَرتْ على السلطان أبى الحسن الهزيمة بالقيروان ؛ وانبتَّ عن أرضه ، وصُرفت البيعة فى الأقطار إلى ولده ، وارتحل إلى طلب منصور ابن أخيه ، المنتزى[1] بمدينة فاس . فدخلوا تلمسان ، وقبضوا على القايم بأمرها ، وقدموا على أنفسهم عثمن بن يحيى بن عبدالرحمن بن يَغمراسن المتقدم الذكر فى رسم عثمن وذلك فى الثامن والعشرين لجمادى الآخرة من عام تسعة وأربعين وسبعماية ؛ واستمرت أيامه أثناء الفتنة وارتاش ، وأقام رسم الإمرة ، وجدَّد مُلْك قومه . واستمرت حاله إلى أن أوقع بهم ملك المغرب ، أمير المسلمين أبو عنان الوقيعة المصطلمة[2] التى خضدت[3] الشوكة ، واستأصلت الشأفة . وتحصل عثمن فى قبضته . ثم ألحقت النكبة به أخاه ، فكانت سبيلهما فى القتل صبرا عِبرة ، وذلك فى وسط ربيع الأول من عام التاريخ .

وبتونس : الأمير أبو يحيى أبو بكر بن الأمير أبى زكريا ابن الأمير أبى إسحق ابن الأمير أبى زكريا إلى أن هلك . وولى الأمر ولده عمر [ثم ولده أحمد][4] ثم عاد [الأمر] إلى عمر . ثم استولى ملك المغرب السلطان أبو الحسن على ملكهم . ثم ضَمَّ نَشْرُهم بعد نكبته وخروجه عن وطنهم على أبى إسحق بن أبى بكر .

ومن ملوك النصارى بقَشْتالة : ألفنش بن هِرَنْدُه بن دون جانْجُه بن ألفنش المستولى على قرطبة[5] ابن هِرَنْدُه المستولى على إشبيلية . إلى

(١) هكذا فى الإسكوريال وفى اللمحة (الداعى لنفسه) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى اللمحة (المستأصلة) .
(٣) وردت فى الإسكوريال (حصدت) . والتصويب من اللمحة .
(٤) هذه الزيادة واردة فى اللمحة وساقطة فى الإسكوريال .
(٥) هذا خطأ تاريخى من ابن الخطيب ، فإن الذى استولى على قرطبة هو فرناندو الثالث ملك قشتالة (هرانده) . وقد استولى عليها فى شوال سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٦ م) . وهو الذى استولى كذلك على إشبيلية فى رمضان سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٨ م) . وينعت فى التواريخ النصرانية بسان فرناندو (أى القديس) .

عدد جم . وكان طاغية مرهوبا ، وملكا مجدودا . هبّت له الريح ، وعظمت به إلى المسلمين النكاية . وتملّك الخضراء بعد أن أوقع بالمسلمين الوقيعة الكبرى العظمى بطَرِيف . ثم نازل جبل الفتح ، وكاد يستولى على هذه الجزيرة ، لولا أن الله تداركها بجميل صنعه وخفيٍّ لطفه ، لا آله إلا هو . فهلك بظاهره فى محلّته حَتْف أنفه ليله عاشوراء من عام أحد وخمسين وسبعماية . فتنفس المُخنَّق ، وانجلت الغُمّة ، وانسدل السِّتر . كنت منفردا بالسلطان رحمه الله ، وقد غلب اليأْس ، وتُوُقِّعت الفضيحة ، أونِسُه بعجايب الفرج بعد الشدة ، وأُقوى بصيرته فى التماس لطف الله ، وهو يرى الفرج بعيدا ، ويتوقع من الأمر عظيما . ووَرَد الخبر بمهلكه ، فاستحالت الحال إلى ضدها ، من السُّرور والاستبشار . والحمد لله على نعمه . وفى ذلك قلت :

الا حدِّثانى (١) فهى أم الغرايب	وما حاضرٌ فى وصفها مثل غايب
ولا تُخليا منها على قَطْر السُّرى	سروج المذاكى أو ظهور النّجايب
أيوسُف إنّ الدهر أصبح واقفا	على بابك المأمول موقف تايب
دعاؤك أمضى من مُهَنَّدة الظُّبا	وسعدك أقضَى من سُعود الكواكب
سيوفك فى أغمادها مطمئنة	ولكن سيف الله دامى (٢) المضارب
فثِق بالذى أرعاك أمر عباده	وسَلْ فضله فالله أكرم واهب
لقد طرَّق الأذفنش سعدُك خزيةً	تجدُّ على مرِّ العصور الذواهب
وفَّيت وخان العهد فى غير طايل	وصدَّق أطماع الظنون الكواذب

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الصحة (حدثاها) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الصحة (ماضى) .

هوى فى مجال العجب غير مُقَصِّر ... وهل نهض العُجْب المخل براكب

وغالَب أمر الله جلَّ جلاله ... ولم يَدْرِ أنَّ الله أغلبُ غالب

ولله فى طىِّ الوجود كتايبُ ... تدقُّ وتَخْفى عن عيون الكتايب

تغير على الأنفاس فى كل ساعة ... وتكمن حتى فى مياه المشارب

فمن قبارع فى قومه سنَّ نادم ... ومن لاطم فى رَبعه خدَّ نادب

مصايب أشجى وقعُها مُهج العِدا ... وكم نِعمٌ فى طىِّ تلك المصايب

شواظٌ أراد الله إطفاء ناره ... وقد نَفَج الإسلام من كل جانب

وإن لم يصب منه السلاح فإنما ... أصيب بسهم من دُعايك صايب

ولله من ألطافه فى عباده ... خزاينُ ما ضاقت لمطلب طالب

فمهما غَرَسْتَ الصبرَ فى تُربة الرضا ... بأحكامه فَلْتَجن حسن العواقب

ولا تعدُّ الأمر البعيد وقوعه ... فإن الليالى أمهات العجايب

وهى طويلة سهلة؛ على ضعف كان ارتكابه مقصودا فى أمداحه .

وببرجلونة [١] : السلطان بِطْرُه المتقدم ذكره فى اسم أخيه

ومن الأحداث فى أيامه الوقيعة الكبرى بظاهر طريف ، يوم الإثنين السابع من جمادى الأولى ، من عام أحد وأربعين وسبعماية ، وما اتصل بذلك من منازلة الطاغية ألهَنْشُه ، قلعة يحصب [٢] الماسة الجوار من حضرته ، واستيلائه عليها ، وعلى باغة . ثم منازلة الجزيرة الخضراء عشرين شهرا ، أوجف خلالها بجيوش المسلمين من أهل العدوتين إلى أرضه . ثم استقر منازلا إياها إلى أن فاز بها قِداحه ، والأمر لله العلى الكبير ،

---

(١) أى برشلونة .

(٢) قلعة يحصب أو قلعة بنى سعيد ، محلة حصينة تقع شمالى غرناطة وجنوبى حسان . وقد سبق التعريف بها (راجع المجلد الأول من الإحاطة صفحة ١١١ حاشية) . وباغة وبالإسبانية « Priego » أيضاً سبق التعريف بها (راجع المجلد الثالث صفحة ٥٢٧ حاشية) .

فى قصص يطول ذكره ، تضمن ذلك « طرْفة العصر » من تأليفنا .
ثم تهنأ السلم ، والتحف جناح العافية والإمنة برهة . رحمه الله .

وفاته

وما استكمل أيام حياته ، وبلغ مداه ، أتمّ ما كان شباباً واعتدالا وحسنا ، وفخامة وعزاً [حتى][1] أتاه أمر الله من حيث لا يحتَسب ، وهجم عليه يوم عيد الفطر ، من عام خمسة وخمسين وسبعماية ، فى الركعة الأخيرة ، رجل من عِداد المرورين ، رمى بنفسه عليه ، وطعنه بخنجر كان قد أعدّه ، وأغرى بعلاجه ، وصاح ، وقُطعت الصلاة ، وقُبض عليه ، واستُفهم ، فتكلم بكلام مُخَلَّط ، واحتُملُ إلى منزله ، على فَوْت لم يستقر به ، إلا وقد قضى رحمه الله ورضى عنه ، وأُخرِج ذلك الخبيث للناس ، وقتل وأُحرق بالنار ، مبالغة فى التشفى . ودفن السلطان عشية اليوم فى مقبرة قصره لصق[2] والده ، وولى أمره ابنه أبوعبد الله محمد ، وبولغ فى احتفال قبره ، بما أشف على من تقدمه ، وكتب عليه ما نصه :

« هذا قبر السلطان الشهيد ، الذى كَرُمت أحسابُه وأعراقُه ، وحاز الكمال خَلْقُه وأخلاقُه ، وتحدَّث بفضله [وحلمه][3] شامَ المعمور وعراقُه ، صاحب الآثار السَّنيَّة ، والأيام الهَنيَّة ، والأخلاق الرضِيَّة ، والسير المَرْضيَّة . الإمام الأعلى ، والشِّهاب الأجلى ، حُسام الملة ، علم الملوك الجلَّة ، الذى ظهرت عليه عناية ربِّه ، وصُنع الله له فى سَلْمه وحَرْبه . قطب الرَّجاحة والوقار ، وسلالة سيِّد الأنصار ، حامى حمى الإسلام برأيه ورايته ، المستولى فى ميدان الفخر على غايته ، الذى صحبته [عناية الله][4] فى بداية أمره وغايته ، أمير المسلمين أبى الحجاج يوسف ابن السلطان الكبير ،

---

(١) أضيفت ليستقيم السياق .

(٢) هكذا وردت فى اللمحة ووردت مكانها فى الإسكوريال (صحيح) .

(٣) هذه الكلمة واردة فى اللمحة وساقطة فى الإسكوريال .

(٤) هكذا وردت فى اللمحة . وفى الإسكوريال (العناية) .

الإمام الشهير ، أسَد دين الله ، الذى أذْعَنَت الأعداءُ لقهره ، ، ووَقفت الليالى والأيام عند نهيه وأمره . رافع ظلال العدل فى الآفاق [حامى حِمى السُّنة بالسُّمْر الطوال والبيض الرِّقاق][1]، مخلد صحف الذِّكر الخالد والعزِّ الباق ، الشَّهيد السعيد المقدس أبى الوليد ، ابن الهمام الأعلى الطاهر النسب والذات ، ذى العز البعيد الغايات ، والفخر الواضح الآيات ، كبير الخلافة النصرية ، وعماد الدولة الغالبِيَّة ، المقدس المرحوم أبى سعيد فرج بن اسماعيل بن نصر ، تغمده الله برحمة من عنده ، وجعله فى الجنَّة جاراً لسَعْد بن عُبادة جدِّه ، وجازى عن الإسلام والمسلمين ، حميد سعيه ، وكريم قصده . قام بأمر المسلمين أحْمَدَ القيام ، ومهَّد لهم الأمن من ظهور الأيام ، وجلَّى لهم وجه العناية مشرق القسام ، وبذل فيهم من تواضعه وفضله ، كل واضح الأحكام . إلى أن قضى الله بحضور أجله ، على خير عمله ، وختم له بالسعادة ، وساق إليه على حين إكمال شهر الصوم هديَّة الشهادة . وقَبَضه ساجدا خاشعا ، مُنيبا إلى الله ضارعا ، مستغفراً لذنبه ، مطمئنا فى الحالة ، التى أقرب ما يكون العبد فيها من ربِّه . على يد شقِّ قيَضه الله لسعادته ، وجعله سببا لنفوذ سابق مشيئته وإرادته ، خفى مكانه لخمول قدره . وتمَّ بسببه أمر الله لحقارة أمره . وتمكن له عند الاشتغال بعبادة الله ، ما أضمره من غدره ، وذلك فى السجدة الأخيرة من صلاة العيد . غرة شوال ، من عام خمسة وخمسين وسبعماية . نفعه الله بالشهادة التى كرم منها الزمان والمكان ، ووضح منها على قبول رضوان الله البيان . وحَشَره مع سلفه الأنصار ، الذين عزَّ بهم الإيمان ، وحصل لهم من النار الأمان . وكانت ولايته الملك فى غرة اليوم الرابع عشر لذى الحجة من

---

(١) هذه الزيادة من اللمحة .

عام ثلاثة وثلاثين وسبعماية . ومولده[1] فى الثامن والعشرين لربيع الآخر عام ثمانية عشر وسبعماية . فسبحان من انفرد بالبقاء المحض ، وحتّم الفناء على أهل[2] الأرض ثم يجمعهم إلى يوم الجزاء والعرض ، لا إله إلا هو.

وفى الجهة الأخرى من النظم ، وكلاهما من إملائى ، ما نصه :

يحييك بالريحان والرَّوح من قبر	رضى الله عمّن حلّ فيك مدى الدهر
إلى أن يقوم الناس تَعْنوُ وجوههم	إلى باعث الأموات فى موقف الحشر
ولستَ بقَبْرٍ إنما أنت روضة	مُنَعَّمة الريحان عـــاطرة النَّشر
ولو أننى أنصفتك الحق لم أقُلْ	سوى يا كِمام الزَّهر أو صدف الدُّر
ويامَلْحَد التقوى ويامَدْفَن الهُدى	ويا مسْقط العليا ويا مَغْرب البدر
لقد حطَّ فيك الرحل أىُّ خليفة	أصل المعالى غُرَّةٌ فى بنى نصر
لقد حلَّ فيك العزُّ والمجد والعلى	وبدر الدُّجا والمُسْتجار لدى[3] الدهر
ومن كأبى الحجاج حامى حمى الهُدى	ومن كأبى الحجاج ماحى دُجا الكفر
إمام الهُدى غيث النَّدى دافع العدا	بعيد المدى فى حَوْمة المجد والفخر
سلالة سَعْد الخَـــزْرج بن عُبادة	وحسبك من بيت رفيع ومن قدْر
إذا ذُكر الإغضاء والحلم والتُّقى	وحدِّثْت عن علياه حدِّث عن البحر
تخوَّنه طرفُ الزمـان وهل تـرى	بقاءً لحىٍّ أو دواماً على أمـــر
هو الدهر ذو وجهين يومٌ وليلةٌ	ومن كان ذا وجهين يُعتب فى غدر
تولى شهيداً ساجـــداً فى صلاته	أصيل التقى رَطْب اللسان من الذكر
وقد عرف الشَّهر المبارك حق مـا	أفاض من النُّعمى ووفَّى من البر

(١) هكذا وردت فى اللمحة . وفى الإسكوريال (ولادته) .

(٢) هكذا وردت فى اللمحة . وفى الإسكوريال (الأهل) .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى اللمحة (من) .

وباكرَ عيد الفطر والحكم مبرم ... وليس [سوى] [1] كأس الشهادة من فِطر
أتيح لــه وهو العظيم مهـابة ... وقدرا حقير الذّات والخُلْق والقدر
شقيٌّ أتت [2] من لــدنه سعادة ... ومُنْكَر قوم جاء بالحادث النُّكر
وكم من عظيم قد أُصِيب بخامل ... وأسباب حكم الله جَلَّت عن الحصر
فهذا عليٌّ قــد قضى بابن ملْجم ... وأوقع وحْشِي بحمزة ذى الفخر
تَعُدُّ الرِّماح المشرفية والقنـــا ... ويطرق أمر الله من حيث لا تدرى
ومن كان بالدُّنيا الدَّنية واثقا ... على حالة يوما فقد باء بالخُسْر
فيامالك الملك الذى ليس ينقضى ... ويامن إليه [الحكم] [3] فى النهى والأمر
تغمَّد بستر العفو منك ذنوبنـا ... فلسنا نُرَجِّى غير سِترك من سِتر
فما عندك اللهم خيرٌ ثــوابــه ... وأبقى ودنيا المرء خــدعة مغترٍّ

ومما رثى به قولى فى غرض ناء عن الجزالة ، متحرِّيا اختيار ولده :

العُمْر يــوم والمُنى أحلام ... ماذا عسى أن يستمر منــام
وإذا تحققنا الشيء بَـــدْأَة ... فــله بما تقضى العقول تمام
والنفس تجمع فى مبـــدى آمالها ... ركْضاً وتأْبى ذلك الأَيــــام
من لم يُصَبْ فى نفسه فمصابه ... بحبيبه نَفَذَت بــذا الأَحكام
بعد الشبيبة كَبْرةٌ ووراءهـــا ... هَــرَمٌ ومن بعد الحياة حِمام
ولحكمة ما أشرقت شهُب الــدُّجا ... وتعاقب الإصباح والإظـــلام
دنياك ياهذا محــلَّة نُقــلة ... ومناخ رَكْبٍ مالــديـه مقام
هــذا أمير المسلمين ومن بــه ... وُجِـد السّماح وأُعــدم الإعدام
سر الإمــامـة والخلافة يــوسف ... غيثُ الملوك وليثها الضرغــام

(١) واردة بالمحة . وساقطة فى الإسكوريال .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى اللمحة (أتته) .
(٣) واردة باللمحة . وساقطة فى الإسكوريال .

قَصَدته عادية الزمان فأقْصدت ... والعزُّ سام والخميس لهـــام

فُجعت به الدنيا وكُدِّر شربها ... وشكى العراق مصابه والشام

أسفاً على الخُلق الجميل كأنه ... بـدر الـدُّجنة قـد جـلاه تمام

أسفا على العمر الجديـد كأنـه ... غضُّ الحديقة زهـره بسّام

أسفا على الخلق الرِّضى كأنها ... زهر الرِّياض هَمى عليه غمـام

أسفا على الوجه الذى يهمى ندًى ... طاشت لنور جماله الأفهـام

يا ناصر الثّغر الغريب وأهـله ... والأرض ترجف والسماء قَتام

ياصاحب الصّدمات فى جَنح الدجا ... والناس فى فرش النعيم نيـام

يا حافظ الحرَم الذى بظلالـه ... سُتر الأرامـل واكتسى الأيتام

مولاى هل لك للقصور زيارة ... بعد انتزاح الـدار أو إلمام

مولاى هل لك للعبيد تـذكُّر ... حاشاك أن تنسى لديك ذِمـام

ياواحد الآحاد والعلم الـذى ... خفقت بعزّه نصُرة الأعـلام

وافـاك أمر الله حين تكاملت ... فيك النُّهى والجود والإقـدام

ورحلتَ عنا الرّكب خير خليفة ... أثنى عليـك الله والإسلام

نعم الطريق سَلَكْت كـان رفيقه ... والـزّاد فيه تهجُّـدٌ وصيام

وكسفتَ يا شمس المحاسن ضحوةً ... فاليوم كيـلٌ والضياءُ ظـلام

سقاك عيد الفِطر كأس شهادة ... فيها من الأجـل الحـرى مـدام

وختمتَ عُمْرك بالصلاة فحبذا ... عملٌ كـريم سعيه وختام

مولاى كم هذا الرقـاد إلى متى ... بين الصّفايح والتُّراب تنـام

إعـد التحية واحتسبها قُـربة ... إن كان يمكنك الغداة كـلام

تبكى عليك مصانع شهدتها ... بيض كما تبكى الهَديلَ حَمام

تبكى عليك مساجـدٌ عَمَرتها ... فـالناس فيها سُجَّـدٌ وقيام

تبكى عليك خـلايق أمّنتها بالسّلم وهى كـأنها أنعـام

عـاملت وجـه الله فيما رُمته منها فلم يبعد عليك مـرام

لو كنت تُفْدَى أو تُجاز من الرّدى بُذلت نفوس من لـدنك كرام

لو كنت تمنَع بالصّوارم والقَنا ما كان ركنك بالغلاب يُـرام

لكنه أمـر الإلـه ومـالنا إلاّ رضىً بالحـكم واستسلام

والله قـد كتب الفنا على الورى وقضـاؤه جَفّت به الأقـلام

نَم فى جـوار الله مسرورا بما قـدّمت يـوم تزلزل الأقـدام

واعلم بـأنّ سايل ملك قـد غـدا فى مستقرٍّ عُـلاك وهو إمـام

يبقو تكنّف منه مَنْ خلّفتـه ظـل ظليل فهـو ليس يُضام

كنت الحسامُ وصرتَ فى غمد الثّرى ولنصر ملكك سُلّ منه حُسام

خلّفت أبـة أحمـد لمحمـد فقضت بسعد الأمّـة الأحكام

فهو الخليفة للـورى فى عهده تُرعى العهود وتـوصل الأرحام

أبقى رسومَك كلها محفوظـة لم يَنتَثر منها عليك نظـام

العدل والشّيم الكـريمة والتّقى والـدّار والألقاب والخُـدّام

حسبى بأنّ أخشى ضريحك لاثماً وأقـول والـدمع السّفوح سِجام

يا مدفن التّقوى ويا مثوى الهدى منّى عليك تحيـة وسلام

أخفيتُ عن حزنى عليك وفى الحشا نارٌ لها بين الضلوع ضـرام

ولو اننى أدّيت حقّك لم يكن لى بعد فقـدك فى الوجـود مُقام

وإذا الفتى أدّى الـذى فى وُسْعه وأتى بَجَهدٍ مـا عليه مـلام

وكتبت فى بعض المعاهد التى كان يأنس بها رحمة الله عليه :

غِبتَ فلا عَين ولا مَخْبر ولا انتظارٌ منك مرقوب

يا يوسف أنت لنا يوسف وكلُّنا فى الحزن يعقوب

يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عُقبة بن نافع الفهرى

أوليّته

كان عبد الرحمن أحد زعماء العرب بالأندلس . وكان ممن ثار منها من أصحاب بلج عصبيّةً لقتله، فخرج عن الأندلس إلى إفريقية . وجدُّه عقبة بن نافع ، هو الذى اختط قَيْرُوانها أيام مُعَوية بن أبى سفيان . قال عيسى بن أحمد ، وهرب ابنه يوسف هذا من إفريقية إلى الأندلس مغاضباً له ، أيام بشر بن صَفْوان الكلبى ، فهوى الأندلس واستوطنها، فساد بها ثم تأمَّر فيها .

حاله

كان شريفاً جليلا ، حازما عاقلا . اجتمع عليه أهل الأندلس من أجل أنه قُرشى ، بعد موت أميرهم ثَوابة بن سلامة، ورضى به الخِيار من مُضر واليمن ، فدانت له الأندلس ، تسع سنين وتسعة أشهر ، وكان آخر الأُمراء بالأندلس ، وعنه انتقل سلطانها إلى بنى أمية . وأشرك الصُّميل بن حاتم فى أمره ، فتُركت لذلك نسبة الأمر له ، وكانت الحرب التى لم يُعرف بالمشرق والمغرب ، أشدَّ جلاداً ، ولا أصبر رجالا منها ، واعتزلها يوسف تحرُّفا ، وقام بأمرها الصُّميل ، وانهزم اليمانيون واستلحموا ملحمة عظيمة ، واستوسق الأمر ليوسف . وغزا جِلِّيقية ، فعظم فى عُدوِّها أثره . ولما تمَّ له الأمر طرقه ما تقدم به الإلماع ، من عبور صقر بنى أمية عبد الرحمن الداخل فى خبر طويل . والتقى بظاهر قرطبة سنة ثمان وثلاثين ومائة فى ذى الحجة . وانهزم يوسف بن عبد الرحمن والصُّميل،ولحقا

بإلبيرة . وأتبعهما عبد الرحمن بن معاوية فنازله ، وقد تحصن بمعقل إلبيرة حصن غرناطة ، وترددت بينهما الرُّسل فى طلب المهادنة والبقاء على الصلح . وتخلّى يوسف عن الدعوة ، واستقر سكناه بقرطبة . وذلك فى صفر سنة تسع وثلاثين ومائة ، وأقبل معه فى عسكره إلى قرطبة . وذُكر أنه تمثل عند دخوله عسكر عبد الرحمن ببيت جرور بن إبنة النعمان :

فبينا نسوس الأمرَ والأمرُ أمْرنا　　إذا نحن فيهم سوقةٌ نتنصّف
فتبًّا لدنيا لا يدوم نعيمها　　تُقلِّب ساعات بنا وتصرّف

واستقر بقرطبة دهراً ، ثم بدا له فى الخلاف. ولحق بأحواز طليطلة ، وأعاد عهد الفتنة ، فاغتاله مملوكان له ، وقتلاه رحمه الله ، فى سنة اثنتين وأربعين ومائة . وأخبار يوسف بن عبد الرحمن معروفة ، و هو محسوب من الأمراء الأصلاء بغرناطة ، إذ كانت له قبل الإمارة بها ضياع يتردد إليها .

ومن غير الأصليين

يحيى بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد ابن أحمد بن أبى عزَفة اللخمى

الرييس أبو زكريا وأبو عمرو بن الرييس أبى طالب بن الرييس أبى القاسم . كناه أبوه أبا عمرو ، وغلبت عليه الكنية المعروفة .

حـــاله

كان قيِّما على طريقة أصحاب الحديث، رواية وضبطا وتقييدا وتخريجاً ، مع براعة خط، وطرْف ضبط، شاعرا مُجيدا مطبوعا . ذا فكاهة

وحُسْن مجالسة . رأس بسَبْتة ، بعد إجازته البحر من الأندلس والإحتلال بفاس ، نايبًا عن ملك المغرب السلطان أبي سعيد بن عبد الحق ، لأمر مَتَّ به إليه قبل استقلاله ، ليس هذا موضع ذكره. ثم استبدَّ بها مخالفا عليه ، لأمر يطول شرحه ، أجرى فيه مُوَفَّى الجانب من الهلع ، باسلاً مقداما . سَكون الطاير ، مثقِّفا بخلال رياسته ، ضاماً لأطرافها . ونازله جيش المغرب ، وبيد أميره ولده أبو القاسم مُرْتَهنا ، فأُتيح له ظفرٌ أجلى ليلة غربيات المحلة والأثر فيها ، واستخلاص ولده.

مشيخته

أخذ عن جماعة من أهل بلده وغيرهم ، قراءة وسماعاً وإجازة . فممن أخذ عنه من أهل بلده سَبتة ، أبو إسحق الغافقى ، وأبو عبد الله بن رُشيد ، وأبو الظفر المنورقى ، وأبو القاسم البلفيقى ، وأبو على الحسن بن طاهر الحسينى ، وأبو إسحق التِّلمسانى ، وأبو محمد عبد الله بن أبى القاسم الأنصارى ، وأبو القاسم بن الشَّاط . وبغرناطة لما قدم عليها ، مُغَرَّباً عن وطنه ، عند تصييره إلى الإيالة النَّصرية من أيديهم ، وسكناه بها ، عن أبى محمد عبد المنعم بن سماك ، وأبى جعفر بن الزبير ، وأبى محمد بن المؤذن ، وأبى الحسن بن مَسْتقور وغيرهم . ومن أهل ألمرية أبو عبد الله محمد ابن الصايغ ، وأبو عبد الله بن شعيب. ومن أهل مالقة الولى أبو عبد الله بن الطَّنجالى ، وأبو محمد الباهلى ، وأبو الحسن بن منظور ، وأبو الحسن بن مصامد . ومن أهل الخضراء ، أبو جعفر بن خميس . ومن أهل بلِّش أبو عبد الله بن الكماد . ومن أهل أُرجبة أبو زكريا البُرشانى . ومن أهل

(١) أرجبة وبالإسبانية « Orgiva » من قرى غرناطه وقد سبق التعريف بها (المجلد الأول صفحة ١٦٨ حاشية) .

بجاية أبو على ناصر الدين المِشْدالى ، وأبو عبد الله بن غربوز . ومن أهل فاس أبو عبد الله المومِنانى . ومن أهل تِيزى أبو عبد الله محمد القيسى . وكتب له بالإجازة طايفة كبيرة من أهل المشرق ، منهم قطب الدين القسطلانى .

شعره

قال لى شيخنا أبو البركات ، سألته ، وأنا معه واقفٌ بسور قصبة سبْتة ، أن يجيزنى ويكتب لى من شعره ، فكتب لى قطيعات منها فى تهنئة السلطان أبى الجيوش يوم ولايته :

الآن عاد إلى الإمامة نورها ... وارتاح منبرها وهشَّ سريرُها
وبدا لنا من بعد طول قطوبها ... منها التهلُّل واستبان سرورها
وضعت أزمَّتها بكف خليفة ... هو أصلها الأَوْلى بها ونصيرها
من معشر عَرَفت بطون أكفِّهم ... بذل النَّدى واللاَّثمين ظهورها
خُرصانهم ووجوههم فى ظلمة ... النَّقع المُثار نجومها وبدورها
وسع الرعايا منه عدله ... لم يزل إليه قلوبهم ويصورها
حتى اغتدت بالحب فيه صدورها ... ملأى وأخلص فى الولاء ضميرها
رام العُداة لمجده كَيْدا فلم ... تنجح مساعيُها وساء مصيرُها
وكذاك فعل الله فيمن كاده ... جهلا وغرَّته المُنا وغرورها
مولاى إنا عصبةٌ معروفة ... بالحبِّ فيك صغيرها وكبيرها
جينا نُقضِّى من حقوقك واجبا ... نُسدى بالمدايح تارة وتبيرها
ولقد خدمتُ مقامكم من قبلها ... بفرايد حَسْنا يعزُّ نظيرها
فاجذب بضَبعى من حضيض مزارنى ... عرّست وعلى يديك مسيرها
وافتكَّنى من أسر فَرط خصاصة ... عنفت فلم يقصد سواك أسيرُها

لازلت للإسلام تحمى أمة ... دانته مما يتّقى ويجيرها
وبقيت فى عز وسعد شامل ... حتى يحين من الرفاة نُشُورها

وفى الإلغاز بالأقلام والمحبرة :

وسربٌ ضمهّم دَسْت ستير ... شباب ليس يفزعهم قَتير
قد اختصروا فلم يُفرش ساد ... لمجلسهم ولم يُنصب سرير
لهم كأس إذا دارت عليهم ... فقد أزف الترحُّل والمسير
وأفشوا سرّ سياقهم بلفظ ... مُبين ليس يفهمه البَصير
وهزّت من روسهم نشاطا ... وعند الصّحو يَعْروهم فتور
فصاح إن تحللهم وإلاّ ... فشأنهم التّلعثُم والقصور
صلاب حين تعجمهم ولكن ... إذا طعنوا فدمعهم غزير
لهم عقل يلوح على القواق ... لذاك نومهم أبدا كثير
طويلهم يطول العُمْر منه ... أخا نَعبٍ ويخترم القصير
وهم لم يُشْف يوما ... بغير القطع عضوهم الكبير
فقل لى من هُمْ لازلت فرداً ... دياجى المشكلات به تسير

نكبته : تنظر فى العبادلة فى اسم أبيه [1] .

مولده : سنة سبع وسبعين وستماية .

وفاته : عام تسعة عشر وسبعماية ، فى شعبان رحمه الله.

يحيى بن على بن غانية الصحراوى ، الأمير أبو زكريا

حاله

(١) سبق لابن الخطيب أن ترجم لأبيه ، عبد الله بن محمد بن أحمد بن محمد العزفى أمير سبتة الذى عزل عن رياسته عنوة ، وأبعد هو وولده وأهله إلى الأندلس ، فاستقر بغرناطة ، وتوفى بها فى سنة ٧١٣ ﻫ (راجع المجلد الثالث من الإحاطة ص ٣٨٣ - ٣٨٥) .

كان بطلا شهما حازما ، كثير الدهاء والإقدام ، والمعرفة بالحروب ، مُجْمَعًا على تقدمه . نشأ فى صحبة الأمير بقرطبة محمد بن الحاج اللّمتونى وولاّه مدينة إسْتجة ، فهى أول ولايته . وليها يحيى ، وتزوج محمد بن الحاج أمه غانية بعد أبيه وكفله ، وأقام معه بقرطبة ، إلى أن كان من محمد بن الحاج ما كان من مداخلة أشياخ مَسُّوفَة على خلع محمد بن يوسف ابن تاشفين [عن الأمر][1] ، وصرف البَيْعة إلى يحيى الحفيد ، الوالى فى ذلك العهد بمدينة فاس ، ولم يتم له الأمر ، فأجْلَىَ عن نكبته . وانفصل يحيى بن غانية عن جماعته ، وأقام متصرّفاً فى الحروب ، معروف الحق والغِناء ، إلى أن اشتهرت بسالته وديانته ، ورغب يدّير بن وَرَقا صاحب بلنسية من السطان فى توجيهه إليه ، ليستعين به على مدافعة العَدوّ ، فأُجيب إلى ذلك . فوصل يحيى بلنسية ، وأقام بها ذاباً عن المسلمين ، إلى أن توفى يَدّير بن ورقا ، فولاه على بن يوسف إياها وشرق الأندلس ، ظهر غناؤه وجهاده ، وهزم الله بها ابن رُذْمير[2] الطّاغية منازلا إفراغة على يده ، فطار ذكره ، وعظُم صيته ، واشتهر سَعْدُه ، وأَسَل عن البيضة دفاعه .

أخبار عزمه

حكى عنه أنه تزوج فى فُتوّته امرأة من قومه شريفة جميلة ، وقرّبها عينا ، ثم تركها وطلّقها ، فسئل عن ذلك ، فقال والله ما فارقتها عن

(١) هذه الزيادة من الزيتونة .

(٢) ابن رذمير هو الإسم الذى تطلقه الرواية العربية على ألفونسو المحارب ملك أراجون . وهو الذى استولى على عدة مدن من الثغر الأعلى . وحاول بعد ذلك الإستيلاء على مدينة إفراغة ، وهى من أمنع معاقل الثغر . ولكنه منى تحت أسوارها بهزيمة فادحة (رمضان سنة ٥٢٨ – يوليه سنة ١١٣٤م) ومزق جيشه شر ممزق ، وتوفى لأيام قلائل من بعد هزيمته غما وألما .

خِلَّة تُذَم ، ولكن خِفت أن أشْتغل بها عن الجهاد. ولم يزل يدافع النصارى عن المسلمين بالأندلس ، فهزم ابن رذمير ، وأقلع محلاتهم عن مدينة[١] الأُشبونة ، واستمسك به حال الأندلس . ووُلِّى قرطبة وما إليها من قبل تاشُفين بن على بن يوسف ، عام ثمانية وثلاثين وخمسمائة ، فاستقامت الأُمور بحسن سيرته ، وظهور سعده ، إلى صفر من عام تسعة وثلاثين . وكانت ثورة ابن قَسِى[٢] ، باكورة الفتنة . ولما خرج إلى لَبْلة ، ثار ابن حَمْدين بقرطبة دار مُلْكه فى رمضان من العام ، واستباح قَصْره ، وانطلقت الأَيدى على قومه ، وتم له الأمر . وبلغ يحيى الخبر ، فرجع أدراجه إلى إشبيلية ، فثار به أهلها ، وناصبوه[٣] الحرب وأصابوه بجراحة ، فلجأ إلى حصن مرجانة ، فأقام به يصابر الهول ، ويرقِّع القُنَن. ثم تحرك إليه جيش ابن حمدين ، وكانت بينهما وقيعة انهزم فيها ابن حمدين ، واستولى ابن غانية على قرطبة ، فى شعبان من عام أربعين ، وتحصن ابن حمدين بأَنْدُوجر[٤] ممتنعا بها . ونهض يحيى إلى منازلته . فاستعان ابن حمدين بملك قشتالة ، وأطمعه فى قرطبة ، فتحرك إلى نُصرته . ولما وصل أندوجر ، أعْذَر يحيى فى الدفاع والمصابرة ، ثم انصرف بالجيش إلى قرطبة ، وأخذ العدُوّ فى آثارهم ، صحبة مستغيثه ابن حمدين . فنازل قرطبة ، وامتنع ابن غانية بالقصر ومايليه من المدينة . وأدخل ابن حمدين النصارى قرطبة فى عاشر ذى الحجة من عام أربعين ، فاستباحوا

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (بلاد) .

(٢) وردت فى الزيتونة (ابن قيس) وهو تحريف .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (ناشبوه) .

(٤) أندوجر وبالإسبانية « Andujar » بلدة أندلسية حصينة تقع على ضفة نهر الوادى الكبير شرق مدينة قرطبة ، وشمال غربى جيان .

المسجد ، وأخذوا ما كان به من النواقيس[1] ، ومزقوا مصاحفه ، ومنها زعموا مصحف عثمان ، وأنزلوا المنار من الصَّومعة ، وكان كله فِضَّة ، وحُرِقت الأسواق، وأفسدت المدينة ، وظهر من صبر ابن غانية ، وشدة بأسه ، وصدق دفاعه ، ما أيأس منه . وكان من قَدَر الله ، أن بَلَغ طاغية الروم يوم دخولهم قرطبة ، اجتياز الموحِّدين إلى الأندلس ، فأجال طاغيتهم قِداح الرأى ، فاقتضى أن يهادن ابن غانية : ويتركه بقرطبة فى نحر عدوِّه من الموحدين ، سدًّا بينهم وبين بلاده . فعُقدت الشروط ، ونزل إليه ابن غانية فعاقده ، واستحضر له أهل قرطبة ، وقال لهم ، أنا قد فعلت معكم من الخير ، مالم يفعله مَنْ قبلى ، غلبتكم فى بلدكم وتركتكم رعيَّة لى ، وقد ولَّيت عليكم يحيى بن غانية ، فاسمعوا له وأطيعوا . قال المؤرخ ، وفَخَر الطاغية فى ذلك اليوم بقومه[2] ، وقال ، ولا يُريبنكم أن تكونوا تحت يدى ونظرى ، فعندى كتابُ نبيكم إلى جَدِّى . حدَّث ابن أم العماد أبو الحسن ، قال ، حضرتُ ، وأُحضر حقٌّ من ذهَب ، فُتح وأخرج منه كتابٌ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى قيصر ملك الروم ، وهو جدُّه بِزَعمه . والكتاب بخط على بن أبى طالب . قال أبو الحسن ، قرأته من أوله إلى آخره ، كما جاء فى حديث البخارى . وانصرف إلى بلاده ، وانصرف ابن حَمْدين ، فكان هلاكه بمالقة ، بعد اضطراب كثير . واستقر ابن غانية بقرطبة الغادر به أهلها ، فشرع فى بنيان القصَبة وسدِّ عوْرتها ، وسام أهلها الخسف وسوء العذاب ، ووالى إغْرامهم . واستعجل أمرهم ، واتصل سِلْمه مع العدو إلى تمام أحد وأربعين وخمسماية ، وقد تملك الموحدون إشبيلية وما إليها . وضيَّق عليه النصارى فى طلب

(١) يقصد بها هنا مصابيح المسجد المغطاة بأغطية نحاسية تشبه النواقيس .

(٢) وردت فى الإسكوريال (بقديمه) . والتصويب من الزيتونة .

الإتاوة[١] ، واشتطّوا عليه فى طلب ما بيده ، ونزل طاغينهم أندوجر وبه رجل يعرف بالعربى ، واستدعى ابن غانية . فلما تحصّل بمحاته . طلبه بالتخلّى عن بيّاسة وأبّدة ، فكان ذلك . وتشاغل الموحدون بأمر ثائر نازعهم بالمغرب . فكُلب العدو على[٢] الأندلس ، فنازل الأُشْبُونة وشَنْترين ، وألمرية وطُرْطُوشة ولاردة وإفراغة ، وطمع فى استيصال بلاد الإسلام ، فداخل ابن غانية سرا منْ بإشبيلية من الموحدين ، ووصله كتاب خليفتهم بما أحبّ ، وتحرك الطاغية فى جيوش لا تُرام . وطالب ابن غانية بالخروج عن جيّان وتسليمها إليه ، وكاده ، حسبما تقدم فى اسم عبد الملك بن سعيد . ونهض بعد هذه الكاينة[٣] إلى غرناطة ؛ وهى آخر ما تبقّى للمرابطين من القواعد ليجمع بها أعيان لَمْتُونة ومسُّوفة ، فى شأن صرف الأمر إلى الموحدين .

وفاته

ولما وصل الأمير يحيى بن غانية إلى غرناطة أقام بها شهرين ، وتوفى عصر يوم الجمعة الرابع عشر من شعبان عام ثلاثة وأربعين وخمسماية ، ودفن بداخل القصبة فى المسجد الصغير ، المتصل بقصر باديس بن حَبُّوس مجاورا له فى مدفنه ، وعليه فى لوح من الرخام تاريخ وفاته . والناس يقصدوه للتبرك به .

يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن توقورت بن ورياطن بن منصور ابن مصالة بن أمية بن واياى الصنهاجى ثم اللمتونى

---

(١) وردت فى الإسكوريال (الإثارة) والتصويب أرجح .

(٢) وردت فى الإسكوريال عن ، فاقتضى التصويب .

(٣) وردت فى الإسكوريال (الكاهنة) والتصويب من الزيتونة .

يكنى أبا يعقوب ويلقب بأمير المسلمين .

أوليته

ذكروا أن يحيى بن إبراهيم بن توقورت حجَّ، وهو كبير قبيل الصحراويين في عشر الأربعين وأربعماية ، واجتاز على القيروان ، وهي موفورة بالعلماء، وتعرّف بالفقيه أبي عُمران الفاسي ، ورغب إليه أن ينظر له في طلب من يستصحبه ، ليعلِّم قومه ويفقههم[1] ، فخاطب له فقيهاً من فقهاء المغرب الأقصى اسمه واجاج ، واختار له واجاج ،عبد الله بن ياسين القايم بدولتهم، البادى نَظْم نَشْرهم ، وتـأليف كلمتهم ، فاجتمع عليه سبعون شيخاً من نبهائهم ليعلمهم ، فانقادوا له انقياد أكبيراً ، وتناسل الناس ، فضخم العدد ، وغزا معهم قبايل الصحراء . ثم التـأثَتْ حاله معهم ، فصرفوه ، وانتهبوا كتبه ، فلجأ إلى أمير لمتونة يحيى بن عمر بن تلايكان اللمتونى ، فقبله ، وأعاد حاله ، وثابت طاعته ، فأمضى القتل على من اختلف عليه. وكان يحيى بن عمر يمتثل أمر عبد الله امتثالاً عظيماً . ثم خرج بهم إلى سجلماسة ، فتملكوها، وتملكوا الجبل . ثم ظهروا على المغرب ، ثم قُتل الأمير يحيى بن عمر ، فقدَّم عبد الله أخاه أبا بكر بن عمر بدَرْعة ، ونهد به ، فتملك جبال المصامدة ، واحتل بأغمات وَريكة واستوطنها . ولعبد الله أخبار غريبة ، وشذوذ في الأحكام الله أعلم بصحتها . وقَتَل عبد الله ابن ياسين برغواطة . ولم يزل الأمير أبو بكر بن عمر حتى أخذ ثاره ، وأثخن القتل فيهم ، وقدَّم ابن عمه يوسف بن تاشفين بن إبراهيم، على عسكر كبير ، فيهم أشياخ لمتونة ، وقبايل البرابرة والمصامدة ، واجتاز على بلاد المغرب ، فدانت له . وطرق الأمير أبا بكر خبرٌ من قومه من

---

(١) هكذا وردت في الزيتونة . وفي الإسكوريال (ويفهمهم)

الصحراء انزعج له ، فولّى يوسف بن تاشفين على مملكة المغرب ، وترك معه الثلث من لمتونة ، إخوانه ، وأوصاه ، وطلّق زوجته زينب ، وأمره بتزوّجها ، لما بلاه من يُمنها . فبَنى يوسف مدينة مراكش وحصّنها[1] ، وتحبّب إلى الناس ، واستكثر من الجنود والقوة ، وجَبى الأموال ، واستبدّ بالأمر . ورجع الأمير أبو بكر من الصحراء سنة خمس وستين وأربعمائة ، فألفى يوسف مستبدًّا بأمره ، فسالمه ، وانخلعَ له عن المُلْك ، ورجع إلى صحرايه ، فكان بها تَصِله هدايا يوسف إلى أن قتله السُّودان . واستولى يوسف على المغرب كله ، ثم أجاز البحر إلى الأندلس ، فهزَم الطاغية الهزيمة الكبرى بالزلاّقة ، وخلع أمراء الطّوائف ، وتملك البلاد إلى حين وفاته .

حـاله

قال أبو بكر بن محمد بن يحيي الصيرفى ، كان رحمه الله خائفاً لربّه كتوماً لسرّه ، كثير الدعاء والاستخارة ، مقبلاً على الصلاة ، مديماً للاستغفار ، أكثرُ عِقابه لمن تجرأ أو تعرض لانتقامه ، الاعتقال الطويل ، والقَيْدُ الثّقيل ، والضرب المُبرِّح ، إلاّ من انتزى أو شقّ العصا ، فالسيف أحْسَم لانتشار الداء . يُواصل الفقهاء ، ويعظِّم العلماء ، ويصرف الأمور إليهم ، ويأخذ فيها بآرائهم ، ويقضى على نفسه وغيره بفُتْياهم ، ويحضّ على العدل ، ويصْدع بالحق ، ويعضِّد الشّرع ، ويحْزِم فى المال ، ويُولَع بالاقتصاد فى الملبس والمطعم والمسكن ، إلى أن لقى الله ، مجدًّا فى الأمور ، مُلقناً للصواب ، مستحبًا[2] حال الجد ، مؤدِّيًا إلى الرعايا

(١) وردت فى الإسكوريال (تحفها) وهو تحريف .

(٢) هكذا وردت فى الزيتونة . ووردت فى الإسكوريال (مستصحب) . والأولى أرجح .

حقّها ، من الذّب عنها ، والغِلْظة على عدوها ، وإفاضة الأمن والعدل فيها . يرى صور الأشياء على حقيقتها . تسمى بأمير المسلمين لما احتل الأندلس وأوقع بالروم ، وكان قبل يدعى الأمير يوسف ، وقامت الخطبة فيها جميعا باسمه ، وبالعُدْوة ، بعد الخليفة العباسى . وكان درهمه فضّة ، ودُنيْره تِبْرٌ محض ، فى إحدى صفحتى الدُّنير « لا إلـه إلا الله ، محمد رسول الله » وتحت ذلك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، وفى الداير ، ومن يتّبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين . وفى الصفحة الأُخرى، الإمام عبد الله أمير المسلمين ، وفى الداير تاريخ ضربه وموضع سِكّته ، وفى جهتى الدرهم ما حمله من ذلك .

بعض أخباره

فى سنة سبعين وأربعمائة وردت عليه كتب الأندلس ، يبثُّون حالهم ، ويحرّكونه إلى نصرهم . وفى سنة اثنتين بعدها ، ورد عليه عبد الرحمن ابن أسباط ، من ألمرية ، يشرح حال الأندلس . وفى سنة خمس وسبعين بعدها ، وجّه إلى شراء العُدَد فيها ، واستكثر منها . وفى سنة ستٍّ بعدها فتح مدينة سَبْتة ، ودخلها عنوة على الثّاير بها سَقُوت البَرْغُواطى . وفى سنة ثمان اتصل به تملُّك طاغية قشتالة مدينة طُليطُلة ، وجاز إليه المعتمد بن عباد بنفسه ، وفاوضه واستدعاه لنُصرة المسلمين ، وخرج إليه عن الجزيرة الخضراء . وعلم بذلك الأدفنش ، فاخترق [بلاد المسلمين][1] معرضاً عن رؤساء[2] الطوائف ، لا يرضى أخذ الجِزْية منهم ، حتى انتهى إلى الخضراء ، ومثل على شاطىء البحر ، وأمر أن يُكتب إلى الأمير

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الأندلس) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (ملوك) .

يوسف بن تاشفين ، والموج يضرب أرساغ فرسه ، بما نسخته :

« من أمير الملتين أذفونش بن فردلند إلى الامير يوسف بن تاشفين. أما بعد فلا خفاء على ذى عينين أنك أمير الملّة المسلمة ، كما أنا أمير الملّة النصرانية . ولم يخف عليكم ما عليه رؤساؤكم بالأندلس من التّخاذل ، والتواكل ، وإهمال الرعية ، والإخلاد إلى الراحة ، وأنا أسومهم سوء الخسْف ، وأضرب الدّيار ، وأهْتِك الأستار ، وأقتل الشبان ، وأسبى الولدان ، ولا عذر لك فى التّخلّف عن نُصرتهم ، إن أمكنتك قُدرة . هذا وأنتم تعتقدون ، أن الله تبارك وتعالى ، فرض على كل منكم ، قتال عشرة منا ، ثم خفّف عنكم فجعل على كل واحد منكم ، قتال الاثنين منا ، فإن قتلاكم فى الجنة ، وقتلانا فى النار ، ونحن نعتقد أن الله أظْهَرنا بكم ، وأعاننا عليكم ، إذ لا تقدرون دفاعا ، ولا تستطيعون امتناعا . وبلغنا عنك أنك فى الاحتفال على نيّة الإقبال ، فلا أدرى أن كان الحين يبطىء بك أمام التكذيب لما أُنزل عليك . فإن كنت لا تستطيع الجواز فابعث إلىّ ما عندك من المراكب لأجوز إليك ، وأُناجزك فى أحب البقاع ، فإن غلبتنى ، فتلك غنيمة جاءت إليك ، ونعمة مَثَلَت بين يديك . وإن غلبتك ، كانت لى اليَدُ العليا ، واستكملتُ الإمارة . والله يتمّ الإرادة » .

فأمر يوسف بن تاشفين أن يُكتب فى ظهر كتابه « جوابك يا أذفونش ما تراه ، لا ما تسمعه إن شاء الله » وأردف الكتاب ببيت أبى الطيب :

ولا كتبٌ إلاّ المَشْرفيّة والقَنا   ولا رسلٌ إلاّ الخميس العرمرم

وعبر البحر ، وقد استجاش أهل الأندلس . وكان اللقاء يوم الجمعة منتصف رجب من عام تسعة وسبعين وأربعمائة . ووقعت حرب مُرّة ، اختلط فيها الفريقان ، بحيث افتحم الطاغية محلة المسلمين ، وصدم

يسارة جيوش الأندلس ، واقتحم المرابطون محلّته للحين . ثم برز الجميع إلى مأزق ، تعارفت فيه الوجوه ، فأبلُوا بلاءً عظيما ، وأجْلَت عن هزيمة العدو ، واستيصال شأفته . وأفلت أذفونش فى فَلٍّ قليل ، قد أصابته جراحة ، وأعزّ الله المسلمين ونصرهم نصرا لاكفاء له ، وأكثر شعراء المعتمد القول فى ذلك ، فمن ذلك قول عبد المجيد[1] بن عبدون من قصيدة :

فأين العجب يا أذفونش هلّا — تجنبت المشيخة يا غـــلام
شَمْلَك[2] النساءُ ولا رجـــال — فحدِّث ما وراءك يا عصـــام
أقمت لدى الوغى سوقًا فخذها — مناجزة وهَوْنٌ لا تنـ ـــسام
فإن شيت اللُّجين فثمّ سـام — وإن شِيت النُّضار فثمّ حـام
رأيت الضرب تطيُّبا فَصلِّب — فأنت على صَليبك لا تُلام
أقام رجالك الأشقون كلّا — وهل جسدٌ بلا رأس ينـــام
رفعنـا هامهم فى كلِّ جذع — كما ارتفعت على الأيْك الحَمام
سيعبُد بعدها الظلماءَ لمّا — أتيح له بجانبهـــا اكتِتـــام
ولا ينفكُّ كالخفّاش يُغْضى — إذا ما لم يباشره الظلام
نَضا إذ راعه واجتاب ليــلا — يودُّ لو انَّ طول الليل عـام
سيبقى حسرةً ويبيد إن لم — أبادتنا القَنـاة أو الحُسـام

وعاد إلى العُدْوة . ثم أجاز البحر ثانية إلى منازلة حصن لييط[3] ،

---

(١) وردت فى المخطوطين (عبد الجليل) . والصواب ما أثبتناه .

(٢) وردت فى الإسكوريال (سيسلك) . والتصويب من الزيتونة .

(٣) وردت فى المخطوطين (أليط) وهو تحريف . وحصن أليدو « Aledo » ، أو حصن لييط كما تسميه الرواية العربية هو حصن منيع بناه ألفونسو السادس ملك قشتالة على أثر إستيلائه على طليطلة (سنة ١٠٨٥ م) فى بقعة تقع بين مرسية ولورقة ، وشحنه بالسلاح والمقاتلة ، واتخذه قاعدة للإغارة على الأراضى الإسلامية فى تلك الأنحاء .

وفسد ما بينه وبين أمراء الأندلس ، وعاد إلى العدوة ، ثم أجاز البحر عام ثلاثة وثمانين وأربعمائة ، عاملا على خَلْعهم ، فتملَّك مدينة غرناطة فى منتصف رجب من العام المذكور ، ودخل القصر بالقصبة العليا منها ، واستحسنه ، وأمر بحفظه ، ومواصلة مرمّته . وطاف بكل مكان منه ثم تملَّك ألمرية وقرطبة وإشبيلية وغيرها ، فى أخبار يطول اقتضاؤها ، والبقاء لله .

وفاته

توفى رحمه الله بمدينة مراكُش يوم الإثنين مستهل محرم سنة خمسماية . وممن رثاه أبو بكر بن سوّار من قصيدة أنشدها على قبره :

ملك الملوك وما تركتَ لعامل ... عملا من التقوى يُشارَك فيه

يا يوسف ما أنت إلا يوسف ... والكلُّ يعقوب بما يطويه

إسمع أمير المؤمنين وناصر الـ ... ـدين الذى بنفوسنا نُفديه

جوزيت خيرا عن رعيتك التى ... لم ترض فيها غير ما يُرضيه

أما مساعيك الكرام فإنها ... خرجت عن التّكييف والتّشبيه

فى كل عام غزوةٌ مبرورة ... تُرْدى عديد الروم أو تُفنيه

تصل الجهاد إلى الجهاد موفَّقا ... حَتَم القضاءُ بكل ما تقضيه

ويجىءُ ما دبَّرته كمجيئه ... فكأنَّ كلَّ مُغَيَّب تدريه

متواضعا لله مظهرُ دينه ... فى كل ما تبديه أو تخفيه

ولقد ملكت بحقِّك الدنيا وكم ... ملَك الملوكُ الأمرَ بالتَّمويه

لو رامت الأيام أن تحصى الذى ... فَعَلت سيوفُك لم تكد تُحصيه

إنا لمفجوعون منك بواحد ... جُمعت خصال الخير أجمع فيه

وإذا سمعت حمامة فى أيكة ... تبكى الهديل فإنها ترثيه

ومِيضٌ قد استرعى رعيَّة أُمة — فأقام فيهم حقَّ مُسْترعيه
وإذا هِزَبْرِ الغاب صرَى شِبله — فى الغاب كان الشّبل شِبْه أبيه
وإذا علىٌّ كان وارث ملكه — فالسهم يُلقى فى يَدَى باريه

يوسف بن محمد بن يوسف بن محمد بن نصر

ولى عهد أبيه أمير المسلمين الغالب بالله[1] .

حاله

كان أميراً جليلا حصيفا فاضلا ، ظاهر النبل ، محبا فى العلم .... من فنونه . [مال] إلى التعاليم والنجوم ، أفرط فى الاستغراق فى ذلك ، ونمى إلى أبيه ، فأنكره ، وقصد يوما منزله لأجل ذلك ، ودخل المجلس ، وبه مجلّدات كثيرة ، وقال ما هذه يا يوسف ، فقال سَتْرًا لغرضه المتوقّع فيه نكير أبيه ، يا مولاى هى كتب أدب . فقال السلطان ، وقد قنع منه بذلك ، يا ولدى ما أخذناها يعنى السلطنة ، إلا بقلّة الأدب ، تورية حسنة ، إشارة إلى الثورة على ملوك كانوا تحت إيالتهم ، فغرب فى حسن النادرة ، وكان قد ولأه عهده بعد أخيه ، لو أمهلته المنية .

وفاته : توفى يوم الجمعة ثالث عشر صفر عام ستين وستماية .

يوسف بن عبد المؤمن بن على

الخليفة أبو يعقوب الوالى بعد أبيه .

---

(١) يقصد به هنا الأمير محمد بن يوسف بن نصر ، وهو محمد بن الأحمر الكبير موسس مملكة غرناطة ، الملقب بالغالب بالله .

حـــاله

كان فاضلا كاملا عدلا ورعا جزلا ، حافظا للقرآن بشرحه ، عالما بحديث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، خطِئه وصحيحه ، آية الموحِّدين فى الإعطاء والمواساة ، راغباً فى العمارة ، مثابرا على الجهاد ، مشِيعا للعدل . أصلح العُدْوة وأمَّنها ، وآنس شاردها ، وحصَّن جزيرة الأندلس ببعوثه لها ، فقمعوا عاصيها ، وافترعوا بالفتح أقاصيها ، وأحسن لأجنادها ، وأمدّهم من الخيل بالمُبين من أعدادها ، رحمه الله .

ولده : ثمانية عشر أكبرهم يعقوب ولى عهده ، نَجْمُ بنى عبد المؤمن وجوْهرتُهم .

حاجبه : أبو حفص شقيقه .

وزراؤه : إدريس بن جامع ، ثم أبو بكر بن يوسف الكوى .

قضاته : حجاج بن يوسف بن عُمران ، وابن مَضاء .

كتّابه : أبو الحسن بن عيّاش القرطى ، وأبو العباس بن طاهر بن مَحْشَرة .

بعض أخباره

فى أيامه ، استُوصلت دولة ابن مَرْدَنيش ، بعد حروب مُبيرة ، ودوّخ إفريقية ، وردّ أهل باجَة إلى وطنهم ، بعد تملُّك العدو إياه ، وجبرهم جَدًا واستنقاذا ، وفتح حصن بلَج .

وفاته

فى الثامن والعشرين لربيع الآخر سنة ثمانين وخمسماية ، بظاهر شنترين من سهم أصابه فى خِبائه ، وهو محاصر لها ، فقضى عليه ، وكُتِم موته ، حتى اشتهر بعد رحيله . ذكر ذلك أبو الحسن بن أبى محمد الشَّريشى ،

فكانت خلافته اثنين وعشرين عاما ، وعشرة أشهر ، وعشرة أيام ، وعمره سبع وأربعون سنة .

مولده : فى مستهل سنة ثلاث وثلاثين وخمسماية ، ودخل غرناطة لأول مرة ، ووجب ذكره فيمن حلَّ بها .

يوسف بن يعقوب بن عبد الحق بن محيو

أمير المسلمين بالمغرب ، يكنى أبا يعقوب .

أوّليته : معروفة مذ وقع الإلماع بذلك فى اسم أمير المسلمين أبيه .

حاله

كان ملكا عالى الهمة ، بعيد الصيت ، مرهوب الشَّبا ، رابط الجأش ، صعب الشَّكيمة ، على عهده اعتُلى الملك ، وناشب القبيل ، واستوسق الأمر . جاز إلى الأندلس مع والده ، ودوَّخ بين يديه بلاد الروم . ووقف بظاهر قرطبة وإشبيلية ، وحضر الوقِيعة بذنونه[1] ، وجَرَت بينه وبين سلطان الأندلس ، على عهده ، مُنافرات ، أَجْلَت أخيرا عن لحاق السلطان به مُسْتَعتبا . واستقرَّ آخرا محاصرا لتلمسان ، غازيا لبنى زيَّان الأُمراء بها ، وابتنى مدينة سماها تلمسان الجديدة ، وأقام محاصراً لها ، مضيقا على أهلها

---

(١) كان السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق الملقب بالمنصور ملك المغرب (ووالد المترجم له) قد عبر إلى الأندلس ملبياً صريخ سلطانها محمد بن محمد بن الأحمر إلى الغوث والإنجاد ، وذلك فى سنة ٦٧٣ هـ . وسار أبو يوسف فى قواته شمالا حتى وصل إلى أحواز قرطبة . وهناك تقدم القشاليون إلى لقائه فى جيش ضخم على رأسه الدون نونيودى‌لارا الذى تسميه الرواية الإسلامية (دنونه أو ذنونه) فنشبت بين الفريقين على مقربة من إستجة معركة هائلة هزم فيها النصارى هزيمة فادحة ، وقتل قائدهم دون نونيودى‌لارا وعدة كبيرة من عظمائهم فى شهر ربيع الأول سنة ٦٧٤ هـ (سبتمبر سنة ١٢٧٥ م) . وكانت من أعظم الوقائع الحاسمة بين المسلمين والنصارى فى الأندلس منذ موقعة العقاب الشهيرة فى سنة ١٢١٢ م .

نحواً من ثمانية أعوام ، وعظّمته الملوك شرقا وغربا ، ووردت عليه الرُّسل والهدايا من كل جهة ، وهابه الأقارب والأباعد.

وفاته

ولما أراد الله إنفاذ حكمه فيه ، قيّض له عبْدًا خِصِيًّا حَبَشيًّا ، أسِفَه بقتل أخٍ له أو نسيب، فى باب خيانة عثر له عليها ، فاقْتَحم عليه دار الملك على حين غفلة ، فدجّاه بسكين أعدّه لذلك ، وضجَّ القصر ، وخرج وبالسلطان رمق ، ثم توفى من الغد ، أو قريبا منه ، فى أوايل ذى قعدة من عام ستة وسبعماية ، فكانت دولته إحدى وعشرين سنة وأشهرا ، وانتقل إلى مدفن سلفه بسلا ، وقبره بها . وركب قاتِلُه فرساً أزْعجها ركضا ، يروم النجاة واللَّحاق بالبلد المحصور ، وسبقه الصِّياح ، فسُد بعض الأبواب التى أمل النجاة منها ، وقُتل وأُلحق به كثير من جنسه.

وجرى ذكره فى الرَّجز المتضمن دول الملوك[1] من تأليفنا بما نصه :

حتى إذا الله إليـــه قيّضـه	قام ابنه يوسف فيها عوضه
وهو الهمام الملك الكبير	فابتهج المِنْبـر والسَّرير
وضخُم الملك وذاع الصِّيت	بملكه وانتظم الشَّتيت
وساعد السَّعد وأغضى الدهر	وخلُص السرُّ له والجهر
وأمل الجود وخيف البأس	واستَشْعَر الخِشْية منه الناس
ثم تقضّى معظم الزمـان	مواصلا حَصْر بنى زيّان
حتى أهلَّ تلمسان الفـرج	ونشقوا من جانب اللطف الفرج
لما توفى درج السعد درج	فانفرج ضيق الحصر عنها وانفرج

(١) يقصد ابن الخطيب بذلك كتابه (رقم الحلل فى نظم الدول) .

ونزل بظاهر غرناطة وببعض مروجها بقرية أشقطمر ، فى بعض غزوات أبيه إلى قرطبة ، وتقدم السلطان إليهم من البرِّ والقرى ، ما كثر الإخبار به والتعجب منه ، ووجَّه إليهم ولده وولى عهده .

يعقوب بن عبد الحق بن محيو بن بكر بن حمامة بن محمد بن رزين بن فقوس بن كرناطة بن مَرِين

من قبيلة زَناتة ، أمير المسلمين المُكْنى بأبى يوسف الملقَّب بالمنصور رحمه الله .

أوَّليَّته

ظهر بالمغرب أبوه الأمير عبد الحق ، وقد اضطربت دولة الموحِّدين ، والتَأَثَ أمرهم ، ومَرَجت عرب رياح ، لعجز الدولة عن كفِّ عدوانهم ، فخرج الأمير عبد الحق فى بحبوحة قومه من الصحراء ، ودعا إلى نفسه ، واستخلص الملك بسيفه ، عام عشرة وستماية ، وكان على ما يكون عليه مثْله ، ممن جعله الله جُرْثومة مُلْك وخَدَم دولة ، من الصِّدق والدَّهاء والشجاعة . ورأى فى نومه كأنَّ شُعَلاً أربع من نار ، خرَجْن منه ، فَعَلَوْنَ فى جوِّ المغرب ، ثم احْتَوين على [جميع] أقطاره ، فكان تأْويلها تملُّك بنيه الأربعة بعده ، والله يُؤتى مُلْكه من يشاءُ . وكان له من الولد إدريس ، وعثمن ، وعبد الله ، ومحمد ، وأبو يحيى ، وأبو يوسف ، ويعقوب . هذا ولما هلك هو وابنه إدريس فى وقِيعة رِياح ، وَلِى أمره عثمن ولده ، ثم ولى بعده أخوه محمد ، ثم ولى بعده أبو يحيى أخوهما . وفى أيامه اتَّسق الملك ، وضَخُم الأمر ، وافتتحت البلاد . ولما هلك حتف أنفه

بفاس فى رجب من عام سنة وخمسين وستماية ، قام بالملك أخوه يعقوب المترجم به ، وأَرْث المُلْك بنيه .

حاله

كان ديِّنًا فاضلاً حييًا ، جواداً سَمْحًا ، شجاعا ، محبا فى الصالحين ، منقادا الى الخير ، حريصا على الجهاد . أجاز ولده فى أوائل عام اثنين وسبعين وستماية إلى الأندلس ، ثم عبر بنفسه فى سِرار صفر من العام بعده ، فاحتل بظاهر إشبيلية ، وكَسَر جيش الرُّوم ، المنعقد على زعيمهم المسمى ذُنُونه ، بظاهر إستجة فى ربيع الآخر من العام . ثم عبر ثانيا ، مغتنماً ما نشأ بين الروم من الفُرقة ، فغزا مدينة قرطبة ، وصار أمر العدو فى أطواق الفَرُنْتِيرة ، بحيث لا يوجد فى بطن القتيل منها إلا العشب أزلاً ومسْغَبة ، لا نتشار الغارات ، وانتساف الأقوات ، وحديث الفتنة . وسببها ما كان من تصيُّر مالقة إليه ، من أيدى المنتزين عليها من بنى إشقيلولة ، ثم عودتها إلى سلطان الأندلس ، من أيدى رجاله ، شيوخ بنى مُحلّىً ، ثم تدارك الله المسلمين بصلاح ذات البين ، واحتلّ بظاهر غرناطة ، فى بعض هذه الغزوات ، فنزل بقرية إسقطمر من مرْجها ، واحتفل السلطان رحمه الله فى برِّه ، وأَجْزَل نَزله ، وتوجيه ولده إليه .

وذكر سيرته شاعرُهم أبو فارس عزُّوز فى أُرجوزته ، فقال :

سيرةُ يعقوب بن عبد الحق ... قد حاز فيها قَصَبات السَّبق

بُغْيَتان ، يقرأُ الكتاب ... وتَذَكُر العلوم والآداب

يقوم للكتاب ثُلْثَ الليل ... وماله عن وِرْدِه من سبيل

حتى إذا الصباح لاح وارتفع ... قام وصلّى للاله وركع

وضجَّ بالتّسْبيح والتَّقْديس ... حتى يتم الحِزْبُ فى التَّغْليس

يقـرأ أولا كتـاب السِّير ... والقَصَص الآتى بكل خبر

ثـم فُتُوح الشَّام باجتهـاد ... وبعده المشهور بالإنجـاد

سؤاله تعجــز عنه الطَّلبة ... ومن لديه من أجلِّ الكَتَبة

يعقدالكُتْبإلى وقت الضُّحى ... ثم يصلِّيها كفعل الصُّلحا

ويأمُر الكُتَّاب بالأوامـر ... فى باطنٍ من سـرِّه وظـاهر

ويدخل الأشياخُ من مَرِين ... للرأى والتدبير والتَّزْيين

مجلسُه ليس بـه فُجـور ... ولا فتًى فى قوله يَجْـــور

كأنَّهم مثلُ النجوم الزُّهر ... وبينهم يعقوب مثل البَدْر

قد أُشبر الوقار والسكينـة ... وحلَّ فى مكـــانة مَكيـــنة

حتى إذا ما جاز وقت الظهر ... قام إلى بيت للنَّدى والفَخَر

يبقى إلى وقت صلاة العَصْر ... يـأتى إلى بيتْ العُلى والأمـر

ويَنْصِف المظلوم ممن ظلمه ... ولم يَزَل إلى صلاة العَتْمة

ثـم يؤمُّ بَيْتــة الكريما ... ويترك الوزير والخَديمـا

ثـم ينام تارةً ، وتـــارةً ... يدبِّر الأمـــور بالإدارة

ما إن ينام الليل إلا ساهرا ... ينوى الجهاد باطناً وظاهراً

فهل سمعتم مثل هذه السِّيرة ... وهذه المـآثر الأثيـــرة

لملكٍ كان من الملـوك ... أو مالكٍ فى الدهر أو مملوك

كذاك كان فِعْـلُه قديما ... بذاك نال المُلْك والتَّعظيما

ومن الرَّجز المسمى بقَطْع السُّلوك[1] من تـأليفنا ،فى ذكره ، قولى :

تبوَّأ هذا الأمر عبد الحق ... أكرم من نال العلى بحق

(١) يشير ابن الخطيب أيضاً إلى كتابه (رقم الحلل فى نظم الدول) .

واستخلص الملك بحدّ المرهف　　لسنّ مجدٍ عظيم الشرف
وكان سلطانا عظيم الجود　　وصَدَقت رؤياه فى الوجود
فأعلى الأيام نورُ سَعده　　وبالها أبناؤه من بعده
عثمن ثم بعده محمد　　ثم أبو يحيي الهمام الأسْعَد
تمهّد الملك له لما هَلَك　　وسلك السَّعد به حيث سَلَك
وفُتِحت فاسُ على يديه　　والملك العلىُّ حلَّه لديه
وكان ذا فضل وهدًى وورع　　قد رسمَ الملك فيهم واخترع
ثم أتَتْ وفاته المشهورة　　فولّى المنصور تلك الصُّورة
وهو أبو يوسف غَلّاب العدا　　وواحدُ الأملاك بأساً ونّدا
مُمَهِّد الملك ومُورى الزِّند　　وباسط العدل ومُولى الرِّفد
مُدَّت إلى نُصرته الأكُفُّ　　والروم فى العُدوان لا تَكُفُّ
فاقتحم البحر سريعا وعَبَر　　ودافع الأعداء فيها وصَبَر
ووقعت فى عهده أمــور　　وفتنةٌ ضاقت لها الصُّدور
وآلَتْ الحال إلى التِيام　　فما أُضِيعت حُرمة الإسلام
حتى إذا الله إليه قَبضَه　　قام ابنُه يوسف فيها عِوَضه

وفاته

توفى فى شهر المحرم عام خمسة وثمانين وستماية ، بالجزيرة الخضراء ودُفن بها . ثم احتُمل بَعْدُ إلى سَلا، فدفن بالجبانة المعروفة هنالك لملوك من بنى مرين . ومحلُّ هذا السلطان فى الملوك المجاهدين المرابطين معروف، تغمده الله برحمته .

الأعيان والوزراء والأماثل والكبراء

يحيى بن رحو بن تاشفين بن معطى بن شريفين

أقرب القبائل المرينية إلى قَبيل سلطانهم من بنى حَمامة . خدم جدُّه بتونس ، ثم بالأندلس ، يكنى أبا زكريا ، شيخ القَبيل الزّناتى ، ومحراب رأيهم ، وقُطْب رَحَى حِماتهم .

حاله

كان هذا الشيخ وحيدَ دهره ، وفريدَ وقته ، وشامةَ أهل جِلْدته ، فى النُّبلِ والفَطانة ، والإدراك والرَّجاحة ، شديد الهزل مع البأو ، والممالقة مع التّيقُّور ، والمهاترة مع الحشمة . عارفا بأخلاق الملوك وشروط جُلَسائها ، حسن التوصُّل إليها ، والتأتّى لأغراضها ، بعيد الغُور ، كثير النُّكراء ، لطيف الحيلة ، عارفا بسياسة الوطن ، قيّوما على أخلاق أهله ، عديم الرِّضا بسير الملوك ، وإن أعلقوا بالعروة الوثقى يده ، ويسَّروا على عبور عقبة الصِّراط عونه ، وأَقْطَعوه الجنَّة وحده ، طَنازًا[1] بهم ، مُغْريا خائنةَ الأعين بتصرُّفاتهم ، مقتحما حِمى اغتيابهم ، قد اتخذ ذلك سجيَّة ، أقْطعته جانب القَطِيعة برهة ، فارتكب لها الأداهم مدَّة ، جمَّاعة للمال ، ذايدا عنه بعصى التَّقتير ، وربما غَمَس فيه إبرةً للصدقة ، وساما بينه وبين الوزير ، مُكْفِى السماء على الأرض ، برأيه المستعين على الفتكة وما وراءها ، بمنيع موالاتهم ، وبانيه يوم مكاشفة الملإ إياه بالنُّفرة ، وكان قُطْب الرَّحى للقوم فى الوجهة إلى الأمير عبد الحليم ، ومقيمْ رسمه ، وانصرف إلى جهة مرّاكُش عند الهزيمة عليه ، فاتَّصل بعميدها

(١) أى استهزاء بهم .

عامر بن محمد بن على المِنْتاتى ، وجَرت عليه خطوب ، وعاشت فى الكثير من نعمته أكفُّ التَّمزيق ، ديْدَن الدهر ، فى الأَموال المُحتجنة ، والنقود المُكْتنزَة ، واستقر أخيراً بسجلماسة ، فى مظاهرة الأَمير عبد الحليم المذكور ، وبها هلك . وكان على إزرايه ولَسْب لِسانه ، واخز تلال حيَّةِ حدَّته ، ناصح الرأى لمن استنصحه ، قوَّاما فيه بالقسط ، ولو على نفسه والوالدين والأَقربين ، فضيلةً عُرف فيها شأْوه ، مقيما لكثير من الرُّسوم الحَسْبِية .

دخوله غرناطة

قدم غرناطة فى جمادى من عام تسعة وخمسين [وسبعماية][1] فى غرض الرِّسالة ، ووصل صحبته قاضى الجماعة بالمغرب أبو عبد الله المقَّرى ، وكان من امتِساكه بالأَندلس ، ما أَوجب عودة المترجم به فى شأْنه ، فتعدد الاستمتاع بنُبْله .

وفاته : توفى قتيلا فى الهزيمة على الأَمير عبد الحليم بظاهر سجلماسة فى ربيع الأَول من عام أربعة وستين وسبعماية .

يحيى بن طاحة بن علىّ البطوى ، الوزير أبو زكريا

حاله

كان مجموعا رائعا ، حُسْنَ شكل وجمال رواء ، ونصاعة ظَرْف ، واستجادة مَرْكب وبزَّة ، قديم الجاه ، مرعى الوسيلة ، دربًا على الخدمة ، جلِدا على الوقوف والملازمة ، مُجدى الجاه ، تلمُّ به نوبة تواضع ، يتشبَّث به الفقراءُ وأولى الكُدْية ، فَكِه المجلس ، محبًّا فى الأَدب ، أَلِفًا للظرفاء ، عاملا على حسن الذِّكر وطيب الأُحدوثة . تولَّى الوزارة

---

(١) ساقطة فى الإسكوريال وأضفناها ليتضح السياق .

للسلطان أبي الحسن ، ونشأ في حِجر أبيه ، ماتًّا إليهم بالخؤولة القديمة ، فتملأ ما شاء من قرب ومزيّة ، وباشر حصار الجبل لمّا نازله الطاغية ، لقرب عهدٍ بفتحه ، فأبلى وحَسُن أثره . نشأ بالأندلس ، وسكن وادى آش وغرناطة ، واستحق الذكر لذلك :

شعره

وكان ينظم الشعر ، فمن ذلك قوله في مُزْدوجة في غرض الفخر :

أنا ابن طلحة ولا أُبـال	لبثُّ السُّرى في الحرب والنزال
يحيى حياة البيض والعُوال	مبيدٌ كلَّ بطلٍ مغتـــال
إن سمعوا باسمي في مجـال	يلقوا بأيديهم إلى النّـكال
أستنزل القرن لدى الصِّيال	وأكسر النّصل على النِّصال
ن أمَلى التفريق للأمـوال	والجمع بين الأقوال والفِعال
والشِّعر إن تسمعه من مقال	تعلم بأن السِّحر في أقـوال
أوشِج الغْريب فالأمثـال	وأقرن الأشباه بالأمثـال
وأفضِّل المرجان باللّلآل[1]	وأذكر الأيـام واللّيـال
فَمَنْ أبو أميـــة الهـلال	ومَنْ وحيدُ عصره الميكال
هذا ولى في غـير ذا معال	بها أعالى الدّهر من أعــال
كما لحَسَب الصَّميم والمعال	والمحْتِد الضَّخم الحفيل الحال
وكَرَم الأعمـــام والأخوال	والصّون والعفاف والأفْضال
فمن يُساجلنى فَذَا سِجــال	ومن يُناضلنى فَذا نِضـال

وفاته : توفى في أواخر عام خمسة وثلاثين وسبعماية . أصابه سهْمُ نفْطٍ رُمى به من سور تلمسان أيام الحصار ، فقضى عليه . نفعه الله .

(١) وردت في الإسكوريال (بالنال) .

يحيى بن عبد الرحمن بن ابراهيم بن الحكيم اللخمى

أخو الوزير أبى عبد الله بن الحكيم وكبيرهُ ، يكنى أبا بكر ، رُنْدى الأصل . قد مرّ شئٌ من ذكر أوّليته . دخل غرناطة مرات ، وافدًا وزايرًا ، وساكنا ومغربًا .

حاله

كان وزيرا جليلا ، وقورا عفيفا ، سريًّا فاضلا ، رحْب الجانب ، كثير الأمل ، جمّ المعروف ، شَهير المحل ، عريض الجاه ، صريح الطُّعمة ، من أقطاب أرباب النعم ، ومُنْتَجعى الفِلاحة بالأندلس . استبدّ ببلده برهة ، بإسناد ذلك إليه وإلى أخيه ، من السلطان أمير المسلمين أبى يعقوب ملك المغرب ، الصّاير إليه أمره عند نبذها مغاضبا ، ثم أصاره إلى إيالة السلطان ، ثانى الملوك من بنى نصر ، على يدى أخيه كاتبهِ ، ووزير ولده .

محنته ووفاته

ولما تقلّد أخوه ذو الوزارتين أبو عبد الله بن الحكيم الأمر ، سما جاهُه ، وعظم قدره ، وتعدّد أمله ، إلى أن تعدّى إليه أمر المحنة يوم الفتك بأخيه ، فطاح فى سبيله نَشَبُه ، وذهب فى حادثه الشنيع مكْسبُه . واستقرّ مُغرّبًا بمدينة فاس ، تحت سِتر وجراية ، وبها أدْركته وفاته فى أوايل شوال من عام عشرة وسبعماية .

يحيى بن عمر بن رحّو بن عبد الله بن عبد الحق

جَدُّ الملوك من بنى مَرِين ، يكنى أبا زكريا ، شيخ الغزاة ، ورئيس جميع القبايل بالأندلس .

أوّليته

قد تقدمت الإشارة إلى أوّلية هذا البيت ، ونحن نُلمع بسبب انتِباذهم عن قومهم ، وهو ما كان من قتل أخى جَدِّهم ، يعقوب بن عبد الله ابن عبد الحق ، ابن أخى السلطان أبى يوسف ، إذ كان ثايرا مُصْعبا ، مظنَّة للملك ، ومحلاًّ للآمال ، فنافسه ولىُّ العهد وأوقع به ، فوقع بينهم الشَّتات ، وفرّ شيوخ هذا البيت وأتباعهم إلى تِلمسان ، ثم اجتازوا إلى الأندلس ، منهم من آثر الجهاد ، أو نبا به ذلك الوطن ، أو شرّده الخوف ، أو أحطب به الاستدعاء . فمنهم موسى وعمران والعباس ، أبناء رحُّو بن عبد الله ، وعثمان بن إدريس وغيرهم . فبدت فيهم الشياخة ، وصحبهم التَّقديم ، وأقامت فيهم الخُطَّة ، وتردَّدت بينهم الولاية .

حاله

هذا الشيخ مُسْتحق الرُّتبة ، أهلٌ لهذه الرياسة ، بأْسا ونجدة ، وعِتقا وأصالة ، ودهاء ومعرفة ، طِرْفٌ فى الإدراك ، عامل على الحُظوة ، مستديمٌ للنعم ، طيِّب بالخدمة ، كثير المزاولة والحَنَكة ، شديد التَّيقظ ، عظيم الملاحظة ، مُسْتَغْرق الفكرة فى ترتيب الأُمور الدنيوية ، بحّاث عن الأخبار ، ملتمس للعُيون ، حسن الجوار ، مبذول النَّصفة ، بقيةُ بيته بالعُدْوتين ، وشيخ رجاله . له الإمامة والتَّبريز فى معرفة لسانهم ، وما يتعلق به من شِعْرٍ ومُثُل وحكمة وخَبر ، لو عرضت عليه رِمَم من عَبَر منهم لأثْبتَها ، فضلا عن غير ذلك ، نسَّابة بطونهم وشِعابهم ، وعلاّمة سِيَرهم ، وعوايدهم ، ألمعىٌّ ، ذكى ، حافظ للكثير من الحكم والتراريخ ، محفوظ الشَّيبة من العِصمة ، طاهر الصون والعفَّة ، مشهور الشَّهامة

والنَّجدة ، معتدل السَّخاء ، يضع الهناء مواضع النُّصب فلا يُخدع عن جدته ، ولا يُطمع فى غفلته . ولا ينازع فيما استحقه من مزيَّته ، خدم الملوك ، وخبر السِّير ، فترك الأخبار لعلمه ، وعَضَل عقله بتجربته .

تولى رياسة القَبيل وسَط صَفَر من عام سبعة وعشرين وسبعماية ، معوَّضًا به عن شيخ الغُزاة عثمن بن أبى العلاء[1] ، فتنعَّم البيت ، وخدُن الشُّهرة ، عندما أظلم ما بينه وبين ابن المحروق مدبِّر الدولة ، ودافعه بالجيش ، فى ملْقى حَرانه ، من أحواز حِصْن أندرش[2] مرات ، تناصف الحرب فيها ، وربما ندر الفَلْج فى بعضها ، واستمرت حاله إلى سابع محرم من عام تسعة وعشرين وسبعماية . وأُعيد عثمان بن أبى العلاء إلى رتبته على تَفِئة مهلك ابن المحروق . وانتقل هو إلى مكانه بوادى آش فى قومه ، تحت حفظٍ ومبرَّة . ثم دالت له الدولة ، وعادت إلى ولده الكُرة ، يوم القبض على نظرائه وقرابته ، مُتْرَفى حظوته ، ولد الشيخ أبى سعيد عثمن بن أبى العلاء . عند إيقاع الفتكة بهم يوم السبت التاسع والعشرين لربيع الأول عام أحد وأربعين وسبعماية . واستمرت له الولاية ، وألقت عصاها كَلِفَة منه بالكفؤ الذى سلَّم له المنازع ، إلى أن قبض سلطانه رحمه الله ، فجرى ولده على وتيرة أبيه ، ووفَّى له صاع وفائه ، فجدَّد ولايته ، وشدا حسَّه ، ونوَّه رتبته ، وصدر له يوم بيعته منشور كريم من إنشائى نصه :

(١) فى الإسكوريال (أبى العلى)

(٢) حصن أندرش أو بلدة أندرش Andrax . بلدة أندلسية حصينة ، تقع على مقربة من نهر أدرة بولاية ألمرية وقد اشتهرت فى التاريخ ، إذ كانت مدى حين مقر أبى عبد الله آخر ملوك الأندلس ، بعد تسليمه لمدينة غرناطة إلى الملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيسابيلا ، ومنها عبر فيما بعد إلى المغرب ، باتفاق خاص بينه وبين الملكين المذكورين .

«هذا ظهير كريم منزلتُه فى الظهاير الكريمة منزلة المعتمد فى الظُّهر الكرام ، أطْلَع وجه التعظيم سافر القِسام ، وعقد راية العزِّ السامى الأعلام ، وجدَّد كريم المتات وقديم الذِّمام ، وانتضى للدفاع عن حَوْزة الدين حُساما يقر بمضايه صدر الحُسام ، فأعلن تجديده بشدِّ أزر المُلك ومُناصحة الإسلام ، وأعرب عن الاعتناء الذى لا تخلق جديده أيدى الليالى والأيام . أمر به الأمير عبد الله محمد ابن أمير المسلمين أبى الحجَّاج ، ابن أمير المسلمين أبى الوليد بن نصر ، أيد الله أمره وأعز نصره ، لوليِّه الذى هو عِماد سلطانه ، وواحد خُلصائه ، وسَيْف جهاده ، ورأس أولى الدفاع عن بلاده ، وعِقد ملكه ، ووُسْطى سِلكه ، الشيخ الجليل الكبير الشهير ، الأعزِّ الأسْنَى ، الصدر الأسْمَى ، الأحفل ، الأسعد ، الأطهر ، الأظهر ، الكذا ، أبى زكريا ابن الشيخ الكذا ، أبى على ابن الشيخ الكذا ، أبى زيد رحُّو بن عبد الله ابن عبد الحق ، زاد الله قدره علُوًّا ، ومجده سموًّا ، وجهاده ثناء متلوًّا .

لما كان محله من مقامه ، المحل الذى تتقاصر عنه أبصار الأطماع فترتَدُّ حاسرة ، وكان للدولة يدًا باطشة ، ومُقلة باصرة ، فهو ملاك أمورها واردةً أو صادرةً ، وسيف جِهادها الذى أصبحت بمضائه ظافرة ، وعلى أعدائها ظاهرة ، وكان له الصِّيت البعيد ، والذكر الحميد ، والرأى السديد ، والحَسَب الذى يليق به التَّمجيد ، والقدر الذى سما منه الجيد ، وعَرَفه القريب والبعيد ، والجهاد الذى صدق به فى قواعده الاجتهاد والتَّقْليد ، فإن أقام[1] جيشا أبْعد غارته ، وإن دبَّر أمرا أحكم إدارته ، مستظهرا بالجلال الذى لبس شارته . فهو واحدُ الزمان ، والعُدَّة الرفيعة من عُدد الإيمان ، ومن له بذاته وسلفه علو الشَّأن ، وسمو المكان ،

(١) وردت فى الاسكوريال (قام) .

والحسب الوثيق البُنْيان . وابيته الكريم . بيت بنى رحّو السّابقة فى ولاية هذه الأَوطان . والمدافعة عن حوزة المُلك وحِمى السلطان . إن فوخروا صدعوا بالمكارم المعْلُومة ، ومتُّوا إلى ملك المغرب ببنوة العُمومة ، وتزيّنوا من حُلى الغرب بالتيجان المنظومة . فهم سيوف الدين ، وأَبطال الميادين ، وأُسود العَرين ، ونجوم سماء بنى مَرِين . وكان سلفه الكريم رضى الله عنه يستضىءُ من رأيه بالشّهاب الثاقب ، ويحلّه من بِساط تقريبه أعلى المراتب ، ويستوضح ببركته جميع المذاهب . ويستظهر بصدق دفاعه على جهاد العَدوّ الكاذب ، ويرى أنه عزّ دولته ، وسيف صوْلته ، وذخيرة فخره ، وسِياج أمره . جدّد له هذا الرُّتْب تجديدا ، صيّر الغاية منها ابتداءً ، واستأْنف به إعلاءً ، ولم يدّخر عنه حُظْوة ولا اعتناءً . وحين صيّر الله إليه مُلْك المولى أبيه بمظاهرته ، وقلّده قلادة الملك بأَصيل اجتهاده ، وحميد سعيه ، بعد أن سبق الأُلوف إلى الأَخذ بثاره ، وعاجلت البَطْشة الكبرى يد ابْتِداره ، وأردى بنفسه الشّقى الذى سعى فى تبديد شمل الإسلام ، وإطفاءِ أنواره ، على تعدُّد الملك يومئذ وتوفر أنصاره . فاستقر الملك فى قراره ، وانسحب السِّتر على محلّه ، وامتد ظل الحفظ على داره . عرَف وسيلة من المقام الذى قامه ، والوفاء الذى رفع أعلامه ، وألقى اليه فى أهم الأُمور بالمقاليد ، وألزمه ملازمة الحضور بمجلسه السّعيد ، وشدِيد الاغتباط على قربه ، مُسْتَنْجحًا منه بالرأى السّديد، ومُسْتَندا من وُدِّه إلى الركن الشّديد ، وأقامه بهذه الجزيرة الأَندلسية عِماد قومه ، فهو فيهم يعْسوب الكَتِيبة . ووُسْطى العقد الفريد ، وفَذْلكة الحِساب وبيت القصيد . ودوّاره منهم للشريد . مأْوى الطّارف والتليد ، الكفيل بالحسى والمريد . يقف ببابه أمراؤهم ، وتنعقد فى مجلسه

آراؤهم ، ويركض خلفه كبراؤهم . مجددا من ذلك ما عقده سلفه من تقديمه ، وأوجبه مزيّة حديثه وقديمه . فهو شيخ الغُزاة على اختلاف قبايلهم ، وتشعُّب وسايلهم ، تتفاضل درجات القبول عليهم بتعريفه ، وتَشْرُف أقدارهم لديه بتشريفه ، وتثبت واجباتهم بتقديره ، وينالهم المزيد بتحقيقه لِلغناء منهم وتقريره ، فهو بعده ، أيده الله ، قبْلَة آمالهم. وميزان أعمالهم ، والأُفق الذى يصوب من سحاب قَطْره غمام نَوالهم ، واليد التى تستمنح عادة أطمعتهم وأموالهم . فليتولَّ ذلك عظيمَ القدر ، منشرحَ الصدر ، حالاًّ من دائرة جمعهم ، محلَّ القلب من الصدر ، متألقا فى هالتها تألُّق البدر ، صادعا بينهم باللُّغات الزَّناتية ، التى تدل على الأَصالة العريقة ، والنِّجار الحُرِّ . وهو إن شاء الله الحُسام الذى لا ينبه على الضريبة ، ولا يزيده حُسنا جلب الحُلِيِّ العجيبة ، حتى يشكر الله والمسلمون اغتباط مقامه بمثله ، ويزرى برُّه به على من أسرَّ برَّه من قبله ، ويجنى الملكُ ثمرة تقريبه من محلّه . ومن وقف على الظهير الكريم من الغزاة ، آساد الكفاح ، ومتقلدى السيوف ومعتلقى الرماح ، كُماة الهيجاء وحُماة البِطاح ، حيث كانوا من مُوسَّطة أو ثغر ، و ن أُقيم فى رسم من الجهاد أو أمر ، أن يعلموا قدر هذه الغاية المُشْرقة ، واليد المطلقة ، والحُظوة المتألِّقة ، فتكون أيديهم فيما قُلدوه ردًّا ليده ، وعزايمهم متوجِّهة إلى مقصده . فقصده ، فقدُره فوق الأَقدار ، وأمره الذى ناب أمره مقابل الابتدار ، على توالى الأَيام وتعاقب الأَعصار . وكتب فى كذا ...

مولده

ولد بظاهر تلمسان ، عند لحاق أبيه رحمه الله بسلطانها عام أحد وتسعين (وستماية) تلقَّيته من لفظه .

ومن « المُسْتدرك » . وتمادت ولايته إلى الأوايل من شهر رمضان عام اثنين وستين وسبعماية . فلما تصيرت إلى قِدار ناقتها . محمد بن إسمعيل ابن نصر ، عَزَله ، وهمَّ به ، فغرَّبه إلى بلد الروم ، فرارا أَرَّق به البسالة والصبر ، وتبعه الجيش ، فأُصيب بجراحة ، ورد من صامتِه ، وجَلَّى عن نفسه ، فتخلصه عزمه ومضاؤه ، واستقرَّ عند طاغية الروم ، فأَولاه من الجميل ما يفوت الوصف ، واجتاز العُدْوة ، فعُرِف بها حقُّه ، وعادت رتبة هذا الرجل ، بعد أن ردَّ الله على سلطانها ملكه ، إلى أحسن أحوالها من الجاه والحظوة ، وانطلاق اليد . والسلطان مع ذلك مُنْطوٍ له على الضِّغن لأُمور ، منها غَمْسُ اليد فى أمر عمه ، وقعوده عنه ، وهو أحوج ما كان لنصره ، وانزحاله عنه فى الشِّدة ، عندما جمعه المنزل الخَشِن ، فسحب عليه أذيال النكبة لابنه عثمن ، مُتْرفِى مرقب الظهور فى عودته ، والمستأْثِر بجواره ، والمحكَّم فى أمره ، فتُقُبِّض عليهما ، وعلى من لهما محالفاً للوقت فيهما ، إذ كان متوفرا على الحلم لِحِدْثان العودة ، وجِدة الإيالة ، صبيحة يوم الإثنين لثالث عشر لرمضان عام أربعة وستين وسبعماية . فأَحاط بهم الرجال لهذا السلطان ، والتُقِطوا من بين قَبيلهم ، ودهمهم الرجال ، آخذين بحجزهم وأيديهم إلى دور الثقاف . ثم أركبوا الأَداهم ، وانتقلوا إلى بعض الأَطباق المتفرِّقة بقصبة المُنكَّب ، واقتضى نظر السلطان جلاءَ المترجم به وأولاده من مرْمى المنكَّب ، ونُقل ولده الأكبر إلى ألمريَّة حسبما مرَّ فى اسمه ، فلينظر هنالك ، واستقر إلى هذا العهد ، بعد قُفوله من الحجِّ بمدينة فاس ، فلقِى بها برًّا وعناية ، ولحق ولداه بالأندلس ، وهما بها ، تحت جراية وولاية

يوسف بن هلال

صِهر الأمير أبى عبد الله بن سعد[1] .

حـاله

كان شجاعا حازما ، أحظاه الأمير المذكور وصاهره ، وجعل لنظره حصن مطرنيش[2] ومواضع كثيرة . وفسدت طاعته إياه ، فقبض عليه ونَكَبه وعذَّبه ، واستخلص ما كان لنظره وتركه . فأعمل الحيلة ، ولحق بمُورتلة فثار بها ، وعاقد صاحب برجلونة على تصيير ما يملكه إليه . فأعانه بجيش من النصارى ، ولم يزل يضرب ويوالى الضّرب على بلنسية ويشجى أهلها ، وتملك الصّخرة والصُّخيرة وغيرهما . واتفق أنّ خيلا جهزها ابن سعد للضرب عليه ، عثرت بجملته متوجها إلى شنت بيطر ، فقُبض عليه ، وقيد أسيراً ، فنهض به للحين إلى مُورتلة وطلبه بإخلائها ، فأبى [فأمر] ابن مردنيش بإخراج عينه اليمنى ، فأُخرجت بعود . ثم قُرِّب من الحصن وطلبه بإخلائها ، فدعا بزوجه وطلبها بإخلاء الحصن ، وإلا فتخرج عينه الأُخرى ، فحُمل على التكذيب ، ولم يجبه أحد ، فأُخرجت للحين عينه الأُخرى ، وسيق إلى شاطبة ، فبقى إلى أن مات سنة ثلاث وأربعين وستماية . ودخل غرناطة ، وباشر منازلتها مع الأمير صهره ، فاستحق الذكر لذلك .

---

(١) هو الأمير محمد بن سعد بن مردنيش عاهل بلنسية ومملكة الشرق الثائر ضد الموحدين المتوفى سنة ٥٦٧ هـ (١١٧٢ م) وقد سبق التعريف به . وترجم له ابن الخطيب فيما تقدم (المجلد الثانى من الإحاطة ص ١٢١ - ١٢٧) .

(٢) وردت فى الإسكوريال (مطريشة) والصواب ما أثبتناه . وهو من حصون بلنسية الأمامية.

ومن القضاة الأصليين وغيرهم

يحيى بن عبد الله بن يحيى بن كثير بن وسلاسن بن سمال بن مهايا المصمودى

أوليته وحاله

دخل أبو عيسى يحيى بن كثير الأندلس مع طارق بن زياد ، وقيل له اللّيثى ، لأنه أسلم على يد رجل اسمه يزيد بن عامر الليثى ، فنسب إليه ، وقيل إنهم نزلوا بنزل اللّيث ، فنسبوا إليه . يُكنى يحيى هذا ، أبا عيسى . وكان جليل القدر ، عالى الدرجة فى القضاء . وُلّى قضاء إلبيرة وبجّانة مدة ، وولى قضاء جيّان وطليطلة ، ثم عزل عن طليطلة ، وأضيفت إليه كورة إلبيرة مع جيّان . ثم استعفى عن جيّان وبقى يلى قضاء إلبيرة ، وكان لا يرى القُنوت فى الصلاة ، ولا يقْنُت فى مسجده البتّة .

مشيخته : روى عن أبى الحسن النحاس ، وسمع الموطأ من حديث اللّيث وغيره من عم أبيه عبيد الله بن يحيى .

مولده . فى ذى القعدة سنة سبع وثمانين ومايتين .

وفاته : توفى ليلة الثلاثاء بعد صلاة العشاء ، ودفن يوم الثلاثاء بعد العصر . لثمان خلت من رجب عام سبعة وستين وثلاثمائة

يحيى بن عبد الرحمن بن أحمد بن ربيع الأشعرى

يكنى أبا عامر .

حـاله

العالم الجليل ، المحدِّث الحافظ ، واحد عصره ، وفريد دهره .
كان رحمه الله عَلَمًا من أعلام الأندلس ، ناصرا لأهل السنة ، رادعا لأهل الأهواء ، متكلما دقيق النظر ، سديد البحث ، سهل المناظرة ، شديد التّواضع ، كثير الإنصاف ، مع هيبة ووقار وسكينة ، ولّى قضاء الجماعة بقرطبة ثم بغرناطة ، وأقرأ بغرناطة لأكابر علمائها ونبهائها ، الحديث والأصلين وغير ذلك ، بالمسجد الجامع منها وبغيره .

مشيخته

حدث عن والده العالم المحدث أبى الحسين عبد الرحمن بن أحمد ابن ربيع ، وعن الشيخ الأستاذ الخطيب أبى جعفر أحمد بن يحيى الحميرى ، وعن الراوية المحدث أبى القاسم خلف بن عبد الملك بن بَشْكوال ، وعن الحافظ المسن أبى بكر بن محمد بن عبد الله بن يحيى بن الجَدِّ الفهرى ، والقاضى أبى عبد الله محمد بن سعيد بن زرقون ، والزاهد الورع ، أبى الحجاج يوسف بن محمد البلوى المالقى ، عرف بابن الشيخ ، وأبى زكريا يحيى بن عبد الرحمن بن عبد المنعم الإصبهانى الواعظ ، والفقيه القاضى أبى محمد عبد المنعم بن محمد بن عبد الرحم الخزرجى .
وفاته : بمالقة سنة سبع وثلاثين وستماية .

يحيى بن عبد الله بن يحيى بن زكريا الأنصارى

أوليته

تقدمت فى اسم عمه أبى إسحق ، فلينظر هنالك .

حـالـه

من أهل العدالة والزّكا والسّلف فى الخطط الشرعية ، سَكُون ، متفنِّن فى العلوم الشرعية من فقه وأحكام ، وله التقدم فى الوقت فى علم الفرايض والحساب . حَبَس على الزاوية التى اتّخذتْها بالحضرة ، موضوعات فى ذلك الغرض نبيهة ، لم يَقْصُر فيها عن الإجادة ، وتولّى قضاءَ مواضع من الأندلس ، ثم استُعمل فى النِّيابة عن قاضى الحضرة العلية ، وهو الآن قاض بمدينة وادى آش ، وخطيب بمسجدها الأعظم ، تنتابه الطَّلبة للأخذ عنه ، والقراءة عليه .

مشيخته

روى مع الجملة ممن هو فى نمطه ، وأخذ بالإجازة عن الشيخ الأُستاذ الصالح أبى إسحق بن أبى العاصى ، والخطيب أبى على القرشى ، وعن الفقيه الخطيب أبى عبد الله البيّانى ، وعن الأُستاذ شيخ الجماعة أبى عبدالله ابن الفخّار ، وأخذ عن والده وعمه أبى إسحق . وأجازه الشيخ القاضى الخطيب أبو البركات بن الحاج ، والخطيب الصالح أبو محمد بن سَلْمون ، والكاتب الجليل أبو بكر بن شِبرين ، ورييس الكتاب أبو الحسن ابن الجيّاب ، وقاضى الجماعة أبو القاسم الشريف ، والخطيب أبو عبدالله القرشى ، وهو الآن بالحال المذكورة .

يوسف بن الحسن بن عبدالعزيز بن محمد بن أبى الأحوص القرشى الفهرى

يكنى أبا المجد ، ويعرف بابن الأحوص .

حـالـه

كان من أهل العلم والعدالة والنزاهة . وُلِّى كثيرا من القواعد ، فظهر من قصده الحق ، وتحريه سبيل الصواب ، ما يُؤثر عن الجلّة .

مشيخته

قرأ على والده وروى عنه ، واستدعى له بالإجازة من أعلام زمانه ، فأجازه الراوية أبو يحيى بن الفَرَس ، وأبو عمر بن حوط الله ، وأبو القاسم ابن ربيع ، وأبو جعفر أحمد بن عروس العقيلى ، وأبو الوليد العطار ، والخطيب أبو إسحق الأوسى القرطبى ، والقاضى أبو الخطاب بن خليل ، وأبو جعفر الطبّاع وغيرهم .

قال القاضى أبو المجد شيخنا رحمه الله ، أنشدنى أبو على الحسن ، قال أنشدنى الخطيب أبو الربيع بن سالم ، قال أنشدنا أبو عمرو السِّفاقى ، قال أنشدنا أبو نعيم الحافظ ، قال أنشدنا عبد الله بن جعفر الجابرى ، قال أنشدنا ابن المعتز :

ألم تر أن الدهر يوم وليلةٌ ... يكُرّان من سَبْت عليك إلى سَبْت
فقل لجديد العَيْش لابدَّ من بِلًى ... وقل لاجتماع الشَّمل لابد من شَتٍّ

وبالسند المذكور إلى أبى الربيع بن سالم ، قال أنشدنا أبو محمد عبد الحق ابن عبد الملك بن بونه ، قال أنشدنا أبو بكر غالب بن عطية الحافظ لنفسه :

جفوتُ أناسا كنت إلْفَ وصلهم ... وما بالجَفا عند الضرورة من ناس
بلوتُ فلم أحْمَد فأصبحت يائسا ... ولا شيءَ أشفى للنفوس من اليأس
فلا تَعْذِلونى فى انقِباضى فإننى ... وجدتُ جميع الشَّر فى خِلْطة الناس

وفاته : فى اليوم التاسع عشر من شهر رجب الفرد عام خمسة وسبعماية.

يوسف بن موسى بن سليمن بن فتح بن أحمد بن أحمد الجذامى المنتشافرى

من أهل رندة ، يكنى أبا الحجاج

حاله

هذا الرجل حسن اللقاء ، ظِرْفٌ فى التخلق والدماثة ، وحسن العشرة ، أديب ذاكر للأخبار ، طُلَعَةٌ ، يكتب ويشعر ، سيال الطبع مَعِينه . ولى القضاء ببلده رُندة ، ثم بمَرْبلّة . وورد غرناطة فى جملة وفود من بلده وعلى انفراد منهم .

وجرى ذكره فى « التاج المحلّى » بما نصه : حسنة الدهر الكثير العيوب ، وتَوْبةُ الزمان الجم الذنوب ، ما شيت من بِشْرٍ يتألّق ، وأدب تتعطّر به النّسمات وتتخلّق ، ونفس كريمة الشمايل والضرايب ، وقريحة يقذف [بحرها] [1] بدور الغرايب ، إلى خشية لله تحول بين القلوب وقرارها ، وتُثْنى النفوس عن اغْترارها ، ولسان يبوح بأشواقه ، وجفْن يسخو بدُرَر آماقه ، وحرص على لقاء كل ذى علم وأدب ، وممن يمت إلى أهل الدِّيانة والعبادة بسبب . سبق بقُطره الحَلْبة ، وفَرَع من الأدب الهَضْبة ، ورفع الراية ، وبلغ فى الإحسان الغاية ، فطارت قصايده كل المطار ، وتغنّى بها راكب الفُلْك وحادى القِطار . وتقلد خُطّة القضاء ببلده ، وانتهت إليه رياسة الأحكام بين أهله وولده ، فوضحت المذاهب بفضل مذهبه ، وحُسْن مَقْصِده . وله شيمةٌ فى الوفا تعلّم منها الآس ، ومؤانسة عذبة لا تستطيعها الأكواس . وقد أثبت من كلامه ما تتحلّى به ترايب

(١) الزيادة من النفح .

المهارق ، ويجعل طِيبَه فوق المفارق . وكنت أتشوّق إلى لقايه ، فلقيته بالمحلّة من ظاهر جبل الفتح ، لُقيا لم تَبْل صدًا ، ولا شفت كمدا ، وتعذّر بعد ذلك لقاؤه لمخاطبته بقولى :

حمدتُ على فرط المشقة رحلة أتاحت لعينى اجتلاءَ محيّاكا
وقد كنت فى التّذكار بالبعد[1] قانعا وبالريح إن هبّت بعاطر ريّاكا
فَجلَت لى النُّعمى بما أنعمت به علىَّ فحياها الإلآه وحيّـــاكا

أيها الصّدر الذى بمخاطبته يُبْأَى[2] ويُتَشرّف ، والعلَم الذى بالإضافة إليه يُتعرَّف ، والروض الذى لم يزل على البعد بأزهاره الغضّة يُتْحف . دُمْت تتزاحم على موارد ثنائك الألسن [وتروى للرواة ما يصح من أنبايك ويَحْسُن] [3] طالما مالت إليك النفوس منّا وجَنحت ، وزَجَرت الطائر الميمون من رُقاعك كلما سَنحت . فالآن اتضح البيان ، وصدَق الأثر العيان . ولقد كنا للمُقام بهذه الرِّحال نَرْتَمض ، ويجنُّ الظّلام فلا نَغْتَمض ، هذا يُقْلقله إصْفار كِيسه ، وذا يتوجّع لبعد أَنِيسه ، وهذا تروِّعه الأهوال ، وتضجره بتقلُّباتها الأحوال . فمن أنّة لا تنفع ، وشكوى إلى الله [تعالى][4] ترفع . فلما ورد بقدومك البَشير ، وأشار إلى ثِنيَّة طلوعك المشير ، تشوّفت النفوس الصّديّة إلى جلايِها وصِقالها . والعقُول إلى حلِّ عِقالها ، [والألسن المعجمة][5] إلى فَصْل مقالها . ثم إنّ الدهر راجع التفاته ، واسْتَدرك ما فاته ، فلم يسمح من لقايك إلا بلَمْحة ،

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (فى البعد) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (يباهى) والمعنى واحد .

(٣) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ووردت فى النفح كالآتى (وتروى الرواة من أنبائك ما يصح ويحسن)

(٤) الزيادة من النفح .

(٥) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال ، وفى النفح (والأنفس المفحمة) .

ولا بعث من نَسِيم روضك بغير نَفْحة . فما زاد أن هيَّج الأشواق فالتهبت ، وشنَّ غاراتها على الجوانح فانتهبت ، وأعلَّ القلوب وأمْرَضها ، ورمى ثُغْرة الصَّبر فأصاب غَرَضَها . فإن رأيت أن تنفِّس عن نَفْسٍ شدَّ الشوق مُخَنِّقَها ، وكدَّر مشارب أُنسِها [وأذهب][1] رونقها ، وتُتحف من من آدابك بدُرَر تُقتنى ، وروضة طيِّبة الجنَى ، فلَيْسَت ببدع فى شِيمك ، ولا شاذَّة فى باب كرمك . ولولا شاغل لا يَبْرح ، وعوائق أكثرها لا يُشرح ، لنافست هذه السَّحاءة فى القدوم عليك ، والمثُول بين يديك ، فتشُوق إلى اجتلاء أنوارك شديد ، وتشيُّعى فيك على إبلاء الزمان جَديد . فراجعنى بقوله :

حَباك فؤادى نيلُ بشرى وأَحْياكا ... وحيَّد بآداب نفايسَ حيَّاكا
بدايعُ أبداها بديعُ زمــانه ... فطاب بها ياعاطر الرَّوض ريَّاكا
أمهديها أودعتَ قلبى علاقةً ... وإن لم يزل مُغْرًى قديماً بعَلْيَاكا
إذا ما أشار العصر نحو فرِنْدِه[2] ... فإيَّاك أعنى بالإشارة إيَّاكـا
لا تحفنى لُقيـاك أسمى مؤمَّلى ... وهل تُحفةٌ فى الدهر إلاَّ بُلُقْياكا
وأعْقَبَت إتحافى فرايدُك التى ... وجُوب ثناها بالسانِ أعيـاكا

خصصتنى أيها الحبر المخصوص بمآثر أعيا عدها وحصرها ، ومكارم طيَّب أرواح الأزاهر عطرُها ، وسارت الركبان بثنايها ، وشملت الخواطر محبة علائها . بفرايدك الأنيقة ، وفوايدك المزرية جَمالاً على أزهار الحديقة ، ومعارفك التى زكت حقًّا وحقيقة . وهدت الضال عن سبيل الأدب مَهْيعه وطريقَه ، وسَبْقُ تحفتك عندى أعلى التحف[3] ، وهو

(١) الزيادة من النفح .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (فريده)

(٣) وردت فى الإسكوريال (تحفتك) والتصويب من النفح .

مأمول لقائك ، والتمتع بالتماح سناك الباهر وسنائك ، على حين امتدت للذلك[1] اللقاء أشواق ، وعظم من فوت استنارتى بنور محيّاك إشفاق ، وتردد لهجى بما يبلغنى من معاليك ومعانيك ، وما شاده فكرك الوقاد من مبانيك ، وما أهَلّت به بلاغتك من دارسه ، وما أضفَتْ على الزمان من رايق مَلابسه ، وما جمعت من أشتَاته ، وأحيت من أمواته ، وأيقظت من سِناته ، وما جاد به الزمان من حسناته . فلتَرداد هذه المحاسن من أنبايك ، وتصرف الألسنة بثنايك ، علقت النفس من هواها بأشد علاقة ، وجَنحت إلى لقايك جُنوح والهة مُشْتاقة ، والحوادث الجارية تصرفها ، والعوايق الحادثة كلما عَطَفت بأملها إليه ، لا تتحفها به ولا تَعْطفها ، إلى أن ساعد الوقت ، واسْتَدَّ البخت ، بلقياكم[2] هذه السفرة الجِهادية ، وجاد إسعاف الإسعاد من أمنيتى بأسنى هدية ، فلقيتكم لقيا خجل ، ولمحت أنواركم لمحةً على وجل ، ومهجتى[3] ، فى محاسنكم الرائقة ، ومعاليكم الفائقة ، على ما يعلمه ربنا عزَّ وجلَّ . وتذكرت عند لقايكم المأمول ، إنشاء قائل يقول :

كانت محادثة[4] الركبان تخبر عن ... محمد بن خطيب بأطيب الخبر

حتى التقينا فلا والله ما سمعت أذنى ... بأحسن مما قد رأى بصـــــرى

قسما لعمرى أقوله وأعتقده ، وأعتدُه ، وأعتمده ، فلقد بهَرت منك المحاسن ، وفُقْتَ من يُحاسن ، وقَصُر عن شأوك كل بليغ لَسِن ، وسبقت فِقلَنتُك النّارية النُّورية بلاغة كل فَطِن ، وشهد لك الزمن أنك وحيده ، ورئيس عصبته[5] الأديبة وفريده . فبورك لك فيما أنلت من الفضايل ،

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (دلكم)

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (بلقائكم)

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى النفح (وعجبى) .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى النفح (مسائلة) .

(٥) وردت فى الإسكوريال (عصابته) والتصويب من النفح

وأوتيت من آيات المعارف التى بها نور العزالة هايل ، ولازلت مُرقٍّ (١) فى مراتب المعالى ، موقًّ صروف الأيام والليالى .

ومن شعره بمدح الجهة النّبوية ، مُصَدِّرا بالنسيب لبسط الخواطر النّفسانية :

لما تناهى الصب فى تشويقه	درر الدموع اعتاضها بعَقِيقه
متلهِّفٌ وفؤاده متلهِّب	كيف البقاءُ مع احتدام حَرِيقه
متموِّج بحر الدموع بنجْده (٢)	أنَّى خلاصٌ يُرتجى لغريقه
متجرِّع صاب النَّوى من هاجرٍ	ما إن يحِنُّ لِلاعِجات مَشُوقه
يُسْبِى الخواطر حُسْنه ببديعه	يُصْبِى النُّفوس جمالُه بأَنِيقه
قَيْدُ النواظر إذ يلوح لرامقٍ	لا تَنْثَنِى الأَحداق عن تَحْدِيقه
لنبلر لمحته كبِشر ضيائه	للمِسك نَفْحته كنَشْر فَتِيقه
سَكِرت خواطر لامِحيه كأنّهم	شربوا من الصِّبا كأْس رحِيقه
عطشوا لثَغر لا سبيل لريقه	إلا كلَمْحِهم للَمْع بَرِيقه
ماضرَّ مولىً عاشقُوه عبيدُه	لو رقَّ إشفاقا لحال رقِيقه
عنه اصطبارى ما أنا بمُطِيعه	مثل السُّلوِّ ولا أنا بمُطِيقه
سجع (٣) الحمام يشُوق تَرْجيع الهوى	فأثار شَجْو مشوقه بمشوقه
وبكت هديلاً راعها تفريقه	ويحقُّ أن يبكى أخُو تفريقه
وبكاء أمثالى [حقٌّ] لأننى	لم أقضِ للمولى أكِيد حقُوقه
وغَفَلت فى زمن الشباب المنقضى	أقبِح بنسخ بروره بعقُوقه
وبدا المشيب وفيه زجْرُ ذوى النهى	لو كنت مزدجرا لشيم بروقه

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى النفح (ترق) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى النفح (بجده) .

(٣) هكذا فى النفح ووردت فى الإسكوريال (شدت) . والاولى أرجح .

حَسْبي ندامة آسف مما جَنى | يصل النّشيج لورره بشهيقه
ويَرُم [١] ما خَرم الهوى زمن الصبا | ويرُوم من مولاه رَتْق فُتوقه
ويردد الشكوى لديه تذلُّلا | علّ الرِّضا يُحبيه درْك لحوقه
فَيصْحُ من سُكر التّصابى صَحْوه [٢] | نَسْخاً لحكم صُبوحه بغُبُوقه
لو كنتَ يممّت التُّقى وصحبته | وسلكت إيثاراً سواءَ طريقه
لأَفَدْت منه فوائداً وفرائداً | عُرضت تُسام لرايح [٣] فى سوقه
لله أربـاب القلـوب فإنهـم | من حِزْب من نال الرِّضا وفريقه
قاموا وقد نام الأنام فنورهم | هَتَك الدُّجا بضيائه وشُروقه
وتـأنَّسوا بحبيبهم فلهم بـه | بشْرٌ لصدق الفضل فى تحقيقه
قَصَرت عنهم عندما سبقوا المدى | ولسابق فَضْل على مَسْبوقه
لولا رجاءُ تَلمُّحى [٤] من نورهم | يحي الفؤاد بسيره وطرُوقه
وتـأرُّجٌ يُسْتاف من أرواحهم | سببُ انتعاش الرُّوح طيب خلوقه
لَفُتنت [٥] من جراء جرائرى التى | من خوفها قلبى حليف خفوقه
ومعى رجاءُ توسُّل أعْدَدته | ذخراً لصدمات الزمان وضِيقه
حبٌّ ومَدْحى أحمد الهادى الذى | فوزُ الأنام يصِحُّ فى تصديقه
أسْمَى الورى فى منْصِب وبمَنْسب | من هاشم زاكى النِّجار عرِيقه
الحقُّ أظهره عقيب خفائه | والدِّين نظَّمه لدى تفريقه
ونفى هُداه ضلالةً من جائرٍ | مستوثق بنعوته ولعوقه [٦]

---

(١) هكذا وردت فى النفح ، وفى الإسكوريال (ويروم) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال ، وفى النفح مكررة (سكره) .
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى النفح (لرائح) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال ، وفى النفح (تلمح) .
(٥) هكذا فى الإسكوريال ، وفى النفح (لعنيت) .
(٦) هكذا وردت هذه العبارة فى الاسكوريال ووردت فى النفح (ينعوته ويعوقه) .

سبحان مرسِله إلينــا رحمة يهدى ويَهدى الفضل من توفيقه
والمعجزات بدت بصدق رسوله وحقيقُه بالمأثــرات خليقُــه
كالظبي فى تكْليمه والجِذْع فى تَحْنينه والبدر فى تَشْقيقـــه
والنّار إذ خمدت بنــور ولاده وأجاجُ ماءٍ قد خَلا من ريقــه
والـــزّاد قلَّ فــزاد من بركاته فكفى الجيوش بتَمْره وسُوَيقــه
ونُبوع مـاء الكفّ من آياتــه وسلامُ أحجار غَــدت بطريقه
والنخل لمَّا أن دعاه مشى له ذا سرعة [بعروقه وعلوقه][1]
والأرض عاينها وقد زُويت له فقَريب ما فيها رأى كسَحِيقه
وكذا ذراع الشّاة قد نطقت له نُطْق اللسان فصيُحه وذليقُــه
ورمى عِداه بكف حصباء فانثنت هرباً كمذعور الجنــان فروقـه
وعليه آيات الكتاب تنزّلت تُتلى بعُلْو جلاله [2] وبسوقـه
فأذيقَ من كأس المحبة صَرْفها سبحان ساقيه بها ومُذيقـــه
حــاز السَّناء ونــاله بعرُوجـه جـاز السماءَ طِباقهــا بخروقـه
ولكَم له من آية من ربّـــــه ورعايـــةٍ وعنايـــة بحقوقـه
يا خيرة الأرْسال عنــد إلهـه يــا مُحْرز العَلْيــا على مخلوقـه
عَلقَت آمـــالى بجاهـك عدَّة والقصد ليس يخيب فى تَعْليقه
ووثقت [3] من حبل اعتمادى عُمْدة لتمسُّكى بقَـــويّه ووثيقـــه
ولئن غدوتُ أحِيذ ذنبى إننى أرجو بقصدك [أن أرى][4] كطليقه
وكساد سُوقى مذ لجأت إلى بابكم يقضى حصول نفــوذه ونفوقـه

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى النفح (بعلوقه وعروقه) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال ، وفى النفح (جنابه) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال ، وفى النفح (علقت) .

(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى النفح ، وهى ساقطة فى الإسكوريال .

ويحِنُّ قلبي وهو فى تَغْريبـه [لمزاره لريَّاك][1] فى تشريقـه
وتزيد لوعته متى حثَّ السُّرى حـاد حِـداً بجِمـاله وبنُوقـه
وأرى قَشِيب العمر أمسَى بالياً ومرور دهـرى جـدَّ فى تمزيقـه
وأخاف أن أقضى ولم أقض المُنى بنفوذ سهم مَنِيَّـتى ومُرُوقـه
فمتى أحطُّ على اللِّوى رَحْلى وقد بَلَغت ركابى لِلْحمى وعقِيقه
وأمرِّغ الخدَّين فى تُرْبٍ غـدا كالمِسْك فى أرَج شـذا مَنْشُوقه
وأعيد [إنشادى وإنشائى][2] الثنـا ببديـع نظم قريحـتى ورقِيقـه
حتى أميــل العاشقيـين تطرُّباً كالغُصْن مرَّ صبـاً على مَمْشوقه
وتحيَّةُ التسليم أبلغ شافعى [3] وثنا المـديح حديثُه وعتيقُـه
وللذى الفخبار وذى العلى ووزيره صدِّيقه وأخـى الهدى فارُوقه
منى السلام عليهم [4] كالزهر فى تأْلِيفهـا والزَّهـر فى تأْلِيفه

قال ، وكتب بذلك إلى فى جملة من شعره :

هواكم بقلبى لأحكامه [5] نسخ ومن أجله جَفْنى بمدمعه يَسْخُ
ومن نشأتى ما إن صَحَت منه نَشوتى سواءٌ به عصر المشيب أو الشرْخ
عليه حياتى مذ تمادت ومَيْتَتى وبَعْثى إذا بالصُّور يتفق النَّفخ
ولى خَلَدٌ أضحى قنيص غرامه ولا شركٌ يُدنى إليه ولا فـخٌ
قتلتُ سُلُوِّى حين أحييت لوعتى وما اجتيح بالإقرار فى حالتى لَطْخ
وناصح كتمى إذ زكت بَيِّنـاته يجول عليه من دموع الأسى نَضْخ

(١) هذه الزيادة من النفح ، ومكانها بياض بالإسكوريال .
(٢) هكذا فى الإسكوريال ، وفى النفح (إنشائى وانشادى) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال ، وفى النفح (شافع) .
(٤) واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال
(٥) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (محكمه)

وأرجو بتحقيق هواكم بأن أفى … فعهدٌ ولا نقصٌ وعقدٌ ولا فَسْخ

وما الحب إلاَّ ما استقل ثبوته … لمبناه رصٌّ فى الجوانح أو رَسْخ

إذا مسلكٌ لم يستقم بطريقه … سلكتُ اعتدالاً مثل ما يَسْلك الرُّخ

بدا لضميرى من سناكم تلمُّح … فبخٌّ لعقل لم يطر عندها بخٌّ

على عود ذاك اللَّمح مازلت نادبًا … كما تندب الوِرق فارقها الفَرْخ

يَدى بأياديكم وقلبى شاغل … فمن فِكرنى نسجٌ ومن أنْملى نَسْخ

ومن شعره أيضاً قوله فى غرض يظهر منه :

إليك تحن النُّجب والنُّجباءُ … فهم وهى فى أشواقهم شُركاءُ

تَخُبُّ بركاب تحبُّ وصولها … لأرض[1] بها بادٍ سنى وسناءُ

فأنفاسها ما أن تنى صعداؤها … وأنفاسهم من فوقها سعداءُ

همُوا عالجوا إذ عجَّل السَّير داءهم … وأشباه مثلى مُدْنَفون بُطاءُ

فعدت ودونى للحبيب ترحَّلوا … وما قاعد والراحلون سواءُ

له وعليه حبٌّ قلبى وأدمعى … وقد صحَّ لى حبٌّ وسحَّ بكاءُ

بطيبة هل أرضى وتبدو سماؤها[2] … وإن [تك أرضا فالحبيب][3] سماءُ

شَذا نفحها واللَّمح منها كأنه … ذكاءُ عبير والضِّياءُ ذكاءُ

فيا حاديا غَنِّى وللرَّكب[4] حاديا … عِنانى بعد البعد عنك عناءُ

بسلِع فسلْ عما أقاسى من الهوى … وسَلْ بقِباءٍ إذ يلوح قباءُ

وفى عالج منِّى بقلبى لاعج … فهل لى علاج عنده وشفاءُ

وفى الرقمتين[5] أرْقم الشوق لاذع … ودرياقه أن لو يُباح لِقاءُ

---

(١) هذه الكلمة واردة فى النفح ، وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) هكذا وردت فى النفح ، وفى الإسكوريال وكأنها

(٣) هكذا وردت هذه العبارة فى النفح . وفى الإسكوريال (وإن تك أرضى بالحبيب)

(٤) هكذا وردت فى النفح ، وفى الإسكوريال (والذكر) والأولى أرجح .

(٥) هكذا فى النفح ، وفى الإسكوريال (وبالرقمين)

أما كن تمكين وأرضٌ بها الرضى ... وأرجاءُ فيها للمشوقِ رجاءُ

ومن المقطوعات قوله :

أدب الفتى فى أن يُرى متيقِّظًا ... لأوامرٍ من ربِّه ونواهِ

فإذا تمسَّك بالهوى يهوى به ... [والحبْل منه](١) لمن تيقَّن واهِ

ومن ذلك :

يامن بدُنياه ظلَّ فى لُججٍ ... حقِّق بأن النَّجاة فى الشاط

تطمع فى إرثك الفلاح وقد ... أضعت ما قبله من أشْراط

كن حذِرًا فى الذى طمعت به ... من حَجْب نقص وحجب إسْقاط

وقال :

ترى شعُروا أنى غَبطت نسيمةً ... ذكتْ بتلاق الرَّوض غبَّ الغمايم

كما قابلت زُهر الرياض وقبَّلت ... ثُغور أقاحيه بلا لوم لايم

وقال :

ورَدَ المشيب مبيِّضا بوُروده ... ما كان من شعْر الشَّبيبة حالكا

يا ليته لو كان بيَّض بالتُّقى ... ما سوَّرته مآثم من حالكا

إنَّ المشيب غدا رداءً للرَّدى ... فإذا علاك أجدَّ فى تَرْحالكا

وأنشدنى صاحبُنا القاضى أبو الحسن ، قال ، مما أنشدنى الشيخ أبو الحجاج لنفسه :

لوعة الحبِّ فى فؤادى تَعاصت ... أن تُداوى ولو أتى [ألفُراقِ](٢)

كيف يبرأُ من علَّة وعليها ... زائدُ علَّة النَّوى والفِراق

فانسِكاب الدموع جارٍ فجارٍ ... والتُّهاب الضُّلوع راقٍ فراق

(١) مكانها بياض بالإسكوريال والإضافة من النفح .

(٢) وردت فى الإسكوريال (الفراق) والتصويب من النفح .

نبذة من أخباره

نقلت من خط صاحبنا الفقيه القاضى المؤرخ أبى الحسن بن الحسن ، قال حاكيا عنه ، ومن غريب ما حدثّنى به ، قال كنت جالسا بين أيدى الخطيب أبى القاسم التاكرُونىّ صبيحة يوم بمسجد مالقة الأعظم ، فقال لنا فى أثناء حديثه ، رأيت البارحة فى عالم النَّوم ، كأن أبا عبد الله الجليانى يأتينى ببيتى شعر فى يده وهما :

كل علْم يكون للمرء شُغلا ... بسِوى الحقّ قادحٌ فى رشاده

فإذا كان لله فيه حظٌّ ... فهو مما يُعِدُّه لمعاده

قال ، فلم ينفصل المجلس ، حتى دخل علينا الفقيه الأديب أبو عبد الله الجليانى والبيتان عنده ، فعرضهما على الشيخ ، وأخبره أنه صنَعهما البارحة . [فقال له كل من فى المجلس ، أخبرنا بهذا الشيخ قبل مجيئك ، فكان هذا من العجائب] (١) . وقد وقعت الإشارة لذلك فى اسم الشيخ .

مشيخته

منقول من خطِّه فى ثَبتٍ أجاز فيه أولادى ، أسعدهم الله ، بعد خطابة بليغة . قال فمن شيوخى الذين رويتُ عنهم . واسْترْفَدتُ البركة منهم ، الشيخ الخطيب الصالح المتفنن ، أبو محمد عبد الواحد بن أبى السداد الباهلى . والشيخ الإمام أبو جعفر بن الزُّبير ، والشيخ الوزير المشاور أبو عبد الله بن أبى عامر بن ربيع ، والقاضى العدل أبو عبد الله محمد ابن على بن محمد بن برطال . والشيخ الخطيب الصالح أبو عبد الله الطَّنجالى . والراوية المسن أبو عمرو محمد بن عبد الرحمن الرندى الطنجى ،

(١) أضفنا ما بين الحاصرتين نقلا عن النفح

والمدرس الصالح أبو الحسن على بن أحمد الإشبيلى بن شَالة ، والخطيبان الأُستاذان الحاجان أبو عبد الله محمد بن رُشيد الفهرى ، وأبو عثمن سعيد ابن إبراهيم بن عيسى الحِميْرى ، والشيخ الصالح أبو الحسين عبد الله بن محمد بن محمد بن يوسف بن منظور ، والخطيب الصالح العلاّمة المصنف أبو جعفر بن الزيات ، والفقيه القاضى أبو جعفر ابن عبد الوهاب ، والشيخ الراوية المحدث أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن الكماد ، والخطيب أبو العباس أحمد بن محمد اللورقى ، والعدل أبو الحسن على بن محمد الطائى ، ابن مستقور ، والخطيب الصالح أبو العباس أحمد بن محمد بن خميس الجزيرى ، والقاضى العدل الحاج أبو محمد عبد الله بن أبى أحمد بن زيد الغرناطى ، والشيخ الراوية الحاج الرّحال الصوفى أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أمين الفارسى العجمى الأقشرى ، والقاضى الحسيب أبو عبد الله محمد بن عِياض بن محمد ابن عياض ، والقاضى أبوعبد الله بن عبد المهيمن الحضرمى ، والأُستاذ أبو إسحق الغافقى ، والإمام أبو القاسمى بن الشّاط ، والخطيب القاضى أبو عبد الله القرطبى ، والراوية أبو القاسم البِلفيقى ، والمحدث أبو القاسم التجيبى ، والخطيب أبو عبد الله الغمارى ، والإمام الكبير ناصر الدين المِشْدالى ، والفقيه الصوفى أبو عبد الله محمد بن محمد الباهلى عرف بالمسفر من أهل بجاية ، وقاضى القضاة بتونس أبو إسحق بن عبد الرفيع ، والعلامة أبو عبد الله بن راشد ، والخطيب أبو عبد الله بن عزْمون ، والعلامة الخطيب أبو محمد عبد الواحد بن مطور بن محمد بن المنير الجذامى .

قال ، وكلهم أجازنى عامة ما يرويه . وكان ممن لقيته . وقرأت عليه ، إلاّ المدرس أبا الحسن بن شالة . فوقع لى شك فى إجازته .

تواليفه

قال ، ومما[١] يسَّر الله تعالى فيه من التأليف ، كتاب « ملاذ المستعيذ ، وعياذ المستعين ، فى بعض خصائص سيد المرسلين ، فى الأحاديث الأربعين المروية على آياتٍ من الذكر الحكيم والنور المبين » . وكتاب تخصيص[٢] القرب وتحصيل الأرب ، وقبول الرأى الرشيد ، فى تخميس الوتَريات النبويات لابن رُشيد . وانتشاق النَّسمات النَّجدية ، واتِّساق النزعات الجدِّية . وغُرَر الأمانى المُسْفرات فى نظم المُكَفِّرات . والنَّفحات الرُّندية واللَّمحات الزَّنَدية ، وهو مجموع شعرى . وحقائق بركات المنام ، فى مرأى المصطفى خير الأنام . والاستِشفاء بالعدة ، والاستِشعاع بالعمدة ، فى تخميس القصيدة النبوية المسماة بالبُرْدة . وتوجُّع الرائى فى تنوع المراثى . واعتلاق المسايل بأفضل الوسايل . ولمح البهيج ، ونفح الأريج ، فى ترجيز ما لولى الله أبى مدين شعيب بن الحسين الأنصارى رضى الله عنه ، من عبارات حكمة وإشارات صوفية . وتجريد رؤوس مسائل البيان والتحصيل ، لتيسير البلوغ لمطالعتها والتوصيل . وفهرسة روايتى . ورجز فى ذكر مشيخة شيخنا الراوية أبى عمر الطَّنجى ، رحمه الله وإسناده . قال ، ومما كنت شَرعت فيه ولم يتفق تمامه ، كتاب سميته « عواطف الأعتاب ، فى لطايف أسباب المتاب » . ومما بيدى الآن جمعه وهو إن شاء الله على التمام ، أربعون حديثاً متصلة الإسناد ، أول حديث منها فى الخوف ، والثانى فى الرجاء ، بلواحق تتبعها ، وسميته « أرج الأرجاء ، فى مزج الخوف والرجاء » . والله يصفح عنا ، ويغفر زلاَّتِنا . وأن لا يجعل ما نتولاه من

---

(١) وردت فى الإسكوريال (ومن) فاقتضى التصويب .

(٢) وردت فى الإسكوريال (تحصين) ، والتصويب من النفح

ذلك حجة علينا ، وأن نكون ممن مُنَح مقولا ، ومنع معقولا ، ويختم لنا بخواتم السُّعداءِ من عباده ، وممن وفّق وهَدى إلى سبيل رشاده .

وفاته : كان حيًّا عام أحد وستين وسبعماية .

ومن المقريين

يحيى بن أحمد بن هذيل التجيبى

يكنى أبا زكريا ، شيخنا أبو زكريا بن هُذيل رحمه الله أرجِدونى(١) الأَصل ، ينسب إلى سَلَفِهِ أملاك ومعاهد كولابج هذيل ، مما يدل على أصالة .

حـــاله

كان آخر حَمَلَة الفنون العَقْلية بالأَندلس ، وخاتمة العلماءِ بها ، من طبٍّ وهندسة وهيئة وحساب وأُصول وأدب ، إلى إمتاع المحاضرة ، وحسن المجالسة ، وعموم الفائدة ، وحسن العهد ، وسلامة الصَّدر ، وحفظ الغيب ، والبراءَة من التصنُّع والسَّمت ، مؤثرا للخمول ، غير مبال بالناس ، مشغولا بخاصَّة نفسه . خدم أخيراً باب السلطان بصناعة الطِّب ، وقعد بالمدرسة بغرناطة ، يقرئُ الأُصول والفرايض والطب .

عمن أخذ : قرأ على جملة من شيوخ وقته ، كالأُستاذ أبى بكر بن الفخار ، أخذ عنه العربية والأَدب . وقرأ الطب على أبى عبد الله الأَركشى ، وأبى زكريا القصرى . وجملة من الإِسلاميين بالعُدْوة . وقرأ كراسة الإمام فخر الدين الرازى المدعاة بالآيات البيِّنات . على الأُستاذ أبى القاسم بن جابر .

---

(١) نسبة إلى أرجدونه أو أرشدونة Archidona وقد سبق التعريف بها (المجلد الثالث من الإحاطة ص ٤٥٩ حاشية) .

ونظر الأُصول على الأُستاذ النظّار أبي القاسم بن الشّاط وأخذ الحساب عن أبي الحسن بن راشد . والحساب والهندسة والأُصول وكثيراً من عمليات الحساب وجَبْره ومقابلته والنجوم ، على الأُستاذ أبي عبد الله بن الرّقام ، ولازمه كثيراً .

تواليفه

وله تصانيف وأوضاع منها ، ديوان شعره المسمى بالسليمانيات والعربيات[1] وتنشيط الكسل . ومنها شرحه لكرّاسة الفَخْر ، وهو غريب المأخذ ، جمع فيه بين طريقتي القدماء والمتأخرين من المنطقيين . وكتابه المسمى «بالاختيار والاعتبار فى الطّب» . وكتابه المسمى «بالتذكرة فى الطب» .

شعره

وجرى ذكره فى التاج المحلّى بما نصه : درّة بين الناس مُغْفَلة ، وخِزانة على كل فائدة مُقفلة ، وهدية من الدهر الضّنين لبنيه مُحْتَفلة . أبدع من رتّب التعاليم وعلّمها ، وركّض فى الألواح قلمها ، وأتقن من صور الهيئة ومثّلها . وأسس قواعد البراهين وأثّلها ، وأعرف من زاول شِكاية ، ودفع عن جسم نِكاية ، إلى غير ذلك من المشاركة فى العلوم ، والوصول من المجهول إلى المعلوم ، والمحاضرة المستفزّة للحلوم ، والدّعابة التى ما خلع العِذار فيها بالملوم فما شِيت من نفس عذْبة الشّيَم ، وأخلاق كالزهر من بعد الدّيم . ومحاضرة تُتْحف المجالس والمحاضر ، ومذاكرة يروق النواظر زهرها الناضر وله أدبٌ ذهب فى الإجادة كل

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى النفح (والعرفيات)

مذهب ، وارتدى من البلاغة بكل رداء مُذْهب ، والأدب نقطة من حَوْضه ، وزهرة من زهرات روْضه ، وسيمر له فى هذا الديوان ، ما يُبهر العقول ، ويحاسن برُوائه ورائق بهائه ، الفِرَند المصقول .

فمن ذلك ما خرَّجته من ديوان شعره المسمى « بالسُّليمانيات والعربيات » من النَّسيب :

ألا أستودع الرحمن بدراً مكملا ... بفاس من الدرب الطويل مطالعه
وفى فَلَك الأزرار يطلع سعدُه ... وفى أُفق الأكباد تُلفى مواقعه
بصير[1] مرآه منجم مُقْلتى ... فتصدُقُ فى قطع الرجاء قواطعه
تجسَّم من نور[2] الملاحة خدُّه ... وماءُ الحيا فيه تَرَجْرَج مائعه
تلوَّن كالحرباء فى خجلاته ... فيحمرُّ قانيه ويبيضُّ ناصعه
إذا اهتزَّ غنَّى حلْيُه فوق نحره ... كغُصْن النَّقا غَنَّت عليه سواجعه
يذكر حتْف الصبِّ عامل قدره ... وتقْطف من واو العِذار توابعه
أعدَّ للورى سيفا كسيف لِحاظه ... فهذا هو الماضى وذاك يُضارعه

ومن أُخرى فى النَّسيب ، وتضمَّنت التَّورية الحسنة :

وصالك هذا أم تحيةُ بارق ... وهجرُك أم ليل السَّلم لتائق
أُناديك[3] والأشواق تركض حجرها ... بصفحة خدِّى من دموع سوابق
أبارق ثغر من عُذيب رُضابه ... قضت مهجتى بين العُذيب وبارق

ومنها :

فلا تُتعبنَّ ريح الصَّبا فى رسالة ... ولا تُخجل الطَّيف الذى [هو طارق][4]

(١) وردت فى الإسكوريال يسير . والتصويب من النفح .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (ماء)

(٣) هكذا فى الإسكوريال ، وفى النفح (أباديك)

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (كان طارق) .

متى طعمت عيني الكرى بعد بعدكم فإني في دعوى الهوى غير صادق

[قوله « أبارق ثغر من عذيب رضابه » ينظر إلى قول ابن النبيه في ذلك :

يلوى على زرد العذار دلاله كم فتنة بين اللّوى وزرُود]

ومن قصيدة ثبتت في السليمانيات :

بدا بدر تمّ فوقه الليل عَسْعسا وجنّة أُنس في صباح تنفّسا

حوى النجم قِرْطًا والدّرارى مُقلدا وأسْبل من مسك الذوايب(١) حِنْدِسا

كأنّ سنا الإصباح رام يزورنا وخاف العيون الرامقات فغلّسا

أتى يحمل التوراة(٢) ظَبيًا مُزَنّرا لطيف التثنى أشنب الثّغر ألْعسا

وقابل أحبار اليهود بوجهه فبارك ربّى(٣) عليه وقدّسا

ومنها وتماجن ما شاء غفر الله له :

رويت ولوعى من ضلوعى مُسَلْسلا فأصبحت في علْم الغرام مُدرِّسا

نفى النوم عنى كي [أكون مسهدا](٤) فأصبحت في صيد الخيال مهندسا

غزال من الفردوس تسقيه أدمعى ويأوى إلى قلبى مثيلا ومكنساً

طغى ورْد خدّيه بجنّات(٥) صدغه فأضعفه بالآس نبْتا وما أسا

[قوله طغى ورد خديه ، البيت محال على معنى فلاحى ، إذ من أقوالهم أن الآس ، إذا اغتُرس بين شجر الورد ، أضعفته بالخاصية] .

وقال أيضاً من قصيدة مهيارية :

(١) هكذا وردت في النفح . وفي الإسكوريال (الذؤابة) والأولى أرجح

(٢) هكذا وردت في النفح . وفي الإسكوريال (التورية) .

(٣) هكذا في الإسكوريال . وفي النفح (مولانا) .

(٤) هكذا وردت في النفح ، وفي الإسكوريال (منجما) .

(٥) هكذا وردت في النفح ، وفي الإسكوريال (بجنان) .

نام طفل النّبت فى حجر النّعامى | لاهتزاز الطّل فى مهد الخزامى
وسقَى الوسْمِىُّ أغصان النّقا | فهوت تلثم أفواه النّدامى
كحّل الفجرُ لهم جَفْن الدُّجى | وغدا فى وجْنة الصُّبح لِثاما
تحسب البدر مُحيًّا ثمِل | قد سقَتْه راحة الصبح مُداما
حوله الزهر كؤوس قد غدت | مِسْكة[1] الليل عليهنَّ ختاما
يا عليل الريح رِفقاً علّنى | أشْفَ بالسّقم الذى حُزت سِقاما
وأبلِّغنَّ شوقى عريبًا[2] باللِّوى | هَمَت فى أرض بها حلُّوا غِراما
فرشّوا فيها من الدُّر حصىً | ضربوا فيها من المِسْك خِياما
كنت أشفى غلة من صدِّكم | لو أذِنتم لجُفُونى أن تناما
واستفَدْتُ الرُّوح من ريح الصَّبا | لو أتَتْ تحمل من سلْمَى سلاما
نشأت للصّب منها زفرة | تَسْكُب الدّمع على الرَّبع سِجاما
طَرِب البرق مع القلب بها | وبها الأنّات طارَحْنَ الحِماما
طللٌ لا تستشفى الأُذن به | وهو للعينين قد ألْقى كلاما
ترك السّاكن لى من وصْلِه | ضمّة الجُدران[3] لثْمًا والتزاما
نزعات من سليمان بها | فَهِم القلب معانيها فَهاما
شادنٌ يرْعى حشاشات الحشَى | حَسْبُ حظِّى منه أن أرْعى الذِّماما

وقال من قصيدة أولها فى عرض النسيب :

أأرجو أمانا منك واللحظ غادر | ويثبتُ عقلى فيك والطَّرف ساحر
أعدّ سليمان أليم عذابه | لهدهُد[4] قلبى فهو للبين صائر

---

(١) وردت فى الإسكوريال (مسكيه) ، والتصويب من النفح
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى النفح (عريب)
(٣) وردت فى الإسكوريال (الجدبان) ، والتصويب من النفح .
(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى النفح (الطائر) والأولى أرجح .

أشاهد منــه الحُسْن فى كل نظـرة   وناظـر أفـكارى بمغْنــاه ناظر
دعَتْ للهوى أنصار سحر جُفــونه   فقلبى له عن طيب نفس مُهاجر
إذا شقَّ عن بدر الدجى أُفق ذرِّه   فإنى بتمـويه العـــواذل كافر
وفى حُرم السُّلوان طافَتْ[١] خواطرى   وقلبى لما فى وجْنتيــه مُجــاور
وقد ينْزع القلب المُبْلى لسَلْوة   كما اهتزَّ من قطْر الغمامة طاير
يقـابل أغراضى بضِدٍّ مرادهـــا   ولم يدر أن الضِّد للضِّد قـاهر
ونارُ اشتياقى [صعَّدت][٢] مُزْن أدمعى   فمُضمَر سرِّى فــوق خدِّى ظاهر
وقد كنت باكى العين والبين غايب   فقل لى كيف حال[٣] الدمع والبين حاضر
وليس النَّوى بالطبع مــرًّا وإنمـا   لكثرة ما شُقَّت عليــه المـرائر

ومنها فى وصف ليلة :

وزنجيَّة فات الكؤوس بنحْرها   قلايدُ ياقوت عليها الجواهر
ولا عيب فيها غير أن ذُبالهـا   يُقَطِّب فتبدو الكؤوس سراير
تجنبت فيها نَيْل كل صغيرة   وقد غفرتُ فيها لدىّ الكبائر

ومن السُّليمانيات من قصيدة :

يا بارقا قاد الخيال فأوْمضا   أقصِد بطيفك مُدْنَفًا قد غمّضا
ذاك الذى قد كنت تعهد نايما   بالسُّهد من بعد الأحبَّة عوَّضا
لا تحسبُنى مُعْرضا عن طيفه   لكنَّ منامى عن جُفونى أعْرضا
عجِب الوشاة لمهجتى أن لم تذُبْ   يوم النَّوى وتشكَّكت فيما مضى

ومنها :

خفيت لهم من سرِّ صبرى آية   ما فهمت إلاَّ سليمان الرِّضا

---

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى النفح (طابت) .
(٢) هذه الكلمة واردة فى النفح ، وساقطة فى الإسكوريال .
(٣) هذه الكلمة واردة فى الإسكوريال وساقطة فى النفح .

لله درُّك ناهجًا سبُل الهـوى ... فلمثله أمر الهوى قد فوِّضا

أمنت نمْلاً فوق خدِّك سارحا ... وسللْت سيفاً من جُفونك مُنتضى

ومن الأمداح قوله من قصيدة :

حريص على جرِّ الذوايب والقنا ... إذا كعَّت الأبطال والجوُّ عابس

وتعتنق الأبطال لولا سقوطها ... لقلت لتوديعٍ أتتْه الفوارس

إذا اختطفتهم كفُّه فسروجهم ... مجالٌ وهم فى راحتيه فرائس[١]

وقال يمدح السلطان أمير المسلمين أبا الوليد نصر عند قدومه من فتح أشكر[٢] من قصيدة أولها :

بحيث البنود الحمر والأُسْد الورد ... كتائبُ سكَّان السماءِ لها جند

وتحت لواءِ النصر ملك هو[٣] الورى ... تضيق به الدنيا إذا راح أو يغدو

تأمَّنت الأرواح فى ظل بنْده ... كأنَّ جناح الروح من فوقه بَنْد

فلو رام إدراك النجوم لنالها ... ولو همَّ لانْقَادت إليه السِّند والهند

بعينى بحر النَّقع تحت أسِنَّة ... تُنمْنمه [وهنًا] [٤] كما نمنم البرد

سماءُ عجاج والأسنَّة شهبها ... ووقْع القنا رعدٌ إذا برق الهند

وفى وصف آلة النِّفْط :

وظنُّوا بأنَّ الرعد والصعق فى السما ... [فحاق بهم من دونها] [٥] الصعق والرعد

عجائب أشكال سما هِرْمس بها ... مهندمة[٦] تأتى الجبال فتَنْهدُّ

---

(١) هكذا وردت فى النفح ، وفى الإسكوريال (عرايس) . والأولى أرجح بالنسبة للمعنى

(٢) هى بلدة أندلسية تقع شمال مدينة بسطة وشرق مدينة قبجاطة وبالإسبانية Huescar

(٣) هكذا وردت فى النفح ، وفى الإسكوريال (هدى) والأولى أكثر تمشيا مع المعنى

(٤) هذه الكلمة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

(٥) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال ، ووردت محرفة فى النفح كالآتى (محاق به من أيده)

(٦) هكذا فى الإسكوريال ، وفى النفح فى (مهندسة) .

ألاَ إنَّها الدنيـــا تريك عجـــايبا　　وما فى القوى منها فلابُدَّ أن يبدو

وكتب وهو معتقل بسبب عمل تولاه جحدرية أولها :

تباعد عنى منزلٌ وحبيب　　وهاج اشتياقى والمزار قريب

وإنى على قرب الحبيب مع النوى　　يكاد إذا اشتدَّ الأنين يجيب

لقد بعُدت عنى ديارٌ قريبــة　　عجبت لجار الجنب وهو غريب

ومنها :

أعاشر قومًا ما تقر نفوسهم　　فللهمِّ فيها عند ذاك ضروب

إذا شعروا من جارهم بتـأوُّه　　أجابته[1] منهم زفرةٌ ونَحِيب

فلا ذاك يشكوهم هذا تـأسُّفا　　لكل امرىء مما دهـاه نصيب

كأنى فى غاب الليوث مُسلِّمًا[2]　　يروِّعنى منها الغـداة وثوب

تحكُّم فينا الدهر والعقل حاضر　　بكلِّ قياس والأديب أريب[3]

ولو مال بالجهّال مَيْلته بنـا　　لجـاء بعذرٍ إنَّ ذا لعجيب

رفيقٌ بمن لا ينثنى عن جريمة　　بطوش بمن ما أوْبقته ذنوب

وتطمعنـا منه بوارقُ خُلَّب　　نقول عساه يرْعَوى ويتـــوب

إذا ما تشبثنا بأذيال بُـــرده　　دهَتْنا إذا جرَّ الذيول[4] خطوب

أدار علينا صولجانا ولم يكن　　سوى أنه بالحادثات لعُوب

ومنها :

أيا دهر إنى قد سئمت تهدُّدى　　أجِرْنى فإن السهم منك مصيب

إذا خفق البرق الطروق[5] أجابه　　فؤادى ودمع المقلتين سَكوب

(١) وردت فى الإسكوريال (أحابهم) والتصويب من النفح .

(٢) هكذا فى الإسكوريال وفى النفح (مسالم) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال ، وفى النفح (أديب) وهو تحريف

(٤) هكذا فى الإسكوريال ، وفى النفح (الحالوب)

(٥) هكذا وردت فى النفح ، ووردت فى الإسكوريال (الطروب) والأولى أرجح .

وإن طلع الكفُّ الخضيب بسحره[١] فدمعى بحنّاء الدماء خضيب
تُذَكِّرنى الأَسحار داراً أَلفتها فيشتد حُزنى والحمام طروب
إذا عَلِقت نفسى بَليت وربما تكاد تفيض أو تكاد تذوب
دعوتك ربىِّ والدعاء ضراعة وأنت تُناجَى بالدعا فتجيب
لئن كان عُقْبى الصبر فوزًا وغبطة فإنى على الصبر الجميل دَرُوب

وبعثتُ إليه هدية من البادية ، فقال يصف منها ديكا ، وكتب بذلك رحمة الله عليه :

أيا صديقاً جعلتهُ سَندا فراح فيما أحبُّــه وغدا
طلبت منكم صُرَيْدكا خَنشا وجَّهتمونى مكانـــه لــبدا
صيِّر منى مؤرخًا ولـــكم ظللتُ فى علمه من البُلدا
قلتُ له آدم أتعــــرفه قال حَفِيدى بعصرنا[٢] وُلدا
نوحٌ وطوفانـــه رأيتهما قال عَلَوْنا لفيضه أُحُـدا
فقلت هل لى بجرهم خَبر فقال قومى وجيرتى السعدا
فقلت قحطان هل مررت به قال نفثنا ببُرْده العُقَــدا
فقلت صف لى سَبا وساكنها فعند هذا تنفَّس الصَّعـدا
وقال كم لى بِدُجْنهم سحرا من صرخةٍ لى وللنوم هـدا
فقلت هاروت هل سمعت به فقال ريشى لِسحره نَفِـدا
فقلت[٣] كسرى وآل شرعته فقال كنا بجيشه وَفْـدا
ولُّوا وصاروا وها أنا لبد فهل رأيتم من فوقهم أحدا
ديكٌ إذا ما انثنى لفكرته رأى الوجود[٤] طرايقا قِدُدا

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى النفح (سحيرة) .
(٢) هكذا فى النفح ، وفى الإسكوريال (بعصره) والأولى أرجح
(٣) وردت فى الإسكوريال (فقال) والتصويب من النفح .
(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى النفح (وجودا) .

يرفل فى طيلسانه ولِهيـاً قد صيَّر الدهر لونَه كمِدا
إذا دَجا الليل غاب هيكله كأن حِبرا عليه قد جَمـدا
كأنما جلنـــار لحيتــه بُرْجان حازا عن الهواء مَدَا
كأن حصنا علا بهامَتــه أعدَّه للقتـــال فيه عُـدا
يرنو بياقُوتَتى لواحـــظه كأنما اللحظ منه قد رَمِدا
كأنَّ منجالتى ذؤابتـه(١) قوسٌ سما من أجله بُعْـدا
وعَوْسَج مدَّ من مخـــالبه طغَى بها فى ثقـــاره وعَدا
فذاك ديكٌ حلَّت محاسنه له صراخ بين الدُّيوك غدا
يطلبنى بالذى فعلتُ به فكم فَلَلْنـا بلبَّتيه مدا
وجَّهتـه محـنةٌ لآكلــه والله ما كان ذاك منِّى سدى

ولم نزل بعد نستعدى عليه بإقراره ، بقتله ، ونطلبه بالقود عند تصرفه فى العمل ، فيوجه الدِّيَة ، لنا فى ذلك رسائل .

ومن شعره فى غرض الحسن بن هانئ :

طرقنا ديور القوم وهنا وتغليسا وقدشرَّفوا الناسوت إذعَبدوا عيسى
وقد رفعوا الإنجيل فوق رؤوسهم وقد قدَّسوا الروح المقدَّس تقديسا
فما استيقظوا إلاَّ لصكَّة بابهم فأدهش رُهبانا وروَّع قِسِّيسا
وقام بها البطريق يسعى مُلبِّيا وقد ليَّن الناقوس رفْقا وتأْنيسا
فقلنـا له آمنَّا فإنَّا عصـــابة أتينا لتَثْليث وإن شِيت تَسْديسا
وما قصدنا إلاَّ الكؤوس وإنما لُحْنا له فى القول خُبْثا وتدْليسا
ففتحت الأبواب بالرحب منهم وعـرَّس طـلاب المُدامة تَعْريسا
فلما رأى زقِّى أمـامى ومزْهـرى دعانى أتأْنيسا لحنْت وتَلْبيسا

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (ذوائبه) .

وقـام إلى دَنٍّ يفـضُّ ختـــامه ... فكبَّس(١) أجرام الغياهب تكبيسا
وطاف بهـا رطب البنـان مُزَنَّر ... فأبصرت عبدًا صيَّر الحرَّ مرؤوسا
سُلافا حواها القار لبسا فخلتها ... مثالا من الياقوت فى الحبْر مغموسا
إلى أن سَطا بالقوم سُلطان نومهم ... ورأس قبيل الشمع نُكِّس تنكيسا
وثبْتُ إليـه بالعنـاق فقال لى ... بحقِّ الهوى هَبْ لى من الضمِّ تَنفيسا
كتبتُ بدمع العين صفحة خَدِّه ... فطلَّس حبر الشعر كتبى تطليسا
فبيس الذى احتلنا وكدنا عليهم ... وبيس الذى قد أضمروا قبل ذا بيسا
فبتنـا يرانـا الله شرَّ عصــــابة ... نطيـع بعصيـان الشريعة إبليسا

وقال بديهة فى غزالة من النحاس على بِرْكة فى محل طلب منه ذلك فيه :

عنَّت لنا من وحش وجرةَ ظَبْية ... جاءت لورد الماء مِلءَ عِنانها
وأظنها إذا حدَّدت آذانهــا ... ريعت بِنا(٢) فتوقفت بمكانها
حيَّت بقرنى رأسها إذ لم نجد ... يوم اللقـاء تحية ببنـانها
حنَّت على النَّدمان من إفلاسهم ... فرمت قَضِيب لُجَيْنها لحَنانها
لله دَرُّ غزالة أبدت لنا ... دُرَّ الحِباب تصوغُه بلسانها

وفاته

فلِج فالتزم المنزل عندى لمكان فضله ، ووجوب حقِّه ، وقد كانت زوجُه توفيت ، وصَحِبه عليها وجدٌ شديد ، وحُزْنٌ مُلازم ، فلما ثقُل ، وقرُبت وفاته ، استدعانى ، وقد كان لسانُه لا يُبين القول ، وأملى على فيما وصانى به من مُهم أمره :

إذا متُّ فادفنِّى حِذاءَ حليلتى ... يُخالط عظمى فى التُّراب عظامها
ولا تدفنِّى فى البقِيع فإنَّـــنى ... أُريد إلى يوم الحساب التزامها
ورتب ضريحى كيفما شاء الهوى ... تكون أمامى أو أكون أمامها

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (فكيس تكييسا) .
(٢) هكذا فى النفح . وفى الإسكوريال (لنا) والأولى أرجح .

لعل إلٓه العرش يجبر صدعتى فيعلى مُقامى عنده ومَقامها

ومات فى ليلة الخامس والعشرين من عام ثلاثة وخمسين وسبعماية ، ودفَنْتُه عصره بباب إلبيرة حِذاءَ حَلِيلته كما عَهد ، رحمة الله عليه

يحيى بن عبد الكريم الشنتوفى[1]

من أهل الجزيرة الخضراء .

حاله

كان كاتباً ثِرثاراً ، أديباً لَوْذعيا ، كثير النظم والنثر . كتب عن أمير المسلمين أبى يوسف يعقوب ، وابنه أبى يعقوب ، واحتل معهم بظاهر غرناطة .

كتابته

كتب عن المذكور عندنزوله مُغازيا ومجاهدا بظاهر شَرِيش ما نصه :

أخونا الذى يسير بما يخلِّده بطون أوراق الدفاتر ، من مأْثور حميد المآثر ، ويتلقى ما يرِد عليه من قِبَلِنا من منشور حِزْب البشاير ، بمعاشر القبايل والعشاير ، ويفوِّق ما قَبسته المنن لأقلام وأفواه المحابر ، فى مراقب مراقى المنابر ، ويجمع لما وشتّه سحايب الخواطر ، من روْضات السَّجلاَّت فى النوادى والمحاضر ، الأمير الكذا ، أدام الله اهتزازه للأنباء السارة وارتياحه ، ونَعَّم بها أَرواحه ، ووصل بكل أرِجٍ من نسيم الجَذْل ، ومُبْهج من وسيم الأَمل ، غدوَه ورواحَه ، وأحبَّ به أرواحَه . سلام كريم عليكم ، ورحمة الله وبركاته . من أخيكم ، الذى لا يَتِمُّ بِشْره إلاَّ بأَخْذِكم منه بأَوْفى حظٍّ ، وأوفر نصيب ، ومُصافيكم الذى لا يَكْمُل سروره ، وبجمُل حبُوره ، حتى

(١) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (الشنوف) .

يكون لكم فيه سهم مُصِيب ، ومَرْعى خصيب ، الأمير يوسف ابن أمير المسلمين وناصر الدين يوسف بن عبد الحق .

أمّا بعد حمد الله مُحِق الحق بتَصعيده فوق النُّجوم ومُعليه ، ومُبطل الباطل بتصريبه تحت النجوم ومُذْليه ، ومطهِّر الأَرض من نجس دنَس الكفر وأَوْلِيه ، ضَرْبا بالمُرْهفات صبراً وطعنا بالمُشْفَعات دِراكا ، وجاعل بلاد الشِّرك الأَسار عُبَّاد الإفك ، بما نظمهم من سِلك المُلْك ، وبدَّدهم من هَتْك السِّتر ، بالفَتْك والسَّفك، حبائل لا يخرجون منها وأَشْراكا ، وخاذلِ من زلَّت عن السُّور قدمُه ، وخرجت من الدُّور ذِمَمه ، بأَن يُراق دمه ، ويُعدم وجوده وقِدَمه ، بلوغا لأَمان أماني الإيمان وإدراكا ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، ناظم فرايد الفرايد ، ومُنَضِّد عوايد المواعد ، بالظَّفر المنتظر بكل جاحد مُعاند ، قلايد لا تنْتثر وأسلاكا – وسالك مسالك الغزوات ، وناسِك مناسِك الخَلَوات ، ومُدرك مدارك قبول الدَّعوات ، إفْناءً لأَعداء الله وإهْلاكا : والرضا عن آله وصحبه ، المُرتَدِين بمننه ، المُهتدين بسُنَنِه ، فى إباحة حَرَم الحرُم ، وإزاحة ظُلم الظُّلم ، حنادس وأَحْلاكا ، القارعين بأَسيافهم أَصْلاب كِلاب الصُّلبان تباكا ، والقارعين أبواب ثَواب الرحمن نُسَّاكا ، وموالاة الدعاء لسيدنا ومولانا الوالد ، بتَخْليد السّعد المُساعد ، وإدارة الإرادة بعَضد من النَّصر وساعد ، مقادير كما يشاءُ وأفلاكا ، ومآلات آياته آيات ، هذه الرَّايات ، بإدراك نهايات الغايات ، فى اشتِباه أشياء ذوى الشَّايات ، فلا تذر فى الأَرض كُفرا ، ولا تدع فيها إشراكا . فكتبناه ، كتب الله لإخايكم الكريم أَرْفَع الدرجات عُلاً ، وأتمَّها تعظيما ، وفضلكم مع القعود عن الشهود بالنِّية التى لها أكرم ورود ، وأصدق وفود ، أجرا عظيما . من منزلنا بمخنَّق شَريش ، حيث الكَتايب

الهايلة هالّة بدُرها البادية الخُسوف ، والحُماة الكماة . أكمام زهرها الدّانى القُطوف ، وسِوار مِعْصمها النائِي عن العصمة مجرَّدات صفوف صنُوف السيوف. فالشِّفار بالأَحداق ، كالأَشفار بالأحداق إدارتها ، الطَّاقة بحيزومها نِطاقا ، والفتح قد لاحت مخَايِلُه ، وباحت مقاوِلُه ، والكُفر فلَّت مَناصِله وعُرِفت مَقاتِله ، والمُتْرف يتمنى أن يلقاه قاتلُه ، فلا يقاتله فَرَقًا ، لا يجدون له فِراقا فواقاً ، فحماتُها العُتاة لا يرون إلا سماءَ نقْع الكِفاح ، لَمِعًا متلاقيا وائتلافا ، وكُماتها لا يشربون إلاَّ من تحت دمِهم المُطهِّر بنَجسه وجه الأَرض ، المعدى به هريقُه من فيح حتْهم يوم العَرْض ، المودى بإراقته واجب الفرْض ، إعداداً لامتثال الأَمر الإلّهى واعتناقا .

ومن هذا الكتاب وهو طويل : ووَصَلْنا والخيل تَمْرح فى أَعَنَّتها تصلُّفا ، وتختال فى مَشْيها تغطْرُفا ، وتعضُّ على لُجُمها تحدُّقا وتحرُّفا ، كأَنها لم تَرْم قُصارى قُصور النصارى ، دون تصور عنها ، أغراضا وأهدافا ، ودون معاهدة العُيون وَصْف الواصف ، ولأَقلٌ مما احتوى عليه هذا الفتح، تهتزُّ المعاطف ، إذ الإيمان اهتزَّ إعطافا ، وتوشح به عطافا . وهل الكُتْبُ وإن طال ، نبذة من نُبَذ الفُتوح ، وفَلْذة من كبِد النَّصر المَمْنُوح ، وزهرةٌ من غُصن النَّدا المَروح ، أدنينا لإخايكم الكريم منه اقتطافاً ، والسلام .

شعره

مالىْ وللصبر عنى دونكم حَجَبا وطالما هزَّنى أُنْسِى لكم طَربا
فحين شبَّ النوى فى أضلعى لهبًا هزَزْتُ سيف اصْطِبارى بعدكم فَنبا
وقلت للقلب يَسْلو بعدكم فأَبا
غِبْتُم فغاب لذيذُ الأُنس والوسَن وخانَنِى جَلَدى فيكم فأَرَّقنى

ذكرى ليالينـا فى غفلـة الزمن فارقتمُونى وطيبُ العيش فارقنى
وصرتْ من بعدكم حيران مكتَئِبا

من لى بقُـرْبكم فى حِفْظ عهدكم فكم ظَفِرتُ بـه أيـام وُدِّكم
وكم جرى دمع أجفـانى لفقْدكم فلو بكيتُ دمًا من بُعــدكم
لم أقضِ من حقٍّ ذاك القُرب ما وَجَبا

لله أيامُنـا ما كان أجْمَلهـا أَوْزَعَت بـآخِرها شكرا[1] وأولهـا
من حُسْنـها لم أزل أصْبُو بها ولها يا صاح صبرًا على الأيـام إن لها
على تصاريفها من أمـرها عجبـا

صبراً على زمن يبديك شيمتـه إقبَلْ مساءته واحْمِد مسـرَّته
فما عسى يبلغ الإنسان مُنْيَتـه ومن كَرِهْت ومن أحْببت صحبته
لابد أن يَفقِد الإنسان من صحِبا

[قلت عجبا من الشيخ ابن الخطيب رحمه الله، فى ذكره هذا المترجم به فى ترجمة المُقْريين، مع تَحْليته له، ووصفه إياه بما وصفه من الكتابة والشِّعر، بل وإثباته له كتابته، وشعره، فكان حقُّه أن يكون فى ترجمة الكتَّاب والشعراء بعد هذه الترجمة][2] .

يوسف بن إبراهيم بن يوسف بن محمد بن قاسم بن على الفهرى

من أهل غرناطة، يكنى أبا الحجاج، ويعرف بالسَّاحلى .

حـاله

من « العايد»[3] : صدْرٌ فى حَمَلة القرآن، على وتِيرة الفضلاءِ وسُنن

(١) وردت فى الإسكوريال (سكرا) والتصويب من الزبتونة .
(٢) من الواضح أن هذه الفقرة التى وردت بين الحاصرتين، هى من عند مختصر المخطوط وناسخه
(٣) أى عائد الصلة . وهو من كتب ابن الخطيب .

الصالحين ، من لِين الجانب ، والعُكوف على الخير ، وبذل المعروف ، وحسن المشاركة ، والخُفُوف إلى الشّفاعة . أ ب الأُمراء ، وحَظِى بتَسْويدهم ، وناب فى الخطابة بالمسجد الأعظم من حمرايهم [1] ، وكان إماما به ، ذا هُدًى وسكينة ووقار . وحجّ ، ولقى المشايخ ، واعتنق الرواية والتّقييد ، فانتُفع بلقايه .

مشيخته

قرأ على الاستاذ العلامة أبى جعفر بن الزبير ببلده ، وعلى الشيخ الخطيب الصوفى أبى الحسن بن فضيلة ، وعلى الخطيب الصالح ، أبى جعفر بن الزيات ، والمحدّث الرّحال أبى عبد الله بن رُشيد . وأخذ فى رحلته عن جُملة ، كالخطيب الراوية ، أبى عبد الله محمد بن محمد ابن فُرتون ، وناصر الدين منصور بن أحمد المشدالى ، والأُستاذ أبى عبد الله ابن جعفر اليحصبى ، وقاضى الجماعة ببجاية الإمام أبى عبد الله بن يحيى الزواوى ، والفقيه المحدث أبى عبد الله محمد بن إبراهيم بن الحسن الشافعى . وأجازه سوى من تقدّم ذكره ، من أهل المشرق ، عبد الغفار ابن محمد الكلابى ، وحسن بن عمر بن على الكردى ، وعَتِيق بن عبد الرحمن ابن أبى الفتح العمرى ، ومحمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكنانى ، وعمر بن أبى بكر الوادى آشى ، وصالح بن عباس بن صالح بن أبى الفوارس الأسْعد الصدفى ، وأحمد بن محمد بن على الكنانى ، ومحمد بن أحمد ، وأحمد بن إسمعيل بن على بن محمد بن الحباب ، وأم الخير إبنة شرف الدين ابن الطباخ الصُّوفى . وقرأ ببلده غرناطة على الأُستاذ

---

(١) يريد قصور الحمراء دار ملك بنى نصر . وتقوم اليوم فوق موقع مسجد الحمراء الأعظم كنيسة سانتا ماريا .

أبي جعفر الطبّاع ، والشيخ أبي الحسن معن بن مؤمن ، وأبي محمد النبغدى ، وأبي الحسن البلوطى .

أنشدنا ، قال كتب إلىّ شيخنا محمد بن عتيق بن رشيق فى الاستدعاء الذى أجازنى ، ولمن سمّى فيه :

أجزتُ لهم أبقاهم الله كلما رويتُ عن الأشياخ فى سالف الدهر

وما سمعت أُذُناى عن كل عالِم وما جاد من نظمى وما راق من نثر

على شرط أصحاب الحديث وضَبْطهم برىءٌ من التَّصحيف عارٍ من النُّكر

وجدّى رشيق شاع فى الغرْب ذكره وفى الشَّرق أيضا فادْر إن كنت لا تدر

ولى مولدٌ من بعد عشرين حجة ثمان على السِّت المبين ابتدا عمرِ

وبالله توفيقى عليه توكلى له الحمد فى الحالتين فى العُسْر واليُسْر

حدثنى شيخنا أبو بكر بن الحكيم ، قال ، أصابتنى حُمّى ، فلما انصرفت عنى ، تركت فى شفتى بُثوراً على ، فزارنى الفقيه أبو الحجاج السّاحلى ، فأنشدنى :

حاشاك أن تمرض حاشاكا قد اشتكى قلبى لشَكْواكا

إن كنت محموما ضعيف القوى فإنّنى أحْسِد حُمّاكا

ما رَضِيت حُمَّاك إذ باشرت جسمك حتى قَبَّلت فاكا

مولده : عام سبعة وستين وستّماية .

وفاته : توفى رحمه الله بالحمراء العليّة ، فى السابع والعشرين لشهر رمضان من عام اثنين وخمسين وسبعماية .

ومن الكتاب والشعراء بين أصلي وغيره

يحيى بن محمد بن يوسف الأنصاري

يكنى أبا بكر ، ويُعرف بابن الصَّيرفي ، من أهل غرناطة .

حاله

كان نسيج وحده في البلاغة والجَزالة ، والتَّبريز في أُسلوب التاريخ ، والتملؤ من الأَدب ، والمعرفة باللغة والخَبَر . قال أبو القاسم ، من أهل المعرفة بالأَدب والعربية والفقه والتاريخ ، ومن الكتاب المجيدين والشعراء المطبوعين المكثرين . كتب بغرناطة عن الأَمير أبي محمد تاشفين ، وله فيه نظم حسن .

مشيخته

قرأ على شيوخ بلده ، وأخذ عن العالم الحافظ أبي بكر بن العربي ونمطه .

تواليفه

أَلّف في تاريخ الأَندلس كتابا سماه « الأَنوار الجَلِية في أخبار الدولة المرابطيَّة » ضمنه العُجاب إلى سنة ثلاثين وخمسماية . ثم وصله إلى قرب وفاته ، وكتابا آخر سماه « تقصي الأَنباء وسياسة الرؤساء » .

شعره

قال أنشدت الأَمير تاشفين في هلاك ابن رُذْمير[1] :

أشكو الغَليل بحيث المَشْرب الخضر ... حسبي وإلاَّ فورِدٌ ماله صَدَرُ

تجهَّمت لي وجوه الصبر مُنْكرة ... ولاحظتني عيونٌ حشوها حَذَر

---

(١) هذا الاسم يطابق في الرواية العربية على ألفونسو المحارب ملك أراجون . وقد سبق التعريف به (راجع المجلد الثاني من الإحاطة ص ١٢١ حاشية) .

إنى لأجْزَع من ذاك الوعيد وفى ملقى الأسنّة منّا مَعْشَرٌ صبر
فلّت سلاحى الليالى أىٌّ ظالمة ولو أعادَتْ شبابى كنتُ أنتصر
مُشَيِّعا كنت ما استصحبتُ من أمل كما يُشَيِّع سهمُ النّازع الوَتِر
فها أنا وعزيز فى ناميَة تسود فى عينه الأوْضاح والغُرَر
يا حىّ علوه فُتياكم بنازلة لم تنفصل يَمَنٌ عنها ولا مُضر
ما الحكم عندكم إذ نحن فى حُرم على جِناية رامٍ سَهْمُه النّظر
أرعانى الشّهب فى أحشاء لَيْلتها حمل من الصّبح أرجوه وانتظر
يفترّ عن بُرد من حوله لَهَبٌ أو عن نبات أقاح أرضُه سَقَر
وبين أجفانه نهيف الأمير أبى محمد تاشُفين أو هو القَدَر
سيفٌ به ثُلّ عرش الروم واطّادَتْ قواعد المُلْك واستولى به الظّفر
وأدرك الدين بالثّار المُنِيم على رغمٍ وجاءت صُروف الدهر تعْتذر
مُنًى تُنال وأيامٌ مُفَضّضة مُذْهَّبات العشايا لَيْلُها سَحَر
وفى الذّؤابة من صنْهاجة مَلِكٌ أغرٌّ أبلجُ يُسْتَسقى به المَطر
مؤيدٌ من أمير المسلمين له هوىً ورأىٌ ومن سيرٍ له سِير
أنحى على الجَور يمحو رَسْم أحْرُفه حتّى استجار بأحداق المَهَى الحَوَر
يا تاشُفين أما تنفَكُّ بادرة من راحتَيْك المنايا الحُمْر تبْتَدر
وكم ترنّح فى رَوْضٍ جَداوله بيضُ السيوف وملتفٌّ للقَنَى شجر
هى التّرايك فوق الهام لا حَبَبٌ والسّابغات على الأعْطاف لا القَدَر
لك الكتايب ملءُ البيد غازيةٌ إذا أتت زمرٌ منها مضت زُمَر
على ساكبها للنّقْع أرْدِية من تحتها جِلَق من تحتها زُبر
تدبٌّ منها إلى الأعداء سابلة عقاربُ مالها إلاّ القَنا إبَر
بعثتها أُسُدًا شَتّى إذا مَرجت جِنّ الوغا انقَضّ منها أنجمٌ زهر

يا أيها الملك الأعلى الذى سَجدت ... لسيْفه الهـام فى الهَيْجاء والقُصُر
أَعِزْ جِرار ضُلوعى بَرْدَ ما نهلت ... خيلُ الزُّبير ونار الحرب تَسْتعر
حيث الغُبار دخانٌ والظُّبا لهبٌ ... والأَسِنَّة فى هـام العِدا شُرر
والنَّقْع يطفو وبيضُ الهند راسية ... إن الصواعق يوم الغَيْم تَنْكدر
أَعْطى الزبيرُ فتى العلياء صارمَه ... لكن بسَعْدك ما لم يُعطِه عُمر
ولَّته أَظْهُرَها الأَبطـال خاضعة ... تَكْبُو وتصفعها الهندِيَّة البُتُر
بحر من الخلق المَسْرود مُلتَطمٌ ... يسيل من كل سيف نحوه نَصْر
أَمَّ ابنُ الزبير ابنَ رُذمير بداهية ... عضَّت ومسَّك من أظْفاره ظَفَر
لقد نفحت من النُّيجـان فى محم ... وأين من فَتَكات الضَّيغم النِّمر
لقد نجوتَ طليق الركض فى وَهَن ... من الأَسِنَّة حتى جاءك القـدر
خلعت دِرعا واعتَضْت الظَّلام بها ... وخاض بحرُ الوَغا مركوبَك الخطر

ومنها :

ما بال إنجيلك المتروك ما ذمرت ... نفوس قومك منه الآى والسُّور
أهديتهـا غير مشكور مُضمَّـرة ... ملءَ الأَعنَّة منهـا الزَّهو والأَسر
وظل طفلٌ من البولاد دانيـــة ... سمرا تُرْضِعه اللبَّات والثَّغر
وعابسُ المنـايا وهى ضـاحكة ... من خَدِّه بثغـورٍ زانها أَشـر
وكل حارسة فى الرَّوع لا بَسها ... منسوجةٌ من عيون ما لها نَظَـر
أعدت للحرب إنذارا سخوت بها ... على الرِّجال التى منها لهـا وِزر
قَضَتك من حِمير صيدٌ غطارفة ... فضُّ الرجاجة عوضَ الدهر ينجبر
ملثَّمون حياءً كلما سَفَرت لهم ... وجوه المنايا فى الوَغا سَفروا
جادوا بطعنٍ كأسماع المخاص ... إلى ضرب كمافَغَرت أفواهها الحُمُر
وحدْت عنـها محسبًا مُرَوَّعة ... فضمت بما مَجَّ فى أحشائك الذُّعر

فرّت إلى حتفها من حتفها فمضت ... والموت يطْرُدُها والموت ينتظر
قالوا نجا بذما النّفْس منك فما ... نجا وقد بَقرته الحية الذّكر
نوزّعت نفسا على جِشيّتها طنَبًا ... للوساوس يَحْدُو جيشُها السّهر
نصرٌ عزيز وفتحٌ ليس يَعْدله ... فتحٌ ولله فيه الحمد والشكر
فاهنأْ به ابن أمير المسلمين وَدُم ... للمُلْك ما قامت الآصال والبُكر
واهنأْ بعيدك وافخر شانئيك به ... فإنّها نُسْك الأسياف لا الجزر
جاورتُ بحرك تغشانى مواهبُه ... فمن بذاك ونَظْمى هذه الدُّرر (١)

وأنشد أيضا من شعره قوله رحمة الله عليه :

ركِبت خيْلها جيوشُ الضّلال ... وسُرّت من رِماحها بذُبال
ملقيات دُروعها لا لوقت ... فيه تَنْضُو الجلود رقش الصِّلال
حثّ فى إثرها الأمير بعُقْبان ... جيادٌ هَوَتْ بأُسْد رجال
فى صُقَيل البُريك تُحْدث للشمس ... بعكس الشُّعاع حُمّى اشتعال
لاث بالريح عِمّةً من غُبار ... ومشى للحديد فى أذْيال
كلما جرّها على الصّلد أبقت ... كخطوط الصِّلال فوق الرمال
لَبِست أمرها على الرُّوم حتى ... فَجِئتها كعادة الآجال
أبْدَلت هامها قِصار قُدُود ... بِطَوال من الرِّماح الطوال
والذى فرّ عن سيوفك أوْدَى ... بقَنا الرُّعب فى ثنايا الجبال
كنتَ فيها وأنت فى كل حرب ... مُغْمد النّصل فى طِلَى الأبطال
يطلع البدر منك حاجبَ شمس ... ويُرى الليث فى إهاب هِلال

(١) وردت فى المخطوط تحت هذه القصيدة الفقرة الآتية : « انتهى السفر الحادى عشر والحمد لله رب العالمين، يتلوه اختصار السفر الأخير وهو الثانى عشر ، المفتتح بقولى : ومن ترجمة الشعراء من السفر الأخير ، وهو الثانى عشر المفتتح بالترحمة بعد ، من ترجمة الكتاب والشعراء ، وأنشد أيضاً من شعره قوله رحمة الله عليه » . (لوحة ٤١٦)

يا لصَنْهاجة وحولك منهم ... خيرُ جيش عليهم خيرُ وال

ملكٌ ليس يركب الدهر إلاَّ ... كلَّ عالى الركاب عالى القَذال

ما عرا الجَدْبُ أو علا الخَطْبُ ... سال غَيْثًا ولاح بَدْرُ كمـال

وخفيفٌ على أُمور خِفـاف ... وثقيلٌ على أُمور ثِقـال

لاعَب المِعْطفين بالحمد زَهْوًا ... شيمةَ الرُّمح هزَّةٌ فى اعتدال

مُسْتَرِقٌ النفوس خوفا وحسنا ... إنما السيف هَيْبَةٌ فى جمال

شيمٌ كالغمام يَنْشُر فى الروض ... بأَنْدابه صِغـار اللَّآل

وسجايا تفتَّحت زهـرات ... وخلالٌ تسدٌّ كل اختـلال

أَنت ياتاشُفين والله واقٍ ... لك شخص العُلا ونفسُ الكمال

ليس آمال من على الأَرض إلاَّ ... أَن تُرى وأَنت غـاية الآمـال

وهنيًا بأَن نَهضْتَ وأَقبلتَ ... عزيزَ النُّهوض والإِقبـال

وعلى الكفر منك حرٌّ مُجيـر ... وعلى الدِّين منك بَرْدٌ ظِلال

يا فتى والزمان نُعْمَى وبؤسٌ ... شرٌّ حال أَفْضَت إلى خَيْر حال

وبما تجزع النفوس من الأَمر ... له فُـرْجةٌ كحلِّ العِقـال

رُبَّ أَشياءِ ليس يبلغ منهـا ... كُنْه ما فى النُّفوس بالأَقـوال

غير أَن الكلام إن جلَّ قـدرا ... وعلا كنتَ فوقه فى الفِعال

ومن شعره ، وقد بيَّت العدومحلة الأُمير تاشفين ، ويذكرحسن ثباته ، وقد أَسلمه قومه ، وهى من القصائد المفيدة ، المبدية فى الإِحسان المعيدة :

ياأَيهـا الملك الـذى يتقنَّـع ... من منكم البطل الهمام الأَرْوع

ومن الذى غدر العدوٌّ به دجىً ... فانفضَّ كلٌّ وهو لا يتزعـزع

تمضى الفوارس والطعـان يصدٌّها ... عنه ويزجرها[1] الوفاءُ فتـرجع

(١) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (يذخرها) والأول أرجح .

والليل من وضح التَّرايك والظُّبا   صبح على هام الكماة ممنَّع

عن أربعين ثَنتْ أعنَّتها دُجًى   ألفان ألفٌ حاسر ومقنَّع

لولا رجال كالجبال تعرَّضت   ما كان ذاك السيل مما يُرْدع

يتقحَّمون على الرماح كأنَّهم   إبلٌ عطاش والأسنة تكرع

ومن الدُّجى لهم على قمم الرُّبى   وذؤابة بين الظُّبا تتقطع

نَصَرتْ ظلام الكُفْر ظُلمة ليلة   لم يدر فيها الفجر أين المطلع

لولا ثبوتك تاشُفِين لغادرت   أخرى الليالى وهَيْبَةٌ لا تُرقَع

فثبتٌ والأقدام تزْلق والردى   حول السُّرادق والأسِنَّة تقرع

لا تعظُمَنَّ على الأمير فإنها   خِدَع الحروب وكل حرب تَخْدع

ولكل يوم حَنْكة وتمرُّس   وتجارب فى مثل نفسك تَنْجع

يا أشجع الشجعان ليلة أمْسِه   اليوم أنت على التجارب أشجع

أهديك من أدب الوَغا حِكَمًا بها   كانت ملوك الحرب مثلك تُولع

لا أننى أدرى بها لكنها   ذكرى تخُصُّ المؤمنين وتَنْفع

اختر من الخلق المضاعفة التى   وصَّى بها صُنْع السَّوابغ تبَّع

والهند وانى الرفيق فإنه   أمضى على حلْق الدلاص وأقطع

ومن الرواجل[1] ما إذا زعزعته   أعطاك هزَّة مِعطفيه الأشجع

ومن الجياد الجُرْد كل مُضَمَّر   تُنْجى بأرْبعه الرياح الأربع

والصَّمَّة[2] البطل الذى لا يلتوى   منه الصَّليب ولا يلين الأخْدَع

وكذاك قدرٌ فى العدو حزامة   فالنَّبع بالنَّبع المُثَقَّف يَقْرع

خندقٌ عليك إذا اضطربت محلَّة   سيَّان تَتْبع ظافرا أو تتبَع

واجعل ببابك[3] فى الثِّقات ومن له   قلبٌ على هول الحروب مُشيَّع

(١) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (النعابل) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الصامت) .

(٣) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (بنائك) وهو تحريف .

وتوقَّ من كاذِب الطلايع إنَّه لا رأى للمكذوب فيها يصْنع

فإذا احْتَرست[١] بذاك لم يَكُ للعـدا فى فرصةٍ أو فى انتهـازٍ مطمع

حارب بمن يخشى عقابك بالذى يخشى ومن فى جُود كفِّك يَطْمع

قبل التَّناوش عبِّ جيشك مُفْحصا حيث التمكّن والمجال الأوسع

إياك تَعْبية الجيوش مضيِّـقا والخيل تَفْحص بالرجـال وتَمْرع

حصِّن حواشيها وكن فى قلبهـا واجعل أمامك منهم من يُشْجع

والبس لُبوسا لا يكون مشهَّرا فيكون نحـوك للعدوِّ تطلعُّ

واحتلَّ لتوقع فى مُضايقة الوَغى خِدَعًا ترويهـا وأنت مُوَسِّـع

واحذر[٢] كمين الرُّوم عند لقائها واقضِ كمينك خَلْفها إذ تدفع

لا تُبْقِين[٣] النهر خلفك عندما تلقى العـدوَّ فأمْرُه[٤] متوقَّـع

واجعل مناجَزة العـدو عشـيَّة ووراءَ الصدف الذى هو أمْنَع

واصْدِمْه أول وهلـة لا تَرْتدع بعد التقدم فالنُّكول يُضَعْضِع

وإذا تكاثفت الرجـال بمعركٍ ضَنْكٍ فأطراف الرِّماح توسع

حتى إذا استَنْعصت عليك ولم يكن الاَّ شِماس دايم وتمنُّـع

ورأيت نار الحرب تُضرم بالظُّبا ودخانها فوق الأسِنَّة يَسْـطع

ومضت تؤذِّن بالصَّميل جيادها والهام تَسْجُد والصَّـوارم تركع

والرمح يُثنى معْطفيـه كأنَّه فى الرَّاح لا عِلْق الفوارس يكرع

والريح تنشأ سَجْسَجًا هفَّافة[٥] وهى السَّكينة عن يمينك توضع

---

(١) هذه الكلمة واردة فى الزيتونة . وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) هكذا فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (واقدر) والاولى أرجح

(٣) هكذا وردت فى الحلل الموشية .وفى الإسكوريال والزيتونة . (بلقين) . والإولى أنسب للمعنى والسياق .

(٤) هكذا فى المخطوطين . وفى الحلل الموشية (فنشره) .

(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (حبابة) .

أقصر الكمين على العدوّ فإنه … يعطيك من أكتافه ما يمنع

وإذا هزمتَ عِداك فاحذر كرَّها … واضرب وجوه كُماتها إذ ترجع

وهى الحروب قُوى النّفوس وحزبها … من قوّة الأبدان فيها أنفع

ثم انْتَهض بجميع من أحمدته … حتّى يكون لك المحلُّ الأرفع

وبذاك تَعْتِب إن تولّت عصبة … كانت تُرفّه الوغَى وترفّع

من مَعْشَرٍ إعراض وجهك عنهم … فعلُ الجميل وسُخطك المتوقَّع

يكبو الجواد وكل حَبْر عالم … يهفو وتَنْبُو المُرْهفات القُطَّع

أنَّى فرعْتُم يابنى صَنْهاجة … وإليكم فى الرّوع كان المَفْزِع

ما أنتم إلا أُسودٌ حفيّة … كلٌّ بكل عظيمة تُسْتَطلع

ما بال سيدكم تورّط لم يكن … لكم التفات نحوه وتجمّع

إنسان عين لم يصبه منكم … جفنٌ وقلبٌ أسْلَمته الأضلع

تلك التى جرّت عليكم خُطّةً … شنْعاء وهى على رجال أشنع

أو ما ليوسف جَدّه مِننٌ على … كلٌّ وفضل سابق لا يُرفع

أو ما لوالده علىٌّ نعمة … وبكل جيد رِبْقَةٌ لا تُخلع

ولكم بمجلس تاشفين كرامةٌ … وشفيعُكم فيما يشاءُ مُشَفَّع

ألا رعيْتَم ذاك وأحسابكم … وأنِفْتُم من قالة تُسْتَشْنَع

أبطأْتم عن تاشفين ولم يزل … إحسانه لجميعكم يتسرّع

رُدَّت مكارمه لكم وتوطّأت … أكنافه إن الكريم سَمَيْدع

خاف العِدى لكن عليكم مُشْفِقا … فهجعتم وجفونه لا تَهْجع

ومن العجايب أنه مع سنِّه … أدْرَى وأشهر فى الخطوب وأضلع

ولقد عفا والعفو منه سجيّةٌ … ولسطوةٍ لو شاء فيكم مَوْضع

يا تاشفين أقم لجيشك عُذْره … فالليل والقَدَر الذى لا يُدفع

هجم العدو دُجًى فروَّع مُقبِــلا ... ومضى يَهيم وهو منك مروَّع
لا يزدهى إلاَّ ســواك بهــــا ... ولا إلاَّ لغــيرك بالسَّنان يَقَنْقع
لما سَدَدْت لــه الثَّنيَّة لم يــكن ... إلا على ظهـر المَنِيَّة مَهْيــع
وكذاك للعِير[1] إقــــدام على ... أسْد العَـرين الوُرْد مما يجـزع
ولقد تقفــاها الزبير وقد نجت ... إلاَّ فلولا وإنَّ منـــه المَصْـرع
وغدا يعاقب والنفـوس حميَّــة ... والسُّمر هيمٌ والصَّــوارم جُــوَّع
أعْطِش سلاحك ثم أوْرِدها الوَغا ... كيما يلذُّ لها ويصفو المَشْرع
كم وقعةٍ لك فى ديارهم انثنت ... عنها أعزَّتُهـا تُذَل وتَخْضَــع
النِّعمة العظمى سلامتك الــتى ... فيها من الظَّفَر الرِّضى والمقْنَع
لا ضيَّع الرحمن سَعْيك إنـــه ... سعىٌ به الإسلام ليس يُضَـيَّع
نستحفظ الرحمن منــك وديعةً ... فهو الحفيظ لــكل ما يُسْتَودع[2]

وفاته : بغرناطة فى حدود السبعين وخمسماية

ومن ترجمة الشعراء من السفر الأخير
وهو الثانى عشر المفتتح بالترجمة بعد[3]
يحيى بن محمد بن أحمد بن عبد السلام التطيلى الهذلى

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونه (للعين) .

(٢) نظم ابن الصير فى هذه القصيدة الرنانة فى مدح الأمير تاشفين بن أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين المرابطى والإشادة بأعماله الحربية ووقائعه المظفره فى الأندلس ، وقد أخباره والده ولايتها منذ سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦م) . وكانت غرناطة يومئذ هى مركز الحكم المرابطى . وكان ابن الصيرفى الكاتب والمؤرخ ، وهو من أهل غرناطة، من كتاب الأمير تاشفين . وقد قام الأمير تاشفين خلال حكمه بغزوات عديدة فى أراضى قشالة ، وخاض مع القشتاليين عدة وقائع مظفرة .

(٣) ورد هذا العنوان فى رأس اللوحة(418)إسكوريال فى منتصف ترجمة ابن الصيرفى ، فرأينا إثباته هنا بعد إختتامها .

أصله من تُطيلة ، وهو غرناطى ، يكنى أبا بكر .

حاله

قال أبو القاسم المَلاَّحى ، أَديبُ زمانه ، وواحد أقرانه ، سيال القريحة ، بارع الأَدب ، رائق الشعر ، عَلَم فى النحو واللغة والتاريخ والعَروض ، وأَخبار الأُمم ، لحق بالفحول المتقدِّمين ، وأَعجزت براعته ، براعة المتأَخرين ، وشعره مُدَوَّن ، جرى فى ذلك كله طلِق الجُموح . ثم انقبض ، وعكف على قراءة القرآن ، وقيام الليل ، وسرد الصوم ، وصُنع المُعَشَّرات فى شرف النبى عليه الصلاة والسلام . وأَشعاره كثيرة ، من الزهد والتذكير للآخرة ، والتَّجريد من الدنيا ، حتى جُمع له من ذلك ديوان كبير .

شعره

من ذلك قوله من قصيدة :

أَذوب حياءً إن تذكَّرت زلَّتى ... وحِلْمُك حتى ما أَقلَّ نواظرى
وأَسكت مغلوبا وأَطرق خَجْلة ... على مثل أَطراف القنا والتَّواتُر
تعود بصفح إثر صفح تكرُّما ... على الذنب بعد الذنب ياخيْر غافر
وتلحظُنى بالعفو أثناءَ زلَّتى ... وتنظر منى فى خلال جَـرايِر
وحقِّ هواك المُسْتَكِنِّ بأَضْلُعى ... ومالك عندى من خَفىٍّ ضمائر
لما قُمْتُ بالمعْشار من عُشر عشرة ... ولو جيتُ فيه بالنجوم الزَّواهر
فيا أَيها المولى الصَّفوح ومن به ... تَنُوءُ احتمالاتى بأَعباء شاكر
أَنِلنى من برْد اليقين صبابةً ... أَلفُّ بها حدَّ الهوى والهواجر
وخِلت الدُّجى عذراً هابت سُرى ... العِدا إلىَّ تُنطِّينى بسود الغدائر
وخافت على عينى من السُّهد والبكا ... فذرَّت بقايا الكُحل من جَفْن ساهر

وقال رادًّا على ابن رشد حين ردّ على أبي حامد فى كتابه المسمى « تهافت التهافت »

كلام ابن رشد لا يَبين رشـاده هو اللّيل يَغْشى الناظرين سواده
ولا سيما نقض التهافت إنـه تضمَّن برساما يعزّ اعتقـاده
كما لطرد المحموم فى هذيانـه يَفوه بما يُملى عليـه اخْتِداده
أتى فيه بالبَهْت الصَّـريح مغالطا فما غير البحر الخضمِّ ثماده
وحاول إخفاء الغـزالة بالسُّها فأَخْفَق مسعاه ورُدَّ اعتقـاده
دلايل تعطيك النَّقيضين بالسَّوى وأكثر ما لا يستحيل عنـاده
إذا أوضح المطلوب منهـا وضدَّه يبين على قربٍ وبان انفـراده
وأنت بعيـد الفـكر عن تُرَّهاته فمعظمها رأىٌ يقـلُّ سداده

ومن شعره :

إليك بسطت الكفَّ فى فحمة الدجى نداءُ غريق فى الذنوب عريـق
رجاك ضميرى كى تخلِّص جُمْلتى فكم من فريقٍ شافعٍ لفريـق

مشيخته

أخذ عن أبيه أبى عبد الله ، وحدَّث عن الأُستاذ أبى الحسن جابر بن محمد التميمى ، وعن الأُستاذ المُقرى ببلنسية أبى محمد عبد الله بن سعدون التميمى الضرير ، عن أبى داود المقرى . وقرأ أيضاً على الخطيب أبى عبد الله محمد بن عروس ، وعلى القاضى العالم أبى الوليد بن رشد .

مولده : فجر يوم الثلاثاء الخامس والعشرين لمحرم تسعة وخمسين وخمسماية .

وفاته : بغرناطة عام تسعة وعشرين وستمايه .

يحيى بن بقى

من أهل وادى آش:

حاله

بارع الأدب، سيَّال القريحة، كثير الشعر جيِّده فى جميع أنواعه. وكان مع ذلك موصوفا بغفلة.

شعره

بأبى غزال غازَلَتْه مُقْلتى   بين العذَيب وبين شَطَّى بارق
وسألت منه قُبْلة تُشْفى الجوى   فأجاب عنها بوعد صادق
وأتيت منزله وقد هَجع العِدا   أسْرى إليه كالخيال الطَّارق
بِتْنا ونحن من الدُّجى فى لُجَّة   ومن النجوم الزُّهر تحت سُرادق
عاطيته والليل يسحب ذيله   صبًّا كالمسك العتيق لناشق
حتى إذا ما مالت به سِنةُ الكرى   باعدته شيئا وكان معانِقِ
أبعدته من أضلع تشتاقه   كى لا ينام على وسادٍ خافق
وضممتُه ضمَّ الكمِىِّ لسيفه   وذؤابتاه حمايل فى عاتِق
لما رأيت الليل ولَّى عمره قد   شاب فى لِمَم لـه ومَفارِق
ودَّعت من أهوى وقلت تأسُّفا   أعْزِز علىَّ بأن أراك مُفارق

وفاته: توفى بمدينة وادى آش سنة أربعين وخمسماية.

يحيى بن عبد الجليل بن عبد الرحمن بن مجير الفهرى

فرنشى، وقال صفوان إنه بَلِيى، يكنى أبا بكر.

حاله

قال ابن عبد الملك، كان فى وقته شاعر المغرب، لم يكن يجرى

أحد مجراه ، من فحول الشعراء . يعترف له بذلك أكابر الأُدباء ، وتشهد له بقوة عارضته وسلامة طبعه . قصائده التى صارت مثالا ، وبعُدت على قربها منالا . وشعره كثير مدوَّن ، ويشتمل على أكثر من سبعة آلاف بيت وأربعمائة بيت . امتدح الأُمراء والرؤساء ، وكتب عن بعضهم ، وحظِى عندهم حُظوة تامة ، واتصل بالأَمير أبى عبد الله بن سعد[1] ، وله فيه أمداح كثيرة . وبعد موته انتقل إلى إشبيلية ، وبملازمته للأَمير المذكور ، وكونه فى جملته ، استحق الذكر فيمن حل بغرناطة . ومن أثَرته لدى ملوك[2] مراكش ، أنه أنشد يوسف بن عبد المؤمن يهنِّيه بفتح من قصيدة :

إنَّ خير الفتوح ما جاءت عفْوا   مثل ما يخطب البليغ ارتجالا

قالوا ، وكان أبو العباس الجراوى الأَعمى الشاعر حاضراً ، فقطع عليه ، لحسادة وجدها ، فقال يا سيدنا اهتدم فيه بيت ابن وضَّاح :

خيرُ شراب ما جاء عفوا   كأَنــه خُطــبة ارتجال

فبدر المنصور ، وهو حينئذ وزير أبيه ، وسنه فى حدود العشرين من عمره ، فقال إن كان قد اهتدمه ، فقد استحقَّه لنقله إياه من معنًى خسيس إلى معنى شريف ، فسُرَّ أبوه لجوابه ، وعجب منه الحاضرون .

ومرَّ المنصور أيام إمرته بلوقية[3] من أرض شِلب ، ووقف على قبر أبى محمد بن حزم ، وقال عجبا لهذا الموضع ، يخرج منه مثل هذا العالم .

---

(١) هو الأمير محمد بن سعد بن مردنيش . أمير بلنسية وأمير الشرق المتوفى سنة ٥٦٧هـ (١١٧٢م) . وقد سبق التعريف به وترجم له ابن الخطيب فى المجلد الثانى (ص ١٢١ – ١٢٧) .

(٢) هذا التعبير فيه تجاوز . لأنه لم يكن بالمغرب يومئذ ملوك ، وإنما كان ثمة خلفاء الموحدين .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال والزيتونة . وهو إما تحريف ، وإما أن ابن الخطيب قد وهم فى ذكر اسم الموضع الذى دفن به العلامة ابن حزم . فهذا الموضع هو قرية أسرته المسماة منت ليشم وبالإسبانية Casa Montejo من أعمال مدينة لبلة بولاية الغرب ، وليس من أعمال شلب التى تبعد عنها غربا بمسافة كبيرة .

ثم قال ، كلٌّ العلماء عيال على ابن حزم . ثم رفع رأسه ، وقال ، كما أن الشعراء عيال عليك يا أبا بكر ، يخاطب ابن مجير .

شعره

من شعره يصف الخيل [العتاق][1] من قصيدة فى مدح المنصور :

له خُطَّت الخيلُ العِتاق كأنها نشاوى تهادت تطلب العَزْف والقصفة[2]

عرايسُ أغنَتها الحجول عن الحُلا فلم تَبْغ خُلخالا ولا التمست وقفا

فمن يَقَق كالطِّرس تحسب أنه وإن جرَّدوه فى ملاءته التفَّا

وأبلَق أعطى الليل نصف إهابه وغار عليه الصبح فاحْتَبس النِّصفا

وَوَرْدٌ تغشى جلده شفقُ الدُّجى فإذا حازه حلَّى له الذَّيل والعُرْفا

وأشقرُ مجَّ الراح صِرفاً أديمه وأصفرُ لم يسمح بها جلده صِرفا

وأشهبُ فِضِّى الأديم مُدنَّر عليه خُطوط غيرُ مُفْهِمةٍ حَرْفا

كما خطر الزاهى بمُهْرَق كاتب يجر عليه ذيله وهو ما جرفا

تهبُّ على الأعداء منها عواصف تَنْسِف أرض المشركين بها نَسْفا

ترى كل طِرف كالغزال فتمترى أظبياً ترى تحت العَجاجة أم طَرْفا

وقد كان فى البَيْداء يألف سِربه فربَّته مُهرًا وهى تَحْسَبه خِشْفا

تناوله لفظُ الجواد لأنه متى ما أردت الجَرْى أعطاكه ضعفا

ولما اتخذ المنصور ستارة المقصورة بجامعه ، وكانت مَنْبُرة على انتصابها ، إذا استقر المنصور ووزراؤه بمصلاه ، واختفائها إذا انفصلوا عنها ، أنشد فى ذلك الشعراء ، فقال من قصيدة أولها :

أعْلَمتنى أُلقى عصا التَّسيار فى بلدة ليست بدار قرار

---

(١) هذه الكلمة واردة فى الزيتونة وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) هكذا وردت هذه الشطرة فى الإسكوريال . ووردت فى الزيتونة كالآتى : تطارحت تطلب ذالقصف والقفا .

ومنها فى وصف المقصورة :

طورا تكون بمن حَوَتْه محيطةً ... فكأنَّها سورٌ من الأَسوار

وتكون حيناً عنهم مخبُوءَةً ... فكأنَّها سرٌّ من الأَســرار

وكأَنَّما عَلِمت مقادير الوَرى ... فتصرَّفت لهم على مقدار

فإذا أَحسَّت بالإمام يزورها ... فى قَوْمه قامت إلى الزوَّار

ويكفى من شعر ابن مُجير هذا القدر العجيب رحمه الله .

من روى عنه

حدَّث عنه أبو بكر محمد بن محمد بن جُمهور ، وأبو الحسن بن الفضل ، وأبو عبد الله بن عيَّاش ، وأبو على الشَّلوبين ، وأبو القاسم بن أحمد ابن حسان ، وأبو المتوكل الهيثم ، وجماعة .

وفاته : توفى بمراكش سنة ثمان وثمانين وخمسماية ، وسنه ثلاث وخمسون سنة .

يوسف بن محمد بن محمد اليحصبي اللوشي ، أبو عمر

حـاله

من كتاب ابن مسعدة[1] ، خطيب الإمامة السَّعيدة النَّصرية الغالبية ، وصاحب قلمها الأَعلى . كان شيخا جليلا ، فقيهاً ، بارع الكتابة ، ماهر الخُطَّة ، خطيباً مِصْقعا ، منقطع القرين فى عصره ، منفردا عن النَّظير فى مِصْره ، عزيزاً ، أنوفا ، فاضلا ، صالحا ، خيِّرا ، شريف النفس ، منقبضا ، وقورا ، صموتا ، حسن المعاشرة ، طيب المحادثة .

---

(١) هو أحمد بن محمد بن سعد بن مسعدة المتوفى سنة ٦٩٩ هـ . وكتابه المشار إليه هو « تاريخ قومه وقرابته » . وقد ترجم له ابن الخطيب فى المجلد الأول من « الإحاطة » (ص ١٩٢ - ١٦٦) .

مشيخته

حدّث عن والده الشيخ الراوية أبي عبد الله ، وعن الأُستاذ ابن يربوع.
ولقى بإشبيلية الأُستاذ أبا الحسن الدبّاج ، ورئيس النحاة أبا على الشّلوبين وغيرهم .

شعره

ومن شعره ، وإن كان غير كثير ، قوله :

شرّد النوم عن جفونك وانظر ‏ ‏ ‏ ‏ كلمةً توقظ النفوس النِّياما
فحرام على امرىءٍ يشاهد ‏ ‏ ‏ ‏ حكمة الله أن يلذّ المناما

وقوله :

ليس للمرء اختيار فى الذى ‏ ‏ ‏ ‏ يتمنّى من حِراك وسكون
إنما الأمر لربٍّ واحد ‏ ‏ ‏ ‏ إن يشاء قال له كن فيكون

وفاته : توفى فى المحرم من عام ستين وستماية ، ودفن بمقبرة باب إلبيرة . وحضر جنازته الخاصة والعامة ، السلطان فمن دونه ، وكلٌّ ترحّم عليه ، وتفجع له . حدثنى حافده شيخنا ، قال ، أخرج الغالب بالله، يوم وفاته ، جبّة له ، لِبِسَته مرقوعة ، من ملف أبيض اللون ، مخشوشنة ، زعم أنها من قديم مكسبه من ثمن مغنم ناله ، قبل تصيُّر الملك إليه ، أمر بِبَيْعِها ، وتجهيزِه من ثمنها ، ففعل ، وفى هذا ما لا ما مزيد عليه من الصّحة والسلامة ، وجميل العهد ، رحم الله جميعهم .

يوسف بن على الطرطوشى ، يكنى أبا الحجاج

حـاله

من « العايد » : كان رحمه الله من أهل الفضل والتواضع ، وحسن

العشرة ، مليح الدُّعابة ، عذب الفكاهة ، مُدِلاً على الأَدب جدّه وهزله ، حسن الخط ، سلس الكتابة ، جيّد الشعر ، له مشاركة فى الفقه ، وقيام على الفرايض . كتب بالدار السلطانية ، وامتدح الملوك بها ، ثم توجه إلى العُدْوة ، فصحب خُطة القضاء ، عمره : مشكور السيرة ، محفوفا بالمبَرَّة .

وجرى ذكره فى « الإكليل » بما نصه : روض أدب لا تعرف الدَّواة أزهاره ، ومجموع فضل لا تَخْفى آثاره ، كان فى فنون الأَدب ، مطلق الأَعنَّة ، وفى معاركه ماضى الظُّبا والأَسنة . فإن هَزل ، وإلى تلك الطريقة اعتزل ، أبرم فى الغزال ما غزل ، وبذل من دنان راحته ما بذل . وإن صرف إلى المُعْرب غرْب لسانه ، وأعاره لمحة من إحسانه ، أطاعه عاصيه ، واستجمعت لديه أقاصيه : وَرَدَ على الحضرة الأَندلسية ، والدنيا شابَّة ، وريح القبول هابَّة ، فاجتلى محاسن أوطانها ، وكتب عن سلطانها . ثم كرَّ إلى وطنه وعطف ، وأسرع اللحاق كالبارق إذا خطف ، وتوفى عن سن عالية ، وبرود من العمر بالية .

ومن شعره أيام حلوله بهذه البلاد ، قوله ، يمدح الوزير ابن الحكيم ، ويلم بذكر السِّلم فى أيامه :

رضاكم إن مننْتم خيرُ مرهوب ... وما سوى هجركم عندى بموهوب

لكم كما شيتم العُتْبى وعَتْبكُم ... مقابل الرضا من غير تثريب

مُنُّــوا بلحظ رضىً لى ســاعة ... فعسى أنال منه لدهرى طبَّ مطبوب

فكم أثارت لى الأَيام وابتسمت ... ثغور سعْدى بتقريب فتقريب

قد كنَّ بيضاً رعابيبا بقربكم ... والآن يوصفْن بالسُّود الغرابيب

آها لدهر تقضَّى لى ببســاكم ... مرتَّبٌ للأَمــانى أىَّ ترتيب

ما كان إلاَّ كأحلام سررت بها ... فواصلت حال تقويض بتَطنيب
يا ليت شعرى هل تقضى بعودته ... فأقدر الحُسْن منه بعد تَجْريب

ومنها :

يا أيها السيد الأعلى الذى يده حازَتْ ... ندى السُّحب مسكوبا بمسْكوب
فلو سألنا بلاد الله عن كرم ... فيها لكفَّيه والأنواءُ منسوب
لقُلْن إن كان جودٌ لا يضاف لذى ... الوزارتين فجودٌ غير محسوب
فالعُود جنسٌ ولكن فى إضافته ... للهند يختصُّ عود الهند بالطِّيب
من سيِّد لا يُوفِّى الحمدُ واجبه ... ولو تواصل مكتوبا بمكتوب
له المحامد لا تُحصى ولا عجب ... فرمل عالج شيٌّ غير محسوب
تناول الشَّرف الأقصى بعزمة ذى ... ظن نبيل الأمانى غير مكذوب
وواصل المجد من آبائه شرفا ... بمجده وصلُ أنبوب بأُنبوب
وجاء مكتسباً أغلَى ذخائره ... والمجد ما بين موروث ومكْسُوب
رِدْءُ الخليفة لا يرتاح من نصب ... فى بذل نُصح لحفظ مَنْصوب
موفَّقُ الرأى مأمون النَّقيبة فى ... تدبير ذى حُنْكة صحَّت وتدريب
تهابه النفس إذ ترجوه من شرف ... فشأنه بين مَرْهوب ومرْغوب

ومنها :

ياأوْحَد العصر فى فضل وفى كرم ... خصالُ قاطع دهره فى التَّجاريب
أعِدْ فُديت لأمرى مُنْعما نظراً ... يَنَلْ به همٌّ حالى بعض تشبيب
لولا ارتكاب حسُودى لأمر فى ضررى ... ما كان ظهر النَّوى عندى بمركوب
هذا زمانى ومنك الأمن حاربنى ... حتى أرانى فى حالات مَحْرُوب
فامنُنْ بتفريج كَرْبى بالرضا ... فإذا رَضِيت لم أك من شىء بمكْروب
إن لم أذُق من رضاكم ما ألذُّ به ... فلا حياة بمأكول ومشروب

ومن شعر :

بذكرك تُشرح آى العــلا   وتسند اخباره فى الصحيح
بـأُفقك يشرق بَدْرُ السّـنا   وباسمك يحسُن نظمُ المديح
وما يحسن العِقْد إلا إذا   تحلّت به ذاتُ وجه مليح

وفاته : كان حيًّا عام أحد وأربعين وسبعماية .

ومن ترجمة المحدّثين والفقهاء وسائر الطلبة النجباء

يحيى بن محمد بن عبد العزيز بن على الأنصارى

يكنى أبا بكر ، ويعرف بالعشّاب ، ويعرف بالبُرشانى[1] .

حــاله

كان هذا الشيخ من أهل الخير ، كثير التؤدة والصمت ، معرضا عمًّا لا يعنيه . رحل إلى الحج ، وأقام هنالك سنين ، وقفل منها فخطب بـأُرْجبة[2] . وأخذ ببلاد المشرق عن قطب الدين القَسْطلّانى ، وأبى الفضل ابن خطيب المرى ، وزين الدين أبى بكر محمد بن اسماعيل الأنماطى . ولقى أبا على بن الأَحْوص بالأندلس ولم يـأْخذ عنه . أنشدنى شيخنا أبو البركات ، قال أنشدنى الشيخ أبو بكر البُرشانى ، وقد لقيته بـأُرجبة . قال أنشدنا الإمام أبو عبد الله بن النعمان عن قطب الدين :

إذا كان أُنسى فى لزومى وحدتى   وقلبى من كل البريّة خــال
فما ضرّنى من كان لى الدهر قالياً   وما سرّنى من كان فىَّ مُـوال

---

(١) البرشانى نسبة إلى برشانة وبالإسبانة Purchena بلدة من أعمال إقليم المرية تقع على مقربة من جنوبى نهر المنصورة شمالى المرية وغرب بلدة المنصورة .

(٢) أرجبة وبالإسبانية Orjiva بلدة صغيرة من أعمال غرناطة تقع شمال ثغر متريل وجنوب شرق غرناطة .

ومن العمال

يوسف بن رضوان بن يوسف بن رضوان بن يوسف بن رضوان بن يوسف بن رضوان بن محمد بن خير بن أسامة الأنصارى النجارى

قال القاضى المؤرخ أبو الحسن بن الحسن مَمليه ، والذى رفع إلىَّ هذا النسب للركانة ، هو صاحبنا الفقيه أبو القاسم ولده ، ورَفْعُ هذا النسب بحاله من التكرار دليل على أصالته .

حاله

من أهل الخير والخُصوصية ، وحُسن الرُّواءِ والوقار ، والحياء ، والمودة . نبيه القدر ، معروف الأمانة ، صدرٌ فى أهل العقد والحل ببلده ، بيته بيت صون وخير واستعمال ، ولو لم يكن من بركات هذا الرجل ، وآثار فضله ، إلا ابنه صدر الفضلاء ، وبقية الخواص أبو القاسم ، لكفاه . تولى قيادة الديون بمالقة بلده ، أرفع الخطط الشرعية العملية ، فحمدت سيرته .

وفاته بمالقة فى .... وعلى قبره مكتوب من نظم ولده :

إلاهى خدِّى فى التراب تذللاً بسطتُ عسى رحماك يحيي بها الروح

وجاوزت أجداث الممالك خاضعاً وقلبىَ مصدُوع ودمعىَ مسفوح

ووجَّهت وجهى نحو جُودك ضارعاً لعلَّ الرضا من جنب حلمك ممنوح

أتيت فقيرا والذنوب تؤدُنى وفى القلب من خوف الجرايم تبريح

ولم أعتمد إلا الرَّجا وسيلة وإخلاص إيمان به الصدر مَشْرُوح

وأنت غنىٌّ عن عذابى وعالم بفقرى وباب العفو عندك مفتوح

فهب لى عفواً من لدنك ورحمةً يكون بها من ربْقة الذنب تسْريح

وصلٌ على المختـار ما هَمع الحيا   وما طلعت شمس وما هَبَّتْ الريح

ومن ترجمة الزهاد والصلحاء

يحيى بن إبراهيم بن يحيى البرغواطى

من أهل أنْفا من بيت عمال يعرفون ببنى التُّرجمان أولى [شهرة][1] وشدَّة على الناس وضغط . وكان من الحظوة وضدها بباب سلطانهم ، ديدن الجُباة . غُرِّب عنهم وانقطع إلى لقاء الصالحين ، وصحبة الفقراء المتجرِّدين ، وقدم على الأندلس عابدا ، كثير العمل ، على حداثة سنه ، ونزل برباط السُّودان ، من خارج مالقة ، واشتهر ، وانثال عليه الناس . ثم راض طول ذلك الاجتهاد ، وأنس بمداخلة الناس .

حاله

هذا الرجل نسيج وحده فى الكفاية ، وطلاقة اللسان ، مدل على أغراض الصوفية ، حافظ لكل غريبة من غرايب طريقتهم ، متكلِّم فى مشكلات أقوالهم ، قايم على كثير من أخبارهم ، يستظهر حفظ جزأى إسماعيل الهروى المسمى «بمنازل السايرين إلى الحق» ، والقصيدة الكبيرة لابن الفارض . عديم النظير فى ذلك كله ، مليح الملبس ، مترفِّع عن الكُدية ، عزيز النفس ، قليل الإطراء ، حسن الحديث ، عذب التَّجاوز فيه ، على سنن من السَّذاجة والسَّلامة والرجولة والحمل ، صاحب شهرة قرعت به أبواب الملوك بالعُدوتين . وعلى ذلك فمغضوض منه ، محمول عليه ، لما جبل عليه من رفض الاضطِّلاع ، وترك السَّمت ، واضطراح التغافل ، وولوعه

(١) هذه الكلمة واردة فى الزيتونة وساقطة فى الإسكوريال .

بالنقد والمخالفة فى كل ما يطرق سمعه ، مرشِّحًا ذلك بالجد المبرم ، ذاهبا أقصى مذاهب القِحة ، كثير الفَلَتات . نالته بسبب هذه البليَّة محن كثيرة ، أفلت منها بجريعة الذقن ، ووسم بالوَهَن فى دينه . مع صحة العقل[1] . وكان الآن عامرا للرِّباط المنسوب إلى اللَّجام ؛ على رسم الشياخة ، وعدم التابع ، مهجور الفِناء .

مشيخته

زعم أنه حجَّ ، ولقى جلَّة ، منهم الشيخ أبو الطاهر بن صفوان المالقى ، ولقاؤه إياه ، وصحبته ، معروف بالأندلس ، وغير ذلك مما يدَّعيه متعدد الأسماء .

تواليفه

قيَّد الكثير من الأجزاء ، منها فى نِسْبة الذنب إلى الذاكر ، جزءٌ نبيل غريب المأخذ ، وفيما أُشكل من كتاب أبى محمد بن الشيخ . وصنف كتاباً كبير الحجم فى الاعتقاد ، جلَب فيه كثيراً من الأقوال والحكايات ، رأيت عليه بخط شيخنا عبد الله بن المقَّرى ما يدل على استحسانه ، وطلب منى الكَتْب عليه بمثل ذلك ، فكتبت له ببعض ورقاته ، إثارة لضجره ، واستدعاءً لفكاهة انزعاجه ، ما نصه : وقفت من الكتاب المنسوب لأبى زكريا البرغواطى ، على برسام محموم ، واختلاط مَذْموم[2] ، وانتساب زنْج فى رُوم ، وكان حقه أن يتهيَّب طريقا لم يسلكها ، ويتجنب غفلة لم يملكها ، إذ المذكور ، لم يتلق شيئاً من علم الأصول ، ولا نظر فى الإعراب فى فصل من الفصول . إنما هى قِحة وخلاف ، وتهاوُن بالمعارف

(١) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (العقد) والأولى أرجح .

(٢) وردت فى الإسكوريال (موم) . والتصويب من الزيتونة .

واستخفاف . غير أنه يحفظ فى طريق القوم كل نادرة ، وفيه رجولة ظاهرة ، وعنده طلاقة لسان ، وكفاية قلّما تتأتّى لإنسان . فإلى الله نَسَل أن يعرّفنا بمقادير الأشياء ، ويجعلنا بمَعْزِل عن الأغبياء . وقد قلت مرتجلا عند أول نظرة ، واجتزأت بقليل من كثرة :

كل جار لغاية مرجوة ... فهو عندى لم يعدُ حدّ الفتوّة
وأراك اقتحمت ليْلاً بهيما[1] ... مُولجا منك ناقةً فى كوّبة
لا اتّباعا ولا اختراعا أرتنا ... إذ نظرنا عروسك المجلوّة
كل ما قلتَه فقد قاله الناس ... مقالا آيـــاته متلوّة
لم تزد غير أن أبَحْتَ حمى الإعراب فى كل لفظــة مقــروّة
نسل الله فكرة تلزم العقل إلى ... حِشْمة تحوطها[2] المُرُوّة
وعزيز علىّ أن كب يحيى ... ثم لم نأخُذ الكتاب بقوّة

ومن البرسام الذى يجرى على لسانه بين الجدّ والقِحة ، والجهالة والمجانة ، قوله لبعض خدام باب السلطان ، وقد ضُويق فى شيء أضْجَره منقولا من خطّه ، بعد ردّ كثير منه إلى الإعراب :

الله نور السموات من غير نار ، ولا غيرها ، والسلطان ظلالُه وسراجُه فى الأرض ، ولكل منهما فراشٌ مما يليق به ، ويُتهافت عليه . فهو تعالى مُحْرِقٌ فراشه بذاته ، مغرقُهم بصفاته ، وسراجه وظلّه . وهو السلطان محرق فراشه بناره ، مُغْرِقُهم بزَيْته ونواله . ففِراشُ الله ، ينقسم إلى حامِدين[3] ، ومُسبِّحين ، ومُسْتغفرين ، وأُمناء وشاخِصين . وفراشُ السلطان

---

(١) وردت فى الإسكوريال (بهجا) . والتصويب من الزيتونة .
(٢) وردت فى الإسكوريال (تحوط) والتصويب من الزيتونة .
(٣) هكذا وردت فى الزيتونة . وردت محرفة فى الإسكوريال (حافين) .

ينقسمون إلى أقسام ، لا ينفكُّ أحدهم عنها . وهم وزَغة ابن وزغة ، وكلب ابن كلب ، وكلب مطلقا ، وعارٌ ابن عار ، وملعون ابن ملعون ، وقط [ابن قط] [1] ، ومُحق . فأما الوزغة ، فهو المحرق فى زَيْت نواله ، المشغول بذلك عما يليق بصاحب النِّعمة من النصح ، وبذل الجهد . والكلب ابن الكلب ، هو الكيِّسُ المتحرِّز فى تَهَافته ، من إحراق وإغراق ، يعطى بعض الحق ، ويأخذ بعضه . وأما الكلب مطلقا ، فو الواجد والمشرِّد[2] للسفهاء عن الباب المعظَّم لقليل النِّعمة . وأما العارُ ابن عار فهو المتعاطى فى تَهافُته ما فوق الطَّوق ، ولهذا امتاز هذا الإسم بالرياسة عند العامة ، إذا مرَّ بهم جِلْفٌ أَو مُتَعاط ، يقولون ، هذا العار بن عار ، يحسب نفسه رئيسا ، وذلك بقرب المناسبة ، فهو موضوع لبعض الرياسة ، كما أن الكلب ابن الكلب لبعض الكياسة . وأما الملعون ابن الملعون ، فهو الغالط المُعاند ، المشارك لربِّه ، المنعم عليه فى كبريائه وسلطانه . وأما القُطُّ فهو الفقير مثلى ، المُسْتَغنى عنه ، بكونه لا تُخصُّ به رتبة ، فتارة فى حِجْر الملك ، وتارة فى السِّناس ، وتارة فى أعلى المراتب ، وتارة مُحسنٌ ، وتارة مُسِيءٌ ، تُغْفر سيئاته الكثيرة بأدنى حسنة ، إذ هو من الطوافين ، مُتطير بقَتْله وإهانته ، تيَّاه فى بعض الأحيان لعزَّة يجدها فى نفسه ، من حُرْمة أبقاها الشارع له ، وكل ذلك لا يخفى . وأما الفِراش المُحق ، فهو عند الدُّول نوعان ، تارة يكون ظاهرا وحظُّه مسح المصباح ، وإصلاح فَتيله ، وتصفية زيته ، وستْر دخانه ، ومُسايَسة ما أعْوَز من المطلوب منه . ووجود هذا شديد الملازمة ظاهراً . وأما المُحِقُّ الباطن ،

(١) واردة فى الزيتونة وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (المجدد) .

فهو المشار إليه فى دولته بالصلاح والزهد والورع ، فتستقبله الخَلْقُ لتعظيمه ، وتركه لما هو بسبيله ، فيكون وسيلةً بينهم وبين ربِّهم ، وخَلِيفته الذى هو مصباحهم . فإذا أراد الله بهلاك الدولة ، وإطفاء مصباحها تولَّى ذلك أهل البطالة والجهالة ، فكان الأمر كما رأيتم ، والكلٌّ يعمل على شاكِلَته .

وأفضى به الهوى ، وتسور حمى السياسة ، والإغياءُ فى ميدان القِحة إلى مصرع السوء ، فجُلِد جَلْدًا عنيفا بين يدى السلطان ، كان سبب وفاته فى المُطْبِق ، وذلك فى شهر المحرم من عام ثمانية وستين وسبع ماية. وقانا الله المَعَرَّات ، وجَنَّبنا سُبل المضرَّات ، وفى كثرة تبجُّحه باصطلاح المنطق قيل :

لقد كان يحيى منطقيًّا مُجادلا ... تجارى فى سبل الهوى وتهوَّرا

غدا مطلق التقوى وراح مكمَّما ... وأصبح من فوق الجدار مُسوَّرا

فما نال من معنى اصطلاح أداره ... سوى أن بَدا فى نفسه وتصوَّرا

تجاوز الله عنا وعنه ...

كمل كتاب الإحاطة

بيان تكميلي عن مخطوط الإسكوريال

وعن القائم باختصار كتاب « الإحاطة »

لقد اعتمدنا فى تحقيق كتاب « الإحاطة » منذ السفر السابع على مخطوط الإسكوريال رقم 1668 الغزيرى ، ورقم 1673 ديرنبور ، وذلك حسبما بينا فى مقدمة المجلد الأول من الإحاطة (ص ١٣ و ١٤) ، وحسبما سجلنا ذلك فى المجلد الثانى من الإحاطة (ص ٣١٥) ، وجعلناه عمدة لتحقيق حتى نهاية الموسوعة الأندلسية الكبرى .

وقد بينا فى مقدمتنا كذلك أن مخطوط الإسكوريال ، قد وسم فى صفحة عنوانه بأنه « السفر الثانى » من « مختصر الإحاطة » ، وأنه قد ذكر فى مواضع كثيرة منه ، ما يدل على إجراء هذا الاختصار بصورة منتظمة (المقدمة ص ٨) ، كما سطر على صفحة العنوان ، بأنه كان « ملكا للسلطان مولاى زيدان ، أمير المؤمنين بن أحمد بن المنصور ، أمير المؤمنين » أو بعبارة أخرى ، كان ضمن المكتبة الزيدانية الشهيرة ، التى استولى عليها الإسبان قسرا فى عرض البحر ، سنة ١٦١٢ م ، وضمت إلى مجموعة الاسكوريال الملكية ، ونقلنا خلال كثير من التراجم ، ما كان يرد بها من إضافات أو تعليقات ، سواءٌ فى صلبها أو على هوامشها ، مما كنا ننسبه نحن إلى ناسخ المخطوط .

بيد أنه قد وضح لنا فى نفس الوقت : ولا سيما فى الأقسام الأخيرة من الكتاب ، أن هذه الإضافات والتعليقات . التى يتسم الكثير منها بالطابع العلمى وبالمعرفة المستنيرة ، أنها من وضع مختصر كتاب « الإحاطة » حسبما نوهنا بذلك فى غير موضع فى تراجم الأسفار الأخيرة ، ورأينا أن ذلك ما يتفق مع ما وسم به المخطوط فى صفحة عنوانه ، من أنه السفر الثانى

من مختصر « الإحاطة » وهو ما نستنتج منه أن المخطوط هو الجزء الثانى من نسخة كانت تتألف من جزئين كبيرين ، هما «مختصر كتاب الإحاطة» .
وقد أشرنا فى المقدمة إلى بعض ما وقع من صنوف هذا الاختصار ، حسبما وقفنا عليها من تتبع إشارات « المختصر » خلال المخطوط ، ومعظمها ينحصر فى اختصار مشيخة المترجم له أو حذفها ، أو إغفال بعض القصائد أو جزء منها ، وإغفال بعض المختارات النثرية أو اختصارها ، كما أشرنا إلى أنه لم يثبت أن هذا الاختصار قد أصاب النصوص التاريخية المحضة ، حسبما تبين ذلك من مقارنات كثيرة ، لما نقله المقّرى فى « نفح الطيب » من تراجم « الإحاطة » .

وقد كانت نيتنا أن نقف عند هذا الحد فى الحديث عن أوضاع كتاب « الإحاطة » ، لولا ما حدث خلال طبع المجلد الرابع والأخير منه ، من وقوفنا على حقائق جديدة ، حملتنا على وجوب استكمال هذا البحث ، ومحاولة الوقوف على اسم مختصر كتاب « الإحاطة » . وذلك أننا خلال عملنا فى تحقيق كتاب « ريحانة الكتاب » ، لابن الخطيب ، قد لفت نظرنا عدة حقائق جديدة هامة نلخصها فيما يلى :

أولا ــ أن مخطوط كتاب الريحانة المحفوظ بمكتبة الإسكوريال برقم 1820 الغزيرى و برقم 1825 ديرنبور ، قد كتب بنفس الخط الأندلسى المطعم بالسمة المغربية الذى كتب به مخطوط « السفر الثانى » من « مختصر الإحاطة » رقم 1763 ديرنبور .

ثانياً ــ أنه كتب ،حسبما ورد فى خاتمته فى شوال سنة ثمانية وثمانين وثمان مائة (٨٨٨ هـ) فى تاريخ مقارب لكتابة نسخة « الإحاطة » ، حيث كتبت فى ربيع الآخر سنة ٨٩٥ هـ .

ثالثاً - أنه يوجد تماثل كبير بين العبارات التي اختتم بها كل من المخطوطين . فقد اختتم مخطوط كتاب « الريحانة » بما يأتي : « إنتهى هذا الكتاب المسمى « بريحانة الكتاب ونجعة المنتاب » على يد ناسخها لنفسه ، ثم لمن شاء من ولده من بعده ، عبد الله المقر بذنوبه ، الراجي عفو ربه ، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن أحمد البقنّي الأنصارى ، غفر الله ذنوبه ، وستر عيوبه ، بتاريخ أواسط شوال عام ثمانية وثمانين وثمان مائة . والحمد لله رب العالمين ، وسلام على عباده الذين اصطفى » .

وورد في ختام مخطوط « مختصر الإحاطة » ما يأتي : « إنتهى السفر الأخير منه حيث عرف بنفسه ، وشيوخه ، رحمة الله على الجميع . قلت . وهنا انتهى ما قصدناه ، وتم بحول الله ما أردناه واستوفيناه ، واستلحقناه ، وذلك بغرناطة أقالها الله وصانها ، وعم بالعلماء الأعلام وصالحي الإسلام عمرانها ، وبتاريخ أوائل شهر ربيع الآخر من عام خمسة وتسعين وثمانماية . والحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى » .

ومن جهة أخرى ، فإنه من الواضح مما ورد في صيغة عنوان مخطوط كتاب « الريحانة » وذكر مؤلفه من أنه « وحيد قطرنا ، وعالم مصرنا ، وفخر أندلسنا ... ذى الوزارتين أبي عبد الله بن الخطيب » أن كاتب هذا المخطوط هو أندلسي ، ومن المرجح أيضا ، على ضوء المقارنة والتماثل ، أنه غرناطي كذلك .

ويترتب على ما تقدم من مطابقة خط المخطوطين ، وتقارب تاريخي نسخهما ، ثم التماثل الواضح بين الخاتمتين ، أن مختصر كتاب « الإحاطة » وناسخه أيضاً ، هو العلامة أحمد بن عبد الله البقنّي الأنصارى ، الذى ورد اسمه كاملا في مخطوط الريحانة .

الصفحة الختامية من مخطوط كتاب «ريحانة الكتاب» المحفوظ بمكتبة الإسكوريال برقم 1825 ديرنبور. وتراجع فى صفحة (١١) من المجلد الثانى من الإحاطة صورة لوحة مخطوط الإسكوريال المحفوظ برقم 1673 ديرنبور للمقارنة بخط هذه الصفحة الأخيرة من مخطوط «الريحانة» لمعاينة التماثل الواضح بين الخطين

هذا ، وقد أشار بعض كتاب التراجم اللاحقين ، أمثال العلامة أحمد بابا التنبكتى الصّنهاجى المالكى المتوفى سنة ١٠٣٦ هـ (١٦٢٧ م) ، وصاحب كتابى « نيل الإبتهاج » و« كفاية المحتاج » وهما ذيلان على كتاب « الديباج المُذْهب » لابن فرحون ، وغيره ، إلى هذا « المختصر » من كتاب « الإحاطة » ، وذكروه منسوباً بالفعل ، إلى أبى جعفر البقنّى ، وهو ما يؤيد صحة ما انتهينا إليه بالمقارنات المخطوطة .

الإحاطة

فى أخبار غرناطة

بقية السفر الثانى عشر

من كتاب الإحاطة(١)

مشتملة على ترجمة ابن الخطيب

مكتوبة بقلمه

(١) يبدأ السفر الثانى عشر باللوحة 418 إسكوريال مبتدئا بترجمة « يحيى بن محمد بن عبد السلام التطيل الهذلى » وتنتهى تراجمه فى اللوحة 424 بترجمة يحيى بن إبراهيم بن يحيى البرغواطى محتويا على ثمان تراجم فقط. وبه يختتم « كتاب الإحاطة » فى بداية اللوحة 425 إسكوريال ، ثم تبدأ ترجمة ابن الخطيب لنفسه فى نفس اللوحة ، وتنتهى فى اللوحة 499 إسكوريال

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

« يقول مؤلف هذا الديوان تغمد الله خَطَله ، فى ساعات اضاعها ، وشهوة من شهوات اللسان أطاعها ، وأوقات للاشتغال بما لا يعنيه ، استبدل بها اللهو لما باعها :

أما بعد حمد الله الذى يغفر الخطيّة ، ويحث من النفس اللّجوج المطيّة ، فيُحرك ركابها البطيّة ، والصلاة على سيدنا ومولانا محمد ، مُيَسّر سبل الخير القاصدة[1] الوطيّة ، والرضا عن آله وصحبه ، منتهى القصد[2] ومناخ الطيّة . فإنى لما فرغت من تأليف هذا الكتاب ، الذى حمل عليه فضل النشاط ، مع الالتزام لمراعات السياسة السلطانية والارتباط ، والتفتُّ إليه ، فراقنى منه صِوان دُرَر ، ومَطْلَع غُرر ، قد تخلّدت مآثرهم بعد ذهاب أعيانهم ، وانتشرت مفاخرهم ، بعد انطواء زَمانهم ، نافستهم فى اقتحام تلك الأبواب ، ولباس تلك الأثواب ، وقنعتُ باجتماع الشّمل بهم ، ولو فى الكِتاب . وحرصت على أن أنال منهم قُرْباً ، وأخذت من[3] أعقابهم أدبا وحبًا ، وكمال قال ، ساقِى القوم ، آخرهُم شربا . فأجريت نفسى مجراهم فى التّعريف ، وحذوتُ بها حذوهم ، فى باب النّسب والتّصْريف ، بقصد التشريف . والله لا يعدمنى وإيّاهم واقفًا يترحّم ، وركاب الاسْتِغْفار بمَنْكِبيه يَزْحم ، عندما ارتفعت وظايف الأعمال ،

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى الزيتونة (النادرة) . وهى ساقطة فى النفح .

(٢) هكذا فى الإسكوريال والزيتونة . وفى النفح (الفضل) .

(٣) واردة فى الزيتونة . وساقطة فى الإسكوريال والنفح .

وانقطعت من التَّكَسُّبات حبال الامال ، ولم يبق إلا رحمة الله ، التى تَنْتاش النفوس وتخلِّصُها ، وتعينها بِمِيْسَم السَّعادة وتخصصها . جعلنا الله ممن حَسُن ذكره ، ووقف على التماس ما لديه فكره ، بمنّه .

المؤلف : محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن على ابن أحمد السَّلمانى . قُرْطِبى الأَصل ، ثم طُلَيْطُليه ، ثم لَوْشِيه . ثم غَرْناطيه ، يكنى أبا عبد الله ، ويلقَّب من الأَلقاب المشرقية بلسان الدين .

أَوَّلِيَّتى : يُعْرف بيتنا فى القديم ببنى وزير ، ثم حديثنا بلوشة ، ببنى الخطيب . انتقلوا مع أعلام الجالية القرطبية ، كيحيى بن يحيى الليثى وأمثاله ، عند وَقْعة الرَّبَض الشهيرة[1] إلى طُلَيْطُلة ، ثم تسرَّبوا محوِّمين على وطنهم ، قبل استيلاء الطاغية عليها ، فاستقرَّ منهم بالموسَّطة الأَندلسية ، جملة من النبهاء ، تضمن منهم ذكر خلف[2] ، كعبدالرحمن قاضى كورة باغة ، وسعيد المستوطن بلوشة ، الخطيب بها ، المقرون أسمه بالتَّسويد عند أهلها ، جاريا مجرى التسميه بالمركَّب . تضمن ذلك تاريخ الغافقى وغيره . وتناسل عقبُهم بها ، وسكن بعضهم بمنتفريو[3] ، مملكين إياها ، مختطين قبل التحصين والمنَعة ، فنسبوا إليها . وكان سعيد هذا ، من أَهل العلم ، والخير والصلاح ، والدِّين والفضل ،

(١) وقعة الربض تطلق على الثورة التى قام بها أهل قرطبة بتحريض الفقهاء ضد الحكم ابن هشام أمير الأندلس ، بقصد خلعه ، وذلك فى رمضان سنة ٢٠٢ ﻫ (مارس ٨١٨ م) . وقد بدأت فى الربض الجنوبى لقرطبة ، فى الناحية المسماة « شقندة » . ولكن الحكم استطاع سحق الثورة ومطاردة الثوار وتمزيقهم ، وصلب الكثير منهم على شاطىء النهر وهدم دورهم ، وفر الكثير من أعيان قرطبة . وتفرقوا فى مختلف القواعد ، وسارت طائفة كبيرة منهم إلى المشرق .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (حلق) والأولى أرجح

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال والزيتونة ، وفى النفح (منتفرير) . ونرجح أن ذلك تحريف ، وان الصواب هو ما أثبتناه ، وهو يدخل فى عداد الأسماء الإسبانية Montefrio ، ومعناه الجبل البارد .

[وزكاء الطعمة][1] . وقفني الشيخ المسنّ الوزير أبو الحكم بن محمد المتفريدي رحمه الله ،وهو بقية هذا البيت وإخباريه ، على جدار برج ببعض رُبى أملاكنا بلَوْشة ، تطأه الطريق المارة من إغرناطة إلى إشبيلية ، وقال ، كان جدُّك يُربع[2] بهذا المكان فصولا من العام[3] ، ويَجْهر بقراءة القرآن. فيستوقف الرِّفق[4] المدلجة ، الحنينُ إلى نَغَمَته ، والخشوع لِصدقه ، فتُعرِّس رِحَالها لصق جداره ، وتُريح ظهرها موهنا ، إلى أن يأتي على وِرْدِه. وتوفى ، وقد أُصيب بأهله وحرمته ، عندما تغلب العدو على بلده عنْوة في خبر طويل . وقفت على مكتُوبات من المتوكل على الله ، محمد بن يوسف ابن هود ، أمير المسلمين بالأندلس ، القايم بها بدعوة الأئمة من ولد العباس ، رضى الله عنهم ، ومن ولده أبي بكر الواثق بالله ولى عهده ، في غرض إعانته ، والشّفاعة إلى الملِكة زوج سلطان قشتالة ، بما يدل على [نباهة قديم][5] ويُفِيد إثارة عِبْرة ، واستقالة عثرة .

وتخلّف ولده عبد الله ، جاريا مجراه في التجلّة ، والتّمعش من حُرٍّ النّشب ، والتزيّ بالانقباض ،والتحلّي بالنزاهة إلى أن توفى ، وتخلف ولده سعيد جدُّنا الأقرب ، وكان صدرا خيِّرا ، مستوليا على خلال حميدة ؛ من خطٍّ وتلاوة وفِقه ، وحساب ، وأدب ، نافس جيرته من بنى الطّنجالي الهاشميين ، وتحوّل إلى غرناطة ، عندما شعر بعملهم على الثورة ، واستِطلاعهم إلى النّزْوة ، التي خضدت الشوكة ، واستأصلت منهم الشّأفة ، وصاهر بها

(١) هكذا وردت في الإسكوريال . وفى الزيتونة (زكاء النعمة) . وفى النفح (ذكاء الفطنة) .

(٢) هكذا وردت في الإسكوريال والزيتونة . وفى النفح (يذيع) . وهو تحريف .

(٣) هكذا في الإسكوريال والزيتونة . وفى النفح (العلم) وهو تحريف .

(٤) هكذا في المخطوطين . وفى النفح (الرفاق) .

(٥) هكذا في الإسكوريال والنفح . وفى الزيتونة (على نباهة قديمة)

الأعيان من بنى أضحى بن عبد اللطيف الهمْدانى ، أشراف جُنْد حُمْص ، الداخلين إلى الجزيرة ، فى طليعة بُلج بن بشر القشيرى ، ولحقه من جرّاء منافسيه ، لما جاهروا السلطان بالخُلْعان ، اعتقال أعْتَبه السلطان بعده وأحظاه على تِفتَته ، وولّاه الأعمال النّبيهة ، والخُطط الرّفيعة . حدثنى من أثقه ، قال ، عزم السلطان ، أن يُقعد جدك أُستاذًا لولده ، فأنِفت من ذلك أمٌّ الولد ، إشفاقا عليه من فظاظة كانت فيه . ثم صاهر القُوّاد من بنى الجَعْدالة على أم أبى ، وتمُتُّ إلى زوج السلطان ببُنُوّة الخؤولة ، فنبُه القدر ، وانفسحت الحُظْوة ، [وانتاب البيت](1) الرؤساءُ والقرابة . وكان على قوّة شكيمته ، وصلابة مَكْسِره ، مؤثرا للخمول ، محبا فى الخير . حدّثنى أبى عن أمّه ، قالت ، قلما تهنّأنا نحن وأبوك طعاما [حافلا](2) لإيثاره به من كان يَكْمِن(3) بمسجد جِواره ، من أهل الحاجة ، وأحلاف الضرورة ، يهجم علينا منهم بكل وارش(4) ، يجعل يده ثُنى يده ، ويُشركه فى أُكيلته ، ملتذًّا بموقعها من فؤاده . توفى فى ربيع الآخر من عام ثلاث وثمانين وسمّاية ، ضَهَرته الشمس مُستَسْقيا فى بعض المُحول ، وقد اسْتَغْرق فى ضَراعته ، فدلّت الحَتْف على نفسه . وتخلف والدى ، نابتاً فى الترّف نَبْت العليق ، يكنفه رعى أيِّم(5) ، تجرُّ ذيل النعمة ،

---

(١) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح (وانثال على البيت) .

(٢) الزيادة من النفح .

(٣) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الزيتون (يكون) .

(٤) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (مارش) ، وفى النفح (وارد) وهو تحريف . والوارش هو من يدخل لتناول الطعام دون دعوة .

(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (ثم) وفى النفح (أم) . والأيم هى المرأة التى فقدت زوجها .

وتحنو منه على واحد تحذر عليه [الحولى من ولد الذر][1] ، فَفاتَه لترفه حظٌّ كبيرمن الاجتهاد. وعلى ذلك فقرأ على الخطيب أبى الحسن البلُّوطى، والمقرىء أبى عبد الله بن مستقور[2] ، وأبى إسحق بن زورال ، وخاتمة الجلّة أبى جعفر بن الزُّبير ، وكان يفضّله . وشارك أهل عصره فى الرِّواية المستدعاه عن أعلام المشرق، كجار الله أبى اليُمن وغيره . وانتقل إلى لوْشة بلد سلفه ، مقيما للرسم ، مخْصوصا بلقب الوزارة ، مرَتّبا بعادة التَّرف ، إلى أن قصدها السلطان أبو الوليد ، متخطِّيا إلى الحضرة ، هاويا إلى مُلْك البَيْضة ، وأجزل نَزْله ، وعضّد أمره ، وأدخله بلده ، لدواعى يطول استقصاؤها . ولما تمّ له الأمر ، صَحِبه إلى دار ملكه ، مستأْثرا بشِقْص عريض من دُنياه . وكان من رجال الكمال ، طَلْق الوجه ، أنيق المجلس، حُلو النادرة ، مستوليا على كثيرمن الخَصْل ، متجنِّدا مع الظرف ، تضمن كتاب التّاج المحلّى والإحاطة جزءًا[3] رائعا من شعره ، وفُقد فى الكائنة العظمى بطريف، يوم الإثنين السابع من جمادى الأُولى عام أحد وأربعين وسبعماية ، ثابت الجأْش ، غير جزوع ولا هيَّابة . حدَّث الخطيب بالمسجد الجامع من غرناطة ، الفقيه أبو عبد الله بن اللوشى ، قال ، كنا بأخيك الطَّرف يومئذ ، وقد غَشى العدو ، وجنحت إلى إردافه ، فانحدر إليه والدك وصرفنى ، وقال ، أنا أوْلَى به ، فكان آخر العهد بهما . وخَلفنى عالى الدرجة ، شهير الخُطّة ، مشمولا بالقبول ، مكنوفاً

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال والزيتونة . وفى النفح (النسيم إذا سرى) .

(٢) وردت فى المخطوطين (مسمفور) . وفى النفح (سمون) . ونعتقد أن التصويب أرجح .

(٣) أضفناها ليستقيم السياق . ووردت فى الإسكوريال (هذه) وفى الزيتونة (هذا) .

بالعناية « وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها » . فقلّدنى السلطان كتابة سرّه ، ولمّا يجتمع الشباب ، ويُستكمل السّن ، معزّزة بالقيادة ، ورسوم الوزارة ، واستعملنى فى السِّفارة إلى الملوك ، واستَنابنى بدار ملكه ، ورمى إلى يدى بخاتمه وسيْفه ، وائتمننى على صِوان ذخيرته[١] وبيت ماله ، وسجوف حُرَمه ، ومَعْقِل امتناعه ، ومن فصول مَنْشُورِه : « وأطْلَقنا يده على كل ما جعل الله لنا النّظر فيه » . ولما هلك ، قدّس الله روحه ، ضاعف ولدُه ، مولاى رضى الله عنه ، حُظْوتى ، وأعْلى مجلسى ، وقصَر المشُورة على نُصحى ، إلى أن كانت عليه الكائنة [فاقتدى فىّ ، أخود المتغلب على الأمر ، فسجل الاختصاص ، وعقد القلادة ، ثم قطع الإبقاء ، وعكس الاختصاص ، وحلّ القلادة ، لمّا حمله أولو الشحناء ، من أعوان ثورته على القَبْض علىّ فكان ذلك][٢] ، وقُبض علىّ ، ونُكث ما أُبرم من أمانى ، واعتُقلت بحال ترفيه . وبعد أن كُبسَت المنازل والدّور ، واستُكْثر من الحرس ، وخُتم على الأعلاق ، وأبْرِد إلى ما نأى ، فاستوْصلت نعمة لم تكن بالأندلس من ذوات النظائر [ولا ربات][٣] الأمثال ، فى تبحُّر الغلّة ، وفَراهة الحيوان ، وغِبْطة العقار ، ونظافة الآلات ، ورِفعة الثياب ، واستِجادة العُدَّة ، ووفور الكُتب ، إلى الآنية والخُرثى ، والفرش ، والماعون ، والزجاج ، والمُحْكم ، والطِّيب ، والذّخيرة ، والمضارب ، والأقْبية . واكتُسحت السّائمة ، وثِيران الحرث ، وظهر الحُمولة ، وقوام الفلاحة ،

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (خزانته) . وفى النفح (حضرته) .

(٢) جمعنا بين الحاصرتين بين ما ورد فى المخطوطين ، وفى النفح . وذلك بعد تصويب العبارة الأولى (فاقتدى فى) وهى التى وردت محرفه فى المخطوطين (فاعتدى على) .

(٣) الزيادة من النفح .

وأذْواد الخيل ، فأخذ الجميع البيع ، وتناهَبَتْها الأسواق ، وصاحبها البَخْس، ورزأتها الخونة ، وشمِل الخاصة والأقارب الطّلب ، واستخلصت[1] القُرى والجنّات ، وأعملت الحيل ، ودُسّت الإخافة ، وطُوِّقت الذنوب ، وأمدّ الله بالصبر ، وأنزل السكينة ، وانصرف اللسان إلى ذكر الله [تعالى][2] ، وتعلّقت الآمال به ، وطبقت [نكبة][3] مُصْحفيّة ، مطلوبها الذّات ، وسببُ إفاتَتِها المال ، حسبما قلت عند إقالة العثرة ، والخلاص من الهفوة :

تخلّصت منها نكبة مُصْحَفِيّة لفقداني المنصور من آل عامر

ووصلت الشّفاعة فىّ مُكْتتبة بخطّ ملك المغرب ، وجعل خلاصى شرطاً فى العُقْدة ، ومسالمة الدولة ، فانتقلت صُحبة سلطانى المَكْفور الحقّ إلى المغرب . وبالغ ملكُه فى برّى ، واغيًا فى حُلّة رغْيى ، منزلاً رحْبًا ، وعيشا خفْضا ، وإقطاعا جما ، وجراية ما وراءها مرمى ، وجعلنى بمجلسه صدْراً . ثم أسعف قَصْدى فى تهَنِيء[4] الخَلْوة بمدينة سلا ، مُنَوه الصُّكوك ، مُهنّأ القَرار ، مُتفقّدًا باللُّهى والخِلع ، مُخَوّل العَقار ، موفور الحاشية ، مُخَلّى بينى وبين إصلاح مَعادى ، إلى أن ردّ الله [تعالى] على السلطان أمير المسلمين أبى عبد الله بن أمير المسلمين أبى الحجاج مُلْكه ، وصيّر إليه حقّه ، وصرف إليه كرسيه ، فطالبَنى بوعدِ ضربتُه ، وعهد فى القدوم عليه بولده أحكمتُه ، ولم يُوسعنى عُذْراً ، ولا فسح فى التّرك

---

(١) أى أضيفت إلى مستخلص السلطان أو الأملاك الملكية الخاصة .

(٢) الزيادة من النفح .

(٣) الزيادة من النفح .

(٤) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى النفح (تهيؤ) .

مجالا . فقدمتُ عليه بولده ، فى اليوم الأَغَرِّ المحجَّل ، وقد ساءه بإمساكه رهينة ظنِّه ، ونغَّص مسرَّة الفَتْح بعده ، على حال من التقشُّف ، والرغبة عما بيده ، وعزْف عن الطمع فى الكسب[1] وزهد فى الرِّفد ، حسبما قلت فى بعض المقطوعات فى مخاطبته ، شكر الله عنى فضله :

قالوا لخدمته دعـــاك محمد ... فكرِهْتها[2] وزهدتُ فى التَّنويه

فأَجبتهم أنا والمُهيمن كـارهٌ ... فى خدمة المولى محبٌّ فيـــه

عاهدت الله على ذلك ، وشرحت صدرى إلى الوفاء به ، وجَنحت إلى الانفصال لبيت الله الحرام نَشِيدة أَملى ، ومَرْمَى نِيَّتى ، فعَلِق بى عُلوق الكَرْمة ، وصارَفنى بدار العِبرة ، وخرج لى عن الضرورة ، وأرانى أنَّ مُؤازرته أَبرُّ القُرْبة ، وراكننى إلى عهدٍ بخطه ، فسح لعامين أمد الثُّوا ، واقْتَدى بشُعَيْب صلوات الله عليه ، فى خَطْب الزيادة ، وعلى تلك النسبة ، وأشهد من حَضر من العِلْية . ثم رَمَى إلىَّ بعد ذلك مقاليد رأيه ، وحكم عقْلى[3] فى اختبارات عقله ، وغطَّى على جَفائى بحِلْمه ، وحثا فى [وجوه][4] شهواته بتُراب زَجْرى ، ووَقَف القبول على وَعْظى ، واستَنْزل هواى فى التحوُّل ، نابيا عن قصدى ، واعترف بقبول نُصحى . فاستعنتُ الله عليه ، وعاملت وجهه فيه ، من غير تلبُّسٍ بخديعة ، ولا تشبُّثٍ بولاية مقتصرا على الكفاية ، حذراً من النَّقد ، خامل المرْكب ، معتمدا على المَنْسأَة ، مُسْتمتعا بِخَلق النَّعْل ، راضيا بغير النَّبيه من الثَّوب ، مُشْفقا من موافقة الغُرور ، هاجرًا للزخرف ، صادعا بالحقِّ فى أسواق الباطل ،

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (ملكه) .

(٢) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح (فأنفتها) .

(٣) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح (عقل) .

(٤) واردة فى النفح وساقطة فى المخطوطين .

كافًّا عن السِّخال ، براثِن السباع ، مفوِّتا للأُصول فى سبيل الصَّدقة . ثم صرفتُ الفِكر إلى بناء الزاوية والمدرسة والتربة ، بكرُ الحَسَنات بهذه الخِطَّة ، بل بالجزيرة فيما سلف من المدَّة ، فتأتَّى بمنة الله من صلاح السلطان ، وعفاف الحاشية ، ونشر الأَمن ، ورَوْم الثغور ، وتَثْمير الجِباية ، وإنصاف الحُماة والمقاتلة ، ومقارعة الملوك المجاورة ، فى إيثار المصلحة الدِّينية ، والصَّدْع فوق المنابر ، ضمانا عن السلطان بتِرْياق سُمِّ الثورة ، وإصلاح بواطن الخاصَّة والعامَّة ، ما الله المُجازى عليه ، والمُعوِّض من سَهَرٍ خلَعتُه على أعطافه ، وكدٍّ أعملته من جرَّايه ، وخَطر اقْتحمته من أجله ، لا للثَّريد الأَعْفر ، ولا للجُرْد تمْرَح فى الأَرْسان ، ولا للبُدْر تثقل الأَكْتاد ، فهو الذى لا يضيع عمل عامل من ذكر أَو أُنثى ، سبحانه إليه الرُّجعى ، والآخرة والأُولى . ومع ذلك فقد عادت هَيْفُ إلى أديانها ، من الاستِهْداف للشُّرور ، والاستِعْراض للمحذور ، والنَّظر الشَّزر ، المُنْبَعث من خَزَر العيون ، شِيمةُ من ابتلاه الله بسياسة الدَّهماء ، ورعاية[1] سَخَطَةِ أرزاق السماء ، وقَتَلة الأَنبياء ، وعَبَدة الأَهواء ، مِّمن لا يجعل لله إرادةً نافذة ، ولا مشيئة سابغة ، ولا يَقْبل مَعْذِرة ، ولا يُجمِل فى الطلب ، ولا يتلبَّس مع الله بأَدب . ربَّنا لا تُسلِّط علينا بذنوبنا من لا يرحمنا . والحال إلى هذا العهد [وهو أول عام أحد وسبعين وسبعمائة][2] على ما ذكرته ، أداله الله بحال السَّلامة ، وبفَيْأَةِ العافية ، والتمتُّع بالعبادة . وربُّك يخلق ما يشاءُ ويختار . وقال الشاعر :

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (ورياسة) .

(٢) هكذا ورد هذا التاريخ فى الإسكوريال وورد فى النفح كالآتى (وهو منتصف عام خمسة وسبعين وسبعماية) . والظاهر أن المقرى نقل من مخطوط للإحاطة كتب بعد أصل مخطوط الإسكوريال ببضعة أعوام .

وعليّ أن أسعى وليس على إدراك النجاح

ولله فينا سرٌّ غَيْب نحن صائرون إليه[1] ، ألْحَفَنا الله بِلبَاس التّقوى ، وختم لنا بالسّعادة ، وجعلنا فى الآخرة من الفايزين . نَفَثْتُ عن بثٍّ ، وتَأَوّهْتُ عن حُمّى ، ليُعْلم بَعْد المُنْقَلَب قصدى ، ويدُلُّ مُكتَتبى على عِقْدى .

ذكر بعض ما صدر لى من التشريعات الملوكية
أيام تأبّشى بهذه الغرُور

من ذلك ظهيرٌ من مولاى السلطان أبى عبد الله ، عندما صار له أمرُ والده المقدّس أبى الحجاج ، رحمة الله عليه ، وقد ثبتُّ فى المحمدين ، فى اسم السلطان أيّده الله ، فلينظره هنالك من تشوّف لاحتفاله واحْتِفايه ، وظاهر برّه واعتنايه .

وكتب إلىّ مُخْبِرًا بما فتح الله عليه ، قبل الوصول إليه :

« من أمير المسلمين عبد الله محمد بن مولانا أمير المسلمين أبى الحجاج ابن مولانا أمير المسلمين أبى الوليد بن نصر ، أيّد الله أوامرهم ، ونصر أجنادهم المظَفّرة وعساكرهم ، وخلّد مفاخرهم الكريمة ومآثرهم .

« إلى وليّنا فى الله تعالى ، الذى نعلم ماله فى الإخلاص لجانبنا من حُسْن المذاهب ، ونعتدُّ به اعتدادا يتكفّل بنجاح المقاصد والمآرب ، وخلاصَتِنا الذى نُثْنى على مجده البعيد الغايات ، فى الشّاهد والغايب ، الفقيه ، الوزير الجليل ، الصّدر الأوحد المثِيل ، العالِم العلم الأوحد ، الرّفيع الشهير ، الحسيب الأصيل ، الماجد الأثيل الخطير ، الخطيب البليغ الكبير ، الأوحد ، الحافِل الفاضل الكامل . إمام البُلَغاء ، وصدْرُ الخطباء ، وعلمُ العلماء ، وكبير الرؤساء . الحبِيب المُخْلص ، الأودُّ

(١) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال والزيتونة (سايرون) والأولى أرجح .

الأصفى ، أبي عبد الله بن الوزير الفقيه الجليل ، الأعز الأرفع : الماجد الأسمى ، الصدر الحافل . الفاضل الكامل ، الأعلى الكبير ، الخطير الأثير ، الأرضى ، المعظم الموقر ، المبرور المقدس ، المرحوم الشهيد ، أبي محمد بن الخطيب ، وصلَ الله سعده ، وحرس مجده ، سلام عليكم ، ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله ، ولىِّ الحَمْد وأهله ، وناصر الحقِّ ، ومُطلع أنواره ، من آفاق رحمته وفضله ، وقاهر كل باغ ، وخاذِلِه ومُذِله . والصلاة على سيدنا ومولانا محمد ، صفوة أنبيائه ، وخاتم رسله ، المبتعث بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدِّين كله ، نبي الرحمة ، الذى ببركة محبَّتِه نِلْنا الأُمْنِية ، فى جمع الدِّين ونظم شَمْله ، وبفضيلة جاهه ، عُدنا إلى أرفع رُتْبة مُلْكِنا ، وأعلى محلِّه . والرضا عن آله وصحبه ، المقتدين بهَدْيه فى أمرهم كله . فكتَبْناه إليكم ، كتب الله لكم ، عزًّا لا يَبْلى جديدُه ، وسعدًا لا ينقطع مَزيده . من حَمْرائنا بغرناطة ، حرسها الله ومهَّدها ، ولا مُتَعرَّف بفضل الله سبحانه ، إلا ما عوَّد من ألطافه الخَفِيَّة ، وأسدى من صنائعه السَّنِية ، وعنايته التى كَفَلَت ببلوغ الأُمْنِية . والحمد لله كثيراً ، كما ينبغى لجلاله ، ويليق بصفات كماله . وعندنا من إجلالكم ما يليق بكمالكم ، ومن المعرفة بمقداركم ما يُعْرب عن حُسْن اعتقادنا ، فى كريم نِجَارِكم ، ومن قَدْر أَحْسابكم ، ما يَلزَم بسببه تعظيم جَنَابكم . وإلى هذا وصل الله سَعْدَكم ، وحَفِظ مجدكم ، فإننا بحسب الوُدِّ الذى[1] نصل لمعاليكم ، والحب الذى نضاعفه فيكم ، خاطبناكم بهذا المكتوب ، بشرح ما منَّ الله علينا ، من الفَتْح العظم ، الذى أشرقت به أقطار هذه

---

(١) واردة فى الزيتونة وساقطة فى الإسكوريال .

البلاد ، وما منّ به من العودة ، إلى مُلكنا المتوارث عن كرام الآباء والأجداد ، وما أنْعَم به من قَهْر ذوى الشّقاق والعناد . وذلك أنّا أعزكم الله طال علينا المقام برُندة ، ولم نزل نوجه إلى أهل الحصون، التى بغَرْبى مالقة وغيرهم ، نقصُّ عليهم ، ما ألزمهم الله من الوَفاء ببَيْعَتِنا ، ونحذّرهم عار[1] النّكْث لطاعتنا ، إلى أن آن أوان الفَرَج ، ونفذ قضاءُ الله وقدرُه ، بالعودة إلى ما كنا تغلّبنا[2] عليه . فاقتضى نظرنا أن خرجنا إلى مالقة فى مائتى فارس ، فما وصَلْنا وادها ، وعلم بنا أهلها ، إلا وخرج لنا جميعهم ، ملبِّين بالبيعة ، فرحين[3] بقدومنا . وفى الحين بادرن لقتال القَصَبة ، حتى استُخْلِصت ، وأُنْزِل من فيها بنواحيها . وليوم آخر ، وصَلَتْنَا بيْعات أهل الجهات التى تُواليها ، من أنْتَقِيرة ، ولوشة ، وبَلّش وصالحه وقُمارش والحمّة ، وسائر الحصون الغرْبيه . فلما وصل الخبر إلى الغادِر الخاسر ، خاف وذَعِر ، ورأى أن لا مَلْجأً له ، إلا أن يفرّ ، فجمع شِرْذِمته ، وألّف حاشيته ، وخرج عن الحمراء ليلا ، فى ليلة الخميس الماضى ، قريبا من التاريخ ، هاربًا إلى أرض الكُفّار . وفى صبيحة الليلة ، وجّه إلينا أهلُ حضرتنا ، وتوجّهت الأجناد إلى بَيْعَتِنا ، وانصرفنا إلى دار مُلكنا ، وحَلَلْناها يوم السبت الماضى ، من غير حرب ولا قتال ، بل بفضل الله تعالى ، ذى العظمة والجلال . وعرّفناكم بذلك ، لتأْخذوا بحظّكم من هذه المسرّة الكبْرى[4] ، إذ أنتم الحبيب الذى لا يُشَكُّ فيه ، والخُلاصة[5] الذى نعلم صِدْق خلُوصه وتَصافيه ، والله يصل سعودكم ،

---

(١) هكذا فى الزيتونة. وفى نقاضة الجراب (مخطوط الرباط) (عاقبة) . وفى الإسكوريال (عادة) وهو تحريف .

(٢) هكذا فى الزيتونة ونقاضة الجراب (مخطوط الرباط) . وفى الإسكوريال (تغلب لنا) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (فارحين) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال والزيتونة . وفى نقاضة الجراب (العظمى) .

(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى نقاضة الجراب .

ويحفظ وجودكم ، والسلام الكريم عليكم ورحمة الله وبركاته . وكتب في يوم الأربعاء الرابع والعشرين لجمادى الثانية ، من عام ثلاثة وستين وسبعماية »[1] .

وعند استقراري لديه ، وقدومي عليه ، أصدر لي هذا الظهير الكريم ، بما يظهر من فصوله :

« هذا ظهير كريم ، أقام مراسم الوفاء ، وأحيا معالم الحقّ الفسيحة الأرجاء ، وقلّص ظلال الجود المتكاثفة الأفياء ، وجلّى بأنوار الحق ، ظلم الظّلم والاعتداء ، وأدّى الأمانة إلى أهلها ، إذ كانت متعيّنة الأداء . أمر بتسويغ إنعامه ، وإبرام أحكامه ، أمير المسلمين ، عبد الله محمد ابن مولانا أمير المسلمين أبي الحجاج ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد ابن نصر ، أعلى الله مقامه ، وشكر إنعامه . لوليّ مقامه ، ومحل إجلاله وإعظامه ، كبير دولته ، وفخر مملكته ، ومشيّد سلطانه ، وعين زمانه ، ظهيره الذى ببركاته أنجحت مقاصده ، وحامل لواء وزارته ، الذى بيمن رأيه ، عذبت مصادره وموارده ، الفقيه الأجل ، الوزير المثيل ، الماجد الأثيل ، الحسيب الأصيل ، العالم العلم ، الطاهر الظاهر ، العظيم المفاخر ، الكريم المآثر ، إمام البلاغة ، وفارس البراعة واليراعة ، فخر الرياسة ، ومدبر فلك السياسة ، الخطيب[2] الحافل ، الصدر الفاضل الشمايل ، الحبيب[3] الخالص[4] ، الأودّ الأصفى ، أبي عبد الله محمد

---

(١) أورد ابن الخطيب هذه الرسالة مرة أخرى في كتابة (نفاضة الجراب السفر الثالث . مخطوط مكتبة الرباط العامة) وبها زيادات . ومعها ملحق طويل كتبه السلطان إلى ابن الخطيب لتعريفه بمصير خصمه المتغلب على ملكه بعد فراره إلى مملكة قشتالة . ومصير أصحابه الذين كانوا معه مخطوط نفاضة الجراب المذكور (لوحات ٩٩ – ١٠٣) . وقد نشرناها نحن في كتابنا لسان الدين بن الخطيب حياته وتراثه الفكرى (ص ٣٢٥ – ٣٢٧) .

(٢) هكذا وردت في الإسكوريال . وفي الزيتونة (الحسيب) .

(٣) هكذا وردت في الزيتونة . وفي الإسكوريال (الحسيب) . والأولى أرجح .

(٤) هكذا وردت في الزيتونة . وفي الاسكوريال (الخلاصة) .

ابن الوزير الجليل الأوحد الأعلى ، الصدر الكبير الخطير الشهير الأسنى ، الحافل الفاضل ، الظاهر الطاهر ، السامى الأرقى ، المعظم الموقر ، الشهيد المقدس السعيد ، أبى محمد بن الخطيب ، وصل الله سعادته ، وحرس مجادته وحفظ رتبته الرفيعه ، ومكانته ، وبلغه أمله الأرضى وإرادته . لما كان أبقاه الله مُدبِّر ملك المولى أبيه ، وظهيره الذى لم يزل يُدْنيه ويَصْطَفيه ، وعِماده الذى ألقى إليه مقاليد الملك ، حين علم أنه صَدْر الأولياء ، وواسِطَة السِّلك ، ووزيره الذى اعتمده بإدارة أمره ، وركن إلى مناصحته فى سِرِّه وجَهره ، وقلَّده نجَاد الوَزارتين ، وحلَّاه بحُلِى الرِّياستين ، فاكتفى منه عن الأثر بالعين ، ونشر له لواء الوِلايَتين ، فتلقَّاه بيمينه ، وقام مضطَّلعا بأمره ، قيام الأسد دون عرينِه . وحين انعقد هذا الأمر العلى ، قام بسياسة مُلْكه أحسن قيام وأوفاه ، وأداره فأصاب فى إدارته ، مرْمَى السَّداد الذى لم يوافقه إلا إياه . واستولى فى هذه الميادين على غاية الكمال ، واضطَّلع بالرِّياسة والسِّياسة ، اضطلاع أفذاذ[1] الرجال . ولم يزل يدفع عن حِماه ، ويذُبُّ عن حوْزته بما يحبُّه الله ويرضاه ، حتى انتظمت بالسُّعود أفلاكه المُنِيفة وأملاكه ، ودارت بالتَّأْييد أفلاكُه .

ولما كان الشَّقى الغادر ، الذى اغتصب الحقَّ ، وطهر منه الطُّرق ، قد جار على جانب المُعْتَمد به فى ماله ، وتعدَّى بالبغْى على حاله ، ظُلْمًا وعدوانًا ، وجورًا وطغيانًا ، لم يُقَدِّم أيَّده الله عملا ، عند العودة إلى ملكه المؤيد ، وسلطانه الأسعد ، وفخره المجدَّد المؤيد ، وأخذ الله تعالى له من الظَّالم أعظم الثَّأْر ، وأمدَّه بإعلامه ، وإظهاره بأعظم الأنصار ، على أن صَرَف عليه جميع أملاكه ، التى خلصت له بالشَّرع مُوجباتها ،

---

(١) وردت فى الإسكوريال والزيتونة (أفراد) وهو تحريف اقتضى التصويب .

ووضَحت فى سبيل الاستحقاق بيِّناتها ، مما كان الغادر قد غصَبه له وانتهبه ، وقطع بالباطل عنه سَبَبه ، ومكَّنه أيده الله منها باحتيازها ، وتولى لنفسه إحرازها ، وعاد بهذا التَّسويغ الملكى ، يوم عودتها إليه خيرا من أمسه ، هنَّأه الله الانتفاع بها فى العمر الطويل ، وحَفِظها عليه وعلى عقِبه ، يتملَّكُها الجيلُ منهم بعد الجيل . وهى كذا وكذا ، بداخل الحضرة وخارجها ، وكذا وكذا من البلاد . سوَّغ إليه أيده الله ذلك ، تسْويغًا شرعيًّا ، ورفع به عنه نيه الأغراض ، رفعًا كُلِّيًّا أبَديًّا ، وتَبرأً من حق يتعلق به ، أَو شُبْهة تتَطَرَّق بسببه . فليتصرف أعزّه الله فى ذلك بما شاء من أنواع التصرفات ، على ما توجبُه السُّنَّة الواضحة الآيات ، من غير حجرٍ عليه ، ولا تعقُّب لما لديه . وشمل حكمُ هذا التَّسويغ الجسيم ، والإنعام العميم ، جميع ما يُستغل على الأَرض والجنَّات والكروم ، والثَّمرات من العوايد المُسْتقبلة عليها ، والغلاَّت ، شمولا تاما ، مُطْلقًا عاما ، وأن يكون هذا ثابتا صحيحا ، ومن الشَّك مُزِيحا ، وحكمه على الأَيام ، واتصال الشهور و الأَعوام ، متصل الدوام . كتبنا خطَّ يدنا شاهدًا بإمضايه ، وسجَّلنا الحكم باستقلاله واقتِضايه [1] . فليعلم ذلك من يقف عليه ، ويعتبرما لديه . وذلك فى اليوم الثانى لرمضان المعظم من عام ثلاثة وستين وسبع ماية .. صح هذا » .

ولما قضى الله بالانصراف [2] إلى العدوة الغَرْبية [3] ، صدرت عن سلطانها أمير المسلمين أبى سالم منشورات رفيعة منها ، وقد تَشَوَّفتُ إلى

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (واكتفايه) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (بالعود) .

(٣) هكذا وردت فى المخطوطين . والمقصود بها العدوة المغربية .

مطالعة بلاده الغرْبية ، وجهاتها المرّاكُشيّة ، بقصد[1] لقاء أهل الصلاح والعبادة ، وزيارة مَلاحِد السّادة ، ما نصه :

هذا ظهير كريم أشاد بالتّنْويه الفَسِيح المجال ، والإكرام السّابغ الأذْيال[2] ، وأعاد النعم بعد إبدائها عميمة النّوال ، ووارِفَة الظّلال ، وألقى فى يد المُعْتَمد به ، صحيفة الاعتِناء حميدة المقال ، مُقْتَضِبة ديوان الآمال ، ورفع له لواء الفخر العزيز المنَال ، على النّظراء والأمثال. حكم بإعماله ، وإمضاء أمْرِه الكريم وامتِثاله ، عبد الله المستعين بالله إبراهيم ، ابن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد فى سبيل الله رب العالمين ، أبى الحسن ، ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين أبى سعيد ، ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين أبى يوسف بن عبد الحق . أيّد الله أمره ، وأعزّ نصره ، للشيخ الفقيه الأجلّ ، الأعزّ الأسْنَى ، الوزير الأمْجد الأنوه المحترم ، الملحوظ ، الأثير الأكْمل ، السّرِى الحظىّ الذكى الأخْلَص ، أبى عبد الله ابن الشيخ ، الوزير ، الفقيه الأجل ، الأعز الأسْنى الأمجد ، الحسيب الأصيل ، الأنْوه الأنزه ، الأثير الأكمل ، المبرور المرحوم أبى محمد بن الخطيب . وصل الله حُظْوته ، ووالى عزّته . جدّد له الحُظوة التى يُضْفى لباسُها ، وصحح بنظر البرّ والإكرام قيامها ، وشيّد بمبانى الحِفاية التى مهّد أساسها ولما وفد على بابه الكريم ، عايذا بجواره ، ومُلْقيًا فى ساحة العزّ المشيد عصَا تَسْيار ، ومُجْرياً فى ميدان الثّنا جياد أفكاره ، ومعتمدا على نظرنا الجميل فى بلوغ آماله ، وحصول أوْطاره ، فسَحْنا له فى ميدان البرّ

---

(١) هكذا فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (نقتصد) وهو تحريف .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الإقبال).

والتّرحيب فبلغ مداه ، وأنَس فى حضرتنا الكريمة ، أنوار العناية ، التى كانت هُداه ، وأحْللْناه من بساطنا المحلّ الذى اشتمل به العزّ وارْتَداه ، وكَمل له الأمل ووفّاه . وأذنّا له ، تَفنُّنًا فى إسداء النِّعم الثرة ، وتلقّى وفادته بوجوه القبُول والمبرّة ، فى زيارة التُّربة المقدّسة بشالّة[1] المعظمة ، حيث ضريح مولانا المقدس ، ومن معه من أسلافنا الكرام ، نوّر الله مثواهم ، وجعل فى الجنة مأواهم : وهذا الغرض الجميل ، وإن عُدّ من أنواع التكريم ، والإحسان العميم ، فهو السّعى الذى تصرف إليه وجوه [القبول][2] والرضا والاهتمام ، والرغبة التى[3] يُصْفى لها موارد الإسعاف عذوبة الحمام ، والتقرّب الذى تؤثره [مهاد البرّ المُسْتدام][4] ولفاعله مزيّة الاعتناء والتّقديم ، وجزاءُ[5] القيام بخدمة سَلفِنا الكريم ، وقد أذنّا له فى مشاهدة تلك الجهات من حَضْرتنا العليّة ، إلى مرّاكُش المحروسة ، للقاء الأعلام ، واجتلاء المعاهد الكرام ، والآثار الباقية على الأيام ، كيف أحبّ ، وعلى ما شاء من إراحة أو إلمام ، مُصْحباً بمن يُنوّه به فى طريقه من الخُدّام ، تنويها للكرامة وتعديداً ، وتجديدا للعناية وتأكيدا . فليعلم بذلك ، ماله فى بابنا الكريم من الاعتناء ، وما اعتدنا لمحبى أسلافنا الكرام من الجزاء ، ويجرى فى جميع مآربه وأحواله على النّهج السواء ، مراعىً حال إيابه إلى مقرّه من حضرتنا العليّة ، ومحلّه من بساطنا الأشرف ،

---

(١) شالة هى محلة أثرية رومانية تقع الآن فى نهاية مدينة الرباط . وبها إلى جانب الآثار الرومانية بعد المنحدر ، فى سفحها المستوى ، عدة من قبور أمراء بنى مرين ، وفى وسطها قبر السلطان الكبير أبى الحسن المرينى والد السلطان أبى سالم .

(٢) هذه الكلمة واردة فى الزيتونة وساقطة فى الإسكوريال .

(٣) وردت فى الإسكوريال (الذى) والتصويب من الزيتونة .

(٤) نقلنا هذه العبارة من الزيتونة ومكانها بياض مخروم فى الإسكوريال .

(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (حق) .

وعَرْضه أعمال القايمين ببرِّه ، وأكرمنا بين أيدينا، فيجنى المبادرة إلى توْفِية آماله ، وثمرة أعماله ، ويقابل القايم بمبرَّته. والله المستعان ، وكتب بالمدينة البيضاء ، مهَّدها الله ، فى الحادى والعشرين لربيع الثانى عام أحد وستين وسبع مايه ، وليُعْتمد لوزيرنا الشيخ الأجل الحظى الأكمل أبو الحسن على بن العباس ، أكرمه الله ، على أن يُدخله إلى المساكن العلية بقَصبة مراكُش حرسها الله ، ليشاهد الآثار السلطانية ، التى انتظمت فى سِلْكنا ، وعفَّى عليها جديد ملكنا . فليُعلم ذلك . وليُعمل به ، والله المستعان وكتب فى التاريخ المؤرخ به » .

وجرَّ هذا الإنعام دُنيا عريضة ، تفتَّقتْ فيها المواهب ، ووضَحت من اشْتِهارها المذاهب ، شكر الله نِعْمته ، ووالى على ترْبته رحمته .

وصدر لى عن المُتصيِّر إليه أمره ما نصه ، وهو بعضٌ من جُمْلة ، ونوعٌ من أجْناس مُبِرَّة :

هذا ظهير كريم نَظَم العناية ووَصَلها ، وأجْمل الرعاية وفَصَّلها ، وأحْرَز مواهب السعادة وحصَّلها ، أمر بإبْرامِهِ ، والوقوف عند أحكامه ، عبد الله المتوكل على الله محمد ، أمير المسلمين ، المجاهد فى سبيل ربِّ العالمين ، ابن مولانا الأمير عبد الرحمن ابن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد فى سبيل رب العالمين أبى الحسن ، ابن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد فى سبيل رب العالمين أبى سعيد ، ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين ، أبى يوسف بن عبد الحق ، أيَّده الله ونصره ، وسنَى له الفتح المبين ويسَّره ، للشيخ الفقيه الأجل ، الأسْنى الأعزِّ ، الأحظى الأرفع ، الأمجد الأسنى، الأنْوه الأزْكى، العالم العلَمَ ، الرئيس الأعْرف ، المُتَفَنِّن الأبْرع ، المُصَنِّف المفيد ، الصَّدر الأحْفَل ، الأفضل

الاكمل ، أبى عبد الله ، ابن الشيخ الفقيه الوزير الأجل ، الأسنى الأغر ، الأرفع الأمجد ، الوجيه الأنوه ، الأحفل ، الأفضل ، الحَسِيب الأصيل الأكمل ، المبرور المرحوم أبى محمد بن الخطيب ، أيده الله بوجه القبول والإقبال ، وأضفى عليه ملابس الإنعام والإفضال ، ورَعى له خِدْمة السَّاف الرفيع الجلال ، وما تقرَّر من مقاصده الحسنة فى خدمة أمْرنا العال . وأمر فى جملة ما سوَّغ من الآلاء الوارِفة الظِّلال ، الفَسِيحة المجال ، بأن يُجدِّدَ له حكم ما بيده من الأوامر المتقدم تاريخها ، المتضمنة تمشية [خمسمائة من الفِضَّة العَشْرية][1] فى كل شهر ، عن مرتَّبٍ له ولولده الذى لنظره ، من مَجبَى مدينة سلا حرسها الله ، فى كل شهر ، من حيث جَرتْ العادة أن يتمشى له ، ورَفْع الاعتراض ببابها فيما يُجلَب من الأُدُم والأقْوات على اختلافها ، من حيوان وسواه ، وفيما يستفيده خُدَّامه بخارجها وأحْوازِها من عِنَبٍ وقُطْن وكتَّان ، وفاكهة وخُضَر وغير ذلك ، فلا يُطْلب فى شىء من ذلك بمغْرَم ولا وظِيف ، ولا يُتوجَّه فيه إليه بتكليف . يتَّصل له حكم ما ذُكر فى كل عام ، تجديداً تاما ، واحتراما عاما ، أعلن بتجديد الحُظْوة واتصالها ، وإتمام النِّعمة وإكمالها ، من تواريخ الأوامر المذكورة إلى الآن ، ومن الآن إلى ما يأتى على الدوام ، واتصال الأيام ، وأن يُحْمل جانبه فيمن يُشْركه أو يخدمه مَحمَل الرَّعى ، والمحاشاة من السُّخرة ، متى عَرَضته ،والوظايف إذا افترِضت ، حتى يتَّصل له تالد العناية بالطَّارف ، وتتضاعف أسباب المِنَن والعَوارف ، بفضل الله ، وتُحَرَّر له الأزواج التى يحرثها ، تَبالَغَت من كل وجيبة ، ويُحاش من

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال والزيتونة . ووردت فى النفح كالآتى (تمشية خمسماية دينار من الفضة العشرية) (نفح الطيب ج ٣ ص ٣٧٧) . وهناك لبس أو تحريف فى هذه العبارة لأن الدينار لايكون إعادة إلا من الذهب .

كل مَغْرم أو ضَريبة ، بالتحرير التّام ، بحول الله وعونه . ومن وقَفَ على هذا الظهير الكريم ، فليعمل بمُقْتضاه ، وليمض ما أمضاه ، إن شاء الله . وكتب فى العاشر لشهر ربيع الآخر من عام ثلاثة وستين وسبعماية . وكتب فى التاريخ .

وهذا ومثله ، لولا أنه أحْظُوظ [ربما انتفع العقب بوَضَمِها] [١] ورمى غرض الإغفال بسهمها ، لم يُعْن بها ، من يرى أن لا جدْوى إلاّ فى التقوى ، وأن يد الله من هذه الأسباب الضّعيفة أقوى .

وأما ما رُفع إلىَّ من الموضوعات العلمية والوسائل [٢] الأدبية ، والرسائل الإخوانية ، لمّا أقامنى الملك صَنَمًا يُعبد ، وجَبلاً [٣] إليه يُسْتند ، صادرةً عن الأعلام ، وحملة الأقلام ، ورؤساء النّثار والنّظام ، فجمٌ يضيق عنه الإحصاء ، ويعجز عن ضم نَشْره الاسْتِقْصاء . فربما تضمن هذا الكتاب — كتاب الإحاطة — هذا منه كثيراً ، منظومًا ونَثِيراً ، جرى فى أثناء الأسماء ، وانتمى إلى الإجادة أكبر الانْتِماء . غفر الله لى ولقائله ، فما كان أوْلانى وإيّاه ، بسَتْرِ وِزْره ، وإغراء الإضراب بغُروره ، فأهون بما لا ينفع ، وإن ارتفع الكلم الطّيب لا يُدفع [٤] ، اللهم تجاوز عنا بكرمك وفضلك .

المشيخة

قرأت كتاب الله عزّ وجل على المكتّب ، نسيج وحده ، فى تَحَمُّل المنزّل حقّ حمْله ، تقوىً وصلاحًا ، وخصوصِيّةً وإتقانا ، ونغمة ، وعناية وحفظا ، وتبحُّراً فى هذا الفن ، واضطّلاعا بضرايبه ، واستيعابًا لسقَطات الأعلام ، الأستاذ الصالح ، أبى عبد الله بن عبد الولى العَوّاد ،

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (بنا انتفى رسمها) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الرسائل) .

(٣) وردت فى الإسكوريال (خيالا) . والتصويب من الزيتونة .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (يرجع) .

كَتْبًا ثم حِفْظاً ، ثم تجويدًا إلى مَقْرى أبي عمرو ، رحمة الله عليهما .
ثم نَقَلَنى إلى أُستاذ الجماعة ، ومطيَّة الفنون ، ومُفيد الطلبة ، الشيخ
الخطيب أبي الحسن القِيجاطى ، فقرأْت عليه القرآن والعربيَّة ، وهو
أول من انتَفَعْتُ به . وقرأْت على الحسيب الصدر أبي القاسم بن جُزَى .
ولازمت قراءة العربية والفقه ، والتفسير ، على الشيخ الأُستاذ الخطيب
أبي عبدالله بن الفخَّار البِيرى ، الإمام المُجْمَع على إمامته فى فن العربية ،
المفتوح عليه من الله فيه ، حفظاً ، واضطِّلاعاً ، ونقلاً وتوجيهاً ، بما لا
مَطْمَع فيه لسواد . وقرأْت على قاضى الجماعة الصدر المتفنن أبي عبد الله
ابن بكر ، رحمه الله . وتأَدبت بالشيخ الرئيس صاحب القلم الأَعلى ،
الصالح الفاضل ، أبي الحسن بن الجيَّاب . ورويت عن كثير ممن جمعهم
الزمان بهذا القطر من أهل الروِّاية ، كالمحدِّث أبي عبد الله بن جابر ،
وأخيه أبي جعفر ، والقاضى الشهير بقيَّة السلف ، شيخنا أبي البركات
ابن الحاج ، والشيخ المحدث الصالح أبي محمد بن سَلْمُون ، وأخيه
القاضى أبي القاسم بن سلمون ، وأبي عمرو بن الأُستاذ أبي جعفر بن الزُّبير ،
وله رواية عالية . والأُستاذ اللغوى أبي عبد الله بن بيبش ، والمحدث
الكاتب أبي الحسين التِّلمسانى ، والشيخ الحاج أبي القاسم بن البناء ،
والعدل أبي محمد الزرقون ، يحمل عن الإمام ابن دَقيق العِيد ، والقايد
الكاتب ابن ذى الوَزارتين أبي عبد الله بن الحكيم ، والقاضى المحدث
الأَديب ، جُمْلة الظُّرف ، أبي بكر بن شِبْرين ، والشيخ أبي عبد الله بن
عبد الملك ، والخطيب أبي جعفر الطَّنجالى ، والقاضى أبي بكر بن مَنْظُور ،
والرَّاوية أبي عبد الله بن حزْب الله ، كلهم من مالَقة . والقاضى أبي عبدالله
المقَّرى التِّلمسانى ، والشَّريف أبي على حسن بن يوسف ، والخطيب الرئيس

أبى عبد الله بن مرزوق كلهم من تِلِمْسَان · والمحدث الفاضل الحسيب أبو العباس بن يَرْبُوع السَّبتى ، والرئيس أبى محمد الحضرمى السَّبتى ، والشيخ المقرى أبى محمد بن أيوب المالَقى آخر الرواة عن ابن أبى الأحْوَص ، وأبى عثمٰن بن ليون من ألْمريَّة ، والقاضى أبى الحجاج المُنْتشافرى من أهل رُنْدة ، وطايفة كبيرة من المعاصرين ، ومن أهل العُدْوة الغربية والمشرق ، الكثير بالإجازة . وأخذتُ الطبَّ والتَّعاليم ، وصناعة التعديل عن الإمام أبى زكريا بن هُذَيل ، ولازمته . هذا على سبيل الإلمام . ولو تفرَّغت لذكرهم ، لخرج هذا التَّقْييد عما وُضع له .

التواليف

من ذلك ، اللمحة البَدْرية فى الدولة النَّصرية . والحُلَل المَرْقومة . ومُثْلى الطَّريقة · والسِّحر والشِّعر . وريحانة[1] الكُتَّاب فى أسفار ثمانية . وكتاب المحبَّة فى سِفرين . والصَّيِّب والجِهام مجموع شعرى . ومِعْيَار الاخْتِيار . ومُفاضلة [بين][2] مالقة وسَلا · ورِسالة الطَّاعون . والمسايل الطبِّية سفر · والرَّجز فى عمل التِّرياق . واليُوسِفى فى الطِّب فى سفرين . والتَّاج المحلَّى فى سفر · ونُفَاضة الجِراب فى أربعة أسفار . والبَيْزَرَة فى سفر . والبَيْطَرة فى سفر ، جامعٌ لما يُرجع إليها من محاسن الخَيْل وغير ذلك . ورسالة تَكْوين الجَنين . والوُصُول لِحِفظ الصحة فى الفُصول . ورَجَز الطِّب · ورَجَزُ الأَغْذِية . ورجزُ السِّياسة . وكتاب الوَزارة ومَقامة السِّياسة . وكتاب الإحاطة هذا فى خمسة عشر سفراً . إلى ما صدر منى فى هذا العهد القريب ، وهى الغَيْرة على أهل الحَيْرة · وحَمْل الجمهور على

---

(١) وردت فى الإسكوريال (وريحان) فاقتضى التصويب .

(٢) ساقطة فى المخطوطين . وأضيفت للتصويب .

السُّنن المشهور . والزُّبدة المَمْخُوضة والرُّميمة . والرَّدعلى [أهل الإباحة][1] وسدُّ الذَّريعة فى تفضيل الشَّريعة . وتقرير الشُّبه ، وتحرير المُشَبَّه . واستنزال اللطف الموجود فى سر[2] الوجود .

ومن التواليف الصادرة قديما ، بُستان الدول ، وهو موضوع غريب ما سُمِع بمثله ، قلّ أن شذ عنه فنٌّ من الفنون، يشتمل على شَجراتٍ عشر ، أولها شجرة السلطان ، ثم شجرة الوَزارة [ثم شجرة الكِتابة ، ثم شجرة القضاء والصلاة ، ثم شجرة السُّلطة والحِسبة][3] ، ثم شجرة العمل ، ثم شجرة الجهاد ، وهو فرعان ، أُسْطُولٌ وخُيُولٌ . ثم شجرة ما يضطر باب الملك إليه من الأَطِبَّاء والمنجمين [والبيازِرة والبياطرة والفلاحين][4] والندماء والشُّطرنجيين ، والشعراء والمُغَنِّين . ثم شجرة الرَّعايا . وتقسيم هذا كله غريب ، يرجع إلى شُعب وأُصول ، وجراثِيم وعُمُد ، وقِشْر ولِحاء، وغصون وأوراق ، وزهرات مثمرات وغير مثمرات ، مكتوب على كل جزء من هذه الأجزاء ، اسم الفن المراد به . وبرنامجة صورة بستان . كمل منه نحو ثلاثين جزءاً تُقارب الأَسفار ، ثم قَطع عنه الحادث على الدولة . وأبيات الأبيات . وفتات الخِوان ولَقْط الصِّوان فى سفر ، يتضمن المقطوعات . وعايد الصلة فى سفرين ، وصلت به « صلة » الأُستاذ أبى جعفر بن الزبير . وتخليص الذهب فى اختيار عيون الكتب الأَدبيات . وجيش التَّوشيح . وطُرْفة العصر فى دولة بنى نصر ، ثلاثة أسفار . إلى غير ذلك . حتّى فى الموسيقا وسواها . هذرٌ كُثِّف به الحجاب ، ولَعِبَ بالنفس

---

(١) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (الإباحية) .

(٢) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (أمر) وترد الكلمة فى عنوان هذه الرسالة أحياناً (أسرار) وأحياناً (سير) .

(٣) الزيادة من نفح الطيب .

الاعجاب [وضاع الزمان] ولا تسل بين الرّد والقبول ، والنفى والإيجاب . ولله درّ القائل :

والكون أشراكُ نفوس الوَرى   طوبى لنفسٍ حـرة فازتْ
إن لـم تحُز معـرفة الله قد   أورطها الشىءُ الذى حازتْ

وكلٌّ مُيسَّرٌ لما خُلق له ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

[هذا ، وقد ذُكرت مؤلفات ابن الخطيب ، التى أوردها فى ختام ترجمته لنفسه ، بصور مختلفة ، وفقاً لتواريخ كتابتها ، وقد أورد لنا المقرى منها صورة رُتِّبت على نمط آخر ، وبها زيادات لم ترد فى نسخة الإسكوريال مما يدل على أن نسخة الاحاطة التى وردت بها ، قد كتبت فى وقت لاحق . وقد رأينا أن ننقلها فيما يلى :

(التواليف) : التَّاج المحلى فى مساجلة القِدح المعلَّى . والكتِيبة الكامنة فى أدباء المائة الثامنة . والإكليل الزاهر ، فيما فضل عند نظم التَّاج من الجواهر . ثم النُّفاية بعد الكفاية ، هذا فى نحو القلايد والمطْمحين لأبى نصر الفتح بن محمد . وطرفة العصر فى دولة بنى نصر فى أسفار ثلاثة . وبستان الدول موضوع غريب ما سمع بمثله ... (إلخ الأوصاف التى وردت فى البيان السابق) . وديوان شِعرى فى سفرين ، سميته الصيِّب والجهام والماضى والكهام . والنثر فى غرض السُّلطانيات كثير . والكتاب المسمى باليُوسفى فى صناعة الطِّب فى سفرين كبيرين ، كتاب ممتع . وعايد الصِّلة ، وصلتُ به صلة الأُستاذ أبى جعفر بن الزبير فى سفرين . وكتاب الإحاطة بما تيسَّر من تاريخ غرناطة ، كتاب كبير فى أسفار تِسعة ، هذا متصل بآخرها . وتخليص الذهب فى اختيار عيون الكتب الأدبيات الثلاثة . وجيش التَّوشيح فى سفرين . ومن بعد الانتقال إلى الأندلس ،

وما وقع من كياد الدولة : نُفاضة الجراب فى عِلالة الاغتراب ، موضوع جليل فى أربعة أسفار . وكتاب عَملُ من طبَّ لمن حبَّ . ومنزلته فى الصناعة الطبية ، بمنزلة كتاب أبى عمرو بن الحاجب المختصر فى الطريقة الفقهية ، لا نظير له . ومن الأراجيز ، المسماة برَقْم الحُلل فى نظم الدول . والأُرجوزة المسماة بالحُلل المرقومة فى اللمع المنظومة ، ألفيَّة من ألْفِ بيت فى أُصول الفقه . والأُرجوزة المسماة بالمَعْلُومة ، معارضة للمقدمة المسماة بالمجهولة ، فى العِلاج من الرأس إلى القدم ، إذا أُضيفت إلى رجز الرئيس أبى على ، كمُلَتْ بها الصِّناعة كمالا لا يُشِينُه نقص . والأُرجوزة المسماة بالمُعْتَمدة فى الأَغذية المفردة . والأُرجوزة فى السياسة المدنية . إلى ما يشذ عن الوصف ، كالرجز فى عمل الترياق الفاروق . والكلام على الطاعون المعاصر . والاشارة . وقطع السلوك . ومُثْلى الطريقة فى ذمِّ الوثيقة . حتى فى الموسيقى والبَيْطرة والبيْزرة . هذا وبه كُتِّف الحجاب ، ولعِب بالنفس الإعجاب ، ولله درُّ القائل : الشعر السابق ذكره][1] .

الشـــــعر

من ذلك قولى فى الجناب الكريم النَّبوى ، شرفه الله ، وهو من أوليات نظمى فى ذلك الغرض :

هل كنت تعلم فى هبوب الريح	نَفساً يؤجج لاعج التَّبْـــريح
أهدَتْك من مشج الحجـــاز تحيةً	غاضت[2] لها عُرُض الفِجاج الفِيح
بالله قُلْ لى كيف تيران الهـــوى	ما بين ريحٍ بالفـــلاة وشِـــيح
وخضِيبَةُ المِنْقـار تحْسَب أنهـــا	نهلت بموْرِد دمعى المَسْـفوح
باحت بما تُخْفى وناحت فى الدُّجا	فرأيت فى الآفــاق دَعْوة نـــوح

---

(١) نفح الطيب ج ٤ ص ٢٤١ و ٢٤٢

(٢) هكذا وردت فى الاسكوريال والزيتونة . وفى النفح (فاحت) .

نطقت بما يخفيه قلبي أدمعي … ولطالما صَمَتت عن التّصريح

عجبًا لأجفانى حَملْن شهادة … عن خافت بين الضلوع جَريح

ولقلّما[1] كتبت رُواة مدامعى … فى طُرّتيها[2] حِلْية التّجريح

اجاد الحِمى بعدى وأجْراع الحمى … جودٌ تكلّ به متُون الريح

هُن المنازل ما فؤادى بعدها … سال ولا وَجْدى بها بمَريح

حسْبى ولوعا أن أزور بفكرتى … زُوّارَها والجسم رهْن نُزوح

فأبُثّ فيها من حديث صبابتى … وأحثّ فيها من جناح جُنوحى

ودجنة كادت تضلّ بنى[3] الشرى … لولا وميضاً بارقٍ وصَفيح

وعشتُ كواكب جوّها فكأنها … ورقٌ تُقَلّبها بنانُ شحيح

صابرتُ منها لُجّة مهما ارتمت … وطَمَت رميتُ عُبابها بسبوح

حتى إذا الكفّ الخَضيب بأفقها … مَسحت بوجه للصباح صَبيح

شمتُ المنى وحمدتُ إدلاج السُّرى … وزجرتُ للآمال كلَّ سَنيح

فكأنما لَيْلى نَسيب قصيدتى … والصّبح فيه تخلّص لمديح

لما حططت لخير من وَطِىء الثّرى … بعنان كل مَوْلد وصريح

رَحْمى إلَه العرش بين عباده[4] … وأمينهُ الأرضَى على ما يُوحِى

والآية الكبرى التى أنوارها … ضاءت أشعّتها بصفحة يُوح

ربُّ المقام الصّدق والآى التى … راقتْ بها أوراق كل صحيح

كيف الأنام إذا تفاقم مُعْضل … مثَلوا بساحة بابه المفتوح

---

(١) وردت فى الإسكوريال والزيتونه (ولقبل ما) . والتصويب من النفح .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال والزيتونه . وفى النفح (صفحتيها) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (بها) . وفى الزيتونة (تكل بها) .

(٤) هكذا وردت هذه الشطرة فى الزيتونة وفى النفح . ووردت فى الإسكوريال كالآتى (رحما إلاه العرش بين حياره) .

يَرِدون منه على مثابة راحِمٍ … جمٍّ الهبات عن الذنوب صفوح

لهفى على عُمْر مضى أنْضَيتــه … فى ملعب للترَّهــات فسـيح

يا زاجر الوَجْناء يَعْتسف الفــلا … والليـل يَعْثُر فى فضول مُسوح

يصل السُّرى سبقًا إلى خير الورى … والرَّكْبُ بين مُوَسَّد وطــريح

لى فى حِمى ذاك الضَّريح لُبــانة … إن أصْبَحتِ لُبْنَى أنا ابن ذريح

وبمهبط الرُّوح الأمين أمـــانةٌ … اليُمْن فيها والأمـــان لرُوحى

يا صفوة الله المكين مكانـــه … يا خير مؤتَمن وخـير نصيح

أقْرَضْتُ فيك الله صِدْق محبتى … أيكون تَجْرى فيك غير ربيح (١)

حاشا وكلاًّ أنت تخيب وسائِلى … أو أن أرى مَسْعاى غير نَجيح (٢)

إن عاق عنك قبيحُ ما كَسَبَت يدى … يوما فوجه العَفْو غير قبيــح

واخجَلتا(٣) من جَلْبة الفكر التى … أغريتُهــا بغــرامى المشروح

قَصَرت خُطاها بعد ما ضمرتهـا … من كل موفور الجِمام جَمُوح

مَدَحَتْك آيات الكتاب فما عسى … يُثْنى على عَلْياك نظم مديــح

وإذا كتاب الله أثْنى مُفْصِحــا … كان القُصور قُصــارَ كل فصيح

صلَّى الله عليك ما هبَّت صَبــا … فَهَفَتْ بغصن فى الرِّياض مَرُوح

واستأثر الرحمن جلَّ جلالـــه … عن خلقِه بخفىٍّ سِرِّ الروح(٤)

---

(١) هكذا وردت فى الزيتونة والنفح . وفى الإسكوريال (نجيح) .

(٢) هذا البيت ساقط فى الإسكوريال والزيتونة ووارد فى النفح .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة والنفح (واخجلتى) .

(٤) وردت هذه القصيدة فى نفح الطيب (ج ٤ ص ١٥٨ و ١٥٩) .

هذا وتنتهى هذه القصيدة فى الربع الأول من لوحة الإسكوريال رقم ٤٣٥ . ومن بعد ذلك باقيها بياض . وكذلك لوحتا ٤٣٦ و ٤٣٧ كلتاهما بيضاء، ثم تأتى بعد ذلك لوحة ٤٣٨ وبها قصيدة (تألق نجديا). وهى التى اعتمدنا على نفح الطيب فى نقل قسمها الأول الفاقد فى لوحات الإسكوريال . وهذه القصيدة لم ترد فى الزيتونة .

وأنشدت السلطان ملك المغرب ، ليلة الميلاد الأعظم من عام ثلاثة وستين وسبعمائة هذه القصيدة :

تألّق نجديًّا فأذكرنى نجدا ... وهاج بى الشّوق المبرّح والوجدا
وميضٌ رأى بُرْدَ الغمامة مَغْفِلا ... فمدّ يدا بالتّبر أعلمت البُرْدا
تبسّم فى مَجْريّة قد تجهّمت ... فما بذلت وصلا ولا ضربت وَعْدا
وراود منها فاركاً قد تنعّمت ... فأهوى لها نَصْلاً وهدّدها رعْدا
فخِلتُها الحمراء من شَفَق الضُّحى ... نضاها وحلّ المُزْن من جيدها عِقْدا
لك الله من برقٍ كأن وميضَه ... يد الساهر المَقْرور قد قَدحت زَنْدا
تعلّم من سكّانه شِيَم النّدى ... فغادر أجراع الحِمى روضة تَنْدى
وتوّج من نُوّارها قِنن الرُّبا ... وختّم من أزهارها القَضْب المُلْدا
لسُرْعان ما كانت مناسِف للصّبا ... فقد ضحكت زهرا وقد خجلت وردا
بلاد عهدنا فى قرارتها الصِّبا ... يقل لذاك العهد أن يألف العهدا
إذا ما النّسيم اعتلّ فى عَرَصاتها ... تناول فيها البان والشيح والرّندا
فكم فى مِجانى وِرْدها من علاقة ... إذا ما استُثيرت أرضها أنبتت وجْدا
إذا استشعرتها النّفس عاهدت الجَوى ... إذا ما التمحتها العَينُ عاقدت السُّهدا
ومن عاشقٍ حُرٍّ إذا ما استماله ... حديث الهوى العُذْريّ صيّره عَبْدا
ومن ذابلٍ يحكى المحبّين رقّة ... فيثنى إذا ما هبّ عَرْف الصّبا قدّا
سقى الله نَجْدا ما نضَحْتُ بذِكرها ... على كَبِدى إلاّ وجدتُ لها بَرْدا
وآنس قلبى فهو لِلْعَهد حافظ ... وقلّ على الأيام من يحفظ العَهْدا
صبورٌ وإن لم يبق إلاّ ذُبالة ... إذا استقبلت مسرى الصّبا اشتعلت وَقْدا
صبورٌ إذا الشّوق استجاد كتيبةً ... تجوس خِلال الصّبر كان لها بنْدا
وقد كنت جلدا قبل أن يذهب النّوى ... ذِمابى وان يستاصِل العظم والجلدا

أأجحد حقَّ الحبِّ والدمع شاهدٌ وقد وقع التّسجيل من بعد ما أدّى

تناثر فى إثر الحمول فريده فلله عينًا من رأى الجوهر الفَرْدا

جرى يقَقًا فى ملعب الجدّ أشهبًا وأجْهَده ركض الأسى فجرى وِرْدا

ومُرْتحل أجريْت دمعى خَلْفه ليرجعه فاستَنَّ فى إثره قصدا

وقلت لقلبى طِر إليه برُقْعتى فكان حَمامًا فى المسير بها هدًّا

سرقتُ صُواع العزم يوم فراقه فلجَّ ولم يرقب صُواعا ولا وُدَّا

وكحّلتُ عينى من غُبار طريقه فأعْقَبها دمعا وأورثها سَهْدا

إلى الله كم أهْدى بِنَجْد وحاجرٍ وأكْنى بدَعْد فى غرامى أو سَعْدى

وما هو إلا الشّوق ثار كمينُه فأذْهل نفسا لم تُبن عنده قَصْدا

وما بى إلا أن سَرى الركب مُوهنا وأعمل فى رَمْل الحِمى النَّص والوَخْدا

وجاشَتْ جنود الصّبر والبَيْن والأسى لدىَّ فكان الصّبر أضعفها جُندا

ورُمْتُ نهوضا واعتزمْتُ ودُعاً فصدَّنى المقدور عن وجهتى صدًّا

رقيقٌ بدت للمشترين عيوبهُ ولم تلتفت دعواه فاستَوجب الردّا

تخلّف عنّى ركْبُ طيبة عانيًا أما آن للعانى المُعنّى بأن يُفْدى

مُخْلف سِربى قد أُصيب جناحُه وطِرْن فلم يَسْطع مراحا ولا مغْدى

نشدتُك يا ركبَ الحجاز تضاءلت لك الأرض مهما استَعرض السَّهب وامتدّا

وجَمَّ لك المَرْعى وأذعنت الصُّوَى ولم تفتقد ظلاًّ ظَليلاً ولا وِرْدا

إذا أنت شافهتَ الدّيار بطيبَةَ وجئتَ بها القَبْر المُقَدَّس واللّحدا

وآنستَ نورًا من جَناب محمد يُجلّى القلوب الغُلْقَ والأعيُن الرُّمْدا

فَنِب عن بعيد الدار فى ذلك الحِمى وأذْرِ به دمعاً وعفِّر به خَدّا

وقل يا رسول الله عبدٌ تقاصرت خُطاه وأضحى من أحِبّته فَرْدا

ولم يستطع من بعْد ما بَعُد المدى ... سوى لوعةٍ تعتاد أو مِدْحةٍ تُهدى
تداركه يا غوثَ العِباد برحمة ... فجودُك ما أَجْدَى وكفُّك ما أَنْدَى
أجار بك الله العِبـاد من الرَّدى ... وبوَّأهم ظلاًّ من الأَمْن مُمْتـدَّا
حمَى دينك الدُّنيا وأقْطعَك الرِّضا ... وتوَّجَك العليا وأَلْبسَك الحَمْدا
وطهَّر منك القلب لما استخَصَّه ... فجلَّله نورا وأَوْسَعه رُشْــدا
دعاه فما ولَّى هَداهُ فما غَــوى ... سقاه فما يظما جلاه فما يصدا[1]
تقدَّمت مُختـارا تـأَخَّرت مُبْعثًا ... فقد شَملت علياؤك القَبْل والبَعْدا
وعلَّة هذا الكون أنت وكل مـا ... أَعاد وأنت القَصْدُ فيه وما أَبْدا
وهل هو إلاَّ مظهــر أنت سِره ... ليمتاز فى الخَلْق المُكبُّ من الأَهْدا
ففى عالم الأَسرار ذاتك تَجْتَــلَى ... ملامح نور لاح للطُّور فانهدَّا
وفى عالم الحسن اغْتَدَيت مُبوَّأ ... لتُشْنى من اسْتَشْنى وتُهدى من اسْتَهدا
فما كنتَ لولا أن بُثَّت هدايــةً ... من الله مثل الخلق رسما ولا حدًّا
فما عسى يُثنى عليك مُقصِّر ولم ... يـألُ فيك الله[2] شكرا ولا حمدا
بماذا عسى يجزيك هاوٍ على شفًا ... من النار قد أسكَنْته[3] بعدها الخُلدا
عليك صلاة الله يا خير مُرْسَلٍ ... وأكرم هادٍ أوضح الحق والرُّشدا[4]
عليك صلاة الله يا كاشف العَمى ... ومُذْهبَ ليل الشِّرك[5] وهو قد اربدَّا
إلى كم أرانى فى البطـالة كانعاً ... وعمرىَ قد ولَّى ووِزرىَ قد عدَّا
تقضَّى زمانى فى لعلَّ وفى عسى ... فلا عزمةٌ تُمضى ولا لوعةٌ تَهدا

---

(١) من هنا تبدأ بقية القصيدة الواردة بالإسكوريال (لوحة 438) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (الذكر) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (أوردته) .

(٤) هذا البيت وارد فى الإسكوريال وساقط فى النفح .

(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (الروع) والأولى أرجح .

حُسام جبان كلما شِيم نصْــلُه | تراجع بعد العزْم والتزم الغِمْدا
ألا ليت شِعرى هل أرانى ناهدا | أقود القلاص البُدنَ والضَّامر النَّهدا
رضيع لبان الصَّدق فوق شمْله | مُضْمَّرة وسدَّت من كورها مَهْدا
فتُهدى بأشواق السُّراة إذا سَرَت | وتُحْدى بأشْعار الرِّكاب إذا تحدًّا
إلى أن أحطَّ الرَّحل فى تُربك الذى | تضَوَّع نِدًّا ما رأينـــا له نِدًّا
وأُطفىءُ فى تلك الموارد غُـلّتى | وأحسب قُرْبًا مُهْجة شَكَت البُعْدا
بموْلِدك[1] اهتزَّ الوجودُ فأشرقت | قصورٌ ببصرى ضاءت الهَضْب والوَهْدا
ومن رُعْبه الأوثان خرَّت مهـابةً | ومن هوْله إيوان كِسْرى قد انْهَدَّا
وغاض له الوادى وصبَّح عـــزه | بيوتًا لنار الفرس أعْدمها الوَقدا
رَعى الله منها ليلةً أطْلع الهُدى | على الأرض من آفاقها القمر السَّعدا
وأقرض مُلْكًا قــام فينـــا بحقِّهـا | لقد أحْرَز الفخـر المؤثَّل والمجدا
وحيًّا على شطِّ الخليج محـلَّةً | يحالف من ينتابها العِيشَةَ الرَّغدا
وجاد الغمام العدُّ فيها خلائِفًا | مآثرهم لا تعرف الحصر والعدًّا
عليًّا وعثمان ويعقوب لا عـدا | رضى الله ذاك النَّجلُ والأب والجدًّا
حَمُوا وهموا فى حَوْمة البأس والنَّدى | فكانوا الغُيوث المُسْتَهلة والأُسْدا
ولله ما قد خلَّفوا من خليفــة | حَوَى الإرث عنهم والوصيَّة والعَهْدا
إذا ما أراد الصَّعب أغرى بنَيْله | صدور العوالى والمطهَّمة الجُرْدا
فكم معتدٍ أردى وكم تائه هَــدا | وكم حِكْمَة أخفى وكم نِعْمة أبْدا
أبا سالم دين الإلـه بك اعْتَـلَى | أبا سالم ظِلُّ الإلـه بك امْتَـدًّا
فَدُم من دِفاع الله تحت وقــايةٍ | كفاك بها أن تَسْحب الحلق السَّرْدا
ودونَكهــا منِّى نتيجة فكـــرة | إذا استَرْشَحت للنظم كانت صفًا صَلدا

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى النفح (لمولدك) .

ولو تركت منّى الليـالى صُبـابةً   لأَجْهَدْتُها ركضًا وأرهقتُها شـدا
ولكنه جُهْد المُقِلِّ [على النَّوى] [1]   وقدأَوْضَحَ الأَعْذار من بَلغ الجَهْدا [2]

ومن ذلك قصيدة أنشدتها مولاى السلطان الغنى بالله بمحضرى بالمشور الحافل ، المُتَّخذ بعد الرجوع إلى الأندلس ، فى بعض ليالى المولد الكريم ، المنوّه بوليمتها ، وهى خاتمة النَّظم فى هذا الغرض المقتضى الإلمام ، بمدح السلطان ، صرف الله وجوهنا إليه :

ما على القلب من بعدكم من جُناح   أن يُرى طائرا بغير جِناح
وعلى الشّوق أن يشبَّ إذا هبَّ بأنفاسكم نسيم الصباح
جيرةُ الحىِّ والحديث شجون   والليالى تلين بعد الجِماح
أترون السُّلُوَّ خامر قلبى   بعَذْلِكم لا وفالقُ الإصباح
ولو أنى أُعطى اقتراحى على الأيام ما كان بعدكم باقتراح
ضايَقَتْنى فيكم صروف الليالى   واستدارت علىَّ دَوْر الوِشاح
وسَقَتْنى كأس الفراق دِهاقًا   فى اغْتِباقٍ مُواصَل باصْطِباح
واستباحت من جِدّتى وقبائى   حَرَما لم أحله بالمُسْتَباح
قصفت صَعْدةَ انتصارى وفلّت   غَرْب عَزْمى المُعَدّ يوم كفاح
لم تدع لى من السلاح سوى   مغفر شَيْب أهوى به من سلاح
عاجلتنى به وفى الوقت فضلٌ   لاهتزازى إلى الهوى وارتياح
فكأنَّ الشباب طيفُ خيال   أو وَميض قمًا [3] عُقيب التماح
ليل أنسٍ دَجى [4] وأقصره ليلٌ   جاذبت بُرْدَه يمين صباح

---

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . وفى النفح (بلغته) .
(٢) اورد المقرى هذه القصيدة فى نفح الطيب ج ٤ ص ١٥٩ — ١٦١ .
(٣) واردة فى الإسكوريال وساقطة فى الزيتونة .
(٤) هكذا فى الإسكوريال وفى الزيتونة (مضى) .

صاح والوجد مَشْربٌ والورى صِنفان من مُنتشٍ وآخر صاحِ
يا ترى والنفوس أَسْرَى الأماني ما لها عن وثاقها من سَراح
هل يباحُ الورُود بعد ذِياد(١) أو يُتاح اللقاءُ بعد انْتِزاح
وإذا أعوز الجسوم التَّلاقى ناب عنه تعارفُ الأرواح
جاء عهد الهوى من السُّحب هامٍ مستهلٌ الوميض ضافى المَناح
كلما أَخْضَل الرُّبُوع بكاءً ضحكت فوقها ثُغور الأَقاح
عادنى من تذكُّر العيد عيدٌ كان منِّى للعين عيد الأَضاح
سُفِحت فيه الدموع دمًا فهى فوق الخدود ذات انْسياح
ورِكابٌ سَرُوا وقد شَمَل الليل بمَسْح الدُّجَى جميعَ النَّواح
وكأنَّ الظَّلام عَسْكر زنْجٍ ونجوم الدُّجى نُصول الرِّماح
حَمَلت منهم ظهور المطايا أيَّ جدٌّ بَحْت وعَزْم صراح
ستروا الوَجْد وهو نارٌ وكان السِّتر يُجدى لولا هُبوب الرِّياح
خلَّفونى من بعدهم يائسَ الطَّرف ثقيلَ الخطا مهيضَ الجِناح
وجدوها مثل القِسىِّ ضُمورا قد بَرَتْ منهم سِهام قِداح
وطوَوا طوع باعث الوجد والشَّوق إلى الأَبْطَحى غير البِطاح
مصطفى الكون من ظهور النَّبيِّين هُداة الأَنام سُبُل الفَلاح
حُجَّة الله حكمةُ الله سرُّ الله فى كل غاية وافْتِتاح
حاشِرُ الخلق عاقِبُ الرُّسْل والمُثْبِت بالله بعدهم والْمَاح
صاحبُ المعجزات لا يتَمارى العقل فى أنها الحِسان إلى الصِّحاح
من جَماد يَقْرأ وقَمر يُشَقُّ والماءُ من بَنان الراَّح
دعوة الأَنبياء منتظر الكمان دعوى البشير باستفتاح

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح والزيتونة (دهار) .

مظهِر الوَحْى مُطْلع الحقِّ مَعْنَى الخلق فتحُ المُهيْمن الفتّاح

أىُّ غَيْثٍ من رحمة الله هامٍ وسراج يَهْدِيه وَضّاح

ما الذى يشرح امرؤٌ فى رسول عاجل الله صدره بانْشِراح

شَقَّه الروح ثم طَهَّر منه القلب من بعد بالبُرود القَراح

مَدَحتْك الرُّسُلُ يا خاتم الرُّسل فمن لى بعدها بامْتِداح

ولعَجْز النفوس عن دَرْك الحقِّ وإيقافها وقوف افتِضاح

صلوات الإِلـه يا نُكْتَة الكَوْن على مَجْدِك اللُّباب القَراح

عددُ القَطْر والرِّمال وما عاقبُ دهرٍ غَدْوُه برَواح

وجزاك الإِلـه أفضل ما يجزى كرام الأيمّة النُّصّاح

أَسَفِى كم أرى طريد ذنوب أَوْبقَتْنى فليس لى من براح

قد غزَتْنى الخطوب غزْو الأعادى وبرَتْنى الهموم برْى القِداح

سبق الحكم واستقلَّ وهل يمحى قضًا قد خُطَّ فى الألواح

لا لدنيا جنَحت ألغُّ فيها لا لدين خَلَصت لا لِصَلاح

قاطعًا فى الغُرور بُرْهة عُمْرى خَسِرت صَفْقَتى وخاب قِداح

طمع الشَّيب باللِّجام المُحَلَّى حين أبديت أن يُرَدَّ جِماح

فأَبتْ نفسى اللَّجُوج وجدَّت فى سموٍّ إلى الهوى وطِماح

ياطبيبَ الذنوب تدبيرك الناجع فى عِلَّتى ضَمِين النَّجاح

يا مُجْلى العَمى وكافى الدَّواهى ومداوى المرضى وآسى الجراح

سُدَّ بابُ القبول دُونى وما لى يا غِياثى سِواك من مِفتاح

خصَّك الله بالكمال وزَنْد الكون لم تقترن بكفٍّ اقتداح

قبل أن يُوجد الوجود وأن يَنْحف بالنُّور ظُلمة الأشْباح

وأضاءت من بعد ميلادك الأَرض وهُزَّت له اهتزاز ارتياح

فسرَى الخَضْب فى الجُسوم المزَالى ... وجرى الرِّسْل فى الضُّروع الشحاح
ولقد روعيت لـديه حقـوق ... أَقْطَعَتْها العِدى جناب اطِّـراح
معالى محمد بن أبى الحجـاج ... ليثُ العِدا وغيث السَّمــاح
ناصرُ الحقِّ مُرسل النَّفع سُحْبا ... بين سُمْر القَنَا وبيض الصِّفاح
ومُريد الجيـاد أرض الأَعادى ... وهى مُختـالةٌ لفَرْط المـراح
يَتلاعَبْن بالظِّـــلال عِـرابًا ... غُذِّيت فى الفَلا لِبان اللِّقـاح
يا سراجَ النَّادى وحَتْفَ الأَعادى ... وعمادَ الملك الكريم المنَّاح
جمع الله من حُلَى آل عبَّـاس ... لعليـاك فى سبيل امْتِــداح
بين رأىٍ مُوفَّق واعـــتزام ... مُشْتَعِين وصـــارمٍ سفَّاح
وخَفَضْتَ الجَناح فى الأَرض حتى ... لم تَدَعْ فوق ظَهْرَها من جُنـاح
أنت مصباحُها ونور دُجاهـا ... دافَع الله عنك من مِصبــاح
محّص الله منك يا قُوتَة المُلْك ... ويُنْبُوع العـدل والإصــلاح
بخطوب أَرتْ حديث سليمن ... وجاءت بالحـادث المُجْتـاح
بيدى فاقِدِ الحجا هلهل النَّسج ... أَخِى جرأة وربِّ اجْتِـراح
نال منها عُقْبى مُسيْلَمة الكذَّاب ... إذ عاند الهوى وسِجـاح
ثم ردَّ الأُمـور ردًّا جميـــلا ... لكن من بعد فرقة وانْتِـزاح
فأْجرُه فى الوَرى الجميل وعامل ... منه كَنْز الغِنى ومَثْوى الرِّياح
واشْتَرِ الحمد بالمواهب واعْقِد ... عِقْدها فى مِطنَّـة الأَريـــاح
بركات السَّماء تَبْتَدر الأَرض ... إذا استُودِعت بذُور السَّمـاح
وتهنَّـــأْ بدُنْيــــا سـعيدًا ... جاء للمعْلُوات وِفق اقـتراح
وتمتَّـع منــه بهـالةِ ملك ... أَطْلَعت منك أىَّ بدر لِيـاح
منْشُور الرَّأى مجمع الحفْل مثوى ... كل ذى ذمْر وسيِّد جحْجاح

ومُقام السَّلام فى مدة السِّلم — وغابُ الأُسُود يوم الكفاح
مُلْتَقى حكمة وملعب إلهام — ومَغْنى السُّرور والأفراح
أين كسرى وأين إيوان كسرى — لا يُغَلِّس الخَصَمُ بالضَّحضاح
أين نور الألدن عُنْصر النار — إذا ما اعتبرته يا صاح
بِنْيةٌ كان فضلها لك مَذْخُورا — كزهر الرِّياض فى الأدواح
حين طاب الزَّمان واعتدل الفَصْل — استجدَّت وبادرت بافتتاح
هاكَها قد تتَوَّجت بالمعانى — واكْتَسَت حُلَّة اللُّغات الفِصاح
حين غاض الشَّباب وارْتَجع الفكر — وضاق الخَطْوُ العريض السَّاح
جَهْدُ قلبٍ لفَقْته بعد جهاد — نقطة من قُلَيْبه المُمْتاح
ومعانى البيان من عَذارى — لا يُبِحن للشُّيوخ عقد نِكاح
والشيخ سوى الرجوع إلى الله — ونَجْوى أهل التُّقى والصَّلاح
ولزومُ الباب الذى يَجْبُرُ الكَسْر — وَوَصْلُ السؤال والإلحاح
وعلى ذلك فهى ساحرةُ الأحداق — ترى بكل خُدود رِداح
تنفثُ السِّحر فى الجفون وتَهدى — طُرر الحُسْن فى الوجوه المِلاح
دُمْت فى عزَّة ورفعةِ قدرٍ — بين مغْدًى موفَّقٍ ومَراح
ما تولَّت دُهَم الدُّجْنة غدْوًا — وَجرتْ خلفهن شُهُب الصَّباح

ومن غرض الأمداح قولى فى امتِداح سلطان المغرب أبى عنان ، لما توجَّهتُ إليه رسولا ، مُحمَّلا مصالح البلاد والعِباد ، واسْتَدْعى الشعر منى ، قلت :

أَنْدى لداعى الفوز وجه مُنيب — وأفاق من عذْل ومن تأْنيب
كَلِفُ الجنان إذا جرى ذكر الحِمى — والبان حنَّ له حنين النِّيب

والنفس لا تنفك تَكْلَف بالهوى والشَّيب يلحظها بعين رقيب
وَحل الصِّبا فَطَرَحْتُ فى أعقابه ما كان من غَزَلٍ ومن تَشْبِيب
أترى التَّغزُّل بعد أن ظَعَن الصِّبا شأْنى الغَداة أو النَّسيب نسيب(١)
أنَّى لمثلى بالهوى من بعد ما لِلْوخْط فى الفَوْدين أىُّ دَبِيب
لبس البياض وحلَّ ذِرْوَة مِنْبر منِّى ووالى الوَعْظ فِعل خَطيب
قد كان يَسْترنى ظلامُ شَبِيبتى والآن يفضحنى صباحُ مَشيب(٢)
وإذا الجديدان استجدَّا أبْلَيــا من لبْسَته الأعمــار كلَّ قَشِيب
سَلْنى عن الدهر الخؤون وأهله تَسَلْ المهلَّبَ عن حروب شَبِيب
مُتَقَلِّب الحالات فاخْبر تَقلُّـه مهما أعدت يدًا إلى تقْـلِيب
فكل الأُمور إذا اعْتَرتك لربِّها ما ضاق لطف الرَّبِّ عن مَرْبُوب
قد يُخبَّأُ المحبوب فى مكروهها مَنْ يخبأُ المكروه فى المحبوب
واصبر على مَضَض الليـالى إنها لحَواملٌ سَيَلِدْن كلَّ عجيب
واقنع بِحَظٍّ لم تنله بحيلة ما كلُّ رام سَهْمُه بمُصِيب
يقع الحريص على الرَّدى ولكم غدا تَرْكُ التَّسبُّب أنفعُ التَّسبيب
من رام نيل الشىء قبل أوانـه رام انتقـال بلَمْلم وعسِـيب
فإذا جعلتَ الصبر مفْزِع معضل عاجلتَ علَّته بطبِّ طبيب
وإذا استعنتَ على الزمان بفارس لبَّى نداءك منه خيرُ مُجيب
بخليفة الله الذى فى كفِّــه غيثٌ يروِّض ساح كلِّ جَديب
المُنْتَقى من طِينَة المَجْد الذى ما كان يومًا صرفُه بمشُوب

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (نسيبى) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (مشيبى) .

يرمى الصِّعاب[١] بِسَعْدِه[٢] فيقودها ... ذُلُلاً على حَسَب الهوى المرغوب
ويرى الحقائق من وراءِ حجابها ... لا فرق بين شهادة ومغِيب
من آل عبد الحقِّ حيث توشَّحت ... شُعُب العُلى ورَبَتْ بأَىٍّ كَثِيب
أُسُدُ الشَّرى سُرُج الورى فمقامهم ... لله بين محـــارب وحُــروب
أما دعا الداعى وثوَّب صارخا ... ثابُوا وأَمُّوا حَوْمة التَّثويب
شهبٌ ثواقبُ والسماءُ[٣] عَجاجة ... مأثورها[٤] قد صحَّ بالتَّجريب
ما شئت فى آفاقهـا من رامح ... يبدو وكفٌّ بالنَّجِيع خَضِيب
عجِبت سيوفُهم لشدة بأْسهم ... فتبسَّمت والجوُّ فى تَقْطِيب
نُظموا بلَبَّات العُلا واستَوْسقوا ... كالرُّمح أنْبُوبًا على أنْبُــوب
تَرْوى العوالى [فى المعالى][٥] عنهم ... أثرَ النَّدى المولود والمكسوب
عن[٦] كل موثوق به إسْناده ... بالقَطْع أو بالوَضْع غير مَعيب
فأبو عنـان عن عِلىٍّ نصُّه[٧] ... للنَّقل عن عثمان عن يعقوب
جاءُوا كما اتَّسق الحساب أصالة ... وغدوا فذلك ذلك المكتوب
مُتجسِّدًا من جوهر النور الذى ... لم تُرْم يوما شمسُه بغـروب
مُتألِّقا من مطلع الحقِّ الـذى ... هو نور أبصـار وسرُّ قلــوب
قل للزمان وقد تبسَّم ضاحكا ... من بعد طول[٨] تجهُّم وقُطوب

---

(١) وردت فى الإسكوريال (الصفات) . والتصويب من النفح .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (بصعبه) والأولى أرجح .
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (فى سماء) .
(٤) وردت فى الإسكوريال ((تأثيرها) . والتصويب من النفح .
(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (والمعالى) .
(٦) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (من) .
(٧) هكذا وردت فى النفخ . وفى الإسكوريال (غضة) والأولى أرجح .
(٨) هذه الكلمة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

هى دعوة الحقّ التى أوضاعها جمَعت من الآثار كلَّ غروب

هى دعوة العدل الذى شمل الورى فالشّاة لا تخشى اعتداء الذّيب

لو أنّ كِسْرى الفرس أدرك فارساً ألقى إليه بتاجه المَعْصوب

لمّا حللتُ بأَرضه مُتَملّياً ما شيت من برٍّ ومن ترحيب

شمَل الرِّضا فكأنّ كل أقاحة تُومى بثغرٍ للسلام شَنِيب

وأتيتُ فى بحر القرى أُمَّ القرى حتى حَطَطْتُ بمرفإِ التقريب

فرأيت أمر الله من ظلِّ التُّقَى [1] والعدل تحت سُرادقٍ مَضْروب

ورأيت سيف الله مطرور الشَّبا يمضى القضاءُ بحدِّه المرهوب

وشهدتُ نور الحق ليس بآفلٍ والدِّين والدُّنيا على تَرْتِيب

ووردت بحر العلم يقذف مَوْجُه للناس من دُرَرِ الهدى بضُروب

لله من شِيَم كأزهار الرُّبَى غبَّ انْثِيال العارض المسْكوب

وجمال مَرْأًى فى رداء مهابة كالسيف مصقول الفِرِنْد مَهيب

يا جَنّةً فارقتُ من غُرفاتها دارَ القرار بما اقْتَضَته ذنوبِ [2]

أسفى على ما ضاع من حظّى بها لا تنقضى تَرحاته ونَحيب

إن أشرَقت شمسٌ شَرقت بعبْرتى وتفيض فى وقت الغروب غروب

حتى لقد علِمت ساجعةُ الضُّحى شَجْوى وجانحةُ الأُصيل شُحوب [3]

وشهادة الإخلاص توجب رَجْعَتِى لنعيمها من غير مسٍّ لُغُوب

يا ناصر الدين الحنيف وأهله إنضاء مَسْغَبة وفَلَّ خطوب

حقِّق ظُنون بنيه فيك فإنهم يتعلَّلون بوَعْدك المرقوب

---

(١) هكذا وردت هذه الشطرة فى الإسكوريال . ووردت فى النفح كالآتى (فرأيت أمن الله فى ظل التقى) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (ذنوبى) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (شحوبى) .

ضاقت مذاهبُ نَصْرهم فتعلَّقوا | بجناب عزٍّ من عُلاك رحيب
ودُجا ظلام الكُفْر فى آفاقهم | أوليس صُبحُك منهم بقريب
فانظر بعين العزِّ من ثغرٍ غدا | حَذِر العِدا يَرْنو بطرفٍ مُريب
نادَتْك أندلُسٌ ومجْدُك ضامنٌ | أن لا تَخيب[1] لديكَ فى[2] مطْلوب
غَصَب العدوُّ بلادها وحُسا ملكِ الماضى الشَّبا مُسْتَرجِع المَغْصُوب
أرها[3] السَّوابح فى المجاز حقيقة | من كلِّ قعدة سِحْرب وجَنيب
يتأوَّد الأَسَلُ[4] المثقَّف فوقها | وتُجيب صاهلةً رغاءَ نجيب
والنَّصر يُضحك كل مَبْسِمِ غرَّةٍ | والفتح[5] معقود بكل سَبِيب
والرُّوم فازْم بكلِّ نَجْم ثاقبٍ | يُذكى بأَرْبُعها شَواظ لَهيب
بذمايل السِّلْب التى تركت بنى | زيَّان بين مُجَدَّل وسليب
وأضِف إلى لام الوغى أَلِفَ القنا | تَظْهر لديك علامة التَّغليب
إن كنت تَعْجم بالعزايم عُودها | عودُ الصَّليب اليوم غير صَليب
ولك الكتايبُ كالخمايل أطلعت | زهر الأسنَّة فوق كل قضيب
فمُرنَّح العِطْفين لا من نشوةٍ | ومورَّدُ الخدَّين غيرُ مُريب
يبْدو سَداد الرأى فى راياتها | وأمورها تجرى على تَجْريب
وترى الطُّيور عصايباً من فوقها | لحلُول يوم فى الضَّلال عَصِيب
هذَّبتَها بالعرْض يذكر يومه | عَرْض الورى للموعد المَكْتُوب
وهى الكتايب إن تُنُوسى عرضُها | كانت ملوَّنـة بلا تهذيب

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (يخيب) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال وفى النفح (ذو) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (أرض) والأولى أرجح .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (الأثل) والأولى أرجح .
(٥) هكذا فى الإسكوريال وفى النفح (اليمن) .

حتى إذا فَرَض الجلاد جلاده[١] ورأيتَ ريح النَّصر ذات هبوب

قدمت سالِبة العدوّ[٢] وبعدها أُخرى بعزِّ النَّصر ذات وجُوب

وإذا توسَّط نَصْل سيفك عندها جُزْأى قِياسك فُزْت بالمطلوب

وتبرَّأ الشَّيطان لما أن علا حِزْبُ الهدى من حـزبه المغلوب

الأرض إرثٌ والمطامع جمَّةٌ كلٌّ يهشُّ إلى التماس نَصِيب

وخلايفُ التَّقوى هم ورَّاثها وإليكها بالحظِّ والتَّعْصيب

لكأنَّنى بك قد تركت ربُوعَها قفرا بكرِّ الغَزْو والتَّعقيب

وأقمتَ فيها مأتَماً لكنَّه عِرْسٌ لنسرٍ بالفَلاة وذِيب

وتركتَ مُقْلتها بقلب واجبٍ رهَبًا وخدٌّ بالأَسى مَنْـدوب

تَبْكى نواد بُها وينْقِلن الخُطا من شِلْو طاغيةٍ لِشلْو صَليب[٣]

جعل الإلَه البيْت منك مثابةً للعاكِفين وأنت خير مُثيب

فإذا ذكرت كأنَّ هبَّات الصَّبا فَضَتْ بمدْرجها لَطِيمة طِيب

لولا ارتباطُ الكوْن بالمعنى الذى قَصُر الحِجا عن سرِّه المحجوب

قلنا لعالِمك الذى شرَّفتـه حسَدُ البَسِيط مزيَّة التركيب

ولأَجل قُطْرك شمسُها ونُجومُها عدلت[٤] عن التَّشريق للتَّغريب

تبدو بمطلع أُفقها فِضِيَّـةً وتغيبُ عنك وهى فى تَذْهيب

مولاى أشـواقى إليك تهزُّنى والنَّار تفضح عرْف عُود الطِّيب

بحُلَى عُلاك أطلتُها وأطبتُها ولكم مُطيل وهو غير[٥] مُطيب

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (جداله) .

(٢) هذه الكلمة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (سليب) .

(٤) وردت فى الإسكوريال (عذلت) والتصويب من النفح .

(٥) وردت فى الإسكوريال (خير) والتصويب من النفح

طالبتُ أفكارى بفرْض بديهها ... فوفت بشرط الفَوْر والتَّرتيب

مُتَبَتِّىءٌ أنَّا فى حُلا تلك العُلا ... لكنَّ شِعرى فيك شعر حبِيب

الطبع فحلٌ والقريحة حرَّةٌ ... فاقْبَله بين نَجِيبه ونَجِيب

لكنَّنى سهَّلتُها وأذَلْتُها ... من كلِّ وحْشِى بكلِّ رَبيب

هابَت مقامك فاطَّبيتُ صعابها ... حتى غَدَتْ ذُلُلاً على التَّدريب

إن كنت قد قاربتُ فى تعديلها[1] ... لابدَّ فى التَّعديل من تقريب

عُذْرى لتقصيرى وعجزى ناسخٌ ... ويجلُّ منك العفْو عن تَثْريب

من لم يُدِن لله فيك بقُربْة ... هو من جناب الله غيرُ قريب

والله ما أخفيتُ حبَّك خيفةً ... إلا وأنْفاسى علىَّ تَشِى بِى[2]

وقولى فى امتداح سُلطانى لما احتفل لإعْذار ولَدِه ، واستَرْكب الفُرسان لمُزَاملة الهدف الخَشبى المُتَّخذ فى الجو المسمى بالطَّبلة ، وأرسل جوارح الأَكْلُب الضخام ، المُجْتلبة من أرض ألان ، خلف فحول البقر الطَّاغية الشَّرس ، تمسُكها من آذانها وأجْنابها ، حتى تتمكن منها الرِّجال ، وغير ذلك من أوضاع الإعْذار وجُزْئيَّاته . وهى آخر الشِّعر فى هذا الغرض ، لخجَل السلطان من تنزُّلى إلى ذلك ، وترْفِيهى عنه تَجِلَّة ، أجلَّه الله ، وكرَّمه لديه :

شحطت وفودُ الليل بان به الوَخْط ... وعسْكرُه الزِّنجىّ همَّ به القبط

أتاه وليدُ الصُّبح من بعد كَبْرة ... أيُولدُ أجْنَى ناحِلُ الجسم مُشْمَطُّ

كأنَّ النجوم الزُّهر أعشار سَوْرة ... ومن خطرات الرَّجم أثناءَها مطٌّ

وقد وَردَت نهر المجرَّة سَحرةً ... غوائصُ فيه مثلما تفْعل البَطٌّ

وقد جعلت تُفْلى بأنْمِلها الدُّجا[3] ... وتُرسلُ منها فى غدائِرِه مِشْط

(١) وردت فى الإسكوريال (تعذيلها) والتصويب من النفح .

(٢) هذا البيت الأخير وارد فى الإسكوريال . وساقط فى النفح .

(٣) هكذا الإسكوريال . وفى النفح (النلا)

يحفُّ[1] عُباب الليل عنها جواهر ... فيكثر فيها النَّهب لِلْحين والْلقط

فعادت[2] خيالاً مثلها غير أنَّــه ... من البثِّ والشكوى يَبين له لَغْط

سَرَتْ سَلْخ شهرٍ فى تلفُّت مقلــة ... على كثب[3] الأحلام تَسْمُو وتنحَطُّ[4]

لى الله من نَفْسٍ شُعاع ومُهْجــة ... إذا قَدَحت لم يَخْبُ من زَنْدها سَقْط

ونُقطة قلب أصبحت مَنْشَأَ الهوى ... وعن نُقطة مَفْروضة ينشأُ الخطُّ

فأُقسم لولا زاجر الشَّيب والنُّهى ... ونفسٌ لغير الله ما خضعت قطُّ

لِريع لها الأَحْراس منِّى بطــارقٍ ... مفَــارقه شَمْطٌ وأَسـيافه شُمْط

تنــاقله كوماءُ سـامية الذُّرى ... ويَقْذِفُه شهمٌ من النِّيق مُنْحـط

ولولا النُّهى لم تَسْتَبِن[5] سبُلُ الهدى ... وكاد وِزان الحقِّ يُدْرِكه الغَمْطُ

ولولا عَوادى الشَّيب لم يَبْرح الهوى ... يُهيِّجه نوءٌ على الرَّمل مُخْتَــطٌّ

ولولا أمير المسلمين محمـــــد ... لهالَتْ بحار الرَّوع واحْتَجب الشَّطُّ

ينوب عن الإصْباح إن مَطَل الدُّجا ... ويَضْمَنُ سُقْيا السَّرح إن عَظُم القَحْط

تُقِرُّ له الأَملاك بالشِيم العُــلا ... إذا بذل المعروف أو نُصب القِسْط

أرادُوه فارتدُّوا وجارُوه فانْثَنُــوا ... وسامُوه فى مَرْقى الجلالة فانحطُّ[6]

تشرُّ[7] على المدَّاح غرٌّ خِــلاله ... وما رسموا فوق الطُّروس وماخطُّ[8]

تعلَّم منه الدهر حَالَيْه فى الوَرى ... فـآونةً يَسْخُو وآونـةً يَسْـطُ[9]

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (يشف) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (فسارت) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (قتب) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (وتنحطو) .
(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (تستهن) . والأول أرجح .
(٦) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (فانحطو) .
(٧) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (تسير)
(٨) فى النفح (خطوا) .
(٩) فى النفح (يسطو) .

وتجمّع بين القبْض والبَسْط كفُّه ... بحكمة مَنْ فى كفه القبض والبسط
خلايق قد طابَتْ مذاقاً ونفحَةً ... كما مُزجت بالبارد العذب اسْفَط
أسبط الأمام الغالبى محمد ... ويا فخر ملك كنت انث له سبط
وقتْك أواقى الله من كل غائلٍ ... فأىُّ سِلاح ما المُجنُّ وما اللّمطَ
لقد زلزلت منك العزايمُ دولةً ... أناختْ على الإسلام تَجْنِى وتَشتَطُّ
إيالَة غَدْرٍ ضعضع[1] الله رُكْنَها ... ونادى بأَهْلِها التّبار فلم يَبْسطْ
على قَدَرٍ جلّى بك الله بؤسها ... ولايكمل البحران أوينضج الخلط
وكانوا نعيم الجنّتَين تفيّئوا ... ولمَّا يَقَعْ منها النزول أو الهبْطُ
فقد عُوِّضوا بالأثل والخمط بعدها ... وهيهات اين الأثل سنهم[2] أوالخمط
فمن طايح فوق العراء مُجدَّل ... ومن راسفٍ فى القيْد أرْهقه الضغط
أنْمتَ على مهد الأمان عيونها ... فيُسْمع من بعد السُّهاد لها غَطُّ
وصمٌّ صدى الدنيا فلما رَحمتَها ... تزاحم مرتادٌ عليها و مُخْتَطُّ
وألحف[3] منك الله أُمّة أحمد ... أماناً كما يضفُو على الغادة المرْط
وأحكمتَ عقد السِّلم لم تأل بعده ... وجاء فصحّ العَقدُ واستوثق الرَّبط
وأيقن مرتابٌ وأصحب نافرٌ ... وأذعن مُعْتاصٌ وأقْصَر مُشتطُّ
ولله مَبْناك الذى معجزاته ... أبَتْ[4] أن توافيها الشِّفاة أوالخطُّ
وأنِسْتَ غريب الدار مسْقط رأسه ... ومن دون فرْخيه القتادة والخَرْط
تناسبت الأوضاع فيه[5] وأحْكمت ... على قَدَرٍ حتى الأرائك والبُسْط
فجاء على وفق العُلا رائق الحلى ... كما سُمِط المنظوم أو نُظم السِّمط
ولله إعذارٌ دعوتَ له الورى ... فهبوُّا لداعيه المَهيب وإن شطُّوا
تقودهم الزُّلفى ويدعوهم الرِّضا ... ويحدوهم الخصْبُ المضاعف والغبْط

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (ضيع). (٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (منها) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (وأتحف) والأولى أرجح .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (سمت) . (٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (فيك) .

وأغْرَيتَ بالبهْم العلاج تحفّياً ... فلم يُدَّخر الشيءُ الغريب ولا السُّمط
أتت صورا مغلُولة عن مِزاجها ... وأصل اختلاف الصُّورة المزْج والخَلْط
قضيتَ بها دَيْن الزمان ولم يزل ... ألدَّ كذوبَ الوعد يلوى ويشْتطُّ
وأرسلت يوم السَّبق كل طِمِرَّة ... كما تُرْسل(١) المَلْمُومة النَّار والنَّفط
رَنَتْ عن كحيلٍ كالغزال إذا رنا ... وأوْفَت بهادٍ كالظَّليم إذا يُعط
وقامت على منحوتة من زبرجد ... تخطُّ على الصُّم الصِلاب إذا تخطو
وكلُّ عتيق من تماثيل رُومة ... تأنَّق فى استخطاطه القسُّ والقَمْط
وطاعته نحر السُّكاك أعانها ... على الكَون عِرْقٌ واشجٌ ولحاً سِبْط
تلقَّف حيَّاتِ العَصى إذا هَوتْ ... فثعْبانها لا يُسْتَتَم(٢) له سَرْطُ
أزَرْت بها بحر الهواءِ سفينة ... على الجود لا الجودِى كان لها حطُّ
وطاردتَ مِقدام الصُّوار بجارج ... يُصاب به منه الصِّماح أو الإبط
وجىء بشبْل الملك يُنجد عزمه ... عليه الحفَّاظ الجَعْد والخلق السَّبط
سمحتَ به لم ترع فرط ضَنانة ... وفى مثلها من سُنَّة يُترك الفرْطُ
فأقْدم مختاراً وحَكَّم عاذِراً ... ولم يشتمل مسكٌ عليه ولاضَبْطُ
ولو غير ذات الله رامته تضَنَّضَتْ ... قَتلى كالأفاعى الرُّقط أودونها الرَّقْطُ
وأسَدُ نزال من ذؤابة خَزْرجَ ... بها ليل لا رُوم القديم ولا قِبْط
جلاَّدهم مثْنى إذا اشْتجر الوغىَ ... كأنَّ رعاه بالعضاة لها خَبْطُ
كتايبُ أمثال الكتاب تتالياً ... فمن بيضها شكلٌ ومن سُمْرها نَقْط
دليلهُم القرآن ياحبَّذا الهُدى ... ورهْطُهم الأنصار ياحبذا الرَّهْطُ
وبيضٌ كأمثال البروق غمامُها ... إذا وشحت سُحب القِتام دمٌ عَبْط

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (قذف) . والأول أرجح .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (يستقيم) .

ولكنه حُكمٌ يُطـــاع وسنّةٌ وأعمال برٍّ لا يليق بها الحبْط
وربّة نقص للكمال مــآلـه ولا غرو فالأقلام يُصلحها القطُّ
فهنّيتَه صُنْعاً ودمت مُمَلَّكـا عزيزاً تُشيد المعْلُوات وتختَطُّ
ودون الذى يُهدى ثناؤك فى الورى من الطِّيب ما تُهدى الأُلوَّة والقسط
رضيت ومن لم يَرض بالله حاكماً ضلالاً فللّه الرِّضا وله السُّخط
حياتك للإسلام شَرْطُ حياتــه ولا يوجد المشْروط إن عَدِم الشَّرط

ومن أغراض النسيب قولى فى الأوليات والله ولى المغفرة :

تعلَّقته من دَوْحة الجوُد والبأس قضيباً لعوبا بالرَّجاء وباليأس
[درُوباً بتصريف] [1] اليراعة والقنا طروباً بحمل المَشْرَفِيَّة والكاس
يذكر فيه الصُّبح عند انصِداعه جمالَ رُواء فى تأرج أنفــاس
ويبدو لعينى شعرُه وجبينـــه إذا ماسفحتُ الحبرفى صَفْحِ قرطاس
أجالَ من الشوق المبرِّح غـارةً على أربُعٍ من حنين صبرى أدراسى
فظاهرت من سَرْد السَّقام مـلامةً وأوجفتُ من شفرالدموع بأَمْراس [2]
لكِ الله من رُبّى طواكِ على الظَّما ومن أملٍ لم أجْنِ منه سوى يأسِ
ومن قمرٍ سَعْدٍ عَشوْتُ لنـــوره فسعَّر أحشائى وصعَّد أنفــاس
إذا ما شرعتَ اللَّحظ نحوى عـابسا أقول القلب [3] ضاع ما بين جُلَّاسِ
أيا عَبدَ شمس الحُسن هل لك قدرةٌ على سطوة السَّفاح من آل عباس
سجَمْتُ على هول الغرام بمهجة تعامتْ فلم تدر النَّعيم من البؤس
تُوهِّج نارُ الخدِّ نارَ جـوانحى ويَعيث وِسْواس الحلى بوسواس
يا قلبُ صبراً فى الغرام وحِسْبَةً لمن تشكَّى بالدَّاء والممرض الآس

(١) هكذا فى الإسكوريال والزيتونة . وفى النفح (ضروبا بضرب) .
(٢) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (أ فراس) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (لقلبى) .

ومطْلُولة الأَعْطاف جرَّت ذيولَها على مِسْكَةٍ من مسكة العاسق القاسى
يحدِّق من أجفانه نرجسُ الربى وهـدَّد من آذانه ورقُ الآس
لعمرك ما أرى[1] وقد ثقَّف النهُى إذا التبس الحق المبينُ باليأس
أتلك شمالٌ أم شمول مـدارةٍ على كل غُصْن فى الحديقه ميّاس
لقد ضَعضَعت حلمى ولم أر نَسْمةً تَضعضع من هبّاتها جبلٌ راس
رعى الله أَجْراع الحمى دار صَبْوتى ومَـرْبَعُ آلامى ومعهـدَ إيناس
فما كان فيه الوصل إلاَّ عُـلالة كنقْبة مُرْتاح ونَهْبة خـلاَّس
وقالوا أَبِغْت العيش بعد فراقنا[2] فلفَفْتُ أذنانى حياءً على الرَّاس
ثقوا بوفائى ما استقلَّت جوارحى ورعْيِ ذمامى ما تماسك إحْساس
ولا تعذُرُونى إن نَسيت عهودكم وإن رَفَع الله الجُناح عن الناس
فؤادى غنيٌّ بالوفاء وربما تُسجِّل فى صبرى وثيقـة إفـلاس
لى الله من قَلْبٍ خَفوق معـذَّبٍ يرى أنَّ ما بالموت فى الحبِّ من بأس
تجول بناتُ الفكر حول خيالـه كما حُفَّ جَوَّال الفراش بنبراْس
أفوِّض للرحمن أمرى فى الهوى وأعلِّق كفى من حِماه بأمراس
وآمـل لُطفَ الله فيه فـإنـه أبرٌّ بميثاق وأوْفى بقِسْطـاس

وقلت فى النَّسيب كذلك :

أما وخيالٌ فى المنـام يـزور وإن كان عندى أنَّ ذلك زور
لقد ضِقْت ذَرْعاً بالشَّوق بعد بُعدكم على أننى للنائبات صبُـور
أدافعُ فى شوق ووجـدى كتايباً تَزلزل رَضوى عنـدهـا وثبير
سرايا إذا ما الليل مـدَّ رواقَه على ساحـة الصَّبر الجميل تغير

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الريتونة (ترى) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (افتراقنا) .

بَرَى جسدى فيكم غرامٌ ولـوعـةٌ ... إذا سكن الليل البهيم تَثُـور
ولا أنيني ما اهتدى نحو مضجعى ... خيالكم بالليل حـين يـزور
ولو شيتُ فى طىٍّ الكتاب لزرتكم ... ولم تَدْرِ عنى أحرفٌ وسطـور
تذكرت عهداً طال بعد انصرامه ... عليه الأسى وانجاب وهو قَصير
وقد طَلَعتْ للرَّاح فى ظلمـاته ... نجومٌ تـوالى حفَّهن بـدور
وتبَنَّيْتُم الوصل فى رَوْضة الرِّضا ... بليلاً وأكواس السرور تَـدُور
وعهداً بعَيْن الدمع[1] للدمع بعده ... موارد فى آماقنـا وبُحـور
عهود مُنًى غُضّ الزمان بحُسْنها ... فغـار عليها والزمـان غَيُـور
فها أنا أستَقْرى الرياح إذا سَرَت ... ليخبرنى بالظَّاعنيـن خبيـر
وإن خطَّ وجدى من دموعى رسالة ... على صفح خَدِّى فالنسيم سفير
يا رِحْلَة الصيف الـتى بجوانحى ... لها لهب لا ينقضى وسـعير
أَحُول منك الشَّهر حولا على الورى ... وأَصْبحَت الأيـام وهى شهور
ويا قلب لا تطرح سِلاحَك رهبـةً ... فهل هى إلاَّ أَنَّةٌ وزفـير
جَنَيتُ النَّوى لا عن مَلال ولا قِلىً ... فمثلى بموصول المـلام جَدير
وجرَّدتُ عنِّى لِبْسَة الوصل طايعا ... وكم شَرِقٌ بالمـاء وهو نَمير
أأحمد إن جلَّ الذى بى من الجوى ... وأصبحت مالى فى هـواك نَصير
فلست من اللُّطف الخفىِّ بيائس ... فكم من بُكاء كان عنـه سُرور
أتانى كتابٌ منك لا بل حديقةٌ ... تفيَّأتُهـا والهجـر منك هجير
وأرسلتُ دمع العـين حين قرأته ... فمنـها أمـامى روضـة وغدير
تكلَّفت فيك الصبر والصبر مُعْوِزٌ ... وهوَّنْتُ فيـك الخَطْب وهو عسير

---

(١) عين الدمع اسم لضاحية بغرناطة الإسلامية ، كانت أيام المسلمين تغص بالحدائق والمتنزهات ، وكان موقعها قريبا من جبل الفخار ، ومكانها اليوم يقع فى دائرة الضاحية الغرناطية المسماة لا كارتوخا La cartuJa .

ولُذْتُ إلى الآمـال وهى سَفاهة　　وملتُ إلى الأطمـاع وهى غرور
سأُلقى إلى أيدى الزمان مقـادتى　　فيعدل فى أحـكامه ويَجُـور
وإن الذى بالبُعد أجـرى قضاه　　على جَمْع شملى كيف شاء قَدِير
فتُدْرَك آمــالٌ وتُقضى مآرب　　لدينـا وتُشفى باللقـاء صُدور

وقلت ، وهى من القصائد التى تشتمل على أغراض غريبة :

عسى خَطْرة بالرَّكب ياحادى العِيس　　على الهضْبة الشَّماء من قصر بادِيس
لنظفـر من ذاك الزلال بعـلَّة　　ونَنْعُم فى تلك الظِّلال بِتَعْـريس
حبستُ بهـا ركْبى فُواقـا وإنما　　عقدتُ على قلبى بها عَقْد تَحْبيس
وقد[1] رَسَخَت آىُ الجوى فى جوانحى　　كما رسخ الإنجيل فى قَلْب قِسِّيس
بميدان جَفْنى للسُّهاد كَتِيبـةٌ　　تُغير على سَرْح الكَرَى فى كرادِيس
وما بى إلاَّ نَفْحـة حاجِـريَّة　　سَرَتْ والدُّجى ما بين وَهَن وتَغْليس
ألا نَفِّس يا ريح من جانب اللِّوى[2]　　يُنفِّس من نار الجوى بعض تَنْفيس
ويا قلب لا تُلق السِّلاح فربما　　تعذَّر فى الدهر اضطِّرادُ المقاييس
وقد تُعْتِب الأيـام بعد عِتـابها　　وقد يعقبُ اللهُ النَّعيم من البُؤس
ولا تخْش لُجَّ الدمع يا خطرة الكرى　　على[3] الجَفْن بل قِيسى على صرح بلقِيس
تقول سُلَيْمى ما لجسمك شـاحبًا　　مقالةَ تأنِيب يُشـاب بتأْنِيس
وقد كنت تعطو كلما هَبَّت الصَّبا　　بريَّان فى مـاء الشـبيبة مغْمُـوس
ومن رابح الأيَّام يا ابنة[4] عـامر　　يجوب الفلا فُلَّت[5] يداه بتفليس

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح والأزهار (لقد) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال والزيتونة . وفى النفح والأزهار (الحمى) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح والأزهار (الى) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الأزهار (يابنت) .
(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح والأزهار (راحت) .

فلا تحسبى والصِّدق خير سجيَّة ... ظهور النَّوى إلا بطون النواميس

ومنها :

وقفراءُ[١] أما رَكْبُها فمضلَّل ... ومَرْبَعُها من آنسٍ غير مَأْنوسِ
خبطنا[٢] بها من هَضْبة لقرارةٍ ... ضلالاً وملنا من كِناس إلى خِيس
وقد غمر الآلُ الرِّحالَ كأنَّما ... تخبَّط منه فى ضباب الدَّماميس[٣]
إذا ما نهضنا من مَقِيلٍ غزالة ... نزلنا فعرَّسْنا بساحة عِرِّيس
أدرنا بها كأسًا دِهاقًا من السُّرى ... أملنا بها عند الصَّباح من الرُّوس
وحانة خمَّارٍ هدانا لقصدها ... شَميم الحُمَيَّا واصطكاك النَّواقيس
تطلَّع ربَّانيها من جداره ... يُهَيْنم فى جَنح الظلام بتَقْديس
بكَّرنا[٤] وقلنا إذ نزلنا بحانه[٥] ... عن الصَّافنات الجُرْد والضُّمَّر العِيس
أيا عابد النَّاسُوت إنا عصابة[٦] ... أتَيْنا لتثليثٍ بلى ولتَسْديس
وما قصدنا إلا المُقام بحانة ... وكم أُلبس الحق المُبين بتلْبيس
فأنزلنا قَوْراء فى جَنَباتها ... محاريبُ شتَّى لاختلاف النَّواميس
بَدَرْنا بها طين الخِتام بسَجْدة ... أردنا بها تجديد حَسْرة إبليس
وطاف[٧] العَذَارى بالمُدام كأنَّها ... قَطًا تتهادى فى رِياش الطَّواويس
وصارفنا فيها نُضارًا بمثله ... كأنَّا مَلأْنا الكأس ليلا[٨] من الكيس

---

(١) هكذا فى الإسكوريال والأزهار . وفى الإسكوريال (وخرقاء) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (سحبنا) . وفى الأزهار (سبحنا) .
(٣) هذا البيت وارد فى الإسكوريال والزيتونة . وساقط فى النفح والأزهار .
(٤) هكذا وردت فى النفح والأزهار . ووردت فى الإسكوريال والزيتونة (فكدنا) .
(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح والأزهار (بساحه) والأولى أرجح .
(٦) هكذا فى الإسكوريال والأزهار . وفى النفح (صبابة) وهو تحريف .
(٧) هكذا فى الإسكوريال . وفى الأزهار والنفح (ودار) .
(٨) هكذا وردت فى الأزهار والنفح . وفى الإسكوريال (يوما) .

وقُمنا نُشادى عندما متع الضُّحى | كما نهضت غُلْبُ الأُسود من الحيس
فقال لبئس المسلمون ضيوفنا | أما وابيك الحَبْر ما نحن بالبِيس
وهل فى بنى مثواك إلا مُبـرِّز | بحلْبة شُورى أو بحلْقَة تَدْريس
يحدق[1] تحت النقع مقلة ضاحك | إذا التقت الأبطال عن مُقل شوس
إذا هزَّ عسال اليراعة فاتكاً | أسال نجيع الحِبْر فوق القراطيس
سَبَيْنا عقار الرُّوم فى عقر حانها[2] | بحيلة[3] تمويه وخِدْعة تَدْلِيس
لئن أنكرتَ شكلى فَفَضْلى واضح | وهل جائزٌ فى العقل إنكار محْسُوس
رسبت بأقصى الغرْب ثغر مظنة[4] | وكم دُرَّة علياء فى قاع قامُوس
وأغربت سوسى بالعُذيب وهاجر[5] | على وطنٍ دانى الجوار من السُوس

وقلت فى إسلوب مهيار رحمه الله :

جُزْ على جَرْع الحِمى لا مَحاله | وتعرَّض لرايد الرِّحـــاله
وافضِ فى تِلاح نجْدٍ وقد جمَّ بها | الحِمْض واذكر زابقـــا له
وأدِرْ فى قرارة الماء قد دارت | على بَدْرها من الرِّيع هــاله
ربما يعجز القوىُّ عن الأمر | فيُرضى الضَّعيف فيها احتياله
فإذا ما استَجَدت من خبر الحِمى | يقينًا أو التَمَحْت جــلاله
فاعقِل الحرْف فى ظلال من البان | على الوحْش فى الهجير مماله
وادخل الحىَّ عندما رَوَّح الرَّاعى | وضَمَّ المِسا فيــه رِعــاله
لا تجاوز أطْناب خِيمة ظمياً | فهاتيك القلــوب حِبــاله

---

(١) هكذا فى الإسكوريال والزيتونة . وفى النفح والأزهار (يقلب) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (خانها) . وفى النفح (دارها) . وفى الأزهار (خاننا) .
(٣) هكذا فى المخطوطين والأولى بحلية .
(٤) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح (مضلة) . وفى الازهار (مضنة) .
(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح والأزهار (وبارق) .

ولتقُلْ إنْ أتتك تسل عن حالى   تعوَّضتها بحـالك حـاله
ليس إلا امْتِعاضة لغريب   أثْخَنته جفُونُك القتَّاله
سال المـاءُ والمزادة ملْاى   ثم ما نال غير نفسٍ مُساله
كيف لو جاء سائلا منك رِسْلاً   أو أتى يحتدى جواب رساله
قسمًا أنه أخى ضَنَين وهبٌ   البأْس شأْنُه والبَسمـالة
بكَتْ الوِرْق شجْوه حين ناجاها   وأبدى له الأَصِيل اعْتِـلاله
نازحٌ زار من تبـاله نجْدا   أين ما بينه وبين تباله
أيها السَّابق العَنِيف تـرى   المُهْر يسقى يمينـه وشماله
يرِد الحَوْض حوله كل أشقى   كلٌّ حوله يُلقى عليه مُساله
فِكراه إذا استحمَّ غِـرار   وقِراه إذا ألَمَّ عِجـاله
فالسُّكَّان راحة والأَمـانى   لليـالى شرَّابةٌ أكَّالَـه
لا تُحِلُّوا دم الغريب المُعنَّى   وعلى الله فى الجزاء الحِواله
وكسا من نَمارق السُّنْدس المُخْضَرِّ ذِهنًا بالحـيا ورسـاله
يا لِقومى من ذِكر تلك المغانى   ما لِقلبى يهوى أنين مـاله
علِق البثُّ والصـبابة فيها   وبلى البحْر عندها والمـلاله
كان لا يَرْتضى الحِياض لِورْد   فهُو اليوم قانعٌ بِبِـلاله
هِمَّة تُزحم السِّماك وقلبُ   آثر اللَّبث فى حضيض الإقاله
كان أولى لـه الإباية والعـزّ   فيا بُئْس ما ارتضى لولى آلـه
والهوى مُرَكَّبُ الهـوان إذا   هَملَج فى ملعب الصِّبا والجهاله
ما الذى يجلب العذول لسمعى   من حديثٍ خَبا إلىَّ خَبـاله
لا أبالى بما يقول فهـلاً   أقْصَر العذل جاهداً لا أبا له
أنا ما بِى سوى لحاظُ فتـاة   ختَلَتْنى وأدبرَت مُخْـتاله

بَسمتْ أقحوانةً وتثنّت بانةً ثم لاحــظَتْنى غـــزاله

ورَمتْنى فقبـل لعرّاف نجـد إن تخلّصت فدونك مـــاله

إخبر الخابط المدوم نشكو إظهر العِيس جُمْلةً وفصـاله

إننى قد نزعت عن نتَن الغَىّ ويا طـالما انتحلتُ مُحـاله

ومن الفخر والتأْبين ، قلت مُتَشبِّعًا ، علم الله بـألاَّ أملك ، وإنما هى أغراض الشعراء يُتَفَنَّن فيها ، والله ولىُّ التجاوز عن التجاوز :

لنا فى الفخر سيمةٌ مُطلَّة تقوم على دعاويها الأَدِلَّــة

وشمسُ الحق منظور سَناها على الشُّبه المخيلة المُخِلة

بنى سَلْمان سل عنهم ستَدْرى على الأَجيـال منهم كلَّ جِلَّة

يمانيةٌ المناسِب والمواضِى مفاخرها رسُـومٌ مُسْـتَقِلَّة

فمن نار الوغى فى كلِّ وادِ ومن نار القِرى فى كل حِلَّة

ومن وصْل الخطاب بكل ناد ومن فضل الثَّناء بكل مِلَّة

تَهشُّ لنا البدور بكل خِدرٍ وتهوانا الشُّموس بكل كلة

ويُمرضنا العفاف فكم عليل وما غير الهوى والكَتْم علَّة

تحج بيوتنا القُصَّـاد دأبا فلا تنفكُّ طـايفةً مُهلَّـة

بحيث البِيضُ ضامنة المساعى وحيثُ السُّمر مثمِرةٌ مُغِلَّة

فعند السِّلم محرَّمةٌ عكُوف وعند الحرب فاتِكة مُحِلَّه

وحيث الجُرْدُ للغارات تَرْدى فتركها جواسِر مُشمعلَّة

ولم أَر مِثْلَنا فى الدهر قوماً رياحُ الجو تلْحف بالأَجِلَّة

وتضطَّبن الصواعق فى غُمُود وتَقْتَنص البوارق بالأَهِلَّة

فتُطْعِمنا المجالى والرَّواسى وتُسْقِينا الغُيوث المُستهلَّة

وتفترش البطاحُ لنا الحشايا وللرَّايات أروقة مُظِـلَّة

وتعرفُ من أغِرّتنا الدّياجى   لعزّ الله خاضعةً أذلّة
أبا عبد الله فَدَتْك نَفْسٌ   على ما حُزْتَ من فضل مُدلّه
دعوتُك مستجدًّا عهد أُنْسٍ   أبْلَتْه الليـالى المُسْتمِلّة
وقد ظعن الصِّبا إلاّ ادّكارٍ   وقد ذهب الهوى إلاّ تعِـلّة
فساعِدْنى عليه من اغتِراب   له فى مُهْجتى وخزُ الأخِـلّة
وما حلّنى بفخرك فى صريح   فكم تاجٍ هنـاك وكم تَجِلّة
ودمت مُجْمِعًا شمل المعالى   ومقتادَ أمنِ الدُّنا شـملّه

وقلت أرثى ثلاثة من الإخوان تقاربت وفياتهم ، جمع الله الشّمل بهم فى دار الرِّضوان والمغفرة بمنّه :

أسايلكم هل من خبيـر سُلوان   فنى ليل هَمّى ضاع أو سيل أجْفانى
وهل عندكم عِلْم بصبرى إنّنى   فقدت جميل الصّبر أوْجع فُقْدان
يقولون خَفّض بعض مابك من جوى   هان على المرتاح ما لَقِى العان
تضيق علىّ الأرض وهى فسيحةٌ   كما خُلق فوق الخَصْر معقّدُ هميان
وما يفتـأ الشّوق المُقيم بـأضلعى   إذا مرّت عن طوق الصّبابةَ أفنان
وليس مَشِيباً ما ترون بـمَفْرق   ولكن خطوبٌ جمّة ذاتِ ألوان
وأرّق عينى الأسى يبعثُ الأسى   مطوّقةٌ نامت على غُصْن البان
لمن دِمَنٌ يشكو العَفاءُ رسومَها   كحظٍّ زَبُور فى مصاحِف رُهْبان
وقفتُ بها أذرِى النّجيع كأنّما   تُقْرى وشكُ البَين منّى بقُرْبان
ديارُ الأُلى كانوا إذا أُفقٌ دَجا   كواكبَ يجلو نورُها لَيْل أشجان
هَوَتْ من سمائى بعد ما كنّ زينةً   ولهفى عليها من ثلاثة شُهْبان
رمانى بيعقوب الزمان وبَعْـده   رمانى بلِدِرْهم يا لك سَهْمـان
وإن كان مابين الخطوب تفاضُلٌ   فلا تَنَلْ فَقْدى بـأحمد بن سليمان

كفانى أن أدرَجتُ محض مسرّتى ‌ ‌ ‌ ‌ وجُملة أُنسى بين لَحْد وأكفان

ووالله ما أنسانى الدهر أوّلاً ‌ ‌ ‌ ‌ بثارٍ ولا أُنسِيت بالثّالث الشّان

تخوّنهم صرفُ الرّدى فتحرّموا ‌ ‌ ‌ ‌ كما انتثرت يوما قلادةُ عِقيان

فمن سابقٍ ولىَّ على إثر سابق ‌ ‌ ‌ ‌ كما استَبَقتْ غرٌّ الجياد بميدان

بنفسى من حيَّيته فاستخفَّ بى ‌ ‌ ‌ ‌ ولو أنه ردَّ التحية أحيانِ

وعهدى به مهما دعوتُ وبينه ‌ ‌ ‌ ‌ وبينى العُلى والنِّيل والخيل لُبّان

دنا منزلا منِّى وشطَّ مزارُه ‌ ‌ ‌ ‌ فيامن لِقلبى منه بالسّاخط الدّان

ألا ليْت عُمْرى لم يُفدنى زمانه ‌ ‌ ‌ ‌ مودة خلٍّ سار عنِّى وخِلّان

فلو شعُرت نفسى فإنّنى لشاعرٌ به ‌ ‌ ‌ ‌ يوم أرْدانى لشَمّرت أرْدانِ

هو الموت يختار الخِيار وينْتَقى ‌ ‌ ‌ ‌ جِنّى لبنى الدُّنيا كما يفعل الجان

فلا تُقْنِ مايفنى تَعِش وادعُ الحشا ‌ ‌ ‌ ‌ أبى الدهر أن يُلقى على الدهر ألفان

صديق الفتى إن خَفَق الحق روحه ‌ ‌ ‌ ‌ فكم نِسبة ما بين رُوحٍ وجُثمان

وما حال زَنْد لم يؤيد بساعد ‌ ‌ ‌ ‌ وما حال طَرْف قد أُصيب بإنسان

وهبنى أمِنتُ الحادثات ولم يَرُع ‌ ‌ ‌ ‌ جنانى وخَلاّنى الزمان وخِلّان

أليس إلى التّحليل كلُّ مُرَكّب ‌ ‌ ‌ ‌ مُقَدِّمةً لم يختلف عندها إثنان

يُدَبّرُ لى الدهر المكيدة فى المُنا ‌ ‌ ‌ ‌ فإن قلتُ قضّانى الخفوق تقاضان

وليل بقَبابى محلّة قلعة ‌ ‌ ‌ ‌ أهدرتُه فى ترضٍّ على مسان

أيعقوب ما حُزْنى عليك بمنقض ‌ ‌ ‌ ‌ ولا أُنْسُ إنسان مصابَك أنسانِ

ولا حالى الحالى على البُعد غرّنى ‌ ‌ ‌ ‌ ولا عَيْشى الهانى على النّأى أهانِ

فمن لى بدمع فى المحاجر مُهتد ‌ ‌ ‌ ‌ عليك وقلبٍ فى الحناجر حَيْران

نسبتُ إلى ماء السماء مدامعى ‌ ‌ ‌ ‌ فأورت لى فيها شَقايق نُعمان

إذا ما حدَتْ ريح الزّفير سحابها ‌ ‌ ‌ ‌ ثقالا سَقى منها المعاهد عَهْدان

وقد دان قبل اليوم دمعى خالصا ... ولكن أمهلنى على الدمع إدمانِ

لقد كنتَ لى رُكْناً شديداوساعدًا ... مديدا ومذخوراً لسرٍّ وإعلان

كسالَحْدك الرَّيحانوالرَّو حِ والرَّحا ... فقد كنتَ رُوحى فى الحياةوريحان

وجادت على مَثْواك مُزْنة رحمةٍ ... يحيِّيك منها كلُّ أَوْطَف هتَّان

وما كان إبراهيم إلاَّ حديقةً من ... الفَضْل تُؤتى أُكُلَها كلَّ إنسان

أمينٌ على السرِّ المصون محافظٌ ... على كَتْمه إن ضاق صدرٌ بكتمان

لئن بَليت تلك المحاسن فى الثَّرى ... فحزنى جديدٌ ما استمر الجَديدان

قِراه عليها من نعيمٍ ونُضْـرة ... وخفى عليه من شَباب وريْعـان

ذكَرْتك والأيام سَلْمٌ وشملُنـا ... جميعٌ وطَرْفُ الدهر ليس بيَقْظان

وللنَّرجس المَطْلول تحديق أعْين ... وللآسةِ النحـاتى ربـذ آذان

وللشمس ميلٌ للغروب مرنَّح ... تَرى رُجْح الدُّنير فى كفِّ ميزان

بِساط طواه الدهر إلاَّ تذكراً ... كما تَنْقَعُ الرَّمضاءُ غُلَّة ظَمَّـان

وإن ذُكر الإخوان مَنْ مثلُ أحمد ... ألا كلُّ مرعى تعده غيرُ سَعْدان

ذخيرةُ أيامى ووُسْطى قِلادتى ... ونُكْتَة إخلاصى وحكمة ديوانِ

وثران ضَللتُ الفضل يوم استفادة ... هَدانى إلى نَهج السَّبيل وهَادانِ

شهيدٌ ذَرَّت عينى عليه نَجيعَها ... كأنَّهم واروه ما بين أجْفـان

أخِلاَّءُ كانوا فى الشَّدائد عُـدة ... إذا أثمرت هوجُ الخطوب بخُطْبان

شلَّهم شوْى الرَّدى فتجمَّلـــوا ... وحلُّوا جِوار الله أكْرَم ضِيفانِ

يحقُّ لهم أن يُغْبطوا إد تنقلوا ... إلى العالَمِ الباقى والعالم الفَان

وما أكتب اللقا وإن بَعد المدا ... ويا قُرْب ما بين المُعَجَّل والْوان

سكنتم فحرَّكتم جحيم جَوانحى ... وغِبْتُم فأحضرتم لواعج أحزانِ

ويمَّمْتم دار النَّعيم وإنَّنى لأشْقَى فيا بُؤْسى بسكَّان نعمـــان

ولو أننى أعطيتُ نفسى حقَّها ... فما أنا للعَهْد الكريم بخَوّان

ولا عارٌ فى وِرْد الحِمام فإنه ... سبيلُ الوَرى ما بين شِيبٍ وشبّان

لعَمْرُك ما يصفو الزمان لوارِدٍ ... وإن طال ما أحْمى لظَى الحرب صفّان

وقِسْ آتيًا من أمره بالذى مضى ... فربّ قياس كان إجلاء لبرهان

أما ترَكَتْ كِسرى كسيرا صرُوفه ... ولان على صولاته ملكُ اللان

ومدّ إلى سَيفٍ أكفّ اعتدايه ... فأخرجه بالرّغم من غُمْد غُمدان

وهل دافَعَتْ خَطْبًا توابعُ تُبَّع ... وهل درَأت كرْبًا سياسةُ ساسان

وكان قياد الصّعب صعباً مُمَنَّعاً ... فألقى إلى الدُّنيا مقادة إذعان

جلت لبنى العباس وجهَ عُبوسها ... وقبلُ أمدّت سِرْب أبناءِ مَرْوان

وكم أخلفَتْ شتّى المُنا من خليفةٍ ... وأذوت رياح الدهر إذواءَ تيجان

وغادرت القصر المشِيد بناؤه بسِندا د قفْرًا بَلْقعاً بعد عُمْران

ولم تُبق يوما للخُوَرْنقِ رونقاً ... ولا شَعّبت بالقتل من شُعْب بوّان

وكم من أبِيٍّ سامَهُ العُسْر دهره ... فأبْدَى له بعد الرِّضا وجهَ غضبان

ومحتقرٌ ماضى الذُّبابين فى الوغى ... سطا منه بالأنف الحِمى ذبابان

وأىُّ سرورٍ لم يعد بمساءةٍ ... وأىُّ كمالٍ لم يُعاقب بنُقْصان

ومن باع ما يَبْقى بفانٍ فإنما ... تعجّل فى دُنياه صَفْقة خُسران

خلوها على بُعْد النّوى من مُسْهدٍ ... حليف أسىً ما فى الجوانح لهفان

ووالله ما وفَّيتُ حقَّ مودة ... ولكنه وُسعى ومبلغُ إمْكانِ

ومهما تساوى طَنيبٌ ومُقْصِرٌ ... بحال فحكم النُّطق والصَّمت سيان

ولا لَوْم لى فى العجز عن نيل فايت ... فإنَّ الذى أعْيا البريَّة أعْيانِ

ومن الاسترجاع والاعتبار' والتحزن لورطة الغفلة ، وما توفيقِى إلا بالله،

قلت من الشعر المتقدم عن هذا الوقت :

جهادُ هوًى لكن بغير ثواب ... وشكوى جوى لكن بغير جواب
وعمرٌ تولّى فى لعلٍّ وفى عسَى ... ودهر تقضَّى فى نوىً وعتاب
أما آن للمُنْبَتِّ فى سُبل الهوى ... بأن يهتدى يوما سَبيل صواب
تأمَّلتُها خلفى مراحل جُبْتُها ... يناهز فيها الأربعين حساب
جرى بى طرفُ اللَّهوحتى شكا الوَجا ... وأقْفَر من زاد النشاط جِراب
وما حَصلَت نفسى عليها بكامل ... ولا ظَفِرت كَفِّى ببعض طِلاب
نصيبى منها حَسْرَةُ كَوْنها مضت ... بغير زكاةٍ وهى مثلُ نِصاب
وما راعنى والدهر رَبٌّ وقائع ... سجالٍ على أبنائه وغِلاب
سوى شعراتٍ لُحْن من فوق مَفْرِقى ... قُذِفن لشيطان الصِّبا بشهاب
أبَحْن ذِمارى وانتهبن شبيبتى ... أهُنَّ نصولٌ أم نصولُ خِطاب
وقد كنت يهدى المروض طيبُ ... شمايلى ويمرح غُصْن البان بين ثِياب
فمذ كتب الوَخْطُ الملمُّ بعارضى ... حروفًا أتى منها بمحض عِتاب
نسختُ بما قد خطَّه مُسْند الهوى ... وكم سُنَّة منسوخة بكتاب
سلامى على تلك المعاهد[1] إنها ... مرابع ألأقى[2] وعهدِ صِحاب
ويا آلَةَ[3] العهد انعِمى فلطالما ... سَكَبْتُ[4] على مثواك ماء شبابِ
كأنّى بذات الضّال[5] من فتى ... تذكَّر فيها اللهو بعد ذهاب
تقول اذكُرى بعد ما بان حيرتى ... وصوَّح روضى واقشعر جناب
وأصبحتُ من بعد الأوانس كالدُّمى ... يهول حُداة العيس جَوْب يباب

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (المرابع) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (إلفى) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (ويابانة) .
(٤) وردت فى الإسكوريال (بكت) . والتصويب من الزيتونة .
(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الدال) .

تغار الرياح السّاجيات[١] بطارق ... فما أن تُديم الرّكض حول هِضاب

فإن سَجَع الركبان فىّ بِمدْحَة ... حثٌّ فى وجوه المادِحين تُراب

ألم تعلموا أن الوفاء سجيّتى ... إذا شَحَطت[٢] دارى وشطَّ ركاب

سقاك كدمعى أو لحودى وابلٌ ... يقلد نحر الحوض دُرّ حباب

ولا بَرِحَت تهفو لعهدك الصّبا ... ويسحبُ فيه المُزْن فضل سحاب

سواى يردع الدهر أو يستفزّه ... بيوم فراقٍ أو بيوم إيـاب

وغيرى يُثنى الحوض ثَنْى عِنانه ... إلى نيل رِفدٍ والتماس ثـواب

تملّأت بالدُّنيا الدنيّة خبرةً[٣] ... فأعظم ما بالنّاس أيْسَر مابِ

وأيقنتُ أن الله يمنع جاهدا ... ويرزق أقواما بغير حِساب

فياذل أذنٍ ضمّها أذنُ حاجبٍ ... وياهَوْن وجهٍ خَلْفَ سِدَّة باب

وقد كان همّى أن تعانى مطيّتى ... ببعض نبات الليل خوْض عُباب

وأضحى ومحراب الدُّجا مُتهجّدى ... وأمسِى وماءُ الرّافِديْن شَراب

وتضحكُ من بغداد بيضُ قِبابها ... إذا ما تراءت بالسّواد قِبـاب

ولكنّ قضاءً يغلبُ العزم حكمُهُ ... ويضربُ من دون الحِجا بِحجاب

يقولون لى حتى م[٤] تَنْدب فاسًا ... فقلت وحُسْن العهد ليس يُعاب

إذا أنا لم آسف على زمن مضى ... وعهدٍ تقضّى فى صَبًا وتَصاب

فلا نَظَمَتْ دُرَّ القريض قريحتى ... ولا كانَتْ الآداب أكبر دأبِ

وقلت أبياتا تَبْرزُ بها يدٌ من طاقِ خَشَبِى، لتمام ساعةٍ من الليل، فى نهاية الإحكام وحسن الشكل، يُنْصب مكانها بين يدى السلطان ليلة اتخاذ المولد

---

(١) هكذا فى الإسكوريال. وفى الزيتونة (السافرات).

(٢) هكذا فى الإسكوريال. وفى الزيتونة (اشتطت).

(٣) هكذا فى الإسكوريال. وفى الزيتونة (حيرة) والأولى أرجح

(٤) هكذا فى الإسكوريال. وفى الزيتونة (علم).

الكريم ، فكان منها عند تمام الساعة الرابعة قولى :

سَبَق القضاءُ وأبْرم[1] المحتوم والغيبُ عنَّا سرُّه مكتوم
حال الزمان إذا اعتبرت غريبةٌ والحال فى التحقيق ليس تدوم
والليل سِلْك دُرَّة ساعاتِه إن حلَّ مَعْقِده هوَى المنظوم
أَكْرِم برابعةٍ تولَّت بعدما ثَبَتَت لها فى الصَّالحات رسوم
ولقد سهرتُ مفكرا والبدرُ فى بحر السماءِ مع النجوم يعُوم
فحسِبْتُ شكلَ البدر أبيض هائما فوق يُحلِّق طيره ويحُوم

ومنها :

حجرٌ رماه المنجنيق فشأْنُه متطأْطىءٌ متدافعٌ ملموم
ومن النجوم أَسنَّة لجيوشها من كل مُطَّلع علىَّ هَجوم
رجعت إلى حربى وعمرى مَعْقِل ومُخلِّصى من نابها معدوم
بدرت لها شرفات أسنانى تهى وقُواى تفقد رَجْعة وتقوم
فصرختُ يا وَيْلِى أُصِيبت غُرْتى ماذا عسى هذا البناءُ يدوم
وإذا رمى فَلكُ البروج مدينةً بالمنجنيق فسورُها المهْدُوم
ما دون وجه الحق إن حقَّقْته يفْنَى ويبقى الواحد القيُّوم

المقطوعات المشتملة على الأَغراض العديدة

منها فى غرض التَّورية :

ناديت دمعى إذ جَدَّ الرَّحيل بهم والقلب من فَرَق التَّوديع قد وجبا
سَقَطتَ يا دمع من عينى غداة نأَى عنِّى الحبيب ولم تقضِ الذى وَجَبا

وقلت فى التورية أيضاً :

كتبتُ بدمع عينى صَفْحَ خدِّى وقد منع الكَرى هَجْر الخَليل
ورأيتُ الحاضرين فقلت هذا كتابُ العين يُنْسَب للْخليل

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الريتونة (أبرز) .

وقلت فى التورية أيضاً :

ولمّا رأت عزمى حثيثاً على السُّرى — وقد رابَها صبرى على موقف البَيْن

أتت بِصِحاح[1] الجَوهرى دموعها — فعارضتُ من دمعى بمُخْتصر العَيْن

وقلت فى التورية أيضاً :

مضجعى فيك عن قَتَادة يروى — وروى عن أبى الزِّناد فُـؤادى

وكذا النوم شاعرٌ فيك أمْسى — من دمعى يَهيم فى كلِّ واد

وقلت فى التورية أيضاً :

حين ساروا عنى وقد خَنَقَتنى — عَبَراتٌ قد أعربت عن وُلوع

صحت من فيض العُذيب فلمّا — لم أجد ناصرا فَلِعت[2] دموع

وقلت فى التورية أيضاً :

قال لى والدموع تَنْهل سُحْبا — فى عِراضٍ من الخُدود مُحول

بك ما بى فقلتُ مولاى عافا — ك المعافى من عَبْرتى ونُحولِ

أنا جَفْنى القَريح يروى عن الأَعمَش والجَفْن منك عن مَكْحُول

وقلت فى التورية أيضاً :

مِكناسة جُمِعت بها زُمر العِدا — فمدا بريدٌ فيه ألْفُ بريـد

من واصل الجوع لا لرياضة — أو لابس الصُّوف غيرُ مُريد

فإذا سَلَكْت طريقها مُتَصوِّفًا — فابْنِ السُّلوك بها على التَّجريد

وقلت فى التورية أيضا ولها حكاية :

قلت لما استقلَّ مولاى زَرْعى — ورأى غلَّة الطعـام قليلـة

دِمْنَتى لانتجاعى الحرث كلَّت — فهى اليوم دِمْنةٌ وكلِيــلة

---

(١) وردت فى الإسكوريال والزيتونة (بكتاب) . والتصويب من النفح .

(٢) فلع أى شق .

وقلت فى التورية أيضاً ، وقد أهدى الوزير عمر بن عبد الله فرسًا [به جراد فى عرقوبه][1] :

أشكو إلى الله الصّبر من أبناءِ يعقوب ··· والوعد ما بين مَرْموق ومرْقُـوب

زرعت عُرقوب أرضى من شعيركم ··· جاءَ الجراد فأفْنَى زَرْع عَرْقوبِ

وقلت أيضا ، وقد جلس السلطان للسلام فى يوم شديد البرد :

جلس المولى لتسليم الورى ··· ولفَضْل البرد فى الجوِّ احْتكام

فإذا ما سألوا عن يومنـــا ··· قلت هذا اليوم بردٌ وسلام

وقلت فى التورية أيضا فى سَنةِ قَحْط :

سألنا ربيعَ العام للعام رحمةً ··· فَضَنَّ ولم يسمح بذرَّة إنعام

وقلنا وقد ردَّ الحياءُ وجوهَنا[2] ··· قليل الحياءِ والله أصبحت من عام

وقلت فى التورية أيضاً وضمَّنتُه مثلا :

لما رأوا كَلَفى به وَرَدُوا ··· قَدْر الذى فى فيه من حُبِّ

قالوا الفتى حُـلْوٌ فقلت ··· نعم طَلعت حلاوته على القلب

وقلت فى ذلك والله ولىُّ التّجاوز :

أنا كافر وسواى فيه بعـاذل ··· لا يَستَبين الصِّدق فى آيـاتِه

ومُصدِّق بصحيفة الخدِّ الذى ··· قد أعْجَب الكُفَّار حسنُ نباته

وقلت فى التورية أيضاً :

بأبى ظَبْى غزَانى مستبيحا شَرْح صَدْرى

فأنا اليوم شهيدُ الحبِّ من غزْوة بدر

---

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ووردت فى الريتونة (به حلو فى أحد مرقوبة) . والأولى على ضوء الشعر أرجح .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة الشطرة فى الزيتونة وفى الإسكوريال (فقلت وقد رد الوجوه ولم يبل) . والأولى أرجح .

وقلت فى التورية أيضاً على طريقة المشارقة :

أشكو لمبْسِمه الحزين وقد حمى عنى لِماه المشْتَهى ورحيقَه
يا ريقه حيَّرتَنى ومَطَلْتَنى ما أنت إلاَّ باردٌ ياريقَه

وقلت فى التورية فيمن ركب البحر وماد :

ركب السفينة واستقلَّ بأُفقها فكأنَّما رَكب الهلال الفرقد
وشكوا إليه بمَيْده فأَجبتُهم لا غَرْو أن ماد القضيب الأَمْلَدُ

وقلت فى التورية أيضاً :

يا مالكى بخلالٍ نُهدى إلى الفكر خَيْره[1]
أضرمتَ قلبى نارًا يا مالك بن نُوَيْره

وقلت فى التورية على عرف العامة :

قلت وقد ألبس جسمى الضَّنا صِبْغة سَقَم أبدا لا تحول
يا من رآنى أُشْفِق لما حلَّ بى ويُلبس مخيوط[2] على ذى[3] النحول

وقلت فى التورية ، وقد دلَّك السلطان يَدَيه بالحِنَّاء :

إن شمس الدِّين مخبر الملوك دُرَّة العِقد ووُسْطى السُّلوك
دلَّك الكفَّ بحنَّاءٍ فقلنا أنت شمس الدِّين عند الدَّلوك

وقلت من التورية فى رثاء رجل اسمه الحسن :

أشكو إلى الله من بثِّى ومن شَجَنى لم أجْنِ من شَجَنى سوى مِحن
أصابت الحُسْن العينُ التى رَشقت وعادة العين لا تُصْمى سوى الحَسَن

---

(١) وردت هذه الشطرة فى النفح كالآتى (إلى القلب حيره) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (تخبط) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (ذل) .

وقلت من التورية الغريبة ، عندما خرج السلطان من المدينة البيضاء [بفاس][1] طالبا حقه يريد الحمراء بغرناطة :

ولما حَشْتُ السَّيْر والله حـــاكم لملكك فى الدنيا بعزّ وفى[2] الأُخرى
حكى فرسُ الشطرنج طَرْفَكَ لا يُرى يَنقِل من بيضاءِ إلاَّ إلى حَمْرا[3]

وقلت فى قرية شِخْت من بادية المنكَّب ، وتمكنت فيها التورية من وجهين :

بات رفيقى لهم شخت بشيبته عافها العيـــان
وقلت ما هذه البوادى فقال لى شِخْت يا فلان

وقلت فى قريب منه :

تعجَّلت وخْط الشَّيب فى زمن الصِّبا لخوضى غمار الهمِّ فى طلب المجد
فمهما رأيتم شيبةً فوق مَفْـــرِقى فلا تنكروها إنهــا شيبةُ الحَمْد

وقلت من التورية بالفقه ، وقد صدَّرت بها كتابا ، مجيباً به آخر تقدَّمه :

يا من تقلد للعلاءِ سلوكا والفضل أضحى نهجه مَسْلوكا
كاتَبْتَنى متفضلا فملَكْتَنى لازلت منك مُكاتبا مَمْلوكا

وقلت من أبيات فى التورية :

وما كان إلا أن جنى الطَّرف نظرة غدا القلب رهْنًا فى عقوبة ذَنْبه
وما الحق أن يأْتى امرؤ بجريرة فيُؤخذ فى أَوْزارهـــا جار جنبه

وقلت فى التورية :

ما للسُّهى بادى النُّحول كأنَّه متستِّر تبدو مخايل خـــوفه
قالوا عليك قلتُ هذا ممكن والله أعلم داؤه من جـــوفه

---

(١) هذه الكلمة واردة فى الزيتونة ، وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (بعزوه) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الحمراء) .

وقلت فى التورية أيضاً :

أجاد يَراعُ الحسن خطَّ عِـذاره وأودعه السِّر المصون الذى تَـدْرِ
ولم يفتقر فيه لختْم وطـابع فمَبْسِمه أغنـاه عن طابع السِّرّ

وقلت فى عين قرية البَذُول[1] ، وفيه التورية :

قلت اعشقوا عين البذول التى فى مثلها يُرفض قول العَذُول
فقلّ ما أبصـرتم مَنْظـرا أملح من مَنْظر عَيْن البَـذُول

وقلت أيضا فى التورية :

وظبى لأوضاع الجمال مدرس عليم بأقسام المحاسن ماهـر
أرى جيدَه نصّ المحلّى وقررت ثناياه ما ضَمّت صِحاح الجواهر

وقلت فى التورية أيضاً ، وفى إشارة إلى رجل يقصد الولائم من أجل بطنه ، وشدّة نَهَمه :

أذمِمْ ذوى التّطفيل مهما أتى وإن تكن أجملتهم فاعْنِـه
يمشى على رجليه مع كـونه من جِنس من يمشى على بَطْنه

وقلت فى التورية أيضاً ، والتورية طبّية ، وقد سهرتُ فى طريق المنكّب برأس المزاد ، وقد صدعتنى وعُورتُه :

عند رأس المزاد عادنى السُّهد ولم تُغْن حيلتى واجتهـادى
حسبى الله كيف يبرأ سريعا سَهَرٌ عن صِداع رأس الزاد

وقلت فى التورية بكتاب مُسْلم ، من كتب الحديث :

ذهب الأُلى كانوا نجـوما للـورى فالـكون مُظْلِـم
وتذاكر الناس الحديث الحقّ وافتُقد المُعَلِّـم
أنا كاتب السـلطان ما طالعت كِتاب مُسْـلم

---

(١) قرية البذول ، هى قرية أندلسية تقع على مسافة قريبة من جنوبى غرناطة ، وبالإسبانية Padul

إلاّ سخاما قادحاً فى الدِّيـــن واللهِ المُسَـــــــلَّم

وقلت فى التورية النجومية فى المدح :

إن أبْهَم الخطب جلَّى فى دُجْنَتـه رأيًا يفرِّق بين الغَىِّ والرُّشـد
وإن غَنا الدَّهر أبْدَى من أسـرَّته وكفُّه هَدْى حيران ورىَّ صـدِ
وإن نظرت إلى لألاءِ غُــــرَّته يوم الهياج رأيت الشمس فى الأَسد

وقلت من التورية فى المدح :

تخوَّنه صرفُ الزمان وهل ترى دواما لحالٍ أو بقـــاءً على أمر
هو الدهر ذو وَجْهين يومٌ وليـــلةٌ ومن كان ذا وجهين مُعتَب فى غَدْر

وقلت و قد جَمَدت رِجْلاى لشدة البرد بتاجِرة ، مورياً بعرف العامة ، إذ تقول لمن بولغ فى نكاله ، عملت إطرافه :

لقد جَمَدت رجلاى تاجِرة الرَّدى فخفَّضْت من بأْى لديها وإشراف
وما أرتجى من بُقعة قد هَجَوْتها لقد ظَفِرَت بى فهى تعمل أطرافِ

وقلت فى التورية لمن يدعى شمس الدين :

قل لشمس الدين وُقِيت الردى لم يدع سَقَمُك عندى جَلَدا
رَمَدت عينك هـذا عجيبٌ أوعينُ الشَّمس تشكو الرَّمدا

وقلت فى التورية فى رجل أقسم أنه ذو مالية وأمانة ، وطلب من السلطان خدمته :

حَلَفت لهم بأنَّك ذو يسار وذو ثِقة وبرٌّ باليميـــن
ليَسْتَنَدوا إليك بحفظ مال فتأْكل باليَسار وباليميـن

ومن المقطوعات أيضاً :

فى غرض المدح

طوى البُعْد عن شوقٍ وحثَّ ركابه وأوشك فى مغْناك[1] حطُّ رِحاله
ومِمَّا شجاه البعد عنك وشَفَّه تَبَدِّى نحول السُّقَم فوق هِلاله

وكتبتُ فى جواب للسلطان ، وقد رحلتُ لتفقد الثُّغور ، وكان من فصوله إلىَّ تقرير التشوُّق إلى اللقاء :

تخالف جِنْس الشَّوق والحُكم واحد وكلٌّ محبٌّ فى الكمال مُشْتاق
فمعنى اشْتِياق الأَرض للغَيْث حاجةٌ ومَعنى اشتياق الغَيْث للأَرض إشفاق

وخاطبتُ سلطان المغرب ابن السلطان أبى الحسن ، ولها حكاية . وأبو الحسن الصغير ، رجل كبير من فقهائها :

قل للذى ذكر الهدى وعهودَه فبكى وأصبح مُشْفقا من فَقْدها
غَصَبْتَ حقوق الله جلَّ جلاله فقضى أبالحسن الصغير برَدِّها

وقلت فى غرض المدح ، أشير إلى الكفَّتين ، والعدد المستخرج منهما للمجهول :

لا عدل فى الملك إلا وهو قد نصبه وصيَّر الخلق فى مِيراثه عُصبه
والكفتان ترى من كفِّه دُرَّةً تستخرج العدد المجهول للطَّلبة

وقلت وقد مررتُ بين يدى السلطان ، فى يوم شديد الهاجرة ، وهو ينظر من طاق بقبَّة قصره ، وأنا أروم تفقد أملاكى بالفحص ، وأنكر ذلك فى شدة الحر :

إذا كان فوقى من نَداك غمامةٌ وحولى روحٌ من رضاك وريحان
فإنَّ سموم القَيْظ عندى نسمة وإنَّ مشيم القَفْر عندىَ بُستان

وقلت مشيرا إلى الحديث فى البحر :

رأيت بكفِّك اعتبـــاراً بأْساً وندًا ما أن يبارى[2]

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (مغناه) .

(٢) هكذا ورد هذا البيت فى الإسكوريال . وورد فى النفح والزيتونة كالآتى (رأت بكفك اعتبار بأس وندا ما أن يبارى)

فقدتُ وقد عجبت منـــه　　يا بحرُ متى تعود نارا[1]

وقلت وقد جعل السلطان فى رأسه بيضة السلاح مصقولة :

ياإماما أطال رُبَى عُـــلاه　　وهُماما بالفخر ما أوْلاه

أنت كالرُّمح فى اعتدال وطو　　ل وانتخاب الحديد فى أعلاه

وقلت فى غرض الافتخار :

ما ضرَّنى أن لم أجىء[2] متقدما　　بالسَّبق يُعرف آخر المضمــار

ولئن غدا رَبْعُ البلاغة بَلْقَعــا　　فلربَّ كنزٍ فى أساس جِــدار

وقلت وفيه الإشارة إلى الكاتب ابن الكواب[3] :

بـأَوْتُ على زمنى همَّـة　　فأعتبنى الزمان العاتِب

وشرَّفنى الله فى موْطنى　　وفى بيتِه يشرُف الكاتب

وقلت وهو من التخلُّص المخترع ، وقد جرى بعض ما مدح به الملوك من بنى العباس :

أقول والليل أعيانى تطــاوله　　وأوسع الذَّم والتَّعنيت أسْودُه

ما كان يجرأُ ليلى أن يُطــاولنى　　شعارُكم يا بنى العباس أيَّـده

وقلت وهو من بديع التخلص :

أقول والصبح لا تبدو مخايلهُ　　وقد تعجبت من سُهْدى ومن أرقِ

كأنما الليل زنجى ملابسه　　قد زيِّنت بلآلىء أنجم الأُفق

ونام سُكْرًا فلا شيءٌ يُنَبِّهه　　لما يخشى حرا كأ حُمْرة الشَّفق

وقلت من أبيات أمدح السلطان أبا الحجاج رحمه الله :

فى مِصْر قلبى من خزاين يوسف　　حبٌّ وعيـــرُ مدامعى تَمتارُه

حلَّيتَ شِعرى باسمه فكأنَّـه　　فى كل قطر جــلَّه دينـــاره

---

(١) هكذا وردت هذه الشطرة فى الإسكوريال والزيتونة . وفى النفح (يا بحر متى تدعو نوارا)

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال والنفح . وفى الريتونة (أحز) .

(٣) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (ابن الكواكب) . وهو تحريف .

وخاطبت ولده رضى الله عنه ، معترفا بحبّى فيه ، وكَرْه الخدمة :

قالوا لخدمته دعــاك محمد فكرهتُها وزهدتُ فى التّنويـه
فأجبتهم أنا والمهيمن كـارهٌ فى خدمة المولى مُحبٌّ فيـه

وراجعته عن كتاب كتب لى بخطه ، من فصوله الإنحاءُ على رداءة الحبر :

إذا ما تجلى النُّور فى جَنح ظلمة جلاها كما تجلو الدُّجا غرّة الفجر
فلا تنكِرَنْ الحِبر أنْ حال لونُه فوجهك يَجْلُو ظُلمَتا اللَّيل والحبْر

ومن مدح البلاد وفيه بيان سبب حبِّها قولى فى غرناطة :

أُحِبُّك يامغْنى الجلال[1] بواجب وأَقطعُ فى أَوصافك الغُرِّ أَوقات
تقسَّم منك التّرب قومى وجيرتى ففى الظهر أحياء وبالبطْن أموات

وفى سَبْتَة المحروسة :

حيِّيت يامُخْتَطَّ سَبت بن نوح بكل مُزن يَغْتدى أو يـــروح
وحمل الريحان ريحَ الصَّبا أمـانة فيك إلى كـلِّ رُوح

ولينظر تمام هذه المقطوعة فى اسم الخطيب أبى عبدالله بن مرزوق فى حرف الميم[2] .

وقلت فى بنيونش[3] من أحواز خارج سبتة المذكورة :

لله بنيونش تحكى منازلها كواكب أشرقت فى جَنح ظلماء
صحَّ النسيم فما يعتلُّ من أحد إلا النسّيم وما يرتـاع من داء
ومن كرامتها أن الشمال إذا رامت زيـارتها تمشى عـلى الماء

وفى مصر وقد بينت مزيَّة مُحبيِّها على من دونهم :

سلمت لمصرفى الهوى من بلد يُهديه هواؤه لـدى استنشاقه

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الجمال) والنفح (الكمال) .

(٢) وردت هذه القصيدة فى ترجمة الخطيب ابن مرزوق فى المجلد الثالث من الإحاطة (ص ١٢٨ – ١٣٠) . وأوردها المقرى فى النفح (ج ٣ ص ٢١١) .

(٣) بنيونش وترسم أحيانا بليونش ، هى ضاحية ثغر سبتة المعروفة حتى اليوم ، وهى بالإسبانية « penones » أعنى (الصخور) .

من يُنكر دعواى فقل عنىَّ له ... تكفى امرأةُ العزيز من عُشّاقه

وفى غَرناطة :

بلدٌ تحف به الرِّياض كأنّه ... وجه جميل والرِّياض عِذاره

وكأنما واديه مِعْصَم فضّة[1] ... ومن الجسور المحكمات سِواره

وفى رياض الكُدية ، التى لولدى أسعده الله ، ولا نظير لها فى جلالة القدر:

حدِّث عن الكُدية مَنْ شِيته ... يظن إخبارك تصحيفـــا

فالعقـــل بالمعتاد مُسْتأنس ... إن ذَكَر الواصف مـوصوفا

والحـــق فى أوصافها أنها ... خَرْقاءُ حُسْن وجــدت صوفا

وفى جنة أخيه المعروفة بجنان الورد :

إذا أُهْدِى الإنسان وردة جنّة ... تهلّل من بعد العُبوس مُحيّاه

وأمّل أن يحيا لفصل يعيدها ... فكيف بمن فى جنة الوْرد مَثْواه

وفى جنة أخيهما بالزّاوية :

إن كانت الجنة موجودة ... فى الأرض قلنا جنّة الزّاوية

يابُقْعةً فاز بها المشترى ... فأمّ من خَلْفها هَاوية

ومن أغراض النّسيب قلت من قصيدة :

تذكرتُ عهداكان أحْلى من الكَرى ... وأقْصر من إلمام طَيْف خياله

فياليت شعرى من أتاح لى الجوى ... وعــذّب بالى هـل أمــرٌ ببنالـه

وقلت وهو من التّشْبيه العقيم :

أمُعَلِّلى بمطامعَ من دونها ... جَوْبُ النفوس مفاوزَ الأعمار

تزداد أشواقى إذا يوم خلا ... كتَضاعُف الأعداد بالأسعار

(١) هكذا وردت هذه الكلمة فى الإسكوريال والزيتونة . ووردت فى مخطوطى دار الكتب وجايانجوس (غادة) . (راجع المجلد الأول من الإحاطة — الطبعة الثانية ص ١١٥) .

وقلت من أغراض المشارقة :

رموا بالسُّلو حليف الغـرام ... وأدمعـه كالحياء الهاطـل

أعـوذ بعـزِّك ياسيـدى ... لـذُلى من دعـوة الباطـل

وقلت من أبيات :

عـذَّبتَ قلبى بالهوى فقيامـه ... فِى نار هجرك دايما وقعـوده

ولقد عِهدت القلب منك مُوجِداً ... فعلام يقضى فِى العذاب[1] خلودُه

وقلت فى ذى ذؤابة سوداء :

ياغـزالا تَـرك القلب المُبلى ... حين ولىّ نى ذُفُوف[2] وكآبة

كيف يخشى القلب منى خفقانا ... ودواء المِسْك فى تلك الذُّؤابة

وقلت فى النسيب :

من لى بذكرى كلما أوجبتُها ... تمحو سُلُوِّى واشتياقى تثبّت

وسحاب دمعٍ كلما استَمطرته ... غيرَ القَتاد بمضجعى لا تُنْبت

وقلت فى النَّسيب أيضا :

أضاف إلى الجفون[3] السود شعرا ... كجنح اللَّيل أو صَبْغ المداد

فقلت أمير هذا الحسن تَزْكُو ... الأجور له بتكْثير السَّواد

وقلت فى المعنى أيضا :

من لى به أسمر حُلْو اللِّما ... أهْيَف ماضى السِّحر مرهوبه

كالنحل فى رقَّة خصْر وفى ... لسْعٍ متى شاء ومقلوبه

وقلت فى النسيب أيضا :

أنكرته لما أطلَّ عارضُه ... فقال لى حين رابه نظرى

ألم تقـل لى بأننى قمـرٌ ... فانظر إلىَّ[4] وبر أرنب القمر

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (النار) .

(٢) وردت فى الإسكوريال (دفوق) . ونعتقد أن الصويب أرجح . والذفوف أى السرعة

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (العيون) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (فى)

ومن أغراض التّضمين قلت :

لا تُهج بالذِّكر من خَلَدى　　نار شوق شقَّ محتمله
ويقول الناس فى مَثَل　　لا تحرك مَنْ دنا أجله

وقلت من التضمين :

يا من بأكْناف فؤادى رُتَّع　　قد ضاق بى فى حبِّك المتَّسع
ما فيك لى جدوى ولا أرعوى　　شحٌّ مطاعٌ وهوىً متَّبع

وقلت من التضمين :

قال جوادى عندما　　هَمَزْتُ همزًا أعْجَزَه
إلى متى تهْمِزنى　　ويلٌ لكل هُمَزة

وقلت :

أصبح الخدُّ منك جنَّة عدن　　مُجْتَلى أعين وشَمٌّ أنوف
ظَلَّلتنا[1] من الجفون سيوف　　جنَّة الخُلد تحت ظلِّ السيوف

وقلت :

محاسنك اغْتَدت جنات عدن　　لمن يَرْتاد إحسانًا وحُسْنا
فمهما حلَّها[2] إنسان عين　　فللإنسان فيها ما تَمَنَّى

وقلت فى طول الليل :

ساورتُ أسْود من ظلام دُجًا　　من باته فإلى الجحيم دُفِع
أنا لا أقول سَطا الصباح به　　لكن طغى[3] ثُعبانه فَرَبع

وقلت :

رفعتُ قصة اشتياق ليحيى　　فورَّى الوجه رافضا للفتوة

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (أصقتنا) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (جلاها) .

(٣) هكذا الإسكوريال . وفى الزيتونة (سطا) .

ورمى بالكتاب ضعف ابتسال (١) قلت يحيى خُذْ الكتاب بقوّة

وقلت :

سار بى للأمير يشكو اعتراضا يوسف والشهود أبناء جنسه

قال ما تقول قلت بَديهاً لم أخَفْ من عِقابه أو حبْسه

حصحص الحقُّ ياخوند فدعنى أنا راوَدْتُ يوسفًا عن نَفْسِه

وقلت :

يا كوكب الحُسْن يا مَعْنَاه يا قمره يا روضه المُتناهى الرَّيع يا ثمره

أمَرْتنى بسلوٍّ عنــك مُمْتنــعٌ مأمور حُسْنك لمَّا يَقْض ما أمره

وقلت فى ذلك أيضاً :

أفْقَد عينى لذيذ الوَسَن من لم أزل فيه خَليع الرَّسن

عِذارُه المِسْكى فى خــدِّه أنْبتَه الله النَّبات الحسن

وقلت فى العيْن الذى بحصن نارجة ، وهو ينفع من مرض الحَصا :

أنظر إليه شَبيه معجزة العَصا ماؤه بتنقية المثانة خُصِّصا

فإذا الطبيب سقاه أسرع نُجْحُه وتحدث بالماء الزُّلال مع الحصا

وقلت فى التَّضمين أيضاً :

يعاهدنى دمعى على كَتم سره ويَجرْى إذا ذُكرجوًى ويمين

وذاك لأنِّى من نَجيعى خَضَّبتُه وليس لمخْضُوب البنان يمين

ومن الأوصاف وما يرجع إليها

قلت فى الليل :

تلوَّى ظلام الليل بالصبح ظالما إلى أن تبدَّى الضوءُ وانْقشَع الحَلَك

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (انفعال) .

كما سَرق العَبْدُ العَبُوسُ عمامةً ... فأخرجها من تحته حاكم الفَلَك

وقلت فى المعنى :

أقول ووعد الصُّبح يُمطِله الدُّجا ... إلى أن تبدَّى للعيون مُحيَّاه

كأنْ الصباح الطِّلق طفل مجرد ... تلقَّفه الثُّعبان ثم تبَنَّاه

وقلت فيه :

عَبَس الليل فلا صُبحٌ يرى ... وهَوى النجم وغاب الفَرْقد

وضحكنا وحلَّينا طرفا ... أفلا يضحك هذا الأسود

وقلت فيه :

أيا ليل أفرطتَ فى جَفْوتى ... وعوَّدتنى منك شرَّ الخِلال

ومالىَ ذنبٌ ولكن سَخفت ... بقُرْط الثُّريا وتاج الهلال

وقلت فيه :

أرقتُ وجَنح الليل قَيْد خطوة ... فلهفى على الجَفْن القَريح المسْهد

وما بليت نفس أُمرت تنظر فيه ... بأوحش من عبد عَبُوس مُقَيَّد

وقلت فيه :

ياليل طُلْت ولم تَجُد بتبسم ... وأريتنى خُلَق العَبُوس النادم

هلاَّ رحمت تغرُّبى وتفرُّقى ... لله ما أقْساك يا ابن الخادم

وقلت فيه :

حار الظلام علىَّ دورة كافر ... فقصدت قصد عبادة وتلاوة

ولو أنَّنى كابَرْتُه لم أستطع ... ما حال أبيض فى بلاد قهاوة

وقلت فيه :

بليل كانون عرفتُ الجوى ... لولا ضياء كفٍّ من ظُلمه

طال به نفحُ نسيم الصَّبا ... فاشتعل الإصباح فى فَحْمه

وقلت فيه :

وكأنّ جنح الليل أسود سارقٌ سَرَق الصباح الطّلق ثوباً أبيضا
مازال يضرب بالبوارق ظهره حتى أقرّ به فها هو قد أضا

وقلت فيه :

يا ليلة ساهرتُ طالعَ أُفقها حتى تمايل غارباً أو غاطسا
والصبح من ريح الشمال بزَكْمة تركَتْه من بعد استكانٍ عاصفا

وقلت فى ليلة انتُخب لها الكثير من الفواكه :

أيا ليلة بالخَصْب لم تألُ شهرة كما اشتهرت فى فَضْلها ليلة القدر
فأمّن فيها اللّوزُ من غمة النّوى وأصبح فيها التّين مُنشَرِح الصدر

وقلت فى وصف السماء :

تتَعاور القطبان فها رُقعة وكلاهما فيها لعوبٌ حاذق
الزّهرة الزّهراءُ قُربانٌ بها والبدرُ شاةٌ والنجوم بَيادِق

وقلت أصف فَرَساً أهديته :

إذا ما سرى ليلا فبالنّجم يَهْتدى ومهما انْتَمى يوما فللبرق يَنْتَمِ
يُصيخ إذا أصغى بمَسْمع كاهن ويَرْنُو إذا أوْمى بطرف مُنجِّم
فبوّأته من مهجتى مُتَبَوّأً خفيًا على سرّ الفؤاد المكْتَم
فيا عجباً منى وفرط تشيُّعى أهيمُ بوَجْدى فيه وهو ابن مُلْجَم

وقلت أصف سكّين بَشر للسلطان أبى سالم ملك المغرب :

أرى سيف إبراهيم بينى وبينه مناسبةٌ عند اعتبار المناسب
أزيل حروف الخطّ عند التِباسها وتُبشّر حدّاه حروف الكتايب

وقلت فى سكّين الأضاحى للسلطان أبى الحجاج :

لى الفضل أن شاهَدْتنى واختَبَرتنى على كل مصقول الغرارين مُرْهف

كفانى فخراً أن تــرانى قايمــا ... بسُنّة إبراهيم فى كـفّ يـوسف

وقلت كذلك :

إن شهرت نَصْلى يدا يوسف ... ريعت لكفّى مهجةَ اللَّيث

ولحتُ مثل البرق فى كفّه ... لا يُنكر البرق عـلى الغيث

وقلت فى برّادة كان يشرب فيها السلطان :

عَلَم الملوك أعنى يوسف المولى الْهُماماً

الغمام لأَرْض سقى وأنا أسقى الغماما

وقلت فى طَيْفُور طعام أهديته :

تعلّم طيفورى خلال سَمِيِّه ... وإن كان منسوبا إلىغيربسْطام

فجاء فقيرُ الوقت لابسُ خِرْقة ... وليس براضٍ غير صُحْبةصَوَّام

فدينُك لاترْدُدْه عنك مخيّبا ... ودرسه يامولاى قصّة بِلعـام

وقلت فى روض

كأنّما الروض ملكٌ ... يبْاى بــه جُلســاه

يرضى النّديم فمهما ... سقى الرِّياض كســاه

وقلت فى مروحة سلطانية :

كأنّى قرص الشمس عند طلوعها ... وقد قَدِمَت من قبلها نَسْمة الفجر

وإلاّ كما هبّت بمحْتَدم الــوَغى ... صبا النّصر لكن من بنود نصر

وقلت فى بحرىٍّ يلعب على الشريط ، مُنَوّع الحركات :

ويجــرى تلاعب فى شريط ... وحىٌّ الفعل متّصل الصُّموت

تدلّى وارتقى وسما وأهــوى ... فأعجب فى التّماسكوالثُّبوت

فقلنا إن يكن بشراً ســويا ... ففيه غـريـزةٌ مـن عنكبوت

وقلت فى بَيْضة سلاح مصقولة ، اتخذت للسلطان :

خصِصْتُ ،الحُسْن وانفردتُبه ... فجــلّ قــدرى وقـل أشباه

كأنّنى كوكب الصباح بدا ... عـلى جبين الغَنىّ بـالله

وقلت فى الدَّواة والقلم :

مارأت عينى عجيباً كيراعى فى الـدَّواة
غايصاً يَستخرج الدُّر ببحـر الظُّلمات

وقلت كذلك :

أقلامنا الواسِطّية ذَوابِـل خَطِّيـة
مصروفة لجهاد وحكمةٍ وعطيَّـة

وقلت فى مَلْزم الكُتُب :

يا حسنه من مَلْزم آثـاره لذوى الوِراقة أحسن الآثـار
وكأنما الكراس طَرْف أشهب شدُّوا على شَفَتَيه عود زيـار
وكأنما قلم الكتاب بصَفحه مَكْوى وذاا النَّفط نفط النار

وقلت فى بَيْضة السلاح أيضاً :

إذا أنت لاحظت السلاح وجدتنى أطاوله عـزًّا وأفْضُـله قـدراً
ويُلبسنى المولى الإمـام محمـد فتُبصر منه الشمس توَّجَتْ البدْرا

وقلت فى ذلك :

لحسن بنى نصر صنعت محمدا فيُهديكمَعْنى العزِّ فالِى[1]والنَّصر
علوتُ على بحر السماءِ حَبابةً ولاغرو أن يعلوالحَبابُعلىالبحر

وقلت فى مرآة اتُّخذت للسلطان أيضاً :

لمجـدِّد الملك الرَّفيع محمد أُنشيت فاعجب من غَرابة شان
تبدو مَظاهـرِى لأمـور كأنَّنى من باطن المولى الـذى أنْشَانِ

وقلت فى وصف قينَةٍ :

ومُرضِعةً طفلا من العُود ثَدْيَها ولا دُرَّ إلا الدُّر من أدب مَحْض
إذا لمسته بالبنان تخالها طبيباًمن الحُذَّاق جسَّ على نبض

---

(١) هكذا فى المخطوطين .

وقلت أيضاً فى البدر [1] :

أقول والبدر يسمو فى السماءِ صَعَدا ... لصاحبى والدُّجا مُسْتقبل الفجر

أنظره فى كفَّة الميزان صاعدةً ... كأنَّها ضجة بيضاء من حَجر

وقلت متغزِّلا والله وليُّ التَّجاوز :

قلم المحاسن خطَّ نور عِذاره ... أو مثل حلَّته يُحاك بلا عِلم

لا تتقوا عينا تُصيب جماله ... فالله عوَّذه بنونٍ والقلم

وقلت فى معنى غريب :

ولربَّ رزق [2] غداً لقيت مواجها ... كفَّت أكفَّهم وقايةُ واق

جاورت والتفتوا إلىَّ فخلتُهم ... جعلوا ذوابلهم [3] على الأعناق

وقلت فى رُمَّانة :

رمَّانة راق منها منظرٌ عجيب ... ترُيك صورتُها إبداعَ باريها

كأنما حَبُّها دُرٌّ وظاهرها ... خدٌّ ومن شَحْمها قطن يُواريها

وقلت مرتجلا لمن طلب ذلك على ضفَّة الوادى الكبير :

ومُنْتَقَش المتن كالْمَبرد ... إذا هبَّ عَرْف النَّسيم النَّدِى

تدافع مُسْتَرسلا مايجاً ... كما اندفَع الدِّرْع من مِزْوَد

وقلت وقد استزاد الطلبة الحاضرون من ذلك :

وطَمُوح العُباب ضاقى المَقِيل ... حَسِر الرُّوح عن حُسام صقيل

كسُبَيْك اللُّجين ذهَّبه ... الصَّانع سبحانه بشمس الأَصيل

وا سْتَزادوا من ذلك فقلت :

ومدُرَّع ينساب فى مَنْبت الخَوْط ... تَعيا مَثْوى ظلِّه كل مَغْبُوط

أقام شعُاع الشمس يشغل فوقه ... فسال له ذَوْبُ اللُّجين فى البُوط

---

(١) وردت فى الإسكوريال (البدو) . والتصويب من الزيتونة .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (ورق) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (دوابهم) .

ثم قلت فى ذلك :

ثعبان نهر راعَنا مــــدُّه ... لما أتى يَنْساب من حِجْره
فاهتزَّت الأغصان من فوقه ... وصاحت الاطْيار فى إثْـرِه

ثم قلت فى ذلك :

أنظر إليه والأصيل مورَّس ... والشمس تُرسل من عنان مَسِيرها
وكأنما هو زئبق مترجرج ... ألْقت عليه الْشمس من إكثيرها

ومن وصف المواضع قلت فى تاجرة :

بتاجِرة ريحٌ أزَاحك بردُهـــا ... إلاه متى استرحمته فهو يرحم
رأت عَصَبى غزلا وجسمى مرمَّة ... فها هى تُسدى كل يوم وتُلحم

ومن ذلك أيضاً :

يا بقعةً بالحمد معـــروفةً ... تحذَّرها(1) الشمس فلا تشرق
ترى عيون المـــاء عَمَشاً بهـــا ... وأعْينُ النيران لا تنطـــق

ومن ذلك أيضاً :

جَفاكِ الحيا من بقعة ظِلْتُ عندها ... بلا جَلدٍ مما لقيت ولا جلد
فلو سامَتْها الشمس أرْعَد قرصها ... ولثَّت فلم تسطع حراكا من البَرَد

وقلت أصف جبل شُلَّير(2) :

شلير لعمرى أسا الجِوار ... وسدَّ على رحيب الفضـــا
هو الشيخ أبْرَدُ شىء يُرى ... إذا لَبِس البُرْنَس الأبْيَضـا

وقلت أُخاطب بعض أصحابنا ممن يُخْضِب بياض شَيبه من بعد الإنقاء :

وكريمة شهد الخِضاب شهادة ... بفتُـوُّها عند الأداءِ مُـــزوَّرة

---

(1) هكذا فى الإسكوربال . وفى الريتون (تزورها) .

(2) جبل شلير أو باللاتينية Solaris ، هو الجبل العظيم الذى يشرف على غرناطة من الشرق والجنوب ويسمى أيضاً فى الجغرافية العربية بجبل الثلج ، وهو تعريب لاسمه الإسبانى Sierra Nevada وقد سمى كذلك لأن الثلوج تكلل آكامه صيفا وشتاء .

مرض الفؤاد وحمّ لأجلهــا   فجعلت منهــا للعلاج مُـزَوّره

وقلت وقد استَزاد الحاضرون من هذا المعنى :

عهدى بهاتيك الكريمة مُهْـرقٌ   يقن تُسرُّ[(1)] به العيون وتُغْبــط

أغريت أجــزاء المداد بظلّهــا   وكذا المداد على الطرُّوس مُسَلَّط

وقلت فى ذلك :

خُضتُها بعد ما لاح المشيبُ وقد   جوّزت فى العقل كَتْمَ الصبح بالغَبْش

فاض البياض على رغم السّواد بها   ويرشح الدمع تحت الكُحْل فى العَمْش

وقلت عند الرجوع من الرِّحلة :

رجعنا بفضل الله بعد استِدارة   وفّينا بها الأُنْس كَيْل اختيــاره

كما راجع البركان مفروض نقطة   من السطح منها كان بَدْءُ مداره

وقلت فى الغرض المذكور :

البصر تنأى الشُّهب والشمس فِتْنَة   تلألأ منا البرُّ والبحرُ ذو الموج[(2)]

رَحَلنا عن الأَوْج الرفيــع نَحُلْها   من أجل شتّى ثم عُدنا إلى الأَوْج

وقلت أُخاطب شيخنا أبا الحسن بن الجيّاب :

بين السّهام وبين كَتبك نسبةٌ   مهما يُصاب من العدوّ المقتل

وإذا أردت لها زيادة نِسبة   هذى وهذى فى الكِنانة تجعل

وقلت فى البراغيث وفيها التّجْنيس :

بتنا نكابدهمّ القَحْط ليلتنا   وأنجد السُّهد والكربُ البراغيثا

وكنّا نحمل ما كنّا نـكابده   من المشقّة لوانّ البر أغْيثا

وقلت فى ذلك :

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (تسعد) .

(٢) وردت فى الإسكوريال (المدح) . والتصويب من الزيتونة .

وقالوا بدت منكم على الجلد حُمْرة فقلنا براغيثُ لكم رقطونا
عدَت نحونا ليلا ومن بعدذا امتدت كما رقَصَت فى القلوب زرقُطونا

وقلت فى معنى غريب :

إن اللِّحاظ هى السُّيوف حقيقة ومن استراب فحجَّتى تَكْفيه
لم يدع غمد السيف جَفْنا باطلا الاَّ تشبُّه اللحظ يغمد فيه

وقلت فيما يظهر منها :

هممتُ لأن أقبِّلُها بشَيْبَتى فأبدت عند ذا سِمَة القُنوط
وقالت لى رأيْتُك فى حيـاتى جعلتَ بجسمى قُطن الحُنُوط

ومن الدُّعابة والفكاهة، قولى أُخاطب رجلا منتفخاً بالجاه، يعطى أُموره فوق حقِّها :

رفقاً بنفسك سيدى رفقاً فالفضل أن تبرأ وأن تبْقى
أمَّا مَزاجُك فهو معتـدل لكن أظن خَيالك استَسْقا

وقلت فى الغرض المذكور :

رأيت بمخدومى انتفاخاً فرابنى وباكرتُ دكَّان الطبيب كما وَجَب
فقـال وقـاك الله فيـه فـلا تَخَفْ عليه فهذا النَّفْخ ليس له سَبَب

وقلت على طريقة المشارقة :

همَّ أن ينتف ذقـنى قلتُ[1] والانى بفضله
لم أكن أدخل إلاَّ أمْـرَدَ جَـنَّة وَصْـله

وقلت على طريقتهم أيضاً :

قلتُ لما سألونى بامتحانى واختبارى
أنا من عارى كاس أنا من كاسى عارِ

---

(١) هذه الكلمة واردة فى الزيتونة وساقطة فى الإسكوريال .

وقلت على طريقتهم أيضاً :

وقالت حلقتُ الكُسّ منى بنورة ... فقلت لها استنصرت من ليس يَنْصر
ألا فاخبرى[1] عنى فديتُك واصدقى ... بحلق ذاك الكُسّ إنّى مُقَصّر

وقلت فى بعض الأصحاب ، وقد أكثر من سرقة كتب البرق الشامى للعماد الأصفهانى ، رحمه الله :

خليلىَّ إن يُقْض اجتماع بخالد ... فقولا له عنّى ولن تَعْدُوا الحقّا
سرقتُ العِماد الأصفهانى بَرْقَه ... وكيف ترى فى شاعرٍ يسرق البَرْقا

وقلت ، وقد أرْجَف قوم من المرورين بظهور الخاتم :

وقالوا قد ظفرنا فى الزمان بخاتم ... قد اجتمعت أوصافه الغُرّ فى شخصٍ
فقلت لهم إن صحّ ما قد ذكرتم ... فلا بدّ أن يُحتاج فيه إلى فَصّ

وقلت ، ونستغفر الله من السّفاهة :

قالت بعقلك فاحتفظ كى لا تُرى ... تبكى بضرٍّ ليس يعرف كاشفا
واعمل فديت حساب سِحرى وارعوِ ... فأنا الذى أخرجتُ على سرّنا كاشفا

وقلت مطاوعا إخوان الدّعابة :

قالت إذا استَخبرتها عن زوجها ... هو يُقْرن الأزواج فى الفدان
قلت ابلغى عنى السلامَ تحيّةً ... عند المجئ لزوجك القران

وقلت وهى نزعة بيطارية :

وذى زوجة تشكو فقلت له اسْقِها ... دواءً من الحب الملّين للبَطْن
فقال أبت شرب الدواء بطبعها ... فقلت اسقها إن عافت الشرب بالقرن

وقلت أخاطب بعض الطلبة ، وكُنْية أبيه أبو الربيع ، واتهمته بأكل الحشيش :

إننى ابن سليمن وفى الفكر فترة ... تُخْبر أنّ العقل جدّ مُغَيَّب

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (فابلغى) .

فقلت أظن السيِّد اعتم عمْـةً ولكنها فى الأَصل من كَنْية الأَب

وقلت على طريقة المشارقة والله ولىٌّ المغفرة :

قال لى عندما ِأتى بجدال وشُكوكٍ على أُصـول الدين
ولسانى يُبَدِّل الدَّال تا عاجزا فى الأُمور عن تَبْيين
التمس مخرجا يوافق قولى قلت أحسنت يا حلاَّل التِّين

وقلت معارضاً أبياتا مثلها لبعض المعاصرين :

بعثتُ له إذ اتبعنا عَصِـيرا هَجَرْنا فى تفقُّده البُيُـوتا
لعلك يا حبيبَ القلب تأتى فتأْكل عندنا عِنَبًا وتُـوتَا

وقلت أخاطب من أدل عليه ، وما أولانى بذلك :

إذا قُمت قلت بعقيب الكَرَى إلهى أنت إلـه الوَرى
تباركت أنْشَأْتهم من تُراب وأنْشَأْتنى بينهم من خرا

وقلت وهى نزعة مشرقية :

يا قايدى نحو الغـرام بمُقْلة نفَقَت حلاوتها بكل فـؤاد
ماذا جنيتَ علىّ من مَضَض الهوى الله يُنْصِف منك يا قـوَّاد

وقلت فيمن رعى محبوبه عارضه فى حال السُّكر ، ولحية التيس دواءٌ نافع للبطن :

رعى عارضى ظَبْى شكى سقَم بطنه وقال ولم تُرْشِد لحذق ولا كيس
ألم تر أنى عـلَّة البطن اشتكى وينفع من يشكو بها لحية التَّيس

وقلت :

حين لم أرْجُ للخلاص سبيلا دأبه بالصُّدود فى عشـاقه
قَبَض الله لحْـية لخلاصى قَبَضتْ بالبنان فوق خناقه

وقلت فى ذلك :

لم أجد فيه لين بثْ لقلبى وقبولا لحُجْتى واعتذارى

ثقَّل الله ظهره بعِيال سوَّد الله وجهه بعِذار

وقلت فى ذلك :

ناديت مبتهلا وقد جنَّ الدُّجى لمَّا بَرِمت بردِّه وبِنَجْهه

يارِبِّ واجعل لوْعتى فى قلبه يارِبِّ واجعل لَمْحتى فى وجهه

وفى قريب من ذلك ، والله العفوُّ الغفور :

لى حبيب لسْتُ أعْصى أمره لم أُطِق بعد وصال هجره

يدَّعى أنى ثقيل مُبرم أثقل الله بعَذْلى ظهره

وقلت فى مجتمع فضلاء :

أقول وقد جاء الغلام بثَرْدة بأمثالها يحيى السَّعيد ويَنْعمُ

بنيت على زرد ولقمنى الفتى كذلك ماعون البناء يُلقَّم

وقلت والله ولى التجاوز أُداعب بعضهم :

شيخ رِباط إن أَتى شادِنٌ خَلْوَته عند انسِدال الظلام

أدلى وقد أبصره دِلْوه وقال يا بُشْراى هذا غلام

وقلت مشيراً إلى بعض طبقات الغِناء :

ضرَط الفقيه فقلت ذاك غريبة ما كان ذلك منه بالمعلوم

فرَنا إلىّ وقال قد أطْرَفتكم من ضَرْطتى بغريبة المَزْموم

وقلت أصف رجلا خبيثاً غفر الله لى وله :

وذى حِيَل يُعيِى التَّقيَّة أمرُها مكايدة فى لُجَّة الليل تَسْبح

يدبُّ شُبول الليث والليث ساهرٌ ويَسْرق نابَ الكلب والكلب يَنْبَح

وقلت فى نزعات المشارقة :

أقول لعاذلى لمَّا نهانى وقد وجد الملامة إذ جَفانى

علمت بأنه مُرُّ التَّجنِّى وفاتك أنه حُلو اللسان

ومن أغراض الإشارات الصوفية وغيرها من الوعظ والجدّ والحكم .

ولعل ذلك ماحيًا لما تقدّمه بفضل الله

قلت . وربما ثبّتت فى كتاب « المحبة » من تأليفى :

تعدّدت الألفاظ واتحد المعنى   وأصبح فَرْدًا ما مررت به مَثْنا
وعادَتْ لعين الجمع وهى كثيرة   محا كلٌّ فرق مُجْتَلى وجهك الأسنى
تعبّدت الأفكار آثارك العلّا   وقيّدت الأبصار روضتك الغنّا
وقصّرت الألفاظ عن نيل غاية   ببعض الذى أبْدَته ذاتُك من معْنى

وقلت :

لا يُنْكر لى إن كنت قد أحببتكم   أو أننى استولى علىَّ هـواكُم
طوعا وكرها ما ترون فإننى   طُفْتُ الوجود فما وجدت سواكم

وقلت :

والكون أشراكُ نفوس الوَرى   طوبى لنفس حـرَّة فـازت
إن لم تَحُزْ معـرفة الله قد   أوْرَطها الشيءُ الذى حـازت

وقلت أيضاً فى المشيب وما فى معناه :

أنّى لمثلى بالهوى من بعد ما   للوَخْط بالفودين أىُّ دبِيب
لبس البياض وحلَّ ذِروة مِنْبر   منّى ووالى الوَعْظَ فعلُ خطيب

وقلت فى تعلّل يناقض ذلك :

قلتُ للشّيب لا يُربْك جفـائى   فى اختصارى لك البرور ومقتك
أنت بالعَتْب يامَشِيبى أولى   جيتنى فجأةً وفى غير وقتك

وقلت :

طال حزنى لنشاط ذاهب   كنت أُسقى دائما من خانَه
وشباب كانَ يَنْدى نُضْرة   نزل الثلج على ريحـانه

ونظرت يوما إلى ولدى فأعجبتنى شيبته فقلت :

سرق الدهر شبابى من يدى ... ففؤادى مُشْعِر بالكمد
وحملتُ الأمر إذ أبصرتُه ... باع ما أفقَدنى من ولدى

وقلت وهو الحقُّ :

أنظر خِضاب الشيب قد نَصلا ... ورائد العيش بعده انْفَصلا
ومطلبى[1] والذى كَلِفت بـه ... قد رُمْت تحصيله فما حَصَلا
لا أمل مُسْعِفٌ ولا عمـل ... نحن فى ذا والموت قد وَصَلا

وقلت :

قَحَطْنا ثم صاب الغيث رحمى ... فشكرا يا حِمام إذا الغطتَّا
ويا غيث الرِّضا عنا انْسِكابا ... فأنت على الخَبير به سقَطتا

وقلت لما أخذت فى طريقة أبى الفرج[2] :

قعدت لتَذْكيـر ولو كنت مُنصفا ... لذكرت نفسى فهى أحْوَج للذكرى
إذا لم يكن منى لنفسى زاجـراً ... فياليت شِعرى كيف نفعل[3] فى أخرى[4]

وقلت وأنا بسلا ، وقد أحْسَسْت غفلة ، والحال كله كذلك :

أيا أهل هذا القطر ساعده القَطْر ... دهيتُ[5] فدلونى لمن يُرفع الأمر
تشاغلت بالدنيا ونِمْت مُفـرِّطـا ... وفى شغلى أو نومتى سُرِق العُمْر

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (وبقلبى) .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ووردت فى الزيتونة كالآتى (وقلت على طريقة أبى الفرج الجونى) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (أفعل) .

(٤) هنا وبهذه المقطوعة تم الجزء الثالث منه مخطوط الزيتونة . وبه كمل كتاب الإحاطة وفقا لهذا المخطوط . وقد اختتمه الناسخ بالعبارة الآتية «انتهى كتاب الإحاطة بحمد الله وعونه . وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد الكريم ورسوله الرحيم ، وأخصه بأفضل التسليم . ورضى الله عن العلية خير أصحابه ، وعن الصفوة الصافية أهل بيعته ، وبه نتوسل أن يمن علينا بشفاعته ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » (لوحة ٣٠١ ، ٣٠٢) « ووافق الفراغ منه يوم الثلاثاء الثامن والعشرون من جمادى الثانية عام 1273 » .

(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (بليت)

وقلت فى مِنْكانة الرَّمل وهو بديع :

مِنْكانة الرَّمل فيها عِبْرة ونُهى وشاهدٌ أن كلاًّ منقضٍ كَمَدا
لُبَابُ عُمْرِ الفتى يجرى بجَرْيتها كأنما العُمْر لما أُطْلِقت فُصِدا

ولما ارتجلت ذلك ، استزاد الحاضرون فقلت :

تأمل الرَّمل فى المِنكان مُنطلقا يجرى وقَدْرُه عمراً منك مُنْتَهبا
والله لو كان وادى الرَّمل يُنجده ما طال طايلُه إلاَّ وقد ذهبا

وقلت فى قريب منه :

حَمَى الفَلَكُ الدوَّار جَفنى عن الكرَى لشتَّى هموم منه فِكرى يَجْنِيها
أراه رحى قين وعمرى صفيحة يكرُّ عليها بالمدار فيُفْنِيها

وقلت فى الوصايا :

إذا ما النفس مالت نحو حُسْن فقد خَطرت على خَطَر الولُوع
فإن أحسَّت بالمَيْل أدركها فما بعد المَمِيل سوى الوقوع

وقلت فى المعنى :

إذا صرفتَ نحو وجهِ حَسَنٍ طَرْفَكَ واستهداك للحين الطَّمع
فلا تُمِل قلبك ما استطعت له فالقلب كالحائط إن مال وَقَع

وقلت :

أخى لا تقل كذبا إن نَطَقْت فللناس فى الصِّدق فضلٌ وَضَح
وخِفْ إن كذبت طُروُّ افتضاح فما كَذِب الفجرُ إلاَّ افتضح

وقلت مُنْحيا على عالم الكَوْن والفساد :

والله لو كانت حياتى فى يدى مع جهل وعدِ الله أو لقياه
فى خفض عيش لا تكلف منَّة الإنسان مطعمه ولا سُقياه
ما كان هذا العالَم الجمُّ الأذى مما يؤمل عاقل بُقْياه

وكتبت فى بعض الحيطان لما اجتزت على مدينة سَبْتة :

أقمنا برهة ثم ارتحلنـــا   كذلك الدهر حالٌ بعد حال

وكل بدايةٍ فإلى انتهـــاءٍ   وكل إقامةٍ فإلى ارْتِحال

ومن سام الزمان بعام أمرٍ   فقد وقف الرجاء على المحال

ولنختم غرض هذه المقطوعات بقولى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله :

عَدِّ عن كيت وكيت   ما عليها غير مَيْت

كيف ترجو حالة البقـــاء لِمِصْـــباح وزَيْت

ومن المُوَشَّحات

التى انفرد باختراعها الأندلسيون ، وقد طُمِس اليوم رسْمُها ، قولى :

ربِّ ليل ظفرتُ بالبَدْر   ونجوم السما لم تَـدْر

حفظ الله ليْلنا ورعا   أىّ شمل من الهوى جمعا   غفل الدهر والرقيب معا

ليتَ نهر السِّر لم يَجْر   حَكَم الله لى على الفَجْر

علِّل النفس ياأخا الطَّرب بحديث أحْلَى من الضَّرب فى هوى من وِصَاله أرَبُ

كلما مـــرَّ ذكـر من أذرٍ   قلتُ يابَـــرْدُه على صـــدْرٍ

صاحِ لا تهْتم بـأمر غدٍ   وأجِزْ صرفها يداً بيد   بين نهر وبُلْبل غرِد

وغصون تميل من سُكر   أعلنت الغمام بالشُّكر

يا مرادى ومنتهى أملِ   هاتها عسجديَّة الحُلَل   حلَّت الشمس مَنْزِل الحَمَل

ورَدْ الربيع فى نشـــر   والصَّبا عَنْبرية النَّشر

غُرَّة الصبح هذه وَضَحت   وقيان الغصون قد صَدَحت   وكأنَّ الصَّبا إذا نفحت

وسَما طيبها عن الحصْر   مِدْحَةٌ فى عُلا بنى نصر

هم ملوك الورى بلا ثُنَيَا   مهَّدوا الدين زَيَّنُوا الدُّنيا   وحمى الله منهم العَلْيا

فالإمام المرفَّع الخَطَـــر   والغمام المبارك القطْر

إنما يوسف إمام هَدا   جاز فى المَعْلُوات كلَّ مدا   قلَّ لدهر بملكه سَعدا

إفتخر واجباً على الدهر كافتخار الربيع بالزْهـر

يا عماد العُلا والمجد أَطْلَع العيد طالع السّعد ووفّى الفتح فيه بالوعد

وتجلّت فيه على العَصْر غُرر من طلايع النّصـر

فتهنّاً من حُسْنه البهج بحياة النفوس والمهج واستَمِعْها ودع مقال شَجٍ

قسماً بالهوى لذى حجر ما لِلَيْل المشُوق من فَجْر

ومن ذلك قولى أيضاً :

زمن الأُنْس كلما ولّى ردّه مُعْوِز فاغتَنِم منك ريقَ العُمْر وهو مُسْتَوفِـز

أطرد الهمّ بابنة العِنب. وأحل غَيم الثّرا .عن شُموس عَكَفْنَ فى حُجُب. عن عيون الورى

هى كنزٌ من خالص الذّهب حلّ عنـــد العــــرا

كم فقير أتى على وعْدِ فيه يُسْتَنْجز والوعِيد الشّديد معروفُ للّذى يَكْنز

أضحك الفجر مَبْسِم الشّرق. فاستراب الظلام وانتضى الأُفق صارم البرق . من قِراب الغمام

وتحلّت ترايِبُ الورق دُرُّ زَهْــــر الكِمـــام

ولجيش الصباح فى الأُفق رايةٌ تُرْكز وخيول السحاب بالبَرْق أبدا تَنْهَمِر

وقدُود الغصون ترتاح لِلقاء النسيم وشَميم الرّياض نفّاح كثَنَا الكريم

ومُحَيَّا الصباح يلتـــاح فى الجمـــــال الوَسِيم

وخطيبُ الحَمام فى الغُصن مُسْهِبٌ مُوجِز ينكر النّوم فهو بالعَتْب مُفْصِحٌ مُلْغز

للهوى قُلْوة من الناس. ذات نهج قويم لا ترى فى المدام من باس وارتشافِ النّديم

بحديثِ الغرام والكاسِ فى الزّمـــــان القديم

طوِّر واصفح كل ديوان وبه طرِّز ما لا تُجْز فى شريعة الظّرف غير ما جوَّزا

قِفْ ركاب المدايح الغُرِّ. باهل برِّ الهدا يوسف الملك نخبة الأمر غيثُ أُفق النّدا

من لأسلافه بنى نصر فى جهـــاد العِـــــدا

وكتبت عن السلطان أبى الحجاج ابن السلطان أبى الوليد بن نصر،

رحمه الله ، إلى التُّربة المقدسة ، تُربة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى من أوليات ما صدر عنى فى هذه الأغراض :

إذا فاتنى ظل الحِمى ونعيمـــه — فحَسْبُ فؤادى أن يهبَّ نسيمُهُ
ويقنعنى أنى بـــه مُتكيف[1] — فزمْزمه دمعى وجسمى حَطِيمه
يعود فؤادى ذكر من سَكن الغضا — فيُقعده فوق الغضا ويُقيـمه
ولم أر يوما[2] كالنسيم إذا سَرى — شفا سَقم القلب المشوق سَقيمه
نعلل بالتذكار نفسا مشوقة — يديرُ عليهـــا كأسَه ويُديمــه
وما شفَّنى بالغُور قدٌّ مُرَنَّم[3] — ولاشاقنى من [حشٍّ وجدة][4] رِيمُهُ
ولا سَهِرت عينى لبرق ثَنية — من الثَّغر يبدو موهِناً فأُشيمه
برانى شوقٌ للنبى محمـــد — يَسُوم فؤادى بَرْحه[5] ما يسومُه
ألا يا رسول الله ناداك ضارعٌ — على البعد[6] محفوظ الوِداد سليمُه
مشوق إذا ما الليل مدَّ رواقَــه — تحثُّ[7] به تحت الظلام همومُه
إذا ما حديث عنك جاءت به الصَّبا — شَجاه من الشوق الحديث قَدِيمُه
أيجهر بالنَّجوى وأنت سَمِيعُها — ويشرح ما يخفى وأنت عَلِيمُه
وتعوزه السُّقيا وأنت غـياثُه — وتَتْلِفه البلوى[8] وأنت رحيمه
بنورك نور الله قد أشرق الهدى — فأقماره وضَّـــاحة ونجــومُه

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النح (متكنف) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (شيئا) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (مربح) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (وحش وجرة) .
(٥) وردت فى الإسكوريال بحره . والتصويب من النفح .
(٦) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (النأى) .
(٧) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (تهم) .
(٨) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (الشكوى) .

لك أنهل فضل الله بالأرض ساكبًا ... فأنواؤه ملتفَّة وغيومه[1]

ومن فوق أطباق السماء بك اقتدى ... خليل الذى أوطاكها[2] وكليمه

لك الخُلُق الأرْضَى الذى جلّ ذكره ... ومجدك فى الذِّكر الحكيم[3] عظيمه

يجلّ مدى عَلْياك عن مدح مادحٍ ... فموسر دُرّ القول فيك عديمُه

ولى يارسول الله فيك وراثة ... ومجدك لا يُنسى الزِّمام كريمُه

وعندى إلى أنصار دِينك نِسْبَةٌ ... هى الفخر لا يخشى انتقالاً مُقِيمه

وكان بودى أن أزور مبوأً ... بك أفتخَرت أطلالُه ورسومُه

وقد يجهد الإنسان طَرْف اعتزامه ... ويعوزُه من بعد ذاك مَرُومُه

وعُذرى فى تَسْويف عزمى ظاهر ... إذا ضاق عُذْر العَزْم عمّن يلومه

عَدَتْنى بأقصى الغَرْب عن تُرْبك العدا ... جلالِقةُ الثَّغر الغريب ورُومُه

أجاهد منهم فى سبيلك أمّةً ... هى البحر يَعْيى أمرُها من يَرُومه

فلولا اعتناءٌ منك يا ملجأ الوَرَى ... لِريع حِماه واستَبيح حَرِيمه

فلا تَقْطع الحَبْل الذى قد وصَلتَه ... فمجدك موفور النَّوال عِمِيمُه

وأنت لنا الغيث الذى نَسْتَدِرُّه ... وأنت لنا الظلُّ الذى نَسْتَدِيمه

ولمّا نأتْ دارى وأعْوز مَطْمَعى ... وأقْلَقنى شوقٌ يشبُّ جَحِيمه

بعثتُ بها جُهْدَ المُقِلِّ معوِّلاً ... على مجدك الأعلى الذى جلّ خِيمه

وكلتُ بها هَمِّى وصدقَ قريحتى ... فساعدها[4] هاءُ الرَّوى وميمُه

فلا تَنْسَنى يا خير من وطِئ الثَّرى ... فمثلك لا يُنْسَى لديه خديمُه

عليك صلاة الله ما ذرّ شارق ... وما راق من وجه الصَّباح وسِيمُه

---

(١) هذا البيت وارد فى النفح وساقط فى الإسكوريال.

(٢) هكذا فى النفح. وفى الإسكوريال (أوطاكه).

(٣) هكذا فى الإسكوريال. وفى النفح (العظيم).

(٤) هكذا فى الإسكوريال. وفى النفح (فساعدنى).

إلى رسول الحقّ ، إلى كافّة الخَلْق ، وغمام الرحمة الصادق البَرْق ، والحايز فى ميدان اصْطفاء الرحمن قَصَب السَّبق ، خاتم الأَنبياء ، وإمام ملائكة السماء ، ومن وُجِّبت له النبوة ، وآدم بين الطين والماء ، شَفِيع أَرباب الذنوب ، وطَبِيب أَدواء القلوب ، ووسيلة الخلق إلى عَلَّام الغيوب ، نبي الهدى الذى طُهِّر قلبُه . وغفر ذنبه ، وخَتم به الرسالة ربُّه ، وجرى فى النفوس مجرى الأَنفاس حبُّه ، المُشَفَّع يوم العرض ، المحمود فى ملإ السموات والأَرض ، صاحب اللِّواء المَنْشور ، والمؤتمن على سِّر الكتاب المسطور ، ومخرج الناس من الظلمات إلى النور ، المؤيد بكفاية الله وعصمته ، [الموفور حظُّه من عنايته ونعمته][1] . الظلُّ الخفَّاق على أُمّته من لو حازَتْ الشمس بعض كماله ، ما عدمت إشراقا ، أو كانت للآباء رحمة قلبه ، ذابت [نفوسهم][2] إشفاقا ، فائدة الكَوْن ومَعْناه ، وسرُّ الوجود الذى بهرَ الوجودَ سَناه ، وصفِيُّ حضرة القدس الذى لا ينام قلبه إذا نامت عيناه ، البَشِير الذى سبقت له البُشْرى ، ورأى من آيات ربِّه الكبرى ، ونزل عليه[3] سبحان الذى أَسْرَى . الأَنوار من عنصر نوره مستمدة . [والآثار من آثاره مستجدة][4] من طُوى بساط الوحى لفقده ، وسُدَّ باب النبوة والرسالة من بعده ، وأُوتى جوامع الكلم ، فوقف البلغاءُ حَسْرى دون حدِّه ، الذى انتقل فى الغرر الكريمة نوره ، وأضاءت لميلاده[5]

(١) هذه العبارة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) هذه الكلمة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

(٣) هكذا فى النفح . وفى الإسكوريال (فيه) .

(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ووردت فى النفح كالآتى (والآثار تخلق وآثاره مستجدة) .

(٥) هكذا فى النفح . وفى الإسكوريال (لنوره) والأولى أرجح

مصانع الشأم وقصوره ، وطفِقت الملائكة تحييه [١] وفودها وتزوره . وأخبرت الكتب المنزلة على الأنبياء بأسمائه وصفاته . [فجاء بتصديق الخبر ظهوره][٢] وأخذ عهد الإيمان على من اتصلت بمبعثه منهم أيام حياته][٣] المُفْزِع الأمْنَع يوم الفَزَع الأكبر ، والسَّند [٤] المعتمد عليه فى أهوال المَحْشر ، ذو المعجزات [٥] التى أثبتتها المشاهدة والحِسُّ ، وأقرَّ بها الجِنُّ والإنس ، من جماد يتكلم ، وجِذْع لفراقه يتألَّم ، وقمر له يَنْشقّ ، وشجر [٦] يشهد أنَّ ما جاء به هو الحق ، وشمس بدعائه عن مسيرها تُحْبس ، وماء من أصابعه الكريمة يَنْبَجس ، وغمام باسْتِسْقائه يَصُوب ، وركيَّة [٧] بصق فى أجاجها ، فأصبح ماؤها وهو العَذْب المشروب ، المخصوص بمناقب الكمال ، وكمال المناقب ، المسمى بالحاشر والعاقب ، ذو المجد البعيد المراق [٨] والمراقب ، أكرم من [رُفعت إليه][٩] وسيلة المُعْتَرف والمُتغرب ، سيِّدُ الرسل ، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، الذى فاز بطاعته المحسنون ، واستَنْقَذ بشفاعته المذْنبون ، وسَعُد باتباعه الذى لا خوف عليهم ولا هم يَحْزَنون ، صلى الله عليه وسلم ، ما لمعَ برقٌ ، وهَمَع وَدْق ، وطلعت شمس ، ونسخ اليومُ أمس . من عَتِيق شفاعته ، وعَبْد طاعته ، المعتصم بسببه ، المؤمن بالله ثم به ، المُسْتَشْفِى بذكره كلما

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (تجيئه) والأولى أرجح

(٢) هذه العبارة ساقطة فى النفح ، وواردة فى الإسكوريال .

(٣) هذه العبارة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

(٤) وردت فى الإسكوريال (السيد) والتصويب من النفح .

(٥) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (المشاهد) والأولى أرجح .

(٦) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (وحجر) .

(٧) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (وطوى) .

(٨) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (المرامى) .

(٩) هكذا وردت هذه العبارة فى النفح ، ووردت كلمتها فى الإسكوريال (بعثت) .

تألم . المفتتح بالصلاة عليه كلما تكلمّ . الذى . [إن ذكر][(١)] تمثل طلوعه بين أصحابه وآله . وإن هبَّ النسيم العاطر ، وجد فيه طيِّب خِلاله ، وإن سمع الأذان تُذكِّر صوتُ بلالِه ، وإن ذُكر القرآن ، استشعر[(٢)] تردُّدُ جبريل بين معاهده وخِلاله . لاثِم تُرْبه ، ومؤمل قُربه ، ورهينُ طاعته وحُبِّه . المتوسل[(٣)] به إلى رضى الله ربِّه ، يوسف بن إسمعيل بن نصر . كتَبَه إليك يارسول الله . والدمع ماحٍ ، وخَيْلُ الوَجْد ذات جماحٍ ، عن شوق يزداد كلما نقص الصبر . وانكسار لايُتاح له إلّاَبدنوٍّ مزارك الجَبْر [وكيف لا يَعِي مشوقك الأمر . وتوطأ على كبده الجَمْر][(٤)] ، وقد مطلت الأيام بالقدوم على تُرْبتك المقدَّسة اللّحد . ووُعِدت الآمال . ودانت بإخلاف الوَعْد . وانصرفت الرِّفاق والعين بإثمد[(٥)] صريحك ما اكتحلت . والركائب إليك ما ارْتحلت ، والعزائم قالت وما فَعَلت . والنواظر فى تلك المشاهد الكريمة لم تُسْرح ، وظهور[(٦)] الآمال عن ركوب[(٧)] العجز لم تُبْرح . فيالها معاهد فاز من حيَّاها ، ومشاهد ما أعْطَر ريّاها . بلادٌ نيطت بها عليك التَّمائم ، وأشرقت بنورك منها النّجود والتّهائم . ونزل فى حجراتها عليك المُلك ، وانجلى بضياء فُرْقانك فيها الحَلَك ، مدارس الآيات والسُّور . ومطالع المعجزات السّافرة والغرَر ، حيث قضُيت الفروض وحُتمت ، وافتُتحت [سُور الوحى][(٨)]

---

(١) هذه العبارة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال

(٣) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (المتوصل) والأولى أرجح

(٤) هذه العبارة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (بنور) .

(٦) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (وطيور) .

(٧) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (وكور) .

(٨) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ومكانها فى النفح (سورة الرحمن)

وخُتمت ، وابْتدِيت المِلّة الحنيفة وتُمّمَت ، ونُسخت الآيات وأُحْكِمت .
أما والذى بعثك بالحقّ هادياً [وأطلَعك للخلق نوراً بادياً][1] ، لايُطفِى غُلّتى إلا شِرْبُك ، ولا يُسْكِن لَوْعتى إلا قُرْبك ، فما أسعد من أفاض من حَرَم الله إلى حَرَمك ، وأصبح بعد أداءِ ما فَرَضْت عن الله ضَيْف كَرَمك ، وعَفّر الخدَّ فى معاهدك ومعاهد أُسْرَتك ، وتردَّد ما بين دَارَىْ بِعْثَتك وهِجْرتك .
وإنى لما عاقَتْنى عن زيارتك العَوائق ، وإن كان شُغْلى عنك بك ، وصدّتْنى[2] الأعداءُ فيك عن وصل سببى بسببك ، وأصبحت بين بحر تتلاطم أمواجه ، وعُدوٌّ تتكاثَف أفواجُه ، ويحجب الشمس عند الظَّهيرة عَجاجه ، فى طائفة من المؤمنين بك ، وطّنوا على الصبر نفوسهم ، وجعلوا التوكل على الله وعليك لُبوسهم ، ورفعوا إلى مصارحتك رؤوسهم ، واستَعْذبوا فى مَرْضاة الله ومَرْضاتك[3] بُوسهم[4] ، يطيرون من هَيْعة إلى أخرى ، ويلتفتون[5] والمخاوف عن يُمنى ويسْرى ، ويقارِعُون وهم الفئة القليلة ، جموعاً كجموع قَيْصرَ وكسْرى ، لا يبلغون من عدو[6] وهم الذَّرُّ من انتشاره عُشْر مِعْشاره ، قد باعوا من الله تعالى الحياة الدُّنيا ، لأن تكون كلمة الله هى العُلْيا ، فياله من سِرْبٍ مَرُوع ، [وصريخ إلاّ منك ممنوع][7] ودعاء إلى الله وإليك مرفوع . وصبْية حُمر الحواصل ، تخفق فوق أكارها أجْنحة المناصل ، والصليب قد تمطّى بمدٍّ ذراعيه ، ورفعت الأطماع بضَبْعيه ،

---

(١) هذه العبارة ساقطة فى الإسكوريال وواردة فى النفح .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (وعدتنى) والأولى أرجح .
(٣) ساقطة فى الإسكوريال وواردة فى النفح .
(٤) وردت فى الإسكوريال (نفوسهم) . والتصويب من النفح .
(٥) هكذا وردت فى النفح وفى الإسكوريال (ينفلتون) .
(٦) هكذا فى النفح وفى الإسكوريال (عدد) .
(٧) هذه العبارة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

وقد حُجبت بالقتام السماءُ ، وتلاطمت أمواج الحديد والبأس الشديد ، فالتقى الماء . ولم يبق إلا الدماء . وعلى ذلك فما ضَعُفت البصائر ، ولا ساءت الظنون . وما وُعِد به الشهداءُ تعتقده القلوب ، حتى تكاد تشاهده العيون ، إلى أن نَلْقاك غداً إن شاء الله . وقد أبلينا العُذْر ، وأرغَمْنا الكفر ، وأعملنا في سبيل الله وسبيلك البيضَ والسُّمر . استَنَبْتُ رُقعتى هذه لتطير إليك [من شوق] [1] بجناحٍ خافق ، وتشعر نيَّتى التى تصحبها برفيق مُوافق ، فتؤدّى عن عبدك وتُبَلّغ ، وتُعفّر الخدّ فى تُربك وتمرّغ ، وتطيب بريّاها معاهدك الطاهرة وبيوتك ، وتقف وقوف الخشوع والخضوع تجاه تابوتك ، وتقول بلسان التملّق عند التَّشبُّث بأسبابك والتَّعلّق ، منكسرة الطَّرف ، حَذِراً بُهْرجها من عدم الصَّرف . ياغياث الأمة ، وغمام الرحمة ، إرحم غربَتى وانقطاعى ، وتغمّد بطَولك قِصَر باعى ، وقوِّ على هيبتك خَور طباعى . فكم جُزْتُ من لُجٍّ مهول ، وجبتُ من حَزون وسُهول ، وقابِلْ بالقبول نيابَتى ، وعجِّل بالرِّضا إجابتى ، ومعلوم من كمال تلك الشِّيم ، وسخاءُ تلك الدِّيم ، أن لا يخيب قَصْدُ من حطَّ بفنائها ، ولا يظمأُ واردٌ أكبَّ على إنائها . اللهم يامن جعلته أوّلَ الأنبياء بالمعْنى وآخرَهم بالصُّورة ، وأعطيتَه لواءَ الحمْد ، يسير آدم فمن دونه ، تحت ظلاله المنْشُورة ، ومَلّكتَ أمتَّه ما زَوى له من زوايا البَسِيطة المَعْمورة ، وجعلتَنى من أمته المَجْبُولة على حُبِّه المَفْطورة [2] [وشوّقتنى إلى معاهده المبْرورة ومشاهده المَزوُرة] [3] ووكلت لسانى بالصلاة عليه ، وقلبى بالحنين

---

(١) هذه العبارة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) هكذ فى النفح ، ومكانها فى الإسكوريال (الموصلة لقربه) . والأولى أرجح لارتباطها بالعبارات المسجعة التالية .

(٣) هذه الجملة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

إليه . ورغّبتنى فى التماس ما لديه ، فلا تقطع عنه أسبابى ، ولا تحرمنى فى حبه أجر ثوابى ، وتداركنى بشفاعته يوم أخذ كتابى . هذه يارسول الله وسيلة من بَعُدت داره ، وشطّ مزاره ، ولم يجعل بيده اختياره . فإن لم تكن هذه للقبول أهلا ، فأنت للإغضاء والسمح [١] أهل . وإن كانت ألفاظها وعرة ، فجنابك للقاصدين سهل. وإذا كان الحبُّ يُتوارث كما أخبرت ، والعروق تدسّ حسبما إليه أشرت ، فلى بانتسابى إلى سَعد عميد أنصارك مزيّة ، ووسيلة أثيرةٌ حفيّة . فإن لم يكن لى عمل ترتضيه ، فلى نيّة . فلا تنسنى ومن بهذه الجزيرة [التى افتتحت][٢] بسيف كلمتك ، على أيدى خيار أُمَّتك ، فإنما نحن بها وديعة تحت بعض أفضالك ، نعُوذ بوجه ربِّك من إغفالك ، ونَستَنشق من ريح عنايتك نَفْحة ، وتَرْتقب من مُحيًّا قبولك لَمْحة ، ندافع بها عدوا طغى وبغى ، وبلغ من مضايقتنا ما ابْتغى. فمواقف التّمحيص قد أعْيَتَ من كَتب وأرّخ ، والبحر قد أصْمَتَت [بواعث لَحَجِه][٣] من استَصْرخ ، والطّاغية فى العدوان مُستَبصر ، والعدو محلِّق ، والولىُّ مقصّر[٤] . ويجاهك نَستَدفع[٥] ما لا نطيق ، وبعنايتك نعالج سَقيم الدين فيُفيقَ ، [فلا تُفردَنا ولا تهملنا ، وناد ربَّك فينا ،

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (السماح) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (المفتتحة) .

(٣) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال . وساقطة فى النفح .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (تدفع) .

(٥) ووردت فى الإسكوريال (منصر) والتصويب من النفح .

ربنا ولا تحملنا ، وطوائف أُمتك حيث كانوا عناية منك بكفـهم][٢]

وربك يقول لك ، وقوله الحق ، وما كان الله ليعذّبهم ، وأنت فيهم .

والصلاة والسلام عليك ، يا خير من طاف وسَعى ، وأجاب داعيًا إذا دعا ،

وصلى الله على جميع أحزابك وآلك، صلاة[٢] تليق بجلالك ، وتحقّ

لكمالك ، وعلى ضَجيعيك وصديقيك وحبيبيك ورفيقيك ، خليفتك فى

أُمّتك[٣] ، وفاروقك المُستخلف بعده على ملّتك[٤] ، وصهرك ذى النورين ،

المخصوص ببرّك ونِحْلتك ، وابن عمك ، سيفك المسلول على حلتك[٥] ،

بدر سمائك ووالد أَهَلَّتك . [والسلام الكريم عليك وعليهم ، كثيراً

أثيرا][٦] ورحمة الله تعالى وبركاته . وكتب بحضرة جزيرة الأندلس

غرناطة ، صانها الله تعالى ووقاها ، ودفع عنها ببركتك كَيْدَ عُداها .

---

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى النفح وساقط فى الإسكوريال .

(٢) هكذا وردت فى النفح . ومكانها فى الإسكوريال (بما).

(٣) هكذا وردت فى النفح وفى الإسكوريال (ملتك) .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال ، فى النفح (جلتك) .

(٥) هذه الكلمة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

(٦) هذه العبارة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

وكتبت عن ولده أمير المسلمين أبى عبد الله إلى ضريح رسول الله صلى الله عليه وسلم

وضمنت ذلك ما فتح الله عليه من الفتوحات السَّنِيَّات، إليه وفى أوائل عام أحد وسبعين وسبعماية

دعاك بأقْصَى المَغْرِبين غريب ... وأنت على بُعد المزار قريب
مدلٌّ بأسباب الرجاء وطَرْفه ... غَضيضٌ على حُكْم الحياء مَهيب[١]
يُكَلِّف قرص البدر حَمْل تحية ... إذا ما هوى والشمس حين تَغِيب
ليَرْجِع من تلك المعالم غدْوة ... وقد ذاع من وَرد[٢] التحية طِيبُ
ويستودع الريح الشمال شمائلا ... من الحُبِّ لم يعلم بهنَّ رقيب
ويطلب فى جَيْب الجُيُوب جوابها ... إذا ما أطلَّت والصباح مُنيب[٣]
[ويستفهم الكفَّ الخَضِيب ودمعه ... غراماً بحنَّاء النَّجيع خَضِيب
ويتبع آثار المطيِّ تشيُّعاً وقد ... زمزم الحادى وحنَّ نَجيب][٤]
إذا أثَرُ الأَخفاف[٥] لاحت محاربا ... يخرُّ عليها راكعاً ويُنيب
ويلقى ركاب الحجِّ وهى قوافل ... طلاحٌ وقد لبَّى النداءَ لبيب
فلا قول إلا أنَّة وتوجُّع ... ولا حول إلاَّ زَفْرة ونحِيب
غَليلٌ ولكن من قَبُولك مَنْهلٌ ... عليلٌ ولكن من رضاك طَبيب
ألا ليت شعرى والأماني ضلَّة[٦] ... وقد تُخْطِئُ الآمال ثم تُصيب

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (مريب) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (رد) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (جنيب) .

(٤) هذان البيتان واردان فى الإسكوريال . وساقطان فى النفح .

(٥) هكذا وردت فى النفح وفى الإسكوريال (الأحباب) والأولى أرجح .

(٦) وردت فى الإسكوريال (ظلمة) . والتصويب من النفح .

أيُنْجد نجْد بعد شطٍّ(١) مزاره ... ويكتب بعد البُعْد منه كَئِيب

وهل ينقضي دَيْني فيسمح طايعاً(٢) ... وأدعو بحظي مُسْمِعا فيجيب

ويا ليت شعرى هل لحوْمى مورد ... لديك وهل لى فى رضاك نصيب

ولكنَّك المولى الجواد وجارهُ ... على أىِّ حال كان ليس يَخِيب

وكيف يضيق الذَّرع يومابقاصد(٣) ... وذاك الجناب المُسْتجارُ حَبيب

وما هاجنى إلا تألُّق بارق ... يلوح بفَوْد الليل منه مَشِيب

ذكرت به رَكب الحجاز وجيرةً ... أهابَ بها نحو الحبيب مُهيب

فبتُّ وجَفْنى من لآلىء دمعه ... غنىٌّ وصبرى(٤) للشُّجون سليب

تريحنى الذكرى ويَهْفو بى الهوى ... كما مال غصنٌ فى الرياض رطيب

وأحضر تعليلا لشوقى بالمُنَى ... ويطرق وجدٌ غالِبٌ فأغيب

مُناى(٥) لو أُعْطِيت الأمانى زَوْرة ... يُبثُّ غرام عندها ووَجيب

فيا ولُ حبيبٍ إذ يقول تشوُّقا ... عسى وطنٌ يدنو إلىَّ حبيب

تعجبت من سيفى [وقدسابق القضا](٦) ... وقلبى فلم يَسْكبه منه مُذِيب

وأعجبُ أن لا يُورق الرمح فى يدى ... ومن فوقه غيثُ المَشوب سَكيب

فيا سَرْحَ ذاك الحىِّ لو أخلف الحيا ... لأغْناك من صوب الدموع صَبيب

وياهاجر الجوِّ الجديب تلبُّثاً ... فعهدى رَطب الجانبين خَصِيب

ويا قادح الزَّند الشجاع ترفُّقاً ... عليك فشوق الخارجى شَبيب

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (شحط) .

(٢) هكذا وردت هذه الشطرة فى الإسكوريال . ووردت فى النفح كالآتى (وتقضى ديونى بعد ما مطل المدى) .

(٣) وردت فى الإسكوريال (بماصد) . والتصويب من النفح .

(٤) وردت فى الإسكوريال (وسيرى) . والتصويب من النفح .

(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (مرامى) .

(٦) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . وفى النفح (وقد جاور النفى) .

أيا خاتم الرسل المكين مكانهُ حديث الغريب الدّار فيك غريب
فؤادى على جَمْر البِعاد مُقلَّب يماح عليه المدوع قَليب
فو الله ما يزداد إلاّ تلَهُّبا أأبصرتَ ماءً ثار عنه لهيب
فليلته ليل السليم ويومه إذا شدَّ للشوق العصاب عصيب
هواى هُدًى فيك اهتديتُ بنوره ومُنْتَسِبى للصَّحب منك نَسِيب
وحسبى على أنىَّ لصَحْبك مُنْتمٍ وللخُزُر جبين الكرام نَسيب[1]
عَدَتْ عن مغانيك المشُوقة للعدا عقاربُ لا يخفى لهنَّ دَبيب
حِراصٌ على إطفاء نورٍ قَدَحْتَه فمُسْتَلِبٍ من دونه[2] وسَلِيب
تمر الرياح الغُفْل فوق كلومهم فتعبق من أنفاسها وتَطِيب
بنصرك[3] عنك الشُّغل من غير منَّة وهل يتساوى مشْهدٌ ومَغِيب
فإن صحَّ منك الحظُّ طاوعت[4] المنى ويبعد مَرْمى السَّهم وهو مُصيب
ولولاك لم تُعْجَم من الرُّوم عودها فعود الصَّليب الأَعجمى صَليب
وقد كانت الأحوال لولا مراغِبُ ضُمِنَت ووعدً بالظُّنون[5] تَريب
منابرُ عزٍّ أذَّن الفَتْحُ فوقها وأفصح للعَضَب الطَّرير خطيب
نقود إلى هيجائها كلَّ صائل كما ريع[6] مَكْحُول اللِّحاظ رَبيب
ونجتاب من سَرْد اليقين مدارعا يَكُفتُها من يَجْتَنى ويُثيب[7]
إذا اضطُّرت[8] الخُطى حول غديرها يروقك منها لُجَّة وقَضيب

---

(١) هذا البيت وارد فى النفح وساقط فى الإسكوريال .

(٢) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (دونها) .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (لنصرك) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (طاوعنى).

(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (بالظهور) .

(٦) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (ريع) .

(٧) هذا البيت وارد فى النفح وساقط فى الإسكوريال .

(٨) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (اضطرب) .

فعذرًا وإغضاءً ولا تنس صارخا ... بعزِّك يرجو أن يجيبَ مُجيب
وجاهك بعد الله نرجو وإنَّه ... لحظٌّ ملىٌّ بالوفاء رَغيب
عليك صلاة الله ما طيَّب الفَضا ... عليك مُطيل بالثَّناء مُطيب
وما اهتزَّ قدٌّ للغصون مُرنَّح ... وما افترَّ ثغر للبُروق شنيب

إلى حجة الله تعالى[1] ، المؤيد ببراهين أنواره ، وفائدة الكَوْن ونُكْتة أدْواره ، وصفوة نوع البشر ومنتهى أطْواره . إلى المُجْتَبى وموجود الوجود ، لم يُغْن بمطلق الوجود[2] عديمه ، والمُصْطفى من ذرِّية آدم ، قبل أن يَكْسُو العظام أَدِيمه ، المحتُوم فى القِدم ، وظلمات العَدَم ، عند صِدْق القِدَم تقديمه وتفضيله ، إلى وديعة النُّور المُنْتقل فى الجِباه الكريمة والغُرَر ، وغمام الرحمة الهامِية الدُّرر . إلى مختارِ الله المخصوص باجْتِبائه ، وحبيبه الذى له المزيَّة على أحبَّائه ، من ذرِّية أنبياء الله تعالى آبائه . إلى الذى شَرَح صدره وغسله ، ثم بعثه واسطة بينه وبين العِباد وأرْسله ، وأتمَّ عليه إنعامه الذى أجْزَله ، وأنْزَل عليه من النُّور والهدى ما أنْزَله . إلى بُشْرى المَسيح والذَّبيح ، ومن لهم التَّجْر الرَّبيح ، المنصور بالرُّعب والرِّيح ، المخصوص بالنَّسب الصَّريح . إلى الذى جعله فى المُحول غماما ، وللأنبياء إماما ، وشقَّ صدره لتلقِّى روح أمره غلاما ، وأعْلم به فى التَّوراة والإنجيل إعْلامًا ، وعلَّم المؤمنين صلاةً عليه وسلاما . إلى الشَّفيع الذى لا تُردُّ فى العُصاة شفاعتُه ، والوجيه الذى قُرِنت بطاعة الله طاعته ، والرؤوف الرَّحيم الذى خَلصت إلى الله فى أهل الجرايم ضَراعته . صاحب الآيات التى لا يَسعُ ردها . والمعجزات التى أرْبَى على الألْف عدُّها ،

(١) زائدة فى النفح .
(٢) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (الجود) والأولى أرجح .

من قمر شُقّ ، وجذْع حنّ له وحقّ . وبنانٍ يتفجر بالماء ، [فيقوم يرىّ](١) الظمأ [وطعام يُشبع الجَمْع الكثير يسيرُه ، وغمام يظلّل به مقامه ومَسِيره] ، خطيب المقام المحمود إذا كان العَرْض ، وأول من تَنْشَقّ عنه الأرض [ووسيلة الله تعالى التى لولاها ما أقْرض القَرْض](٢) ولا عُرف النَّفْل والفَرْض ، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف ، المحمود الخلال ، من ذى الجلال ، الشاهدة بصدقه صحفُ الأنبياء وكتب الإرسال ، وآياته التى أثلجت(٣) القلوب ، بَبرَد اليقين السّلسال . صلى الله عليه وسلم ، ما ذرّ شارق ، وأومض بارق ، وفرّق بين اليوم الشامس والليل الدامس فارقٌ ، صلاةً تتأرّج عن شذا الدّهر ، وتَنْبَلج عن سَنَاء(٤) الكواكب الزُّهر ، وتتردد بين السِّر والجَهْر ، وتستغرق ساعات النهار(٥) ، وأيام الشهر ، وتدوم بدوام الدهر ، من عبدِ هداه ، ومُسْتقْرِئ مواقع نَداه ، ومزاحم أبناء(٦) أنصاره فى مُنْتداه ، وبعض سهامه المُفَوَّقة إلى نحور عُداه . مؤمِّل الْعِتْق من النّار بشفاعته ، ومُحرز طاعة الجبّار بطاعته ، الآمن باتصال رَعْيه من إهمال الله وإضاعته ، متخذ الصلاة عليه وسايل نجاه ، وذخائر فى الشدائد مُرْتجاه ، ومُتاجر بضائعها غير مُزْجاه ، الذى ملأ بحبِّه جوانح صدره ، وجعل فكره هالةً لبَدْره ، وأوجب حقه(٧) على قدر العَبْد لا على قَدْره ، محمد بن يوسف

---

(١) ما بين الحاصرتين ساقط فى الإسكوريال ووارد فى النفح .

(٢) هذه العبارات الواردة بين الحاصرتين كلها واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

(٣) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (انبلجت) والأولى أرجح .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (سنى) .

(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (اليوم) .

(٦) زائدة فى النفح .

(٧) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (قدرة) . والأولى أرجح .

ابن نصر الأنصارى الخزرجى ، نسيب سَعْد بن عُبادة من أصحابه ، وبوارق سحابه ، وسيوف نصرته ، وأقطاب دار هجرته ، ظلله الله يوم الفَزَع الأكبر، من رضاك عنه بظلال الأمان ، كما أنار قلبه من هدايتك بأنوار الهدى والإيمان، وجعله من أهل السِّياحة فى فضاء حُبِّك والهَيَمان .
كتبه إليك يا رسول الله ، واليراعُ يقتضى مقام الهيبة صُفرةً لونه ، والمداد يكاد أن يحول سواد جَوْنه ، ورقَّة الكتاب[1] يخفق فؤادها حرصا على حفظ اسمك الكريم وصَوْنه ، والدمع يقطر فتَنْقَط به الحروف ، وتفصل الأُسطر ، وتوهُّم المثول بمثواك المقدَّس ، لا يمر بالخاطر سواه ولا يخطر ، عن قلبٍ بالبعد عنك قَريح ، وجَفْن بالبكاء جريح ، [وتأوُّه عن تَبْريح][2] ، كلما هبَّت من أرضك نسيم ريح . وانكسارٌ ليس له إلا جَبْرك ، واغتراب لا يُؤنِس فيه إلا قُرْبك ، وإن لم يقض فقبرك .
وكيف لا يُسْلم فى مثلها الأسى ، ويُوحِش الصباح والمسا ، ويُرْجِف جبَل الصبر بعد ما رَسى ، لولا لعلّ وعَسى . فقد سارت الرُّكبان إليك ولم يُقْضَ مسير ، وحوَّمت الأَسْراب عليك ، والجناح كَسِير ، ووُعدت الآمال فأُخْلَفت ، وحلَفت العزايم فلم تف بما حَلِفت ، ولم تحصل النفس من تلك المعاهد ذات الشَّرف الأَثيل ، إلاَّ على التَّمثيل ، ولا من المعالم المتناهية[3] التَّنوير ، الأَعلى التَّصوير ، ومَهْبط وحى الله ، ومُتنزَّل أسمايه ، ومتردَّد ملايكة سمائه ، ومرافق[4] أوليائه ، وملاحد أصحاب[5] خيرة

---

(١) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (الفؤاد) . والأولى أرجح .
(٢) هذه العبارة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (الملتمسة) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (مدافن) والأولى أرجح .
(٥) واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

أنبيائه ، رزقني الله الرضا بقضائه ، والصبر على جاحِم البُعْد ورَمْضائه .

من حمراء غرناطة [حرسها الله تعالى] دار ملك الإسلام بالأندلس . قاصية سُبُلك ، ومُسَلَّحة[1] رَجْلك، يا رسول الله وخَيْلك ، وأنّاى[2] مطارح دعوتك ومساحِب ذَيْلك ، حيث مصافُّ الجهاد فى سبيل الله وسبيلك ، قد ظلَّلها[3] القتام ، وشُهبان الأسنَّة أطْلَعها منه الإعتام ، وأسواق بيع النفوس من الله ، قد تعدَّد بها الأيامَى والأيتام . حيث الجِراح قد تحلَّت بعسجد نَجيعها النحور ، والشُّهداءُ تحفُّ بها الحُور . والأُمم الغريبة قد قَطَعَتْها عن المَدد البحُور ، حيث المباسِم المُفْترَّة ، تجلوها المصارع البرَّة ، فتحييها بالعراء ثغور الأزاهر ، وتَنْدِبها صَوادح الأدواح برنَّات تلك المزاهر ، حيث الإسلام من عدوِّه المكايد بمنزلة قَطْرة[4] من عارض غَمام ، وحَصاة من ثَبير[5] أو شِمام ، وقد سُدَّت الطريق ، وأسْلم [الفراق الفريق][6] ، وأُغِصَّ الريق ، ويئس من الساحل الغريق . إلاَّ أن الإسلام بهذه الجهة المتمسكة بحَبْل الله وحَبْلك ، المهتدية بأدلة سُبُلك ، سالمٌ والحمد لله من الإنْصِداع ، محروس بفضل الله من الابْتِداع . مقدود من جَديد الملَّة ، معدومٌ فيه وجود الطوائف المُضِلَّة ، إلاَّ ما يخصُّ الكفر من هذه العِلَّة ، والاستظهار على جمع الكثرة من جموعه ، بجمع القِلَّة . ولهذه الأيام يا رسول الله ، أقام الله أوَدَه برًّا بوجهك الوجيه ورَعْيًا ، وإنجازاً لوعدك

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (مسجبة) . والأولى أرجح .

(٢) واردة فى النفح . ومكانها بياض فى الإسكوريال .

(٣) وردت فى الإسكوريال (ظلله) والتصويب من النفح

(٤) واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

(٥) هكذا فى النفح وفى الإسكوريال (تثير) .

(٦) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (للفريق الغريق) .

وسعيًا[١] وهو الذى لايخلف وعْدًا ، ولا يخيب سَعْيا ، وفتح لنا فتوحا أشعرتنا برضاه عن وطننا الغريب ، وبشّرتنا منه تعالى بتغمُّد[٢] التقصير ورفع التّثْريب ، ونصرنا ، وله المِنَّة ، على عَبَدةِ الصليب ، وجعل لألِفنا الرّدينى ولأمّنا السّردى ، حكم التغليب . وإذا كانت الموالى التى طوقت الأعناق مِنَنُها ، وقررّت العوايد الحسنة[٣] سيرَها وسُنَنها ، تبادر إليها نُوّابها الصُّرحاءُ ، وخدّامها النُّصحاءُ بالبشائر ، والمسرّات التى تُشاع فى العشاير ، وتجْلُو لديها نتائج أيديها ، وغايات مباديها ، وتُتاحفها وتُهاديها ، بمجانى جنّاتها وأزاهر غَواديها ، وتُطْرف مَحاضرها بطَرْف بَواديها ، فبابُك يارسول الله أَولى بذلك وأحقُّ ، ولك الحقُّ الحق ، والحرُّ منا عبدُك المُسْتَرق ، حسبما سجّله الرِّق . وفى رضاك من كل من يَلْتمس رضاه المُطْمع ، ومثواك المُجْمع ، وملوك الإسلام فى الحقيقة عبيدُ سدَّتِك[٤] المُؤمَّلة ، وخَوْل مَثابَتك المُحْسنة بالحسنات المُجَمَّلة ، وشُهبٌ تَعْشو إلى بدورك المُكَمَّلة ، ومحضِ سيوفك المقلَّدة فى سبيل الله المُحَمَّلة ، وحُرْمة مِهادك ، وسِلاح جهادك ، وبُروق عِهادك . وإن مكفول احترامك الذى لا يُخْفر ، وربىَ إنعامك الذى لا يَكْفُر ، ومُلْتحِف جاهك[٥] ، الذى يُمْحى ذنبَه بشفاعتك إن شاءَ الله ويُغْفِر ، يُطالع روضة الجنّة المفتّحة أبوابُها بمثواك ، ويفاتح صِوان القدْس الذى أجنَّك وحَواك ، وينشر بضائع الصلاة عليك ، بين يدى الضّريح الذى يَهْواك[٦] ، ويعرض جَنَى[٧] ما غرستَ وبذرتَ ،

(١) واردة فى الإسكوريال . وساقطة فى النفح .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (بنفر) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (الحسان) .
(٤) فى الإسكوريال (سيرتك) والتصويب من النفح .
(٥) وردت فى الإسكوريال جهادك . والتصويب من النفح .
(٦) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (طواك) .
(٧) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (شتى) . والأول أرجح .

ومِصداق ما بشَّرت به [لما بشرت][١] وانذرت ، وما انتهى إليه طَلِق جهادك ، ومصبّ عِهادك ، لتقِرّ عينُ نُصحك، الذى أنام العُيون السَّاهرة هُجوعَها ، وأشْبَع البُطون ورواًها ظَمأَها من اللهِ وجُوعَها . وإن كانت الأُمور بمرأى من عَيْن عنايتك ، وغَيْبُها متعرِّفٌ بين إفصاحك وكِتابتك . ومُجْملُه يا رسول الله ، صلى الله عليك [وبَلّغ وسيلَتى إليك][٢] هو أن الله سبحانه ، لمَّا عرَّفنى لطفه الخَفِىّ فى التَّمحيص ، المُقْتَضِى عدم المحِيص ، ثم فى التَّخصيص ،المُغْنى بعيانه عن التَّنصيص ، ووفَّق ببركتك السَّارية رحْماها فى القلوب ، ووسايل محبَّتك العايدة بنيل المطلوب ، إلى استفادة عظة واعتبار ، واغتنام إقبال بعد إدْبار ، ومَزيد اسْتِبصار ، واسْتِعانة باللهِ تعالى وانْتِصار . فسكَّن هبُوب الكفر بعد إعْصار ، وحلَّ مُخنَّق الإسلام بعد حِصار ، وجَرَت على سُنن السُّنة ، بحسب الاستطاعة والمنَّة اليَسيرة ، وجَبَرت بجاهك القلوب الكَسِيرة ، وسهلَت[٣] المآرب العسيرة ، ورُفِع بيد العزَّة الضَّيم ، وكَشف بنور البصيرة الغَيْم ، وظهر القليلُ على الكثير ، وباءَ الكفر بخُطَّة التَّعثير ، واستوى[٤] الدين الحنيف على المهاد الوَثِير ، فاهْتبلْنا[٥] ، يا رسول الله غُرَّة العدوِّ[٦] وانتهزناها ، وشَمَمْنا صوارم [عزّ الله][٧] وهَزَزْناها ، وأزَحْنا عِلَل الجيوش وجَهَّزناها ، فكان

---

(١) هذه العبارة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) هذه العبارة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

(٣) وردت فى الإسكوريال (وسهوت) . والتصويب من النفح .

(٤) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (واستولى) . والأولى أرجح .

(٥) هكذا وردت فى النفح . ومكانها بياض فى الإسكوريال .

(٦) هكذا وردت فى النفح . ومكانها بياض بالإسكوريال .

(٧) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . وفى النفح (عزة العدو) . والأولى أرجح

مما ساعد عليه القدر ، والحظُّ[١] المُبْتَدر . والوِرْد الذى [حسن منه][٢] الصَّدر ، أننا عاجَلْنا مدينة بُرغة[٣] ، وقد جرَعت الأُخْتينْ مالقة ورُندة ، من مداين دينك ، وخزاين[٤] ميادينك ، أكواس الفراق ، وأذكرت[٥] مُثُل من بالعراق ، وسدَّت طرق التَّزاور على الطُّراق ، وأسالت المسيل بالنَّجيع المُراق ، فى مراصد[٦] المُراد والمُراق ، ومنعت المراسلة مع هدْى الحمام ، لا بل مع طَيْف المنام عند الإلمام ، فيسَّر الله اقتحامها ، وألْحَمت بيضُ الشِّفار فى رؤوس[٧] الكفار إلحامها ، وأزال بشر السيوف من بين تلك الحروف أقْحامها ، فانطلق المَسْرى ، واستَبْشرت القواعد الحسْرى ، وعَدِمت بطريقها المُخيف مصارع [الصَّرعى ، ومناقِف][٨] الأَسرى ، والحمد لله على فتحة الأَسْنَى ، ومَنْحه الأَسْرَى ، ولا إلَه إلا هو مُنْفلُ قَيْصر وكِسْرى ، وفاتح مُغْلقاتهما المَنيعة قَسْرا ، واستولى الإسلام منها على قرار جنَّات ، وأمٍّ بنات ، وقاعدة حصون ، وشجرة غُصون ، وطهرت مساجدها المغتصبة المكرهة ، وفُجع فيها[٩] الفيل الأَفيل وأبرهة ، وانطلقت بذكر الله الأَلسنة المُدْرهة ، وفاز بسبق ميدانها الجِياد[١٠] الفَرِهة . هذا وطاغية الرُّوم على توفُّر [١١]جموعه ، وهَوْل مَرْئيه ومسْموعه ، قريبٌ

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (الخطب) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (حصل بعده) .

(٣) مدينة برغة هى بلدة أندلسية تقع شرق مدينة رندة ، ومكانها اليوم بلدة Burgo الإسبانية .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (مزاين) .

(٥) هكذا وردت فى النفح ومكانها بياض فى الإسكوريال .

(٦) هكذا وردت فى النفح . ومكانها بياض فى الإسكوريال .

(٧) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (زرق) .

(٨) هذه العبارة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

(٩) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (بحفظها) .

(١٠) وردت فى الإسكوريال محرفة (الجيد) . وفى النفح (جيادك) .

(١١) وردت فى الإسكوريال (أوفر) والتصويب من النفح .

جِواره ، بحيث يتَّصل خُواره . ثم نازل[١] المسلمون بعدها شَجا الإسلام ، الذى أعيا النِّطاسى[٢] علاجة ، وكرك[٣] هذا القطر الذى لا تُطاول أعلامه ولا يُصاول أعْلاجه ، ورِكاب الغارات التى تطوى المراحل إلى مُكايدة المسلمين طىّ البرود ، وجُحر الحيّات التى لا تَخلع على اختلاف الفصول جلود الزُّرود ، ومنغِّص الوُرود فى العَذْب المَوْرود[٤] ، ومُقِضّ المضاجع وحِلم الهاجع ، ومُجَهز الخَطْب الفاجىء الفاجِع ، ومُسْتَدرك فاتكه[٥] الراجع ، قبل هُبوب الطائر السَّاجع ، حصن أَشِر[٦] حماه الله دُعاءً لا خبرا ، كما جعله للمتفكرين فى قُدْرته مُعْتبراً ، فأَحاطوا به إحاطة القِلادة بالجِيد ، وأذلُّوا عزَّته بعزَّة ذى العرش المجِيد ، وحفَّت به الرايات [يسمها وسْمُك ، ويلوح فى صفحاتها اسم الله تعالى واسمك][٧] فلا ترى إلاَّ نفوسا تتزاحم على مَوارِد الشهادة أسرابها ، وليوثًا يُصْدِق [طِعانها فى الله وضرابُها][٨] ، وأرسل الله عليها رجزًا إسرائيليا من جِراد السِّهام ، تَشِذُّ آيته عن الأفهام ، وسدَّد إلى الجبل النفوس القابلة للإلهام ، من بعد الاستِغْلاق والاستِبهام ، وقد عبثت جَوارح[٩] صخوره فى قَنايص الهام ،

(١) وردت فى الإسكوريال (مازال) والتصويب من النفح .

(٢) مكانها بياض فى الإسكوريال .

(٣) هكذا وردت فى النفح وفى الإسكوريال (وكر) .

(٤) وردت فى الإسكوريال (البرود) والتصويب من النفح .

(٥) مكانها بياض فى الإسكوريال .

(٦) حصن أشر كان من حصون إشبيلية الأمامية فى هذا العصر . وقد هاجمه وافتتحه السلطان الغنى بالله سنة ٧٦٨ هـ (١٣٦٧ م) .

(٧) هذه العبارة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

(٨) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . وفى النفح (فى الله تعالى ضرابها) .

(٩) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (جوانح) ، والأولى أرجح .

وأعيا صَعْبُه على الجيش اللُّهام ، فأخذ مسائِغه النَّقض والنَّقب ، ورغا فوق أهِلَّة الصَّقب ، ونُصبت المعارج والمَراق ، وفُرعت المناكب والتَّراق ، واغتنم الصَّادقون من(١) الله الحظَّ الباقى ، وقال الشهيد(٢) المسابق : يا فَوْزَ استِباق ، ودُخل البلد فالتحم السَّيف ، واستلب البحث والزَّيْف ، ثم استُخْلصت القصبة ، فعلت أعلامُك فى أبراجها المُشَيَّدة ، وظَفِر ناشدُ دينك منها بالنَّشيدة ، وشكر الله فى قصدها ، مساعى النصائح الرَّشيدة ، وعمل ما يرضيك يا رسول الله فى سَدِّ ثَلْمِها ، وصَوْن مُسْتَلمها ، ومداواة ألمها ، حرصاً على الاقتداء فى مِثلها بأعمالك ، والاهتداء بمشكاة كمالك ، ورُتِّب فيها الحُماة تشجى العدو ، وتواصل فى [مَرْضاة الله تعالى](٣) ومَرْضاتك الرَّواح والغَدْو . ثم كان الغزو إلى مدينة أُطْرِيرة(٤) بنت حاضرة الكفر إشبيلية ، التى أظلَّتها بالجناح السَّاتر ، وأقامتها(٥) فى ضمان الأمان للحسام الباتر ، وقد وتَر الإسلام فى هذه المُومِسة البائسة بوَتر الواتر ، وأحفظ منها بأذى الوَقَاح المُهاتر ، لما جَرَّته على أسْراه من عمل الخاتِل الخاتر [حسب المنْقُول لا بل المُتَواتَر](٦) ، فطوى إليها المسلمون المدى النازح ، ولم تَشْكُ المطىُّ الروازح ، وصدق فى الجدِّ جدُّها المازِح ، وخفقت فوق أوكارها أجنحة الأعلام ، وعَشيها أفواج [الملائكة الموسومة] (٧) وظِلال الغمام ، وصابَت من السهام ودَقُّ الهام(٨)

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (مع) .

(٢) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (الشاهد) والأولى أرجح .

(٣) هذه العبارة زائدة فى النفح .

(٤) أطريرة وبالإسبانية Utrera بلدة أندلسية متوسطة تقع جنوب شرق إشبيلية . وقد غزاها السلطان الغنى بالله سنة ٧٦٨ ه (١٣٦٧ م) .

(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (وأنامتها) .

(٦) واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

(٧) هكذا وردت هاتان الكلمتان فى النفح . وفى الإسكوريال (الملكة المسومة) .

(٨) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وكتبت فى هامش المخطوط (الرهام) . ووردت كذلك فى النفح

وكاد يَكْفى السماء(١) على الأرض ، ارتجاج أَطْوادها بكلمة الإسلام ، وقد صُمَّ خاطِبُ عروس الشهادة عن الملام ، وسمح بالعزِيز المَصُون مُبايِع الملك العلاَّم ، وتكلَّم لسان الحديد الصَّامت ، وصَمَت إلاَّ بذكر الله ، لسانُ الكلام(٢) ، ووفَّت الأَوتار بالأَوتار ، ووصل بالخُطى درعُ الأَبيض البتَّار ، وسُلِّطَت النار على أربابها ، وأَذن الله فى تَبار تلك الأُمة وتَبابها ، فنزلوا على [حكم السيف](٣) آلافا ، بعد أن أُتْلفوا بالسلاح إتلافا ، واستَوْعَبَت المُقاتلة أَكْنافا ، وقُرنوا فى الجدل(٤) أَكتافًا أَكتافا ، وحُملت العقائل والخَرايد ، والوِلدان والولائد ، إركاباً من فوق الظهور وإرْدافا ، وأَقلَّت منها أفلاك الحمول بدوراً تُضىءُ من ليالى المحاق أَسْدافًا ، وامتلأَت الأَيدى من المواهب والغنايم ، بما لا يُصوِّره حلم النَّايم ، وتُركت العَوافى تتداعى إلى تلك الولايم ، وتَفْتن من مطاعمها فى الملايم ، وشُنَّت الغارات على حِمْص(٥) ، فجلَّلت خارجها مغاراً ، وكَسَتْ كبار الرُّوم بها صِغاراً ، وأَحجرت أبطالها إحجارًا ، واستاقت من النِّعم ما لا يقبل الحَصْر استِبْحارا ، ولم يكن إلاَّ أن عَدَل القَسَم ، واستقلَّ [بالقفول العزيز](٦) الرَّسم ، ووضَح من التوفيق الوَسْم . فكانت الحركة إلى جيَّان ، قيعه الظل الأَبرد ، ونسيجة المنوال المفرد ، [وكناس الغيد الخرد](٧) وكُرسى الإمارة ، وبَحْر العمارة ، ومهوى هوى الغيث

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (السهام) . والأولى أرجح .

(٢) وردت فى الإسكوريال (الكال) والتصويب من النفح .

(٣) هكذا وردت هذه العبارة فى النفح . ومكانها فى الإسكوريال (الحكم) .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (الجلال) وهو تحريف

(٥) حمص يقصد بها هنا إشبيلية . وقد أطلق عليها هذا الاسم فى الأدب والشعر الأندلسى حيث شبهت فى مكانها وخططها بحمص الشام .

(٦و٧) ما بين الحاصرتين وارد فى النفح . وساقط فى الإسكوريال .

المتون ، وحزبُ(١) التّين والزيتون ، حيث خندق الجنّة المعروف ، تدنو لأهل النار مَجانِيه ، وتُشرق بشواطىء الأنهار إشراق الأزهار زُهُرُ مبانيه ، والقلعة التى تختّمت بنان شُرُفاتها بخواتم النُّجوم ، وهمّت من دون سحابها البيض ، سحايب الغيث السُّجُوم [والعقيلة التى أبلَى الإسلام يوم طلاقها ، وهُجوم فراقها ، سِمَة الوُجوم ، لذلك الهُجُوم](٢) فرمّتْها البلاد المسلمة بأفلاذ أكبادها الوادِعة ، وأجابت مُنادى دعوتك الصّادقة الصّادعة ، وحَبَتْها بالفادِحة الفادِعة ، فغُصّت الرُّبى والوهاد ، بالتّكبير والتّهليل ، وتجاوبت الخيلُ بالصّهيل ، وانهالت الجموع المجاهدة [فى الله تعالى](٣) انْهيال الكَثِيب المُهيل . وفهمت نفوس العباد المجاهدة فى الله حق الجهاد ، معانى التّيسير من ربها والتّسهيل ، وسفَرت الرايات عن المرْأى الجميل ، وأربَت المحلات المسلمة على التأميل . ولما صَبحَتها النواحى المقبلة الغُرَر ، والأعلام المُكتَتَبة الطُّرر ، برز حاميتُها مُصْحِرين ، وللجَوْزة المُسْتَباحة مُسْتنصرين(٤) ، فكاثرهم من سُرعان الأبطال ، رجل الدّبا ، ونبت الوهاد والرُّبى ، فأقحموهم من وراءِ السُّور ، وأسرعت أقلامُ الرِّماح فى بَسْط عددهم المكسور ، وتُركت صرعاهم ولايم للنُّسور . ثم اقتحموا ربض المدينة الأعظم فافتَرعوه(٥)، وجدّلوا من دافع عن أسواره وصرعوه ، وأكواس الحتوف جرّعوه ، ولم يتصل(٦) أولى الناس بأُخراهم

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (حرب) .
(٢) ما بين الحاصرتين وارد فى النفح وساقط فى الإسكوريال .
(٣) واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .
(٤) وردت فى الإسكوريال (منتصرين) والتصويب من النفح .
(٥) وردت فى الإسكوريال (فقرعوه) . والتصويب من النفح .
(٦) هذه الكلمة ساقطة فى الإسكوريال .

ويحمدوا(١) بمخيم النصر العزيز سُراهم، حتى خذل الكفار الصبر، وأسلم الجلد، وأنزل على المسلمين النصر، فدُخل البلد، وطاح فى السيل الجارف الوالد منه والولد، وأتهم(٢) المطرَّف منه والمتَّلد، فكان هولاً يعيد الشناعة، وبغتاً(٣) كقيام الساعة، أعْجَل المجانيق عن الركوع والسجود، والسلالم عن مُطاولة(٤) النُّجود، والأيدى عن ردم الخنادق والأغوار، والأكْبُشِ عن مناطحة الأسوار، والنُّفوط عن إصْعاق الفُجَّار، وعُمد الحديد، ومعاول(٥) البأس الشديد، عن نَقْب الأبراج ونقض الأحجار، فهيلت الكُثبان، [وأبيد الشَّيبُ والشُّبان](٦) وكسِرت الصلبان، وفجع بهدم(٧) الكنائس الرُّهبان، وأُهْبِطت النَّواقيس من مَراقيها العالية، وصُروحها المُتعالية، وخُلعت ألسِنَتُها الكاذبة، ونُقل ما استطاعته الأيدى المُجاذبة، وعجزت عن الأسلاب ذوات الظُّهور، وجلَّل الإسلام شعار العزّ والظُّهور، بما خَلَتْ عن مثله سَوالف الدهور(٨) والأعوام والشهور، وأعْرسَت الشهداءُ بالحور، ومنُّوا(٩) النفوس المبيحة من الله بحلٍّ الصدقات الصَّادقة(١٠) والمُهور. ومن بعد ذلك هدم السور، ومحيت من مختطِّه المحكم السطور، وكاد يسير ذلك الجبل الذى اقتعدته تلك المدينة،

---

(١) وردت فى الإسكوريال (بحمد) والتصويب من النفح.

(٢) هكذا وردت فى النفح. وفى الإسكوريال (وألم).

(٣) هكذا فى الإسكوريال. وفى النفح (وبعثا).

(٤) هكذا فى الإسكوريال. وفى النفح (مطلونة).

(٥) هكذا وردت فى النفح. وفى الإسكوريال (معاون).

(٦) هذه العبارة واردة فى النفح. وساقطة فى الإسكوريال.

(٧) هكذا وردت فى النفح. وفى الإسكوريال (بهد).

(٨) هذه الكلمة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال.

(٩) هكذا وردت فى النفح. وفى الإسكوريال (ومن).

(١٠) هذه الكلمة ساقطة فى الإسكوريال وواردة فى النفح.

ويدكّ ذلك الطُّور . ومن بعد ما خُرِّب الوجار ، وعُقِرت الأشجار ، عُفِّر المنار ، وسلِّطت على بنات التراب الماءُ النّار ، وارتحل عنها المسلمون وقد عمّتها المصايب ، وأصْمَى لُبّتَها السّهم الصّايب ، وظللهتا(١) القشاعم العَصايب . فالذِّئاب فى الليل البَهيم تَعسل ، والضِّباع من الحَدْب البعيد تَنْسل ، وقد ضاقت الجدل عن المخانق ، وبيع العَرَض الثمين بالدّانق ، وسُبكت إسورة الأسوار ، وسوِّيت الهضاب بالأغوار ، واكتُسِحت الأحواز القاصية سرايا الغوّار(٢) ، وحجبت بالدخان مطامع الأنوار ، وتَخلَّفت قاعتها عِبْرةً للمُعْتبرين ، وعظةً للناظرين ، وآية للمستبصرين ، ونادى لسان الحميّة يا لثارات الإسكندرية ، فأسمع آذان المقيمين والمسافرين ، وأحقّ الله الحقّ بكلماته ، وقطع دابر الكافرين .

ثم كانت الحركة إلى أختها الكبرى ، ولُدّتها الحزينة عليها العَبْرى ، مدينة أُبّدة ، ذات العمران المُسْتَبجر ، والرَّبض الحَزق المُصْحر ، والمبانى الشُّمّ الأنوف ، [وعقائل المصانع الجمّة الحُلِى والشُّنوف وألعاب الأنوف](٣) وبلد التَّجر ، والعسكر المَجرّ ، وأفق الضلال الفاجر الكاذب على الله الكذب الفَجِر . فخذل الله حاميته(٤) التى يُعيِى الحسبان عدُّها ، وسَجَر بحورها التى لا يُرام مدُّها ، وحقّت عليها كلمة الله التى لا يُستطاع ردُّها . فدُخلت لأول وهلة ، واستُوعب جَمعُها والمنّة لله ، فى نَهْلة ، [ولم يكُ للسيف من عطف عليها ولا مهلة](٥) . ولما تناولها العفاءُ والتّخريب ، واستَباحها

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (وجللّها) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (المغوار) .

(٣) ما بين الحاصرتين وارد فى النفح وساقط فى الإسكوريال .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (حاميتها) .

(٥) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ووردت فى النفح كالآتى (ولم يكف السيف من عليها ولا مهلة) وظاهر أن بها تحريفا .

الفتح القريب ، وأسند عن عواليها حديث النصر الحسن الغريب ، وأقعدت أبراجها من بعد القيام والانتصاب ، وأضرعت مسايفها لهول المصاب ، انصرف عنها المسلمون بالفتح الذى عظم صيته ، والعز الذى سما طرفه ، واشرأب ليته ، والعزم الذى حمد مسراه ومبيته ، والحمد لله ناظم الأمر ، وقد رأب شتيته ، وجابر الكسر وقد أفات الجبر مفيته .

ثم كان الغزو إلى أم البلاد ، ومثوى الطارف والتلاد ، قرطبة ، وما قرطبة ، المدينة التى على عمل أهلها فى القديم ، بهذا الإقليم ، كان العمل ، والكرسى الذى بعصاه رعى الهمل ، والمصر الذى له فى خطة المعمور الناقة والجمل ، والأفق الذى هو لشمس الخلافة العبشمية الحمل ، فخيم الإسلام بعقرتها المستباحة ، وأجاز نهرها المعيى على السباحة ، وعم دوحها الأشب بوارا ، وأدار الكماة (١) بسورها سوارا ، وأخذوا (٢) بمخنقها حصارا ، وأعمل النصل (٣) بسجر نصلها (٤) اجتناء ماشاء واهتصارا ، وجدل من أبطالها من لم يرض انجحارا ، فأعمل إلى المسلمين إصحارا ، حتى فرع بعض جهاتها غلاباً جهاراً ، ورفعت الأعلام إعلاماً بعز الإسلام (٥) وإظهارا ، فلولا استهلال الغوادى ، وإن أتى الوادى ، لأفضت إلى فتح الفتوح تلك المبادى ، ولقضى نفثة العاكف والبادى ، فاقتضى الرأى ولذنب الزمان فى اغتصاب الكفر إياها متاب ، تعمل ببشراه بفضل الله أقتاد وأقتاب ، ولكل أجل كتاب ، أن يراض صعبها حتى يعود ذلولا ،

---

(١) وردت فى الإسكوريال (المحلات) . والتصويب من النفح .

(٢) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (وأخذ) . والأولى أرجح .

(٣) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (النصر) والأولى أرجح .

(٤) كذا فى النفح . وفى الإسكوريال (نصله) .

(٥) هكذا فى النفح . وفى الإسكوريال (الله) .

وتُعَفّى معاهدها الآهلة فتترك طُلولا . فإذا فجع الله بمارج النار طوايفها المارجة ، وأباد نجارجها الطايرة والدّارجة ، خطب السيفُ منها أمّ خارجة فعند ذلك أطلقنا بها ألسِنة النار ، ومفارق الهضاب الشّم (١) قد شابَتْ ، والغلّات المُستَغَلّة(٢) قد دعاها الفصل فما ارتابت ، وكان صحيفة نهرها لما أضرمت النارخَفاق(٣) ظهرها ذابت ، وحيّتُه فرّت أمام الحريق فانسابت ، وتخلّفت لغمايم الدّخان عمايم تلويها برؤوس الجبال أيدى الرياح ، وتنشرها بعد الرّكود أيدى الاجتياح. وأغريت بأقطارها الشاسعة ،وجهاتها الواسعة [جنود الجوع](٤) وتوعّدت بالرجوع ، فسُلب أهلها لتوقع الهجوم(٥) ، مَنْزور الهجُوع . فأعلامُها خاشعة خاضعة ، وولدانها لثَدْى البؤس راضِعة ،والله ،سبحانه ، يُوفِد بخبر فتحها القريب رِكاب البُشْرى ، وينشر رحمته قِبَلنا نشرا ، [ولهذا العهد يا رسول الله صلى الله عليك ، وبلّغ وسيلتى إليك ، بلغ عن هذا القطر المُرْتَدى بجاهك ، الذى لايُذَلّ من ادّرعه. ولايضِلّ بالسبيل الذى يشرعه ، إلى أن لاطفنا ملك الروم بأربعة من البلاد كان الكفر قد اغتصبها ، ورفع التّماثيل ببيوت الله ونَصّبها ، فانجاب عنها بنورك الحلَك ودار بادالتها إلى دعوتك الفَلَك ،وعاد إلى مكاتبها القرآن الذى نزل به على قَلْبِك الملك](٦) ثم تنوعت يا رسول الله لهذا العهد أحوال العدو

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (بالمشيم) وهو تحريف .

(٢) هكذا فى الإسكوريال و فى النفح (المستغلات) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (حاق) .

(٤) هذه العبارة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

(٥) هكذا فى النفح . وفى الإسكوريال (الجوع) .

(٦) هذه الفقرة كلها واردة فى الإسكوريال . وساقطة هنا فى النفح . ثم ترد فيه بعد ذلك فى أواخر الرسالة حسب المبين بعد .

تنوُّعًا يوهم إفاقته من الغمْرة ، وكادت فتنته تؤْذن بخمود الجمْرة ، وتوقع الواقع ، وحُذِّر ذلك السم الناقع ، وخِيف الخَرْقُ الذى يَحار فيه الرَّاقع ، فتعرَّفنا عوايد الله سبحانه ببركة هِدايتك ، ومَوْصُول عنايتك ، فأُنزل النصر والسَّكينة ، ومكِّن العقايد المَكِينة ، فثابت العزايم وهبَّت ، واضطَّردت عوايد الإقدام واستَتَبَّت ، وما راع العدو إلاَّ خيلُ الله تجوس خلاله ، وشمس الحق تقلِّص[1] ظلاله ، وهُداك الذى أهديت يُدحض ضَلاله .

ونازلنا حِصْنى قنبيل والحواير[2] ، وهما مَعْقلان متجاوران ، يُتناجى منهما السَّاكن سِرارا ، وقد اتَّخذا بين النَّجوم قرارا ، وفَصل بينهما حُسام النهر يروق غِرارا ، والتفَّ معصمه فى حلة الخَضْب[3] وقد جعل الجِسْر سِواراً ، فخَذل الصَّليب بذلك الثغر من تولاَّه ، وارتفعت أعلام الإسلام بأعلاه ، وتبرَّجت عروس الفتح المبين[4] بمَجْلاه ، والحمد لله على ما أوْلاه . ثم تحركنا على تَفِية[5] تعدى ثغْر الموسَّطة على عدوِّه المُساور فى المضاجع ، ومُصْبحه بالفاجىء الفاجع ، فنازلنا حصن رُوطة ، الآخذ بالكَظْم ، المعترض بالشَّجا اعتراض العَظْم ، وقد شحنه العدوُّ مددا بئيساً ، ولم يألُ اختياره رأياً ولا رئيساً[6] ، فأعيا داؤه ، واستقلَّت بالمدافعة أعداؤه . ولما أتْلع إليه جيدُ المَنْجنيق ، وقد بَرك عليه بَرْك[7] الفَنيق ،

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (توجب) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (الجائر) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (العصب) .
(٤) هذه الكلمة زائدة فى النفح .
(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (نفثة) .
(٦) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (تلبيا) .
(٧) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (بروك) .

وشدَّ عصاب(١) العزم الوثيق ، لجأ أهله إلى التماس العهود والمواثيق ، وقد غُصُّوا بالريق ، وكاد يذهب بأبصارهم لمعان البَريق ، فسكنَّاه من حامية المجاهدين بمن يحمى ذماره ، ويقرر اعْتِماره ، واستولى أهل الثغور إلى هذا الحدّ ، على معاقل كانت مُسْتَغلقة ففتحوها ، وشرعوا أرشية الرماح إلى قلب قلوبها ففتحوها . ولم تكد الجيوش المجاهدة تنفض عن الأعراف مُتراكم الغُبار ، وترخى عن [آباط خَيْلها](٢) شدَّ حَزْم المَغار ، حتى عاودت النفوس شوقُها ، واسْتَتْبَعت ذوقها ، وخطبت التى لافوقها ، وذهبت بها الآمال إلى الغاية القاصية ، والمدارك المُتَصاعِبة على الأفكار المتعاصية .

فقصدنا الجزيرة الخضراء ، باب هذا الوطن ، الذى منه طرُق وادعه ، ومطلع الحقّ الذى صَدَع الباطل صادعه ، وثنيَّة الفتح الذى برَق منها لامعُه ، ومَشْربُ(٣) الهجوم الذى لم تكن لتعثر على غيره مطامعه ، وفُرْضَة المجاز التى لا تُنكر ، ومجمع البَحْرين فى بعض ما يذكر ، حيث يتقارب الشطَّان [وتتقاطر ذوات الأشْطان](٤) ، ويتوازى الخطَّان ؛ ويكاد أن يلتقى حلقتا البطان . وقد كان الكفر قدَر قدْر هذه الفُرضة التى طرق منها حِماه ، ورماه الفتح الأول بما رماه ، وعلم أن لا تتصل أيدى المسلمين بإخوانهم إلاَّ من تِلقائها ، وأنه لايعدم المكروه مع بقائها ، فأجْلَب عليها برَجْله وخَيْله ، وسدَّ أفق البحر من أساطيله ، ومراكب أباطيله ، بقَطْع لَيْله . وتداعى المسلمون بالعُدْوَتين إلى استِنْقاذها من لَهواته ، أو إمساكها من دون مَهْواته . فعجز الحَوْل ، ووقع بملكه إياها

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (عصام) .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى النفح . ومكانها فى الإسكوريال (أباطلها) وهو تحريف .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (ومشرف) .

(٤) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال . وساقطة فى النفح .

القول ، واجْتَازها قهرا ، وقد صابرت الضِّيق ما يناهز ثلاثين شهرا ، وأطرق الإسلام بعدها إطراق الواجم ، واسودَّت الوجوه لخَبرها الهاجم ، وبكتْها حتى دموع الغَيْث السَّاجم ، وانقطع المدد إلاَّ من رحمة من يُنفِّس الكروب ، ويُغْرِى بالإدالة الشُّروق والغروب . ولما شككنا بشَبا الله نَحْرها ، وأغْصَصْنا بجيوش الماء وجيوش الأَرض ، تكاثر نجوم السماء برها وبحرها ، ونازلناها نذيقها شديد النِّزال ، ونجحنا بصدق الوَعيد فى غير(١) سبيل الاعتزال ، رأينا بأْواً لا يُظاهر إلاَّ بالله ولا يُطال ، ومَنَعةً(٢) تتحاماها الأَبطال ، وجنابا روَّضه الغيثُ الهطَّال . أما أسوارها(٣) ، فهى التى أخذت النَّجد والغوْر . واستعدَّت بجدال(٤) الجِلاد عن البلاد ، فارتكبت الدَّور تحوز بحراً من الاعتمار(٥) ثانيا ، وتشكك أن يكون الإنس لها بانياً . وأما أبراجُها فصفوف وصنوف ، تزين صفحات المَسايف منها أُنوف ، وآذان لها من دوافع الصخر شنُوف . وأما خندقها فصخرٌ مَجْلوب ، وسور مقلوب . وصَدَقها المسلمون القتال بحسب محلِّها من نفوسهم ، واقتران اغتصابها ببُؤسهم ، وأُفول شُموسِهم . فرشقوها من النبال بظلالٍ تحجب الشمس فلا يُشرق سَناها ، وعرَّجوا فى المراقى البعيدة يُفْرِعون مَبْناها ، ونَقبُوها أنقابا ، وحَصَبُوها عقاباً . ودخلوا مدينة البِنْيَة(٦) بنتَها غِلابًا ،

---

(١) هذه الكلمة ساقطة فى النفح .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (ممنعة) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (أسواقها) م والأول أرجح .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (نجلاء) .

(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (العمارة) .

(٦) مدينة البنية وبالإسبانية La Pena (أى الصخرة) هى ثغر أندلسى صغير ، يقع على شاطىء المحيط الأطلنطى على مقربة من شمال غربى ثغر طريف مقابل الجزيرة الخضراء ، فى الناحية الأخرى من المثلث الإسبانى .

وأخْصَبوا السيوف استلالا ، والأيدى اكتسابا ، واستَوْعب القتل مقاتلتها السابغة الجنَن ، البالغة المِنن ، فأخذهم الهول المتفاقم ، وجُدِّلوا كأنهم الأراقم ، لم يفلت منهم عين تطرف ، ولا لسان يُلبِّى من يستطيع الخبر أو يَسْتَشْرف . ثم سَمَت الهمم الأيمانية إلى المدينة الكبرى ، فداروا سوارها على سُورها ، وتجاسروا على اقتحام أَوْدِية الفناء من فوق جُسورها ، ودفّوا إليها بالضروب من حيل الحروب بروجا مُشَيَّدَة ، ومجانيق توثّق حبالها منها نَشِيدة ، وخَفَقتْ بنصر الله عَذَبات الأعلام ، وأهدت الملائكة مَدَد الاسلام(١) ، فخذل الله كفّارها ، وأكْهَم شِفارها ، وقلَّم بيد قدرته أظفارها ، فالتمسوا الأمان للخروج ، ونزلوا عن(٢) مراقى العُروج ، إلى الأباطح والمروج ، من سمائها ذات البروج ، فكان بروزُهم إلى العراء من الأرض ، تذكرةً بيوم العَرْض ، وقد جلَّل المقاتلة الصَّفار [وتعلق بالأمهات النَّشأُ الصِّغار](٣) . وبودرت المدينة بالتطهير ، ونطقت المآذن العالية بالأذان الشهير ، والذِّكر الجهير ، وطُرِحت كبار(٤) التماثيل عن المسجد الكبير ، وأزرى بألسِنة النواقيس لسانُ التهليل والتكبير ، وأنزلت عن الصروح أجرامُها ، يعيِ الهِندام مرامُها ، وأُلفى منبر الاسلام بها مَجْفوًّا ، فأنِست غُربته ، وأُعيد إليه قُرْبه وقُربته ، وتلا واعظ الجمع المشهود ، قول مُنجز الوعود ، ومُورق العُود « وما ظلمْناهم ، ولكن ظلموا أنفسهم » ، فما أغنت عنهم آلهتُهم ، التى يدعون من دون الله من شىء ،

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (السلام) والأولى أرجح .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (على) .

(٣) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ووردت فى النفح كالآتى (وتعلق بالأمان النساء والصغار) . وهو تحريف ظاهر .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (كفارها) وهو تحريف .

لما جاء أمرُ ربك ، وما زادوهم غير تتبيب . وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القُرى وهى ظالمة ، إنَّ أخذه أليم شديد . إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة . ذلك يومٌ مجموع له الناس ، وذلك يوم مَشهود ، إلى آخرها ، فكاد[1] الدَّمع يُغرق الآماق ، والوجْدُ يستأصل الأرْماق [وارتفعت الزَّعقات.. وعَلَتْ الشَّهقات][2] ، وجيء بأسْرَى المسلمين يرسُفون فى القُيُود الثِّقال ، ويَنْسِلون من أجْداث الاعْتِقال ، ففُكَّت عن سُوقهم أساورُ الحديد ، وعن أعناقهم فَلَكَات[3] اليأس الشَّديد ، وظُلِّلوا بجناح اللُّطف العريض المديد ، وترتبت فى المقاعد الحامية ، وأزهَرت بذكر الله المآذن السَّامية ، فعادت المدينة لأحْسَن أحوالها ، وسَكَنَت من بعد أهوالها ، وعادت الجالية إلى أموالها ، ورجع إلى القطر شبابُه ، وورد على دار هجرة[4] الإسلام بابُه ، واتَّصلت بأهل لا إله إلا الله أسْبابه ، فهى اليوم فى بلاد الإسلام ، قلادة النَّحر ، وحاضِرة البرِّ والبحر ، أبقى الله عليها ، وعلى ما وراءها من بيوت أمَّتك ، ودائع الله فى ذِمَّتِك [ظلال عنايتك الواقية ، وأمْتَعها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها][5] ، بكلمة دينك الصَّالحة الباقية ، وسَدَل عليها أستار عِصْمَته الواقية . وعُدنا والصلاة عليك شِعار البُروز والقُفول ، وهجيرَا الشُّروق والأُفول . والجهاد يارسول الله الشأن المعتمد ، ما امتَّد بالأجل الأمد ، والمستعان الواحد الفرد الصمد[6] .

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (فكان) .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ووردت فى النفح كالآتى (وارتفعت الرغبات وعلت السبات) وهو تحريف .

(٣) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (ملكات) . والأولى أرجح .

(٤) هذه الكلمة واردة فى الإسكوريال وساقطة فى النفح .

(٥) هذه العبارات واردة فى الإسكوريال وساقطة فى النفح .

(٦) هنا ترد فى النفح العبارة التى سبق أن أغفلها إزاء مقابلها من مخطوط الإسكوريال . وأولها (ولهذا العهد يارسول الله ... الخ) (راجع ص ٥٥٣) .

فوجبت مطالعة مقرك النبوى بأحوال هذه الأُمة المكفولة فى حِجْرك ، المُفَضَّلة بإرادة تَجْرك ، المهتدية بأنوار فَجْرك . وهل هو إلاَّ ثمرة سَعْيك، ونتائج رَعْيك ، وبركة حُبِّك ورضاك ، الكفيل برضا ربِّك ، وغمام رَعْدك ، وإنجاز وَعْدك ، وشُعاعٌ من نور سعدك ، وبذرٌ يُجْنى رَيْعه من بعدك ، ونَصْر رايَتك ، وبرهان آيَتك ، وأثر حِمايتك ورعايتك .

واستَنْبت هذه الرسالة ماتحةً بحر النَّدى(١) الممنوح ، ومفاتِحةً باب الهدى بفتح الفتوح ، وفارعةً المظاهر والصُّروح ، ومُلْقِية الرَّحْل بمتَنَزَّل الملائكة والرُّوح ، لتمدَّ إلى قبولك يد استِمناح ، وتطير إليك من الشَّوق الحَثِيث بجِناح ، ثم تقف بموقف الانْكِسار ، وإن كان تجرُّها آمنا من الخَسار ، وتقدم بأُنْس القُربة ، وتحجم بوَحْشة الغُرْبة ، وتتأخَّر بالهيْبَة ، وتجهش لطول الغيبة ، وتقول ارْحَم بُعد دارى ، وضعف اقْتدارى ، وانتزاح أوطانى ، وخُلوَّ أعْطانى ، وقلَّة زادى ، وفراغ مَزَادى، وتقبَّل وسيلة(٢) اعترافى ، وتغمَّد هفوة اقترافى ، وعجل بالرضا انصراف متحملى لانصرافى ، فكم جُبْب من بحر زاخر ، وقفر بالرُّكاب ساخر ، وحاشَى لله أن يخيب قاصِدُك ، أو تتخطَّانى مقاصِدُك . أو تَطْرُدنى موائِدك ، أو تَضِيق عنِّى عوايِدُك ، ثم تمدُّ مُقْتضية مزيد رَحْمتك ، مُسْتدعية دُعاءَ من حضَر من أُمتك . وأَصْحَبْتُها يا رسول الله ، عَرَضاً من النَّواقيس التى كانت بهذه البلاد المُفْتَتحة ، تُعَيِّن(٣) الإقامة والأذان ، وتُسْمع الأسْماع الضَّالة والآذان ، مما قَبْل الحركة وسالم المعركة ، ومَكَّنَ من نقله الأيدى المُشْتركة ، واستَحَقَّ بالقدُوم عليك ، والإسلام بين يديك ، السابقة فى الأزل البَركة ،

(١) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (الند) .

(٢) وردت فى الإسكوريال (وسيرة) والتصويب من النفح .

(٣) وردت فى الإسكوريال (تنير) . والتصويب من النفح .

وما سواها فكانت جبالا عَجَز عن حمْلها[١] الهِنْدام ، فَنَسخ وجودها الإعدام . وهى يا رسول الله جِنّى من جنانك ورَطْبٌ من أفْنانك ، وأثرٌ ظهر عليها[٢] من مَسْحَة حنانك . هذه هى الحال والانتحال[٣] ، والعائِق أن تشدّ إليك الرِّحال ، ويُعْمل التَّرحال ، إلى أن نلقاك فى عَرَصات[٤] القيامة شَفِيعاً ، ونُحِلّ بجاهك إن شاء الله محلاً رفيعاً ، ونُقَدَّم فى زُمْرة الشُّهداء الدامية كُلُومهم من أجْلِك ، الناهلة غُلَلُهم فى سِجلِّك ، ونبتهل إلى الله الذى أطْلَعَك فى سماء الهداية سِراجاً ، وأعلى لك فى السَّبع الطِّباق مِعْراجاً ، وأمّ الأنبياء منك بالنَّبى الخاتم ، وقفَّى على آثار نجومها المشْرقة بقَمَرك العَاتم ، أن لا يَقْطع عن هذه الأُمة الغريبة أسبابَك ، ولايسدّ فى وجوهها أبْوابك ، ويوفقها لاتّباع هُداك ، ويُثبِّت أقدامها على جهاد عِداك . وكيف تَعدم تَرْفيها ، أو تخشى بَخْسًا وأنت مُوفيها ، أو يعذّبها الله وأنت فيها . وصلاة الله وسلامه تحطّ بفنايك رِحال طِيبها ، وتَهْدُر فى ناديك شَقاشِق خطيبها ، ما أذْكر الصباح الطَّلق هُداك ، والغمام السَّكِب نَدَاك ، وما حنّ مشتاقٌ يلثم ضريحك ، وفليت[٥] نَسَمَات الأسحار عمَّا استَرَقَت من ريحك .

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (نقلها) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (علينا) .

(٣) هذة الكلمة زائدة فى النفح

(٤) هذه الكلمة زائدة فى النفح .

(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (بليت) .

وصدر عنى قبل هذه الرسالة عن السلطان رضى الله عنه رسالة بهذه الفتوح إلى صاحب تونس نصها:

الخلافة التى ارتفع فى(١) عقائد فضلها الأصيل القواعد الخلاف ، واستقلّت مبانى فخرها الشائع ، وعزّها الذائع على ما أسّسه الأسْلاف ، ووَجَب لحقّها الجازم ، وفرضها اللاّزم الاعتراف ، ووَسِعت الآملين لها الجوانب الرّحيبة والأكناف ، فامتزاجُنا بعلائها المُنيف. وولائها الشريف، كما امتزج الماءُ والسُّلاف ، وثناؤنا على مجدها الكريم ، وفضلها العميم ، كما تأرّجَت الرياض الأفواف ،لما زارها الغمام الوكّاف ،ودعاؤنا بطُول بقائها ، واتصال علايها ، يسمو به إلى قرع أبواب السّموات العُلا(٢) الاسْتِشْراف ، وحِرْصُنا على تَوْفِية حقوقها العظيمة ، وفواضلها العَمِيمة ، لا تحصره الحدود ، ولا تُدْركه الأوصاف ، وإن عَذر فى التّقصير ، عن نيل ذلك المرام الكبير ، الحقُّ والإنصاف . خلافةُ وِجْهة تعظيمنا إذا توجّهت الوجوه ، ومن نؤثره إذا همّنا ما نرجوه ، ونفدّيه ونبدّيه ، إذا استُمْنِح المحبوب ، واستُدْفِع المكروه ، السلطان(٢) الخليفة ، [الجليل الكبير الشهير ، الإمام الهمام ، الأعلى الأوحد ، الأصعد ، الأسعد ، الأسمى ، الأعدل ، الأفضل ، الأسنى ، الأطهر ، الأظهر ، الأرضى ، الأحفل ، الأكمل ، أمير المؤمنين أبى إسحق ابن الخليفة الإمام البطل الهمام ، عين الأعيان ، وواحد الزمان ، الكبير الشهير ، الطّاهر ، الظّاهر ، الأوحد الأعلى ، الحسيب ،

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال (ف) . وفى التعريف بابن خلدون . وفى صبح الأعشى (عن) . وقد نشرت هذه الرسالة كلها فى التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا (ص ١٥٥ - ٢٠٩) وفى صبح الأعشى للقلقشندى (ج ٦ ص ٥٣٦ - ٥٥٨) . وقمنا بمراجعة النص المخطوط عليها .

(٢) هذه الكلمة زائدة فى الصبح .

الأصيل ، الأسمى ، العادل ، الحافل ، الفاضل ، المعظم ، الموقر ، الماجد ، الكامل ، الأرضى ، المقدس ، أمير المؤمنين أبي يحيي أبي بكر ، ابن السلطان الكبير ، الجليل ، الرفيع ، الماجد ، الظاهر ، الطاهر ، المعظم ، المُوَقَّر ، الأسمى ، المقدس ، المرحوم أبي زكريا ، ابن الخليفة الإمام ، المجاهد الهمام ، الكبير ، الشهير ، الخطير ، بطل الميدان ، مفخر الزمان ، الطاهر الظاهر ، الأمضى ، المقدس ، الأرضى ، أمير المؤمنين أبي إسحق ابن الخليفة الهمام الإمام ، ذى الشهرة الجامحة ، والمفاخر الواضحة ، عَلَمُ الأعلام ، فخر السيوف والأقلام ، المعظم الممجد ، المقدس، الأرضى ، أمير المؤمنين ، المسْتَنْصر بالله ، أبي عبد الله ، ابن أبي زكريا ، بن عبدالواحد ابن أبي حَفْص][1] أبقاه الله ، ومقامه مقام إبراهيم ، رزقا وأمانا ، لا يخصُّ جَلْبُ الثمرات إليه وقتاً ، ولا يعيِّن زماناً ، وكان على من يَتَخَطَّف الناس من حوله ، مؤيداً بالله مُعاناً ، مُعَظَّمٌ قدره العالى على الأقدار ، ومقابل داعى حقِّه بالابتدار ، المُثْنَى على معاليه المُخَلَّدة الآثار ، فى أضونة النظام والنِّثار ، ثناء الرَّوضة المِعْطار على الأمطار ، الداعى إلى الله بدوام[2] بقائه فى عزَّة[3] مُنْسَدلة الأسْتار ، وعِصمة[4] ثابتة المركز مستقيمة المدار ، وأن يختم له بعد بلوغ غايات الآجال ، ونهايات الأعمار ، بالزُّلفى وعُقْبى الدَّار .

---

(١) نقلنا هذه الفقرة الطويلة عن صبح الأعشى . وقد اختصرها مختصر مخطوط الإسكوريال فيما يأتى (الخليفة الكذا أبي يحيى أبي بكر ابن السلطان أبي زكريا ابن الخليفة الكذا أبي إسحق ابن الخليفة المستنصر بالله عبد الله ابن أبي زكريا بن عبد الواحد ابن أبي حفص) . وإيراد نص الرسالة كاملة ، يقدم إلينا فكرة أوضح عن أساليب الكتابة السلطانية فى ذلك العصر .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى التعريف والصبح (بطول) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى التعريف الصبح (عصمة) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى الصبح والتعريف (وعزة) .

سلام كريم ، كما حملت نسماتُ الأسحار ، أحاديث الأزهار ، ورَوتْ ثغور الأقاحى والبَهار ، عن مسلسلات الأنهار ، وتجلّى على مِنَصَّة الاشتهار ، وجهُ عروس النهار ، يخصُّ خلافتكم الكريمة النِّجار ، العزيزة الجار ، ورحمة الله وبركاته . أما بعد حمد الله الذى أخفى حكمته البالغة عن أذهان البشر ، فعجزت عن قياسها ، وجعل الأرواح كما وَرَد فى الخبر تَحن إلى أجناسها ، مُنْجدُ هذه الملّة من أوليائه الجِلّة ، بمن يروض الآمال بعد شِماسها ، ويُيَسِّر الأغراض قبل التماسها ، ويُعْنى بتجديد المودّات فى ذاته ، وابتغاء مَرضاته ، على حين إخلاق لباسها ، الملك الحقُّ ، واصل الأسباب بحوله ، بعد انْتِكاث أمْراسها ، ومُغْنى النفوس بطَوْله ، بعد إفلاسها . حمداً يُدِرُّ أخْلاف النعم بعد إبْسَاسها ، وينشر رِمَم الآمال من أرْماسها ، ويقدِّس النفوس بصفات ملائكة السموات بعد إبلاسها .

والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله ، سراج الهداية ونِبراسها ، عند اقتناء الأنوار واقتباسِها ، مُطَهِّر الأرض من أوْضارها وأدْناسها ، ومصطفى الله من بين ناسِها ، وسيد الرسل الكرام ، ما بين شِيثِها وإلْياسها ، الآتى مهيْمنا على آثارها فى حين فَتْرتها ، ومن بعد نُضْرتها واسْتِيناسها ، مُرغم الضراغم فى أخْياسها ، بعد افترارها وافْتِراسها ، ومُعَفِّر أجرام الأصنام ومُصْمِتْ أجْراسها . والرِّضا عن آله وأصحابه ، وعِتْرته وأحزابه ، حماة شِرْعَته البيضاء وحُرَّاسها ، ومُلَقِّحى غِراسها ، ليوث الوَغَى عند احتدام مِراسها ، ورهبان الدُّجا تتكفَّل مناجاة السَّميع العليم فى وَحْشة الليل البَهيم بإيناسها ، وتُفاوح نواسم الأسْحار عند الاستغفار بطيب أنفاسها . والدُّعاءُ لخلافتكم العليَّة المُسْتَنْصرِيَّة بالصَّنايع[1] التى تُشَعْشِع أيدى العِزَّة القعساء

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الصبح (السعادة) .

من أكواسها ، ولا زالت العِصْمة الإلٓهية كفيلة باحترامها واحتراسها . وأنباء الفتوح المؤيدة بالملائكة والرُّوح . ريحان جُلَّاسها . وآيات المفاخر التى ترك الأول للآخر ، مُكْتَتبة الأسطار بأطْراسها ، وميادين الوجود مجالا لجياد جُودها وبأْسها ، والعزّ والعدل منسوبين لفُسْطاطها وقِسْطاسها . وصَفِيحة النصر العزيز تُفيض كفُّها المؤيدة بالله على رياسها ، عند اهتياج أضدادها وشِرَّة[1] انتكاسها ، لانتهاب البلاد وانتهاسِها ، وهبوب رياح رياحها وتمرُّد مِرداسها .

فإنا كتبناه إليكم ، كتب الله لكم من كتايب نصره أمْداداً ، تذعن أعناق الأنام ، لطاعة مُلْكِكم المنصور الأعلام ، عند إحساسها ، وآتاكم من آيات العِنايات آيةً تضرب الصَّخرة الصَّماء ممن عصاها بعصاها ، فتبادر بانبجاسها — من حمراء غرناطة ، حرسها الله ، وأيام الإسلام ، بعناية الملك العلاَّم ، تحتفل وفودُ الملائكة الكرام لولائمها وأعراسها ، وطواعين الطِّعان ، فى عَدُوِّ الدِّين المُعان ، تجدِّد عهدها بعام عَمْواسها [والحمد لله حمدا معادا يُقيِّد شَوارد النعم][2] ويستدرّ مواهب الجود والكرم ، ويؤمِّن من انْتِكاب[3] الجدود وانْتِكاسها ، ولىُّ الآمال ومِكاسها . وخلافتكم هى المثابة التى يُزهَى الوجود بمحاسن مجدها ، زَهْو الرياض بوَرْدها وآسِها ، وتَسْتمد أضواء الفضايل من مِقْباسها ، وتَرْوى رواة الإفادة والإبادة [غريب الوِجادة][4] ، عن ضُحَّاكها وعُبَّاسها ، وإلى هذا أعلى الله معارج قَدْركم وقد فعل ، وأنطق بحُجَج فخركم من احتفى وانْتعَل ، فإنه وصلنا كتابكم

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال والتعريف . وفى الصبح (وشرة) .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال والتعريف . ووردت فى الصبح كالآتى (والحمد لله حمدا يعيد شوارد النعم) . والأولى أرجح .

(٣) هكذا فى الإسكوريال والصبح . وفى التعريف والريحانة (انتكاث) .

(٤) هذه العبارة زائدة فى الصبح والتعريف .

الذى حسبناه على صنائع الله لنا(١) تميمة . لا تَلْقَع بعدها عين ، وجعلناه على حُلَل مواهبه ، قِلادةً لا يُحتاج معها زيْن ، ودعوناه من جَيْب الكنانة(٢) آية بيضاء الكتابة ، لم يبق معها شكٌّ ولا مَيْن ، وقرأنا منه وثيقة وُدٌّ ، هُضم فيها عن غريم الزمان دَيْن ، ورأينا منه إنشاء ، خدم اليراع بين يديه وشَّاء ، واحْتزم(٣) بهيمان عُقْدته مشَّاء ، وسئل عن معانيه الاختراع ، فقال إنا أنشأْناهُنَّ إنشاءً ، فأهلاً به من عربى أَبِى(٤) يصف السانح والبانَة ، ويبين فيُحْسِن الإبانة . أدّى الأَمانة ، وسئل عن حَيِّه فانتمى إلى كِنانة ، وأفصح وهو لا يَنْبس ، وتَهلَّلت قَسَماته . وليل(٥) حِبْرِه يَعْبس ، وكأنَّ خاتمة المُقْفل على صوانه ، المُتْحف بباكر الوَرْد فى غير أوانه ، رَعُف من مِسْكٍ عُنوانه . ولله من قلم دبَّج تلك الحُلل ، ونَقَع بمجاج الدَّواة المسْتَمدة من عين الحياة الغُلل . فلقد تخارق فى الجود ، مقتديا بالخلافة التى خُلِّد فخرها فى الوجود ، فجاد بسرِّ البيان ولُبابه ، وسَمَح فى سبيل الكرم حتى بماء شبابه ، وجَمَح لفَرْط بشاشته وفهامَتِه . بعد شهادة السَّيف بشهامَتِه ، فمشى من الترحيب فى الطِّرس الرَّحيب على أُمِّ هامَتِه .

وأكْرِم به من حكيم أفْصَح بملْغوز الإكْسير . فى اللَّفظ اليَسير ، وشَرَح بلسان الخَبير ، سرَّ صناعة التدبير ، كأنَّما خَدَم الملكة السَّاحرة بتلك البلاد ، قبل اشْتِجار الجلاد ، فآثرته بالطَّارف ، من سِحْرها والتِّلاد ، أو عثر بالمُعَلَّقة ، وتِيك القديمة المطلَّقة ، بدَفِينة دار ، أو كَنْزٍ تحت

(١) هذه الكلمة زائدة فى الصبح .

(٢) هكذا فى الإسكوريال والتعريف وفى الصبح (الكناية) والأولى أرجح .

(٣) هكذا فى الإسكوريال والتعريف . وفى الصبح (واخترع) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال والتعريف . وفى الصبح (أنى)

(٥) وردت فى الإسكوريال (لعل) والتصويب من الصبح والتعريف .

جدار ، أو ظَفر لبانى الحنايا ، قبل أن تقطع به عن أمانيه المنايا ، ببديعة ، أو خَلَف جَرْجير الروم ، قبل منازَلة القُرُوم على وديعة ، أو أسْهَمة[١] ابن أبى سَرْح فى نَشْبٍ للفتح وسرْح ، أو ختم له رُوح بن حاتم ببلوغ المَطْلَب ، أو غلَّب الحظوظ بخدمة آل الأغْلَب ، أو خَصَّه زيادةُ الله بمزيد ، أو شارك الشِّيعة فى أمر أبى زيد ، أو سار على منهاج فى مناصحة بنى صَنهاج ، وفضح بتخليد أمداحهم ، كلَّ هاج .

واعجب له ، وقد عُزِّز منه مَثْنى البيان بثالث . فجلب سِحْر الأسماع ، واسترقاق الطِّباع بين مثانٍ للإبداع ومثالث . كيف اقْتَدر على هذا المجيد ، وناصح مع التَّثْليث مقام التَّوحيد . نستغفر الله وليَّ العون . على الصَّمت والصَّون ، فالقلم هو المُوحِّد قبل الكون ، والمُتَّصِف من صفات السَّادة ، أولى العبادة ، بضُمُور التجسم وصُفْرة اللون . إنما هى كرامة فاروقية ، وإثارة من حديث سارية وبقيَّة ، سَفَر وجهها فى الأعقاب ، بعد طول الانتقاب ، وتداوُل الأحقاب ، ولسانٌ مُناب عن كريم جَناب . وإصابة السهم لِسواه محْسُوبة ، وإلى الرَّامى الذى يُسَدِّده[٢] منسوبة ، ولا تُنكر على الغمام بارقة ، ولا على المُتَحَقِّقين بمقام التَّوحيد كرامة خارقة . فما شاءه الفضل من غرائب برٍّ وجَدَ ، ومحاريب خُلُق كريمٍ رَكَع الشكر فيها وسَجَد ، حديقة بيانٍ استثارت نواسم الإبداع من مَهَبِّها . واستزارت غمايم الطِّباع ، من مَصَبِّها ، فآتت أُكُلَها مرَّتين بإذن ربِّها . لا بل كتيبة عزٍّ طاعنت بِقنا الألِفات سطورُها ، فلا يرومها النَّقد ولا يُطوِّرها ، ونزعت عن قسيِّ النُّونات خطوطها ، واصطفَّت من بياض الطِّرس ، وسواد النَّفس بُلْقٌ تحوطها . فما كأس المُدير على الغَدير ، بين الخوَرنق والسَّدير ،

---

(١) هكذا فى الإسكوريال والصبح . وفى التعريف (أسلمه)

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الصبح والتعريف (سدده) .

تقامر بنَرْد الحُباب . عقول ذوى الألباب ، وتُغْرق كِسْرى فى العُباب ، وتُهدى وهى الشَّمطاءُ . نشاط الشباب . وقد أسْرَج ابن سُرَيح وألجَم ، وأفْصح التمريضُ بعد ما جمْجَم . وأعرب النّا ى لأعْجَم ، وقع مُعيداً بالقضيب ، وشَرَعت فى حساب العِقد بنانُ الكفِّ الخَضيب ، وكأنَّ الأنامل فوق مثالث العُود ومثانيه ، وعند إغراءِ الثَّقيل بثانيه ، وإجابة صدى الغِناءِ بين مَغانيه . المراوِدُ تشرع فى الوَشْى ، أو العناكب تُسرع فى المشى ، فما المُخْبر[١] بنيل الرَّغائب . أو قدوم الحبيب الغائب ، لا بل إشارة البَشير ، بكمٍّ المُشير على العَشير ، بأَجْلَب للسُّرور من زايره المُتَلقِّي بالبرور ، وأدْعى للحُبور من سَفيره المُبْهج السُّفور . فلم نر مِثْلَه من كتيبة كِتاب تُجنب الجُرد . تمرح فى الأرسان ، وتتشوف مجالى ظهورها إلى عرايس الفُرسان ، وتهزُّ معاطف الارتياح ، من صَهيلها الصُّراح بالنَّغمات الحِسان . إذا أوجست[٢] الصَّريخ نازَعَتْ إثناء[٣] الأعنَّة ، وكاثرت بأسنَّة آذانها مُشرعة الأسنَّة ، فإن أدعى الظَّليم إشكالها فهو ظالم ، أو نازعها الظَّبى هواديها وأكفالها ، فهو هاذٍ أو حالم . وإن سئل الأصمعى[٤] عن عُيوب الغُرر والأوضاح ، قال مشيرا إلى وجوهها الصِّباح ، « جلدة بين العين والأنف سالم » من كل عَبْل الشَّوى . سابقٌ للنَّجم إذا ما هَوَى . سامى التَّليل . عريضٌ ما تحت الشَّليل . ممسوحةٌ أعطافه بمنديل النَّسيم البَليل . من أحمرَ كالمُدام ، تُجلى على النِّدام عقب الفِدام ، أتحَف لونه بالوَرْد ،

(١) هكذا فى الإسكوريال والتعريف . وفى الصبح (الخبر) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال والتعريف . وفى الصبح (وجدت) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال والصبح . وفى التعريف (اقتناء) .

(٤) واردة فى الإسكوريال والتعريف . وساقطة فى صبح الأعشى .

فى زمن البَرْد ، وحُيّى أفق مُحيّاه بكوكب السّعد . وتشوّف الواصفون إلى عدّ محاسنه ، فأعْيَت على العدّ . بحرٌ يساجل البَحْر . عند المدّ ، وريحٌ تبارى الريح عند الشّدّ ، بالذّراع الأشدّ ، حكم له مُدَبّرٌ فَلَك الكَفَل باعتدال فَصْل القدّ ، وميّزه قدْره المُمَيّز يوم الاسْتِباق ، بقصب السّباق ، عند اعتبار الجدّ ، وولّد مختطٌ غرّته أشكال الجمال ، على الكمال ، بين البياض والحُمْرة ، ونقاء الخدّ ، وحفظ رواية الخُلُق الوجيه عن جدّه الوَجيه ، ولا تُنكر الرواية على الحافظ ابن الجدّ . وأشقرُ أبىُّ الخَلْق والوجه الطَّلْق أن يُحقّر كأنّما صيغ من العَسْجد ، وطُرّف بالدُّر ، وأنعل بالزبَرْجد . ووُسم فى الحديث ، بسمة اليُمن والبَركة ، واختصّ بفَلْج الخصام عند اشْتِجار المعركة ، وانفرد بمضاعف السّهام ، المنْكَسِرة على الهام ، فى الفرائض المُشْتركة ، واتّصفت فَلَكُ كَفَله بحركتى الإرادة والطبع من أصناف الحركة . أصغى إلى السماء بأُذُن الملهم ، وأغْرى لسان الصّهيل عند التباس معانى المُهْمز ، والتّسهيل ببيان المُبْهم ، وفُتنت العيون ، من ذهب جسمه ، ولُجين نَجْمه بحبّ الدنيْر[1] والدّرهم ، فإن انقَضّ فرجم ، أو ريحٌ لمّا هجم ، وإن اعترض فشفق لاح به للنّجم نجم . وأصْفَر قيّد الأوابد الحُرّة ، وأمْسك المحاسن ، وأطلق الغُرّة ، وسئل من أنت فى قُوّاد الكتايب ، وأولى الأخبار العجايب ، فقال أنا المُهَلّب بن أبى صُفرة ، نَرْجِس هذه الألْوان ، فى رياض الاكوان ، تحيا به مُحيّا[2] الحرب العوان . أغار بنخوة الصّائل على مُعَصْفرات الأصايل ، فارتداها ، وعمد إلى خيوط شعاع الشمس عند جانحة الأمس . فألحم

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الصبح والتعريف (الدينار) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الصبح (وجوه) .

منها حُلَّته وأسْداها . واسْتعدت عليه مُلك المحاسن فما أعداها . فهو أصيلٌ تمسك بذيل الليل عُرْفه وذيله ، وكوكب يطلعه من القتام ليله ، فيحسده فَرْقد الأفق وسُهَيله . وأشهب تغشى من لونه مَفاضة(١) ، وتسربل منه لامةً فِضفاضة ، قد احتفل زينُه ، لمَّا رُقم بالنُّبال لُجَينه ، فهو الأَشْمَط الذى حقُّه لا يُغمط ، والدَّارع(٢) المُسارع ، والأَعْزَل الدَّارع ، وراقى الهِضاب الفارِع ، ومَكتوب الكتيبةُ البارع ، وأكرِم به من مُرتاضٍ سالك ، ومُجتهد على غايات السَّابقين الأَوَّلين(٣) متهالك . وأشهبُ يَرْوى من الخليفة ، ذى الشِّيم المُنيفة ، عن مالك . وحبارِى كلما سابق وبارى استعار جناح الحُبارى ، فإذا أعملت هذه(٤) الحِسْبة ، قِيل من هنا جاءت النِّسبة طرد النِّمر لما عَظُم أمرُه وأُمر ، فنُسخ وجوده بعدمه ، وابتزَّه الفَرْوة ، مُلطَّخة(٥) بدمه . وكان مُضاعف الوَرْد ، نُثر عليه من طبقِه ، أو الفَلَك ، لما ذهب الحَلك، مُزج فيه بياض صُبحه بحُمْرة شَفقِه ، وقرطاسيٌّ حقه لا يُجهل ، متى ما ترق(٦) العين فيه تسهَّل ، إن نزع عنه جلُّه ، فهو نجمٌ كلُّه . انفرد بمادة الأَلوان . قبل أن تشوبها يدُ الأَكوان ، وتمزجها أقلام المَلَوان . يتقدم منه الكتيبة لواءٌ ناصع ، أو أبيض مما صبع . لَبِس وقار المَشِيب ، فى ريعان العُمْر القَشِيب ، وأنصتت الآذان من صَهيله المطيل المُطيب ، لما ارتدى بالبياض إلى نَغَمة الخطيب ، وإن تَعَتَّب

---

(١) هكذا فى الإسكوريال والتعريف . وفى الصبح (مضاضة) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال والتعريف . وفى الصبح (الذراع) .

(٣) واردة فى التعريف والصبح . وساقطة فى الإسكوريال .

(٤) زائدة الصبح .

(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الصبح (ثم لطخه)

(٦) وردت فى الإسكوريال (ترق) . والتصويب من النفح والتعريف

منه للتأخير المُتَعتّب ، قلنا الواو لا تُرتّب ، ما بين فحل وحُرّة ، وبهرمانة ودُرّة ، ويا لله من ابتسام غرّة ، ووضوح يُمن فى طُرّة ، وبهجة للعين وقُرّة . ولئن ولع الناس بامتداح القديم ، وخصّوا الحديث بفَرْى الأديم ، وأوجب المتعصّب ، وإن أبى المنصِب مزيّة(١) التّقديم ، وطمح إلى رُتبة المخدوم طَرْفُ الخديم ، وقورن المُثرى بالعَديم ، وبُخس فى سوق الكَسَد(٢) الكيل ، ودَجا الليل ، وظهر فى فَلَك الإنصاف الميل ، لمّا تُذوكرت الخَيْل ، فجىء بالوجيه والخطّار ، والزائد وذى الخمار ، وداحس والسَّكب ، والأبجر وزاد الراكب ، والجَمُوح واليَحْموم ، والكُمَيت ومَكْتُوم ، والأعوج والحُلوان(٣) ولاحق والغضبان ، وعفزر والزعفران ، والمحَبّر واللّعاب ، والأغرّ والغُراب ، وشُعْلة والعُقاب ، والفيّاض واليعبوب ، والمُذهب واليَعْسُوب ، والصَّموت والقُطيب ، وهَيْدب والصَّبيب ، وأهلوب وهدّاج ، والحَرُون وخرّاج ، وعَلْوى والجناح ، والأَخْوى ومجاج ، والعصا والنّعامة ، والبَلقاءُ والحمامة ، وسكاب والجرادة ، وخوصاءُ والعرادة . فكم بين الشّاهد والغائب ، والمفْرُوض والرغائب ، وفرقٌ ما بين الأثر والعِيان ، غنيٌّ عن البيان ، وشتّان ما بين الصّريح والمُشْتَبه ، ولله درُّ القائل فى مثلها « خذ ما تراه ودع شيئا سَمِعت به » . والنّاسخ يختلف به الحكم ، وشرُّ الدواب عند التفضيل بين هذه الدواب ، الصّم البكم ، إلا ما ركبه نبيّ .
وكان له يوم الافتخار برهان خبيّ(٤)، ومفضّل ما سمع على ما رأى غبى ، فلو أنصفت محاسنها التى وصَفْت ، لأقضمت حبَّ القلوب علفا ، وأوردت ماءَ الشبيبة(٥) نُطَفا ، واتخذت لها من عُذْر الخدود الملاح عذر موشيّة ،

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الصبح والتعريف (مرتبة) .
(٢) وردت فى الإسكوريال والصبح (الحسد) . والتصويب من التعريف .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الصبح والتعريف (وحلوان) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال والصبح . وفى التعريف (خفى) .
(٥) هكذا فى الإسكوريال والتعريف . وفى الصبح (الشنينة) والأولى أرجح .

وعلَّلت بصفير ألحان القِيان كلَّ عشية . وأُنعلت بالأهلة ، وغُطِّيت بالرياض بدل الأَجلَّة

إلى الرَّقيق ، الخليق بالحسن الحَقِيق . تسوقه إلى مَثوى الرعاية روقة الفتيان رعاته ، ويهدى عقيقها من سبجِه أشكالا تشهد للمخترع سبحانه ، بإحكام مُخترعاته ، وقفت ناظر الاستحسان لا يريم ، لمَّا بهره منظرها الكريم ، وتخامل الظَّليم ، وتضاءل الرِّيم . وأُخرس مُفوه(١) اللسان ، وهو [بملكة التِّبيان](٢) الحفيظ العليم . وناب لسان الحال عن لسان المقال . عند الاعتقال ، فقال يخاطب المقام ، الذى أطلعت أزهارها غمائم جُوده ، واقتضت اختيارُها بَرَكة وجوده ، لو علمنا أبها الملك الأَصيل . الذى كَرُم منه الإجمال والتَّفصيل ، أن الثناء يوازيها لكِلْنا لك بكَيْلك . أو الشكر يعادلها ويجازيها . لتعرضنا بالوشل إلى نيل نَيلك ، أوقُلنا هى التى أشار إليها مُسْتَصْرِخ سلفك المستنصر بقوله : «أدرك بخيلك»(٣)

---

(١) هكذا فى الإسكوريال والتعريف. وفى الصبح (مقوله) .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ومكانها فى الصبح والتعريف (بملكات البيان) .

(٣) يشير هنا ابن الخطيب إلى واقعة استصراخ الأمير أبى جميل زيان بن مردنيش أمير بلنسية عاصمة الشرق الأندلسى لما دهمه النصارى بحصارها فى رمضان سنة ٦٣٥ هـ (إبريل ١٢٣٨ م ، للأمير أبى زكريا) ابن عبد الواحد الحفصى (وقد وهم ابن الخطيب فى ذكره أن الصريخ كان موجها إلى ولده الخليفة المستنصر) . أمير مملكة تونس ، وارساله لهذا الغرض كاتبه وسفيره الفقيه الشاعر ابن الأبار القضاعى . وقد عبر عن صريخ الأندلس ومحنتها بقصيدته الشهيرة التى أنشدها بين يدى الأمير أبى زكريا ومطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا   إن السبيل إلى منجاتها درسا

وقد سارع الأمير أبو زكريا إلى إغاثة مسلمى بلنسية ، وأرسل إلى ذلك الغرض أسطولا مشحونا بالسلاح والأطعمة والأموال ، وسار هذا الأسطول بالفعل إلى مياه بلنسية ولكنه لم يستطع الاتصال بالمحصورين . وسقطت بلنسية بعد ذلك فى يد النصارى (الأرجونيين) فى صفر سنة ٦٣٦ هـ (أكتوبر سنة ١٢٣٨ م) .

حين شرق بدمعه(١) الشرق ، وانهزم الجمع ، واستولى الفَرَق ، واتسع فيه ، والحكم لله ، الخرق ، ورأى أن مقام التوحيد بالمظاهرة على التثْليث وحزبه الخَبيث ، هو الأولى والأحق . والآن قد أغنى الله بتلك النِّية ، عن إنجاد الطِّوال الرّدينيّة ، وبالدُّعاءِ من تلك المثابة الدينيّة ، إلى رب البنيّة ، عن الأمداد السَّنية ، والأجواد تخوض بحر الماءِ إلى بحر المنيّة ، وعن الجُرْد العربية فى مقاود الليوث الأبيَّة .

فجدِّد برسم هذه الهديّة ، مراسم العهود الوُدِّية ، والذِّمم الموَحِّدية لتكون علامة على الأَصل ، ومُكذِّبة لدعوى الوقف والفصل ، وإشعارًا بالأُلفة التى لا تزال أَلفها [بحول الله](٢) أَلِف الوصل ، ولامها حراما على النَّصل .

وحضر بين يدينا رسولكم فلان ، فقرّر من فضلكم ، ما لا ينكره من عَرَف علوَّ مقداركم ، وأصالة داركم ، وفَلَك إبداركم ، وقُطْب مداركم ، وأجَبْناه عنه بجُهد ما كنا لنقنع من جناه المُهْتَصر ، بالمُقْتضب المختصر ، ولا لنقابل طول طَوْله بالقِصر ، لولا طروء الحَصَر . وقد كان بين الأسلاف رحمة الله عليهم ورضوانه ، وُدٌّ أُبرمت من أجل الله معاقدُه ، ووثِّرت للخلوص الجليِّ النصوص ، مضاجعُه القارة ومراقدُه ، وتعاهدٌ بالجميل ، توجَّع لفَقْده [فيما سلف](٣) فاقده ، أبى الله ألا أن يكون لكم الفضل فى تجديده ، والعَطْف بتوكيده . ونحن الآن لا ندرى أيَّ مكارمكم نَذكر ، أو أى فواضلكم نشرح أو نشكر ، أمفاتحتكم التى هى فى الحقيقة عندنا فتح ، أم هَدِيتكم وفى وصفها للأقلام سَبْح ، ولعدوِّ الإسلام بحكمتها كبح . إنما نكل الشكر لمن يوفى جزاءَ الأعمال البرَّة ، ولا يُبخس مِثقال الذَّرة ،

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال والتعريف . وفى الصبح (بدفعه) وهو تحريف .

(٢) واردة فى الإسكوريال . وساقطة فى الصبح والتعريف .

(٣) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال . وساقطة فى الصبح والتعريف .

ولا أدنى من مثقال الذّرة . ذى الرّحمة الثّرّة . والألطاف المتصلة المستمرة ، لا إلٓه إلاّ هو .

وإن تشوفتم إلى الأحوال الراهنة ، وأسباب الكفر الواهية [بقدرة الله][1] الواهنة، فنحن نُطرفكم بطرفها ،ونطلعكم على سبيل الإجمال بطرفها . وهو أننا لما أعادنا[2] الله من التمحيص ، إلى مثابة التخصيص ، من بعد المرام العويص ، كَحَلنا بتوفيق الله بصر البصيرة ، ووقفنا على سبيله مساعى الحياة القصيرة ، ورأينا كما نُقل إلينا ، وكُرِّر على من قَبْلنا وعلينا ، أن الدُّنيا ، وإن غرَّ الغرور ، وأنام على سُرُر الغفلة السُّرور ، فلم ينفع الخطور على أجداث الأحباب والمرور ، جسْرٌ يُعبر ، ومتاع لا يُغبط من حُبى به ، ولا يُجبر . إنما هو خبر به يُخبر ، [وأن الحسرة بمقدار ما على تركه تُجبر][3] وأن الأعمار أحلام ، وأن الناس نيام ، وربما رحل الراحل عن الخان ، وقد جلَّله بالأذى والدُّخان ، أو ترك به طِيباً ، وثناء يقوم بعده للآتى خطيبا ، فجعلنا العدل فى الأمور مِلاكا ، والتفقُّد للثغور مِسواكا ، وضجيج المهاد ، حديث الجهاد ، وأحكامه مناط الاجتهاد ، وقوله : « يا أيها الذين آمنوا أهل أدلُّكم على تجارة تنجيكم » دليل[4] الاستشهاد ، وبادرنا رَمَق[5] الحصون المُضاعة ، وجُنح التَّقية دامس ، [وعَوْراتها لا تردُّ يَدَ لامِس][6] ، وساكنها بائس ، والأعْصَم فى

---

(١) ساقطة فى الإسكوريال وواردة فى الصبح والتعريف .

(٢) هكذا فى الإسكوريال والتعريف . وفى الصبح (اعاد) .

(٣) هذه العبارة واردة فى الصبح والتعريف وساقطة فى الإسكوريال .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . ومكانها فى الصبح والتعريف (من حجج) .

(٥) وردت فى الإسكوريال والصبح (من) والتصويب من التعريف .

(٦) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال والتعريف وساقطة فى الصبح .

شعفاتها من العِصْمة آيس ، فزيّنا ببيض الشُّرفات ثناياها ، وأَفْعَمنا بالعَذْب الفُرات رَكاياها ، وغشينا بالصَّفيح المضاعف أبوابها ، واحْتَسَبنا عند مُوفىً الأُجور ثوابها ، وبيَّضنا بناصع الكَلس أثوابها ، فهى اليوم توهم حِسّ العِيان ، أنها قطع من بيض العَنان(١) ، تكاد تَناول قرص البدر بالبنان ، متكفلة للمؤمن ، من فزع الدنيا والآخرة بالأمان . وأقرضنا الله قرضا ، وأوسعنا مدوَّنة الجيش عرضا ، وفرضنا أنصافه مع الأهلَّة فَرْضا ، واستندنا من التوكُّل على الله الغنى الحميد إلى ظلٍّ لواء ، ونبذنا إلى الطاغية عهدة على سواء ، وقلنا ربٌّ أنت العزيز ، وكلٌّ جبَّار لعزك ذليل ، وحزبك هو الكثير ، وما سواه فقليل ، أنت الكافى ، ووعدك الوعد الوافى ، فأَفض علينا مدارع الصابرين ، واكتُبْنا من الفائزين ، بحظوظ رضاك الظافرين ، وثبِّت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين .

فتحركنا أُولى الحركات ، وفاتحة مُصحف البركات . فى خِفٍّ من الحشود ، واقتصار على من بحضرتنا من العساكر المظفرة والجنود ، إلى حصن أشر(٢) البازى المطل [وركاب العدو](٣) الضَّال المُضِل ، ومَهْدى نفثات الصِّل ، على امتناعه وارتفاعه ، وسمو يَفاعه ، وما بذل العدو فيه من استعداده ، وتوفير أَسلحته وأَزْواده ، وانتخاب أَنْجاده . فصَلَيْنا بنفسنا ناره ، وزاحمنا عليه الشُّهداء نُصابر أُواره . ونَلْقى بالجَوارح العزيزة سهامه المسْمُومة ، وجلامده المَلمومة وأحجاره ، حتى فرَغْنا بحول من لا حول ولا قوة إلا به ، أبراجه المَنِيعة وأسواره ، وكَفَفنا عن البلاد والعباد

---

(١) وردت فى الإسكوريال (القيان) . والتصويب من التعريف والصبح .

(٢) هكذا فى الإسكوريال وهو الرسم الصحيح لاسم هذا الحصن . وقد سبق التعريف به . وفى الصبح (آش) وهو تحريف .

(٣) هذه العبارة واردة فى الصبح والتعريف وساقطة فى الإسكوريال .

أضراره ، بعد أن استَضَفْنا إليه حصن[١] السُّهلة جاره ، ورحلنا عنه بعد أن شحناه رابطةً وحاميةً ، وأزْواداً نامية ، وعمِلنا بيدنا فى رَمِّ ما ثلم القتال ، وبَقر من بطون مُسابقه الرجال ، واقْتَدينا بنبينا صلوات الله وسلامه عليه فى الخَنْدق ، لمَّا حمى ذلك المجال ، ووقع الارْتجاز المنقول خبره والارْتِجال ، وما كان ليقرَّ الإسلام مع تركه القَرار ، وقد كُتب الجوار ، وتداعى الدَّعرة ، وتعاوى الشِّرار .

وقد كنا أغْرَينا الجهة الغربية من المسلمين بمدينة بُرغة[٢] التى سَدَّت بين القاعدتين رُنْدة ومالَقة الطريق ، وألْبَسَتْ ذُلَّ الفراق ذلك الفَريق ، ومَنَعَتْهما أن تُسيغا الرِّيق ، فلا سبيل إلى الإلمام لطيف المنام إلا فى الأَحلام ، ولارسالة إلاَّ فى أجنحة هَدىٍّ[٣] الحمام ، فيسَّر الله فتحها ، وعجَّلَ مَنْحها ، بعد حرب انبتَّت فيها النحور ، وتزيَّنَت الحور ، وتبع هذه الأُم بناتٌ شهيرة ، وبُقَع للزرع والضَّرع خِيرة ، فشفى الثغر من بُوسه ، وتهلَّل وجه الإسلام بتلك الناحية بعد عُبُوسه

ثم أعْمَلنا الحركة إلى مدينة الجزيرة ، على بُعد المدا ، [وتُغَلْغُلها فى][٤] بلاد العِدا ، واقتحام هول الفَلا وغَول الرَّدى ، مدينة تبنَّتها[٥] حُمص ، فأوسَعت الدَّار ، وأغْلَت الشِّوار ، وراعت الاستكثار ، وبَسَطَتْ الاعْتِمار ، رَجَّح إلينا قصدها على البُعد ، والطريق الجَعْد ، ما أشْقَت به المسلمين ، من استئصال طائفة من أسراهم ، مرُّوا بها آمنين ، وبطائرها المَشْئُوم

(١) هذه الكلمة واردة فى الصبح والتعريف ، وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) سبق التعريف بهذه المدينة .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . والصبح . وفى التعريف (هدل) .

(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال والتعريف . وفى الصبح (وتعلقها على) . والأولى أرجح .

(٥) وردت فى الإسكوريال والصبح (بنتها) . والتصويب من التعريف .

متيّمنين ، قد أنهكهم الاعتقال ، والقيود الثّقال ، وأضرعهم الإسار ، وجلّلهم الانكسار . فجدّلوهم فى مَصرع واحد ، وتركوهم عبْرةً للرائى والمُشاهد ، وأهدوا بوقيعتهم إلى الإسلام ، ثكل الواجد ، وتِرَةَ الماجد ، فكبسناها كبسا ، وفجأناها(١) بإلمام من لا يُغفِل ولا يَنسى ، فصبحتها الخيل ، ثم تلاحق الرّجل لما جنّ الليل ، وحاق بها الوَيْل ، فأُبيح منها الدّمار وأخذها الدمار ، ومُحقت من مصانعها البيض الأهلة ، وخُسِفت الأقمار ، وشُفيت من دماء أهليها الضّلوع الحِرار ، وسُلّطت على هياكلها النار ، واستولى على الآلاف العديدة من سَبْيِها الإسار ، وانتهى إلى إشبيلية الثّكلى المغار ، فجلّل وجوه من بها من كبار النصرانية الصّغار ، واستولت الأيدى على مالا يسعه الوصف ولا تقلّه الأوقار . وعُدنا والأرض تموج سَبْيًا ، لم تترك بعِفِرّين شِبْلا ، ولا بوجرة ظبيا ، والعقائل حَسْرى ، والعيون يبهَرها الصّنع الأسْرَى ، وصُبح السّرى قد حُمد ، من بَعْد بُعد(٢) المَسْرى ، فسبحان الذى أسْرَى ، ولسان الحميّة ينادى فى تلك الكنائس المُخْزِية والنّوادى ، يا لثارات الأسْرَى .

ولم يكن إلاّ أن نُفّلت الأنفال ، ووُسمت بالأوضاح(٣) الأغفال ، وتميّزت الهوادى والأكفال ، وكان إلى غزو مدينة جَيّان الاحتفال ، قدنا إليها الجُرْد تلاعب الظّلال نشاطا ، والأبطال تقتحم الأخطار رضًى بما عند الله واغتباطاً والمهنّدة الدّلق(٤) تسبق إلى الرّقاب استلالا واختِراطا ، والرّدينيّة السّمر تسترط حيّاتُها(٥) النفوس استراطا . [واستكثرنا من عُدد القتال احتياطا](٦)

---

(١) وردت فى الإسكوريال (وفجناها) . والتصحيح من الصبح .

(٢) واردة فى الصبح وساقطة فى الإسكوريال .

(٣) وردت فى الإسكوريال والصبح (بالإرضاخ) والتصويب من التعريف .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى التعريف . وفى الصبح (الزرق) . والأولى أرجح .

(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى الصبح (حياة) . وهو تحريف .

(٦) هذه الجملة واردة فى الإسكوريال والتعريف . وساقطة فى الصبح .

وأزحْنا العلل عمَّن أراد جهادا . منجيًا غُباره من دخان جهنم ورِباطاً .
ونادينا الجهاد الجهاد . يا أُمة [الجهاد راية] [1] النبيِّ الهاد . الجنَّة الجنَّة تحت
ظِلال السيوف الحِداد . فهزَّ النداءُ إلى الله تعالى كل عامر وغامر : وائتَمر
الجمُّ من دعوة الحقِّ إلى أمر آمر ؛ وأتى الناس من الفُجوج العَميقة رجالاً ؛
وعلى كلِّ ضامر ، وكاثَرَت الرايات أزهار البِطاح لونًا وعدًّا ، وسدّت
الحشود مسالك الطرق العريضة سدًّا ، ومُدَّ بحرها الزاخر مدًّا ، فلا يجد
لها الناظر ولا المناظر حدًّا . وهذه المدينة هى الأُم الولود ، والجنَّة التى فى
النار لسكَّانها من الكفار الخلود ، وكرسى الملك ، ومُجَنَّبته الوُسْطى ،
من ذلك السِّلك [2] ، باءت بالمزايا العديدة ، ونجحت ؛ وعند الوِزان
بغيرها من أمَّات البلاد رَجحت ، غاب الأُسود . وجُحر الحيَّات السُّود ،
ومَنْصِب التماثيل الماثلة ؛ ومَعْلَق النواقيس الصَّايلة .

وأدْنَينا إليها المراحل [وعيَّنا لبحار] [3] المحلات المستقلّات منها
الساحل . ولمَّا أكْثبنا جوارها ، وكدنا نلمح نارها ؛ تحركنا ووشاح
الأُفق المرقوم بزُهْر النجوم ، قد دار دايرَه ، والليل من خوف الصَّباح ،
على سَرْحه [4] المستباح ، قد شابت غدايرُه . والنَّسر يرَفْرف باليُمن طائرُه ،
والسِّماك الرامح يثأَّر بعزِّ [5] الإسلام ثائره ؛ والنَّعائم راعِدةٌ فرائض الجَسَد
من خوف الأَسَد ، والقوس يرسل سَهْم السعادة . بوتر العادة إلى أهداف

---

(١) هذه العبارة ساقطة فى الإسكوريال . وواردة فى الصبح والتعريف .
(٢) هكذا فى الإسكوريال والتعريف . وفى الصبح (الممالك) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال وفى التعريف وفى الصبح (وعينا لتجار) وهو تحريف .
(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال والصبح . وفى التعريف (سطحه) .
(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى الصبح (ثغر) والأولى أرجح .

النِّعم المُعادة ، والجَوْزاءُ عابرةٌ نهر المجرَّة ، والزُّهرة تغار من الشعري العبور بالضرَّة ، وعطارد يُسْدِى فى حبل[1] الحروب على البلد المحروب ويُلْحِم ، ويناظر على أشكالها الهندسية فيُفْحم ، والأحمر يَبهَر ، والعَلَم الأبيض يَفْرى وينهر ، والمُشْتَرى يُبدى فى فضل الجهاد ويُعيد ، ويزاحم فى الحلقات على ما للسعادة من الصفات ويَزيد ، وزُحل عن الطالع مُنْزحل ، وعن العاشر مرتحل ، وفى زلق السقوط وحِل ، والبدر يطارح حَجَر المنجنيق ، كيف يهوى إلى النِّيق ، ومطلع الشمس يرقُب ، وجدار الأُفق يكاد بالعيون عنها يُنقب.

ولما فشا سرُّ الصباح واهتزَّت أعطاف الرَّايات لتحيَّات مُبَشِّرات الرِّياح ، أطْلَلْنا عليها إطْلال الأُسود على الفرايس ، والفُحُول على العرايس ، فنظرنا منظراً يروع بأْساً ومَنَعة ، ويروق وضْعاً وصَنْعة ، تلفَّعت معاقله الشُّم للسحاب ببرود ، ووَرَدَت من غَدِير المُزْن فى بُرود ، وأسرعت لاقتطاف[2] أزهار النجوم ، والذِّراع بين النطاق[3] معاصم رُود ، وبلداً يُعيِى الماسح والذارع ، وينتظم المحانى والأجارِع . فقلنا اللهم نفِّله أيدى عبادك ، وأرِنا فيه آيةً من آيات جهادك ، فنزلنا بساحتها العريضة المتُون ، نزول الغيث الهَتُون ، وتيمَّنًا من فحصها الأفْيَح بسورة التين والزيتون ، متبرِّئة من أمان الرحمن للبلد المَفْتُون ، وأعْجَلنا الناس بحميَّة نفوسهم النَّفيسة ، وسَجيَّة شجاعتهم البئيسة ، عن أن نُبَوِّىءَ[4] للقتال المقاعد ، وتُدْنى بإسماع شهير النَّفير منهم الأباعد. وقبل أن يلتقى الخديم بالمخدوم ، ويركع المنجنيق ركعتى القُدوم ، تدافعوا من أصْحَر إليهم من الفرسان ،

---

(١) وردت فى الإسكوريال والصبح (جبل) . والتصويب من التعريف .

(٢) هكذا فى الإسكوريال والتعريف . وفى الصبح (لاختطاف) والأولى أنسب .

(٣) هكذا فى الصبح وفى التعريف . وفى الإسكوريال (النطاف) .

(٤) وردت فى الإسكوريال (نبوه) . والتصويب من التعريف والصبح .

وسبق إلى حومة الميدان . حتى أحجروه فى البلد . وسلبوهم لباس الجلد . فى موقف يُذهل الوالد عن الولد . صابت[١] السهام فيه غماما . وطارت كأسراب الحمام تهدى حِماما . وأضحت القنا قِصَداً ، بعد أن كانت شِهاباً رصَدًا . وماج بحر القتام بأمواج النُّصول . وأخذ الأرض الرَّجَفان لزلزال الصباح الموصول . فلا ترى إلاَّ شهيدا تُظَلِّل مصرعه الحور ، وصريعا تقذف به إلى السَّاحل أمواج[٢] تلك البحور . ونواشِبَ تَبْأَى بها الوجوه الوجيهة عند الله والنُّحور . فالمِقْضب فودُه يُخصب . والأسمر غُصْنُه سيُثْمر . والمِغفر حماه يخفر . وظهور القسيّ تُقْصم ، وعصم الجند[٣] الكوافر تَفْصم . وورق اليَلَب فى المُنْقَلب يسقط . والبُتَّر[٤] تكتب . والسُّمر تنقط . فاقتُحم الرَّبضُ الأعظم لحينه . وأظهر الله لعيون المبصرين والمستبصرين عِزَّة دينه . وتبرَّأ الشيطان من خَدينه . وبَهت[٥] الكفار وخُذِلوا ، وبكل مرصد جُدِّلوا ، ثم دُخل البلد بعده غِلابا ، وجُلِّل قَتْلاً واستلابا ، فلا تَسَل إلاَّ الظُّبا والأَسَل . عن قيام ساعته . وهول يومها وشناعته ، وتخريب المبايت والمبانى . وغِنَى الأيدى من خزاين تلك المغانى ، ونقل الوجود الأول إلى الوجود الثانى . وتَخارق السيف فجاء بغير المعتاد . ونهلت القنا الرُّدينية من الدماء . حتى كادت تورق كالأغصان المُغْتَرسة والأوتاد . وهَمَت أفلاك القسيِّ وسَحَّت ، وأرنَّت حتى بُحَّت . ونفدت مواردها فشحَّت بما ألحَّت . وسَدَّت المسالك جثثُ القتلى فمنعت العابر ،

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال والتعريف . وفى الصبح (صارت) .

(٢) هذه الكلمة واردة فى الصبح وساقطة فى الإسكوريال والتعريف .

(٣) وردت فى الإسكوريال (الجنن) والتصويب من الصبح والتعريف .

(٤) هكذا فى الإسكوريال والصبح . وفى التعريف (البيض) .

(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال . ووردت فى الصبح (ونهب) وهو تحريف .

واستأصل الله من عدوه الشأفة وقَطع الدَّابر ، وأزلف الشهيد وأحْسِب الصابرَ ، وسبقت رسل الفتح الذى لم يُسمع بمثله فى الزمن الغابر ، تنقل البُشرى من أفواه المحابر ، إلى آذان المنابر .

أقمنا بها أياما نَعْقُر الأشجار ، ونستأصل بالتَّخريب الوِجار ، ولسان الانتقام من عبدة الأَصنام ، ينادى يالثارات الإسكندرية تشفِّيا من الفُجَّار ، ورعيا لحقِّ الجار . وقفلنا وأجنحة الرايات برياح العنانات(١) خافقة ، وأوفاق التوفيق ، الناشئة من خطوط الطريق موافقة ، وأسواق العزِّ بالله نافقة ، وحملاءُ الرفق مصاحبة ، والحمد لله ، مرافقة ، وقد ضاقت ذروع الجبال عن أعناق الصُّهب السِّبال ، ورفعت على الأَكفال رُدَفاءُ كرائم الأنفال ، وقُلقلت من النواقيس أجرام الجِبال بالهندام والاحتيال ، وهلك بمهلك هذه الأم ، بناتٌ كُنَّ يَرْتَضعن ثُدِيَّها الحوافل ، ويستوثرن حجرها الكافل ، شمل التخريب أسوارها ، وعجّلت النار بَوارَها .

ثم تحركنا بعدها حركة الفتح ، وأرسلنا دلاء الأدلاَّء قبل المَتْح ، فبشَّرت بالمنح . وقصدنا لمدينة أُبدَّة ، وهى ثانية الجناحين ، وكُبرى الأُختين ، ومُساهِمة جيَّان فى حين الحين ، مدينة أخذت عرض الفضاء الأخرق ، وتمشَّت فى أرباضها تمشِّى الكتابة الجامحة فى المُهْرَق ، المشتملة على المتاجر والمكاسب ، والوَضع المتناسب ، والفلح(٢) المُعْيى ريْعُه عمل الحاسب ، وكوارة(٣) الدير اللاسب ، [المتعددة اليَعاسِيب](٤) فأناخ العَفاءُ بربوعها العامرة ، ودارت كؤوس عُقار الحُتوف ، ببنان السيوف ،

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . ووردت فى التعريف والصبح (العنايات) والأولى أرجح

(٢) هكذا فى الإسكوريال والتعريف . وفى الصبح (الفلج) .

(٣) هكذا فى التعريف والصبح . وفى الإسكوريال (كورة) . والأولى أرجح والكوارة شىء يتخذ للنحل من القضبان .

(٤) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال والتعريف . وساقطة فى الصبح .

على متديِّريها المعاقرة ، وصبَّحتها طلائع الفاقِرة ، وأُغْرِيَت ببطون أسوارها عُوج المعاول(1) الباقِرة ، ودَخَلت مدينتها عَنْوة السيف : فى أسرع من خَطْرة الطَّيف ، ولا تسل عن الكَيْف . فلم يبلغ العفاءُ من مدينة حافِلة ، وعَقِيلة فى حُلَل المحاسن رافِلة ، ما بلغ من هذه البائسة : الَّتى سَجَدت لآلهة النيران أبراجُها ، وتضاءل بالرَّغام مِعْراجُها ، وضَفَتْ على أعطافها ملابسُ الخِذلان ، وأقفر من كنائسها كِناس الغُزلان .

ثم تأهَّبنا لغزو أم القرى الكافرة ، وخزاين المزاين الوافرة ، وربَّة الشُّهرة السافرة ، [والأنباءِ المسافرة](2) قرطبة ، وما أدراك ما هِيه ، ذات الأرجاءِ الحالية الكاسِية ، والأطْواد الرَّاسخة الرَّاسية ، والمبانى المباهِية والزَّهراءِ الزاهية ، والمحاسن غير المُتَنَاهية ، حيث هالةُ بدر السماءِ ، قد استَدارت من السُّور المَشِيد البناءِ دارًا(3) ؛ ونهر المجرَّة من نهرها الفيَّاض ، المسلول حُسامه من غمود الغياض قد لَصِق بها جارا ، وفَلَك الدُّولاب المعتدل الانقلاب ، قد استقام مَدَارا ، ورجَّع الحنين اشتياقاً إلى الحبيب الأوَّل ، وادِّكارا ، حيث الطود كالتَّاج ، يزدان بلُجين العَذْب المُجاج ، فيُزْرى بتاج كِسْرى ودَارا ، حيث قِسِىُّ الجسور المديرة ، كأنها عوج المَطِىِّ الغريرة ، تعبر النهر قطارا ، حيث آثار العَامِرىِّ المجاهد، تَعْبَق بين تلك المعاهد شَذًا مِعْطاراً ، حيث كرائم السحاب تزور عرائس الرِّياض الحبايب فتحمل لها من الدُّر نِثاراً ؛ حيث شمُول الشَّمال تُدار على الأدْواح ، بالغُدُوِّ والرَّواح ، فترى الغصون سُكارى . وما هى بسُكارى . حيث أيدى الافتتاح ؛

---

(1) هكذا وردت فى الصبح والتعريف . وفى الإسكوريال (المعاون) .

(2) هذه العبارة واردة فى التعريف وفى « ريحانة الكتاب » . . ساقطة فى الإسكوريال .

(3) هذه الكلمة ساقطة فى الصبح .

تَفْتَضُّ من شَقائق البِطاح أبْكاراً . حيث ثُغور الأقاح الباسم ، تُقبِّلها بالسِّحر زُوَّار النَّواسم ، فتخفق قلوب النجوم[١] الغيارى . حيث المُصلَّى العتيق قد رحُبَ مجالاً ، وطال مناراً . وأزرى ببلاط الوليد احتقارا. حيث الظُّهور المثارة بسلاح الفلاح ، تجُبُّ عن مثل أسْنِمة المهارى ، والبطون كأنها لتَدْميث الغمائم بُطون العَذارى . والأدواح العالية تخترق أعلامها المادية بالجداول الحَيارى . فما شيت من جوٍّ صقيل[٢] ومُعرَّس للحسن ومَقيل ، ومالكٍ للعقل وعَقيل . وخمائل كم فيها للبلابل من قال وقيلٍ ، وخَفِيف يُجاوب بثقيل . وسنابلَ تَحكى من فوق سُوقها . وقُضُب بسوقها الهمزات فوق الألِفات ، والعصافير البديعة الصِّفات ، فوق القُضُب المُؤتَلِفات . تميل لهبوب[٣] الصَّبا والجَنوب . مالئة[٤] الجيوب بدُرَر الحُبوب ، وبطاحٌ لا تعرف عين المَحْل ، فتطلبه بالذَّحل ، ولا تصرف فى خدمة بيض قباب الأزهار ، عند افتتاح السَّوسَن والبَهار ، غير العُبدان من سُودان النَّحل ، وبحر الفلاحة الذى لا يُدرك ساحلُه ، ولا يبلغ الطيَّة البعيدة راحلُه ، إلى الوادى ، وسَمَر النوادى ، وقرار دموع الغوادى المتجاسر على تخطِّيه ، عند تمطِّية ، الجسر العادى . والوطن الذى ليس من عمرو ولا زيد. والفَرا الذى فى جَوْفه كلُّ صَيْد ، أقلَّ كرسيه خلافة الإسلام ، وأغار[٥] بالرُّصافة والجِسْر دار السلام. وماعسى أن تُطْنب فى وصفه ألسنة الأقلام ، أو تعبر به عن ذلك الكمال ، فُنون الكلام .

---

(١) هكذا وردت فى الصبح . وفى الإسكوريال (النجم) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال والصبح . وفى التعريف (بقيل) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال والتعريف . وفى الصبح (بهبوب) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال والتعريف . وفى الصبح (مائلة)

(٥) هكذا فى الإسكوريال والتعريف وفى الصبح (أعار) وهو تحريف

فأعملنا إليها السُّرى والسَّير . وقُدْنا إليها الخيل وقد عقد الله فى نواصيها الخير .

ولما وقفنا بظاهرها المُبْهت المُعْجب ، واصطَفَفْنا بخارجها المُنْبِت المُنجب ، والقلوب تلتمس الإعانة من مُنعم مُجْزل ، وتستنزل مدد(١) الملائكة من مُنْجد مُنْزل ، والركائب واقفة من خلفنا بمعزل ، تتناشد فى معاهد الإسلام ، «قفا نَبْكِ من ذِكرى حبيب ومنزل » برز من حاميتها المُحامية ، ووقود النار الحامية ، وبقية السيف الوافرة على الحصاد النامية ، قِطع الغمايم الهامية ، وأمواج البحور الطامية ، واستجنَّت بظلال أبطال المجال ، أعداد الرجال النَّاشِبة والرَّامية . وتصدَّى للنِّزال ، من صنَادِيدها الصُّهب السِّيال ، أمثال الهضاب الراسية ، يجنُّها جُنَنُ السَّوابغ الكاسية ، وقوامِيسها المُغادِية للصُّلبان يوم بؤسها بنفوسها المُواسية ، وخنازيرها التى عدتها عن قبول حُجَج الله ورسوله ، ستُور الظُّلَم الغاشية ، وصخور القلوب القاسية . فكان بين الفريقين أمام جسرها الذى فرق البحر ، وحُلِّى بلُجَينه ولآلى زَيْنه منها النَّحر ، حربٌ لم تَنْسِج الأزمان على منوالها ، ولا أتَتْ الأيام الحُبالى بمثل أجِنَّة أهوالها ، من قاسها بالفِجار أفَكَ وفجر ، أو مثَّلها بجفر الهباءة خرِف وهَجر ، ومن شبَّهها بحرب داحِس والغَبْراءِ ، فما عرف الخبر . فليسل من عرَّف وخبر . ومن نظرها بيوم شِعْب جَبَلة ، فهو ذو بَلَه . أو عادلها ببطن عاقل ، فهو غير عاقل . أو احتج بيوم ذى قار ، فهو إلى المعرفة ذو افْتِقار . أو ناضل بيوم الكَدِيد ، فسهمه غير السديد . إنما كان مقاما غير معتاد ، ومَرْعى نفوس لم يَفِ بوصفه

(١) هذه الكلمة واردة فى الصبح والتعريف . وساقطة فى الإسكوريال .

لسان مرتاد ، وزلزال جبال أوْتاد ، ومُتلف مَذْخور لسلطان الشيطان وعَتاد ، أعلم فيه البطل الباسل ، وتورَّد الأبيض الباتر ، وتأوّد الأسمر العاسل ، ودوِّم الجَلْمَدُ المُتكاسل ، وانبعث من حَدَب الحنيَّة إلى هدف الرَّميَّة الناشر التاسل ، ورُويت لمُرْسلات السهام المَراسل ، ثم أفضى أمر الرماح إلى التَّشاجر والارتباك ، ونشبت الأَسنَّة فى الدُّروع نَشْب السَّمك فى الشُّباك ، ثم اختلط المَرْعى بالهمَل ، وعُزل الرُّدينى عن العَمَل ، وعادت السيوف من فوق المفارق تيجانا ، بعد أن شَقَّت غُدُر السَّوابغ خلجانا ، واتحدت جداول الدروع فصارت بحرا ، وكان التَّعانق ، فلا ترى إلاَّ نحراً يلازم نحراً ، عناق وَداع ، وموقف شَمْل ذى انصداع ، وإجابة مناد إلى فراق الابَد ودَاع . واستَكشفت مآل الصبر الأَنفس الشفَّافة ، وهبَّت بريح النصر الطلائع المُبشِّرة المفَّافة . ثم أمد السيل ذلك العُباب ، وصَقل الاستبصار الأَلباب ، واستخْلَص العزم صَفْوة اللُّباب ، وقال لسانُ النَّصر ادْخُلوا عليهم الباب ، فأصبحت طوائف الكفار ، حصايدَ مناجِل الشفار ، فمغافرهم[٢] قد رَضِيت حُرُماتها بالإخفار[٣] ، ورؤوسهم محطوطةٌ فى غير مَقام[٤] الاستغفار ، وعَلَت الرايات من فوق تلك الأَبراج المُسْتَطْرفة والأَسوار ، ورفرف على المدينة جَناح البَوار ، لولا الانتهاء إلى الحد والمقدار ، والوقوف عند اختفاء سر الأَقدار[٥] .

ثم عبرنا نهرها ، وشدَّدنا بيدى الله قَهْرها ، وضيَّقنا حَصْرها ، [وأدرنا بلآلىء القباب البيض خصرها][٦] ، وأقمنا بها أياما تحوم

(١) هكذا وردت فى التعريف والصبح . وفى الإسكوريال (الصبر) والأولى أرجح .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال والتعريف . وفى الصبح (فمفارقهم) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال والتعريف . وفى الصبح (بالإعقار) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال والتعريف . وفى الصبح (معالم) والأولى أرجح .

(٥) هكذا وردت فى التعريف وفى الإسكوريال والصبح (المقدار) والأولى أرجح .

(٦) هذه الجملة واردة فى الإسكوريال والتعريف . وساقطة فى الصبح .

عُقبان البُنود على فريستها جياماً . وندمى الأدواح[1] ببوارها . ونسلّط النيران على أقطارها . فلولا عائق المَطَر . لَحَصلنا من فتح ذلك الوطن على الوَطَر . فرأينا أن نَرُوضَها بالاجتِثاث والانتِساف . ونوالى على زروعها وربوعها ، كرّات رياح الاعْتِساف . حتى يتهيأ للإسلام لَوْك طُعْمَتها ، ويتهنَّأ بفضل الله . إرث نِعْمَتِها . ثم كانت عن موقفها الإفاضة بعد نحر النحور . وقذف جِمار الدّمار . على العدو المَدْحُور . وتدافعت خَلْفَنا [السَّيقات المُتَّسِقات][2] تدافع أمواج البُحور . وبعد أن ألحَحْنا على جنّاتها المُصْحِرة . وكرومها المُسْتَبْحِرة[3] . إلحاح الغريم . وعوّضناها المنظر الكريه [من المنظر الكريم][4] . وطاف عليها طائفٌ من ربِّك[5] فأصبحت كالصَّريم . وأغرينا حِلاق النار بحَمَم الجحيم[6] ، ورواكمنا فى أجواف أجوائها غَمايم الدُّخان ، تذكر طيِّبة البان بيوم الغَمِيم ، وأرسلنا رياح الغارات . لا تَذر من شىء أتَتْ عليه . إلاّ جعلته كالرميم ، واستقبلنا الوادى يهول مدًّا . ويرُوع سيفه الصقيل حدًّا . فيسَّره الله من بعد الإعواز . وانطلقت على الفُرْضَة . بتلك الفرصة . أيدى الانتهاز ، وسألنا من ساءله أسد بن الفرات[7] . فأفتى برجحان الجواز ، فعمَّ

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال والتعريف . وفى الصبح (الأرواح) . والأول أرجح .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال والتعريف . ووردت فى الصبح (السابقات المستقلات) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال والتعريف وفى الصبح (المشتجرة) .

(٤) هذه العبارة واردة فى الصبح والتعريف وساقطة فى الإسكوريال .

(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى الصبح (ربنا) .

(٦) هكذا فى الإسكوريال والتعريف . وفى الصبح (الحجم) والأول أرجح .

(٧) هو القاضى أسد بن الفرات بن سنان فاتح صقلية ، وأحد أكابر فقهاء المالكية ، ومؤلف كتاب الأسدية فى الفقه المالكى (١٤٢ - ٢١٣ هـ) . وقد ترجم له ابن الخطيب فى المجلد الأول من الإحاطة فليراجع هنالك .

الاكتساح والاستباح جميع الأحْواز ، فأُديل المصون ، وانتُهبت القرى وهُدِّمت الحصون ، واجْتُثّت الأصول وحُطِّمت الغُصون، ولم ترفع عنها إلى يوم غارة تُصافحها بالبُؤس ، وتُطْلع عليها غُررها الضّاحكة باليوم العَبُوس . فهى الآن مَجْرى السّوابق ومجر العوالى ، على التّوالى ، والحَسَرات تتجدَّد فى أطلالها البَوالى ، وكأن بها قد صُرعت ، وإلى الدعوة المُحَمَّدية قد أسْرعت ، بقُدْرة من أنزل القرآن على الجِبال ، فَخَشَعت من خِشْية الله وتصدّعت ، وعِزّة من أذعنت الجبابرة لعزّه وخَنَعت . وعُدنا والبُنود لا يعرف اللفُّ نَشْرَها ، والوجوه المجاهدة لا يخالط التّقطُّب(١) بِشْرَها ، والأيدى بالعروة الوثقى مُعْتَلقة ، والألْسُن بشكر نعم الله مُنْطَلِقة ، والسيوف فى مضاجع الغُمُود قَلِقة ، وسَرابِيل الدُّروع خَلِقة ، والجياد من ردِّها إلى المرابط(٢) والأوارى ردّ العَوارى حَنِقة ، وبعَبَرات الغيظ المَكْظُوم مُخْتَنِقة ، تنظر إلينا نَظَر العاتب ، وتعود من ميادين المَراح والاخْتِيال تحت حُلَل السِّلاح عَوْد الصِّبيان إلى المكاتب ، والطّبل بلسان العزّ هادِر ، والعزم إلى مُنادى العَوْد الحَميد مُبادر ، ووجود نوع الرِّماح من بعد ذلك الكِفاح ، نادر ، والقاسم ترتب بين يديه من السَّبى النوادر ، ووارِد مَناهِل(٣) الأُجور غير المُحَلاَّ ولا المهْجور(٤) غير صادر ، ومُناظر الفضل الآتى عقب أخيه المتأتّى على المطلوب المُواتى مُصادر ، والله على تَيْسير الصعاب وتَخْويل المِنَن الرِّغاب قادر ، لا إلٰه إلا هو ، فما أجْمَل لنا صُنْعه الخَفىّ ، وأكرم بنا لُطْفَه الحَفِىّ ، اللهم لا نحصى ثناءً عليك ، ولا نَلْجأُ منك إلاَّ إليك ،

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الصبح (التقطيب) .

(٢) واردة فى الصبح والتعريف . وساقطة فى الإسكوريال .

(٣) هكذا فى الإسكوريال والتعريف . وفى الصبح (منهل) .

(٤) وردت فى الإسكوريال (المهمور) والتصويب من الصبح والتعريف .

ولا نلْتمس خير الدنيا والآخرة ، إلاَّ لَدَيْك . فأَعد علينا عوائد نصْرك، يا مُبْدِى يا مُعِيد . وأعِنَّا من وسائل شكرك على ما يَنْثال[1] به المزيد ياحيُّ يا قيُّوم ، يا فعَّال لما يريد .

وقارنت رسالتكم الميمونة لَدَيْنا حذق[2] فتح ، بعُد صيتُه ، مُشْرَئِبٌّ لَيْتُه . وفخر من فوق النجوم المَواتم مبيته . عَجِبْنا من تـأَتِّى أَمَلِه الشَّارد، وقُلنا البركة فى قُدوم الوارد . وهو أنَّ ملك النصارى لاطَفنا بجُمْلة من الحصُون ، كانت من مملكة[3] الإِسلام قد غُصبت . والتَّماثيل فيها ببيوت الله قد نُصِبت . أَدالها الله بمحاولتنا الطَّيِّب من الخَبيث . والتَّوحيد من التَّثْليث . وعاد إليها الإِسلام عوْدة الأَب الغائب . إلى البَنات الحَبائب ، يَسْألُ عن شئونها . ويمسح دموع الرِّقة عن جُفونها . وهى للرُّوم خُطَّة خَسْف ، قلَّ ما ارتكبوها فيما نعلم من العهود . ونادرة من نوادر الوجود ، والىَ الله علينا وعليكم عوارف الجود . وجعلنا فى محاريب الشكر من الرُّكَّع السجود.

عرَّفناكم بمجملات أُمور تحتها تفسير ، ويُمْن من الله وتَيْسير . إذ اسْتِيفاءُ الجُزْئيات عسير . لنسرَّكم بما منح الله دينكم ، ونُتوِّجَ بعزِّ الملَّة الحنيفية جبِينَكم . ونخطب بعده دعاءَكم وتـأْمِينكم ، فإِن دُعاءَ المؤمن لأَخيه بظَهْر الغيب سلاحٌ ماضٍ ، وكفيل بالمواهب[4] المسئولة من المُنْعم الوهَّاب مُتَقاضٍ[5] ، وأنتم أولى من ساهم فى برٍّ ، وعامل الله بخلوص سرٍّ ، وأين يذهب الفضل عن بيتكم وهو صفة حيِّكم . وتراث مَيْتكم ، ولكم مزيَّة القِدَم ، ورسوخ القَدَم . والخلافة مقرُّها إيوانكم . وأَصحاب الإِمام مالك،

(١) هكذا فى الإسكوريال والتعريف . وفى الصبح (تنثـ) والأولى أرجح .

(٢) هكذا فى الإسكوريال والتعريف وفى الصبح (حذق)

(٣) هكذا فى الصبح والتعريف . وفى الإسكوريال (ملكة) .

(٤) هكذا فى التعريف . وفى الإسكوريال (للمواهب) .

(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى الصبح (ميقاض)

رضي الله عنه ، مستقرها قِيرَوَانكم[1] وهَجير المنابر ذكرُ إمامكم ، والتوحيد أعلام إعلامكم ، والوقائع الشهيرة فى الكفر ، منسوبة إلى أيّامكم ، والصحابة الكرام فتَحَةُ أوْطانكم ، وسُلالة الفاروق عليه السلام ، وشابِج سُلطانكم ، ونحن نستكثر من بَرَكة خطابكم ، ووُصْلة جنابكم ، ولولا الأعذار لوالَيْنا بالمُتَزَيِّدات تعريف أبوابكم . والله عزَّ وجلَّ ، يتولى عنا ، من شُكركم المحتوم ، ما قَصَّر فيه المكتوب منه عن المكتوم ، ويُبقيكم لإقامة الرُّسوم ، ويحلُّ محبتكم من القلوب محلَّ الأرواح من الجُسوم ، وهو سبحانه يصل سعدكم ، ويحرس مجدكم ، ويوالى نِعَمه عندكم . والسلام الكريم ، الطيِّب [الزاكى المبارك][2] البَّر ، العميم ، يخصكم كثيرا أثيراً ، ما أطْلع الصبح وجهاً منيراً ، بعد أن أرسل النَّسيم سفيراً ، [وكان الوميض الباسم][3] لأكواس الغمايم ، على أزهار الكمائم مديراً ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

وصدر عنى فى مخاطبة الشيخ الخطيب أبى عبد الله
ابن مرزوق جواباً عن كتابه :

ولما أن نـأتْ عنكم دِيارى   وحال البُعْد بينكم وبيـن
بعثت لكم سواداً فى بياضٍ   لأنظُركم بشىء مثل عيـنِ

بِمَ أُفاتحك يا سيدى ، وأَجلُّ عُدَدى [كيف أُهْدى][4] سلاماً فلا أحْذرُ ملاماً ، أو أنتخب لك كلاما ، فلا أجد لتَبِعَة التَّقصير فى حقِّك

(١) أعنى مدينة القيروان ، وقد اشتهرت بنبوغ عدد من ألمع أئمة الفقه المالكى وعلى رأسهم سحنون بن سعيد وتلميذه أبو زيد القيروانى .

(٢) هذه العبارة واردة فى التعريف وساقطة فى الإسكوريال والصبح .

(٣) هذه العبارة واردة فى الصبح والتعريف وساقطة فى الإسكوريال .

(٤) هذه العبارة واردة فى النفح ، وساقطة فى الإسكوريال .

الكبير إيلامًا . إن قلتُ تحيَّة كِسْرى فى الثَّناءِ وتُبَّع ، فكلمةٌ فى مرْبع العُجْمة ترْبَع ، ولها المصيفُ فيه والمَرْبع ، والجَمِيم والمَنْبَع ، فترْوى متى شاءت وتشبع . وإن قلت إذا العارض خطَرَ ، ومهما[1] هَمَى أو قَطَرَ ، سلام الله يا مَطَر ، فهو فى الشَّريعة بَطَر ، ومرْكَبه[2] خَطِر ، ولا يرعى به وطن ، ولا يقضى وَطَر . وإنما العِرْق الأوْشَج ، ولا يستوى البان والبنفسج ، والعوْسج والعَرْفج .

سلامٌ وتسليم وروح ورحمة عليك وممْدود من الظِّل سَجْسَج

وما كان فضلكم[3] ليمنعنى الكفران أن أشكره ، ولا ليُنْسِينى الشيطان أن أذكره ، فأتَّخذ فى البحر سبباً ، أو أسلك غير الوفاء مَذْهبا ، تأْبى ذلك ، والمنَّة لله تعالى طباعٌ ، لها فى مجال الرَّعى باع ، وتحقيق وإشْباع ، وسَوَايم من الإنصاف لها مرعًى فى رياض الاعتراف ، فلا يَطْرُقها ارتياع ، ولا تخيفها سِباع . وكيف تجحد تلك الحقوق ، وهى شمسٌ ظَهِيرة ، وأذانٌ عَقيرة جَهيرة ، فوق مِئْذنة شهيرة . أدت الأكْبادُ لها ديونٌ تستغرق الذِّمم ، وتسترقٌّ حتى الرِّمم ، فإن قضيت فى الحياة ، فهى الخُطَّة التى نرْتضيها ، ولا نقنع من عامل الدهر المساعد ، إلا بأن يُنَفِّذ مراسمها ويُمضيها ، وإن قُطع الأجل ، فالغنىُّ الحميد من خزَاينه التى لا تبيد ، يَقْضيها ويُرضى من يَقْتضيها . وحيَّا الله أيها العَلَم السَّامى الجلال ، زمنًا بمعرفتك المُبرَّة على الآمال أبرّ وأتْحَف ، وإن أساء بفراقك وأجْحَف ، وأغْرى بعد ما ألْحَف ، وأظْفر باليتيمة المذْخُورة للشدايد والمزاين ، ثم أوْحش منها أصْونة هذه الخزاين ، فآب حُنين الأمل بخفيه ، وأصبح

(١) هذه الكلمة واردة فى النفح ، وساقطة فى الاسكوريال .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (ركبه)

(٣) هكذا الإسكوريال . وفى النفح) فضلك)

المُغْرِب غريباً يقلِّب كفَّيه . ونستغفر الله من هذه الغفلات . ونستهديه دليلا فى مثل هذه الفلَوات . وأى ذنب فى الفِراق للزمن أو لِغراب الدِّمن . أو للرَّواحل المُدْلِجة ما بين الشَّام إلى اليمن . وما منها إلا عبدٌ مقهور . وفى رِمَّة القدر مَبْهور ، عِقْدٌ والحمد لله مشهور . وحجَّة لها على النفس اللوَّامة ظُهور . جعلنا الله ممَّن ذكر المُسَبِّب فى الأَسباب . وتذكر وما يذَّكر إلاَّ أولو الأَلباب ، قبل غلق الرَّهن وسدِّ الباب . وبالجملة فالفراق ذاتىٌّ ووعده مأْتى . فإن لم يَحُن فكأَن قد ، ما أَقرب اليوم من الغد . والمرءُ فى الوجود غريب ، وكل آت قريب ، وما من مقام إلا لِزيال من غير احتِيال ، والأَعمار مراحل والأَيام[1] أَميال .

نصيبُك فى حياتك من حبيب   نصيبُك فى مَنامك من خَيال

جعل الله الأَدب مع الحقِّ شأْنَنا ، وأَبعد عنا الفَرَق[2] الذى شَاننا ، وإنى لأُسرُّ لسيدى ، بأَن رَعى الله صَالح سَلَفه ، وتداركه بالتَّلاف فى تَلَفِه ، وخلَّص سعادته من كَلَفِه ، وأَحلَّه من الأَمن فى كَنَفِه ، وعلى قدرها تُصاب العَلْياءُ ، وأَشدُّ الناس بلاءً الأَنبياءُ ثم الأَولياءُ . هذا والخير والشَّر فى هذه الدار المؤسَّسة على الأُكدار . ظِلاَّن مُضْمَحلاَّن . فإذا[3] ارتفع ما ضرَّ أو ما نَفَع ، وفارق المكان ، فكأَنَّه ما كان . ومن كلمات الملوك البعيدة عن الشكوك ، إلى أن يشاءُ ملك الملوك :

خُذ من زمانك ما تيسَّر   واترك بجَهْدك ما تَعَسَّر
ولربَّ مُجمَل حالة   تُرْضى به ما لم يُفَسَّر
والدهر ليس بدائم   لابد أن سَيَسُوءَ إن سرَّ

(١) هذه الكلمة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (الفراق) . والأولى ارجح .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (فقد) .

واكتم حديثك جاهداً ... شَمتَ المُحدِّث أو تحسَّر
والناس آنية الزُّجا ... ج إذا عَثَرت به تكسَّر
لا تُعْدم التقوى فمن ... عَدِم التُّقى فى الناس أعْسَر
وإذا امرؤٌ خَسِر الإلـه ... فليس خلقٌ منه أخْسَر

وإنَّ لله فى رَغْيك لسرًّا ، ولُطْفاً مستمرا مستقرا [1] ، إذ ألقاك [بسر الرَّوع][2] إلى الساحل ، وأخذ بيدك من وَرْطة الواحل ، وحرَّك منك عزيمة الرَّاحل ، إلى المَلِك الحَلاحل ، فإذا لك من إبراهيميك سَمِيًّا ، وعَرْفُك بعد الوَلى وسْميا ، ونَقَلك من عناية إلى عناية ، وهو الذى يقول وقوله الحقُّ ، ما ننسخ من آية ، الآية . وقد وصل كتاب سيدى يَحْمد والحمد لله العواقب ، ويَصِف المراقى التى حلَّها والمراقب ، وينشر المفاخر الحَفْصِيَّة والمناقب ، ويذكر ما هيَّأه الله لديها من إقبال ، ورخاء بال ، وخصيصَى اشتمال ونُشور[3] آمال ، وأنه اغْتبط وارْتَبط ، وألقى العصا بعد ما خَبَط . ومثل تلك الخلافة العَلِيَّة من تزن الذوات ، المخصوصة من الله بشريف[4] الأدوات ، بميزان تَمْييزها ، وتفرِّق بين شِبْه المعادن وإبريزها ، وشِبْه الشيء مثلٌ معروف . ولقد أخطأ من قال الناس ظروف ، إنما هم شَجَرات مَرْبع[5] فى بُقْعة ما حِلة ، وإبل مائة لا تجد فيها راحلة ، وما هو إلاَّ اتفاق ، ونجح لِلْمُلك وإخفاق[6] ، وقلما كذب إجماع وإصفاق ، والجليس الصالح لربِّ السِّياسة أمل مطلوب ، وحظٌّ إليه

(١) واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .
(٢) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال . وساقطة فى النفح .
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (ونشوة) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (بتشريف) .
(٥) هكذا وردت فى النفح . وفى الإسكوريال (ربع) .
(٦) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (إحقاق) .

مجلوب . وإن سُئل أطْرَف ، وعَمَر الوقت ببضاعة أشْرَف . وسرق الطِّباع ومدَّ فى الحَسَنات الباع ، وسلَّى فى الخطوب ، وأضحك فى اليوم القطوب ، وهَدَى إلى أقوم الطُّرق ، وأعان على نوائب الحق ، وزرع له المودَّة فى قلوب الخَلْق ، زاد الله سيدى لديها قُرْبا أثيراً ، وجعل فيه للجميع خيرا كثيرا ، بفضله وكرمه . ولعِلْمى بأنَّه أبقاه الله يقبل نُصحى ، ولا يرتاب فى صدق صُبحى ، أغبطه بمثواه ، وأنشده ما حضر من البديهة فى مسارّة هُداه ونجواه :

بمقام إبراهيم عُذْ واصْرف له فكرا تورَّق عن بواعث تَعْتَرى(١)

فجواره حُرَمٌ وأنت حمــامةٌ ورقاء والأغصان عودُ المنبر

فلقد أمِنْت من الزمان ورَيْبــه وهو المُرَوَّع للمُسيء وللبَرى

وأن تشوَّف سيدى للحال(٢) ، فَلعَمْر وليِّه ، لو كان المطلوب دُنيا ، لوجب وقوع الاجْتِزاء ، ولاغْتَبط بما تحصَّل فى هذه الجُزور ،المبيعة فى حانوت الزُّور ، من السِّهام الوافرة الأجزاء ، فالسلطان رعاه الله ، يوجب ما فوق مزيَّة التعليم ، والولدُ هداهُم الله ، قد أخذوا بخط قلَّ(٣) أن ينالوه بغير هذا الإقليم ، والخاصَّة والعامة ، تُعامل بحسب ما بلَتْه من نُصح سليم ، وتركٍ لما بالأيدى وتَسْليم ، وتدبيرٍ عاد على عدُوِّهم(٤) بالعذاب الأليم ، إلاَّ من أبدى السلامة ، وهو من أبطان الحَسَد بحال السَّليم ، ولا يُنكر ذلك فى الحديث ولا فى القديم . لكن النفس منصرفة عن هذا الغرض ، ونافضةٌ يدها من العَرَض ، قد فَوَّتت الحاصل ، وَوَصَلت

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (تنبرى) .

(٢) واردة فى الإسكوريال . وساقطة فى النفح .

(٣) وردت فى الإسكوريال (قبل) والتصويب من النفح .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (عددها) .

فى الله القاطع ، وقَطَعت الواصل ، [وصَدَقت لما نَصَح الفودُ النّاصل](١) وتأهّبت للقاء الحِمام الواصل ، وقلت :

أُنظر خِضاب الشّباب قد نَصَلا   وزائر الأُنْس بعده انْفَصَلا
وطلبى والذى كَلِفْتُ بـه   حاولتُ تحصيلَه فما حَصَلا
لا أمل مُسْعِفٌ ولا عمـل   نحن فى ذا الموت قد وَصَلا

والوقت إلى الإمداد منكم بالدّعاء فى الأَصايل والأَسحار ، إلى مَقِيل شديد الافتقار ، والله عز وجل يَصل لسيدى رعى جوانبه ، ويتولى تَيْسير آماله ، من فضله العَمِيم ، ومآربه ، واقرا عليه من التّحيّات ، المُحَمَّلة من فوق رحال(٢) الأَريحيّات أزكاها ، ما أَوجع البرقُ الغمايمَ فأَبكاها ، وحَسَد الروض حمال النّجوم الزّواهر ، فقاسها بمَيْسم(٣) لأزاهر وحَكاها ، واضطّبن(٤) هِرَم اللّيل ، عند المَيْل ، عصا الجَوْزاء وتوكّاها ، ورحمة الله تعالى وبركاته ...

وخاطبت الفقيه الرئيس أبا زيد بن خلدون لما ارتحل من بحر ألمرية ، واستقر ببسكرة عند الرييس بها أبى العباس ابن مُزْنى صحبة رسالة خطبها أخوه أبو زكريا ، وقد تقلد كتابة الإنشاء لصاحب تِلمْسان ، ووصل الكُتُب عنه من إنشائه

بنفسى وما نفسى علىّ بهَيْنة   فيُنْزِلنى عنها المكاس بأثمان
حبيبٌ نأى عنى وصمٌّ لأنّتِى   وراش سهام البَيْن عمداً فأصْمانى

(١) هذه العبارة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .
(٢) واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (بمياسم) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (واضطبر) والأول أرجح .

وقد كان همُّ الشيب لا كان كافياً ... فقد آدنى لما ترحّل همّان

شرعتُ له من دمع عينى موردا ... فكدّر شربى بالفِراق وأظمانى

وأرعيتُه من حسن عهدى حميمه ... فأجْدَبَ آمالى وأوْحَش أزمانى

حَلَفت على ما عنده لى من رضًى ... قياسًا بما عندى فأحْنَث إيمانى

وإنّى على ما نالنى منه من قِلًى ... لأشتاق من لُقياه نُغْبَة ظمآن

سألت جنونى فيه تقريب عرشه ... فقِسْت بجن الشوق جِنّ سليمان

إذا ما دعا داعٍ من القوم باسمه ... وثَبْتُ وما استثبتُّ شيمة هَيمان

وتالله(١) ما أصغيتُ فيه لعاذِلٍ ... تحاميتُه حتى ارعوى وتحامانى

ولا استَشْعرتُ نفسى برحمة عابد ... تظلّل يوما مثله عَبْد رَحْمَان

ولا شعرت من قبله بتشوّقٍ ... تخلّل منها بين روح وجُثْمان

أما الشّوق فحدِّث عنه ولا حَرَج ، وأما الصبر فاسأل به أيّة دَرَج ، بعد أن تجاوز المدى والمُنعرج ، لكنَّ الشّدة تعشق الفَرَج ، والمؤمن ينشق من روح الله الأرج ، وإنى بالصّبر على أبرّ الدَّبْر ، لا بل الضرب الهبْر ، ومطاولة اليوم والشّهر ، تحت حكم القَهْر ، وهل لِلْعَين أن تسلو سُلُوَّ المُقْصِر عن إنسانها المُبْصر ، أو تَذْهل ذهول الزّاهد عن سرّها الرّائى والمشاهد ، وفى الجسد بضْعَةٌ يصلح إذا صلُحت ، فكيف حاله إذا رَحَلت عنه ونَزَحت ، وإذا كان الفراق هو الحِمام الأول ، فعلام المُعَوّل . أعْيَت مُراوضَة الفراق على الرّاق ، وكادت لوعة الاشتِياق أن تُفْضى إلى السّباق .

تركتمونى بعد تَشْييعكم ... أوسِع أمر الصّبر عصيانا

أقرع سنّى ندما تـارةً ... واسْتَميح الدمع أحيانا

وربما تعلّلت بغِشيان المعاهد الخالية ، وجدّدت رسوم الأسَى بمباكرة الرسوم البالِية ، أسَلُ نون النّوى ، عن أهْليه ، ومِيمَ الموقد المهجور عن

(١) هكذا وردت فى التعريف والنفح . وفى الإسكوريال (ووالله) .

مُصْطَليه ، وثاء الأثاف المثلّثة عن منازل الموحّدين ، وأحار بين تلك الأطلال حيرة المُلْحدين ، لقد ضللتُ إذاً وما أنا من المُهْتدين . كَلِفْتُ لعَمْرُ الله، بسالٍ عن جفونى المورَقة ، ونايم عن هُمومى المتجمِّعة(١) المتفرِّقة ، ظَعَن عن ملال ، لا مُتبرِّما منى بشرٍّ خِلال ، وكدّر الوصل بعد صفائه ، وضرّج النّصل بعد عهدوفائه .

أَقلَّ اشتياقا أيها القلب ربما(٢) رأيتك تصفى الودّ من ليس جازيا

فها أنا أبكى عليه بدم أساله ، [وأنْهَل فيه آسى له ، وأُعلِّل بذكراه قلباً صَدَعه](٣) وأودعهُ من الوجد ما أوْدَعَه ، لما خَدَعه ، ثم قَلاَه وودّعه ، وأُنْشِق ريّاه أنفَ ارتياح قد جَدَعه ، واستَعْديه(٤) على ظلم ابتدعه .

خليلىَّ هل أبْصَرتُما أو سَمِعْتما(٥) قتيلاً بكى من حبِّ قاتِله قَبْلى

فلولاعسى الرجاء ولعلّه ،لا بل شفاعة المحل الذى حلّه [لمزجتُ الحَنِين بالعَتْب](٦) ، وبثَثْت كتائبه كمُناء فى شعاب الكُتْب ، تهزُّ من الأَلِفات رماحا خُزْر(٧) الأسنة ، وتوتر من النّونات أمثال القِسىِّ المُرِنَّة ، وتقود [من مجموع الطِّرس والنفس](٨) بلْقا تردى فى الأعِنّة . ولكنه آوى

(١) هكذا وردت فى التعريف والنفح . وفى الإسكوريال (المجتمعة) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال والنفح . وفى التعريف (إنما) .

(٣) هكذا ورد ما بين الحاصرتين فى الإسكوريال والنفح . وفى التعريف كالآتى (واندب فى ربع الفراق آسى له ، وأشكو إليه حال قلب صدعه) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال والتعريف . وفى النفح (واستعدى به) .

(٥) هكذا وردت هذه الشطرة فى الإسكوريال والنفح . وفى التعريف كالآتى (خليل فيما عشتما هل أبصرتما) .

(٦) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال والنفح . ووردت فى التعريف كالآتى (لنشرت ألوية العتب) .

(٧) هكذا فى الإسكوريال والتعريف . وفى النفح (حذر) .

(٨) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال والتعريف . وفى النفح (من بياض الطرس وسواد النفس) .

إلى الحرم الأمين ، وتفيأً ظِلال الجوار ، المُؤمّن من معرّة الغِوار ، عن الشمال واليمين ، حَرَم الخلال(١) المُزْنِيّة ، والظِّلال اليَزَنيّة ، والهمم السَّنيّة ، والشِّيم التى لا ترضى بالدُّون ولا بالدَّنيّة ، حيث الرِّفد الممنوح ، والطَّير الميامِنُ يُزْجر لها السُّنوح ، والمثوى الذى إليه ، مهما تقارع الكرام على الضَّيفان ، حول جوابِى الجِفان المَيْل(٢) والجُنوح .

نسبٌ كأنَّ عليه من شمس الضحى   نوراً ومن فَلَق الصباح عمودا

ومن حلَّ بتلك المثابة ، فقد اطمأَن جَنْبه ، وتُغُمّد بالعَفْو ذنبه . ولله درُّ القائل

فوحقّه لقد انتدبت لوصفِه   بالبُخْل لولا أنَّ حُمصًا دارُه

بلد متى أذكُره تهتجْ لوعتى   وإذا قدحتُ الزَّند طار شَراره

اللهم غَفْرا [لا كُفْرا](٣) وأين قرارة النخيل من مثوى الأَقْلَف البَخيل ، ومَكْذَبة المَخِيل ، وأين ثانيةُ هَجَر من مُتَبَوَّإ مَنْ ألْحَد وفَجَر

من أنكر غيثاً منشؤه   فى الأرض فليس بمخْلِفها(٤)

فبنانُ بنى مُزْنى مزَنٌ   تنهلُ بِلُطف مُصرِّفها

مزنٌ مذ حَلَّ ببِسْكِرة   يوما نَطَقتْ بمصحَّفها

شَكَرت حتى بعبارتها   وبمَعْناها وبأحْرُفها

ضَحِكت بأبى العباس من   الأيام ثنايا زُخْرفها

وتنكَّرت الدنيا حتى   عُرفت منه بمُعرَّفها

بل نقول يا محلّ الولد ، لا أُقْسِم بهذا البلد ، وأنت حِلٌّ بهذا البلد ، لقد حلّ بَيْنُك عُرى الجَلَد ، وخلَّد الشوق بعدك يابن خلدون فى الصَّميم

(١) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى التعريف (الحلال) .

(٢) واردة فى التعريف والنفح . وساقطة فى الإسكوريال .

(٣) واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال والتعريف .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال والنفح . وفى التعريف (بنوء بمخلفها) .

من الخَلَد . فحيًّا الله زمنًا قُضِيَت بِرُقِ قُرْبِك زمانته ، واجتُليت فى صَدَف مجدك جُمانَته ، [ويا مَنْ لمشوقٍ لم تُقْض من طول](١) خُلَّتِك لُبانته ، وأهلا بروض أظلَّت أشتات معارفك بانَته ، فحمائمه بعدك تَنْدُب ، فيساعدها الجُنْدبُ ، ونواسمه تَرِقُّ فتَتَغاشى ، وعِشيّاته تَتَخافت وتتلاشى ، [ومُزْنه باكٍ](٢) وأدْواحه [فى ارتباك ، وحمائمه](٣) فى مأتم ذى اشتباك ، كأن لم تكن قمر هالات قِبابه ، ولم يكن أنسك شارع بابه ، إلى صَفْوة الظّرف ولُبابه ، ولم يسبح إنسان عينك فى ماء شَبابه . فلهفى عليك من دُرَّة اختَلَستْها يدُ النَّوى ، ومَطَل بردَّها الدهر ولَوى ، ونَعَق الغراب ببينها فى رُبوع الجَوى(٤) ،ونطق بالزَّجر(٥) فما نطق عن الهوى. وبأىِّ شىءٍ يُعتاض منك أيتها الرياض، بعد أن طما نهرك الفيَّاض ، وفهقت الحياض . ولا كان الشَّانئ المَشْنُوء ، والجَرِب المَهْنُوء ، من قطع ليل أغار على الصُّبح فاحْتَمل ، وشارك فى الذَّم الناقة والجمل ، واستأثر جَنحه ببدر النادى لما كَمَل . نشر الشِّراع فراع ، وأعمل(٦) الإسراع ، كأنما هو تمساح النِّيل، ضايق الأحباب فى البُرْهة ، واختطف لهم من الشطِّ نُزْهة العين وعين النُّزْهة . ولجَّج بها والعيون تنظر ، والغَمْر عن الاتباع يحظر ، فلم يقدر إلاَّ على الأسف . والتِماح(٧) الأثر المُنْتَسف ، والرجوع بملء

---

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال والنفح . ومكانها فى التعريف (وقضيت فى مرعى) .

(٢) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال والنفح وساقطة فى التعريف .

(٣) هذه الكلمات واردة فى التعريف وساقطة فى الإسكوريال والنفح .

(٤) هكذا فى النفح . وفى التعريف والإسكوريال (الهدى) . والأولى أرجح ، حسبما يبدو من الجملة التالية .

(٥) هكذا فى التعريف والإسكوريال . وفى النفح(وبالزخرف) .

(٦) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى التعريف (ووصل) .

(٧) هذه الكلمة واردة فى التعريف وساقطة فى الإسكوريال والنفح .

العَيْبة من الخَيْبة ، ووقر الجَسْرة من الحَسْرة . إنما نشكو إلى الله البثّ والحَزَن ، ونستمطر من عَبَراتنا المُزْن ، وبسَيف الرجاء نَصُول ، إذا أُشرِعت لليأس أسِنّة[1] ونصول :

ما أقدَر الله أن يُدنى على شَحَط ... من دارُه الحُزْنُ ممن دارُه صُول

فإن كان كلْمُ الفراق رَغِيباً ، لمّا نويت مَغيبا ، وجلّلت الوقت الهنىّ تَشْغِيبا ، فلعل الملتقى يكون قريبا ، وحديثه يروى صحيحاً غريبا . إيه [شُقّة النّفس] [2] كيف حال تلك الشّمايل المُزْهرة الخمايل ، والشِّيم الهامية الدِّيم ، هل يمرّ ببالها من راعَتْ بالبعد بالَه ؟ وأُخمدت بعاصف البَيْن ذُباله ، أو تَرْثى لشئون شأْنها سَكْبٌ لا يَفتر ، وشوقٌ يبتّ حبال[3] الصّبر ويَبْتُر ، وضنًى تقصر عن حُلله الفاقعة صَنْعاءُ وتستُر ، والأمر أعظم والله يَسْتُر . وما الذى يُضيرُك ، صينَ من لَفْح السموم نَضِيرُك ، بعد أن أضرمت وأشعلت وأوقدت وجَعَلت ، وفَعَلت فَعْلتك التى فَعَلت ، أن تَترفّق بذَماء ، أو تَرُدّ بنُغْبة ماءٍ أرماق ظِماء ، وتَتَعاهد المعاهد بتَحيّة يُشمّ عليها شَذا أنفاسك ، أو تنظر إلينا على البعد بمقلة حَوْراء من بياض قِرطاسك ، وسواد أنفاسك ، فربما قَنِعت الأنفس المحبة بخيال زُور ، وتَعلّلت بنوال مَنْزُور ، ورَضِيت لمّا لم تَصِد العنقاء بزَرْزُور .

يا من ترحّلَ والرياح[4] لأجله ... يُشتاق إن هبّت شذا ريّاهـا

تَحْيِى النفوس إذا بَعَثْت تحيةً ... فإذا عَزَمْت اقرأ « ومن أحْياها »

ولئن أحْيَيْت بها فيما سلف نفوسا تفديك ، والله إلى الخير يُهديك ،

---

(١) هذه الكلمة واردة فى التعريف . وساقطة فى الإسكوريال

(٢) هكذا وردت فى الإسكورْيال والنفح . وفى التعريف مكانها (أيه سيدى) .

(٣) هذه فى الإسكوريال والتعريف . وفى النفح (جلال) والأولى أرجح .

(٤) هكذا فى الإسكوريال والتعريف . وفى النفح (والنسيم) .

فنحن نقول معشر مُودِّيك(١) ، لنَّ ولا تجعلها بيضة الدِّيك ، وهذراً فإنِّى لم أجترىء على خطابك بالفِقر الفقيرة ، وأدللتُ لدى حُجُراتك برفع العَقِيرة ، عن نشاط بعثت مَرسومه ، ولا اغتباط بالأدب تُغرى بسياسته(٢) سُوسُه ، وانبساط أوحى إلىَّ على الفترة ناموسَه ، وإنما هو اتفاق جرَّته نَفْثة المصدور ، وهِناء الجَرِب المَجْدور [وخارقٌ لا](٣) مُخارق ، فثمَّ قياسٌ فارِق ، أو لحن غَنَّى به بعد البعد(٤) مخارق . والذى [هيأ هذا القَدَر](٥) وسبَّبه ، وسوَّغ(٦) منه المكروه وحبَّبه ، ما اقتضاه الصِّنو يحيى مد الله حياته ، وحَرَس من الحوادث ذاته — من خطاب ارتَشَف به هذه القريحة بلالَتها ، بعد أن رضِى عُلالَتها ، ورَشَح إلى الصِّهر الحضرمى سُلالتها ، فلم يسع إلاَّ إسعافه ، بما أعافُه ، فأمليت مُجيباً ، مالا يُعد فى يوم الرِّهان نجيبا ، وأسمعت وجيباً ، لمَّا ساجلت بهذه التُّرهات سحراً عجيبا ، حتى إذا أَلِفَ القلم العريان سَبْحه ، وجمح بِرْذَون الغزارة فلم أطِق كَبْحه ، لم أفق من غَمْرة غلُوِّه ، وموقف مَتْلُوِّه ، إلاَّ وقد تحيز لِفئتك ، مغترًّا بل مُعترًّا ، واستقبلها ضاحكاً مُفْتَرًّا ، وهشَّ لها برًّا ، وإن كان لونه(٧) من الوَجَل(٨) مُصْفَرًّا . وليس بأول من هجر ، فى التماس الوصل مِمَّن هَجَر ، أو بعث التَّمر إلى هجَر ، وأى نَسَب بينى اليوم وبين زُخْرف الكلام ، وإجالة

---

(١) هكذا فى الإسكوريال والتعريف و فى النفح (مريديك) .

(٢) هكذا فى التعريف والنفح . وفى الإسكوريال (بباسته) .

(٣) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال والنفح . وفى التعريف (وأن تعلل به) .

(٤) هكذا فى التعريف . وفى الإسكوريال والنفح (المهات) والأول أرجح .

(٥) هذه العبارة زائدة فى التعريف .

(٦) هكذا وردت فى الإسكوريال والنفح . وفى التعريف (سهل) .

(٧) هكذا فى التعريف والنفح . وفى الإسكوريال (كونه) .

(٨) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى التعريف (الخجل) .

جياد الأقلام ، فى محاورة الأعلام ، بعد أن حال الجريض دون القريض ، وشغل المريض عن التعريض ، واستولى(١) الكسل ، ونسلت(٢) الشعرات البيض ، كأنها الأسل ، تروع برقط(٣) الحيات ، سرب الحياة ، وتطرق بلدوات الغرر والشيات عند البيات . والشيب الموت العاجل ، وإذا ابيض زرع صبحته المناجل ، والمعتبر الآجل . وإذا اشتغل الشيخ بغير معاده ، حكم فى الظاهر بإبعاده ، وأسره فى مملكة عادِه ، فأغض أبقاك الله واسمح، لمن قصّر عن المطمح ، وبالعين الكليلة فالمح ، واغتنم لباس ثوب الثواب، واشفِ بعض الجوى بالجواب ، تولاك الله فيما استضفت وملكت ، ولا بعدت ولا هلكت ، وكان لك آيةً سلكت ، ووسمك من السعادة بأوضح السمات ، وأتاح لقاءك من قبل الممات . والسلام الكريم يعتمد جلال(٤) ولدى ، وساكن خلدى ، بل أخى ، وإن اتقيت عتبه وسيدى ، ورحمة الله وبركاته . [من محبه المشتاق إليه محمد بن عبد الله بن الخطيب ، فى الرابع عشر من شهر ربيع الثانى ، من عام سبعين وسبعمائه](٥) .

وخاطبتُ الفقيه أبا زكريا بن خلدون ، لما وُلّى الكتابة عن السلطان أبى حمو موسى بن زيّان، واقترن بذلك نصرٌ وصُنْعٌ غبطته به ، وقصدتُ بذلك تنفيقه وإنهاضه لديه :

تخص الحبيب ، الذى هو فى الاستظهار به أخٌ ، وفى الشفقة عليه ولد ، والولىّ الذى ما بعد قُرْب مثله أمَل ، ولا على بُعْده جَلَد ، والفاضل

(١) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى التعريف (وغلب حتى) .

(٢) هكذا فى التعريف والنفح .وفى الإسكوريال (ونصلت) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال والتعريف . وفى النفح (بمرط) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال والنفح ، وفى التعريف (حلال) .

(٥) الفقرة التى بين الحاصرتين واردة فى التعريف ،وساقطة فى الإسكوريال والنفح .

الذى لا يخالف فى فضله ساكنٌ ولا بَلَد، أبقاه الله ، وفاز فوزه ، وعصمتُه لها من توفيق الله سبحانه[1] عَمَد ، ومورد سعادته ، المسوغ لعادته ، [لا غَوْر ولا ثَمَد][2] ومدى إمداده من خزائن إلهام الله وسَداده ، ليس له أمَد ، وحُمِى فرحُ قلبه ، بمواهب من ربِّه [أن يطرقه كمد][3] تحية محلُّه من صميم قلبه بمحلِّه ، المنشئ رواق الشَّفقة ، مرفوعاً بعمد المحبَّة والثِقَة ، فوق ظَعْنه وحِلِّه ، مؤثرُه ومجلُّه ، المعتنى بدِقِّ أمره وجلِّه ، ابن الخطيب .
من الحضرة الجهادية غرناطة ، صان الله حُلالها ، ووقى هجير هجر الغيوم ظِلالها ، وعَمَر بأُسود الله أغيالها ، كما أغْرَى بمن كفر بالله صِيالها . ولا زائد إلاَّ مننٌ من الله تصوب ، وقوة يُستَردُّ بها المغصوب ، ويُخْفَض الصَّليب المَنْصوب . والحمد لله الذى بحمده يُنال المطلوب ، وبذكره تطمئن القلوب . ومودَّتُكم المودة التى غذَّتها ثدى الخُلوص بلِبانها ، وأحلَّتها حلائل المحافظة بين أعْيُنها وأجْفانها ، ومهدَّت مَوات إخواتها الكبرى أساس بُنيانها ، واستحقَّت ميراثها مع استصحاب حال الحياة إن شاء الله ، واتصال أزمانها ، واقتضاء عهود الأيام بيُمنها وأمانها.
ولله دَرُّ القائل :

فإن لم يَكُنْها أو تَكُنْه فإنَّــه ... أخُوها غذَّته أمه[4] بلبانهـا

وصَل الله ذلك من أجله وفى ذاته ، وجعله وسيلة إلى مَرْضاته ، وقُرْبة تنفع عند اعتبار ما رُوعى من سُنَن الجبَّار ومُفْتَرضاته . وقد وصل كتابكم

(١) هذه الكلمة زائدة فى النفح .
(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى النفح . وفى الإسكوريال (عمر لا ثمد) .
(٣) هكذا وردت هذه العبارة فى النفح . وفى الإسكوريال (لا يطوره كد) .
(٤) وردت فى الإسكوريال (أمها) . والتصويب من النفح .

الذى فاتح بالرَّيحان والرَّوح ، وحلَّ من مرسوم الحياة(١) محل البسملة من اللَّوح ، وأذن لنوافح الثناء بالبَوْح ، يشهد عدله بأن البيان يا آل خلدون ، سَكَن من مَثْواكم دار خُلود ، وقدح زَنْدًا غير صَلُود ، واستأْثر من محابركم السيَّالة ، وقُضُب أقلامكم الميَّادة الميَّالة ، بأَبٍ مُنجب وأمٍّ ولُود ، يقفو شانيه غير المشنُوِّ ، وفصِيله غير الجَرِب ولا المَهْنُو ، من الخطاب السلطانى ، سفينة مَنُوح ، إن لم نقل سفينة نوح . ما شيت من آمال أزواج ، وزُمَر من الفضل وأفواج ، وأمواج كرم تَطْفُو فوق أمواج ، وفنون بشائر ، وأَهْطاع قبائل وعَشائر . وضربٌ للمسرَّات أعيا السَّامر . فلله هو(٢) من قلم راعى نَسَب القَنا ، فوصل الرَّحم ، وأنجد الوشِيج المُلتَحم ، وساق بعصاه من البيان الذَّود المُزْدحم . وأخاف من شَذَّ عن الطاعة مع الاستِطاعة ، فقال لا عاصم اليوم من أمْر الله إلا من رحِم ، ولو لم يُوجب الحقُّ برقَه ورعْدَه ، ووعيدَه ووعدَه ، لأَوْجَبه بمَنِّه وسَعْده . فلقد ظهرت مخايل نُجْحه ، علاوة على نُصحه ، وَوَضحت محاسن صُبحه ، فى وحْشة الموقف الصَّعب وقُبْحه ، وصل الله له عوايد مِنَحه ، وجعله إقليدا كلما استقبل باب أمل وكَّله الله بفتحه . أما ما قرَّره ولاؤكم من حبٍّ زكا عن(٣) حبَّة القلب حبُّه ، وأنْبَته النبات الحسن ربُّه ، وساعده من الغَمام سَكْبُه ، ومن النَّسيم اللَّدن مَهبه ، فرسْمٌ ثبت عند المولى نظيرُه ، من غير معارض يُضيره ، وربما أَرْبى بتذييل مَزِيد ، وشهادة ثَابتٍ ويَزِيد . ولِم لا يكون ذلك ، وللقلب على القلب شاهد ، وكَوْنها أجنادًا مجنَّدة ، لا

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (الولاء)

(٢) زائدة فى النفح .

(٣) هكذا فى الإسكوريال وفى النفح (على)

يحتاج تقريره إلى ماهِد ، أو جُهْد جاهد . ومودّة الأُخوة سبيلها لا حِب ، ودليلها للدّعوى(١) الصادقة مُصاحب ، إلى ما سبق من فضل ولقاء ،ومُصاقبة(٢) سِقاء ، واعتقاد لا يُراع سربُه بذيب انتقاد ، واجتلاء شِهاب وقّاد ، لا يُحوج إلى إيقاد . إنما عاق عن مواصلة ذلك نوىً شطّ منها الشّطن ، وتَشْذيب لم يَتَعَيَّن معه الوطن . فلمّا تَعَيَّن ، وكاد صبح الحق أن يَتبَيَّن ، عاد الوَمِيض دَيْجُورا ، والثماد(٣) بَحْرًا مَسْجُورا ، إلى أن أعلق الله منكم اليد بالسَّبب الوثيق ، وأحلّكم بمَنْجى نيق ، لا يخاف من مَنْجنيق ، وجعل يراعكم لسعادة مُوسى ، معجزة تـأْتى على الخَبر بالعِيان ، فتخرُّ لثُعْبانها سَحَرةُ البيـان .

أيحيي سقَى حيث لَحْت الحيا	فنعم الشِّعابُ ونعم الرُّكون
وحـيًّا يراعك من آيـــــة	فقد حرّكَ القومَ بعد السُّكون
دعوتَ لخدمة موسى عَصاه	فجاءت تَلْقَف ما يـأْفكون
فأذْعن من يدّعي السِّحْر رغماً	وأسلم من أجْلِها المُشركون
وساعدك السّعد فيما أردت	فكان كما ينبغى أن يكون

فأنتم أَوْلى الأصدقاء بصلة السَّبب ، ورعْى الوسائل والقُرْب . أبقاكم الله وأيْدى الغِبْطة بكم عالية ، وأحوال تلك(٤) الجهات [بَلَدكم المهمات](٥) حالية ، ودِيم المسرّات من [أنعامكم المُدِرّات](٦) على معهود المبرّات ، المُتَوالية . وأما ما تَشوّفتم إليه من حال وليكم ، فـأملٌ مُتقلِّص الظِّل

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى النفح (للدعوة) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال. وفى النفح (نظافة)

(٣) هكذا فى النفح . وفى الإسكوريال (والمراد) والأولى أنسب المعنى

(٤) هكذا فى الإسكوريال ، وفى التفح (تلكم) .

(٥) هكذا وردت هذه العبارة فى النفح . ووردت محرفة فى الإسكوريال كالآتى (بدىدكم الى ات)

(٦) هكذا وردت فى النفح ، وفى الإسكوريال (أنقاسكم المبرات) وهو تحريف

وارتقابٌ لهجوم جَيْش الأَجل المُطل ، ومَقام على مُساورة الصِّل ، وعمل يُكذِّب الدعوى ، وطُمأْنينة تنتظر الغارة الشَّعْواء . ويدٌ بالمَذْخُور تفْتح ، وأُخرى تَجْهد وتمْنح ، ومرضٌ يزور فيَثْقُل ، وضعفٌ عن الواجب يَعْقِل . إلاَّ أن اللطايف تَسْتَروح ، والقلب من باب الرجاء لا يَبْرح . وربما ظَفِر اليائس[1] ، ولم تَضْطرد المقايس ، تدارَكنا الله بعفوه ، وأَوْرَدَنا من مَنْهل الرِّضا والقَبُول على صَفْوه ، وأذن لهذا الخَرْق فى رَفْوه . وأما ما طلبتم من انْتِساخ ديوان ، وإعمال بنان فى الإتْحاف بِبَيان ، فتلك عهودٌ لدىَّ مَهْجورة ، ومعاهدُ لا مُتَعهّدة ولا مَزُورة ، شَغَل عن ذلك خَوْضٌ يعلو لجَبُه ، وحِرْصٌ يقضى من لَغَط المانح عَجَبُه ، وهولُ جهاد تساوى جماديَّاه ورَجَبُه ، ولولا التماس أَجْر ، وتعلُّلٌ بربح تَجْر ، لقلت أهلاً بذات النِّحْيَيْن . فلهن شَكَتْ ، وبذلت المصون بسبب ما أمْسَكت ، فقلد ضحكَت فى الباطن ضِعْف ما بَكَتْ . ونستغفر الله من سوءِ انْتِحال ، وإيثار المِزاح بكلِّ حال . وما الذى ينتظر مِثْلى ممن عَرَف المآخذ والمتارك ، وجرَّب لما بَلِى المبارك ، وخَبَر مساءة الدُّنيا الفارِك . هذا أيها الحبيب ما وَسِعه الوقت الضيق ، وقد ذَهَب الشَّباب الرَّيِّق . فلْيَسْمَح[2] فيه معهودُ كمالك ، جعل الله مُطاوعة آمالك ، مطاوعةً يمينك لشِمالك ، ووطَّأ لك موطَّأ العزِّ ، بباب كلِّ مالك ، وقَرَن النُّجح بأَعمالك [وحَفِظك فى نفسك وأَهْلِك ومالِك][3] والسَّلام . من فلان .

* *

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (البائس) .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . ووردت فى النفح (فليسع) والأولى أرجح .
(٣) هذه الجملة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

وكتبت إلى الأولاد وهم بالمنكّب
صُحبة السلطان ، رضى الله عنه :

يا ساكنى مرْقى الشّـوانى	شوقى من بعدكم شَـوانى
ولا هِج الشّوق قد هَـوانى	من بعدكم فاقْتَضى هَوانى
كأنّـه مالـكاً عِنــانى	أنموذجٍ من أبى عِنـانْ
لقد كَفَـانى لقد كفـانى	باقٍ ذَمًا ذاهب كَفـانى
منّوا على الخَوْف بالأَمـانى	فأنتم جُملة الأَمـانى

إلى أىّ كاهن أتَنافر ، وفى أىّ ملعب أتجاول وأتَظافر ، وبين يَدَىْ أىّ حاكم أتَظالم فلا أتَغافر ، مع هذا الجَبَل ، الذى هو فى الشكل جَمَل ، حفّ به من الثّعب هَمَل ، سَنامه التامك أجْرد ، وذَنَبُه الشّابل كأنّه جملٌ يُطرد ، وعُنقه إلى مورد البحر يتعرّج ويتعرّد ، وكأنّما البِنْية بأعلاه ، خِلْرٌ فاتِنة ، أو برق غمامة هاتِنة ، استأْثر غير ما مرّة بأُنْسى ، وصارت عينُه الحميّة مَغْرِب شَمْسِى ، حتى كأَنّ هذا الشّكل من خِلْرٍ وبَعير ، وإن كان مَجاز مُستعير ، يتضمن شكوى البَيْن ، ويُفرّق بين المُحبين .

ما فـرّق الأَحبـاب	بعد الله إلاّ الإبـل
والنـاس يلمون غُراب	البَيْن لمّـا جَهـل
وما على ظَهْر غـرابِ	البَيْن تُنْضى الرّحـل
ولا إذا صـاح غرابٌ	فى الدّيـار ارْتَحل
وما غـراب البيـن	إلاّ ناقـةٌ أو جمـل

فأُقسم لولا أنّ الله ذَكر الإبل فى الكتاب الذى أُنزل ، وأَعْظَم الغاية بها وأَجْزَل ، لسَلَلْتُ عليه سلاح الدُّعاء ، وأغريت بهجره نفوس الرّعاء . وقلت أرانى الله إكسارك من بَعير فوق سَعير ، ولا سمحت لك عقبة إلا ندر والسعير ببُر ولا شَعير :

دعوت عليك لمّا عِيل صَبْرى   وقلبى قائل يا ربّ لا .. لا

نستغفر الله ، وأى ذنْب لذى ذَنَب شائل ، وليْثٍ مايل بازاءِ لجٍّ هايل، يَتَعاوَره الوَعْدُ والوعيد ، فلا يُبدى ولا يُعيد، وتمر الجهة والعِيد ، فلا يَسْتَدْبر ولا يَتَعَيَّد . إنما الذَّنب لدهرٍ يرى المجتمع فَيَغار ، ويُشنّ منه على الشّمل المَغار ، ونفوسٍ على هذا الغرض تُسانده وتُعينه ليبطُش ساعِده وتقاربه فيما يُريد فلا تُباعده :

ولقد علمتَ فلا تكن مُتَجَنِّيـا   إنَّ الفراق هو الحِمـام الأَول

حَسْبُ الأَحِبَّة أن يُفرِّق بينهم   صَرفُ الزمان فما لنا نَسْتَعْجل

لكنّ المحبّ جَنِيب ، ولغرض المحبوب سَلِيب.

ويحْسُن قُبْح الفعل إن جاء منكم   كما طاب عَرْفُ العُود وهو دخان

وقد قَنَعْت برسالة تُبلِّغ الأَنّة ، وتُدخل بغد ذلك الصِّراط الجنَّة ، وتُغيِّر لسانها عن شوق من دون عقله ، وتنظر عنى ، من بياض طِرسها ، وسَّواد نَفْسها بمُقْلة . وإن كان الجواب ، فهو الأَجر والثَّواب ، ولم أَر مثل شوق من نارٍ تُخْمد بِطِرسٍ يُلقى على أُوارها ، فيأْمَنَ عادية جوارها . لكنها نار الخليل ، ربما تمسَّكت من المعجزة بأَثر ، وعثرت على آثاره مع من عَثَر . جمع الله من الشمل بكم ما انتثر ، وأنسى بالعَيْن الأَثر ، وحرَس على الكل من مسُوقٍ وسَايق ، ومُوحشٍ ورايق ، سرُّ القلوب ، ومناخ الجَوَى المجْلُوب ، ومثارُ الأَمل المطلوب . ولازالت العِصمة تَنْسَدل فوق مثواه قِبابها ، والسعود تحمل فى أمره العلىّ مِنانها . فالمحبوب إليه حَبيب وان أساء ، وأَوْحَش الصباح والمساء

إن كان ماساءنى مما يسرُّكم   فعذِّبوا فقد اسْتَعْذَبْتَ تَعْذيبى

والسلام عليكم ما حَنَّ مَشُوق ، وتـأَوَّدَ لليراع فى رياض الرُّقاع قَضيبٌ

مَمْشُوق ، ورحمة الله وبركاته.

وأجاب عن ذلك الفقيه أبو عبد الله بن زَمْرك ، كاتب الدولة ، والوَلَدان عبد الله وعلى ، بما يستحسن فى غرض الرسالة وأبياتها .

فراجعت الثلاثة بما نصه :

أكرم بها من بنـاء بانِ ... أَرْسَخ فى الفخـر من أبان

أَجَبْنا لديهـا الرِّضا جنان ... من المعـانى جَنَى جِنـانى

أو جـِنىً للأكُفِّ دانٍ ... مـا للُمبارٍ به يـدان

أُقسم بالذِّكـر والمثـان ... مالك فيما سمعتُ ثانِ

مُـدامـة بـرَّة الأوان ... تشطُّ للقـول كلٌّ وان

تقول أوضاعُها للَّغو أن ... بالعِلم عن زينة الغَـوان

ياربِّ بارِكْ لمن بان ... فى الفِكر والقَلْب والبَنان

هكذا هكذا ، وبعَيْن الحسود القَذا ، تُسْتَشار الدُّرر الكامِنة ، وتُهاج القَرايح النَّائمة ، فى حِجر الغَفْلة الآمنة ، وتُقْتضى الدّيون من الطباع الضامِنة .

أُعيذها بالخَمْس من ولايد ... قد قُلِّدت بنُخُب القَلايد

أعيذها بالخمس من حَبايِب ... يُغَذِّين بالمراضِع الأطـايب

أُعيذها بالخمس من وجُوهٍ ... يَصُونها الله من المـكروه

ويا ماتِيح قَلْب القلوب أَرْوَيْتَ ، وصدق ما نويْتَ ، البيرُ بيرُك ، ذو حَفَرْت وذو طَوَيْت ، وما رَمَيْتَ إذ رميت ، ولو علمنا السَّراير ، لأعْدَدنا لهذا المَكِيل الغَراير ، ولو تحقَّقْنا إجابة السؤال ، والنَّسيج على هذا المِنْوال ، لفَسَحْنا الظروف لهذا النَّوال . ساجلنا الغُيُوث فشَحَحْنا ، وبارَزْنا اللُّيوث فافْتَضَحنا ، وصلينا والحمد لله على السلامة بما قَدَحْنا ، لا بل التمَسْنا

نغبه ، فأقطعنا تنوُّراً ، واقتبَسْنا جَذْوَةً فاقْبَسنا نوراً،وما كان عطاءُ ربِّك محظورا.

مَلَكَ الثلاثُ الآنساتُ عِنـانى ... وحَلَلْنَ من قلبى بكل مكان
هذى الهلالُ وتلك بنتُ المشترى ... حُسْنًا وهذى أُخت غصنِ البان[1]

متى كان أفق المنكِّب ، مَطْلعاً لهذا الكوكب ، وأَجَمَةُ ذلك الساحل الماحل ، مُرْتَبعاً لهذا الدُّمَّر الحلاحل ، ومورد الجَمَل البادى العُرُّ ، مغاصا لمثل هذا الدر ، إلاَّ أن يكون كنز هذا المَرام ، المُسْتَدعى لِلْكَلَفِ والغَرام ، من مُستودعات تلك الأهواء والأهرام ، دفنه الملك الغصَّاب ، بعد أن قُدِّست الأَنْصاب ، وأَخْفَى الأَثر فلا يُصاب ، أَو تكون الأَنوار هنالك تتجسَّم ، والحظوظ تُعَيَّن وتقسَّم ، والحقائق تحدُّ وتُرسم ، أَو تتوالد بتلك المغارات ، يُوسَانيا ورُوسم . أنا ما ظننت بأَن تثُور من آجمِ الأَقلام أُسود ، وتعبث بالسُّويداوات من نتائج اليَراع والدواة لحاظٌ سُود . من قال فى الإنسان عالَمًا صغيرا ، فقد ظلمه ، كيف والله بالقلم علَّمه ، ورفع فى العوالم عَلَمه ، لقد درَّت حَلَماتُ تلك الاقلام من رَسْل غزير ، وما كان فحلُ تلك الاقلام زِير ، ولا سلطان تلك الطِّباع المَدِيدة الباع ليسْتَظْهر بوزير . إنما هى مَشاكى كمال أَوْقَدها الله وأَسْرَجها ، وملكات فى القوة رجَّحها مرجِّح القوة فأَبْرَزَها ، إلى العقل وأَخْرَجها . وأَحْرِ بها أَن تَحُطَّ بذرى المدارك الإلهية رحالها ، وتترك إلى الواجب الحق مُحالها : فتتجاوز أَوْحَالها ، مستنيرة بما أُوحِى لها . إيه بَنِيَّة ، أُقسم بربِّ المنيَّة ، وقاسم

---

(١) هذان البيتان مطلع قصيدة تنسب إلى الخليفة هرون الرشيد، قالها فى ثلاث من جواريه . وقد علق عليها فيما بعد الخليفة الأندلسى الأموى سليمان المستعين، الذى تولى خلافة قرطبة من سنة ٤٠٣ ﻫ إلى سنة ٤٠٧ ﻫ ، بقصيدة مطلعها :

عجبا يهاب الليث حد سنانى ... وأهاب لحظ فواتر الأجفان

الحُظْوة السنيّة ، لقد فزتُ من نَجابتكم ، عند الْتِماح إجابتكم بالأُمْنِية ، فما أبالى بعدها بالمَنِيّة . وقاهُ الله عين الكمال من كمال ، وصان سُروجَه من إهمال ، واكْتَنَفه بالمزيد من غير يمينٍ وشمال ، كما سوّغ الفقير مثلى إلى فَقْرها زكاة جَمالٍ لا زكاة جِمال . ولعمرى ، وما عُمْرى علىّ بهين ، ولا الحِلف فى مقْطع الحقّ بمتعيّن ، لقد أحْقَب منها إلىّ ثلاث كتايب ، قادها النّصر جَنايب ، ألِفاتُها العُصِى ، ونُوناتُها القِسىّ ، وغاياتها المرام القَصِىّ ، ورقُومها الحَلْق ، وجيادُها قد فشا فيها البَلَق ، بحيث لا استظهار للشيخ إلا بشعب سِدر ، ولا افتراسَ إلا لمَرَقة قِدْر ، ودُرَيْد هذا الفن يُحمل فى خِدر .

سَلّت علىّ سيوفها أجفـانُه فلقيتهن من المَشِيب بمَغْفَر

فلولا تقدم العَهْد بالسَّلم ، لخيف من كَلِمها وقوع الكَلْم . أما إحداهن ذات القَتام ، والدّأج بالإعتام ، المستمدُّ سوادُها الأعظم من مِسْك الختام ، فعلّلت فريضَة نظامها بالزيادة ، وعلَت يدها بمَنْشُور السِّيادة ، ورَسْمِ شَنْشَنتها المعروفة لأخْزَم ، وجَادَها من الطّبع السِّماك والمَرْزَم ، وضفر أشجاعها المضفّرة لزومُ ما لا يَلْزم .

خدم اليراع بها فدَبَّجَهـا وسألتُ مجتهدا عن الغرض
فعلمتُ أن الصلح مَقْصِدُه لتزول بعضُ عداوة الرّبَض

وأما أُختُها التّالية ، ولدَّتُها الحافلة الحالية ، فنؤومٌ مكسالٌ ، ريقُها برُودُ سِلسال ، ومن دونها مواردُ ونُسال ، وذيب عسَّال ، وإن عُلِّلت بنقص فى النّظم ، وقد أخذت من البدايع بالكَظْم ، وامْتَكته المعانى امْتِكاك العَظْم . وأمّا الثالثة فكاعبٌ حسنها بالعقول مُتَلاعب ، بِنْت لَبُون ، لا لُهْمة حرب زَبون ، حيّاها الله وبيّاها ، فما أعطر ريّاها .

تَشِمُّ أرواح نجْد من ثِيابهم عند القُدوم لقُرْب العَهْد بالدّار

ولو قصَّرتْ لتُغُمِّد تقصيرُها ، وكثُر بالحق نصيرُها ، فكيف وقد أجادتْ ، وصَابَتْ غمامتها وجادَتْ . وقد شَكَرتْ على الجملة والتّفصيل، وعَرَفت منّة الباذل وجُهْد الفَصيل ، وطالَعَتْ مسايل البيان والتّحصيل ، وقابلت مُفضّض الضّحا بمُذَهّبِ الأَصيل . وأثْرَت يدى وكانت إلى تلك الفَقْر فقيرة ، ونبُهَت فى عينى الدُّنيا وكانت حَقِيرة ، ورجحت أن لا تَعْدَم هذه الأَسواق مُديرا ، ولا تَفْقِد هذه الآفاق روضةً وغديراً . وسأَلت لجملتكم المحُوطة للشّمل ، الملحوظة بعين السِّتر والحَمْل . عزًّا أثيرا ، وخيرا كثيرا ، وأمْنًا تحمدون منه فراشاً وثيرا(١) . وعُذْراً أيها الأَحباب ، والصّفو اللُّباب ، عن كَدْح سِنٍّ وكَبْرة وفَلٍّ استرجاع وعِبرة ، استرقته ولجّ الشّغبُ ذو النظام ، والخلق فراش يُكبُّون منى على حطام ، ورُسُل الفرنج قد غشى المنازل مُنْثالُها ، ونَبَحتها بالعشىِّ أمثالُها ، والمراجعات تشكو اللّبث ، والجُباة تستشعر المكيدة والخُبْث .

ولو كان همًّا واحدًا لبكيتُـه ولكنه هم وثانٍ وثـــالث

والله عزّ وجل يمتّع بأُنْسكم مَنْ عَدِم الاستمتاع بسِواه ، وقَصَر عليه مُتشَعّب هواه ، ويُبقى بَركة المولى الذى هو قطب مدار هذه الأَقمار ، والأَهلّة لا بل مركز فَلَك الملّة ، وسِجِلُّ حقوقها المستقلّة ، والسلام عليكم ما حَنّت النِّيب إلى الفِصال ، وتعلّلت أنفسُ المُحبِّين بذكران سِنة الوِصال ، وكرّت البُكُر على الآصال ، ورحمة الله وبركاته .

* * *

وكتبت إلى بعض الفضلاء ، وقد بلغنى مرضه أيام كنا اللحاق بالمغرب :

---

(١) وردت فى الإسكوريال (أثيرا) والتصويب أرجح .

وردَت علىّ من فِئتى التى إليها فى مَعْرك الدهر أتحيَّز ، وبفضل فضلها فى الأقدار المشتركة أتميَّز سحاءة سرّت وساءت ، وبلغت من القَصْدين ما شاءت ، أطلع بها صنيعة وُدِّه من شكواه على كل عابث فى السُّويداء ، موجبٍ اقتحام البَيْداء ، مُضْرمٍ نار الشَّفقة فى فُؤاد ، لم يبق من صبره إلاَّ القليل ، ولا من إفصاح لسانه إلاَّ الأنين والأليل ، ونوًى مُدَّت لغير ضرورة يرضاها الخليل ، فلا تَسَلْ عن ضَنين تطرَّقت اليدُ إلى رأس ماله ، أو عابدٍ موزعُ مُتَقَبَّل أعماله ، وأملٍ ضُويق فى فَذْلكة آماله . لكننى رجَّحت دليل المَفْهوم على دليل المَنْطوق ، وعارضت القواعد المُوحِشة بالفروق ، ورأيت الخطَّ يُبْهَر والحمد لله ويَرُوقْ ، واللفظ الحسن وَمَض فى حِبْره للمعنى الأصيل بُروق . فقلت ارتفع الوَصَب ، ورُدَّ من الصِّحة المُغْتَصب ، وكلَّة الحِسِّ والحركة هو العَصَب . وإذا أشرق سراجُ الإدراك ، حَمَل على سلامة سَليطه ، والرُّوح خليط البدن ، والمرءُ بِخَليطه ، وعلى ذلك فبَلِيدُ احتياطى لا يُقْنعه إلا الشَّرح ، فيه يسكن الظَّمأُ البَرْح . وعذراً عن التكليف ، فهو محل الاسْتِقصاء والاسْتِفْسار ، والإطناب والإكثار . وزَنْد القلق فى مِثلها أوْرَى ، والشَّفيق بسوء الظن مُغْرى . والسلام .

* * *

وخاطبت بعضَهم : كتبت إلى سيدى ، والخجل قد صبغ وجْهَ يَراعى ، وعقَّم ميلاد إنشائى واختراعى ، لمَكَارمه التى أعْيَتْ منَّة ذِراعى ، وعجز فى خَوْض بحرها سَفينى وشِراعى ، فلو كان فضلُه فنًّا محصورا ، لكنت على الشكر معانًا منصورا ، أو على غرضٍ مقصورا ، لزارت أسَدًا هصُورا ،

ولم يكن فكرى عن عَقايل البيان حَصُوراً ، لكنه نَجْدٌ تـألَّق بكل ثَنِيَّة ، ومكارمُ رمَت عن كلٍّ حَنِيَّة ، ومجد سبق إلى كل أُمْنِيَة ، وأيادٍ ببلوغ غايات الكمال مَعْنِيَّة . فَحسْبى الإلقاءُ باليد لغلبة تلك الأيادى ، وإسْلام قيادى إلى ذلك المجد السَّيادى ، وإعفاءُ يراعى ومِدادى ، فإذا كانت الغاية لا تُدْرك ، فالأوْلى أن يُلقى الكَدُّ ويُترك ، ولا يُعرَّج على الادِّعاء ، ويُصرف القول من باب الخَبَر إلى باب الدُّعاء . وقد وصل كتاب سيِّدى مُخْتصر الحجم ، جامعاً بين النَّجم والنَّجم ، قريبُ عهد من يَمينه بمجاورة المَطَر السَّجْم ، فقلت اللهم كلِّف سيدى وأَجْزِه ، ومدَّ يده بالضُّر فاخزه. ولله درُّ المثل ، أشبه امرؤ بعض بره كمالٌ واختصار ، وريحان أنوف وإثمد أبصار . أعلق بالأَّرعىّ الذى لا يُقر بُعْد الدار من شيمته ، ولا يَقْدح اختلاف العُروض والأقطار فى دِيمَته . إنما نفسه الكريمة والله يقيها ، وإلى معارج السعادة يُرَقِّيها ، قانون يلحق أدْنى الفضائل بأقصاها ، وكتابٌ لا يغادر صغيرة ولا كبيرةً إلا أحصاها . وإنى وإن عجزت عما خصَّنى من عُمومها ، وأحسَّنى من جُموحها ، لمخلِّدُ ذكرٍ يبقى وتذهبُ اللُّها ، ويُعلى مبانى المجد ، تُجاوز ذُوابها السُّها ، ويذيع بمخايل المُلْك فما دُونها ، ممادحُ يَهْوى المِسْك أن يكونها ، ويَقْطفُ له الروض المجُود غصونها ، وتُكْحِل به الحُور العَيْنُ عُيونها ، وتؤدى منه الأيام المتهرِّبة ديُونَها . وإن تشوَّف سيدى ، بعد حمده وشكره ، واستنفاد الوُسْع فى إطالة حَمْده ، وإطابة ذِكره ، إلى الحال ، ففلانٌ حفظه الله يشرح منها المُجْمل ، ويبيِّن من عواملها المَلْغِى والمُعْمَل . وإما اعتناءُ سيدى بالوَلَد المُكَفَّن بحرمته ، فليس ببدْع فى فى بُعْد صيته ، وعُلوِّ همَّته ، على من تمسَّك بأَذِمَّته ، وفضله أكبر من أن

يُقَيَّد بقصَّة ، وبَدْرُ كماله أجلُّ من أن يُعَدَّل بوسط أو حِصَّة . والله تعالى يحفظ منه فى الولاء ولىّ القِبلة ، وولىَّ المكارم بالكَسْب والجِبِلَّة ، ويجعل جيش ثنائه لا يُؤتى من القِلَّة ، بفضله وكرمه ، والسلام الكريم عليه ، ورحمة الله وبركاته . وكتب فى كذا .

ومن تشوف إلى الإكثار من هذا الفن ، فعليه بكتابنا المسمى « بريحانة الكتّاب ونُجْعة المُنْتاب »(١).

---

(١) هذا هو أهم كتب ابن الخطيب بعد الإحاطة ، من حيث القيم الأدبية والتاريخية . وهو يحتوى على عدد كبير من الرسائل المنوعة ، ما بين تاريخية تبودلت بين ملوك غرناطة والمغرب ، وتناولت وصف الوقائع والمعارك الحربية ، وأدبية ذات طابع شخصى . وتعتبر « الريحانة » معرضاً للأساليب الكتابية والبيانية ، الملوكية والدبلوماسية ، والظهائر الرسمية الدستورية والإدارية ، والأمل منوط بعون الله ، أن يشرع فى نشرها قريباً .

رسالة السياسة

[قال ابن الخطيب][1] ، ولنختم هذا الغرض ببعض ما صدر عنى فى السياسة [وكان إملاؤها فى ليلة واحدة][2] .

حدَّث[3] من امتاز باعْتِبار الأَخبار ، وحاز درجة الاشْتِهار ، بنقل حوادث الليل والنهار ، وولج بين الكمايم والأَزهار ، وتلطَّف لخجل الورد من تبَسُّم البَهار[4] .

قال ، سَهِر الرشيد ليلة ، وقد مال فى هَجْر النبيذ ميلةً ، وجهد ندماؤه فى جَلْب راحته ، وإلمام النوم بساحته ، فشحَّت عهادُهم[5] ، ولم يُغْن اجتهادُهم . فقال ، اذهبوا إلى طرق سمَّاها ورسمها ، وأُمهات قسمها ، فمن عَثَرتم عليه من طارق ليل ، أَو غثاء سَيْل ، أَو ساحب ذَيْل ، فبلِّغوه ، والأَمنة سوِّغوه ، واستدعوه ، ولا تَدَعوه . فطاروا عجالا ، وتفرقوا رُكبانا ورجالا ، فلم يكن إلا ارتداد طرف ، أَو فواق حرف ، وأَتوا بالغَنيمة التى اكتسحوها ، والبضاعة التى ربِحوها ، يتوسَّطهم الأَشْعَثُ الأَغبر ، واللُّج[6] الذى لا يُعبر ، شيخٌ طويل القامة ، ظاهر الاستقامة ، سَبْلته مُشْمطة ، وعلى أنفه من القُبح مَطَّة ، وعليه ثوبٌ مرقوع ، لطير الخَرْق عليه وقوع ، يُهَينم بذكرٍ مسموع ، ويُنْبى عن وقت مجموع .

---

(١) هذه العبارة من عندنا .

(٢) هذه العبارة واردة فى « ريحانة الكتاب » ، وقد وردت به رسالة السياسة فى لوحات ٢٤٢ — ٢٤٧ من مخطوط الإسكوريال رقم ١٨٢٠ الغزيرى . ورقم ١٨٢٥ ديرنبور .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الريحانة والنفح (حديث) .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال والريحانة . وفى النفح (النهار) .

(٥) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (عهودهم) .

(٦) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (اللجج) .

فلما مَثَل سلَّم ، وما نَبَس[١] بعدها ولا تكلَّم . فأشار إليه فقعد ، بعد أن انْشمر وابتعد ، وجلس ، فما استرقَّ النظر ولا اخْتَلس ، إنما حركة فكره ، معقودة بزمام ذِكره ، ولحظات اعتباره ، فى تفاصيل أخباره . فابتدَره الرشيد سائلا ، وانحرف إليه مائلا ، وقال ممَّن الرجل ، فقال فارسى الأَصل ، أعجمىُّ الجِنْس،عربىُّ الفَصْل · قال بلدك ، وأهلك وَوَلدك . قال ، أما الوَلَدُ ، فولد الدِّيوان ، وأما البلد ، فمدينة الإِيوان. قال النِّحلة وما أَعملت إليه الرِّحله ، قال [أما الرِّحلة فالاعتبار ، وأما النِّحلة فالأُمورالكِبار][٢]قال ، فنُّك ، الذى اشتمل علية دَنُّك ، فقال ، الحكمة فنىٌّ الذى جعلته أثيراً ، وأضجعت منه فراشا وثيرا،وسبحان الذى يقول :ومن يؤْتالحكمة ،فقد أوتى خيراً كثيراً ، وماسوى ذلك فتَبيعٌ[٣] ، ولى فيه مُصْطاف وتَرْبيع[٣] · قال فتعاضد جَذْل الرشيد وتوفَّر ، وكأنما غَشِى وجهه قطعة من الصبح إذا أَسْفر ، وقال ، مارأيت كاللَّيلة أَجْمع لأَمل شارد ، وأنْعم بمؤانسة وارد . ياهذا أنى سائلك ، ولن تخيب بعدُ وسايلُك ، فاخبرنى بما عندك فى هذا الأَمر الذى بُلينا بحمل أعبائه ، ومُنينا بمراوضة آبائه . فقال هذا الأَمر قلادةٌ ثقيله ، ومن خُطَّة العجز مُسْتقيلة ، ومُفتقرة[٤] لسعة الذَّرع ، وربط السياسه المدنية بالشرع ، يُفسدها الحلم فى غير محلِّه ، [ويكون ذريعةً إلى حله][٥] ويصلحها مقابلة الشكل بشكله :

---

(١) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (تنفس) .

(٢) هكذا وردت هذه الجملة فى الإسكوريال والنفح . ووردت فى الريحانة كالآتى (أما النحلة فالأمر الكبار وأما الرحلة فالاعتبار) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الريحانة والنفح (فتبع – ومرتبع) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (مفترقة) .

(٥) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال والنفح ، و ساقطة فى الريحانة .

ومن لم يكن سَبْعاً آكلا ، تداعَتْ سباعٌ إلى أكله

فقال الملك ، أجْمَلتَ ففصِّل ، وبَرِيت فَنَصِّل ، [وكِلْت فأوْصِل](١) وانثُر الحَبَّ لمن يُحَوْصِل ، واقسِم السياسة فنوناً ، واجعل لكل لقب قانوناً ، وابدأ بالرَّعيَّة ، وشروطها المَرْعيَّة . فقال : رعِيَّتُك ودائع الله قِبَلك ، ومرآة العدل الذى عليه جِبِلَّتك ، ولا تصل إلى ضَبْطهم [إلا بإعانته](٢) التى وهب لك . وأفضل ما استُدْعِيت به عَوْنُك فيهم ، وكفايته التى تكفيهم ، تقويمُ نفسك عند قَصْد تَقْويمِهم ، ورضاك بالسَّهر لتَنْويمهم ، [وحراسةِ كَهْلهم ورَضِيعهم ، والترفُّع عن تضْيِيعهم](٣) ، وأخذِ كل طبقة بما عليها ، ومالها ، أخْذًا يَحُوط مالها ، ويَحْفظ عليها كمالها ، ويُقْصر عن غير الواجب آمالها ، حتى تَسْتَشْعر عليُّها رأفتك وحَنانك ، وتعرف أوساطُها فى [النُّصب امتنانك](٤) وتحذر سِفْلَتُها سِنانك ، وحظِّر على كلِّ طبقة منها ، أن تتعدَّى طَوْرها ، أو تخالف دَوْرها ، أو تجاوز بأمر طاعتك فَوْرها . وسُدَّ فيها سُبُل الذريعة ، واقصر جميعها على خِدْمة الملك بموجب الشَّريعة ، وامنع أغْنِياءها(٥) من البَطَر(٦) والبِطالة ، والنظر فى شُبُهات الدين بالتَّمشدق والإطالة ، وليقلَّ فيما شَجر بين السلف(٧) كلامها ، وترفض ما ينبز به أعلامُها ، فإن ذلك يُسقط الحقوق ، ويرتِّب العُقوق . وامْنَعهم من فُحْش الحِرص والشَّره ، وتعاهَدْهم بالمواعظ التى

---

(١) ما بين الحاصرتين ساقط فى الإسكوريال ، ووارد فى الريحانة والنفح .

(٢) ما بين الحاصرتين وارد فى الإسكوريال والنفح . وساقط فى الريحانة .

(٣) ما بين الحاصرتين وارد فى الإسكوريال والنفح . وساقط فى الريحانة .

(٤) وردت فى الإسكوريال (النصف امتهانك) . والتصويب من الريحانة والنفح .

(٥) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (أعيانها) .

(٦) هذه الكلمة واردة فى الإسكوريال والنفح . وساقطة فى الريحانة .

(٧) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح والريحانة (الناس) والأولى ارجح .

تَجْلُو البصائر من الموه ، واحملهم من الاجتهاد فى العِمارة على أَحْسَن المذاهب ، وانههُم عن التحاسد على المواهب ، ورُضْهم على الإنفاق بِقَدْر الحال ، والتعزِّى عن الفائت ، فردُّه من المحال . وحذِّر[١] البُخْل على أهل اليسار ، والسَّخاء على أولى الإعْسار . وخُذْهم من الشَّريعة بالواضح الظاهر ، وامنعهم من تأْويلها مَنْع القاهر . ولا تُطْلق لهم التَّجمُّع على من أنكروا أمْرَه فى نواديهم ، وكُفَّ عنهم أكُفَّ تعدِّيهم . ولا تُبح لهم تغيير ما كرِهوه بأَيديهم . ولتكن غايتهم فيما توجَّهت إليه إبايَتُهم ، ونكَصَت عن الموافقة عليه رايَتُهم ، إنْهاؤه إلى من وكَلْتُه بمصالحهم من ثِقاتك ، المحافظين على أوقاتك . وقدِّم منهم من أَمِنْت عليهم مَكْرَه ، وحَمِدْتَ على الإنصاف شكره ، ومن كثُر حياؤه مع التَّأْنيب ، وقابل الهفوة باستقالة[٢] المُنِيب ، ومن لا يتخطى عندك محلَّه الذى حلَّه ، فربما عَمَد إلى المُبْرم فحلَّه . وحسِّن النِّية لهم بجَهْد الاستطاعة ، واغْتَفِر المكاره فى جنب حُسْن الطاعة . وإن ثار جرادُهم[٣] واخْتَلف فى طاعتك مرادُهم ، فتحصَّن لثورتهم ، واثْبَت لفَوْرتهم [فإذا سألوا وسَلُوا ، وتفرقوا وانْسَلُّوا ، فاحتقر كثرتهم ، ولا تُقِل عَثْرَتهم][٤] واجعلهم لما بين أيديهم وما خلفهم نَكالاً ، ولا تترك لهم على حِلْمك اتِّكالاً .

ثم قال : والوزير الصالح أفضل عُدَدِك ، وأوْصَل مَدَدِك [فهو الذى][٥] يصونُك عن الابْتِذال ، ومباشرة الأَنْذال ، ويَثِب لك على الفرصة ، وينوب

---

(١) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (حظر) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح والريحانة (باستنابة) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال والريحانة . وفى النفح (جوادهم) وهو تحريف .

(٤) ما بين الحاصرتين وارد فى الريحانة والنفح . وساقط فى الإسكوريال .

(٥) هكذا وردت هذه العبارة فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (فعند الرى) وهو تحريف.

فى تجرُّع الغُصَّة ، واستجلاء القِصَّة ، ويستحضر ما نَسِيتَه من أُمورك ، ويُغلِّب فيه الرأى بموافقة مأْمُورك ، ولا يَسَعُه ما تُمْكنك المسامحةُ فيه ، حتى يَسْتَوْفيه . واحذر مُصادمة تيَّاره ، والتجوُّز فى اخْتِياره ، وقدِّم استخارة الله فى إيثاره ، وارْسِل عيون الملاحظة فى آثاره ، وليكن معروف الإخلاص لدولتك ، مَعْقُود الرِّضاء والغضب برِضاك وصَوْلتك ، زاهداً عما فى يديك ، مؤثرا كلَّما يُزْلِف لديك ، بعيد الهمَّة ، راعياً للأَذِمَّة ، كامل الآلة ، محيطاً بالإيالة ، رحْب الصَّدر ، رفيع القَدْر ، معروف البَيْت ، نبيهَ الحىِّ والمَيْت ، مؤثراً للعدل والإصلاح ، دَرِبًا بحمل السِّلاح ، ذا خبرة بدَخْل المملكة وخَرْجها ، وظَهْرها وسَرْجها ، صحيح العَقْد ، متحرِّزاً من النَّقْد ، جادًّا عند لَهْوك ، متيقِّظاً فى حال سَهْوك ، يَلين عند غضبك ، ويَصِل الإسْهاب[1] بمقْتَضِيبك ، قلقًا من شكره دونك وحَمْده ، ناسبًا لك الأَصالة[2] بعَمْده . وإن أعيا عليك وجود أكثر هذه الخِلال ، وسبق إلى نَقِيضها شىءٌ من الاخْتِلال ، فاطلب منه سُكون النَّفْس وهدوئها ، وأن لا يرى منك رُتْبةً إلا رأى قَدْرَه دونها : وتقوى الله تَفْضُل شرف الانْتِساب ، وهى للفضائل فَذْلكةُ الحِساب . وساوِ فى حِفْظ غَيْبه بين قُرْبه ونَأْيه ، واجعل حظَّه من نِعْمتك موازيا لحظِّك من حُسْن رأْيه ، واجتَنِب منهم من يرى فى نفسه إلى المُلْك سبيلا ، أو يقُود من عِيصه للاستظهار عليك قَبِيلاً ، أو من كاثر مالك مالَه ، أو من تقدم لعدوِّك[3] استِعْماله ، أو من سَمَتْ لسواك آماله ، أو من يَعْظُم[4] عليه إعراض وجهك ، وبهمِّه نادرة[5]

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (الأسباب) .

(٢) هكذاوردت فى الإسكوريال . وفى الريحانة والنفح (الإصابة) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (لعدوانك) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (يعرض) .

(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى الريحانة والنفح (نادر) .

نَهْجِك[١] ، أو من يُداخل غير أَحْبابك ، أو من ينافس أحداً ببابك .

(وأما الجند) فاصْرِف التَّقويم[٢] منهم للمقاتلة والمكايدة المُخاتلة ، واسْتَوف عليهم شرائط الخِدمه ، وخُذْهم بالثَّبات للصَّدْمة ، ووفِّ ما أوْجَبْت لهم من الجِراية والنِّعْمة ، وتعاهدهم عند الغِناءِ بالعَلَفِ والطُّعمة ، ولا تُكرِّم منهم إلاَّ من أكرمه غناؤه ، وطاب فى الذَّبِّ عن ملَّتك ثناؤه ، ودلَّ عليهم النُّبهاءُ من خِيارهم ، واجتهد فى صَرْفهم عن الافتِنان بأَهْلِهم ودِيارهم ، ولاتوطِّئهم الدَّعة مهاداً ، وقدِّمهم على حِفْظك[٣] وبُعوثك متى[٤] أردتَ جهادًا ، ولا تُلِن لهم فى الإغماض عن حُسْن طاعتك قيادًا ، وعوِّدهم حُسْن المواساة بأَنفسهم اعتيادا ، ولا تسمح لأَحد منهم فى إغفال شيءٍ من سلاح اسْتِظْهاره ، أو عُدَّة اشْتِهاره ، وليكن ما فَضَل عن شَبعهم وريِّهم مصروفاً إلى سِلاحهم ، وزِيِّهم ، والتَّزيُّد فى مراكبهم وغِلمانهم ، من غير اعْتِبار لأَثمانهم . وامْنَعهم من المُسْتَغَلاَّت[٥] والمتاجر ، وما يُتَكسَّب منه غير المشاجر ، وليكن من الغَزْو[٦] اكتسابُهم ، وعلى المغانم حسابُهم ، كالجوارح التى تُفْسد باعتيادها ، أن تُطْعَم من غير اصْطِيادها . واعلم أنها لا تَبذل نفوسها من عالم الإنسان ، إلاَّ لمن يملك قلوبها بالإحسان ، وفضل اللِّسان ، ويملك حركاتَها بالتَّقويم ، ورتبَها بالميزان القَوِيم[٧] ، ومن تثق بإشفاقها[٨] على أولادها ، وتشترى رضا الله بصبرها على طاعته وجلادها.

---

(١) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (نجهك) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال والريحانة . وفى النفح (التقديم) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الريحانة والنفح (حصصك) . والأولى أرجح .

(٤) هكذا فى الريحانة وفى الإسكوريال والنفح (مهمى) والأولى أرجح .

(٥) وردت فى الإسكوريال والنفح (المشغلات) . والتصويب من الريحانة .

(٦) وردت فى الإسكوريال والريحانة (الفراز) والتصويب من النفح .

(٧) هذه الكلمة واردة فى الإسكوريال والنفح . وساقطة فى الريحانة .

(٨) هكذا وردت فى الريحانة . وفى الإسكوريال والنفح (إشفاقه) والأولى أنسب .

فإذا استَشْعَرْت لها هذه الخلال ،تد قدمتك إلى مواقف التَّلف ، مطيعةً دواعى الكَلَف ، واثقةً منك بحسن الخُلَف. واسْتَبق إلى تمييزهم استِباقا، وطبِّقهم طِباقا ، أعلاها من تـأمَّلت منه فى المحاربة عنك إحظارا ، وأبعدهم فى مَرْضاتك مطارا ، واضْبُطهم لما تحت يدك من رجالك حَزْماً ووقاراً ، واستهانةً بالعظايم واحتقاراً ، وأحْسنِهم لمن تُقَلِّده أمْرَك من الرعيَّة جوارا، إذا أَجَدْت اختيارا ، وأشدِّهم على مُماطلة من مارسه من الخوارج عليك اصْطِبارا . ومن بَلِى فى الذبِّ عنك إحْلاءً وإمْراراً ، ولحقه القَّبر فى معارك(1) الدفاع عنك مِراراً . وبَعْده من كانت محبَّته لك أكثرَ(2) من نَجْدته ، ومَوْقع رأيه أصْدَق(3) من موقع صَعْدته . وبعْده من حَسُنَ انْقِيادُه لأُمرائك وإحْمادُه(4) لآرائك ، ومن جعل نفسه من الأَمر حيث جعلته ، وكان صبرَه على ما عراه أكثر من اعْتِداده(5) بما فعله . [واحذر منهم من كان عند نفسه أكبرَ من مَوْقِعه فى الانتفاع ، ولم يستح من التزيُّد بأضعاف مابذله من الدِّفاع ، وشكى البخْس](6) فيما تعذَّر عليه من فوائدك ، وقاس بين عوايد(7) عدوِّك وعوايدك ، وتوعَّد بانتقاله عنك وارْتِحاله ، وأظهر الكراهية لحاله .

(وأما العُمَّال) فإنهم يبينُون(8) عن مَذْهَبك ، وحالهم فى الغالب

---

(1) هكذا وردت فى الإسكوريال والريحانة . وفى النفح (معارض) .
(2) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الريحانة والنفح (أزيد) .
(3) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الريحانة والنفح (أنفع) .
(4) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (واعتماده) .
(5) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (صبره) .
(6) ما بين الحاصرتين كله ممحو فى الإسكوريال . وقد اعتمدنا فى نقله على الريحانة والنفح .
(7) هذه الكلمة ساقطة فى الإسكوريال .
(8) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الريحانة والنفح (يميلون) .

شديدة الشَّبَه بك ، فعرِّفهم فى أمانتك السَّعادة . وألزمهم فى رعيَّتك العادة ، وأنزِلهم من كرامَتِك بحسب منازلهم فى الاتِّصاف بالعدل والإنصاف ، وأَحِلهم من الحِفاية ، بنسبة مراتبهم من الأمانة والكِفاية ، وقِفْهم عند تَقْليد الأرجاء مواقف الخوف والرَّجاء ، وقرِّر فى نفوسهم أن أعْظَم ما به إليك تقرَّبوا ، وفيه تدرَّبُوا ، وفى سبيله أعْجَمُوا وأعْرَبُوا ، إقامة حقٍّ ، ودَحْض باطل ، حتى لا يشكو غَريم مَطْلٍ ماطل ، وهو آثرُ لديك من كل رِباب هاطِل . وكُفَّهم من الرِّزق الموافق عن[1] التصدى لدنىِّ المرافق . واصْطَنع منهم من تيسَّرت كُلْفتُه ، وقويت للرعايا أُلْفَته ، ومن زاد على تَأْميله صبره ، وأَرْبَى على خَبَره خُبْره ، وكانت رغبته فى حُسْن الذِّكر ، تَشِفُّ على غيرها من بنات الفِكر : واجتنب منهم من غلب عليه التَّخرُّق[2] فى الإنفاق ، وعدم الإشْفاق ، والتنافس فى الاكْتِساب ، وسهُل عليه سوءُ الحِساب ، وكانت ذريعته المُصانعة بالنِّفاية ، دون التَّقَصِّى[3] والكِفاية ، ومن كان منشؤه خاملاً ، ولأَعْباءِ الدَّناءة حامِلاً ، وابْغ[4] من يكون الاعتذار فى أعماله ، أوْضَح من الاعتذار فى أقواله ، ولا يَفْتننَّك من قلَّدته اجتلاب الحظِّ المُطمِع[5] ، [والتَّنفُّق بالسَّعى المُسْمع][6] ومخالفة السُّنَن المرعيَّة [وإتْباعِه رضاك بسُخْط الرعيَّة][7] ، فإنه قد غَشَّك من حيث بلَّك ورشَّك ، وجعل مَنْ

---

(١) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (عند) .

(٢) واردة فى الإسكوريال والنفح . ومكانها بياض فى الريحانة .

(٣) واردة فى الريحانة والنفح . ومكانها بياض فى الإسكوريال .

(٤) هكذا وردت فى النفح . وفى الريحانة (وانع) . ومكانها بياض فى الإسكوريال .

(٥) هكذا فى الإسكوريال والريحانة . وفى النفح (المقنع) .

(٦) هكذا وردت هذه العبارة فى الريحانة والنفح . ووردت محرفة وناقصة بالإسكوريال كالآتى (التذ بالله عن المسمع) .

(٧) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال والنفح . وساقطة فى الريحانة .

يمينك فى شمالك، حاضر مالك. ولا تَضْمن عاملاً مال عمله ، وحل بينه فيه وبين أَمَلِه ، فإنَّك تُميت رُسومك بمحْياه ، وتُخْرجُه من خدمتك فيه إلاَّ أن تملِّكَه إيَّاه . ولا تجْمَع له فى الأعمال ، فيُسْقِط استِظْهارك ببلَدٍ على بلد ، والاحتجاج[1] على والد بولَد ، واحْرِص على أن تكون فى الولاية غريباً ، ومُتَنقَّله[2] منك قريبا ، ورَهِينةً لا يزال معها مُريباً ، ولا تتقبل[3] مصالحتَه على شيء اختَانَه[4] ، ولو برغيبة فَتانه ، فتقبل المصانعة فى أمانتك ، وتكون مشاركاً فى خِيانتِك ، ولا [تُطِل مدَّة][5] العمل ، وتعاهَدْ كشف الأُمور ممَّن يرعى الهمل ، ويبلغ الأمل .

(وأما الولد) فاحسن آدابهم ، واجعل الخير دَأْبهم ، وخِفْ عليهم من إشفاقك وحنانك، أكثر من غِلْظَة جَنانك ، واكتم عنهم مَيْلك ، وأَفِضْ عليهم جُودك ونَيْلك ، ولا تستغرق بالكَلَف بهم يومك ولا ليلك ، وأَثِبْهم على حُسْن الجواب [وسبِّق إليهم][6] خوف[7] الجزاء على رجاء الثواب ، وعلِّمهم الصبر على الضَّرائر ، والمُهْلة عند استخفاف الجرائر ، [وخذ لهم][8] بحسن السَّرائر ، وحبِّب إليهم مَراس الأُمور الصعبة المراس ، وحصِّن الاصطناع والاغتراس[9] ، والاستكثار من

---

(١) هكذا وردت فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (احتجاج) .

(٢) هكذا وردت فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (وبشغله) .

(٣) كذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (تعمل) والأولى أنسب .

(٤) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (اختاله) والأولى أرجح

(٥) هكذا وردت هذه العبارة فى الريحانة والنفح . فى الإسكوريال (تصل سدة) .

(٦) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (وسولهم) .

(٧) واردة فى الريحانة والنفح . ومكانها بياض فى الإسكوريال .

(٨) هكذا فى الإسكوريال . وفى الريحانة والنفح (وخذهم) .

(٩) هكذا فى الإسكوريال والريحانة . وفى النفح (والاحتراس) .

أولى المراتب والعلوم ، والسّياسات[١] والحُلوم ، والمقام المعلوم ، وكرِّه إليهم مجالسة المُلْهين ومصاحبة السّاهين[٢] ، وجاهد أهواءهم عن عقولهم ، واحْذَر الكذب على مَقُولهم ، ورشّحهم إذا أنِسْت منهم رشَدًا أو هدْيًا ، وأرضعهم من المُؤازرة[٣] والمُشاورة ثَدْياً ، لتمرّنهم على الاعتياد ، وتحملهم على الازْدِياد ، ورُضْهم رياضة الجياد ، واحذر عليهم الشهوات فهى داؤهم ، وأعداؤك فى الحقيقة وأعداؤهم . وتدارك الخُلُق الذّميمة كلما نجمت ، [واقْدَعها إذا هجمت][٤] ، قبل أن يظهر تَضْعِيفُها ، ويقوى ضعيفها ، فإن أعجزتك فى صِغرهم الحيل ، عظُم الميل .

إن الغصون إذا قوّمتها اعتدلت ولن تَلين إذا قوّمتها الخُشُب

وإذا قدروا على التدبير ، وتَشَوَّفوا للمحل الكبير ، فلا[٥] تُوطِنهم فى مكانك [جهْد إمكانك][٦] ، وفرّقهم [فى بُلدانك][٧] ، تفريق عُبْدانك . واستعملهم فى بعوث جهادك ، والنيابة عنك فى سبيل اجْتِهادك ، فإنّ حَضْرتَك تُشْغلهم بالتّحاسد ، والتّبارى والتّفاسد . وانظر إليهم بأعين الثّقات ، فإن عين الثقة ، تُبْصر ما لا تبصر عين المحبّة والمَقة[٨] .

(وأما الخدم) فإنهم[٩] بمنزلة الجوارح التى تُفَرَّق بها وتجمع ، وتُبصر وتسمع ، فرُضْهم بالصدق والأمانة ، وصُنْهم صَوْن الجَفانة ،

(١) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (والسياسة) .
(٢) واردة فى الريحانة والنفح . ومكانها بياض فى الإسكوريال .
(٣) واردة فى الريحانة والنفح . وساقطة فى الإسكوريال .
(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (واقرعها كلما هجمت) .
(٥) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح (إياك أن) .
(٦) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال والنفح . وساقطة فى الريحانة .
(٧) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (بجلد انك) وهو تحريف .
(٨) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (المبقة) .
(٩) هكذا فى النفح . ووردت فى المخطوطين (فهم) والأولى أفصح .

وخذهم بحسن الانقياد ، إلى ما آثرته ، والتقليل مما استكثرته . واحذر منهم من قويت شهواته ، وضاقت عن هواه لَهْواته ، فإن الشهوات تنازعك فى اسْتِرقاقه ، وتشاركك فى اسْتِحقاقه . وخَيْرهُم من سَتَر ذلك عليك[1] بلطف[2] الحيلة[3] ، وآداب للفساد مخيلة . وأَشْرب قلوبهم أن الحقَّ فى كلِّ ما حاولته واستنزلته ، وأن الباطل فى كلِّ ما جانَبْتَه واعتزلتَه ، وأن من تَصفَّح منهم أمورك فقد أَذْنَب ، وبايَن الأَدب وتجنَّب . وأَعطْ من أَكْدَدْته ، وأَضَفْتَ منهم مُلْكه وشدَّدته ، رَوْحة يشتغل فيها بما يُغنيه ، على حَسَب[4] صعوبة[5] ما يُعانيه ، تُغْبطهم فيها بمسارحهم ، وتُجمُّ كليلة جوارحهم . ولتكن عطاياك فيهم بالمقْدار الذى لا يُبْطر أعلامَهم ، ولا يُؤْسِف[6] [الأَصاغر فيُفْسِد][7] أَحلامهم ، ولا تَرْم محسنهم بالغاية من إحسانك ، واترك لمزيدهم فَضْلةً من رِفْدك ولِسانك . وحذِّر عليهم مخالفتك ولو فى صلاحك بحدِّ سلاحك . وامنعهم من التَّواثُب والتَّشاجر ، ولا تحمد لهم شِيَم التَّقاطع والتَّهاجر ، واستخلص منهم لسرِّك[8] من قلَّت فى الإفشاء ذنوبه ، وكان أَصبرهم على ما يَنُوبه ، ولودائعك من كانت رغبتُه فى وظيفة لسانك ، أكثر من رغبته فى إحْسانك ، وضَبْطُه لما تقلَّده من وديعتك ، أَحبُّ إليه من حُسْن صَنِيعتك . وللسِّفارة عنك من حَلا الصدق فى فمه ، وآثره ولو بإخطار دَمِه ، واسْتَوفى لك وعليك

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الريحانة (عنك) . وفى النفح (عنه) .
(٢) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (بحسن) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (حيلة) .
(٤) هذه الكلمة ساقطة فى الإسكوريال وواردة فى الريحانة والنفح .
(٥) ساقطة فى الريحانة . وواردة فى الإسكوريال والنفح .
(٦) هكذا وردت فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (يؤنب) .
(٧) واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .
(٨) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (لحديثك) .

فَهْم ما تحمله ، وعُنى بلفظه حتى لا يهمله ، [ولمن تُودعه أعداء](١) دولتك، من كان مقصور الأَمل ، قليل القول صادق العمل ، ومن كانت قسْوته زائدة على رَحْمته ، وعَظْمُه فى مَرضاتك آثر من شَحْمته ، ورأيه فى الحذر سَدِيد ، وتحرُّزه من الحِيل شديد . ولخدمتك فى ليلك ونهارك من لانَتْ طباعه ، وامتدَّ فى حسن السَّجية باعه ، وآمَن كيدُه وغدرُه ، وسَلم من الحِقْد صَدْره ، ورأى المَطامع فما طمع ، واستَثقَل إعادة ماسمع ، وكان بَريًّا من المَلال ، والبِشْرُ عليه أَغلبُ الخِلال . ولا تؤنسهم منك بقَبيح فعل ولاقول ، ولاتُؤْسِهم من طَوْل . ومكِّن فى نفوسهم أنَّ أَقوى شُفَعائهم ، وأَقرب إلى الإجابة من دُعائهم ، إصابة الغرض فيما به وُكِلوا ، وعليه شُكِّلوا ، فإنَّك لاتعدم بهم انْتِفاعا ، ولايَعْدمون لديك ارتفاعا .

(وأما الحُرَم) فهم مَغارس الولد ، ورياحين(٢) الخَلَد ، وراحة القَلب الذى أَجْهَدته الأَفكار ، والنَّفس التى تقسَّمها الإحماد إلى المساعى والإنكار ، فاطلب منهن من غَلَب عليهنَّ من حسن الشِّيم ، المترفِّعة عن القيم ، ما لا يسوءُك فى خَلَدك ، أن يكون فى وَلَدِك ، واحذر أَن تجعل لفكر بشرٍ دون بصر(٣) إليهنَّ سبيلا ، وانصب دون ذلك عذابًا وبيلا ، وارعهن من النِّساءِ العُجُز من فاقت(٤) فى الدِّيانة والأَمانة سبيله ، وقويت غَيْرتُه ونُبْله ، وخُذهنَّ بسلامة النِّيات ، والشيم السَّنيَّات ، وحسن الاسْتِرسال ، والخُلُق

---

(١) هذه العبارة واردة فى الريحانة والنفح ، ومكانها بياض بالإسكوريال .

(٢) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (وريا من) وهو تحريف .

(٣) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (نظره) .

(٤) هكذا فى الريحانة ، وفى الإسكوريال (كانت) والنفح (بانت) والأولى أرجح .

السّلسال . وحظّر(١) عليهن التّغامز والتّغاير ، والتّنافس والتّخاير ، وآسِ بينهن فى الأغراض ، والتّصامم عن الأعْراض ، والمُحاباة بالإعراض . وأقلل من مخالطتهن(٢) ، فهو أبْقَى لهمّتك ، وأسْبلُ لحُرْمتك ، ولتكن عشْرتك لهن عند الكلال والمَلال ، وضيق الاحتمال ، بكثرة الأعمال ، وعند الغضب والنّوم ، والفراغ من نَصَب اليوم . واجعل مَبيتك بينهن تَنمّ بركاتك ، وتَسْتتر حركاتك ، وأفضل من ولدت منهن إلى مسكن(٣) يُختبر فيه استقلالُها ، ويُعْتَبر بالتفرّد خلالُها . ولا تطلق لحرمة شفاعة ولا تدبيراً ، ولا تَنُطْ بها(٤) من الأمر صغيرا ولا كبيرا ، واحذر أن يظهر على خَدَمهنّ فى خروجهن عن القصور وبروزهن من أجمة الأسد الهصور زِىّ مُفارع(٥) ، ولا طيبٌ للأنوف مُسارع ، وأخصص بذلك من طعن(٦) فى السّن ، ويئِس(٧) من الإنس والجِنّ ، ومن توفّر النزوع إلى الخيرات قبله ، وقَصَر عن جمال الصورة ووُسِم بالبَلَه .

ثم لما بَلَغ إلى هذا الحدّ ، حَمِى وَطِيس استِجفاره(٨) ، وختم حِزْبه باستغفاره ، [ثم صمت مليًّا](٩) واستعاد كلاما أوّليا . ثم قال : واعلم يا أمير المؤمنين ، سدّد الله سَهْمَك لأغراض خلافته ، وعَصَمك من الزمان وآفته ، أنك فى مجلس الفصل ، ومُباشرة الفَرْع من مُلْكِك والأصل ،

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الريحانة والنفح (وحذر) .

(٢) وردت فى المخطوطين (مخالاتهن) . والتصويب من النفح .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (منزل) والمؤدى واحد .

(٤) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (بهم) .

(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى الريحانة (فارع) والنفح (بارع) .

(٦) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (صغر) والأول أرجح .

(٧) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (وليس) .

(٨) وردت فى المخطوطين (استغفاره) والتصويب من النفح .

(٩) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال والنفح . وساقطة فى الريحانة .

فى طائفةٍ من عزّ الله ، تَذُبُّ عنك حُماتها ، وتدافع عن حَوْزتك كماتها ، فاحذر أن يَعْدل بك غضبك ، عن عدلٍ تُزْرى منه ببضاعة ، أو يهجم بك رضاك على إضاعة . ولتكن قدرتك وقْفًا على الاتصاف بالعدل والإنصاف ، واحكم بالسَّويَّة ، واجنح بتدبيرك إلى حسن الرَّويَّة . وخِف أن تقعد بك أناتُك عن حزم تعيَّن ، أو تستفزُّك العجلة فى أمر لم يتَبيَّن . وأطِع الحجَّة ما توجَّهت عليك[1] ، ولا تَحْفَل بها إذا كانت إليك ، فانقيادك إليها أحسن من ظَفَرك ، والحق أجْدى من نَفْرك . ولا تردَّنَّ النصيحة فى وجه ، ولا تقابل عليها بنَجْه ، فتُمْنَعها إذا استدعيتها ، وتُحْجَب عنك إذا استَوْعيتها ، ولاتستدعها من غير أهلها، فيُشْغِبك أولو الأغراض بجهلها . واحرص[2] على أن لا يَنْقضى مجلسٌ جَلَسْته ، أو زمنٌ اختَلَسْته ، إلاَّ وقد أحْرَزْت فضيلة زائدة ، أو وثقت منه فى معادك بفائدة ، ولا يزْهدنَّك فى المال كثرته ، فتقلَّ فى نفسك أثْرَته . وقِسْ الشَّاهد بالغائب، واذكر وقوع ما لا يُحْتَسب من النوائب ، فالمال المصون أمْنَع[3] الحصون . ومن قلَّ مالُه قَصُرت آماله ، وتهاونَ بيمينه شمالُه ، والمَلِك إذا فقد خَزِينَه ، أنْحَى[4] على أهل الجِدَة الّتى تَزِينه ، وعاد[5] على رعيَّته بالإجحاف ، وعلى جبايته بالإلحاف ، وساءَ مُعتادُ عيْشه ، وصَغُر فى عيون جَيْشه ، ومنُّوا عليه بنَصره ، وأنِفُوا من الاقتِصار على قَصْره . وفى المال قُوَّة سماوية ، تَصْرف الناس لصاحبه ، وتربُط آمال أهل السِّلاح به . والمال نعمةُ الله تعالى ، فلا تجعله ذريعةً إلى خِلافه ، فتجمع بالشَّهوات بين إتْلافِك وإتلافه .

---

(١) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح (إليك) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (واعمل) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (أعظم) .

(٤) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح (أخنى) .

(٥) هذه الكلمة ساقطة فى الريحانة .

واستأنس بحسن جوارها ، واصرف فى حقوق الله بعض أطوارها ، فإن فضَل المال عن الأجَل فأجِّل ، ولم يضرّ ما تلف[١] منه بين يدى الله عزّ وجل . وما يُنفق فى سبيل الشّريعة ، وسَدّ الذريعة ، مأمول خَلِفه ، وما سواه فمُسْتَيقَنٌ[٢] تلفُه . واستخلص لحضور[٣] نواديك الغاصّة ، ومجالسك العامّة والخاصّة ، من يليق بولُوج عَتَبها ، والعُرُوج لرُتَبها . أما العاميّة[٤] فمن عَظُم عند الناس قَدْرُه ، وانشرح بالعِلم صَدْرُه ، أو ظهر يَسارُه ، وكان لله إخباتُه وإنكِساره ، ومن كان للفُتْيَا مُنتَصِبًا ، وبتاج المشُورة مُعْتَصِبًا . وأما الخاصّيّة[٥] فمن رَقّت طباعُه ، وامتدّ فيما يليق بتلك المجالس باعُه ، ومن تبَحّر فى سِيَر الحكماء ، وأخلاق الكُرماء ، ومن له فضلٌ سافرٌ ، وطبع[٦] للدّنيّة مُنافِر ، ولديه من كل ما تَسْتَتِر به الملوك عن العوام حظٌّ وافر . وصِفْ أَلْبَابهم بمحصول خيرك ، وسكّن قُلوبهم بيُمْنِ طَيْرك ، وأغْنِهم ما قَدِرتَ عن غَيْرك .

واعلم بأن مَواقع العلماء من مُلْكِك ، مواقعُ المشاعل المتألّفة ، والمصابيح المُتعلّقة ، وعلى قَدْر تَعاهُدِها[٧] تَبْذِل من الضّياء ، وتجلو بنورها صُور الأشياء ، وفرّعها[٨] لتَحْبير ما يزين مدتك ، ويُحْسن من

(١) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (غاب) .
(٢) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح (فتعين) .
(٣) واردة فى المخطوطين . وساقطة فى النفح .
(٤) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (العامة) .
(٥) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (الخاصة) .
(٦) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (رفيع) وهو تحريف .
(٧) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (تعهدك) .
(٨) مكانها بياض فى الإسكوريال .

بَعدالبِـلَى جدَّتك . وبعناية الأَواخر ،ذُكرت(١) الأَوائل(٢) ، وإذا مُحيَت(٣) المفاخر خَرِبت الدُّول . واعلم أن بقاء الذِّكر مشروط بعمارة البُلدان ، وتَخْليد الآثار الباقية(٤) فى القاصِى منها والدَّان . فاحرص على ما يُوضِّح فى الدهر سبُلَك ، ويحُوز(٥) المزيَّة لك على من قَبْلك ، وإنَّ خير الملوك من ينطق بالحجَّة ، وهو قادرٌ على القَهْر ، ويَبْذل الإنصاف فى السِّر والجَهْر ، مع التمكُّن من المال والظَّهر . ويسار الرعية جمالٌ للمُلْك وشَرَف ، وفاقَتُهم من ذلك طَرَف ، فغلِّب أَيْنَق(٦) الحالين بمحلِّك ، وأَولاهما بظَعْنك وحِلِّك . واعلم أن كرامة الجَوْر(٧) دائرة ، وكرامة العدل مُكاثرة ، والغلَبة بالخير سِيادَة ، وبالشرِّ هَوادَة(٨) .

واعلم أن حُسْن القيام بالشَّريعة ، يَحْسِم عنك نِكاية الخَوارج ، ويسمو بك إلى المَعَارج ، فإنها تَقْصِد أنواع الخِدع ، وتُورِى بتغيير البِدَع . واطلق على عدوِّك أيدى الأَقوياء من الأَكْفاء ، وأَلْسِنة اللَّفيف من الضُّعفاء ، واستَشْعِر عند نكْثه شِعار الوَفاء ، ولتكن ثقتك بالله أَكثر من [ثقتك بقوة](٩) تَجِدُها ، وكَتِيبةٍ تُنجدها . فإنَّ الإخلاص يمنحك قوىً لا تُكتَسب ، ويُهديك(١٠) مع الأَوقات نصراً لا يُحْتَسب . والتمس

(١) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (عنيت) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الريحانة والنفح (الأول) . والأولى أرجح .
(٣) مكانها بياض فى الإسكوريال .
(٤) ساقطة فى الإسكوريال .
(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى الريحانة والنفح (يحرز) .
(٦) هكذا فى الإسكوريال . وفى الريحانة (ألين) والنفح (أليق) .
(٧) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (الخوف)
(٨) هكذا وردت فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (زيادة)
(٩) هكذا وردت هذه العبارة فى النفح . ومكانها فى المخطوطين (ثقة) .
(١٠) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح والريحانة (و يمهلك) .

سَلْم(١) من سالمك ، بنَفسِ ما فى يدك . وفضْل حاصل(٢) يومك على مُنْتَظر غَدِك ، فإن أبي وَضَحت محجّتُك ، وقامت عليه للناس حُجّتُك ، فللنفوس على الباغين(٣) مَيْل ، ولها من جانبه نَيْل ، واستمد(٤) كل يوم سِيرَة من يُناويك ، واجتهد أن لا يُباريك(٥) فىخير ولا يُساويك ، وأكْذِب بالخير ما يُشَنِّعه من مَساويك ، ولا تقبل من الإطراء إلاّ ما كان فيك ، فضلٌ عن إطالته ، وجَدٌّ يُزْرى ببطالته(٦) . ولا تَلْق المذنب بحميَّتك وسبِّك ، واذكر عند حَمِيَّة(٧) الغضب ذنوبك إلى ربِّك . ولا تنس أنَّ ذَنْب(٨) المُذنب أجْلَسك مجلس الفَصْل ، وجعل من(٩) قَبْضَتِك رياش النَّصل . وتشاغل فى هُدْنة الأيام بالاستعداد ، واعلم أن التَّراخى مُنْذِرٌ بالاشْتِداد . ولا تُهْمِل عَرْض ديوانك ، واختبار أعْوانك ، وتحصين مَعاقلك وقلاعك . وعُمَّ إيالتك بحسن اضطِّلاعك . ولا تُشْغِل زمن الهدنة بلذّاتك ، فتجنى فى الشِّدة على ذاتك . ولا تُطْلق فى دولتك ألْسِنَة الكَهانة والإرجاف ، ومُطاردة الآمال العِجاف ، فإنه يبعث سوء القَوْل ، ويفتح باب الغَوْل . وحذِّر على المدرِّسين والمعلِّمين(١٠) ، والعُلماء والمُتَكلِّمين ، حمل الأحداث(١١) على الشُّكوك الخالِجة ، والزَلاَّت(١٢) الوَالِجة ، فإنه يُفْسد

---

(١) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (مسالمة) .
(٢) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (فاضل) والأولى أرجح .
(٣) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (الباغى) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (استهد) . وساقطة فى الريحانة .
(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى الريحانة والنفح (يوازيك) .
(٦) هكذا فى الإسكوريال . وفى الريحانة والنفح (على بطالة) .
(٧) هكذا فى الإسكوريال . وفى الريحانة والنفح (حركة) .
(٨) ممحوة فى الإسكوريال .
(٩) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح والريحانة (فى) .
(١٠) هكذا فى الإسكوريال والريحانة . وفى النفح (المتعلمين) .
(١١) وردت فى الإسكوريال (الأمداد) . والتصويب من الريحانة والنفح .
(١٢) هكذا فى الريحانة وفى النفح . وفى الإسكوريال (المزيات) .

طباعهم ، ويُغْرى سِباعَهم ، ويمدّ فى مخالفة الملّة باعهم . وسُدّ سُبُل الشّفاعات ، فإنها تُفْسد عليك حُسْن الاختيار ، ونفوس الخِيار . وابذِل فى الأَسرى[١] من حسن مُلْكَتك ، ما يُرضى[٢] من ملَّكك رِقابها ، وقَلّدك ثَوابها وعِقابها . وتلّق بدء نهارك بذكر الله فى ترفّعك وابْتِذالك ، واختم اليوم بمثْل ذلك . واعلم أنك مع كثرة حُجّابك ، وكثافة حِجابك، بمنزلة الظّاهر للعيون ، المُطالب بالدّيون ، لشدّة البحث عن أُمورك ، وتَعَرُّف السِّر الخفىّ بين آمِرك ومأْمُورك . فاعمل فى سرِّك ما لا تَسْتَقبح أن يكون ظاهراً ، ولا تأْنَفْ أن تكون به مُجاهراً ، واحكم بريك فى الله ونَحْتك ، وخِف من فَوْقَك يَخفْك من تَحْتك .

واعلم أنّ عدوّك من أتباعك من تَناسَيْت حُسْن قَرْضه ، أو زادَت مؤونتُه على نصِيبه منك وفَرْضه . فاصْمُت للحُجج ، وتوقّ اللُّجج ، واسْتَرب بالأَمل ، ولا يَحْمِلَنْك انتظام الأُمور على الاسْتِهانة بالعمل . ولا تُحقِّرنّ صغير الفساد ، فيأْخذ فى الاسْتِئْساد . واحْبِس الأَلسنة عن التّحالى باغتيابك ، والتّشبُّث بأَذيال ثيابك ، فإن سوءَ الطّاعة ، ينتقل من الأَعْيُن الباصرة ، [إلى الأَلْسُن القاصرة][٣]، ثم إلى الأَيدى المتناصرة. ولا تثق بنفسك فى قتال عدوٍّ ناوَأَك ، حتى تظفر بعدوٍّ غضبك وهواك . وليكن خوفك من سوءِ تدبيرك ، أكثر من عدوِّك السّاعى فى تَتْبيرك . وإذا اسْتَنْزَلت ناجماً ، أو أَمِنْت ثائراً هاجما ، فلا تقلّده البَلَد الذى فيه

---

(١) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (الأسى) وهو تحريف .
(٢) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال (يونس) والأولى أرجح .
(٣) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال والنفح وساقطة فى الريحانة .

نَجَم ، وهَمّا عارضه فيه وانسجم ، يعظُم عليك القَدْح[1] في اختيارِك ، والغضّ من إيثارك ، واحترز من كيده في حَوْزك[2] ومأمَّك ، فإنّك أكبرُ هَمّه ، وليس بأكبر هَمّك . وجَمِّل المملكة بتأمين الفَلَوات ، وتسهيل الأقوات ، وتجويد[3] ما يُتَعامل به من الصَّرف في البياعات[4] وإجراءِ العوائد مع الأيام والسّاعات ، ولا تُبْخِس عِيار قِيَم البضاعات ، ولتكن يدُك عن أموال الناس محْجُورَة ، وفي احترامها إلاّ عن الثّلاثة مأجورة : مالُ من عدا طورَه وطورُ أهله ، وتجاوُزُ[5] في الملابس والزِّينة ، وفُضُول المدينة ، يروم معارضتك بحَمْله ، ومن باطَن أعداك ، وأمِن اعتِداك ، ومن أساءَ جِوار رعيَّتك بإخْساره ، وبذل الإذاية فيهم بيمِينه ويساره . وأضرُّ ما مُنِيت به التّعادى بين عُبْدانك ، أوفى بلد من بُلدانك ، فسدَّ فيه الباب ، واسأل عن الأسباب ، وانْقِلهم بوساطة أُولى الألباب ، إلى حالة الأحْباب . ولا تطوِّق الأعلام أطواق المَنُون ، بهواجِس الظُّنون ، فهو أمر لا يقف عند حَد ، ولا ينتهى إلى عَد . واجعل ولَدَك في احْتِراسك ، [وصِدْق مَراسك][6] ، حتى لا يطمع في افْتِراسك .

ثم لما رأى الليل قد كاد ينْتَصِف ، وعمُوده يريد أن يَنْقَصف ، ومَجال الوصايا أكثر مما يَصف ، قال : يا أمير المؤمنين ، بَحْرُ السِّياسة زاخِر ، وعمر التَّمتع[7] بناديك العزيز مُسْتَأْخر ، فإن أذِنت في فنٍّ من

---

(١) هكذا وردت في الريحانة والنفح . وفي الإسكوريال (القوم) .

(٢) هكذا في الريحانة والنفح . وفي الإسكوريال (فوزك) .

(٣) هكذا في الإسكوريال والريحانة . وفي النفح (وتحديد) .

(٤) في لوحة الإسكوريال (٤٩٨) من هنا لعدة أسطر قد محيت من أواخر الأسطر كلمات عديدة. واعتمدنا في ضبط هذا الجزء على الريحانة والنفح .

(٥) هكذا في الإسكوريال . وفي الريحانة والنفح (وتخارق) .

(٦) هذه العبارة واردة في المخطوطين . وساقطة في النفح .

(٧) هكذا في المخطوطين . وفي النفح (المتمتع) .

فنون الأُنْس يَجْذِب بالمقاد ، إلى راحة الرُّقاد ، ويَعْتق النفس بقدرة ذى الجلال ، من مَلَكة الكَلال . فقال ، أما والله(١) قد استَحسَنَّا ما سرَدْت ، فشأْنك وما أردت . فاستدعى عودًا فأَصلحهُ حتى أحْمَدَه ، وأبعد فى اختياره أمده . ثم حرك فمه(٢) ، وأطال الحُسن ثَمَّه ، ثم تغنى بصوت يستدعى الإنْصات ، ويَصْدع الحَصاة ، ويستفزُّ الحليم عن وقاره ، ويسْتَوْقف الطَّيْر ، ورزْقُ بَنِيه فى مِنْقاره ، وقال :

صاح ما أعطر القبول بنمّه — أتراها أطالت البث ثمّه
هى دارُ الهوى مُنى النفس فيها — أبدَ الدهر والأَمــانى جمّه
إن يكن ما تأرَّج الجوُّ منها — واستفاد الشَّذا وإلاَّ فَمِمَّه
مَنْ بِطَرْفى بنظرة ولأَنْفِى — فى رُباها وفى ثَراها بشمّه
ذُكرَ العهد فانتفضتُ كأنّى — طَرَقَتْنِى من الملائك لمّه
وطنٌ قد نَضيتُ فيه شبابا(٣) — لم تُدَنِّس منه البُرود مَذَمّه
بِنْتُ عنه والنفس من أجل مَن — خلَّفتُه فى جَـلاله مُغتمّـه
كان حُلماً فويحُ من أَمَّل الدَّهـر — وأعمـاه جهلُـه وأصمَّـه
تـأمَّل العيش بعد أن أخْلَق الجسم — وبنيـانُه عَسير المرمَّـــه
وغَدَتْ وفـرة الشَّبيبة بالشَّيب — على رغم أنفهـا مُعْتَمَّـــه
فلقد فـاز مالكٌ جعـل الله — إلى الله قَصْـده ومأمَّـــه
من يبت من غرور دنيا بهمٍّ — يَلْدغ القلب أكثر الله همَّه

ثم أحال اللَّحن إلى لون التَّنويم ، فأخذ كل فى النُّعاس والتَّهويم ، وأطال الجسَّ(٤) فى الثَّقيل ، عاكفاً عكوف الضَّاحى فى المَقيل ،

---

(١) زائدة فى النفح .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الريحانة (بِه) . وفى النفح (بِه) .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال والنفح . وفى الريحانة (شبابى) .

(٤) هكذا فى الريحانة والنفح . وفى الإسكوريال محرفة (الجس) .

[فخاط عيون القَوْم(١) بخيوط النَّوم . وعَمَّرهم المراقد، كأنَّما أدار عليهم الفراقد(٢)] (٣) ثم انصرف ، فما علم به أحد ولا عَرَف . ولما أفاق الرشيد جدَّ فى طلبه ، فلم يُعلم بمُنْقَلبه ، فأسف للفراق ، وأمر بتخليد حِكَمه فى بُطون الأوراق . فهى إلى اليوم تُروى(٤) وتُنقل ، وتُجلى القلوب بها وتُصْقل . والحمد لله رب العالمين .

* * *

هذا ما حضرنى من المنثور والمنظوم ، وحظُّه عندى [فى الإفادة](٥) حظٌّ ضعيف ، وغرضه كما شاءَ الله سَخِيف ، لكن الله بعباده لطيف ، سبحانه لا إله إلا هو .

مولدى : فى الخامس والعشرين لرجب عام ثلاثة عشر وسبعمائة ، وكم(٦) بالحىِّ ممَّن ذكرته ، ألحق بالميت ، وبالقَبْر قد استَبْدل من البَيْت ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

* * *

قلت : هنا انتهى هذا التأليف المسمى « بالإحاطة فى تاريخ غرناطة » بالاختصار ، وتحصل منه ما أردناه من هذا المقدار ، ووهَبْناه للناظر فيه هبَةً ليست بهبة اعْتصار ، بل هى لتحصيله ذات انتصار . ولمَّا لم يمكنه أن يُعرِّف بمحْنَته ووفاته ، رأيْتُ أنا بَعْدَه أن أُعرِّف بذلك فى مُخْتَصرى هذا على مَهْيَعه ، وعادته ، فأقول(٧) :

---

(١) هذه الكلمة ساقطة فى الإسكوريال .

(٢) هكذا فى النفح وفى الإسكوريال (المراقد) مرة أخرى .

(٣) ما بين الحاصرتين ساقط فى الريحانة ومكانه فقط (فخاط العيون) .

(٤) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح (تتلى) .

(٥) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . وفى النفح (من الإجادة) .

(٦) وردت بالإسكوريال (وكان) والتصويب أرجح .

(٧) من الواضح أن ذلك من كلام مختصر « الإحاطة » وناسخها أبى جعفر البقنى .

محنته ووفاته

رأيت تعليقا بخط بعض العدول المعاصرين ، الأذكياء المحاضرين ، الأدباء المجيدين ، الظرفاء المقيدين ، وهو صاحبنا أبو عبد الله ....[١] الواد آشي حفظه الله ، طُرْفة زمان ، وحَفَظة أوان ، وهو ما نصه من تاريخ ابن خلدون .. قال :

(الخبر عن مقتل ابن الخطيب)[٢]

ولما استولى السلطان أبو العباس على البلد الجديد ، دار ملكه ، فاتح ست وسبعين ، واستقل بسلطانه ، والوزير محمد بن عثمان مستبد عليه ، وسليمان بن داود [من أعراب كبير بنى عسكر][٣] رديف له . وقد كان الشرط وقع بينه وبين السلطان ابن الأحمر ، عندما بويع بطنجة ، على نكبة ابن الخطيب وإسلامه إليه ، لما نُمى عنه أنه كان يُغرى السلطان عبد العزيز لمُلْك الأندلس . فلما زحف السلطان أبو العباس من طنجة ، ولقى الوزير أبا بكر بن غازى بساحة البلد الجديد ، فهزمه السلطان ، ولاذ منه بالحِصار ، آوى معه ابن الخطيب إلى البلد الجديد خوفاً على نفسه ، فلما استولى السلطان على البلد ، أقام أياما ، ثم أغراه سليمان بن داود بالقبض عليه ، فقبضوا عليه ، وأودعوه بالسجن ، وطيّروا بالخبر إلى السلطان ابن الأحمر . وكان سليمان بن داود شديد العداوة لابن الخطيب ، لما كان سليمان قد تابع السلطان ابن الأحمر على

---

(١) بياض بالإسكوريال . وهو أبو عبد الله محمد بن الحداد الشهير بالوادى آشى من أواخر أدباء غرناطة وكان ممن نزح الى تلمسان مع رهط من العلماء الذين أيقنوا باقتراب وقوع النكبة وسقوط غرناطة فى أيدى النصارى (راجعه كتابى نهاية الأندلس « ص ٤٩١)

(٢) نقلنا هذا العنوان من كتاب العبر .

(٣) هذه الزيادة واردة فى الإسكوريال . وساقطة فى العبر .

مشيخة الغزاة بالأندلس ، حتى أعاده الله إلى ملكه . فلما استقر له سلطانه ، أجاز إليه سليمان سفيرا ، عن عمر بن عبد الله ، ومقتضياً عهده من السلطان . فصدّه ابن الخطيب عن ذلك ، بأن تلك الرياسة إنما هى لأعياص الملك من آل عبد الحق ، لأنهم يعسوب زناتة ، فرجع آيسا ، وحقد ذلك لابن الخطيب . ثم جاور الأندلس بمحل إمارته من جبل الفتح ، فكانت تقع بينه وبين ابن الخطيب مكاتبات ينفس كل منهما لصاحبه ، بما يحفظه لما كمن فى صدورهما . وحين بلغ الخبر بالقبض على ابن الخطيب إلى السلطان ، بعث كاتبه ووزيره بعد ابن الخطيب ، وهو أبو عبد الله بن زمرك ، فقدم على السلطان أبى العباس ، وأحضر ابن الخطيب بالمشور فى مجلس الخاصة وأهل الشورى ، وعُرض عليه بعض كلمات وقعت له فى كتابه ، فعظم عليه النُّكر فيها ، فوُبِّخ ونُكِّل وامتحن بالعذاب بمشهد ذلك الملإ . ثم تل إلى محبسه ، واشتوروا فى قتله بمقتضى تلك المقالات المسجلة عليه ، وأفتى بعض الفقهاء فيه . ودس سليمان بن داود إليه لبعض الأوغاد من حاشيته بقتله ، فطرقوا السجن ليلا ، ومعهم زعانفة جاءوا فى لفيف الخدم مع سفراء السلطان ابن الأحمر ، وقتلوه خنقا فى محبسه ، وأخرجوا شلوه من الغد ، فدفن فى مقبرة باب المحروق . ثم أصبح من الغد على شافة قبره طريحاً ، وقد جمعت له أعواد ، وأضرمت عليه ناراً ، فاحترق شعره ، واسود بشره ، وأعيد إلى حفرته . وكان فى ذلك انتهاءُ محنته . وعجب الناس من هذه السفاهة التى جاء بها سليمان واعتدوها من هناته ، وعظم النكير فيها عليه ، وعلى قومه ، وأهل دولته . والله فعال لما يريد . وكان عفى الله عنه ، أيام امتحانه بالسجن ، يتوقع مصيبة الموت ، فيتجيش هواتفه بالشعر يبكى نفسه . ومما قال فى ذلك :

بَعُدنا وإن جاورتنا البيوت ... وجئنا بوعظ ونحن صُموت
وأنفـاسُنا سكَنَتْ دفعة ... كجهر الصلاة تلاه القنوت
وكنّا عِظاما فصـرنا عِظاما ... وكنا نَقُوت فها نحن قُوت
وكنا شُموس سماء العـلا ... غَرُبْن فناحت عليها البيوت
فكم جَدَّلت ذا الحُسام الظُّبا ... وذو البخت كم جدَّلته البخوت
وكم سِيق للقبر فى خرقة ... فتًى مُلئت من كُساه التخوت
فقل للعدا ذهب ابن الخطيب ... وفات ومن ذا الذى لا يفوت
فمن كان يفـرح منكم له ... فقل يفرح اليوم من لا يموت(١)

* * *

انتهى من السفر الأخير منه ، حيث عرَّف بنفسه وبشيوخه ، رحمة الله على الجميع .

قلت ، وهنا انتهى ما قصدناه ، وتم بحول الله ما أَردناه واسْتَوْفيناه واسْتَلحمناه ، وذلك بغرناطة أقالها الله وصانها ، وعَمَّر بالعلماء الأَعلام ، وصالحى الإسلام ، عُمْرانها وبتاريخ أوايل شهرربيع الاخر من عام خمسة وتسعين وثمان مائة . والحمد لله . وسلام على عباده الذين اصطفى .

* * *

الحمدلله .. من كتاب « نفاضة الجراب » لابن الخطيب المذكور رحمه الله ، الذى أَلفه بالعُدْوة بعد صَرْفه عن الأَندلس ، واستقراره بالعُدْوة بآخرة من عمره ، وقُرْب وفاته(٢). ولذلك سمّاه « نفاضة الجراب » قال فى أثنايه ما نصه :

(١) ورد هذا الفصل فى كتاب المبرج ٧ ص ٣٤١ و ٣٤٢ .

(٢) هذا القول فيما يتعلق بتأليف كتاب « نفاضة الجراب » غير صحيح . فإن الكتاب الذى ألفه ابن الخطيب فى أواخر حياته بالعدوة (المغرب) هو كتاب « إعمال الأعلام » الذى ألفه للوزير أبى بكر بن غازى القائم بالدولة عقب وفاة السلطان عبد العزيز المرينى (سنة ٧٧٤ هـ) . وإنما وضع ابن الخطيب كتاب نفاضة الجراب أثناء إقامته اولى بالمغرب ، وقت استقراره بمدينة سلا حيث أنجز قسمه الأول بين سنتى ٧٦١ و ٧٦٣ هـ ، ثم كتب قسمه الثانى بعدعودته إلى الأندلس ما بين سنتى ٧٦٣ ، و ٧٦٤ هـ . وقد تحدثنا فيما تقدم فى مقدمة المجلد الأول من كتاب الإحاطة عن هذا الكتاب و عما يوجد من مخطوطاته . فليراجع هنالك .

وإلى هذا العهد صدر عنى من النظم والنثر بحال القلْعة ، ومكان الغَمْرة ، رسايل إخوانية ، ومقطوعات أدبية ، نُثبتها إحماضا وإراحة ، لتعيد مطالع هذا جماما ، أو تهدى إليه أُنْسا . والحمد لله على البأْساء والنَّعماء

جَزتْنى غــرناطةُ بعـد ما ‌ ‌ ‌ ‌ جَلوتُ محاسنها بالجَلا
ولم تُبق جاهاً ولا حـرمةً ‌ ‌ ‌ ‌ ولم تبق مالاً ولا منـــزلا
كأنى انفردت بقتل الحسين ‌ ‌ ‌ ‌ وجرَّدت سيفى فى كَرْبِـلا
ولم أجن ذنباً سوى أننى ‌ ‌ ‌ ‌ صدعتُ بأَمداحها فى المَلا
وأنى صنعت فيهـا الغَريب ‌ ‌ ‌ ‌ فصرت الغريبَ أَجوبُ الفَلا
يميناً لقد أنكرتْ ما جرى ‌ ‌ ‌ ‌ نفوس الورى وأَبَتْـه العُـلا
وما خصَّنى زمنى بالعُقوق فـــكم من فـــاضل مُبْتَـــلا
أإن ظهرت نعمة الإلــه ‌ ‌ ‌ ‌ علىَّ فأُلْبِست منهـــا حُـلا
أإن قَرَّبتنى الملوك الكرام ‌ ‌ ‌ ‌ يُقَـلِّدُ آخـــرُها الأَوَّلا
وأن مكَّنتنى من أمرهـــا ‌ ‌ ‌ ‌ فشِمتُ السيوف وصُنْت الطَّلا
وقابلتُ بالشكر منها الصنيـع وحاشى لمثـلى أن يغفـلا
فأُقسم بالله لولا أنوفـــا ‌ ‌ ‌ ‌ لجرَّدت من مِقولى مِنْصَلا
يقدُّ الدروع ويُخلى الدموع ‌ ‌ ‌ ‌ ويُلقى على من عدا الله رَكَلا
فيترك فى الناس أمثـــاله ‌ ‌ ‌ ‌ تجدُّ على رغم أَنْفِ البِــلا
ولا خَلْق أجهلُ ممن يظن بمقدار مثـــلى أن يُجـــهَّلا
ما ركبت الدُّجـا إذ سما ‌ ‌ ‌ ‌ يقلِّد للنَّجم نصرا كلا
وكان لسانى سيفاً صقيـلاً ‌ ‌ ‌ ‌ وكانت يَراعى قَنًا ذُبَّـــلا
ولكن [ليته بصبر] جميل قضاءُ الـــذى لم يزل مُجمــلا
وحاسبتُ نفسى فيما أمــرُ ‌ ‌ ‌ ‌ فالفيته البعض فيمـا خَلا

وأسكنت نـــارى لما دَعا   وأسـكنت يـأسِى لمـا غَلا

سلام عليها وإن أخْفَرت   ذِمامى وَوَجـزت بالقَـــلا

وألبستها الأَمن سِتْراً حصيفاً   وإن هَتكت سـتْرى المُسْبَلا

ومثلى يبقى على عهــده   إذا أعرض الخِلُّ أو أقْبَلا

[هذا وقد وردت القصيدة الآتية بعد القصيدة الأُولى فى النصف الأعلى من اللوحة الختامية لمخطوط الإسكوريال (لوحة ٥٠١) دون تقديم ولا تعريف . وهى آخر ما ورد فى المخطوط] (١)

مِنْ حـاكم بى على الفـــراق   حُكْم زيادٍ على العـــراق

بيـدى وقد خُتمت يــداه   بالجور فى أنفس رقـــاق

وعاجل النَّظم بانْتِشـــــار   وصيِّر الشَّمل لافْتِـــراق

فمـن أكفٌّ عــلى خُــدود   ومن دمـوع عـلى تَـــراق

وأى حـــالٍ إلى دوام   وما سوى الله غيــرُ بـــاق

يا سايق الرَّكب إن نفسى   من لوعة البَيْن فى سِـــياق

رفقاً عــلى مُهْجـتى فإنى   قد بلَغَتْ رُوحى التَّــراق

---

(١) راجعنا السفر الثالث والأخير من كتاب « نفاضة الجراب » وهو المحفوظ بمكتبة الرباط العامة برقم 256 ك ، فلم نجد أثراً لهاتين القصيدتين اللتين هما بلا ريب من نظم ابن الخطيب ، حسبما ورد فى الفقرة التى يقول الناسخ أنه نقلهما من « نفاضة الجراب » . والواقع أن ابن الخطيب قد ذكر فى خاتمة هذا السفر الثالث من كتاب « النفاضة » . أنه يقف عند هذا الحد إلى أن تم الرحلة الحجازية التى كان ينوى القيام بها منذ أعوام طويلة ، وعندئذ يضيف إلى « نفاضة الجراب » قسماً جديداً يتحدث فيه عن مشاهداته . ولكن القدر لم يسعفه بتحقيق هذه الأمنية . ونعتقد أن هذا الشعر قد نظم على الأغلب فى وقت متأخر ، حينما لجأ ابن الخطيب إلى المغرب للمرة الثانية ، فاراً عن وطنه ، ومغاضباً لسلطانه ، ومحتمياً إلى كنف السلطان عبد العزيز المرينى . وحين تفاقمت الحوادث بعد وفاة هذا السلطان ،وشعر ابن الخطيب بدنو آخرته . وهذا ما تدل به إشارات ودلائل كثيرة ، مما ورد فى هذا النظم ، من عتب على ما لقيه ابن الخطيب من نكران الصنيعة والعقوق بالرغم مما أداه لوطنه من جلائل الخدمات ، وما يقاسيه من آلام البين والإبعاد ، وتمزق الشمل ، وهو يلتجىء فى النهاية إلى رحمة الله ، التى لا يجد معولا سواها .

وياrسول النّسيم بلّـــغ بَحـيرة الحيّ ما أُلاق

وسِقْ إلى سَمْعي حديثـا من أَرضهم طيِّب المسـاق

جرّعني البَيْن كأْسَ حُـزنٍ بَعْـدهم مُـرَّة المــذاق

فلا أُنْس سوى ادّكـارى ولا جليس اشْـتِياق

ففي غَدْوِى بهـا اصطباحي وفى رَواحي بهـا اغْتِبـاق

يا شِقَّة القلب ليت شعرى هل يصح شملٌ فى اتّسـاق

أَو يقلع الدهـر من عِـتاب أَو يُطلق الشوق من وِثـاق

طال علىّ الظـلام لمـا ضَنَّ مُحيَّـاك بالتَّـلاق

فيكذب الليـل فى ارتحـال ويَمْطُل الفجر بانْشِـقاق

ضايَقَني الدهـر فيك حتى فى مَوْقف البَيْن والفـراق

فلم يَكُنْ فيـه من سـلام ولا كـلام ولا اعتنــاق

قد عَجَـز النطق عن شُجونى قد بَلغ المـاءُ للنِّطـاق

أقسمتُ حـقًّا بخـير هـاد سَرى إلى الله بالبُـراق

لو خُيِّرت فى الوجـود نفـى ما اخترتُ بها سوى التَّـلاق

إن بَطَش الدهـر بى وأَبدى سجيَّة الغـدر والنِّفـاق

فكم هلالٍ رأيت بـدراً أفلت من ظـلمة المحـاق

يا مَنْ عـلى فَضْـله اعتمـادى يا مَنْ بأَسْبابه اعتِـلاق

إن لم تَجُد منك لى برَحْمَى ما لىَ فى الخَلْق من خِلاق

تم بحمد الله

فهارس المجلد الرابع

من كتاب الإحاطة

صفحة

فهرست التراجم

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

فهرست الرسائل والقطع النثرية

صفحة

صفحة

فهرست الشعر والشعراء [1]

(١) نورد هنا أسماء الشعراء مرتبة على حروف المعجم ، ونشير إلى شعرهم بإيراد الشطرة الأولى من البيت الأول من كل قصيدة أو مقطوعة من المنظوم .

فهرست الكتب والرسائل
التي ورد ذكرها خلال الكتاب

ب – ت

ج ــ ز

س ــ غ

ف — ك

ل — م

ن — ى

فهرست القبائل والطوائف والدول

فهرست البلدان والأماكن

ج — خ

د — ز

س — ط

ع — غ

ف — ك

فهرست الأعلام

هـ — و — ى

فهرست التصحيحات

رأينا ، وقد تم بحمد الله طبع كتاب « الإحاطة » بمجلداته الأربعة ، أن نقدم ثبتاً بالأخطاء التى أمكن الوقوف عليها فى سياق نصوصها ، ولكن ليس بطريق الحصر ، لأنه توجدبالشكل من الفتح والضم والكسر وغيرها ، أخطاء أخرى ،لم نر إثباتها لأنها ميسورة الاستدراك والضبط . وفيما يلى بيان هذه الأخطاء وتصحيحاتها :

المجلد الاول

ص	سطر	الخطأ	الصواب	ص	سطر	الخطأ	الصواب
٨٠	٣	هضبة	قلعة	٣٣٦	٤	وطرفة	وطرقة
	٤	بكر	فكر	٣٤٠	٥	الزمية	الرمية
	٤	ومصباح	وما صباح	٣٣٩	٢س	النسب	النسيب
	٥	فارق سهدا	وأورق شذا	٣٤٤	١ س	وأبرنه	وأبرته
	٥	موارد	شوارد	٣٦٤	٩	وتقبيدا	وتقييدا
	١٠	قائدة	بادية	٣٦٦	٨	فعادب	فعادت
	١٦	علمهماية	أعلمه الرماية	٣٦٧	٨	النفرى	النفزى
٨٤	١٠	سجومه	وسجومه	٣٧٣	٦ س	ابن رشد	ابن رشيد
٩٨	٤	قسصلية	قسطيليه	٣٧٥	٦	القاصى	القاضى
١٠٢	٩	فنحود	فتحوه	٣٨٣	٦، ٧، ٨	هراندة ـ المنشة	هرانده ـ المنشه
١٤٣	٤	شخذه	شحذه	٣٨٤	١	المنشة	المنشه
١٤٧	١١	ويتملط	ويتملظ	٣٩٩	١ س	منتقع	ممتقع
١٥٣	١	وفصاجة	وفصاحة	٤٠٣	٢	ثميان	ثعبان
١٦١	١	قليل	قليلا	٤٣٢	٧	همه	همة
١٨٤	١٠	ابن حمزة	ابن جمرة	٤٤٣	٨	الأشفر	الأشقر
١٩٣	٩	عبد الوالى	عبد الولى	٤٧٥	٤	ما ملك	مالك
١٩٥	١٠	الحلاسى	الخلاسى	٥١٤	٦ س	والحرم	والحزم
٢٠١	١١	ابن العمار	ابن الغماز	٥٢١	٦ س	وجنوب	جنون
٢٠٧	٣س [1]	أولينه	أوليته	٥٣١	٥	المنشة ـ هراندة	المنشه ـ هرانده
٣٠٤	٢	المتحبر	المتبحر	٥٦٢	٦	عبج	عجم
٣٢٣	٢ س	طرقها	طوقها				

(١) س : يقصد بها العد من أسفل

المجلد الثاني

ص	سطر	الخطأ	الصواب	ص	سطر	الخطأ	الصواب
٢١	٧	الفلووى	الفلودى	٣٧٧	١٠	أبت	أبث
٢٢	٨ س	المنشة	المنشه	٣٨٥	٨ س	محبر	مخبر
		هراندة	هرانده	٣٨٦	٩ س	وعيت	
٥٦	٢ س	حدها	جدها	٤٠٣	٣	المعشون	المشوق
٦٠	٨	افتحها	افتحها	٤٢٣	٧	وفهقه	وقفهه
٦٢	٢ س	واوجى	وأوحى	٤٢٥	٨	يكون	يكون
٧٥	٨	وانبث	وانبثت	٤٣٤	٨ س	المكثب	المكتب
٧٧	٨	فصل	فصل	٤٣٨	٧ س	وقواصل	وفواصل
١٢٥	٧ س	فقلب	فقلت	٤٦٢	٣ س	العبة	العيبة
١٤٣	٣ س	ربيس	رييس	٤٧٦	٥ س	مكمدا	مكدا
١٥٤	٨ س	شبى	شيبى	٤٩٢	٣	المبلغ	لبلغ
١٦٣	٧	هذان البيتان	هذين البيتين	٥٠٧	١١	اليد	البيد
١٧٧	١٠	مثة	منه	٥٣٤	٨	وباليت	وياليت
٢٠٩	٨ س	نجليه	تجليه				
٢٧٤	٥ س	الزياتى	الزيات				
٣٠٧	٧ س	نصار	نضار	٥٣٥	٤ س	والنفش	والنفث
٣٣٥	٢ س	عرف	عرف	٥٦٥	٩	تدنية	تدنيه
٣٥٩	٤	رسمث	رسمت	٥٦٧	٨	وأيت	رأيت

المجلد الثالث

ص	سطر	الخطأ	الصواب	ص	سطر	الخطأ	الصواب
١٢	٤ س	يارنج	ياريح	١٠١	٩	معروقة	معروفة
٩٧	٧	العافق	الخافق	١٢٣	٣	أهل	أهله
٩٧	١٠	من	عن	١٣١	٢ س	فازرى	فأزرى
٩٩	٣	العرام	الغرام	١٤٧	٣	تظمه	نظمه

تابع المجلد الثالث

ص	سطر	الخطأ	الصواب	ص	سطر	الخطأ	الصواب
١٥٥	٨	لفتون	لفنون	٤٥٧	٥ س	أصرب	أضرب
٢٢٩	٤ س	المجيب	المحبب	٤٦٠	٣ س	اختيار	اختبار
٢٥٥	٤	ملء انه	سلطانه	٥٠٠	٤	زيازته	زيارته
٢٥٥	٦	سلطانه	سلوانه	٥٠٢	٧	بساق	يساق
٣٥٢	٧	الخطايا	الخطابا	٥٢٦	٣	يعشرتك	بعشرتك
٣٥٥	٥ س	صضبرا	صفرا	٥٢٧	٤ س	بسعار	بشعار
٣٥٨	٦	المستشرقون	المستشرفون	٥٣١	٩	وجهوهم	وجوههم
٣٦٨	٢	الأقدار	الأقدار	٥٥٦	٤	بسى ء	يسيء
٤٢٤	٩	أوودى	أودى				

المجلد الرابع

ص	سطر	الخطأ	الصواب	ص	سطر	الخطأ	الصواب
٣٢	٥	خجحجا	حجحجا	٢١٤	٩ س	المنموث	المنعوت
٣٣	٩	الحق	الحق	٢١٥	١٠	تريه	تربة
٣٦	٦	اسم	باسم	٢٢٧	٣ س	نسير	تسير
٥٩	٧	ترمرت	تومرت	٢٥٤	٢	الحظ	الخط
٦٨	٢	سطر مكرر		٢٥٤	١ س	جمت	جمعت
٧٩	٢	اسنولى	استولى	٢٥٥	٨	نفانوا	تفانوا
٨٤	٥ س	أحم	أجم	٢٧٠	٩	الفتنة	الفتنة
١١١	٥ س	الرجاجة	الرجاحة	٢٧٧	٤	امرأ	امرأة
١١٥	٥	وحه	وجه	٣٠١	١٠	موفققين	موفقين
١٣٧	٣	وكتب	وكتبت	٣٠٧	١٠ س	يواقم	بواقم
١٤٢	٤	در	ذر	٣٣٦	٣	شق	شقى
١٤٩	٢	بن	من	٣٣٨	٦ س	عن	من
١٦٠	٥ س	وقد تبت	وقد ثبت	٣٤٤	١٠	الطان	السلطان
١٦١	٥ س	سنها والدتو	منها والدنو	٣٦١	٧ س	لمملوك	للملوك
١٦٢	٣	وينهائهم	ونهائهم	٣٦٧	٢	استحفه	استحقه
١٧٤	٨	رواة	رواه	٣٨٧	٢	حظ	خط
١٧٦	١	والفضول	والفصول	٣٨٨	١	بشالة	شالة
١٧٧	٤	والخبر	والجبر	٣٩٧	٤ س	عليئا	علينا
١٨٦	٣	الزويل	الزرويل	٤٠١	١ س	وبجمل	ويجمل
١٩٢	٦ س	استنزلهم	استنزلهم	٤٠٩	٩	النيجان	التيجان
٢٠٥	٤	الحرفة	الحرقة	٤٢٥	١	ومن شعر	ومن شعره

تابع المجلد الرابع

ص	سطر	الخطأ	الصواب	ص	سطر	الخطأ	الصواب
٤٣٠	٦	فو	فهو	٥٦٩	٧ س	وكان	وكأن
٤٣٨	٤ س	وكال	وكا	٥٧٢	٨	ومكذية	ومكذبة
٤٦٢	٣ س	تيران	نيران	٥٧٧	٢ س	فرائض	فرائص
٤٦٣	٨ س	الحصيب	الخصيب	٥٨٠	١	وأسب	وأحسب
٤٨١	٧	يوسها	بؤسها	٥٩٣	١٠	لأزاهر	الأزاهر
٤٨٨	٣	بحلقة	بحلقة	٦٠٠	٣ س	إنهاصه	إنهاضه
٥٠١	٩	المظهر	الظهر	٦٠١	١٠	والجمد	والحمد
٥٠٦	٩ س	يا مختظ	يا مختط	٦٠١	٥	يعمد	يعمد
٥١٦	٦	أكثيرها	أكسيرها	٦٠٢	٨	السائر	السامر
٥١٨	٨	يشبى	بشيبى	٦٠٤	٨	وخرص	وحوض
٥١٩		ظفزنا	ظفرنا	٦٠٤	١٠	فلئن	فلهن
٥٣٠	٣	أنصلت	اتصلت	٦١٠	٢ س	كا	كان
٥٣٥	١	نكفهم	تكفيهم	٦١٥	١	فما	فلما
٥٤٠	٢	ومسير	ومسيرة	٦٢٢	٤	تكون	يكون
٥٤٧	٢	وعيشها	وغشيها	٦٢٦	٦	وأفضل	وأفضل
٥٤٨	٣ س	قيمه	قيمة	٦٣٥	١ س	تابع	بايع
٥٥١	٧ س	المستجبر	المستبحر	٦٣٦	١	حى	مى
				٦٣٨	٢ س	قضهاء	قضاء

كمل طبع المجلد الرابع والأخير من كتاب « الإحاطة فى أخبار غرناطة » وبذلك تم طبع الكتاب كله ، وذلك بمطابع « الشركة المصرية للطباعة والنشر » بمدينة القاهرة المعزية ، وذلك فى اليوم الخامس والعشرين من شهر شوال المعظم سنة ١٣٩٨ هـ ، الموافق لليوم الثامن والعشرين

من شهر سبتمبر سنة ١٩٧٨ م .

الشركة المصرية للطباعة والنشر

رقم الايداع ٣٣٠١ / ١٩٧٨

HISTORY AND BIOGRAPHICAL DICTIONARY OF GRNDADA

entitled

AL - IHATA FI AKHBAR GHARNATA

BY

VIZIER LISAN - ud - DIN IBN ul - KHATIB

Edited with an Introduction and Notes

BY

MOHAMED ABDULLA ENAN

Author of : Moorish Empire in Spain. Age of the Almoravides and Almohades
End of the Moorish Empire in Spain. Monumentos Moros en Espana y Portugal
Life and Work of Ibn Khaldun. Life and Work of Ibn - ul - Khatib ;etc

Vol. IV

Publisher : Al-Khanghi Bookshop, Cairo

Al-Tibaa Almisriyah Co. Press
Cairo - 1978